شرح
القصيدة النونية
(الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)

الإمام العلامة
ابن قيم الجوزية

شرح العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

عبد الرحمن بن عبد العزيز آل الشيخ

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة...» [متفق عليه]

وهي: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]

ويقول الله تبارك وتعالى في الحديث الإلهي: «خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين...» [رواه مسلم] و«حنفاء» أي: مائلين عن الشرك.

فأصل خِلْقَة الخلق على التوحيد، ولكن للأسف أبت الشياطين -شياطين الإنس والجن- إلا أن تضل العباد وتجعلهم ينحرفون عن الطريق الرشيد والمنهج السديد إلى مَخبط الشرك والبدع والخرافات، فأوقعتهم في الإفراط والتفريط، وشتتهم أيما تشتيت، حتى جعلتهم يتجرؤن على الله فينفون ما أثبته الله لنفسه أو يشبهون الله بخلقه -فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

بالرغم أن الله لم يكفني بالميثاق الأول حين ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ

هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢] بل أرسل لهم الرسل تترى وعلى فترة، ففريق كذبوا وفريق أولوا، فضلوا وأضلوا بل وجاهدوا في الإضلال، وأتوا بالفلسفات والشُّبَه وكل هذا حتى يتم الضلال.

ومنهم من يُضِل بعلم وَعَمْد وهو أشر الفريقين، ومنهم من يُضِل بجهل وكلا الأمرين شر، ونعوذ بالله من الحالين.

والله لا يرضى لعباده إلا التوحيد الخالص والسير على طريق الموحدين واقتفاء آثارهم، وعدم الشطط والزيغ حيث قال لسيد الأولين الآخرين ﷺ بعد أن قص عليه قصص بعض الأنبياء السابقين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأمرنا أن نقرأ في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فلو فهم هؤلاء الذين قالوا على الله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا والذين أولوا ما أنزل الله على رسوله ﷺ لو فهموا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢]، وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

وأيضًا لو فهموا تحذيره سبحانه في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]

لو فهموا هذا كله وعقلوه لما حادوا عن كتاب الله وسنة النبي ﷺ بفهم أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

ولكن الأمر هو كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]

وسبحان الله ما أعظم شأن الله يحثنا على التوحيد وليس هو المنتفع بل نحن، ويحذرنا من الشرك وهو لا يضره بشيء بل يضر صاحبه.

ويمنن علينا بالعلم، ويمنن علينا بالتوفيق والسداد، ثم بعد هذا يجزينا بإحسانه الجزاء الأوفى فسبحانه سبحانه ما أعظم شأنه وما أكرمه وما أحلمه.

وإني والله أعجب من هؤلاء القوم الذين يفترون على الله الكذب، كيف يجرؤن على هذا بعد كل التبيان الذي بينه الله تبارك وتعالى على لسان الأنبياء والرسل، ثم بعدهم جعل في كل

خلف عدول ينفون عن الدين تأويل الغالين وانتحال المبطلين كما قال النبي ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**» [صححه العلامة الألباني في المشكاة (٢٤٨)] فالحمد لله أولًا وآخرًا.

ومن هؤلاء -نحسبه كذلك والله حسيبه- الإمام ابن القيم الذي حمل على عاتقه الرد على هؤلاء الذين افتروا على الله الكذب في أسمائه وصفاته، وتركوا الهدي وتبعوا الزيغ، حيث ألف كتابه (القصيدة النونية) التي سماها (**الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**) وهي كما قال العلماء أن فيها الانتصار والحمد لله العلي الغفار.

وأيضًا منهم -نحسبه كذلك والله حسيبه- الإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي الذي ألقى الدُّرَر على هذا المتن المبارك.

ولما كانت هذه القصيدة المباركة بإذن الله مهمة غاية في الأهمية وكذا شرحها عزمنا في مركز أهل الحديث على تصحيحهما وترتيبهما لكي تخرج في نسخة نرجوا من الله أن تكون جيدة ينتفع بها كل من أراد سبيل الحق والرشاد ومعرفة شُبَه أهل الزيغ والفساد.

فكان عملنا في أصل الكتاب على النحو التالي:

١- ضبط الكتاب بالشكل قدر المستطاع.

٢- تنسقه بما يجعله ذا منظر حسن سهل المطالعة.

٣- وضع ترجمة موجزة للمصنف.

٤- المراجعة حيث تمت على أكثر من نسخة:

منها: نسخة مخطوطة عام (١٣٠٥هـ) على يد الشيخ: عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن حسين آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وتقع في (٢٦٨ ورقة) كل ورقة (٢٤ سطر) تقريبًا، وفيه بعض الأخطاء الإملائية وخرم واحد فيما قبل نهايتها.

لكن مما هو واضح أنه تم مراجعتها من قِبَل الناسخ بعد أن تم النسخ وقد استفدنا منها ورمزنا له بـ(خ)

ومنها: نسخة مطبوعة قديمة طبعت في نهاية صفر سنة (١٣٤٤هـ) صححها الشيخ:

عبدالرحيم بن يوسف الأزهري الحنفي.

ونقع في (٢٥٧ ورقة) كل ورقة (٢٦ سطر) تقريبًا، وفيها بعض الأخطاء الإملائية وليس فيها أي خرم، ورمزنا لها بـ(ق)

وأيضًا استفدنا من غير ما نسخة أخرى رمزنا للمهم منها بـ (س).

وقد رمزنا للأصل بـ(ط)

وكان منهجنا في تصحيح أصل الكتاب هو:

* وضع ما سقط من (ط) بين معكوفين [].

* أما إن اجتمت النسخ أو كان أغلبها على لفظ وهو يوفق مكانه فإنا نثبته بدون تنويه وإلا فإنا نثبت الأصوب.

* أما إن كان ثَمَّ فرق يغير المعنى وكِلَا المعنيين محتمل فإنا نثبته.

وعلى كلٍ فإنا لم نشأ أن يزدحم الكتاب بالفروق بين النسخ، وذلك لعدم الإثقال.

هذا وما كان منَّا من توفيق فَمِنَّة من الله، وما كان من خطإ أو سهو أو نسيان فمنا ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان.

ونسأل الله العلي القدير أن يتقبل منا سبحانه إنه جواد كريم، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجزينا عليه بالإحسان الجزاء الأوفى إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصَلِّ اللهم على النبي محمد وآله وصحبه وَسَلِّم تسليمًا مباركًا إلى يوم الدين، وحشرنا اللهم معهم وأدخلنا مدخلهم من غير عذاب قبل ذلك آمين آمين آمين.

كتبه / القسم العلمي بـ(مكتب أهل الحديث)

(للصف والتحقيق والبحث العلمي)

ت/ ٠١٠٢٩٠٣٤١٩

ترجمة المؤلف صاحب النظم

-رحمه الله تعالى-

هو: العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي الفقيه المفسر النحوي الأصولي المتكلم الشهير بابن قيم الجوزية.

قال الحافظ ابن رجب في طبقات الحنابلة في ترجمته:

ولد شيخنا سنة ٦٩١ ولازم الشيخ تقي الدين بن تيمية وأخذ عنه، وتفنن في كافة علوم الإسلام، وكان عارفًا في التفسير لايجارى فيه، وبأصول الدين إليه المنتهى فيها، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك، وبالفقه والأصول والعربية وله فيه اليد الطولى، وبعلم الكلام والتصوف.

وحبس مدة لإنكار شد الرحيل إلى قبر الخليل.

وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، لم أشاهد مثله في عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الإيمان.

وليس هو بالمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله.

وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع شيخه شيخ الإسلام تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفردا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والخوض في غوامضهم وتصانيفه ممتلئة بذلك.

وحج مرات كثيرة وجاور بمكة وكان أهل مكة يتعجبون من كثرة طوافه وعبادته.

وسَمَّعت عليه قصيدته النونية في السنة وأشياء من تصانيفه غيرها.

وأخذ عنه العلم خلق كثير في حياة شيخه وإلى أن مات وانتفعوا به.

قال القاضي برهان الدين الزرعي: ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه.

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير في تاريخه نحو الذي مضى حتى قال: وبالجملة فقد كان قليل النظير بل عديم النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق

الصالحة .

وقد كانت جنازته حافلة وشهدها القضاة والاعيان والصالحون من الخاصة والعامة.

وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله تعالى. اهـ.

وكانت وفاته رحمه الله في سنة ٧٥١ من هجرة المصطفى ﷺ.

كتاب الكافية الشافية في الانتصار
للفرقة الناجية تصنيف الامام
العلم العامل الشيخ شمس الدين
محمد ابن ابي بكر بن
قيم الجوزية اسكنه
الغرف العلية
امين

صورة غلاف (خ)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين ولا قوة الا بالله
الحمد لله الذي شهدت بربوبيته جميع مخلوقاته واقرت له بالعبودية
جميع مصنوعاته وادت له الشهادة جميع الكائنات انه الله
الذي لا اله الا هو بما اودعها من لطيف صنعه وبديع اياته
وسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه
ومداد كلماته ولا اله الا الله الاحد الصمد الذي لا شريك له
في ربوبيته ولا شبيه له في افعاله ولا في صفاته ولا في
ذاته والله اكبر عدد ما احاط به علمه وجرى به قلمه ونفذ
فيه حكمه من جميع برياته ولا حول ولا قوة الا بالله تفويض
عبد لا يملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا بل هو
بالله والى الله في مبادي امره ونهايته واشهد ان لا اله
الا الله وحده لا شريك له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا والد
له ولا كفو له الذي هو كما اثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه
احد من جميع برياته واشهد ان محمدا عبده ورسوله
وامينه على وحيه وخيرته من برياته وسفيره بينه وبين
عباده وحجته على خلقه ارسله بالهدى ودين الحق بين يدي
الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا
ارسله على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ودروس
من الكتب والكفر قد اضطرمت ناره وتطايرت في الافاق
شراره وقد استوجب اهل الارض ان يحل بهم العقاب وقد
نظر الجبار تبارك وتعالى اليهم فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من
اهل الكتاب قد استند كل قوم الى ظلم ارائهم وحكموا
على الله سبحانه وتعالى بمقالاتهم الباطلة واهوائهم وليل
الكفر مد لهم ظلامه شديد قتامه وسبيل الحق عافية
اثارها مطموسة اعلامها ففلق الله سبحانه بمحمد صلى الله
عليه وسلم

صورة الورقة الأولى من (خ)

من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها
تفجيرا وقد سميتها بالكافية الشافية في الا
نتصار للفرقة الناجية وهذا وحين الشروع
في المحاكمة والله المستعان وعليه التكلان ولا
حول ولا قوة الا بالله

حكم المحبة ثابت الاركان ... ما للصدود بفسخ ذاك يدان
اني وقاضي الحسن نفذ حكمها ... فلذا اقر بذلك الخصمان
واتت شهود الوصل تشهد انه ... حق جرى في مجلس الاحسان
فتأكد الحكم العزيز فلم يجد ... نسخ الوشاة اليه من سلطان
ولذا متى حكم العذول تداعت ... الاركان منه فخر للاذقان
واتى الوشاة فصادفوا الحكم الذي ... حكموا به متيقن البطلان
ما صادف الحكم المحل ولا هو ... استوفى الشروط فصار ذا بطلان
فلذاك قاضي الحسن اثبت محضرا ... بفساد حكم الهجر والسلوان
وحكى لك الحكم المحال ونقضه ... فاسمع اذا يا من له اذنان
حكم الوشاة بغير ما برهان ... ان المحبة للصدود تدان
والله ما هذا بحكم مقسط ... اين الغرام وصد ذي هجران
شتان بين الحالتين فان عرد ... جمعا ففي الضدين يجتمعان
يا والها هانت عليه نفسه ... اذ باعها غبنا بكل هوان
اتبيع من تهواه نفسك طائعا ... بالصد والتعذيب والهجران
وجهلت اوصاف المبيع وقدره ... ام كنت ذا جهل بذي الاثمان
واها لقلب لا يفارق طيره ... الاغصان قائمة على الكثبان
ويضل يسجع فوقها ولغيره ... منها الثمار وكل قطف دان
ويضل يبكي والمواصل ضاحكا ... ويضل يشكو لو هو ذو اشكان
هذا ولو ان الجمال معلق ... بالنجم هم اليه بالطيران

لله

صورة الورقة الأولى من النظم في (خ)

واغفر ذنوبهم واصلح شأنهم ... فلأنت أهل العفو والغفران
ولك المحامد كلها حمدا كما ... يرضيك لا يفنى مدى الأزمان
ملأ السموات العلى والأرض وا ... لموجود بعد ومنتهى الإمكان
مما تشاء وراء ذلك كله ... حمدا بغير نهاية بزمان
وعلى رسولك أفضل الصلاة و ... التسليم منك وأكمل الرضوان
وعلى صحابته جميعا والألى ... تبعوهم من بعد بالإحسان

تمت الكافية الشافية نهار الأحد تاسع عشر
من رجب سنة ١٣٠٥ بقلم الفقير الفقير
بالذنب والتقصير عبد الرحمن
ابن عبد العزيز ابن
عبد الرحمن
ابن حسين آل
الشيخ محمد
ابن عبد الوهاب

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين
وصلى الله على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين ثم آمين

صورة الورقة الأخيرة من (خ)

هذه القصيدة النونية للعلامة أبي عبدالله محمد
ابن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن
القيم التي سماها
الكافية الشافية
في الانتصار
للفرقة الناجية

محل بيعه
بمكتبة السيد محمد عبدالواحد بك الطوخي
بجوار الجامع الأزهر بمصر

طبع بمطبعة التقدم العلمية بمصر
سنة ١٣٤٤ هجرية

صورة غلاف (ق)

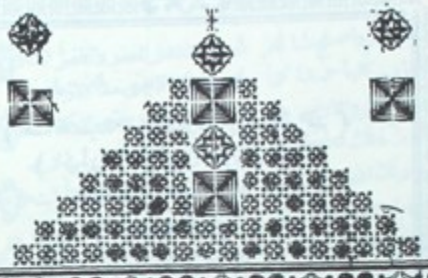

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي شهدت له بربوبيته جميع مخلوقاته وأقرت له بالعبودية جميع مصنوعاته وأدت له الشهادة جميع الكائنات انه الله الذي لا اله الا هو بما أودعها من لطيف صنعه وبديع آياته وسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ولا اله الا الله الاحد الصمد الذي لا شريك له في ربوبيته ولا شبيه له في أفعاله ولا في صفاته ولا في ذاته والله أكبر عدد ما أحاط به علمه وجرى به قلمه وتنفيذ حكمه من جميع بريته ولا حول ولا قوة الا بالله تفويض عبد لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا بل هو بالله وإلى الله في مبادي أموره ونهاياته وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا والد ولا كفؤ له الذي هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه أحد من جميع بريته وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من بريته وسفيره بينه وبين عباده وحجته على خلقه أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا أرسله على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ودروس من الكتب والكفر قد اضطرمت ناره وتطايرت في الآفاق شراره وقد استوجب أهل الارض ان يحل

صورة الورقة الأولى من (ق)

(١١)

حكم المحبة ثابت الاركان • والصدود بفسخ ذاك يدان
اني وقاضي الحسن قد حكما • فلذا أقر بذلك الخصمان
وأنت شهود الوصل تشهد أنه • حق جرى في مجلس الاحسان
فاذا كد الحكم الزبرقلم يجد • فسخ الوشاة اليه من سلطان
ولاجل ذا حكم العذول تداعت الا • ركان منه تخسر الاذقان
وأتى الوشاة فصادفوا الحكم الذي • حكموا به متيقن البطلان
ماصادف الحكم المحل ولا هوا • ستوفى الشروط فصار ذا بطلان
فلذاك قاضي الحسن أثبت محضرا • بفساد حكم الهجر والسلوان
وحكى لك الحكم المحال ونقضه • فاسمع اذا ما من له أذنان
حكم الوشاة بغير ما برهان • ان المحبة والصدود لدان
والله ماهذا بحكم مقسط • أين الغرام وصد ذوي هجران
شتان بين الخالتين فان ترد • جمعا فالضدان يجتمعان
بأوامر هانت عليه نفسه • اذباعها غبنا بكل هوان
أتبيع من تهواه نفسك طائعا • بالضد والتعذيب والهجران
أجهلت أوصاف المبيع وقدره • أم كنت ذا جهل بذي الاثمان
واها لقلب لا يفارق طيره • لا غصان قائمة على الكثبان
ويظل يسجع فوقها ولغيره • منها الثمار وكل قطف دان
وبيت يبكي والمواصل ضاحك • ويظل يشكو وهو ذو تكران
هذا ولو أن الجمال معلق • بالنجم هم اليه بالطيران
لله زائرة بليل لم تخف • عسس الاميرو رصد السجان
قطعت بلاد الشام ثم تيممت • من أرض طيبة مطلع الايمان
وأتت على وادي العقيق فجاوزت • ميقاته حلا بلا نكران
وأتت على وادي الاراك ولم يكن • قصدا لها فالا بان سرانى
وأتت على عرفات ثم محسر • ومنى فكم نحرته من قربان
وأتت على الجمرات ثم تيممت • ذات الستور وربة الاركان

صورة الورقة الأولى من النظم في (ق)

(٢٥٦)

وأقم لاهل السنة النبوية الا نصار وانصرهم بكل زمان
واجعلهم للمتقين أئمة * وارزقهم صبرا مع الايقان
تهدى بأمرك لا يعاقد أحدنوا * ودعوا اليه الناس بالعدوان
وأعزهم بالحق وانصرهم به * نصرا عزيزا أنت ذوا السلطان
وغفرذنوبهم وأصلح شأنهم * فلا أنت أهل العفو والغفران
ولك الحامد كلها حمدا كما * يرضيك لا يفنى على الازمان
ملك السموات العلى والارض والموجود بعد ومنتهى الامكان
مما تشاء وراء ذلك كله * حمدا بغير نهاية بزمان
وعلى رسولك أفضل الصلوات والتسليم منك وأكمل الرضوان
وعلى صحابته جميعا والالى * تبعوهم من بعد بالاحسان

(يقول مصححه الشيخ عبد الرحيم بن يوسف الازهرى الحنفى)

الحمد لله الذى قامت بقدرته الارض والسموات وانطقت بحمده جميع الكائنات من المخلوقات والصلاة والسلام على صاحب الدين الحنيف القويم سيدنا محمد الداعى الى الله بإذنه والهادى بأقواله وأفعاله الى الصراط المستقيم وعلى آله الهادين وأصحابه الذين شادوا الدين

أما بعد فقد تم بحمده تعالى طبع القصيدة النونيه المسماة (بالكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية) تاليف الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب المعروف بابن القيم الجوزيه الحنبلى طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه وعلى هذا الصنع الجميل جزاه

(وكان هذا الطبع اللطيف بهذا الوضع المنيف بمطبعة لقدم العلمية) لصاحبها ومديرها (السيد محمد عبد الواحد بك الطوبى) بجوار الازهر الشريف فى أواخر صفر سنة ١٣٤٥ تجريه من صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

صورة الورقة الأخيرة من (ق)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

(الشارح)

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

أما بعد: فهذا توضيح لمعاني «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» لشمس الدين ابن القيم- قدس الله روحه، لكون هذا الكتاب عديم النظير في استيفائه لأصول الدين، والرد على الجهمية والمُعطلة والمُلحدين.

بالنقول الصحيحة، والأصول السلفية، والقواعد والعقول الصريحة. وفيه من الفوائد الفرائد، وما تصح وتكمل به العقائد ما لا يوجد في كتاب سواه.

ولما كان النظم معناه بعيد المنال، ودلالته على المُعنَى المُراد يكثر فيها الاشتباه والإشكال، أحببت أن أقربه للقارئين بِحله إلَى معناه المَأثور فقط من غير زيادة على ما دل عليه، إلا إذا اقتضت الحَال الزيادة أو كان المُعنَى يتوقف عليها.

ولَم أشتغل بشرح لَمَّا كالشروح المعتادة لتيسر حل ألفاظها على الراغب من كتب اللغة العربية، لكون الشرح العادي يتقضي بسطًا وتطويلًا.

واعلم أن هذا التوضيح والتعليق على اختصاره قد حوى جَميع المَقاصد والعقائد الدينية، وحصل به التوضيح التام للكافية الشافية، حيث اختير فيه أسهل العبارات وأوضحها، فأغنى عن شرح كبير وعمل كثير، وتضمن من البراهين النقلية والعقلية والرد على أصناف المُبتدعين وسياق المَذاهب والرد عليها بأسلوب واضح.

ومتَى أردت معرفة مقداره فتأمل كل فصل من فصول الكافية، واستعن عليه بِمَا يقابله من هذا التعليق يَحصل لك المَقصود، وتحظى بالمطلوب.

واقتديت في عملي هذا بابن هشام في توضيحه لألفية ابن مالك رحمهم الله.

وأرجو الله أن يعينني على ما قصدت وينفعني وإخواني بِمَا أردت، ويجعل عملنا خالصا لوجهه، موافقا لمرضاته، وأن ينزل علينا من لطفه وتوفيقه ما تصلح به أمورنا، ويسر لنا الطريق المُوصل إلَى رحمته إنه جواد كريم.

تمهيد

(الشارح)

أما مقصود هذا الكتاب فهو معرفة الله تعالى بإثبات ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وتنزيهه عن كل نقص وعيب ومشابهة المخلوقات. وتفريع هذا الأصل العظيم وتقريره والتنبيه على أصول العقائد كلها وعلى أدلة ذلك من الكتاب والسنة والعقل والفطرة.

وتقرير توحيد العبادة وعبودية الله ومحبته وحده والإنابة له، ودفع ما يعارض هذه الأصول، والرد على المبتدعين المعارضين وذم الغافلين المعرضين، ومدح أهل السنة القائمين بهذه الأصول علمًا وعملاً وحالاً ودعوة، وبيان ما لهم عند ربهم من الكرامة بتفصيل أصناف النعيم.

ولا ريب أن هذه المواضيع الجليلة أصل العلوم كلها وأشرفها وأفرضها وأفضلها وأنفعها.

خطبة القصيدة النونية

للإمام ابن القيّم

بسم الله الرحمن الرحيم

[وبه أستعين ولا قوة إلا بالله]

الحمد لله الذي شهدت له بربوبيته جميع مخلوقاته، وأقرت له بالعبودية جميع مصنوعاته، وأدت له الشهادة جميع الكائنات أنه الله الذي لا إله إلا هو بما أودعها من لطيف صنعه وبديع آياته، وسبحان الله وبحمد عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، ولا إله إلا الله الأحد الصمد الذي لا شريك له في ربوبيته ولا شبيه له في أفعاله ولا في صفاته ولا في ذاته، والله أكبر عدد ما أحاط به علمه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه من جميع بريّاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله تفويض عبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل هو بالله وإلى الله في مبادىء أمره ونهاياته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا والد له ولا كفؤ له، الذي هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه أحد من جميع بريّاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من بريته، وسفيره بينه وبين عباده وحجته على خلقه، أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أرسله على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ودروس من الكتب، والكفر قد اظطرمت ناره وتطايرت في الآفاق شراره، وقد استوجب أهل الأرض أن يحل بهم العقاب، وقد نظر الجبار تبارك وتعالى إليهم فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب.

وقد استند كل قوم إلى ظلم آرائهم وحكموا على الله سبحانه وتعالى بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم، وليل الكفر مدلهم ظلامه شديد قتامه، وسبيل الحق عافية آثارها مطموسة أعلامها، ففلق الله سبحانه بمحمد ﷺ صبح الإيمان، فأضاء حتى ملأ الآفاق نورًا، وأطلع به شمس الرسالة في حنادس الظلم سراجًا منيرًا، فهدى الله به من الضلالة وعلم به من الجهالة، وبَصَّر به من العمى وأرشد به من الغيّ، وكَثَّر به بعد القلة، وأعَزَّ به بعد الذلة،

وأغنى به بعد العَيْلَة، واستنقذ به من الضَّلَكة، وفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، فَبَلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وكشف الغُمَّة، وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، وشرح الله له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره، وجعل الذِّلَّة والصَّغَار على من خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه فإذا ذُكِر ذُكِر معه كما في الخطب والتشهد والتأذين، فلا يصح لأحد خطبة ولا تشهد ولا أذان ولا صلاة حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين، فصلى الله عليه وملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه، كما عرفنا بالله وهدانا إليه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن الله جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبد بمعرفته ويجمع قلبه على محبته شرح صدره لقبول صفاته العلى وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول وتلقاه بالرضا والتسليم وأذعن له بالانقياد فاستنار به قلبه واتسع له صدره وامتلأ به سرورًا ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى تَعَرَّف بها إليه على لسان رسوله ﷺ، فأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد به فرحه وعظم به غناه وقويت به معرفته واطمأنت بها نفسه وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأَجَلّ ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله تعالى يُنْزِل العبد من نفسه حيث يُنْزِله العبد من نفسه، فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا وعنها نافرًا منفرًا فالله له أشد بغضًا، وعنه أعظم إعراضًا، وله أكبر مقتًا، حتى تعود القلوب إلى قلبين:

* قلب ذكر الأسماء والصفات قوته وحياته ونعيمه وقرة عينه، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك،

فلسان حاله يقول:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ويقول الآخر:

وإذا تقاضيت الفؤاد تناسيًا ألفيت أحشائي بذكراكم سماحًا

ويقول الآخر:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحيانًا فنتكس

ومن المحال أن يذكر القلب من هو محارب لصفاته نافر عن سماعها معرض بكليته عنها زاعم أن السلامة في ذلك.

كلا والله إن هو إلا الجهالة والخذلان، والإعراض عن العزيز الرحيم، فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك، وكفى بالعبد عمى وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها والنفرة والتنفير والاشتغال بما لو كان حقًّا لم ينفع إلا بعد معرفة الله والإيمان به وبصفاته وأسمائه.

* والقلب الثاني: قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود، قد قُمِّش شُبَهًا من الكلام الباطل وارتوى من ماءٍ آجن غير طائل تعج منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا، وتضج منه إلى منزلها ضجيجًا بما يسومها تحريفًا وتعطيلًا وبؤول معانيها تغييرًا وتبديلًا، وقد أعد لدفعها أنواعًا من العدد، وهيأ لردها ضروبًا من القوانين، وإذا دعي إلى تحكيمها أبى واستكبر وقال: تلك أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، قد أعَدَّ التأويل جُنَّة يترس بها من مواقع سهام السنة والقرآن، وجعل إثبات صفات ذي الجلال والإكرام تجسيمًا وتشبيهًا يصد به القلوب عن طريق العلم والإيمان، مزجي البضاعة من العلم النافع الموروث عن خاتم الرسل والأنبياء ولكنه ملء بالشكوك والشبه، والجدال والمراء، خلع عليه كلام الباطل خلعة الجهل والتجهيل، فهو يتعثر بأذيال التفكير لأهل الحديث، والتبديع لهم والتضليل، قد طاف على أبواب الآراء والمذاهب يتكفف أربابها، فانثنى بأخسر المواهب والمطالب، عدل عن

الأبواب العالية الكفيلة بنهاية المراد وغاية الإحسان، فابتلي بالوقوف على الأبواب السافلة الملآنة بالخيبة والحرمان، وقد لبس حلة منسوجة من الجهل والتقليد والشبهة والعناد، فإذا بذلت له النصيحة ودُعي إلى الحق أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد.

فما أعظم المصيبة بهذا وأمثاله على الإيمان، وما أشد الجناية به على السنة والقرآن، وما أحب جهاده بالقلب واليد واللسان إلى الرحمن، وما أثقل أجر ذلك الجهاد في الميزان، والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان، ولهذا أمر به الله -تعالى- في السور المكية حيث لا جهاد باليد إنذارًا وتعذيرًا، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلظة عليهم كونهم بين أظهُر المسلمين في المقام والمسير، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩].

فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسله وخاصته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والإتقان، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق، وكفى بالعبد عمى وخِذْلانًا أن يرى عساكر الإيمان وجنود السنة والقرآن وقد لبسوا للحرب لأمته، وأعدوا له عدته، وأخذوا مصافهم ووقفوا مواقفهم، وقد حمي الوطيس ودارت رحى الحرب واشتد القتال وتنادت الأقران النزال النزال، وهو في الملجأ والمغارات والمدّخل مع الخوالف كمين، وإذا ساعد القدر وعزم على الخروج قعد فوق التل مع الناظرين، ينظر لمن الدائرة ليكون إليهم من المتحيزين، ثم يأتيهم وهو يقسم بالله جهد أيمانه إني كنت معكم وكنت أتمنى أن تكونوا أنتم الغالبين، فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة أن لا يبيعها بأبخس الأثمان، وأن لا يعرضها غدًا بين يدي الله ورسوله لمواقف الخزي والهوان، وأن يُثبّت قدميه في صفوف أهل العلم والإيمان، وأن لا يتحيز إلى مقالة سوى ما جاء في السنة والقرآن، فكأن قد كشف الغطاء وانجلى الغبار [وأبان] عن وجوه أهل السنة مسفرة ضاحكة [مستبشرة]، وعن وجوه أهل البدعة عليها غبرة ترهقها قترة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة والضلالة.

فوالله لمفارقة أهل الأهواء، والبدع في هذه الدار أسهل من موافقتهم إذا قيل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعده الإمام أحمد رحمه الله قالوا: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: أشباههم ونظراؤهم، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [سورة التكوير ٧]، قالوا: فيجعل صاحب الحق مع نظيره في درجته، وصاحب الباطل مع نظيره في درجته، هنالك والله يعض الظالم على يديه إذا حصلت له حقيقة ما كان في هذه الدار عليه، يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

فصل

وكان من قدرة الله وقضائه أن جمع مجلس المذاكرة بين مثبت للصفات والعلو وبين معطل لذلك، فاستطعم المعطل المثبت الحديث استطعام غير جائع إليه، ولكن غرضه عرض بضاعته عليه، فقال له: ما تقول في القرآن ومسألة الاستواء؟ فقال المثبت: نقول فيها ما قاله ربنا تبارك وتعالى وما قاله نبينا ﷺ، نصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل نثبت له سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وننفي عنه النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فمن شَبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه، أو ما وصفه به رسوله تشبيهًا، فالمُشَبِّه يعبد صنمًا، والمُعَطِّل يعبد عدمًا، والمُوَحِّد يعبد إلهًا واحدًا صمدًا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والكلام في الصفات كالكلام في الذات، فكما أنا نثبت ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك نقول في صفاته أنها لا تشبه الصفات، فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلا نُشَبِّه صفات الله بصفات المخلوقين، ولا نُزيل عنه سبحانه صفة من صفاته لأجل

تشنيع المشنعين، وتلقيب المفترين، كما أنا لا نبغض أصحاب رسول الله ﷺ لتسمية الرافضة لنا نواصب، ولا نكذب بقدر الله ولا نجحد كمال مشيئته وقدرته لتسمية القدرية لنا مجبرة.

ولانجحد صفات ربنا تبارك وتعالى لتسمية الجهمية والمعتزلة لنا مجسمة مشبهة حشوية، [ورحمة الله على القائل:

فإن كان تجسيمًا ثبوت صفاته فإني بحمد الله فيما مثبت

إلى:]

فإن كان تجسيمًا ثبوت صفاته لديكم فإني اليوم عبد مجسم

ورضي الله عن الشافعي حيث يقول:

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

وقدس الله روح القائل -وهو: شيخ الإسلام ابن تيمية- إذ يقول:

إن كان نصبًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني ناصبي

فصل

وأما القرآن فإني أقول أنه كلام الله مُنَزَّل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله به صدقًا، وسمعه جبريل حقًا، وبَلَّغَه محمدًا ﷺ وحيًا، وإن ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: ١]، و﴿الٓرٰ﴾ [يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر: ١]، و﴿قٓ﴾ [ق: ١]، و﴿نٓ﴾ [القلم: ١]، عين كلام الله حقيقة، وأن الله تعالى تكلم بالقرآن العربي الذي سمعه الصحابة من رسول الله ﷺ وإن جميعه كلام الله، وليس قول البشر، ومن قال أنه قول البشر فقد كفر، والله يصليه سقر، ومن قال ليس لله بيننا في الأرض كلام فقد جحد رسالة محمد ﷺ، فإن الله بعثه يبلغ عنه كلامه، والرسول إنما يبلغ كلام مُرْسِلَه، فإذا انتفى كلام المُرْسَل انتفت رسالة الرسول، ونقول أن الله فوق سمواته مستوٍ على عرشه بائن من خلقه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وأنه تعالى إليه يصعد الكلم الطيب وتعرج الملائكة والروح إليه والله يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، وأن المسيح رفع بذاته

إلى الله وأن رسول الله ﷺ عُرِجَ به إلى الله حقيقة، وأن أرواح المؤمنين تصعد إلى الله عند الوفاة فتعرض عليه وتقف بين يديه، وأنه تعالى هو القاهر فوق عباده وهو العلي الأعلى، وأن المؤمنين والملائكة المقربين يخافون ربهم من فوقهم، وأن أيدي السائلين تُرفع إليه وحوائجهم تعرض عليه فإنه سبحانه هو العلي الأعلى بكل اعتبار، فلما سمع المعطل منه ذلك أمسك، ثم أسرّها في نفسه وخلا بشياطينه وبني جنسه وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا وأصناف المكر والاحتيال.

ورأموا أمرًا يستحمدون به إلى نظرائهم من أهل البدع والضلال، وعقدوا مجلسًا يبيتون في مساء يومه ما لا يرضاه الله من القول والله بما يعملون محيط، وأتو في مجلسهم ذلك بما قدروا عليه من الهذيان واللغظ والتخليط، ورأموا استدعاء المثبت إلى مجلسهم الذي عقدوه ليجعلوا نزله عند قدومه عليهم ما لفقوه من المكر وموهوه، فحبس الله سبحانه عنه أيديهم وألسنتهم فلم يتجاسروا عليه، ورد الله كيدهم في نحورهم فلم يصلوا بالسوء إليه، وخذلهم المطاع فمزقوا ما كتبوه من المحاضر، وقلّب الله قلوب أوليائه وجنده عليهم من كل بادٍ وحاضر، وأخرج الناس لهم من المخبآت كمائنها، ومن الجوائف والمنقلات دفائنها، وَقَوَّى الله جأش عقد المثبت وَثَبَّتَ قلبه ولسانه، وَشَيَّد بالسنة المحمدية بنيانه، فسعى إلى عقد مجلس بينه وبين خصومه عند السلطان، وحكم على نفسه كتب شيوخ القوم السالفين وأئمتهم المتقدمين، وأنه لا يستنصر من أهل مذهبه بكتاب ولا إنسان وأنه جعل بينه وبينكم أقوال من قلدتموه، ونصوص من على غيره من الأئمة قدمتوه، وصرخ المثبت بذلك بين ظهرانيهم حتى بلغه دانيهم لقاصيهم، فلم يذعنوا لذلك واستعفوا من عقده فطالبهم المثبت بواحدة من خلال ثلاث مناظرة في مجلس عام على شريطة العلم والإنصاف، تحضر فيه النصوص النبوية والآثار السلفية وكتب أئمتكم المتقدمين من أهل العلم والدين، فقيل لهم لا مراكب لكم تسابقون بها في هذا الميدان ومالكم بمقاومة فرسانه يدان فدعاهم إلى مكاتبة ما يدعون إليه، فإن كان حقًّا قبله وشكرهم عليه وإن كان غير ذلك سمعتم جواب المثبت، وتبين لكم حقيقة ما لديه، فأبوا ذلك أشد الإباء، واستعفوا غاية الاستعفاء، فدعاهم إلى القيام بين الركن والمقام قيامًا في مواقف الابتهال حاسرين الرءوس، نسأل الله أن ينزل بأسه بأهل البدع والضلال.

وظن المثبت والله أن القوم يجيبونه إلى هذا، فوطن نفسه عليه غاية التوطين، وبات يحاسب نفسه، ويعرض ما يثبته وينفيه على كلام رب العالمين، وعلى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين، ويتجرد من كل هوى يخالف الوحي المبين، ويهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين فلم يجيبوا إلى ذلك أيضًا، وأتوا من الأعذار بما دله على أن القوم ليسوا من أولي الأيدي والأبصار، فحينئذ شَمَّر المثبت عن ساق عزمه وعقد لله مجلسًا بينه وبين خصمه يشهده القريب والبعيد، ويقف على مضمونه الذكي والبليد، وجعل عقد مجلس التحكيم بين المعطل الجاحد والمثبت المرمي بالتجسيم.

وقد خاصم في هذا المجلس بالله وحاكم إليه وبريء إلى الله من كل هوى وبدعة وضلالة وتحيز إلى فئة غير رسول الله ﷺ، وما كان أصحابه عليه والله سبحانه هو المسئول أن لا يكله إلى نفسه ولا إلى شيء مما لديه، وأن يوفقه في جميع حالاته لما يحبه ويرضاه، فإن أزمة الأمور بيديه وهو يرغب إلى من يقف على هذه الحكومة أن يقوم لله قيام متجرد عن هواه قاصدًا لرضى مولاه، ثم يقرأها متفكرًا ويعيدها ويبديها متدبرًا، ثم يحكم فيها بما يرضي الله ورسوله وعباده المؤمنين، ولا يقابلها بالسب والشتم كفعل الجاهلين والمعاندين، فإن رأى حقًا قبله وشكر عليه، وإن رأى باطلًا رده على قائله وأهدى الصواب إليه، فإن الحق لله ورسوله، والقصد أن تكون كلمة السنة هي العليا جهادًا في الله وفي سبيله، والله عنده لسان كل قائل وقلبه، وهو المطلع على نيته وكسبه، وما كان أهل التعطيل أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون المؤمنون المصدقون ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة التوبة: ١٠٥].

فصل

وهذه أمثال حسان مضروبة للمعطل والمُشَبِّه والموحد، ذكرتها قبل الشروع في المقصود، فإن ضرب الأمثال مما يأنس به العقل لتقريبها المعقول من المشهود، وقد قال تعالى -وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت ٤٣]، وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثلًا، وكان بعض السلف إذا قرأ مثلًا لم يفهمه يشتد بكاؤه ويقول لست من العالمين، وسنفرد لها إن

شاء الله كتابًا مستقلًا متضمنًا لأسرارها ومعانيها وما تضمنته من كنوز العلم وحقائق الإيمان، وبالله المستعان وعليه التكلان.

المثل الأول: ثياب المعطل ملطخة بعذرة التحريف، وشرابه متغير بنجاسة التعطيل، وثياب المشبه ملطخة بدم التشبيه وشرابه متغير بدم التمثيل، والموحد طاهر الثوب والقلب والبدن، يخرج شرابه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

المثل الثاني: شجرة المعطل مغروسة على شفا جرف هار، وشجرة المشبه قد اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وشجرة الموحد أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.

المثل الثالث: شجرة المعطل شجرة الزقوم، فالحلوق السليمة لا تبلعها، وشجرة المشبه شجرة الحنظل، فالنفوس المستقيمة لا تتبعها، وشجرة الموحد طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

المثل الرابع: المعطل قد أعد قلبه لوقاية الحر والبرد كبيت العنكبوت، والمشبه قد خسف بعقله، فهو يتجلجل في أرض التشبيه إلى البهموت، وقلب الموحد يطوف حول العرش ناظرًا إلى الحي الذي لا يموت.

المثل الخامس: مصباح المعطل قد عصفت عليه أهوية التعطيل فطفيء وما أنار، ومصباح المشبه قد غرقت فتيلته في عسكر التشبيه فلا تقتبس منه الأنوار، ومصباح الموحد يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار.

المثل السادس: قلب المعطل متعلق بالعدم فهو أحقر الحقير، وقلب المشبه عابد للصنم الذي نحت بالتصوير والتقدير، والموحد قلبه متعبد لمن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

المثل السابع: نُقُود المعطل كلها زيوف فلا تروج علينا، وبضاعة المشبه كاسدة لا تنفق لدينا، وتجارة الموحد ينادي عليها يوم العرض على رءوس الأشهاد هذه بضاعتنا ردت إلينا.

المثل الثامن: المعطل كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة، والمشبه كبائع الخمر، إما أن يسكرك وإما أن ينجسك، والموحد كبائع المسك إما أن يحذيك وإما أن يبيعك

وإما أن تجد منه ريحًا طيبة.

المثل التاسع: المعطل قد تخلف عن سفينة النجاة ولم يركبها فأركه الطوفان، والمشبه قد انكسرت به في اللجة، فهو يشاهد الغرق بالعيان، والموحد قد ركب سفينة نوح، وقد صاح به الربان: اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم.

المثل العاشر: منهل المعطل كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا فرجع خاسئًا حسيرًا، ومشرب المشبه من ماء قد تغير طعمه ولونه وريحه بالنجاسة تغيرًا، ومشرب الموحد من كأس كان مزاجها كافورًا، عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا.

وقد سميتها بـ(الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)

وهذا حين الشروع في المحاكمة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله [العلي العظيم].

بسم الله الرحمن الرحيم

حُكْمُ الْمَحَبَّةِ ثَابِتُ الأَرْكَانِ ... مَا لِلصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يَدَانِ

أَنَّى وَقَاضِي الْحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَهَا ... فَلِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ الْخَصْمَانِ

وَأَتَتْ شُهُودُ الْوَصْلِ تَشْهَدُ أَنَّهُ ... حَقٌّ جَرَى فِي مَجْلِسِ الإِحْسَانِ

فَتَأَكَّدَ الْحُكْمُ الْعَزِيزُ فَلَمْ يَجِدْ ... فَسْخَ[1] الْوُشَاةِ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

وَلأَجْلِ ذَا[2] حُكْمُ الْعُدُولِ تَدَافَعَتْ أَرْكَانُهُ مِنْهُ فَحَرَّ لِلأَذْقَانِ

وَأَتَى الْوُشَاةُ فَصَادَفُوا الْحُكْمَ الَّذِي ... حَكَمُوا بِهِ مُتَيَقِّنُ الْبُطْلَانِ

مَا صَادَفَ الْحُكْمُ الْمُحَالُ وَلاَ هُوَ امْـ ... ـتَوْفَى الشُّرُوطَ فَصَارَ ذَا بُطْلاَنِ

فَلِذَاكَ قَاضِي الْحُسْنِ أَنْتَ مُحَضَّرًا ... بِفَسَادِ حُكْمِ الْهَجْرِ وَالْحِرْمَانِ

وَحَكَى لَكَ الْحُكْمَ الْمُحَالَ وَنَفَّضَهُ ... فَاسْمَعْ إِذًا يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ

---

(١) في (خ) [تجد نسخ].

(٢) في (خ) [ولذا مش].

حُكْمُ الْوِشَاةِ بِغَيْرِ مَا بُرْهَانِ ... إِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالصُّدُودَ لَدَانِ[1]

وَاللهِ مَا هَذَا بِحُكْمٍ مُقْسِطٍ ... أَيْنَ الْغَرَامُ وَصَدُّ ذِي هِجْرَانِ

شَتَّانَ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فَإِنْ تُرِدْ ... جَمْعًا فَمَا الضِّدَّانِ[2] يَجْتَمِعَانِ

يَا وَالِهًا هَامَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ... إِذْ بَاعَهَا غَبْنًا بِكُلِّ هَوَانِ

أَتَبِيعُ مَنْ لَهْوَاهُ نَفْسُكَ طَائِعًا ... بِالصَّدِّ وَالتَّعْذِيبِ وَالْهِجْرَانِ

أَجَهِلْتَ أَوْصَافَ الْمَبِيعِ وَقَدْرَهُ ... أَمْ كُنْتَ ذَا جَهْلٍ بِذِي الأَثْمَانِ

وَاهًا لِقَلْبٍ لاَ يُفَارِقُ طَيْرُهُ الـ ... أَغْصَانَ قَانِصَةً عَلَى الْكُثْبَانِ

وَيَظَلُّ يَنْجَعُ فَوْقَهَا وَلِغَيْرِهِ ... مِنْهَا الثِّمَارُ وَكُلُّ قِطْفٍ دَانٍ

وَبَيِيتُ[3] يَبْكِي وَالْمَوَاصِلُ حَاحِكٌ ... وَيَظَلُّ يَشْكُو وَهْوَ ذُو شُكْرَانِ[4]

هَذَا وَلَوْ أَنَّ الْجَمَالَ مُعَلَّقٌ ... بِالْجِسْمِ هَمُّ إِلَيْهِ بِالطَّيَرَانِ

الشرح

ذكر المُصنف -رَحِمَه الله- في أول فصل أن حكم المحبة ثابت الأركان؛ لتوفر شروطه وهي كمال المحبوب المُطلق من جميع الوجوه، وآلاؤه ونعمه المُتنوعة، وقوة المَحبة من الأنبياء والأصفياء وأتباعهم، والموانع منتفية في حق خواص الخَلق، وقيام البراهين والأدلة والشواهد على ذلك عقلاً وفطرة وذوقًا ووجدانًا، فصار هذا حكمًا ثابتًا كاملاً علميًا اعتقاديًا وجدانيًا عقليًا، وأنه لا سبيل للعذّال واللوّام الذين يريدون إبطال الحقائق الثابتة ونحو الأمور اليقينة، ولا طريق لهم إلى نقضه وإبطاله؛ لأنه تم وأبرم ونفذ، بل هو على الدوام في نمو وازدياد، لثبات أصوله، واستمرار يتابيعه وارده.

لِلَّهِ زَائِرَةٌ بِلَيْلٍ لَمْ تَخَفْ ... عَسَسَ الأَمِيرِ وَمَرْصَدَ السُّجَّانِ

---

(١) في (خ) [والصدود لدان].

(٢) في (ح) [ففي].

(٣) في (ح) [ويظل].

(٤) في (خ) [هجران].

قَطَعْتُ بِلَادَ الشَّامِ ثُمَّ لَمَشَيْتُ ... مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مَطْلَعِ الإِيمَانِ

وَأَتَيْتُ عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ فَجَاوَزَتْ ... مِيقَاتَهُ حِلاً بِلاَ نُكْرَانِ

وَأَتَيْتُ عَلَى وَادِي الأَرَاكِ وَلَمْ يَكُنْ ... قَصْدًا لَهَا فَأَلاَ[1] بِأَنْ سَتَرَانِي

وَأَتَيْتُ عَلَى عَرَفَاتٍ ثُمَّ مُحَسِّرٍ ... وَمِنًى فَكَمْ نَحَرَتْهُ مِنْ قُرْبَانِ

وَأَتَيْتُ عَلَى الْجَمَرَاتِ ثُمَّ لَمَمْتُ ... ذَاتَ السُّتُورِ وَرَبَّةَ الأَرْكَانِ

هَذَا وَمَا طُفْتُ وَلاَ اسْتَلَمْتُ وَلاَ ... رَمَتِ الْجِمَارَ وَلاَ سَعَتْ لِقِرَانِ

وَرَقَتْ إِلَى[2] أَعْلَى الصَّفَا فَيَمَّمْتُ ... دَارًا هَنَالِكَ لِلْمَحَبِّ[3] الْعَانِي

أَلْرَى الدَّلِيلَ أَغَارَهَا أَثْوَابَهُ ... وَالرِّيحُ أَعْطَتْهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وَاللهِ لَوْ أَنَّ الدَّلِيلَ مَكَانَهَا ... مَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ فِي إِمْكَانِ

هَذَا وَلَوْ سَارَتْ مَسِيرَ الرِّيحِ مَا ... وَصَلَتْ بِهِ لَيْلاً إِلَى نُعْمَانِ

سَارَتْ وَكَانَ دَلِيلُهَا فِي سَيْرِهَا ... سَعْدَ السُّعُودِ وَلَيْسَ بِالدَّبَرَانِ

وَرَدَتْ جِفَارَ الدَّمْعِ وَهْيَ غَزِيرَةٌ ... فَلِذَاكَ مَا احْتَاجَتْ وُرُودَ الضَّانِ

وَعَلَتْ عَلَى مَتْنِ الْهَوَى وَتَزَوَّدَتْ ... ذِكْرَ الْحَبِيبِ وَوَصْلَهُ الْمُتَدَانِي[4]

وَعَدَتْ بِزَوْرَتِهَا فَأَوْفَتْ بِالَّذِي ... وَعَدَتْ وَكَانَ بِمُلْتَقَى الأَجْفَانِ

لَمْ يَفْحَصِ الْمُشْتَاقُ إِلاَّ وَهْيَ ذَا ... حِلَّةَ السُّتُورِ بِغَيْرِ مَا اسْتِئْذَانِ

قَالَتْ وَقَدْ كَشَفَتْ نِقَابَ الْحُسْنِ مَا ... بِالصَّبْرِ لِي عَنْ أَنْ أَرَاكَ بِدَانِ

وَلَحَدَّثَتْ عِنْدِي حَدِيثًا خِلْتُهُ ... صِدْقًا وَقَدْ كَذَبَتْ بِهِ الْعَيْنَانِ

فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ مِنْ فَرَحِي بِهِ ... طَمَعًا وَلَكِنَّ الْمَنَامَ دَهَانِي

الشرح

ثُمَّ إن المُؤلف -رحمه الله- شبب تشبيبًا خياليًا بالمحبوبة، كعادة الشعراء يشبون بأعل

(١) في (خ) [إلا].

(٢) في (خ، ن) [على].

(٣) في (خ) [للمحب].

(٤) في (خ، س) [متن بدل مين]، وفي (خ) [ووصلة البدان].

محبوباتهم، ثُمَّ ينتقلون منها إلى الأغراض الَّتي يقصدونها في غاية اللطف والخفاء، فيقع ذلك من الحُسن في أعلى المراتب وأعذب المشارب فإن كان غرضهم مدحًا انتقلوا إليه من ذلك المحبوب الموصوف بالصفات الَّتي يذكرونها، فيكون معنى ذلك ومضمونه أن الغرض المُنتقل إليه أعلى عندهم وأشرف من المُنتقل إليه.

وإن كان الغرض الذي يريدونه ذمًا وقدحًا وتخلصوا إليه من وصف ذلك المحبوب كان ذلك المُنتقل إليه فيه من القبح والقدح والذم أبلغ وأعظم ممَّا في هجر المحبوب وصده الذي هو أكره شيء للمحبين؛ فلذلك سلك المؤلف هذا المسلك، فإنه لما شبب بمحبوبته الخيالية وذكر أوصافها وشدة تعلقه بها وأنه لا زال يتمنى وصلها يقظة ومنامًا وأن محبوبته فاجأته بوصلها بعدما وعدته وصدقت في موعدها وأن هذا اللقاء إنَّما هو في المنام أو تخيل في الوهم، فلما حصل له ذلك اللقاء الذي هو أعلى عنده من روحه اندهش وهام بحديثها الشافي للسقام فقال لها في تلك الحالة:

إنْ كُنْتِ كاذِبَةَ الَّذي حَدَّثْتِني ... فَعَلَيْكِ إثْمُ الكاذِبِ الفَنَّانِ

جَهْمُ بْنُ صَفْوانٍ وَشِيعَةُ الأُلَى ... جَحَدُوا صِفاتِ الخالِقِ الدَّيَّانِ

بَلْ عَطَّلُوا مِنْهُ السَّمَواتِ العُلَى ... وَالعَرْشَ أخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَنَفَوْا كَلامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَقَضَوْا لَهُ بِالخَلْقِ وَالحِدْثانِ

قالُوا وَلَيْسَ لِرَبِّنا سَمْعٌ وَلا ... بَصَرٌ وَلا وَجْهٌ فَكَيْفَ يَدانِ

وَكَذاكَ لَيْسَ لِرَبِّنا مِنْ قُدْرَةٍ ... وَإرادَةٍ أوْ رَحْمَةٍ وَحَنانِ

كَلاَّ وَلا وَصْفٌ يَقُومُ بِهِ سِوَى ... ذاتٍ مُجَرَّدَةٍ بِغَيْرِ مَعانِ

وَحَياتُهُ هِيَ نَفْسُهُ وَكَلامُهُ ... هُوَ غَيْرُهُ فَاعْجَبْ لِذا الهُذَيانِ

وَكَذاكَ قالُوا ما لَهُ مِنْ خَلْقِهِ ... أحَدٌ يَكُونُ خَلِيلَهُ الفَنَّانِ

وَخَلِيلُهُ المُحْتاجُ عِنْدَهُمُ وَلِي ... ذا الوَصْفِ يَدْخُلُ عابِدُ الأوْثانِ

فَالكُلُّ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ لِذاتِهِ ... فِي أسْرِ قَبْضَتِهِ ذَلِيلٌ عانِ

وَلأجْلِ ذا ضَحَّى بِجَعْدٍ خالِدُ الْـ ... ـقَسْرِي يَوْمَ ذَبائِحِ القُرْبانِ

إذْ قالَ إبْراهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلا مُوسَى الكَلِيمَ الدَّانِ

شكر الضحية كل صاحب سنة لله دره من أخي قربان

الشرح

وهو جهم بن صفوان وشيعته، ثُمَّ جعل يذكر مذهب الجهمية المنتسبين إلى جهم بن صفوان، فوقع هذا التخلص في نهاية الحسن. فلله دره ما أبلغه، وما أشد شكيمته في الحق. وكان الجهم بن صفوان معروفًا بين الأمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة أعظمها وأطمها نفي صفات الله الَّتي تواترت في الكتاب والسنة واتفق عليها جميع سلف الأمة، إلا هؤلاء المُبتدعة ومن سلك سبيلهم؛ فإنَّهم زعموا أن الله معطل عن صفات الكمال، وأنه ليس على العرش رب يعبد، وأن حظ العرش منه كحظ الأرض السابعة السفلي، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

وكذلك قالوا: أنه ليس له سمع ولا بصر ولا قدرة ولا إرادة ولا رحمة ولا وجه ولا يدان ولا له صفة تقوم به، وإنَّما هو على قولهم: ذات مجردة عن الأوصاف خالية من المعاني والنعوت، فأثبتوا الأسماء ونفوا ما دلت عليه الصفات.

وهذا مُجرد تصوره كاف في رده وإبطاله، ويعلم به مُخالفته للسمع والعقل كما سيأتي شرح ذلك، وزعموا مع هذا أنه ليس له خليل من خلقه فنفوا محبة الله وخلته لمن اصطفاه من عباده، وزعموا أنه لَمْ يتخذ إبراهيم خليلاً ولا كلم موسى تكليمًا، فأنكروا صريح الكتاب والسنة، وفسروا معنى خليل الله بأنه الفقير إلى الله، ومعلوم أن هذا التفسير باطل؛ فإنه يدخل فيه الأبرار والفجار أهل الجنة وأهل النار فكلهم مفتقرون إلى الله ليس لأحد غني عنه طرفه عين. فلزم من هذا مساواة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في الخلة لكل أحد، وهذا من أبطل الباطل.

ولما كان هذا القائل متقررًا قبحه وبطلانه عند سلف الأمة وأئمتها وأمرائها وعامتها، وأظهر الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان هذا القول، طلبه ولاة أمر المسلمين، فأخذه خالد بن عبد الله القسري أحد أمراء بني أمية على العراق فأوثقه وخرج به للمصلى يوم عيد الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم

أن الله لَمْ يتخذ إبراهيم خليلاً، ولا كلم موسى تكليمًا تعالَى الله عن قوله. ثُمَّ نزل فذبحه بالمصلى[1]. فشكر الناس له هذا الفعل بشيخ الجَهمية.

فصل

وَالْعَبْدُ عِنْدَهُمُ فَلَيْسَ بِفَاعِلٍ ... بَلْ فِعْلُهُ كَتَحَرُّكِ الرَّجَفَانِ
وَهُبُوبُ رِيحٍ أَوْ تَحَرُّكُ نَائِمٍ ... وَتَحَرُّكُ الأَشْجَارِ لِلسَّكَرَانِ
وَاللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِهِ عَلَى ... أَفْعَالِهِ حَرَجٌ أَلِيمٌ الآنِ
لَكِنْ[2] يُعَاقِبُ عَلَى أَفْعَالِهِ ... فِيهِ تَعَالَى اللهُ ذُو الإِحْسَانِ
وَالظُّلْمُ عِنْدَهُمُ الْمُحَالُ لِذَاتِهِ ... أَنَّى يَنَالُ عَنْهُ ذُو السُّلْطَانِ
وَيَكُونُ مَدْحًا ذَلِكَ التَّنْزِيهُ مَا ... هَذَا بِمَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

الشرح

ثُمَّ شم المُؤلف مقالات الجَهمية في هذه الفصول المُتوالية، فذكر أن مذهبهم في باب القضاء والقدر وأفعال العباد «الجَبر»، وأن العبد عندهم مجبور ومقهور على أفعاله كلها خيرها وشرها، وأنه ليس بفاعل حقيقة، وأن فعله بغير اختياره بمنزلة هبوب الرياح وتحرك الأشجار وحركة المرتعش والنائم ونحوهم ممَّن حركاتهم بغير اختيارهم، وهذا باطل شرعًا وعقلاً؛ فإنه من المعلوم عقلاً وحسًا الفرق بين الحَركة الاختيارية الواقعة بقدرة العبد وإرادته، والحَركة القسرية الَّتي لا إرادة له فيها ولا اختيار، والشارع أضاف الأعمال خيرها وشرها للعباد، وأخبر بوقوعها بقدرتهم ومشيئتهم وأن لهم الاختيار في الفعل والترك، وهؤلاء الجبرية سووا بين النوعين ظنًا منهم أن هذا مدلول القضاء والقدر، وأنه كيف يقضي عليهم ما يعاقبهم عليه، وهذا من أقبح الأغلاط وأشنعها؛ فإن القضاء والقدر لا ينافي أن العباد هم العاملون لأعمالهم، فإنه تعالَى خالق كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، وأفعال العباد تقع

---

(١) هو فصل لا تحت» للشيخ منه.
(٢) في (ب) و(ر): [لكن].

بقدرتهم وإرادتهم الَّتي خلقها الله فيهم، وأعطاهم الاختيار في ترجيح ما يَختارون، وخالق السبب التام خالق للمسبب وأيضًا فإنه يعاقبهم على كفرهم ومعاصيهم وهو الحُكم العدل، فكيف يعاقبهم على ما ليس من فعلهم؟ هذا من أنكر المُنكر وأبطل الباطل.

وعند هؤلاء الجَبرية الظلم مُحال عندهم لا يتصور وقوعه، فانظر كيف قادهم هذا الأصل الخَبيث، إلَى إبطال الأمر والنهي والجَزاء بالعدل وإقامة المعذرة لكل ظالم ومُجرم، فالظلم الذي نزه الله عنه نفسه وتراجع به أنه لا يعذب أحدًا بغير ذنبه ولا يهضمه من حسناته شيئًا لا يزيد في سيئاته ما لَمْ يعمله، فهو تعالَى قادر عليه ولكن لكمال عدله وحمده حرمه على نفسه وأخبر بنفيه عنه في مواضع كثيرة في القرآن.

فصل

وَكَذَاكَ قَالُوا مَا لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ ... هِيَ غَايَةٌ لِلأَمْرِ وَالإِتْقَانِ

مَا ثَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ ... مَثَلاً عَلَى مَثَلٍ بِلا رُجْحَانِ

هَذَا وَمَا تِلْكَ الْمَشِيئَةُ وَصْفُهُ ... بَلْ ذَاتُهُ أَوْ فِعْلُهُ قَوْلاَنِ

وَكَلاَمُهُ مُذْ كَانَ غَيْرًا كَانَ مَخْـ ... ـلُوقًا لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ

الشرح

ثُمَّ ذكر في الفصل الذي بعد هذا أن الجَهمية كما نفوا صفاته فإنَّهم نفوا حكمته في خلقه وأمره وما أحتوت المَخلوقات والشرائع عليه من الحُكمة، وما توصل إليه من الغايات الحَميدة المُرادة لله في شرعه وخلقه، كما دل على ذلك اسمه الحَكيم واخباراته الصادقة، وما هي موجودة عليه في نفس الأمر، واتفق على ذلك الصحابة والسلف الصالح وأئمة الدين على أن حكمة وصفه العظيم القائم به الناشيء عنه وقوع الأشياء في أحسن صنع وأكمل نظام، وإحكام أحكامه بالحكمة الَّتي صارت بِها أحسن الأحكام، وفسروا الحُكمة بأنها وضع الأشياء في مواضعها وتنزيلها منازلها اللائقة، فنفى الجَهمية ذلك كله: فلم يثبتوا لله حكمة حقيقة، بل جعلوا حكمته نفس مشيته، وزعموا أنه يَجمع بين المُختلفات بأوصافها ويفرق

بين المُتماثلات، فيرجح مثلا على مثل بلا مرجح، ومع ذلك فهذه الحكمة الَّتي يثبتونها على هذا الوجه المُنحرف ليست عندهم صفة قائمة بالله، بل يفسرونها إما بأنها ترجع إلى مُجرد الذات العارية عن الصفات، أو أنَّها راجعة إلى المُفعولات، كما قالوا ذلك في كلامه؛ إذ زعموا أنه مَخلوق خلقه في بعض الأجسام كسائر المُخلوقات؛ لأن كلامه على أصلهم غيره، وما كان غيره كان مغايرًا له مَخلوقًا، وهذا معلوم البطلان، فإن صفات الله الَّتي من جملتها الكلام داخلة في مسمى ذاته، فهو الله الموصوف بجميع صفاته، وهو بأسمائه وصفاته الخالق وما سواه مَخلوق، وسيأتي -إن شاء الله- الكلام في الغيرية هل تطلق على الصفات أم لا وما في ذلك من التفصيل.

قَالُوا وَإِقْرَارُ الْعِبَادِ بِأَنَّهُ ... خَلَّاقُهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الإِيمَانِ
وَالنَّاسُ فِي الإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الأَسْنَانِ
فَاسْأَلْ أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ وَمَنْ ... وَالاهُمُ مِنْ عَابِدِي الأَوْثَانِ
وَسَلِ الْيَهُودَ وَكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ ... عَبَدَ الْمَسِيحَ مُقَبِّلَ الصُّلْبَانِ
وَاسْأَلْ ثَمُودَ وَعَادَ بَلْ سَلْ قَبْلَهُمْ ... أَعْدَاءَ نُوحٍ أَمَّةَ الطُّوفَانِ
وَاسْأَلْ أَبَا الْجِنِّ اللَّعِينَ أَتَعْرِفُ الْـ ... ـخَلَّاقَ أَمْ أَصْبَحْتَ ذَا نُكْرَانِ
وَاسْأَلْ شِرَارَ الْخَلْقِ أَعْنِي[1] أُمَّةً ... لُوطِيَّةً هُمُ نَاكِحُو الذُّكْرَانِ
وَاسْأَلْ كَذَاكَ إِمَامَ كُلِّ مُعَطِّلٍ ... فِرْعَوْنَ مَعْ قَارُونَ مَعْ هَامَانِ
هَلْ كَانَ فِيهِمْ مُنْكِرٌ لِلْخَالِقِ الرَّ ... بِّ الْعَظِيمِ مُكَوِّنِ الأَكْوَانِ
فَلْيُبْشِرُوا مَا[2] فِيهِمُ مِنْ كَافِرٍ ... هُمْ عِنْدَ جَهْمٍ كَامِلُو الإِيمَانِ

الشرح

ومن مقالة الجَهمية الَّتي لَمْ يسبقهم إليها أحد من سلف الأمة وأئمتها كلامهم في تفسير الإيمان، حيث زعموا أن الإيمان هو إقرار العبد بأن الله خلقه ودبره فقط، وأما أعمال

---

(١) كذا في (ح، س)، وفي (ط، ق) [أغلى].
(٢) في (خ) [سلهم فماذا].

القلوب من محبة الله وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه فإنها لا تدخل في الإيمان عندهم، وكذلك عندهم أعمال الجوارح وأقوال اللسان غير داخلة في مسمى الإيمان عندهم، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف من دخول جميع المذكورات في الإيمان، وأنه اسم لعقائد القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح، وأن الناس فيه متفاوتون جدًا بحسب ما قاموا به من أمور الإيمان، وعند الجهمية إيمان أصلح الناس وأكملهم إيمانًا كإيمان أفسقهم وأنقصهم إيمانًا، فكلهم في الإيمان على حد سواء عندهم فمن لوازم هذا القول الفاسد المعلوم فساده بالضرورة أن إبليس وفرعون وقارون وقوم عاد وثمود وقوم نوح ونحوهم وإيمان أبي جهل وأبي لهب ونحوهما من أئمة الكفر وسائر الكفرة الذين يعرفون أن الله خلقهم ليسوا كفارًا، وهذا اللازم لهذا القول الباطل معلوم عند كل أحد أنه باطل منكر، حتى عند هؤلاء الجهمية ينفون الإيمان عن هؤلاء ويتولون كل من حكم الشارع بكفره فإنه دليل على أنه ليس في قلوبهم شيء من الاعتراف بالله وإنما هم جاهلون بربهم غير مقرين بربوبيته وهذا من أبطل الباطل، وهو نوع المكابرة والسفسطة؛ لما صرح به الكتاب والسنة من اعترافهم بربوبية الله وخلقه، ولما هو معلوم من احوالهم.

فقول المؤلف: «هم عند جهم كاملو الإيمان» أي هذا لازم قوله، وإلا فلو قال ذلك وصرح به لكان كفره ظاهرا لكل أحد ولكن يستدل بفساد اللازم على فساد الملزوم.

وأما الإيمان الشرعي عند السلف فإنه شامل للعقائد الدينية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وفي هذا من النصوص ما لا يعد ولا يحصى، ويترتب على هذا أن الإيمان يزيد بزيادة هذه الأمور وينقص بنقصها، وأن المؤمن الفاسق ناقص الإيمان، فهو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من المعاصي، تتجاذبه أوصاف الخير والشر، وله من الثواب وعليه من العقاب بحسب ما قام به واتصف به من أمور الإيمان، وهذا كما أنه القول الذي أجمع عليه السلف الصالح مستندين فيه إلى نصوص الكتاب والسنة فإنه القول الموافق للعقل وللفطرة التي فطر الله عليها عباده.

فصل

وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعَطِّلاً ... وَالْفِعْلُ مُمْتَنِعٌ بِلاَ إِمْكَانِ[1]

ثُمَّ[2] اسْتَحَالَ وَصَارَ مَقْدُورًا لَهُ ... مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ قَامَ بِالدَّيَّانِ

بَلْ حَالُهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَاتِهِ ... قَبْلَ الْحُدُوثِ وَبَعْدَهَا سِيَّانِ

وَقَضَى بِأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ وَلاَ ... جَنَّاتُ[3] عَدْنٍ بَلْ هُمَا عَدَمَانِ

فَإِذَا هُمَا خُلِقَا لِيَوْمٍ مَعَادِنَا ... فَهُمَا عَلَى الأَوْقَاتِ فَانِيَتَانِ

وَتَلَطَّفَ الْغَلاَّفُ مِنْ أَتْبَاعِهِ ... فَأَتَى بِضَحْكَةِ جَاهِلٍ مَجَّانِ

قَالَ الْفَنَاءُ يَكُونُ فِي الْحَرَكَاتِ لاَ ... فِي الذَّاتِ وَاعَجَبًا لِهَذَا الْهَذَيَانِ

أَبْصِرْ أَهْلَ الْخُلْدِ فِي جَنَّاتِهِمْ ... وَجَحِيمِهِمْ كَحِجَارَةِ الْبُنْيَانِ

مَا حَالُ مَنْ قَدْ كَانَ يَفْنَى أَهْلَهُ ... عِنْدَ الْفَنَاءِ تَحَرُّكُ الْحَيَوَانِ

وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي رَفَعَتْ يَدَا ... هُ أَكْلَةً مِنْ صَفْحَةٍ وَحِوَانِ

فَنَاهَتِ الْحَرَكَاتُ قَبْلَ وُصُولِهَا ... لِلْفَمِّ عِنْدَ لَفَتْحِ الأَسْنَانِ

وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي امْتَدَّتْ يَدٌ ... مِنْهُ إِلَى قَوْسٍ مِنَ الْقُنْوَانِ

فَنَاهَتِ الْحَرَكَاتُ قَبْلَ الأَخْذِ هَلْ ... يَبْقَى كَذَلِكَ سَائِرَ الأَزْمَانِ

تُبًّا لِهَا تِلْكَ الْعُقُولِ فَإِنَّهَا ... وَاللهِ قَدْ مُسِخَتْ عَلَى الأَبْدَانِ

تُبًّا لِمَنْ أَضْحَى يُقَدِّمُهَا عَلَى الْـ ... آثَارِ وَالأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

الشرح

ثُمَّ ذكر المؤلف في الفصل بعده أن الجَهمية ومن تبعهم أن مذهبهم في أفعال الله الاختيارية المتعلقة بمشيته وقدرته من أفسد المذاهب وأبعدها عن الصواب، فإنهم زعموا أن الله كان في الأزل معطلاً عن أفعاله وأنه يمتنع عليه الفعل غاية الامتناع، ثُمَّ بعد هذا الامتناع

(١) في (ح) [تكران].
(٢) في (س) [وقد].
(٣) في (ق) [جنان].

استحال الأمر فصار قادرًا على الفعل من غير أن تحدث له صفة فوجب حدوث فعله وانقلاب الممتنع ممكنًا.

بل إن حاله قبل ذلك ومعه وبعده على حد سواء، والذي قادهم إلى هذا القول الباطل نفيهم للتسلسل في أفعال الله زعمًا منهم أن إثبات التسلسل ودوام فاعلية الرب يقتضي قدم المخلوقات، وأنه لا يُمكنهم إثبات حدوثها إلا بهذا الأصل الذي أصلوه وخالفوا به الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

وطردوا أصلهم هذا فقالوا: كما أن التسلسل منفي في الماضي فهو منفي في المستقبل، فإن أفعال الله على قولهم تعدم في المستقبل كما كانت معدومة عندهم في الماضي، فتفنى الجنة والنار وأهلهما وما فيهما من النعيم والعذاب.

وزعم أبو الهذيل العلاف المعتزلي أن الفناء يكون في الحركات لا في الذات، وأن أهل الجنة والنار سيأتي عليهم زمان تنقطع فيه حركاتهم ويبقون جمادات في سكون أبدًا، والنار وأهلها كذلك، وهذا مع مخالفته للكتاب والسنة والإجماع مما يضحك السفهاء، فلذلك صور المصنف قوله هذا، فإنه بمجرد تصوره يكفي الإنسان معرفة بسخافته وهجنته، فإنه على قول أبي الهذيل وأتباعه من المعتزلة إذا جاء ذلك الوقت الذي ينقطع فيه فعل الله أن أهل الجنة وأهل النار يكونون فيها كالحجارة والصور، وأن من صادفه ذلك الزمان وقد امتدت يده إلى ثمرة في الجنة يسكن وتبقى يده ممتدة على الدوام، ومن رفع لقمة إلى فيه فأتى عليه ذلك الوقت بقيت يده مرفوعة فيها اللقمة وفمه مفتوحًا مستعدًا لتناولها، ومن كان في تلك اللحظة مواقعًا لزوجته بقيا حجرين متصلين على الدوام، وهكذا وكذا بقية الصفات. فتبا لهذه العقول والأذهان، والحمد لله على نعمة السنة والقرآن.

وأما مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة العظيمة وهي أفعال الله فهو ما دل عليه الكتاب والسنة والعقل السليم، أن الله تعالى لم يزل ولا يزال كاملاً متصفًا بجميع صفات الكمال فيما لم يزل ولا يزال ولم يزل يفعل ما يشاء، فإنه لم يزل فعالاً لما يريد، والفعل من أعظم صفات الكمال، بل لا يتأتى الكمال إلا بتنوع الأفعال، فكيف يُمكن أن يكون في وقت من الأوقات خاليًا من هذا الكمال، وهذا يقتضي أنه ما من مخلوق إلا وقبله

مخلوق، ولا مُحدث إلا وقبله حوادث صادرة عن كمال قدرة الله وإرادته، مرتبطة بحكمته.

وهذا لا يقتضي كون شيء من أعيان العالم قديمًا، بل إثبات هذا الأصل أكبر دليل على حدوث العالم، فالتسلسل الباطل الذي اتفق العقلاء على بطلانه هو التسلسل في العلل والمؤثرين، هذا هو المحال الممتنع، وأما التسلسل في الآثار فإنه ثابت بالأدلة السمعية والعقلية، لا يُمكن غيره، فالله تعالى لم يزل قادرًا على الفعل، ولم يزل يفعل ولا يزال يفعل، وأفعاله لا تنفذ ولا تبيد، والجنة والنار وأهلهما في خلود دائم ونعيم أو عذاب مستمر والله أعلم.

فصل

وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ يَجْعَلُ خَلْقَهُ ... عِنْدًا وَيَقْلِبُهُ وُجُودًا ثَانِ

الْعَرْشُ وَالْكُرْسِي وَالأَرْوَاحُ وَالْـ ... أَمْلَاكُ وَالأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

وَالأَرْضُ وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَسَائِرُ الْـ ... أَكْوَانِ مِنْ عَرَضٍ وَمِنْ جُثْمَانِ

كُلٌّ سَيَفْنِيهِ الْفَنَاءُ الْمُنْحِصُ لَا ... يُبْقِي لَهُ أَثَرًا كَظِلٍّ فَانِ

وَيُعِيدُ ذَا الْمَعْدُومَ أَيْضًا ثَانِيًا ... مَحْضُ الْوُجُودِ إِعَادَةً بِزَمَانِ

هَذَا الْمَعَادُ وَذَلِكَ الْمَبْدَا لَدَى ... جَهْمٍ وَقَدْ نَسَبُوهُ لِلْقُرْآنِ

هَذَا الَّذِي قَادَ ابْنَ سِينَا وَالأُلَى ... قَالُوا مَقَالَتَهُ إِلَى الْكُفْرَانِ

لَمْ تَقْبَلِ الأَذْهَانُ ذَا وَلَوَهَّمُوا ... أَنَّ الرَّسُولَ عَنَاهُ بِالإِيمَانِ

هَذَا كِتَابُ اللهِ أَلَى قَالَ ذَا ... أَوْ عَبْدُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَانِ

أَوْ صَحْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْ تَابِعٌ ... لَهُمُ عَلَى الإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

بَلْ صَرَّحَ الْوَحْيُ الْمُبِينُ بِأَنَّهُ ... حَقًّا مُقَدَّرٌ[1] هَذِهِ الأَكْوَانِ

فَيَدُلُّ اللهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ... وَالأَرْضُ أَيْضًا ذَاتُ[2] تَبْدِيلَانِ

وَهُمَا كَتَبْدِيلِ الْجُلُودِ لِسَاكِنِي الـ ... ـنِّيرَانِ عِنْدَ النُّضْجِ مِنْ نِيرَانِ

وَكَذَاكَ يَقْبِضُ أَرْضَهُ وَسَمَاءَهُ ... بِيَدَيْهِ مَا الْعَدَمَانِ مَقْبُوضَانِ

---

(١) في (ح) [تقدير].

(٢) في (ح، ق) [ذان].

وَتُحَدِّثُ الأَرْضُ الَّتِي كُنَّا بِهَا ... أَخْبَارَهَا فِي الْحَشْرِ لِلرَّحْمَنِ
وَتَظَلُّ تَشْهَدُ وَهْيَ عَدْلٌ بِالَّذِي ... مِنْ فَوْقِهَا قَدْ أَحْدَثَ الثَّقَلَانِ
أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّذِي هُوَ كَاسْمِهِ[1] ... لَا شَيْءَ هَذَا لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ
لَكِنْ تُسَوَّى ثُمَّ تُبْسَطُ ثُمَّ تُشْـ ... ـهَدُ ثُمَّ تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كَيَانِ
وَتُمَدُّ أَيْضًا مِثْلَ مَدِّ أَدِيمِنَا ... مِنْ غَيْرِ أَوْدِيَةٍ وَلَا كُثْبَانِ
وَتَفِيءُ يَوْمَ الْعَرْضِ مِنْ أَكْبَادِهَا ... كَالأُسْطُوَانِ نَفَائِسَ الأَثْمَانِ
كُلٌّ يَرَاهُ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِهِ ... مَا لِامْرِئٍ بِالأَخْذِ مِنْهُ يَدَانِ
وَكَذَا الْجِبَالُ تُفَتُّ فَتًّا مُحْكَمًا ... فَتَعُودُ مِثْلَ الرَّمْلِ ذِي الْكُثْبَانِ
وَتَكُونُ كَالْعِهْنِ الَّذِي أَلْوَانُهُ ... وَصِبَاغُهُ مِنْ سَائِرِ الأَلْوَانِ
وَتُبَسُّ بَسًّا مِثْلَ ذَاكَ فَتَنْثَنِي ... مِثْلَ الْهَبَاءِ لِنَاظِرِ الإِنْسَانِ
وَكَذَا الْبِحَارُ فَإِنَّهَا مَسْجُورَةٌ ... قَدْ فُجِّرَتْ تَفْجِيرَ ذِي سُلْطَانِ
وَكَذَلِكَ الْقَمَرَانِ يَأْذَنُ رَبُّنَا ... لَهُمَا فَيَجْتَمِعَانِ يَلْتَقِيَانِ
هَذِي مُكَوَّرَةٌ وَهَذَا خَاسِفٌ ... وَكِلَاهُمَا فِي النَّارِ مَطْرُوحَانِ
وَكَوَاكِبُ الأَفْلَاكِ تُنْثَرُ كُلُّهَا ... كَلَآلِئٍ نُثِرَتْ عَلَى مَيْدَانِ
وَكَذَا السَّمَاءُ تُشَقُّ شَقًّا ظَاهِرًا ... وَتَمُورُ أَيْضًا أَيَّمَا مَوَرَانِ
وَتَصِيرُ[2] بَعْدَ الإِنْشِقَاقِ كَمِثْلِ هَا ... ذَا الْمُهْلِ أَوْ تَكُ وَرْدَةً كَدِهَانِ
وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِي لَا يَفْنَيهِمَا ... أَيْضًا وَإِنَّهُمَا لَمَخْلُوقَانِ
وَالْحُورُ لَا تَفْنَى كَذَلِكَ جَنَّةُ الْـ ... ـمَأْوَى وَمَا فِيهَا مِنَ الْوِلْدَانِ
وَلِأَجْلِ هَذَا قَالَ جَهْمٌ إِنَّهَا ... عَدَمٌ وَلَمْ تُخْلَقْ إِلَى ذَا الآنِ
وَالأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ تَحْتَ الثَّرَى ... أَجْسَامُهُمْ حُفِظَتْ مِنَ الدِّيدَانِ
مَا لِلْبِلَى بِلُحُومِهِمْ وَجُسُومِهِمْ ... أَبَدًا وَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ يَدَانِ
وَكَذَاكَ عُجْبُ الظَّهْرِ لَا يَبْلَى بَلَى ... مِنْهُ تُرَكَّبُ خِلْقَةُ الإِنْسَانِ

---

(١) في (خ) [اسم له].
(٢) في (خ) [وتكون].

وكذلك الأرواح لا تبلى كما ... تبلى الجسوم ولا يبلى الجثمان

ولأجل ذلك لم يقر الجهمي ما ... أرواح عارجة عن الأبدان

لكنها من بعض أعراض بها ... قامت وذا في غاية البطلان

فالشأن للأرواح بعد فراقها ... أن ذاقها والله أعظم شان

إما عذاب أو نعيم دائم ... قد لفعت بالروح والريحان

وتصير طيرا سارحا مع شكلها ... تجني الثمار بجنة الحيوان

وتظل واردة لأنهار بها ... حتى تعود لذلك الجثمان

لكن أرواح الذين استشهدوا ... في جوف طير أخضر ريان

فلهم بذا مرية في عيشهم ... ونعيمهم للروح والأبدان

بذلوا الجسوم لربهم فأعاضهم ... أجسام تلك الطير بالإحسان

وليها قناديل إليها تنتهي ... مأوى لها كمساكن الإنسان

فالروح بعد الموت أكمل حالة ... منها بها في الدار في جثمان

وعذاب أشقاها أشد من الذي ... قد غابت أبصارنا بعيان

والقائلون بأنها عرض أبوا ... ذا كلمة تبا لذي كفران

وإذا أراد الله إخراج الورى ... بعد الممات إلى المعاد الثاني

ألقى على الأرض التي هم تحتها ... والله مقتدر وذو سلطان

مطرا عليظا أبيضا متتابعا ... عشرا وعشرا بعدها عشران

فتظل تنبت منه أجسام الورى ... ولحومهم كنبات الريحان

حتى إذا ما الأم حان ولادها ... وتمخضت فنفاسها متدان

أوحى لها رب السما فتشققت ... فدا الجنين كأكمل الشبان

وتحللت الأم الولود وأخرجت ... أقلالها أنثى وبعض ذكران

والله ينشئ خلقه في نشأة ... أخرى كما قد قال[1] في القرآن

هذا الذي جاء الكتاب وسنة الـ ... ـهادي به فاحرص على الإيمان

ما قال إن الله يعدم خلقه ... طرا كقول الجاهل الخسران

الشرح

ثُمَّ ذكر المُصنف في الفصل الذي بعد هذا مذهب الجَهمية، وقولهم في المَعاد، وأنه قول باطل؛ فإنَّهم زعموا أن الله تعالَى يعدم الخَلق عدمًا مَحضًا العالمَ العلوي والسفلي وما فيهما من المَخلوقات كما يزول الظل بالشمس، ثُمَّ يعيد هذا المعدوم ثانيًا فيكون المَعاد بعينه هو المَعنى، فقالوا هذا القول الفاسد الذي مُجرد تصوره يكفي في إبطاله ونسبوا هذا القول الباطل للقرآن والسنة، وما في الكتاب والسنة مُبطل له كما سيأتي التنبيه عليه، فلما نسبوه للإسلام ورأى الفلاسفة بطلانه ببديهة العقل، فظنوا بالإسلام الظنون السيئة، فتجرأ ابن سينا القرمطي وأتباعه مَن قال بقوله على الكفر العظيم والتكذيب بِمَا جاء به الرسول، فإن الأذهان لا تقبل هذا القول ولا تتصوره، بل تُحيله وتراه من الممتنعات. فأوجب هؤلاء المُلاحدة التمسك بِمَا هم عليه الكفر وإنكار المَعاد رأسا.

فهذا القول الذي قاله جهم في المَعاد ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قاله الصحابة والتابعون لَهم بإحسان، وإنَّما مذهب سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة: أن حقيقة المَعاد هو إعادة الله ما تفرق من أجزاء الأموات ورد ما استحال منها من عين إلَى أخرى فإنه جل جلاله لما كان واسع العلم يعلم ما تنقص الأرض منهم، ولا يَخفى عليه ما تفرق في ظلمات الأرض وقرار البحار، ولا ما استحال في الفيافي والقفار والأماكن الظاهرة والخَفية، ولا ما أحالته بطون السباع والطيور والنار، وهو مع سعة علمه كامل القدرة نافذ المَشيئة إنَّمَا أمره إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، فإنه يعيد العالمين بجميع ما فرق منهم، ورد ما استحال، فيعودون بأعيانهم، ولا يَمتنع على قدرته ردُّهم وإعادتهم من عين إلَى أخرى، وقد أرى الله عباده من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يبين لَهم أنه الحَق فأشهدهم من أعمال الكهرباء والمُخترعات الحَادثة ما يدلهم أكبر دلالة على إمكان وقع جَميع ما أخبر الله به وأخبرت به رسله من أمور الغيب والبعث والجَزاء وغيرها، فالذي أقدر المَخلوق على هذه الأعمال الباهرة ألا يدل أنه على كل شيء قدير، وأنه لا يَمتنع ولا يتعاصى

---

(١) في (ح) [قيل].

على قدرته شيء، فهذا القول الذي دلت عليه الكتب المُنزلة، وجاءت به الرسل هو الذي تقبله الأذهان وتعترف به العقول وتخضع له الألباب، وأن المُعادين بأعينهم هم الذين أماتهم الله ثُمَّ نقلهم لأطوار متنوعة ثُمَّ أعادهم بأعيانهم؛ فإن الوحي صرح بأنه يغير الأكوان وينقلها من صفة إلى أخرى لا يفنيها فناء محضًا ثُمَّ يعيدها، فأخبر أنه يبدل السماوات والأرض وهذا تبديل لصفاتها ولذاتها كما يبدل الله جلود أهل النار إذا احترقت جلودًا غيرها، فإنَّها استحالت فحمًا فيعيدها ويردها على حالتها الأولى وهكذا، وأخباره أنه يقبض السماوات والأرض بيده وهما المعروفتان، لأنهما لو كانتا فانيتين لَمْ يتصور أن يخبر أنه يقبضهما، بل يخبر أنه يقبض غيرهما.

وكذلك أخبر أن الأرض يومئذ تُحدِّث أخبارها وتشهد بِمَا عمل عليها من خير وشر، فإن كانت غيرها من كل وجه لَمْ يكن الخبر على حقيقته، وكان الذي يتحدث ويشهد غيرها، وأنه الله يسويها ويبسطها ويبدل صفتها ويكون فَمَا في ذلك اليوم أحوال متنوعة وصفات متعددة، وكذلك السماوات يَحصل فَمَا تغير في الصفات فتكون الجبال كثيبًا مهيلاً، ثُمَّ تكون كالعهن وكالهباء المُبثوث، ويَمد الله الأرض فيجعلها قاعًا صفصفًا مستويًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتُخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة كالإسطوان العظيم لا يستطيع أحد أن يأخذ منه، كل مشغول بنفسه، وكذلك تسجر البحار فتكون بحرًا واحدًا وكذلك يأذن الله للشمس والقمر فيجتمعان، فالشمس مكورة والقمر خاسف ويطرحان في النار ليعلم من عبدهما أنهم كانوا كاذبين، وأنهما من جملة المخلوقات المُسخرات المُدبَّرات لا المُدبِّرات وتنشق السماء فتكون وردة كالدهان تتلون من عظم ذلك الهول، وتَمور مورًا فتنثر كواكبها، وكل ما ذكر الله من هذه الأوصاف هو تغير لصفاتها لا لذاتها خلاف ما يقول جهم وأصحابه.

ومِمَّا يدل على بطلانه قول جهم أن جَميع العالم العلوي والسفلي عنده يفنى فناء محضًا يدل على بطلانه أنه قد دلت الأدلة الشرعية أن العرش والكرسي والجَنة وما فيها من الولدان والحُور كل ذلك مخلوق للبقاء ولا يفنى ولا يبيد، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة، إلا الجَهمية؛ فإنهم زعموا أن الجَنة والنار لَمْ تُخلقا، وأنهما لا تخلقان إلا يوم القيامة، ثُمَّ بعد ذلك

يفنيان عنده، كما تقدم، وهذا من أبطل الباطل.

ومِمَّا يدل أيضًا على فساد قولهم أنه ثبت أن الأرض لا تأكل لحوم الأنبياء وأجسامهم، وأن عجب الذنب من كل أحد لا يبلى كما يبلى الجسد بل يبقى، منه يركب الله خلقة الإنسان، فلو كان الفناء يعم الأشياء كلها لاضمحلت أجساد الأنبياء وعجب الذنب من الإنسان.

ومِمَّا يدل على ذلك ما تواترت به النصوص من بقاء الأرواح بعد المَوت في البرزخ منعمة أو معذبة إلَى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله بعث العباد وأخراجهم من القبور أمطر على الأرض أربعين يومًا مطرًا عظيمًا غليظًا كمني الرجال لا يكن منه بيت مدر ولا بيت شعر، فينبت الخَلق من ذلك كنبات الطرائيث، فإذا تكاملت الأجساد نفخت الأرواح فدخلت في الصور، فهذا هو المَعاد الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهذه هي النشأة الأخرى، وهذا الذي تتصوره العقول والأذهان، لَمْ يقل الله ورسوله: إن الله يعدم خلقه عدمًا محضًا كما قالته الجَهمية.

ولما كان هذا هو القول الذي لا شك فيه وعليه سلف الأمة وأئمتها، وكانت أدلته وبراهينه النقل المُؤيد بالعقل، لَمْ يُمكن ملحدًا ولا زنديقًا أن يقاوم هذا القول أو يورد عليه إشكالاً يَمنعه، وتُمكن أهل السنة من كسر الفلاسفة المُلاحدة والحَمد لله.

فصل

وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلاً يَقُومُ بِهِ بِلاَ بُرْهَانِ

بَلْ فِعْلُهُ المَفْعُولُ خَارِجُ ذَاتِهِ ... كَالْوَصْفِ غَيْرِ الذَّاتِ فِي الْحُسْبَانِ

وَالْجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ ... عَيْنُ الْعُصَاةِ وَشِيعَةُ الشَّيْطَانِ

كَانُوا عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْعِصْيَانِ ذَا ... هُوَ فِعْلُهُمْ وَالذَّنْبُ لِلإِنْسَانِ

وَاللَّوْمُ لاَ يَعْدُوهُ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ ... بِإِرَادَةٍ وَبِقُدْرَةِ الْحَيَوَانِ

فَأَزَاحَهُمْ جَهْمٌ وَشِيعَتُهُ مِنَ اللَّـ ... ـلَوْمِ الْعَنِيفِ وَمَا قَضَوْا بِأَمَانِ

لَكِنَّهُمْ حَمَلُوا ذُنُوبَهُمُ عَلَى ... رَبِّ الْعِبَادِ بِعِزَّةٍ وَأَمَانِ

وَتَبَرَّءُوا مِنْهَا وَقَالُوا إِنَّهَا ... أَفْعَالُنَا مَا حِيلَةُ الإِنْسَانِ

مَا كَلَّفَ الْجَبَّارُ نَفْسًا وُسْعَهَا ... أَنَّى وَقَدْ جُبِرَتْ عَلَى الْعِصْيَانِ

وَكَذَا عَلَى الطَّاعَاتِ أَيْضًا قَدْ غَدَتْ ... مَجْبُورَةً فَلَهَا إِذًا حَتْمَانِ

وَالْعَبْدُ فِي التَّحْقِيقِ شِبْهُ نَعَامَةٍ ... قَدْ كُلِّفَتْ بِالْحَمْلِ وَالطَّيَرَانِ

إِذْ كَانَ صُورَتُهَا تَدُلُّ عَلَيْهِمَا ... هَذَا وَلَيْسَ لَهَا بِذَاكَ يَدَانِ

فَلِذَاكَ قَالَ بِأَنَّ طَاعَاتِ الْوَرَى ... وَكَذَاكَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ عِصْيَانِ

هِيَ عَيْنُ فِعْلِ الرَّبِّ لَا أَفْعَالُهُمْ ... فَيَصِحُّ عَنْهُمْ عِنْدَ ذَا نَفْيَانِ

نَفْيِي لِقُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا أَوَّلًا ... وَصُدُورُهَا مِنْهُمْ بِنَفْيِ ثَانِ

فَيُقَالُ مَا صَامُوا وَلَا صَلُّوا وَلَا ... زَكَّوْا وَلَا ذَبَحُوا مِنَ الْقُرْبَانِ

وَكَذَاكَ مَا شَرِبُوا وَمَا قَتَلُوا وَمَا[1] ... سَرَقُوا وَلَا فِيهِمْ غَوِي زَانِ

وَكَذَاكَ لَمْ يَأْتُوا اخْتِيَارًا مِنْهُمُ ... بِالْكُفْرِ وَالإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ لأَنَّهَا[2] ... قَامَتْ بِهِمْ كَالطَّعْمِ وَالأَلْوَانِ

جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ ... مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ وَغَيْرِ مُعَانِ

الْكُلُّ مَجْبُورٌ وَغَيْرُ مُيَسَّرٍ ... كَالْبَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الأَكْفَانِ

وَكَذَاكَ أَفْعَالُ الْمُهَيْمِنِ لَمْ تَقُمْ ... أَيْضًا بِهِ حَوْلًا مِنَ الْحَدَثَانِ

فَإِذَا جَمَعْتَ مَقَالَتَيْهِ أَنْتَجَا ... كَذِبًا وَزُورًا وَاضِحَ الْبُهْتَانِ

إِذْ لَيْسَتِ الأَفْعَالُ فِعْلَ إِلَهِنَا ... وَالرَّبُّ لَيْسَ بِفَاعِلِ الْعِصْيَانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الإِلَهِ وَفِعْلُهُ ... وَكَلَامُهُ وَفَعَالُ الإِنْسَانِ

فَهُنَاكَ لَا خَلْقٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا ... وَحْيٌ وَلَا تَكْلِيفُ عَبْدٍ فَانِ

وَقَضَى عَلَى أَسْمَائِهِ بِحُدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَا مِنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ

فَانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِهِ الأَوْصَافَ وَالـ ... ـأَفْعَالَ وَالأَسْمَاءَ لِلرَّحْمَنِ

مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ مِنْ ... نَفْيٍ وَمِنْ جَحْدٍ وَمِنْ كُفْرَانِ

---

(١) في (ح) [ولا قتلوا ولا].

(٢) في (ح) [فإنها].

لَكِنَّهُ أَبْدَى الْمَقَالَةَ هَكَذَا ... فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ
وَأَتَى إِلَى الْكُفْرِ الْعَظِيمِ فَصَاغَهُ ... عِجْلاً لِيَفْتِنَ أُمَّةَ الثِّيرَانِ
وَكَسَاهُ أَنْوَاعَ الْجَوَاهِرِ وَالْحُلَى ... مِنْ لُؤْلُؤٍ صَافٍ وَمِنْ عِقْيَانِ
فَرَآهُ ثِيرَانُ الْوَرَى فَأَصَابَهُمْ ... كَمُصَابِ إِخْوَتِهِمْ قَدِيمَ زَمَانِ
عِجْلاَنِ قَدْ فَتَنَا الْعِبَادَ بِصَوْتِهِ ... إِحْدَاهُمَا وَبِحَرْفِهِ ذَا الثَّانِي
وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ ... تَبْدُو لَهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ مَعَانِ
فَهُمُ الْقُشُورُ وَبِالْقُشُورِ قِوَامُهُمْ ... وَاللُّبُّ حَظُّ خُلاَصَةِ الإِنْسَانِ
وَلِذَا تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ ... وَتَوَارَثُوهُ إِرْثَ ذِي السُّهْمَانِ
لَمْ يَنْجُ مِنْ أَقْوَالِهِ طُرًّا سِوَى ... أَهْلِ الْحَدِيثِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ
فَتَبَرَّءُوا مِنْهَا بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ ... وَبَرَاءَةِ الْمَوْلُودِ مِنْ عُثْمَانِ[1]
مِنْ كُلِّ شِيعِي خَبِيثٍ وَصْفُهُ ... وَصْفُ الْيَهُودِ مُحَلِّلِي الْحِيتَانِ

الشرح

ومن أقوال الجُهمية الباطلة نفي أفعال العبيد كما نفوا: أفعال الله في قولهم: أن أفعال الله لا تقوم به، والفعل عندهم عين المَفعول، كذلك قالوا أن العبد مجبور على أفعاله طاعاتها ومعاصيها، وأنَّها واقعة بغير اختياره، وأن الله كلفهم ما لا يطيقون، فالعبد عندهم كالنعامة الَّتي كلفت بالطيران لما لَهَا من الأجنحة ومشابهة الطيور، وبالجُمل لما لَهَا من كبر الجَسم. وهي لا قدرة لَهَا على واحد منها، فلزمهم على تقريرهم هذا أمران باطلان:

أحدهما: أن تنفي عن العباد قدرتهم على أفعالهم.

ثانيًا: أن ينفي صدورها منهم، فيقال على قولهم: لَمْ يقدروا على الإسلام والإيمان ولا الصلاة والصيام ونَحوها، وإذا فعلوها يصح أن يقال: لَمْ تصدر منهم، وإنَّما يقال ذلك على وجه المُجاز لا الحَقيقة، ولا فرق عندهم أن يوصفوا بهذه الأفعال أو يوصفوا بالبياض والسواد وبقية الألوان، لأن الجَميع قامت بهم.

---

(١) كذا في (ق، ط) أما في (خ، س) [عمران].

فتصور قولهم بلوازمه المذكورة تعرف به فساده وبطلانه فإذا جمعت مقالات جهم المذكورة وهي نفي صفات الله، ونفي أفعاله، ونفي خلته ومحبته، ونفي كلامه وتكلمه، ونفي أفعال العبيد، لزم من ذلك بطلان الخلق والأمر والوحي والشرع والتكاليف، فإذا ضممت ذلك إلى قول غلاتهم بنفيهم لأسماء الله الحسنى عرفت أن هذا القول مفض على تعطيل رب العالمين وجحده، ولكنهم موّهوا قولهم وزخرفوه، وحسنوا له العبارات وهولوا مخالفتها، وضموا إلى ذلك القدح في مذهب السلف وتسميته بأسماء قبيحة، فتولد من ذلك قبول الناس له وافتتانهم به كما افتتن بنوا إسرائيل بعبادة العجل المصوغ المزخرف، فافتتنوا بصورته وشارته كما افتتن هؤلاء بتحسين القول وزخرفة عبارته، فأخذت طوائف البدع من أقوال جهم بحسب بعدهم عن مذهب السلف:

فطائفة: أثبتت الأسماء ونفت الأسماء الحسنى.

وطائفة: وافقت الجهمية بنفي الأفعال الاختيارية، ووافقوا السلف في إثبات الصفات السبع وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وهم الأشعرية والماتريدية.

وطائفة: أخذت بقوله أن العباد مجبورون على أفعالهم وهم الملقبون بالجبرية.

وطائفة: وافقته في أن القرآن الموجود المحفوظ في الصدور المكتوب في المصاحف مخلوق، والمعنى القديم النفسي غير مخلوق، كالكلابية والأشعرية.

ونجى الله أهل السنة والجماعة من جميع أقواله الباطلة فأثبتوا جميع أسماء الله الحسنى وما دلت عليه من الصفات العليا لا فرق بين الصفات الذاتية المتعلقة بذاته التي لا ينفك عنها كالحياة والعلم والقدرة والإرادة ونحوها، ولا بين صفات الأفعال القائمة بذاته المتصف بها المتعلقة بمشيئته وقدرته، وأثبتوا محبته وخلته لأوليائه وأصفيائه وكلامه وتكليمه حقيقة، وكذلك قالوا: إن الإيمان هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وإنه يزيد بالطاعات وينقص بالمخالفات، وإن العباد هم الفاعلون لأفعالهم حقيقة، ليسوا مجبورين عليها بل هم مختارون لما واقعة بقدرتهم ومشيئتهم، وإن كانت مندرجة بقضاء الله وقدره فإنه قد أرادها منهم خلقًا وتقديرًا، وهم فعلوها حقيقة ومباشرة، لم يُقهروا عليها، ولهذا وصفوا بما

عملوه من خير وشر، وتبت بفوهم الوحي والشرع والقدر، وصدقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله من غير رد لشيء من ذلك.

فصل

في مقدمة نافعة قبل التحكيم

يأيها الرجل المريد لحاتمة ... اسمع مقالة ناصح بعوان
كن في أمورك كلها متمسكا ... بالوحي لا بزخارف الهذيان
والعض بكتاب الله والسنن التي ... جاءت عن المتعوث بالقرآن
واضرب بسيف الوحي كل معطل ... ضرب المجاهد فوق كل بنان
واحمل بعزم الصدق حملة مخلص ... متجرد لله غير جبان
وانبت بعشرك تحت ألوية الهدى ... فإذا أصبت ففي رضا الرحمن
واجعل كتاب الله والسنن التي ... نبتت بلاحك ثم صح بجنان
من ذا يبارز فليقدم نفسه ... أو من يبايع يبد في الميدان
واصدع بما قال الرسول ولا تخف ... من قلة الأنصار والأعوان
فالله ناصر دينه وكتابه ... والله كاف عبده بأمان
لا تخش من كيد العدو ومكرهم ... فقتالهم بالكذب والبهتان
فجنود أتباع الرسول ملاحك ... وجنودهم فعساكر[1] الشيطان
شتان بين العسكرين فمن يكن ... منخرطا فليتظر الفتان
وانبت وقاتل تحت رايات الهدى ... واصبر فنصر الله ربك دان
واذكر مقاتلهم لقرسان الهدى ... فله ذرى مقاتل القرسان
واذرأ بلفظ السنع في نحر العدا ... وارجمهم بثواقب الشهبان
لا تخش كثرتهم فهم همج الورى ... وذبابة[2] أنخاف من ذبان
واشغلهم عند الجدال بنعتهم ... بعضا فذاك الحزم للقرسان

---

(١) في (ح) [هم عسكر].
(٢) كذا في (ط، ق، س) أما في (ح) [وذبابة].

وإذا هُمُ حَمَلُوا عَلَيكَ فَلا تَكُنْ ... فَرِعًا لَحَمْلَتِهِمْ وَلا بِجَبَانِ

وَاثْبُتْ وَلا تَحْمِلْ بِلا جُنْدٍ فَمَا ... هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُّجْعَانِ

فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الإِسْلامِ قَدْ ... وَافَتْ عَسَاكِرُهَا مَعَ السُّلْطَانِ

فَهُنَالِكَ فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ وَلا تَكُنْ ... بِالْعَاجِزِ الْوَانِي وَلا الْفَرْغَانِ

وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ بِلِبْسِهِمَا ... بِلُبْسِ الرِّدَى بِمَذَلَّةٍ[1] وَهَوَانِ

ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ ... ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بِئْسَتِ الثَّوْبَانِ

وَتَحَلَّ بِالإِنْصَافِ أَفْخَرِ حُلَّةٍ ... زَيَّنْتَ بِهَا الأَعْطَافَ وَالْكَتِفَانِ

وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ ... نُصْحِ الرَّسُولِ فَحَذَا الأَمْرَانِ

وَتَمَسَّكَنْ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ ... وَتَوَكَّلَنْ حَقِيقَةَ التَّوَكُّلانِ

فَالْحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ وَهُوَ صِرَاطُهُ الْـ ... ـهَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الإِيمَانِ

وَهُوَ الصِّرَاطُ عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْـ ... ـضًا وَذَا[2] قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

وَالْحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُسْتَعْلٍ فَلا ... تَعْجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

وَبِذَاكَ يَظْهَرُ حِزْبُهُ مِنْ حِزْبِهِ ... وَلأَجْلِ ذَاكَ النَّاسُ طَائِفَتَانِ

وَلأَجْلِ ذَاكَ الْحَرْبُ بَيْنَ الرُّسْلِ وَالْـ ... ـكُفَّارِ مُذْ قَامَ الْوَرَى سِجِلانِ

لَكِنَّمَا الْعُقْبَى لأَهْلِ الْحَقِّ إِنْ ... فَاتَتْ هُنَا كَانَتْ لَدَى الدَّيَّانِ

وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ وَلا تَنَمْ ... فِيهِمَا عَلَى كُلِّ امْرِئٍ فَرْضَانِ

فَالْهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ ... ـإِخْلاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلانِ

فَالْقَصْدُ وَجْهُ اللهِ بِالأَقْوَالِ وَالْـ ... أَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ

فَبِذَاكَ يَنْحُو الْعَبْدُ مِنْ إِشْرَاكِهِ ... وَيَصِيرُ حَقًّا عَابِدَ الرَّحْمَنِ

وَالْهِجْرَةُ الأُخْرَى إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْـ ... ـحَقِّ الْمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

فَيَدُورُ مَعَ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِعْلِهِ ... نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بِلا رَوَغَانِ

وَبِحُكْمِ الْوَحْيِ الْمُبِينِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ فَعُدَّةُ حُكْمَانِ

---

(١) في (ح) [بمذلة].

(٢) في (ح) [فاردا].

لا تَحْكُمَانِ بِبَاطِلٍ أَبَدًا وَكُلْ ... لُ الْعَدْلِ قَدْ جَاءَتْ بِهِ الْحُكْمَانِ

وَهُمَا كِتَابُ اللهِ أَعْدَلُ حَاكِمٍ ... فِيهِ الشِّفَا وَهِدَايَةُ الْحَيْرَانِ

وَالْحَاكِمُ الثَّانِي كَلَامُ رَسُولِهِ ... مَا ثَمَّ غَيْرُهُمَا لِذِي إِيمَانِ

فَإِذَا دَعَوْكَ لِغَيْرِ حُكْمِهِمَا فَلَا ... سَمْعًا لِدَاعِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ

قُلْ لَا كَرَامَةَ لَا وَلَا لُعْمَى وَلَا ... طَوْعًا لِمَنْ يَدْعُو إِلَى طُغْيَانِ

وَإِذَا دُعِيتَ إِلَى الرَّسُولِ فَقُلْ لَهُمْ ... سَمْعًا وَطَوْعًا لَسْتُ ذَا عِصْيَانِ

وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْخُصُومُ وَصَيَّحُوا ... فَأَنْتَ فَصَيْحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ

يَرْقَى إِلَى الْأَوْجِ الرَّفِيعِ وَبَعْدَهُ ... يَهْوِي إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الدَّانِي

هَذَا وَإِنْ قَالَ حِزْبُ اللهِ بِالْـ ... أَعْمَالِ لَا بِكِتَابِ الشُّجْعَانِ

وَاللهِ مَا فَتَحُوا الْبِلَادَ بِكُثْرَةٍ ... أَنَّى وَأَعْدَاهُمْ بِلَا حُسْبَانِ

وَكَذَاكَ مَا فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ بَلْ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

وَشَجَاعَةُ الْقُرْآنِ نَفْسُ الرُّشْدِ فِي ... نَفْسٍ وَذَا مَحْذُورُ كُلِّ جَبَانِ

وَشَجَاعَةُ الْحُكَّامِ وَالْعُلَمَاءِ زُهْـ ... ـدٌ فِي الثَّنَا مِنْ كُلِّ ذِي بُطْلَانِ

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِقَلْبٍ صَادِقٍ ... شُدَّتْ رَكَائِبُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

وَاقْصِدْ إِلَى الْأَقْرَانِ لَا أَطْرَافِهَا ... فَالْعِزُّ تَحْتَ مَقَاتِلِ الْأَقْرَانِ

وَاسْمَعْ نَصِيحَةَ مَنْ لَهُ خَبَرٌ بِمَا ... عِنْدَ الْوَرَى مِنْ كَثْرَةِ الْجَوَلَانِ

مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ خَيْرٌ غَيْرَ مَا ... أَخَذُوهُ عَمَّنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

وَالْكُلُّ بَعْدَ فَيْدَغَةٍ أَوْ فِرْيَةٍ ... أَوْ بَحْثِ تَشْكِيكٍ وَرَأْيِ فُلَانِ

فَاصْدَعْ بِأَمْرِ اللهِ لَا تَخْشَ الْوَرَى ... فِي اللهِ وَاخْشَاهُ تَفُزْ بِأَمَانِ

وَاهْجُرْ وَلَوْ كُلَّ الْوَرَى فِي ذَاتِهِ ... لَا فِي هَوَاكَ وَتَخْوَةِ الشَّيْطَانِ

وَاصْبِرْ بِغَيْرِ تَسَخُّطٍ وَشِكَايَةٍ ... وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ

وَاهْجُرْهُمُ الْهِجْرَ الْجَمِيلَ بِلَا أَذًى ... إِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْهِجْرَانِ

وَانْظُرْ إِلَى الْأَقْدَارِ جَارِيَةً بِمَا ... قَدْ شَاءَ مِنْ غَيٍّ وَمِنْ إِيمَانِ

وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ مُقْلَتَيْنِ كِلَاهُمَا ... بِالْحَقِّ فِي ذَا الْخَلْقِ نَاظِرَتَانِ

فَانْظُرْ بِعَيْنِ الْحُكْمِ وَارْحَمْهُمْ بِهَا ... إِذْ لَا تُرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّانِ

وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْأَمْرِ وَاحْمِلْهُمْ عَلَى ... أَحْكَامِهِ فِيهِمَا إِذَا نَظَرَانِ

وَاجْعَلْ لِوَجْهِكَ مُقْلَتَيْنِ كِلَاهُمَا ... مِنْ عَيْنِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضًا مِثْلَهُمْ ... فَالْقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ الْأَمَّارِي مَتَى ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كَمَرَّتْ كَمَرِ[1] مُهَانِ

وَإِذَا[2] انْتَصَرْتَ لَهَا فَأَنْتَ كَمُنْمِنٍ بَغَى ... طَفْيَ[3] الدُّخَانِ بِمُوقِدِ النِّيرَانِ

وَاللهُ أَخْبَرَ وَهُوَ أَصْدَقُ قَائِلٍ ... أَنْ سَوْفَ يَنْصُرُ عَبْدَهُ بِأَمَانِ[4]

مَنْ يَغْسِلِ السُّوءَى يُجْزَى مِثْلَهَا ... أَوْ يَغْسِلِ الْحُسْنَى بِفَوْزٍ يَجْنِي

هَذِي وَصِيَّةُ نَاصِحٍ وَلَقِيهِ ... وَصَّى وَبَعْدَهُ سَائِرَ الْإِخْوَانِ

الشرح

وذلك أن المؤلف -رَحِمَهُ الله- جعل هذا الكتاب حُكمًا حاكمًا بين مذاهب الجَهمية والمُعطلين وبين مذاهب أهل السنة والجَماعة المثبتين، والحاكم لا يمكنه أن يَحكم بالعدل حتى يعلم العدل ويتخلق بالأخلاق الجَميلة ويتخلى عن الأخلاق الرذيلة، فأعظم الأخلاق الجَميلة الواجبة خصوصًا في هذا المُقام هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون هذا الأمر قاعدة العبد التي يرجع إليها ويرد ما تنازع فيه المُتنازعون إليه، فما وافقه فهو الحق المقبول وما ناقضه فهو الباطل المَردود وما لا يعلم موافقته ولا مناقضته وقف فيه حَتَّى يتبين أمره، فإذا بنى العبد أقواله وعلومه ونظره ومناظرته على هذا الأصل أفلح وأنجح وكان على ثقة من أمره ويقين من براهينه، ولكن لا يصلح هذا ولا يتم يراجع لمن كان عارفًا بالأدلة الشرعية.

---

(١) في (ح) [كسنك ثوب] بدل [كمرت كمر].

(٢) في (ح) [فإذا].

(٣) في (س) [أطفا].

(٤) في (س) [صاحب الإيمان] بدل [عبده بأمان].

وأما الجاهل فما يفسده أكثر مما يصلحه فعليه أن يتعلم ليتكلم، فالجاهل المُركب الذي لا يدري ولا يدرى أنه لا يدري، والجاهل البسيط هو الذي لا يدري ويدري أنه لا يدري، كلاهما إذا تكلم كان مع تحريم كلامه ضرره أكثر من نفعه سواء انتسب إلى الحق أو إلى الباطل.

فإذا وفق العبد للعمل ورزق خشية الله وأنصافًا بأن يكون مراده الحق فيقبل الحق مع من كان وأين كان فهذا موفق محمود، فإذا رزق مع ذلك الإخلاص والمُتابعة بأن تقع أقواله وأفعاله وجميع حركاته وسكناته خالصة لوجه الله مرادًا بها رضاه وطلب ثوابه وكان في ذلك دائرًا مع سنة نبيه ﷺ فقد كمل أمره، وحينئذٍ لا يبالي بكثرة المعارين.

وكلما كثر خصومه ازدادت شجاعته لعلمه وخشيته وإخلاصه ومتابعته ومعرفته أن ما معه من الحق لا تثبت له الجبال الرواسي؛ فإن أهل الحق لا يقاتلون بكثرة عُدد ولا قوة عدد مادية وإنما قوتهم ومدارهم على القوة الحقيقية المعنوية قوة الإيمان وقوة الحق وما يقتضيه من المقويات المعنوية وما يتبعها من القوة المادية، وبهذا فتح الصحابة وقرون الأمة المُفضلة القلوب بالعلم والإيمان، واحتلوا بهذه القوة وبالعدل والرحمة الأقطار؛ لأنهم جمعوا أصناف الشجاعة لاعتمادهم على الحق وزهدهم في النفوس وتمام ذلك زهدهم في الثناء الباطل، فإن هذه الأمور متى اجتمعت تمت الشجاعة ومتى فقدت واحدة منها أو كلها نقصت أو فقدت، فمن لم يعتمد على حق بل ينصر الباطل فما أسرع ما يخالطه الجبن والخيالات المتولدة من الباطل، ومن لم يزهد بنفسه بل حببت إليه ولم يهن عليه إقدامها في الحق المشق على النفوس أو كان يخشى لوم اللائمين أو يقف عند مدح المادحين أو يعرقل مساعيه ذمُ الذامين فهذه كلها علل وتوقف سير القوة وتمنع الشجاعة، فالحق الذي لا يبالي بالمشاق ولا يقف إلا عند مدح الله ورسوله وذمهما هو القوي الشجاع.

ولابد أن يبتلى إذا وصل إلى هذه الحال بالمعرضين والمعارضين له الرادين لما قاله، فإذا تيقن أنه على الحق وما مع المعارضين باطل ما بين بدعة أو فرية أو رأي مخالف للشرع أو شُبه وتشكيكات يشككون فيها بالخلق أوجب له أن يصدع بالحق ولا يخشى إلا الله ولكنه في هذه الحال يحتاج إلى صبر جميل وصفح جميل، والجميل من ذلك ضد القبيح، فهو الخالص

لوجه الله، والمُوافق لمرضاة الله، الخالي من هوى النفس وحمية الشيطان، ومن التسخط والشكاية إلى المخلوقين، بل إذا اشتكى فـ إلى رب العالمين، ويستعمل الهجر في محله لأهل البدع والانحراف والمعاصي، حيث كان فيه مصلحة ونصر للحق وتخفيف للباطل والشر، وعليه أن يحمد الله على الهداية إلى الحق ويرحم الخلق؛ فإنه إذا نظر إلى أقدار الله إذ خذلهم وولاهم ماتوا لأنفسهم من الباطل وألغى، وأبقاهم في ضلالهم يعمهون، رحمهم ودعا لهم وجدَّ وحرص على السعي في هدايتهم بحسب إمكانه، ثُمَّ إذا نظر إليهم بعين الشرع والأمر أقام عليهم ما أمره الشارع من العقوبات، وحملهم عليه وعلى التزام أحكامه، وهو مع ذلك خائف مشفق على إيمانه، فإن الله مقلب القلوب، فما استبقيت نعم الله بمثل حمده والثناء عليه، والخوف والحذر من زوالها، والسعي في الأسباب الحالية لها، والبعد عن المخالفات والبطر والبغي الذي يزيلها، والإكثار من الاستعاذة بالله من شر النفس وسيء الأعمال، وعليه أن يوطن نفسه على الخضوع للحق والانقياد له مع من قاله.

وسرعة الرجوع عن الباطل الذي قاله مُحطئا، أن لا يعجب بنفسه وعمله، ويجعل الرياسة والتمكن من قلوب الناس مانعًا له من قبول الحق.

فإذا جمع الله للعبد هذه الأمور التي وصى به المؤلف في هذه المقدمة، ووثق بربه وتوكل عليه، وعلم أن الله لابد أن ينصر الحق ومن اتبعه، نشطت نفسه وقويت همته وحصل على الفلاح والنجاح والله أعلم.

فصل

وهذا أول عقد مجلس التحكيم

فَاجْلِسْ إِذَا فِي مَجْلِسِ الْحَكَمَيْنِ لِلـ ... ـرَّحْمَنِ لَا لِلنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

الْأَوَّلُ النَّقْلُ الصَّحِيحُ وَبَعْدَهُ الـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرَّحْمَنِ

وَاحْكُمْ إِذَا فِي رُفْقَةٍ قَدْ سَافَرُوا ... بِنُقُولِ فَاطِرِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

فَرَأَيْتَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ وَنُفَارِقُوا ... عِنْدَ افْتِرَاقِ الطُّرْقِ بِالْحَيَوَانِ

فَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ وَجَدْتُهُ ... هَذَا الْوُجُودُ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ

مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ سِوَاهُ وَإِنَّمَا ... غَلِطَ اللِّسَانُ فَقَالَ مَوْجُودَانِ

فَهْوَ السَّمَاءُ بِعَيْنِهَا وَنُجُومِهَا ... وَكَذَلِكَ الأَفْلاَكُ وَالْقَمَرَانِ
وَهْوَ الْغَمَامُ بِعَيْنِهِ وَالثَّلْجُ وَالْـ ... أَمْطَارُ مَعْ بَرْدٍ وَمَعْ سُحْبَانِ
وَهْوَ الْهَوَاءُ بِعَيْنِهِ وَالْمَاءُ وَالتْـ ... ـتُرْبُ الثَّقِيلُ وَنَفْسُ ذِي النِّيرَانِ
هَذِي بَسَائِطُهُ وَمِنْهُ تَرَكَّبَتْ ... هَذِي الْمَظَاهِرُ مَا هُنَا شَيْئَانِ
وَهْوَ الْفَقِيرُ لَهَا لأَجْلِ ظُهُورِهِ ... فِيهَا كَفَقْرِ الرُّوحِ لِلأَبْدَانِ
وَهْيَ الَّتِي افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ لأَنَّهُ ... هُوَ ذَاتُهَا وَوُجُودُهَا الْحَقَّانِي
وَتَظَلُّ تَلْبَسُهُ وَتَخْلَعُهُ وَذَا الْـ ... إِيجَادُ وَالإِعْدَامُ كُلَّ أَوَانِ
وَيَظَلُّ يَلْبَسُهَا وَيَخْلَعُهَا وَذَا ... حُكْمُ الْمَظَاهِرِ كَي يَرَى بِعِيَانِ
وَتُكَثِّرُ الْمَوْجُودَ كَالأَعْضَاءِ فِي الْـ ... ـمَحْسُوسِ مِنْ بَشَرٍ وَمِنْ حَيَوَانِ
أَوْ كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ ... مُتَكَثِّرٌ قَامَتْ بِهِ الأَمْرَانِ
فَيَكُونُ كُلاًّ هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ ... هَذِي مَقَالَةُ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ
أَوْ أَنَّهَا لِتَكَثُّرِ الأَنْوَاعِ فِي ... جِنْسٍ كَمَا قَالَ الْفَرِيقُ الثَّانِي
فَيَكُونُ كُلِّيًّا وَجُزْئِيَّاتُهُ ... هَذَا الْوُجُودُ فَهَذِهِ قَوْلاَنِ
إِحْدَاهُمَا نَصُّ الْفُصُوصِ وَبَعْدَهُ ... قَوْلُ ابْنِ سَبْعِينٍ وَمَا الْقَوْلاَنِ
عِنْدَ الْعَفِيفِ التِّلْمَسَانِي الَّذِي ... هُوَ غَايَةٌ فِي الْكُفْرِ وَالْبُهْتَانِ
إِلاَّ مِنَ الأَغْلاَطِ فِي حِسٍّ وَفِي ... وَهْمٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ
وَالْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ ... مَا لِلتَّعَدُّدِ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِ
فَالضَّيْفُ وَالْمَأْكُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... وَالْوَهْمُ يَحْسَبُ هَاهُنَا شَيْئَانِ
وَكَذَلِكَ الْمَوْطُوءُ عَيْنُ الْوَطْءِ وَالْـ ... ـوَهْمُ الْبَعِيدُ يَقُولُ ذَا إِثْنَانِ
وَلَرُبَّمَا قَالاَ مَقَالَتَهُ كَمَا ... قَدْ قَالَ قَوْلَهُمَا بِلاَ فُرْقَانِ
وَأَبَى سِوَاهُمْ ذَا وَقَالَ مَظَاهِرٌ ... تَجْلُوهُ ذَاتُ تَوَحُّدٍ وَمَثَانِ
فَالظَّاهِرُ الْمَجْلُوُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... لَكِنْ مَظَاهِرُهُ بِلاَ حُسْبَانِ
هَذِي عِبَارَاتٌ لَهُمْ مَضْمُونُهَا ... مَا ثَمَّ غَيْرٌ قَطُّ فِي الأَعْيَانِ
فَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ عَنْ إِنْسٍ وَلاَ ... جِنٍّ وَلاَ شَجَرٍ وَلاَ حَيَوَانِ

كَلاَّ وَلاَ عُلْوٍ وَلاَ سُفْلٍ وَلاَ ... وَادٍ وَلاَ جَبَلٍ وَلاَ كُثْبَانِ
كَلاَّ وَلاَ طَعْمٍ وَلاَ رِيحٍ وَلاَ ... صَوْتٍ وَلاَ لَوْنٍ مِنَ الأَلْوَانِ
لَكِنَّهُ الْمَطْعُومُ وَالْمَلْبُوسُ وَالْـ ... ـمَشْمُومُ وَالْمَسْمُوعُ بِالآذَانِ[1]
وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْمَنْكُوحُ وَالْـ ... ـمَذْبُوحُ بَلْ عَيْنُ الْغَوِي الزَّانِي
وَالْكُفْرُ عِنْدَهُمُ هُدًى وَلَوَ انَّهُ ... دِينُ الْمَجُوسِ وَعَابِدِي الأَوْثَانِ
قَالُوا وَمَا عَبَدُوا سِوَاهُ وَإِنَّمَا ... ضَلُّوا بِمَا خَصُّوا مِنَ الأَعْيَانِ
وَلَوْ انَّهُمْ عَمُّوا وَقَالُوا كُلُّهَا ... مَعْبُودَةٌ مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ
فَالْكُفْرُ سَتْرُ حَقِيقَةِ الْمَعْبُودِ بِالتَّـ ... ـخْصِيصِ عِنْدَ مُحَقِّقٍ رَبَّانِي
قَالُوا وَلَمْ يَكُ كَافِرًا فِي قَوْلِهِ ... أَنَا رَبُّكُمْ فِرْعَوْنُ ذُو الطُّغْيَانِ
بَلْ كَانَ حَقًّا قَوْلُهُ إِذْ كَانَ عَيْـ ... ـنَ الْحَقِّ مُضْطَلِعًا بِهَذَا الشَّانِ
وَلِذَا غَدَا تَغْرِيقُهُ فِي الْبَحْرِ تَطْـ ... ـهِيرًا مِنَ الأَوْهَامِ وَالْحُسْبَانِ
قَالُوا وَلَمْ يَكُ مُنْكِرًا مُوسَى لِمَا ... عَبَدُوهُ مِنْ عِجْلٍ لِذِي الْخُوَرَانِ
إِلاَّ عَلَى مَنْ كَانَ لَيْسَ بِعَابِدٍ ... مَعَهُمْ وَأَصْبَحَ ضَيِّقَ الأَعْطَانِ
وَلِذَاكَ جَرَّ بِلِحْيَةِ الأَخِ حَيْثُ لَمْ ... يَكُ وَاسِعًا فِي قَوْمِهِ لِبِطَانِ
بَلْ فَرَّقَ الإِنْكَارَ مِنْهُ بَيْنَهُمْ ... لَمَّا سَرَى فِي وَهْمِهِ غَيْرَانِ
وَلَقَدْ رَأَى إِبْلِيسَ عَارِفُهُمْ فَأَهْـ ... ـوَى بِالسُّجُودِ هُوِي ذِي خُضْعَانِ
قَالُوا لَهُ مَاذَا صَنَعْتَ فَقَالَ هَلْ ... غَيْرُ الإِلَهِ وَأَنْتُمَا عِمْيَانِ
مَا ثَمَّ غَيْرٌ فَاسْجُدُوا إِنْ شِئْتُمُ ... لِلشَّمْسِ وَالأَصْنَامِ وَالشَّيْطَانِ
فَالْكُلُّ عَيْنُ اللهِ عِنْدَ مُحَقِّقٍ ... وَالْكُلُّ مَعْبُودٌ لِذِي عِرْفَانِ
هَذَا هُوَ الْمَعْبُودُ عِنْدَهُمُ فَقُلْ ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ
يَا أُمَّةً مَعْبُودُهَا مَوْطُوءُهَا ... أَيْنَ الإِلَهُ وَثُغْرَةُ الطَّعَّانِ
يَا أُمَّةً قَدْ صَارَ مِنْ كُفْرَانِهَا ... جُزْءٌ يَسِيرُ جُمْلَةَ الْكُفْرَانِ

---

(١) في (ح) [ـ لا ـ ـ]

الشرح

ذكر المُصنف -رحمه الله- في هذه الفصول أقوال أهل البدع من الجَهمية وغيرهم، ثُمَّ قول أهل العلم والإيمان بطريقه التمثيل والتصوير، ليكون أوضح لمعرفتها، وأكمل لتصورها على ما هي عليه.

فهذه الطريقة من طريق التعليم العالي، ولِهذا ضرب الله الأمثال في كتابه للأمور المُهمة. وكذلك النَّبي ﷺ قد ضرب الأمثال ليحصل البيان ويزول الإشكال، فضرب المُؤلف هذه المَذاهب مثلاً بركب اتفقت مقاصدهم أولا حين شرعوا في سفرهم، ويظهر من قصد جميعهم أنَّهم لا يطلبون إلا الحَق، فسلكوا طريقًا واحدًا في مبتدأ سيرهم، فلما جد بهم السير وصلوا إلَى مفرق الطرقات وتعدد السبل المفضية إلَى مقاصدهم ومواردها، فحينئذٍ افترقوا، فكل من هؤلاء الركب سلك طريقًا غير طريق الطائفة الأخرى، ثُمَّ رجعوا من سفرهم آيبين وعرضوا تجارتهم وما حصلوه في سفرهم وثمرات سعيهم على العالم العادل ليحكم بينهم بالحكم المُوافق للنقل والعقل والفطرة وأنواع الأدلة، فذكر مذهب الاتحادية كابن عربي الطائي صاحب الفصوص وغيرها من المُصنفات المَشحونة بالتعطيل والاتحاد، وكابن سبعين والعفيف التلمساني ونَحوهم ممَّن يَجمعهم هذا المَذهب الخَبيث وهو: أن الوجود عندهم شيء واحد، فما ثُمَّ خالق ومَخلوق ولا رب ولا مربوب، بل الجَميع عندهم شيء واحد. ويزعمون أن تكثر الموجودات إنَّمَا ذلك وهم وغلط، فهم يطلقون عباراتهم الإلحادية فيقولون: إن تعدد الموجودات مظاهر للتجليات، فيتجلى عندهم في أصناف المَوجودات، فهو فقير إليها لأجل ظهوره وتَجليه فيها، وهو فقيرة إليه لكونه هو ذاتها وهي صفاته، فتارة يلبس الموجودات وهي إيجادها، وتارة يَخلعها وهو اعدامها، فالموجودات عندهم قد لبسها، والمعدومات قد خلعها، بِحسب المَظاهر والتجليات ويشبهون تكثر الموجودات بتكثر أعضاء الحَيوانات، فهو حيوان واحد وأعضاؤه متنوعة، فكذلك الخَالق عندهم واحد بالعين والموجودات من السماوات والأرض وما فيها صفات له وأعضاء.

وقد يشبهونه أيضًا بالقوى النفسية: نفس واحدة تَحمل قوى متنوعة، فيكون على قولهم

كلا وأجزاؤه الموجودات، أو كليًا وجزئياته هذا الوجود. فهذان قولان لهذه الطوائف المُلحدة.

ولَم يرتض التلمساني هذين القولين وقال: هذا غلط، الصواب عنده أن الجميع شيء واحد ليس فيه تقسيم ولا تجزئة ولا تعدد، فالآكل والمأكول شيء واحد، والواطيء والموطوء شيء واحد.

وقالت طائفة رابعة منهم: كل هذا غلط، وإنما الموجودات مظاهر للذات الواحدة بالعين.

ومضمون كلام طوائفهم الخبيثة أن وجود الباري تعالَى خيال في الأذهان، لا وجود له في الخارج، وليس لوجوده حقيقة. وهذا هو التعطيل المحض.

فقول هذه الطائفة مجرد تصوره كاف في إبطاله، فلم يصونوه عن المحال التي يرغب عن ذكرها.

فلهذا مضمون توحيدهم وعقيدتهم، فالكفار عندهم لا يُذمون إلا على تخصيصهم لبعض المعبودات، وإلا فلو عبدوا الوجود جميعه لكانوا عند هؤلاء مهتدين.

وعندهم أن تغريق فرعون في البحر تطهير له من الوهم والحسبان الذي ظن أنه ربهم الأعلى بسبب رياسته وزعموا أن موسى عليه السلام لما أنكر على أهل العجل حين عبدوه لَم ينكر على من عبده منهم، إنما أنكر على من لَم يعبده ولذلك جر بلحية أخيه هارون ورأسه حين أنكر عليهم.

وفي هذا القول من المكابرة وقلب الحقائق وجحد الضروريات ما لا يخفى على أحد إلا على ملبوس عليه وتنتهي بهم الحال إلى أنهم يتظاهرون بالسجود لكل شيء حتى أن بعض أكابرهم رأى إبليس فسجد له، فأنكر عليه فقال: ما سجدت إلا لله، فاسجدوا لأي موجود شئتم من شمس أو قمر أو أصنام أو غيرها فليس ثَمَّ غير الله؛ لأن الجميع شيء واحد.

هذا المُحقق منهم فسبحان الله وتعالَى عما يقولون علوًا كبيرًا، فلقد تجرءوا على الله وقالوا مقالة لَم يرتضها اليهود ولا النصارى وغيرهم من الملل، وحقيقة الأمر أن كفر المشركين وكل كافر جزء من أجزاء كفر هذه الطائفة الملعونة، وإنما راج مذهبهم على كثير

من الناس لأمرين: انتسابهم إلى التأله والتعبد والتصوف والزهد. وكثرة الرموز والإشارات الشبيهة بالألغاز.

وإلا فمن في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان لو عرف حقيقة مذهبهم لرجمهم بالحجارة.

نسأل الله العافية ونحمده على نعمه الظاهرة والباطنة.

فصل
في قدوم ركب آخر

وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ وَجَدْتُهُ ... بِالذَّاتِ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ
هُوَ كَالْهَوَاءِ بِعَيْنِهِ لاَ غَيْرُهُ ... مَلأَ الْخَلاَءَ وَلاَ يُرَى بِعِيَانِ
وَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ عَنْ بَشَرٍ وَلاَ ... قَمَرٍ وَلاَ حُشٍّ وَلاَ أَعْفَانِ
بَلْ مِنْهُمُ مَنْ قَدْ رَأَى تَشْبِيهَهُ ... بِالرُّوحِ دَاخِلَ هَذِهِ الأَبْدَانِ
مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ لَيْسَ بِدَاخِلٍ ... أَوْ خَارِجٍ عَنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ
لَكِنَّهُمْ حَامُوا عَلَى هَذَا وَلَمْ ... يَتَجَاسَرُوا مِنْ عَسْكَرِ الإِيمَانِ
وَعَلَيْهِمُ رَدَّ الأَئِمَّةُ أَحْمَدُ ... وَصِحَابُهُ مِنْ كُلِّ ذِي عِرْفَانِ
فَلَهُمُ الْخُصُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... وَهُمُ الْخُصُومُ لِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ
وَلَهُمْ مَقَالاَتٌ ذَكَرْتُ أُصُولَهَا ... لَمَّا ذَكَرْتُ الْجَهْمَ فِي الأَوْزَانِ

الشرح

وهذا الوصف الذي ذكره المُصنف في هذا الفصل ينطبق على مذهب الجَهمية الأولين الذي حقيقة مذهبهم يزعمون أن الله في كل مكان، وأنه حال في الأمكنة حلول الروح في الجَسد.

هؤلاء الذين ناظرهم الإمام أحمد وغيره، فهؤلاء لم يصونوا عن الأمكنة الطيبة والخبيثة.

وهؤلاء غير الجَهمية الذين ذكرهم بقوله:

فصل
في قدوم ركب آخر

وأتى قريبٌ ثُمَّ قارَبَ وَصْفَهُ ... هذا ولكنْ جَدَّ في الكُفْرانِ

فأتى بقولٍ مُعْطِلٍ ومُكَذِّبٍ ... في قالبِ التَّنزيهِ للرَّحمنِ

إذْ قالَ ليسَ بداخلٍ فيها ولا ... هُوَ خارجٌ عَنْ جُمْلَةِ الأكْوانِ

بَلْ قالَ ليسَ ببائنٍ عَنْها ولا ... فيها ولا هُوَ عَنْهُا ببيانِ

كَلاَّ ولا فَوْقَ السَّمواتِ العُلَى ... والعَرْشُ مِنْ رَبٍّ ولا رَحْمَنِ

والعَرْشُ ليسَ عليهِ مَعْبودٌ سِوَى الـ ... ـعَدَمِ الَّذي لا شيءَ في الأعيانِ

بَلْ حَظُّهُ مِنْ ربِّهِ حَظُّ الثَّرَى ... مِنْهُ وَحَظُّ قَواعِدِ البُنْيانِ

لَوْ كانَ فَوْقَ العَرْشِ كانَ كَهذِهِ الـ ... أجْسامِ سُبْحانَ العَظيمِ الشَّانِ

ولَقَدْ وَجَدْتُ لِفاضِلٍ مِنْهُمْ مَقا ... لاً قالَهُ في النَّاسِ مُنْذُ زَمانِ

قالَ اسْمَعُوا يا قَوْمُ إنَّ لَبيبَكُمْ ... قَدْ قالَ قَوْلاً واضِحَ البُرْهانِ

لا تَحْكُمُوا بالفَضْلِ لي أصْلاً عَلَى ... ذي الكَوْنِ بوسُنَ ذَلِكَ الفَضْلانِ

هذا يَرُدُّ عَلَى المُجَسِّمِ قَوْلَهُ ... اللهُ فَوْقَ العَرْشِ والأكْوانِ

ويَدُلُّ أنَّ إلهَنا سُبْحانَهُ ... وبِحَمْدِهِ يَلْقَى بِكُلِّ مَكانِ

قالُوا لَهُ بَيِّنْ لَنا هذا فَلَمْ ... يَفْعَلْ فَأعْطَوْهُ مِنَ الأثْمانِ

ألْقى مِنَ الذَّهَبِ العَتيقِ[1] فَقالَ في ... ثِيابِهِ فاسْمَعْ لِهذا البَيانِ

قَدْ كانَ بوسُنَ في قَرارِ البَحْرِ لَحْـ ... ـتَ الماءِ في قَعْرٍ مِنَ الحِيتانِ

ومُحَمَّدٌ صَعِدَ السَّماءَ وَجاوَزَ[2] السَّـ ... ـبْعَ الطِّباقَ وَجازَ كُلَّ مَكانِ

وكِلاهُما في[3] قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ ... سُبْحانَهُ إذْ ذاكَ مُسْتَوِيانِ

فالعَلْوُ والسُّفْلُ اللَّذانِ كِلاهُما ... في بُعْدِهِ مِنْ حَدِّهِ طَرَفانِ

---

(١) في (ب) [النقود].
(٢) في (ب) [فجاوز].
(٣) في (ب) [من].

إِنْ يَنْسَبَا لِلَّهِ نُزِّهَ عَنْهُمَا ... بِالاخْتِصَاصِ بَلَى هُمَا سِيَّانِ
فِي قُرْبِ مَنْ أَضْحَى مُقِيمًا فِيهِمَا ... مِنْ رَبِّهِ فَكِلاهُمَا مِثْلانِ
فَلأَجْلِ هَذَا خَصَّ يُونُسَ دُونَهُمْ ... بِالذِّكْرِ تَحْقِيقًا لِهَذَا الشَّانِ
فَأَتَى الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ ... مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِلا حُسْبَانِ
فَاحْمَدْ إِلَهَكَ أَيُّهَا السُّنِّي إِذْ ... عَافَاكَ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي بُهْتَانِ
وَاللهِ مَا يَرْضَى بِهَذَا خَائِفٌ ... مِنْ رَبِّهِ أَمْسَى عَلَى الإِيمَانِ
هَذَا هُوَ الإِلْحَادُ حَقًّا بَلْ هُوَ التَّـ ... ـحْرِيفُ مَحْضًا أَبْرَدَ الْهَذَيَانِ
وَاللهِ مَا بُلِي الْمُجَسِّمُ قَطُّ ذِي الْـ ... ـبَلْوَى وَلاَ أَمْسَى بِذِي الْخِذْلاَنِ
أَمْثَالُ ذَا التَّأْوِيلِ أَفْسَدَ هَذِهِ الْـ ... أَدْيَانَ حِينَ سَرَى إِلَى الأَدْيَانِ
وَاللهِ لَوْلاَ اللهُ حَافِظُ دِينِهِ ... لَتَهَدَّمَتْ مِنْهُ قُوَى الْبُنْيَانِ

الشرح

وهؤلاء هم الجَهمية الصرف الذين نفوا علوا الله على خلقه، ونفوا جميع صفاته كما تقدم بيان مذهبهم فنوا ما تواترت به الآيات القرآنية والنصوص النبوية، من علوه على خلقه واستوائه على عرشه، فرارًا بزعمهم من تشبيهه بالمعدومات، ولذلك قال بعض الفضلاء: لو قيل صفوا لنا: العدم لم نصفه بأبلغ من قول الجَهمية في الله: أنه لا داخل العالم ولا خارجه.

ثُمَّ من الغرائب استدلال بعض من يشار إليه منهم بقوله ﷺ: «ولا تفضلوني على يونس بن متى»[1].

يقول هذا الفاضل منه: إن مُحَمَّدًا عرج به إِلَى فوق السماوات السبع ويونس ابتلعه الحُوت فِي قرار البحر وكلاهما فِي قربه من ربه سواء، فهذا يدل على نفي العلو.

فانظر إِلَى هذا التعصب العظيم الذي أداه إِلَى هذا التحريف لِهذا الحَديث الذي لَمْ يقله أحد مِمَّن ينتسب للعلم.

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦).

وهذه حال الذين يتبعون المُتشابه، مع أن هذا الحديث واضح ليس بمتشابه، ويدعون النصوص الكثيرة المُحكمة المُصرحة بعلو الله على خلقه واستوائه على عرشه.

فاحمد الله أيها السني على العافية من هذا البلاء، وسله الثبات في الأمر.

فصل

في قدوم ركب آخر

وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصْفَهُ ... هَذَا وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الْمِيزَانِ

قَالَ اسْمَعُوا يَا قَوْمُ لاَ تُلْهِيكُمْ ... هَذِي الأَمَانِي عَنْ شُرُوطِ أَمَانِي

أَلْغَتْ رَاحِلَتِي وَكَلَّتْ مُهْجَتِي ... وَتَبَدَّلَتْ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي

فَشَخَصْتُ فَوْقَ وَتَحْتَ ثُمَّ أَمَامَنَا ... وَوَرَاءَ ثُمَّ يَسَارَ مَعْ أَيْمَانِ

مَا دَلِّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ هُنَاكُمُ ... كَلاَّ وَلاَ بَشَّرَ إِلَيْهِ هَدَانِي

إِلاَّ طَوَائِفُ بِالْحَدِيثِ تَمَسَّكَتْ ... لَعْزَى مَذَاهِبُهَا إِلَى الْقُرْآنِ

قَالُوا الَّذِي نَبِيُّهُ فَوْقَ عِبَادِهِ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَكِنَّهُ اسْتِوَاءٌ عَلَى الأَكْوَانِ

وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ كُلُّ قَوْلٍ طَيِّبٍ ... وَإِلَيْهِ يَرْفَعُ سَعْيَ ذِي الشُّكْرَانِ

وَالرُّوحُ وَالأَمْلاَكُ مِنْهُ تَنَزَّلَتْ ... وَإِلَيْهِ تَعْرُجُ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

وَإِلَيْهِ أَيْدِي السَّائِلِينَ تَوَجَّهَتْ ... نَحْوَ الْعُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ فَقَدَّرَتْ ... مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ

وَإِلَيْهِ قَدْ رَفَعَ الْمَسِيحُ حَقِيقَةً ... وَلَسَوْفَ يَنْزِلُ كَيْ يَرَى بِعِيَانِ

وَإِلَيْهِ تَصْعَدُ رُوحُ كُلِّ مُصَدِّقٍ ... عِنْدَ الْمَمَاتِ فَتَنْتَهِي بِأَمَانِ

وَإِلَيْهِ آمَالُ الْعِبَادِ تَوَجَّهَتْ ... نَحْوَ الْعُلُوِّ بِلاَ لَوَاصِ لَثَانِ

بَلْ فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي لَمْ يَفْطِرُوا ... إِلاَّ عَلَيْهَا الْخَلْقُ وَالْعُقْلاَنِ

وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُمْ فُطِرُوا عَلَى ... إِقْرَارِهِمْ لاَ شَكَّ بِالدَّيَّانِ

لَكِنَّ أُولُو التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا ... مَرْضَى بِدَاءِ الْجَهْلِ وَالْعِدْلاَنِ

فَسَأَلْتُ عَنْهُمْ رُفْقَتِي وَأَحِبَّتِي ... أَصْحَابَ جَهْمٍ حِزْبَ جَنْكِيزَ خَانِ

مَنْ هَؤُلاءِ وَمَنْ يَقَالُ لَهُمْ فَقَدْ ... جَاءُوا بِأَمْرٍ مَالِئِ الآذَانِ
وَلَهُمْ عَلَيْنَا صَوْلَةٌ مَا صَالَهَا ... ذُو بَاطِلٍ بَلْ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ
أَوَ مَا سَمِعْتُمْ قَوْلَهُمْ وَكَلامَهُمْ ... مِثْلَ الصَّوَاعِقِ لَيْسَ ذَا لِجَبَانِ
جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَأَتَيْتُمُو ... مِنْ تَحْتِهِمْ مَا أَنْتُمْ سِيَانِ
جَاءُوكُمْ بِالْوَحْيِ لَكِنْ جِئْتُمُ ... بِنُحَاتَةِ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ
قَالُوا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ فَلا ... تَسْمَعْ مَقَالَ مُجَسِّمٍ حَيْوَانِ
وَالْعَنْهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا وَاغْزُهُمْ ... بِعَسَاكِرِ التَّعْطِيلِ غَيْرَ جَبَانِ
وَاحْكُمْ بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِهِمْ ... أَوْ لا فَشَرِّدْهُمْ عَنِ الأَوْطَانِ
حَذِّرْ صِحَابَكَ مِنْهُمُ فَهُمُ أَضَلُّ ... مِنَ الْيَهُودِ وَعَابِدِي الصُّلْبَانِ
وَاحْذَرْ تُجَادِلُهُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ ... قَالَ الرَّسُولُ فَتَنْتَنِي بِهَوَانِ
أَنَّى وَهُمْ أَوْلَى بِهِ قَدْ أَنْفَذُوا ... فِيهِ قُوَى الأَذْهَانِ وَالأَبْدَانِ
فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِمْ فَغَالِطْهُمْ عَلَى التَّـ ... ـتَأْوِيلِ لِلأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
وَكَذَاكَ غَالِطْهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ لِلْـ ... آحَادِ ذَانِ لِصَحْبِنَا أَصْلانِ
أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ ... فَاحْفَظْهُمَا بِيَدَيْكَ وَالأَسْنَانِ
وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمْ بِمَشْهَدِ مَجْلِسٍ ... فَابْدَرْ بِإِيرَادٍ وَشُغْلِ زَمَانِ
لا يَمْلِكُوهُ عَلَيْكَ بِالآثَارِ وَالْـ ... أَخْبَارِ وَالتَّفْسِيرِ لِلْفُرْقَانِ
فَتَصِيرَ إِنْ وَافَقْتَ مِثْلَهُمُ وَإِنْ ... عَارَضْتَ زِنْدِيقًا أَخَا كُفْرَانِ
وَإِذَا سَكَتَّ يَقَالُ هَذَا جَاهِلٌ ... فَابْدَرْ وَلَوْ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ
هَذَا الَّذِي وَاللهِ أَوْصَانَا بِهِ ... أَشْيَاخُنَا فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ[1]
فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي وَقُلْتُ لِصَاحِبِي ... وَمَطِيَّتِي قَدْ آذَنَتْ بِحِرَانِ
عَطِّلْ رِكَابَكَ وَاسْتَرِحْ مِنْ سَيْرِهَا ... مَا ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ ذِي الأَكْوَانِ
لَوْ كَانَ لِلأَكْوَانِ رَبٌّ خَالِقٌ ... كَانَ الْمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ
أَوْ كَانَ رَبٌّ بَائِنٌ عَنْ ذِي الْوَرَى ... كَانَ الْمُجَسِّمُ صَاحِبَ الإِيمَانِ

---

(١) في (خ) [هذا الذي أوصى به أشياخنا في سالف الأوقات والأزمان].

وَلَكَانَ عِنْدَ النَّاسِ أَوْلَى الْخَلْقِ بِالْـ ... إِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ
وَلَكَانَ هَذَا الْحِزْبُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ اثْنَانِ
فَدَعِ الْتِكَالِيفَ الَّتِي حَمَّلْتَهَا ... وَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَارْمِ بِالأَرْسَانِ
مَا ثَمَّ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَمْ ... يَتَكَلَّمِ الرَّحْمَنُ بِالْقُرْآنِ
لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبٌّ نَاظِرٌ ... لَزِمَ التَّحَيُّزُ وَافْتِقَارُ مَكَانِ
لَوْ كَانَ ذَا الْقُرْآنُ عَيْنَ كَلَامِهِ ... حَرْفًا وَصَوْتًا كَانَ ذَا جُثْمَانِ
فَإِذَا انْتَفَى هَذَا وَهَذَا مَا الَّذِي ... يَبْقَى عَلَى ذَا النَّفْيِ مِنْ إِيمَانِ
فَدَعِ الْخَلَالَ مَعَ الْحَرَامِ لأَهْلِهِ ... فَهُمَا السِّبَاجُ لَهُمْ عَلَى الْبُسْتَانِ
فَاخْرُقْهُ ثُمَّ ادْخُلْ تَرَى فِي جَنْبِهِ ... قَدْ هُيِّئَتْ لَكَ سَائِرُ الأَلْوَانِ
وَتَرَى بِهَا مَا لاَ يَرَاهُ مُحَجَّبٌ ... مِنْ كُلِّ مَا تَهْوَى بِهِ زَوْجَانِ
وَاقْطَعْ عَلاَئِقَكَ الَّتِي قَدْ قَيَّدَتْ ... هَذَا الْوَرَى مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ
لِتَصِيرَ حُرًّا لَسْتَ تَحْتَ أَوَامِرٍ ... كَلاَّ وَلاَ لِيَ وَلاَ فُرْقَانِ
لَكِنْ جَعَلْتَ حِجَابَ نَفْسِكَ إِذْ تَرَى ... فَوْقَ السَّمَا لِلنَّاسِ مِنْ ذَيَّانِ
لَوْ قُلْتَ مَا فَوْقَ السَّمَاءِ مُدَبِّرٌ ... وَالْعَرْشُ تُخْلِيهِ مِنَ الرَّحْمَنِ
وَاللهُ لَيْسَ مُكَلِّمًا لِعِبَادِهِ ... كَلاَّ وَلاَ مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ
مَا قَالَ قَطُّ وَلاَ يَقُولُ وَلاَ لَهُ ... قَوْلٌ بَدَا مِنْهُ إِلَى إِنْسَانِ
لَحَلَلْتَ طَلْسَمَهُ وَفُزْتَ بِكَنْزِهِ ... وَعَلِمْتَ أَنَّ النَّاسَ فِي هَذَيَانِ
لَكِنْ زَعَمْتَ بِأَنَّ رَبَّكَ بَائِنٌ ... مِنْ خَلْقِهِ إِذْ قُلْتَ مَوْجُودَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْـ ... ـكُرْسِي حَقًّا فَوْقَهُ الْقَدَمَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ خَلْقَهُ ... وَيَرَاهُمُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ لَمَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلاَمَهُ مِنْهُ بَدَا ... وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ آخِرَ الأَزْمَانِ
وَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ الَّذِي ... لاَ يَنْبَغِي إِلاَّ لِلَذِي الْجُثْمَانِ
وَوَصَفْتَهُ بِإِرَادَةٍ وَبِقُدْرَةٍ ... وَكَرَاهَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلاَنِ

وَالْعِلْمُ وَصْفٌ زَائِدٌ عَنْ ذَاتِهِ ... عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِ ذِي جُثْمَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ كَلَّمَ عَبْدَهُ ... مُوسَى فَأَسْمَعَهُ نِدَا الرَّحْمَنِ
أَفَتَسْمَعُ الآذَانُ غَيْرَ الْحَرْفِ وَالصَّـ ... ـوْتِ الَّذِي خُصَّتْ بِهِ الأُذُنَانِ
وَكَذَا النِّدَاءُ فَإِنَّهُ صَوْتٌ بِإِجْـ ... ـمَاعِ النُّحَاةِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ
لَكِنَّهُ صَوْتٌ رَفِيعٌ وَهْوَ ضِدْ ... دٌ لِلنَّجَاءِ كِلاَهُمَا صَوْتَانِ
فَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ نَادَاهُ وَنَا ... جَاهُ وَفِي ذَا الزَّعْمِ مَحْذُورَانِ
قُرْبُ الْمَكَانِ وَبُعْدُهُ وَالصَّوْتُ بَلْ ... نَوْعَاهُ مَحْذُورَانِ مُمْتَنِعَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَسْرَى بِهِ ... لَيْلاً إِلَيْهِ فَهْوَ مِنْهُ دَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَوْمَ اللِّقَا ... بِدَنِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ بِالرِّضْوَانِ
حَتَّى يَرَى الْمُخْتَارُ حَقًّا قَاعِدًا ... مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ الرَّفِيعِ الشَّانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ لِعَرْشِهِ أَطًّا بِهِ ... كَالرَّحْلِ أَطَّ بِرَاكِبٍ عَجْلاَنِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ أَبْدَى بَعْضَهُ ... لِلطُّورِ حَتَّى عَادَ كَالْكُثْبَانِ
لَمَّا تَجَلَّى يَوْمَ تَكْلِيمِ الرِّضَى ... هُوَ سَى الْكَلِيمُ مُكَلِّمُ الرَّحْمَنِ
وَزَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا بَاقِيًا ... وَلَهُ يَمِينٌ بَلْ زَعَمْتَ يَدَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ يَدَيْهِ لِلسَّبْعِ الْعُلَى ... وَالأَرْضِ يَوْمَ الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ يَمِينَهُ مَلأَى مِنَ الْـ ... ـخَيْرَاتِ مَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي الأُخْرَى بِهَا ... رَفْعٌ وَخَفْضٌ وَهْوَ بِالْمِيزَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ الْخَلْقَ طُرًّا عِنْدَهُ ... يَهْتَزُّ فَوْقَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ
وَزَعَمْتَ أَيْضًا أَنَّ قَلْبَ الْعَبْدِ مَا ... بَيْنَ اثْنَتَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ عَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا ... يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ يَقْتَتِلاَنِ
مِنْ عَبْدِهِ يَأْتِي فَيُبْدِي نَحْرَهُ ... لِعَدُوِّهِ طَلَبًا لِنَيْلِ جِنَانِ
وَكَذَاكَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا يَثِبُ الْفَتَى ... مِنْ فَرْشِهِ لِتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ
وَكَذَاكَ يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ ... إِذْ أَجْدَبُوا وَالْغَيْثُ مِنْهُمْ دَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَرْضَى عَنْ أُولِي الْـ ... ـحُسْنَى وَيَغْضَبُ عَنْ أُولِي الْعِصْيَانِ

وزعمت أن الله يسمع صوته ... يوم المعاد بعبده والداني
لسنا بنادبهم ألا الديان لا ... ظلم لدي فيسمع الثقلان
وزعمت أن الله يشرق نوره ... ويضيء يوم الفصل والميزان
وزعمت أن الله يكشف ساقه ... فيخر ذاك الجمع للأذقان
[وزعمت أن الله يبسط كفه ... لمسيئنا ليتوب من عصيان]
وزعمت أن يمينه تطوي السما ... طي السجل على كتاب بيان
وزعمت أن الله ينزل في الدجى ... في ثلث ليل آخر أو ثان
فيقول هل من سائل فأجيبه ... فأنا القريب أجيب من لباني
وزعمت أن له لزولاً ثانيا ... يوم القيامة للقضاء الثاني
وزعمت أن الله يبدو جهرة ... لعباده حتى يرى بعيان
بل يسمعون كلامه ويرونه ... فالمثقلتان إليه ناظرتان
وزعمت أن لربنا قدمًا وأن ... ن الله واضعها على النيران
فهناك يدنو بعضها من بعضها ... وتقول قط قط حاجتي وكفاني
وزعمت أن الناس يوم مزيدهم ... كل يحاجر ربه ويداني
بالحاء مع ضاد وجامع صادها ... وجهان في ذا اللفظ محفوظان
في الترمذي ومسند وسواهما ... من كتب تجسيم بلا كتمان
ووصفته بصفات حي فاعل ... بالاختيار وذا يبيك الأصلان
أصل التفرق بين هذا الخلق في ال ... باري فكن في النفي غير جبان
أو لا فلا تلعب بدينك ناقضا ... نفيا بإثبات بلا فرقان
فالناس بين معطل أو مثبت ... أو قائل متناقض صعبان
والله ليست براجع لهم بلى ... إثبات جبار أو من النيران
فاسمع بإكبار الجميع ولا تكن ... متناقضا رجلا له وجهان
أو لا ففرق بين ما أثبته ... وتفيته بالنص والبرهان
فالباب باب واحد في النفي والـ ... إثبات في عقل وفي ميزان

فَمَتَى أَقَرَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ مُثْبِتٌ ... لَزِمَ الْجَمِيعَ أَوِ انْتَ بِالْفُرْقَانِ
وَمَتَى نَفَى شَيْئًا وَأَثْبَتَ مِثْلَهُ ... فَمُجَسِّمٌ مُتَنَاقِضٌ دَيْصَانِ
فَذَرُوا الْمِرَاءَ وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ ... ـقُدَمَاءِ وَانْسَلِخُوا مِنَ الإِيمَانِ
أَوْ قَاتِلُوا مَعَ أُمَّةِ التَّجْسِيمِ وَالتَّـ ... ـشْبِيهِ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الْقُرْآنِ
أَوْ لاَ فَلاَ تَتَلاَعَبُوا بِعُقُولِكُمْ ... وَكِتَابِكُمْ وَبِسَائِرِ الأَدْيَانِ
فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِصِفَاتِهِ ... وَكَلاَمِهِ وَعُلُوِّهِ بِبَيَانِ
وَالنَّاسُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ أَوْ جَاحِدٍ ... أَوْ بَيْنَ ذَلِكَ أَوْ شَبِيهٍ أَتَانِ
فَاصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا ... وَانْفِ الْجَمِيعَ بِصَنْعَةٍ وَبَيَانِ
وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الإِثْبَاتِ بِالتَّـ ... ـتَجْسِيمِ ثُمَّ احْمِلْ عَلَى الأَقْرَانِ
فَمَتَى سَمَحْتَ لَهُمْ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ ... حَمَلُوا عَلَيْكَ بِحَمْلَةِ الْفُرْسَانِ
فَصُرِعْتَ صَرْعَةَ مَنْ غَدَا مُتَلَبِّطًا ... وَسْطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقَ اللَّحْمَانِ
فَلِذَاكَ أَنْكَرْنَا الْجَمِيعَ مَخَافَةَ التَّـ ... ـتَجْسِيمِ أَنْ صِرْنَا إِلَى الْقُرْآنِ
وَلِذَا خَلَعْنَا رِبْقَةَ الأَدْيَانِ مِنْ ... أَعْنَاقِنَا فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
وَلَنَا مُلُوكٌ قَاوَمُوا الرُّسْلَ الأُلَى ... جَاءُوا بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ كَمَانِ
فِي آلِ فِرْعَوْنٍ وَهَامَانٍ وَقَا ... رُونٍ وَنُمْرُودٍ وَجَنْكِيزَ خَانِ
وَلَنَا الأَئِمَّةُ كَالْفَلاَسِفَةِ الأُلَى ... لَمْ يَعْبَثُوا أَصْلاً بِذِي الأَدْيَانِ
مِنْهُمْ أَرِسْطُو ثُمَّ شِيعَتُهُ إِلَى ... هَذَا الأَوَانِ وَعِنْدَ كُلِّ أَوَانِ
مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ خَارِجَ هَذِهِ الأَكْوَانِ
كَلاَّ وَلاَ قَالُوا بِأَنَّ إِلَهَنَا ... مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
وَلأَجْلِ هَذَا رَدَّ فِرْعَوْنٌ عَلَى ... مُوسَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الإِيمَانِ
إِذْ قَالَ مُوسَى رَبُّنَا مُتَكَلِّمٌ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَأَنَّهُ مُتَدَانِي
وَكَذَا ابْنُ سِينَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ وَلاَ ... أَتْبَاعُهُ بَلْ صَانَعُوا بِدِهَانِ
وَكَذَلِكَ الطُّوسِي لَمَّا أَنْ غَدَا ... ذَا قُدْرَةٍ لَمْ يَخْشَ مِنْ سُلْطَانِ
قَتَلَ الْخَلِيفَةَ وَالْقُضَاةَ وَحَامِلِي الْـ ... ـقُرْآنِ وَالْفُقَهَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

إذْ هُمْ مُتَحَيِّرَةٌ مُجَسِّمَةٌ وَمَا ... دَالُوا بِدِينِ أَكَابِرِ اليُونَانِ

وَلَنَا المَلَاحِدَةُ الفُحُولُ أَئِمَّةُ النَّـ ... ـتَعْطِيلِ وَالتَّشْكِيكِ آلُ سِنَانِ

وَلَنَا الصَّنَائِفُ بِهَا غَالَتْهُمُ ... مِثْلَ الشَّفَا وَرَسَائِلِ الإِخْوَانِ

وَكَذَا الإِشَارَاتُ الَّتِي هِيَ عِنْدَكُمْ ... قَدْ ضُمِّنَتْ لِقَوَاطِعِ البُرْهَانِ

قَدْ صَرَّحَتْ بِالضِّدِّ مِمَّا جَاءَ فِي النَّـ ... ـقَوْزَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ

هِيَ عِنْدَكُمْ مِثْلُ الفُصُوصِ وَقَوْلُهَا ... فِي حُجَّةٍ قَطْعِيَّةٍ وَبَيَانِ

وَإِذَا تَحَاكَمْتُمَا فَإِنَّ إِلَيْهِمُ ... يَقَعُ التَّحَاكُمُ لَا إِلَى القُرْآنِ

إِذْ قَدْ تُسَاعِدُنَا بِأَنَّ نُصُوصَهُ ... لَفْظِيَّةٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ

فَلِذَاكَ حَكَّمْنَا عَلَيْهِ وَأَنْتُمُ ... قَوْلَ المُعَلِّمِ أَوَّلاً وَالثَّانِي

يَا وَيْحَ جَهْمٍ وَابْنِ دِرْهَمَ وَالأُلَى ... قَالُوا بِقَوْلِهِمَا مِنَ الخُسْرَانِ

بَقِيَتْ مِنَ التَّشْبِيهِ فِيهِ بَقِيَّةٌ ... نَقَضَتْ قَوَاعِدَهُ مِنَ الأَرْكَانِ

بِنَفِي الصِّفَاتِ مُخَالَفَةَ التَّجْسِيمِ لَا ... يَلْوِي عَلَى خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ

وَيَقُولُ إِنَّ اللهَ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى ... وَكَذَاكَ يَعْلَمُ سِرَّ كُلِّ جَنَانِ

وَيَقُولُ إِنَّ اللهَ قَدْ شَاءَ الَّذِي ... هُوَ كَائِنٌ مِنْ هَذِهِ الأَكْوَانِ

وَيَقُولُ إِنَّ الفِعْلَ مَقْدُورٌ لَهُ ... وَالكَوْنُ يَنْسُبُهُ إِلَى الحُدْثَانِ

وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ يَصْرُخُ فِي الوَرَى ... وَاللهِ مَا هَذَانِ مُتَّفِقَانِ

لَكِنَّ قُلْتَ مُحَالٌ كُلُّ ذَا ... حَذَرًا مِنَ التَّجْسِيمِ وَالإِمْكَانِ

الشرح

وهؤلاء طائفة من أذكياء الفلاسفة مضمون مذاهبهم وخلاصتها أنهم لما رأوا مذاهب الجَهمية والمتكلمين متناقضة متضاربة: ينفون الشيء ويثبتون نظيره وما هو أولى منه.

ويقطعون بالشيء في موضع وبضده في موضع آخر.

ورأوا مذاهب أهل السنة والجَماعة محكمة، متناسبة دائرة مع ما جاء به الكتاب والسنة، فعرفوا بذكائهم وحرية فكرهم أن القول الحَق هو قول أهل السنة والجَماعة وما

سواء فمعروف بطلانه ببداهة العقول، ولكن حال بينهم وبين اتباع هذا القول تنفير الناس عنه وتلقيبهم لأهله بأنه مُجسمة مشبهة حشوية ونحوها من الألقاب الشنيعة الَّتي ينفر من أهلها أكثر الناس ويهابونها، فلم يكن عندهم من القوة والبصيرة التامة ما يوجب لهم اتباعهم ومُخالفة الجُمهور، وهم قد عرفوا بطلان مذهب الجَهمية ونحوهم، فانحلوا بذلك من الشرائع كلها وصرحوا بمذاهب ملاحة الفلاسفة وقالوا صريحًا: إذا لم نتبع المُجسمة -يعنون أهل السنة المُثبتين لما جاء به الرسول من الصفات- فلا نرضى لأنفسنا بمذهب الجَهمية وأهل الكلام المُتناقضين، فانظر كيف صارت بدعة التجهم من أعظم الأسباب لتمسك المُلحدين في إلحادهم، لظنهم أن ما عليه أهل الكلام هو ما جاء به الرسول، فأساءوا الظن بالشريعة، وصار مع ذلك هؤلاء المُبتدعون يخضعون للفلاسفة في بحوثهم ومناظراتهم معهم؛ لأنهم وافقوهم في كثير من أصولهم الفاسدة، وإلا فلو قابل هؤلاء الفلاسفة أهل السنة والجَماعة الذين سلاحهم ما جاء به الكتاب والسنة وما دلت عليه صرائح العقول لَمْ يثبتوا لهم بوجه من الوجوه، ولقامت الحُجة عليهم اهتدى من كان قصده الهُدى؛ لأن المناظرة بالحَق وبطرقه الحَقيقة هو السبب الوحيد للرشاد والإرشاد.

فصل
في قدوم ركب الإيمان وعسكر القرآن

وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالُوا أَلَا اسْمَعُوا ... قَدْ جِئْنَكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الإِتْقَانِ

مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مُهَاجِرِ أَحْمَدٍ ... بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ وَالتِّبْيَانِ

سَافَرْتُ فِي طَلَبِ الإِلَهِ فَدَلَّنِي الـ ... ـهَادِي عَلَيْهِ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

مَعَ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَصَرِيحِ عَقْلِي فَاعْقِلِي بُرْهَانِ

فَتَوَافَقَ الْوَحْيُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرْ ... رَحْمَنِ وَالْمَعْقُولُ فِي إِتْقَانِ

شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ ... مُتَفَرِّدٌ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ

وَهُوَ الإِلَهُ الْحَقُّ لَا مَعْبُودَ إِلَّـ ... ـا وَجْهُهُ الأَعْلَى الْعَظِيمُ الشَّانِ

نَزَلَ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ ... مِنْ عَرْشِهِ حَتَّى الْحَضِيضِ الدَّانِي

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَمَدَارُهُ بِالأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ ... لاَ بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فَقِيَامُ دِينِ اللهِ بِالإِخْلاَصِ وَالـ ... ـإِحْسَانِ أَلْهَمَنَا لَهُ أَصْلاَنِ

لَمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الإِلَهِ وَنَارِهِ ... إِلاَّ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَصْلاَنِ

وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ أَوْ لَهُ الْوَصْفَانِ

وَاللهُ لاَ يَرْضَى بِكَثْرَةِ فِعْلِنَا ... لَكِنْ بِأَحْسَنِهِ مَعَ الإِيمَانِ

فَالْعَارِفُونَ مُرَادُهُمْ إِحْسَانُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ عَمُوا عَنِ الإِحْسَانِ

وَكَذَاكَ قَدْ شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ ذُو ... سَمْعٍ وَذُو بَصَرٍ هُمَا صِفَتَانِ

وَهُوَ الْعَلِيُّ يَرَى وَيَسْمَعُ خَلْقَهُ ... مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ فَوْقَ بِنْتِ ثَمَانِ

فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

وَضَجِيجُ أَصْوَاتِ الْعِبَادِ بِسَمْعِهِ ... وَلَدَيْهِ لاَ يَشْتَابُهُ الصَّوْتَانِ

وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يُوَسْوِسُ عَبْدُهُ ... فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ نُطْقٍ لِسَانِ

بَلْ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الذَّاتِي مَعَ الـ ... ـمَاضِي وَذُو الإِسْرَارِ وَالإِعْلاَنِ

وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالْمَعْلُومُ فِي ذَا الآنِ

وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ... ـفَ يَكُونُ مَوْجُودًا لِذِي الأَعْيَانِ

وَهُوَ الْقَدِيرُ فَكُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ مَقْـ ... ـدُورٌ لَهُ طَوْعًا بِلاَ عِصْيَانِ

وَعُمُومُ قُدْرَتِهِ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... هُوَ خَالِقُ الأَفْعَالِ لِلْحَيَوَانِ

هِيَ خَلْقُهُ حَقًّا وَأَفْعَالٌ لَهُمْ ... حَقًّا وَلاَ يَتَنَاقَضُ الأَمْرَانِ

لَكِنْ أَهَلَّ الْجَبْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْـ ... أَقْدَارِ مَا انْفَتَحَتْ لَهُمْ عَيْنَانِ

نَظَرُوا بِعَيْنِي أَعْوَرٍ إِذْ فَاتَهُمْ ... نَظَرُ الْبَصِيرِ وَغَارَتِ الْعَيْنَانِ

فَحَقِيقَةُ الْقَدَرِ الَّذِي حَارَ الْوَرَى ... فِي شَأْنِهِ هُوَ قُدْرَةُ الرَّحْمَنِ

وَاسْتَحْسَنَ ابْنُ عَقِيلِ ذَا مِنْ أَحْمَدٍ ... لَمَّا حَكَاهُ عَنِ الرِّضَا الرَّبَّانِي

قَالَ الإِمَامُ شِفَا الْقُلُوبِ بِلَفْظَةٍ ... ذَاتِ اخْتِصَارٍ وَهْيَ ذَاتُ بَيَانِ

الشرح

ذكر المُصنف أن هذا الركب لما قدموا من سفرهم وعرضوا بضاعتهم وتجارتهم فأخبروا أن مذهبهم مبني على الحَق والصدق واليقين، مؤسس على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان من القرون المُفضلة، ومع ذلك فهو الحَق الذي يؤيده العقل الصريح ويعتر به أولو الألباب، والعقول الوافية لما كانت مبنية على هذا الأصل العظيم والصراط المُستقيم، لا يتفرع عنها إلا كل خير مزك للنفوس مصلح للعقائد مُتمم للأخلاق الفاضلة مكمل للأعمال الصالحة.

وهاك تفصيل عقيدتهم:

فإنهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّد رسوله، وأن الله متفرد بالخَلق، والمُلك والسلطان، والتدبير، فليس له في ذلك شريك ولا عوين، وأنه الإله الحَق الذي لا معبود سواه، وأن كل ما عبد من دونه من ملك مقرب أو نبي مرسل أو غيرهما فعبادته من أبطل الباطل وأعظم الشرك، ويقومون بعبودية ربهم بكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، يخلصونها لله، ويتابعون فيها رسول الله، ويتقربون بها إلى ربهم على وجه المحبة التامة والذل الكامل، فإن عبادة الله على هذين الأصلين: الإخلاص والمُتابعة الناشئين على مَحبة الله وتعظيمه. فعبودية الله الظاهرة والباطنة تدور على هذا، ولا نجاة ولا فلاح إلا بذلك.

ويرون أعظم التقربات إلى الجَد في إحسان الأعمال وإكمالها وإيقاعها على أكمل الوجوه، مع استحضار مقام المُراقبة لله وقت تلبس العبد بها، فيجتهدون في إتقان العمل وتنقيته من جميع المنقصات، ويعلمون أن هذا مراد الله من عباده كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

ويقرون ويعتقدون بجميع ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته وأفعاله، ويقولون: إنه عليٌّ على خلقه، مستو على عرشه يدبر أمر العباد ويراهم ويسمعهم ويشاهد

---

(١) [الملك: ٢].

حركاتهم وسكناتهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى خائنة الأعين ويعلم ما تخفي الصدور، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين.

وهو العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا فيعلم ما توسوس به الصدور، والخفيات والجليات من الأمور، وما فوق السماوات السبع وتحت الأرضين السبع، والقريب والبعيد عنده سواء.

ويعلم العالم العلوي والسفلي وما احتوت عليه من أصناف المخلوقات: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[1]، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن ولو كان كيف يكون.

وهو القدير على كل شيء، فجميع الأشياء منقادة لقدرته، تابعة لمشيته، لا تستعصي عليه ولا تمتنع منه.

قالوا: وهذا العموم يتناول كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، فيدخل في ذلك أفعال العباد من الطاعات والمعاصي فإنها داخلة تحت قدرة الله ومشيته، وكما أنه المريد لها القادر عليها فإنهم هم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيتهم، كما جمع الله بين هذين الأصلين في عدة مواضع من كتابه منها قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[2]. لكن الجبرية والقدرية لم يوفقوا للجمع بين إثبات القدر والقضاء وبين إثبات أفعال العباد، فالجبرية تقدم مذهبهم أنهم يثبتون القدر وعمومه ويعتقدون أنهم مجبورون مقهورون على أفعالهم وقابلهم القدريةُ النفاةُ فزعموا أن قدرة الله لا تتناول أفعال العباد.

وكل من الطائفتين نظرت نظرًا قاصرًا، فلم يؤمنوا بالكتاب كله الدال على إثبات عموم

---

(١) [الأنعام: ٥٩].

(٢) [التكوير: ٢٨-٢٩].

قضاء الله وقدره ومشيئته، وعلى أن الأفعال واقعة من العباد بقدرتهم ومشيئتهم، فلو وفقوا لذلك كما وفق له أهل السنة والجماعة لهدوا، ولذلك قال الإمام أحمد -رحمه الله-: القدر هو قدرة الله واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد وقال: إنه شفي بهذه الكلمة ووفى.

فإن هذه الحقيقة هي التي افترق الناس فيها كما تقدم التفصيل.

والحاصل أن أهل السنة أثبتوا عموم قدرة الله وتمام حكمته وشرعة وقدره ويعتقدون أنه الحي القيوم، فالحي له صفات الحياة كلها من السمع والبصر والعلم والقدرة وغير ذلك من المعاني العظيمة والنعوت الكاملة التي لا تتم الحياة الكاملة بدونها وإثباتها لله على أكمل الوجوه.

فلا يعرض لها ما يضادها من الموت والنوم والسنة والعجز والنقص بوجه من الوجوه.

والقيوم الذي له العظمة كلها: الذي قام بنفسه وقام به كل شيء، الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

وكل الصفات الفعلية والمجد والعظمة والجلال ترجع إلى اسمه القيوم، ومرجع صفات الكمال كلها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين.

ولذلك ورد الحديث أن اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[1].

لاشتمالها على جميع الكمالات، فصفات الذات ترجع إلى الحي ومعاني الأفعال ترجع إلى القيوم.

ويعتقدون أن له الإرادة النافذة في جميع الموجودات وبها خصص ما شاء من المخلوقات بالصفات المتباينة والنعوت المتنوعة، وأنه يحب الصالحين من عباده، المتقين المحسنين.

ويحب الأعمال الصالحة، ويكره الكفر والفسوق وأهلهما وأن إرادته ومشيئته غير كراهته ومحبته، فالإرادة عامة لكل ما وجد من محبوب ومكروه، والمحبة والكراهة خاصتان كما تقدم، وأن له الرحمة الواسعة والإحسان العظيم الذي ملأ جميع المخلوقات، فهو الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، وله الكمال المطلق التام الذي لا يعتريه نقص ولا يشابهه ولا يماثله أو يقاربه في كماله أحد، فإنه الكامل الذي ليس كمثله شيء في كماله وتفرده به.

---

(١) [البقرة: ٢٥٥].

ومن الأدلة العقلية على كماله أنه تعالى خلق أجناس المخلوقات وأودعها ما اقتضته حكمته وحمده من الكمال اللائق بها، ومن أعطى الكمال فهو أحق بالكمال من المعطي وهو بخلاف اللوازم البشرية اللازمة لنقص البشر التي لا ينفك الإنسان عنها، كالنوم والأكل والشرب والجماع والحاجات ونحوها من لوازم المخلوق المحدث، فإن الله يتقدس عنها وينتزه عن جميع خصائص البشر، ومن قول أهل السنة والجماعة قولهم في الكلام: وإن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا؛ فإن الكلام من صفات الكمال، والله تعالى لم يزل ولا يزال له الكمال المطلق فكلامه القرآن هو المقروء بالألسنة المحفوظ في الصدور المسموع بالآذان، وكلامه من جملة صفاته الفعلية، فهو متصف به وهو متعلق بمشيئته وقدرته، وليس مخلوقًا؛ لأن الكلام صفة المتكلم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1].

صدقًا في أخبارها وعدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها، وكلماته لا تنفد ولا تبيد: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[2].

وهذا الوصف لا يكون للمخلوق، والنبي ﷺ قد استعاذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، وهذا يدل على أنه من صفاته، لأن كل مخلوق ينفد ويبيد والمخلوق لا يستعاذ به وإنما يستعاذ بالله وأسمائه وصفاته.

والقرآن كلام الله غير مخلوق ألفاظه ومعانيه، فهو كلام رب العالمين وتنزيله ووحيه، وأما أفعال العباد كأصواتهم ومدادهم الذي به يكتبون القرآن والرق الذي يكتبون عليه فإن ذلك من جملة المخلوق، ولذلك يقولون: الكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري، والمداد مداد الكاتب، والكتابة فعل الكاتب، هذا كله إذا أخبر عن كلام الله الذي يكون بهذه الوسائط، فأما إذا سمع من الله تعالى كما سمعه موسى بن عمران فإن المخلوق في هذه الحالة هو سمع العبد، وأما الكلام وصوت المتكلم به فإنه من نعوت الله وصفاته، وهذا الفرق ثابت عن الإمام أحمد والبخاري وغيرهما من أئمة أهل السنة واتفق على ذلك أصحابهم وأتباعهم.

---

(١) [الأنعام: ١١٥].

(٢) [لقمان: ٢٧].

وخالفهم في هذا طائفتان من الناس:

إحداهما: الجَهمية كما تقدم قولهم أن القرآن مَخلوق ألفاظه ومعانيه.

والثانية: الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية القائلين بأن القرآن نوعان ألفاظ ومعان:

فالألفاظ: مَخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمة قائمة في النفس وهي معنًى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، أو بالسريانية كان إنجيلاً.

وهذا القول تصوره كاف بمعرفة بطلان وليس لهم دليل ولا شبهة على هذا القول الذي لم يقله أحد غيرهم إلا استدلالهم ببيت يقال أنه للأخطل النصراني وهو قوله إن ثبت وإلا فكثير من النحويين ينكرون أنه له:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ويعبر عنه اللسان، وأما الكلام الذي في اللسان فقط فهذا يشبه كلام النائم والهاذي ونحوهما، وهب أنه دل على القول الذي قالوه فيكف يتركون لأجله أدلة الكتاب والسنة، والذي يعقله العقلاء بعقولهم أن الكلام صفة للمتكلم، وأنه الكلام المسموع منه، وأن ما في النفس لا يسمى كلامًا بوجه من الوجوه، وأيضًا فإن النصارى غلطهم في الأصول والفروع معروف فإنهم غلطوا في معنًى الإله أظهر الأشياء وأجلاها حيث قالوا في وصف المسيح أقوالا عظيمة وافتراء كبيرًا فزعموا أن في عيسى وصفين متباينين كل المباينة:

وصف الإلهية: وهي المعبر عنها عندهم باللاهوت، ووصف الإنسانية وهي المعبر عنها عندهم بالناسوت، فهو عندهم قديم مُحدث بمَا فيه من هذين الوصفين.

وقول الكلابية من هذا الجِنس: أن القرآن شطره قديم وهو المُعنَى النفسي وشطره مُحدث وهو هذا الموجود في المُصحفن فهو عندهم عبارة أو حكاية عن كلام الله، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول وبين بطلانه في رسالته التسعينية، فبين تسعين وجهًا كل واحد منها يدل على بطلانه أدلة نقلية وأدلة عقلية.

وبعض هؤلاء الكلابية والأشعرية قالوا: إنه خمسة معان:

الأمر بكل مأمورن، والنهي عن كل منهي، والإخبار بكل خبر، والاستفهام عن المعاني.

ومجموع هذه المعاني الخامس.

فتكون هذه أنواعًا للكلام، وعلى قول الأولين تكون أوصافًا له ولكن اتفقت الطائفتان أن الذي جاء به جبريل إلى مُحَمَّد ﷺ وبلغه مُحَمَّد أمته مخلوق كقول المُعتزلة سواء، فمنهم من قال: خلقه في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال: أن جبريل ألهمه إلهامًا، ومنهم من قال: بل مُحَمَّد، وهذا القول كما قال من اعترف منهم أنه لا فرق بينه وبين قول المُعتزلة إلا في اللفظ وإلا فهو معنى قولهم.

وأما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة أن القرآن كلام الله حقيقة غير مخلوق، نزل به جبريل من عند الله وسمعه من الله، فنزل به على مُحَمَّد ﷺ فهو كلام الله حقًا حيث تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون، وهو المُعجز بلفظه ومعناه.

فصل

وَلَهُ الْحَيَاةُ كَمَا لَهَا فَلأَجْلِ ذَا ... مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

وَكَذَلِكَ الْقَيُّومُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... مَا لِلْمَنَامِ لَدَيْهِ مِنْ غَشَيَانِ

وَكَذَاكَ أَوْصَافُ الْكَمَالِ جَمِيعُهَا ... ثَبَتَتْ لَهُ وَمَدَارُهَا الْوَصْفَانِ

فَمُصَحِّحُ الأَوْصَافِ وَالأَفْعَالِ وَالْـ ... أَسْمَاءِ حَقًّا ذَانِكَ الْوَصْفَانِ

وَلأَجْلِ ذَا جَاءَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُ ... فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَذِي عِمْرَانِ

اسْمُ الإِلَهِ الأَعْظَمُ انْتَظَمَا عَلَى اسْـ ... ـمِ الْحَيِّ وَالْقَيُّومِ مُقْتَرِنَانِ

فَالْكُلُّ مَرْجِعُهَا إِلَى الإِسْمَيْنِ بَدْ ... رِي ذَاكَ ذُو بَصَرٍ بِهَذَا الشَّانِ

وَلَهُ الإِرَادَةُ وَالْكَرَاهَةُ وَالرِّضَا ... وَلَهُ الْمَحَبَّةُ وَهُوَ ذُو الإِحْسَانِ

وَلَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ الْعَارِي عَنِ النَّـ ... ـقْصَانِ وَالتَّمْثِيلِ بِالإِنْسَانِ

وَكَمَالُ مَنْ أَعْطَى الْكَمَالَ لِنَفْسِهِ ... أَوْلَى وَأَقْدَمُ وَهُوَ أَعْظَمُ شَانِ

أَيَكُونُ قَدْ أَعْطَى الْكَمَالَ وَمَا لَهُ ... ذَاكَ الْكَمَالُ أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ

أَيَكُونُ إِنْسَانٌ سَمِيعًا مُبْصِرًا ... مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ

وَلَهُ الْحَيَاةُ وَقُدْرَةٌ وَإِرَادَةٌ ... وَالْعِلْمُ بِالْكُلِّيِّ وَالأَعْيَانِ

وَاللهُ قَدْ أَعْطَاهُ ذَاكَ وَلَيْسَ هَـ ... ـذَا وَصْفَهُ فَاعْجَبْ مِنَ الْبُهْتَانِ

بخلاف قوم العبد ثم جماعه ... والأكل منه وحاجة الأبدان
إذ تلك ملزومات كون العبد محـ ... ـتاجا وتلك لوازم الثقلان
وكذا لوازم كونه جسدا نعم ... ولوازم الأحداث والإمكان
يتقدس الرحمن جل جلاله ... عنها وعن أعضاء ذي جسمان
والله ربي لم يزل متكلما ... وكلامه المسموع بالآذان
صدقا وعدلا أحكمت كلماته ... طلبا وإخبارا بلا نقصان
ورسوله قد عاذ بالكلمات من ... لدغ ومن عين ومن شيطان
أبعاذ بالمخلوق خاشاه من الـ ... إشراك وهو معلم الإيمان
بل عاذ بالكلمات وهي صفاته ... سبحانه ليست من الأكوان
وكذلك القرآن عين كلامه الـ ... ـمسموع منه حقيقة ببيان
هو قول ربي كله لا بعضه ... لفظا ومعنى ما هما خلقان
تنزيل رب العالمين وقوله اللـ ... ـفظ والمعنى بلا روغان
لكن أصوات العباد وفعلهم ... كمدادهم والرق مخلوقان
فالصوت للقاري ولكن الكلا ... م كلام رب العرش ذي الإحسان
هذا إذا ما كان ثم وساطة ... كقراءة المخلوق للقرآن
فإذا انتفت تلك الوساطة مثل ما ... قد كلم الموسى من عمران
فهنالك المخلوق نفس السمع لا ... شيء من المسموع فافهم ذان
هذي مقالة أحمد ومحمد ... وحصولهم من بعد طائفتان
إحداهما زعمت بأن كلامه ... خلق له ألفاظه ومعاني
والآخرون أبوا وقالوا شطره ... خلق وشطر قام بالرحمن
زعموا القرآن عبارة وحكاية ... قلنا كما زعموه قرآنان
هذا الذي تتلوه مخلوق كما ... قال الولي وبعده الفتان
والآخر المعنى القديم فقائم ... بالنفس لم يسمع من الديان
والأمر عين النهي واسمفهامه ... هو عين إخبار وذو وخبران[1]

(١) في (ح) [وذا وجدان] بدل [وذو وخبران].

وَهُوَ الزَّبُورُ وَعَيْنُ تَوْرَاةٍ وَإِنْـ ... ـجِيلٍ وَعَيْنِ الذِّكْرِ وَالْفُرْقَانِ

الْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ ... لاَ يَقْتَضِي التَّبْعِيضَ فِي الأَذْهَانِ

مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلاَ بَعْضٌ وَلاَ ... حَرْفٌ وَلاَ عَرَبِيٌّ وَلاَ عِبْرَانِي

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يَقُولُ الأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

يَا قَوْمُ قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى قَبْلُ فِي ... مَعْنَى الْكَلاَمِ وَمَا اهْتَدَوْا لِبَيَانِ

وَلأَجْلِ ذَا جَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهَهُمْ ... إِذْ قِيلَ كَلِمَةُ خَالِقِ رَحْمَنِ

وَلأَجْلِ ذَا جَعَلُوهُ نَاسُوتًا وَلاَ ... هُوتًا قَدِيمًا بَعْدُ مُتَّحِدَانِ

وَتَطَيَّرُ هَذَا مَنْ يَقُولُ كَلاَمُهُ ... مَعْنًى قَدِيمًا غَيْرُ ذِي حِدْثَانِ

وَالشَّطْرُ مَخْلُوقٌ وَتِلْكَ حُرُوفُهُ ... نَاسُوتُهُ لَكِنْ هُمَا غَيْرَانِ

فَانْظُرْ إِلَى ذَا الاِتِّفَاقِ فَإِنَّهُ ... عَجَبٌ وَطَالِعُ سُنَّةِ الرَّحْمَنِ

وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ إِنَّ ذَا ... قَوْلٌ مُحَالٌ وَهْوَ حَسْمُ مَعَانِ

تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ وَمَعْنًى جَامِعٌ ... لِجَمِيعِهَا كَالأُسِّ لِلْبُنْيَانِ

فَيَكُونُ أَنْوَاعًا وَعِنْدَ نُظَيْرِهِمْ ... أَوْصَافُهُ وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ

إِنَّ الَّذِي جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لَمَخْـ ... ـلُوقٌ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

وَالْخَلْقُ بَيْنَهُمُ فَقِيلَ مُحَمَّدٌ ... أَنْشَاهُ لَفْظًا غَيْرَ الْقُرْآنِ

وَالآخَرُونَ أَبَوْا وَقَالُوا إِنَّمَا ... جِبْرِيلُ أَنْشَاهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ إِنَّهُ ... نَقَلٌ مِنَ اللَّوْحِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

فَاللَّوْحُ مَنْدُوبٌ وَرَبُّ اللَّوْحِ قَدْ ... أَنْشَاهُ خَلْقًا فِيهِ ذَا حِدْثَانِ

هَذِي مَقَالاَتٌ لَهُمْ فَانْظُرْ تَرَى ... فِي كُتْبِهِمْ يَا مَنْ لَهُ عَيْنَانِ

لَكِنْ أَهْلُ الْحَقِّ قَالُوا إِنَّمَا ... جِبْرِيلُ بَلَّغَهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

أَلْقَاهُ مَسْمُوعًا لَهُ مِنْ رَبِّهِ ... لِلصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ بِالْبُرْهَانِ

فصل

في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في القرآن

وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَامِعَ الطُّرُقِ الَّتِي ... فِيهَا افْتِرَاقُ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ

فَمَدَارُهَا أَصْلَانِ قَامَ عَلَيْهِمَا ... هَذَا الْخِلَافُ هُمَا لَهُ رُكْنَانِ

هَلْ قَوْلُهُ بِمَشِيئَةٍ أَمْ لَا وَهَلْ ... فِي ذَاتِهِ أَمْ خَارِجٌ هَذَانِ

أَصْلُ اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ فَاطْلُبْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

ثُمَّ الأُلَى قَالُوا بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ مِنْهُ فَطَائِفَتَانِ

إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَعْنًى قَائِمًا ... بِالنَّفْسِ أَوْ قَالُوا بِحَمْسِ مَعَانِ

وَاللهُ أَحْدَثَ هَذِهِ الأَلْفَاظَ كَيْ ... تُبْدِيهِ مَعْقُولاً إِلَى الأَذْهَانِ

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ الْـ ... ـقُرْآنَ بَلْ مَخْلُوقَةٌ دَلَّتْ عَلَى الْقُرْآنِ

وَلِرُبَّمَا سُمِّيَ بِهَا الْقُرْآنُ لَسْـ ... ـسَمِيَّةِ الْمَجَازِ وَذَاكَ وَضْعُ لِسَانِ

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ حِكَايَةٌ ... عَنْهُ وَقِيلَ عِبَارَةٌ لِبَيَانِ

إِذْ كَانَ مَا يَحْكِي كَمَحْكِيِّ وَهَـ ... ـذَا اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى فَمُخْتَلِفَانِ

وَلِذَا يُقَالُ حَكَى الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ ... إِذْ كَانَ أَوَّلُهُ نَظِيرَ الثَّانِ

فَلِذَاكَ قَالُوا لَا نَقُولُ حِكَايَةٌ ... وَنَقُولُ ذَاكَ عِبَارَةُ الْفُرْقَانِ

وَالآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـ ... ـظِيًّا وَمَا فِيهِ كَبِيرُ مَعَانِ

الشرح

استوعب المُصنف أقوال أهل الأرض في هذه المسألة، وذكر أصلاً جامعًا تنبني عليها أقوالهم في القرآن، وأن أقوال الناس في القرآن سبعة أقوال تدور على أصلين.

أحدهما: هل قوله متعلق بقدرته ومشيئته أم لا.

والثاني: هل قوله وكلامه قائم بذاته ومتصف به أم هو خارج من الذات ومنفصل عنه.

فعن هذين الأصلين ينشأ اختلاف الناس في القرآن، فالقائلون أنه لا يتعلق بمشيئته

وارادته طائفتان:

إحداهما: الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية كما تقدم قولهم قريبًا، وأنه معنًى قائم بالنفس وأنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وأن الموجود عبارة أو حكاية عنه كما تقدم، فالحكاية قول أبي سعيد بن كلاب الذي تنسب إليه الكلابية، والعبارة قول أبي الحسن الأشعري وبعض أصحاب هؤلاء يقولون: هذا الخلاف لفظي لا طائل تحته.

والطائفة الأخرى من القائلين: أنه لا يتعلق بمشيئته قالوا: أن ألفاظه ومعانيه قديمة قائمة بالنفس لا تقبل الحدوث، والحروف كلها قديمة مازالت موجودة في الأزل والقدم.

فلما قيل لهم: هذا مخالف للمحسوس المعلوم بالبديهة أن حروف الكلام طبعًا لابد أن يسبق بعضها بعضًا، قالوا: إنما ترتيبها بالنسبة إلى سمع الإنسان، وإلا فهي مازالت متصاحبة مقترنة.

ولا شك أن هذا القول إلى التخليط والهذيان أقرب منه إلى التحقيق والبرهان، وهذا المذهب قول طائفة يقال لهم الاقترانية نسبة لهذا القول الذي انفردوا به، وهو مخالف لأصل الأئمة وموافق لبعض قول الكلابية.

وذكر المصنف أن ابن الزاغواني من هذه الطائفة فرق بين ذوات هذه الحروف وبين حروفها، وزعم أنها مقترنة بذواتها مترتبة بوجودها، وهذا التفريق باطل؛ فإن ذات الشيء وحقيقته وماهيته شيء واحد، ولا فرق بين هذه الحقائق سواء قدرت في الأعيان أو في الأذهان، ولكن إذا اختلف التقدير أمكن افتراق التعبير، فإذا قيل: الحقائق الخارجية غير الموجودات الذهنية فهذا صحيح، وبهذا يزول الإشكال الذي أورده المتكلمون كالرازي وغيره، وهو هل وجود الباري غير ذاته أو غير حقيقته أم لا، وأن الواجب أن يقال: إذا اتحدت الاعتبارات فهما شيء واحد وإذا اختلفت العبارات اختلفت، وفرق بين الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي والوجود الخارجي، فهذا غير هذا وهذا غير هذا. والله أعلم.

فصل

في مذهب الاقترانية

والفرقة الأخرى فقالت إنه لفظًا ومعنى لم يتفصلا

وَاللَّفْظُ كَالْمَعْنَى قَدِيمٌ قَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْحَدَثَانِ
فَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَا مَسْبُوقَةٌ ... لَكِنَّ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ
وَالْقَائِلُونَ بِهَذَا يَقُولُوا إِنَّمَا ... لَرُبَّهَا بِالسَّمْعِ بِالْآذَانِ
وَلَهَا اقْتِرَانٌ ثَابِتٌ لِذَوَاتِهَا ... فَاعْجَبْ لِهَذَا التَّخْلِيطِ وَالْهَذَيَانِ
لَكِنَّ زَاعُمِ رَبْطِهِمْ قَدْ قَالَ إِنْ ... ذَوَاتِهَا وَوُجُودَهَا غَيْرَانِ
فَتَرَكَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا ... يَا لِلْعُقُولِ وَرِبْقَةِ الْأَذْهَانِ
لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لَدَى الْـ ... أَذْهَانِ بَلْ فِي هَذِهِ الْأَعْيَانِ
لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْحَقِيقَةَ خَارِجًا ... وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ
وَالْعَكْسُ أَيْضًا مِثْلُ ذَا فَإِذَا هُمَا الْـ ... ـتَحَدَا اعْتِبَارًا لَمْ يَكُنْ شَيْئَانِ
وَبِهَذَا يَزُولُ جَمِيعُ إِشْكَالَاتِهِمْ ... فِي ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ الرَّحْمَنِ

فصل
في مذهب القائلين بأنه متعلق بالمشيئة والإرادة

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَيْضًا فَهُمْ صِنْفَانِ
إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَمَشِيئَةٍ لِلْخَلْقِ وَالْأَكْوَانِ
قَالُوا وَصَارَ كَلَامُهُ بِإِضَافَةِ الْـ ... ـتَشْرِيفِ مِثْلَ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ
مَا قَالَ عِنْدَهُمُ وَلَا هُوَ قَائِلٌ ... وَالْقَوْلُ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ
فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ ... بِالْغَيْرِ كَالْأَعْرَاضِ وَالْأَكْوَانِ
هَذِي مَقَالَةُ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَهُمْ ... فِيهَا الشُّيُوخُ مُعَلِّمُ الصِّبْيَانِ
لَكِنَّ أَهْلَ الِاعْتِزَالِ قَدِيمُهُمْ ... لَمْ يَذْهَبُوا ذَا الْمَذْهَبَ الشَّيْطَانِي
وَهُمُ الَّذِي اعْتَزَلُوا عَنِ الْحَسَنِ الرِّضَى الْـ ... ـبَصْرِي ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ ... مِنْ قَبْلِ جَهْمٍ صَاحِبِ الْحَدَثَانِ
لَكِنَّمَا تَأَخَّرُوهُمْ بَعْدَ ذَا ... لَكَ وَافَقُوا جَهْمًا عَلَى الْكُفْرَانِ
فَهُمُ بِهَذِهِ أَهْلُ اعْتِـ ... ـزَالٍ لِتَوْبَتِهِمْ أَضْحَى لَهُ عَلَمَانِ

ولقد نقلد كفرهم عشرون في ... عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عن ... هم بل حكاه قبله [العلامة] الطبراني

الشرح

وأما القائلون بأن القرآن متعلق بمشيئة الله وقدرته فهم أيضًا طائفتان:

إحداهما: الجَهمية المعتزلة القائلون بأن القرآن مَخلوق، خلقه الله كما خلق السموات والأرض، وأنه خارج عن ذات الله لا يقوم بذاته كلام ولا قول، فلما قال الناس لهم: هذا أمر معلوم بطلانه؛ فإن الكلام صفة المُتكلم، والله قد أضافه إلى نفسه إضافة صفة إلى موصوفها، فزعموا أن إضافته إليه إضافة تشريف كإضافة ناقة الله وبيت الله وعبد الله، فأجابهم الناس بمَا هو معروف ومتقرر عند كل أحد مع دلالة الكتاب والسنة إليه.

فقالوا: إن الإضافة نوعان:

أحدهما: ما يضيفه الله إلى نفسه من الأعيان كبيت الله وناقة الله ونحوهما.

فهذه الإضافة لبعض مَخلوقاته تفيد تشريفه وتكريمه بمَا امتاز به ذلك المضاف من الأوصاف الفاضلة.

والثاني: إضافة معاني وأوصاف تقوم بغيرها كعلم الله وقدرته وإرادته وكلامه، فهذه الإضافة من باب إضافة الأوصاف إلى موصوفها تقتضي قيامها به واتصافه بها، ومن خالف هذا الفرق فهو منكر للمحسوسات.

وهذا القول الذي ذكره في هذا الفصل مقالة الجَهمية ومتأخري المُعتزلة.

وأما متقدموا المُعتزلة كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأصحابهم الذين اعتزلوا عن مَجلس الحَسن البصري حين قرر مذهب الحَق في الإيمان وأنه اسم جامع للعقائد والأقوال والأفعال، وأنه يزيد وينقص، وأن الفاسق الملي مؤمن ناقص الإيمان غير مُخلد في النار، فلم يرتضوا هذا؛ لأن مذهبهم شبيه بمذهب الخَوارج من جهة المَعنى لتخليدهم أهل الكبائر في النار، ولكنهم يخالفونهم في اللفظ فيقولون: إن صاحب الكبيرة الذي لا يتب منها ليس بمؤمن ولا كافر بل هو منزلة بين منزلتين، ومع ذلك تناقضوا فخلدوه في النار، ومن ذلك

الوقت سماهم الحسن البصري بالمُعتزلة لهذا السبب، فهؤلاء قولهم في القرآن يوافق قول أهل السنة والجماعة أنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

وسيأتي -إن شاء الله- تفصيل الكلام في أهل البدع وانقسامهم إلى كافر وفاسق وضال ودون ذلك. والله أعلم.

فصل

في مذهب الكرّامية

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ ... فِي ذَاتِهِ أَيْضًا فَهُمْ نَوْعَانِ

إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَبْدُوءًا بِهِ ... نَوْعًا حَذَارِ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ

فَيَسُدُّ ذَاكَ عَلَيْهِمُ فِي زَعْمِهِمْ ... إِثْبَاتَ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

فَلِذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ ذُو أَوَّلٍ ... مَا لِلْفَنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

وَكَلَامُهُ كَفِعَالِهِ وَكِلَاهُمَا ... ذُو مَبْدَإٍ بَلْ لَيْسَ يَنْتَهِيَانِ

قَالُوا وَلَمْ يَنْصِفْ خُصُومٌ جَعْجَعُوا ... وَأَتَوْا بِتَشْنِيعٍ بِلَا بُرْهَانِ

قُلْنَا كَمَا قَالُوهُ فِي أَفْعَالِهِ ... بَلْ بَيْنَنَا بَوْنٌ مِنَ الْفُرْقَانِ

بَلْ نَحْنُ أَسْعَدُ مِنْهُمُ بِالْحَقِّ إِذْ ... قُلْنَا هُمَا بِاللهِ قَائِمَتَانِ

وَهُمُ فَقَالُوا لَمْ يَقُمْ بِاللهِ لَا ... فِعْلٌ وَلَا قَوْلٌ فَتَعْطِيلَانِ

لِفِعَالِهِ وَمَقَالِهِ شَرًّا وَأَبْـ ... ـطَلُ مِنْ حُلُولِ حَوَادِثٍ بِبَيَانِ

تَعْطِيلُهُ عَنْ فِعْلِهِ وَكَلَامِهِ ... شَرٌّ مِنَ التَّشْنِيعِ بِالْهَذَيَانِ

هَذِي مَقَالَاتُ ابْنِ كِرَّامٍ وَمَا ... رَدُّوا عَلَيْهِ قَطُّ بِالْبُرْهَانِ

أَنَّى وَمَا قَدْ قَالَ أَقْرَبُ مِنْهُمُ ... لِلْعَقْلِ وَالآثَارِ وَالْقُرْآنِ

لَكِنَّهُمْ جَاءُوا لَهُ بِجَعَاجِعٍ ... وَفَرَاقِعٍ وَقَعَاقِعٍ بِشِنَانِ

الشرح

الفرقة الثانية: من القائلين: إنه يتعلق بمشيئة إرادته انقسموا إلى طائفتين:

إحداهما: الكرامية قالوا: إن كلامه تعالى متعلق بمشيئته وقدرته، وصدقوا في هذا ولكن قالوا: أنه حادث النوع، وأخطأوا خطأ كبيرًا.

والذي أوجب لهم هذا الخطأ الفاحش كونهم ظنوا أنهم إذا أثبتوا قدم النوع أن ذلك يوجب التسلسل الذي يفسد عليهم الطريق الذي أثبتوا به وجود الخالق، فلذلك قالوا: إنه حادث النوع وجعلوا أفعال الله وكلامه في هذا سواء كلها حادثة بعد أن لم تكن، ولكنها بعد ذلك لا تزال ولا تفنى ولا تبيد.

قالت الكرامية: ولم ينصف خصومنا من الكلابية والأشعرية؛ حيث شنعوا علينا بهذا القول وأقاموا علينا القيامة بسببه، فلو فكروا في أنفسهم لعرفوا أن غلطهم أكبر منا وأشد جرمًا؛ فإنهم قالوا: إن الفعل عين المفعول، فهل في تعطيل أفعال الله أعظم من هذا التعطيل؟ فإذا لم يقم الله لا قول ولا فعل فهذان التعطيلان أبلغ من قولنا بحلول الحوادث حيث عبروا بهذا اللفظ البشع، وحقيقة الأمر أن الطائفتين منحرفتان، ولكن الكرامية أهون خطأ من الأشعرية ومن تبع الجهمية في هذا الأصل، ولم يبق على الكرامية إلا مرتبة لو قالوها واعتقدوها لهدوا إلى الرشد وهي موافقتهم لأهل السنة والجماعة كالإمام أحمد والبخاري وبقية الأئمة وإنما نص المصنف على هذين الإمامين؛ لأنهما ابتليا في هذه المسألة وأظهرا من السنة والتفاصيل فيها ما لم يكن لغيرهما، فلهذا عقد لمذهبهم فصلاً فقال:

فصل
في ذكر مذهب أهل الحديث

والآخرون أولوا الحديث كأحمد ... ومحمد وأئمة الإيمان

قالوا بأن الله حقا لم يزل ... متكلما بمشيئة وبيان

إن الكلام هو الكمال فكيف بالـ ... ـخلو عنه في أزل بلا إمكان

ويصير فيما لم يزل متكلما ... ماذا اقتضاه له من الإمكان

وتعاقب الكلمات أمر ثابت ... للذات مثل تعاقب الأزمان

والله رب العرش قال حقيقة ... هم مع طه بغير قران

بل أحرف مترتبات مثل ما ... قد زلت في سمع الإنسان

وَقْتَانِ فِي وَقْتٍ مُحَالٌ هٰكَذَا حَرْفَانِ أَيْضًا يُوجَدَا فِي آنِ
مِنْ وَاحِدٍ مُتَكَلِّمٍ بَلْ يُوجَدَا بِالرُّسْمِ أَوْ يَتَكَلَّمُ الرِّجْلَانِ
هٰذَا هُوَ الْمَعْقُولُ أَمَّا الْإِقْرَا نْ فَلَيْسَ مَعْقُولاً لِذِي الْأَذْهَانِ
وَكَذَا كَلَامٌ مِنْ سِوَى مُتَكَلِّمٍ أَيْضًا مُحَالٌ لَيْسَ فِي إِمْكَانِ
إِلَّا لِمَنْ قَامَ الْكَلَامُ بِهِ فَذَا لَكَ كَلَامُهُ الْمَعْقُولُ فِي الْأَذْهَانِ
أَيَكُونُ حَيًّا سَامِعًا أَوْ مُبْصِرًا مِنْ غَيْرِ مَا سَمْعٍ وَغَيْرِ عِيَانِ
وَالسَّمْعُ وَالْإِبْصَارُ قَامَ بِغَيْرِهِ هٰذَا الْمُحَالُ وَوَاضِحُ الْبُهْتَانِ
وَكَذَا مُرِيدٌ وَالْإِرَادَةُ لَمْ تَكُنْ وَصْفًا لَهُ هٰذَا مِنَ الْهَذَيَانِ
وَكَذَا قَدِيرٌ مَا لَهُ مِنْ قُدْرَةٍ قَامَتْ بِهِ مِنْ أَوْضَحِ الْبُطْلَانِ
وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَكَلِّمٌ بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ
قَدْ أَجْمَعَتْ رُسُلُ الْإِلٰهِ عَلَيْهِ لَمْ يُنْكِرْهُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ رَجُلَانِ
فَكَلَامُهُ حَقًّا يَقُومُ بِهِ وَإِنْ لَا لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ
وَاللهُ قَالَ وَقَالَ وَكَذَا يَقُو لُ الْحَقُّ لَيْسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي
وَيُكَلِّمُ الثَّقَلَيْنِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ حَقًّا فَيَسْمَعُ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ
وَكَذَا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ فِي جَنَّةِ الْـ ـحَيَوَانِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضْوَانِ
وَكَذَا يُكَلِّمُ رُسْلَهُ يَوْمَ اللِّقَا حَقًّا فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ التِّبْيَانِ
وَيُرَاجِعُ التَّكْلِيمَ جَلَّ جَلَالُهُ وَقْتَ الْجِدَالِ لَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ
وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ فِي الْعَرَصَاتِ لَوْ بِخًا وَتَقْرِيعًا بِلَا غُفْرَانِ
وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ أَيْضًا فِي الْجَحِيـ ـمِ أَنِ اخْسَئُوا فِيهَا بِكُلِّ هَوَانِ
وَاللهُ قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ وَقَبْلَهُ سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الْأَبَوَانِ
وَأَتَى النِّدَا فِي بَعْضِ آيَاتٍ لَهُ وَصْفًا فَرَاجِعْهَا مِنَ الْقُرْآنِ
وَكَذَا يُكَلِّمُ جِبْرَئِيلَ بِأَمْرِهِ حَتَّى يُنَفِّذَهُ بِكُلِّ مَكَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ذَاكَ الْبُخَارِي الْعَظِيمِ الشَّانِ
فِيهِ نِدَاءُ اللهِ يَوْمَ مَعَادِنَا بِالصَّوْتِ يَبْلُغُ قَاصِيًا وَالدَّانِي

هَبْ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَيْسَ بِثَابِتٍ ... بَلْ ذِكْرُهُ مَعَ حَذْفِهِ سِيَانِ
وَرَوَاهُ عِنْدَكُمُ الْبُخَارِي الْمُجَسْـ ... ـمُ بَلْ رَوَاهُ مُجَسِّمٌ فَوْقَانِي
أَيَصِحُّ فِي عَقْلٍ وَفِي نَقْلٍ نِدَا ... ءٌ لَيْسَ مَسْمُوعًا لَنَا بِأَذَانِ
أَمْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ وَالْعُقَلَاءُ مِنْ ... أَهْلِ اللِّسَانِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ
إِنَّ النِّدَا الصَّوْتُ الرَّفِيعُ وَضِدُّهُ ... فَهُوَ النَّجَاءُ كِلَاهُمَا صَوْتَانِ
وَاللهُ مَوْصُوفٌ بِذَاكَ حَقِيقَةً ... هَذَا الْحَدِيثُ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ
وَاذْكُرْ حَدِيثًا لِابْنِ مَسْعُودٍ صَرِيـ ... ـحًا أَنَّهُ ذُو أَحْرُفٍ بِبَيَانِ
الْحَرْفُ مِنْهُ فِي الْجَزَا عَشْرٌ مِنَ الْـ ... ـحَسَنَاتِ مَا فِيهِنَّ مِنْ نُقْصَانِ
وَانْظُرْ إِلَى السُّوَرِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِأَحْـ ... ـرُفِهَا تَرَى سِرًّا عَظِيمَ الشَّانِ
لَمْ يَأْتِ قَطُّ بِسُورَةٍ إِلَّا أَتَى ... فِي إِثْرِهَا خَبَرٌ عَنِ الْقُرْآنِ
إِذْ كَانَ إِخْبَارًا بِهِ عَنْهَا وَفِي ... هَذَا الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الْإِيمَانِ
وَيَدُلُّ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ نَفْسُهَا ... لَا غَيْرُهَا وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ
فَانْظُرْ إِلَى مَبْدَا الْكِتَابِ وَبَعْدَهَا الْـ ... أَعْرَافُ ثُمَّ كَذَا إِلَى لُقْمَانِ
مَعَ تِلْوِهَا أَيْضًا وَمَعْ حَمَ مَعْ ... يَسٍ وَافْهَمْ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

الشرح

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات مادل عليه الكتاب والسنة من الأصلين:

أحدهما: أن الله موصوف بالكلام وكلامه نعته ووصفه.

والثاني: متعلق بمشيئته وقدرته فيتكلم إذا شاء كيف يشاء بِمَا يشاء ولَمْ يزل متكلمًا ولا يزال متكلمًا، فالكلام من صفات الذات لقيامه بِهَا واتصافه به فإنه كلامه ومن صفات الأفعال الواقعة بمشيئته وقدرته، والله لَمْ يزل كاملا والكلام بلا ريب من صفات الكمال، فكيف بتصور أن يَخلو في وقت من الأوقات من هذا الكمال ويعود ممكنا بعد أن كان ممتنعا.

ويقولون: إن تعاقب الكلمات ثابت لَهَا لذواتها مثل ثبوت تعاقب الأزمنة، فكما أن كل زمان قبله زمان وقبل هذا الزمان زمان إِلَى غير غاية ونهاية والتسلسل فيها ثابت وهي

من جملة الواقع بارادة الله وقدرته فكذلك الكلام والأحرف مترتبة كل كلام قبله كلام وقبل ذلك كلام إلى غير نهاية وغاية، فترتبها في ذاتها كترتبها في سماعها؛ فإن الاقتران غير معقول كما أن قول القائلين بأن القرآن مخلوق خلقه الله في بعض الأعيان يقتضي عقلا ولغة وعرفًا أن صفة الكلام قائمة بذلك المُحل، وأن ذلك المُحل هو الذي يتكلم، فهذا أيضًا محال في العقل كما أنه بطال في النقل فلا يعقل الكلام إلا لمن قام به وتكلم به حقيقة، كما أنه لا يكون حيًا عالما سامعًا مصرا إلا لمن قامت به هذه الصفات فلو وصف المُحل بحياة أو علم أو سمع أو بصر قائم بغيره لعلم الناس أن هذا محال ممتنع، وهكذا جميع الصفات.

والله تعالى موصوف بأنه متكلم بإجماع الأنبياء والمُرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وقد شهدت بذلك العقول الصحيحة والفطر السليمة والبراهين القواطع، وكلامه من جملة صفاته قائم بذاته، فلو لَمْ يقم بذاته لَمْ يكن في الحقيقة متكلمًا، وقد وصف الله نفسه بالكلام والتكلم والتكليم والقول والنداء والنجاء، فالنداء: الصوت الرفيع، والنجاء: الصوت الخفي، وهذه الأمور لا تعقل إلا لمن اتصف بها وقامت به وأسمعها غيره، والقرآن سور وآيات وكلمات وحروف كما وردت الآثار بهذه الأوصاف له وكما هو معروف بين الناس، وهو كلام الله منزل غير مخلوق والله أعلم.

فصل

في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام

وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوصٍ آمِرٌ ... نَاهٍ مُنَبِّ مُرْسِلٌ لِبَيَانِ
وَمُخَاطِبٌ وَمُحَاسِبٌ وَمُنَبِّئٌ ... وَمُحَدِّثٌ وَمُخَبِّرٌ بِالشَّانِ
وَمُكَلِّمٌ مُتَكَلِّمٌ بَلْ قَائِلٌ ... وَمُحَذِّرٌ وَمُبَشِّرٌ بِأَمَانِ
هَادٍ يَقُولُ الْحَقَّ يُرْشِدُ خَلْقَهُ ... بِكَلَامِهِ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ
فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ فَكُلُّ هَـ ... ـذَا مُنْتَفٍ مُتَحَقِّقُ الْبُطْلَانِ
وَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ كَذَلِكَ الْـ ... إِرْسَالُ مَنْفِي بِلَا فُرْقَانِ
فَرِسَالَةُ الْمَبْعُوثِ تَبْلِيغٌ كَلَا ... مَ الْمُرْسِلِ الدَّاعِي بِلَا نُقْصَانِ
وَحَقِيقَةُ الإِرْسَالِ نَفْسُ خِطَابِهِ ... لِلْمُرْسَلِينَ وَأَنَّهُ نَوْعَانِ

نَـوْعٌ بِغَـيْرِ وَسَـاطَةٍ كَكَلَامِـهِ ... مُوسَـى وَجِبْرِيـلَ الْقَرِيـبِ الـدَّانِي

مِنْـهُ إِلَيْـهِ مِـنْ وَرَاءِ حِجَابِـهِ ... إِذْ لَا تَـرَاهُ هَـا هُنَـا الْعَيْنَـانِ

وَالْآخَـرُ التَّكْلِـيمُ مِنْـهُ بِالْوَسَـا ... طَـةِ وَهْـوَ أَيْضًـا عِنْـدَهُ ضَـرْبَانِ

وَحْـيٌ وَإِرْسَـالٌ إِلَيْـهِ وَذَاكَ فِـي الشُّـ ... ـورَى أَتَـى فِـي أَحْسَـنِ التِّبْيَـانِ

الشرح

هذا الفصل مشتمل على أمرين:

أحدهما: أن الرسالة والنبوة من أكبر الأدلة على أن الله متكلم؛ لأن حقيقة رسالة الرسل ﷺ تبليغ كلام الله للخلق. أخباره وأوامره ونواهيه وتوابع ذلك، فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت صفة الكلام، ومن نفيها نفي الكلام.

وهذا هو الأمر الثاني وهو إلزام أهل الكلام الباطل الذين نفوا كلام الله وزعموا أنه مخلوق أو أنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، ويلزم من هذا القول نفي الرسالة.

ومن المعلوم أن فساد اللازم دليل على فساد الملزوم، وفساد القول بنفي الرسالة أمر معلوم، وأنه جحد للرسل والكتب والشرائع، ويوضح هذا أن الرسالة هي خطابه للرسل إما بغير واسطة كخطابه موسى بن عمران -عليه الصلاة والسلام- ومحمد وجبريل وغيرهم ممن كلمه الله، وإما بواسطة وهو أيضًا نوعان:

إما يوحى إلى الرسول ويلقى الوحي إليه وفي قبله، وإما يرسل إليه الملك كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

---

(١) [الشورى: ٥١].

فصل
في إلزامهم التشبيه للرب بالجماد الناقص
إذا انتفت صفة الكلام

وَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ فَضِدُّهَا ... خَرَسٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي ... هُوَ قَابِلٌ مِنْ أُمَّةِ الْحَيَوَانِ
وَالرَّبُّ لَيْسَ بِقَابِلٍ صِفَةَ الْكَلَا ... مِ فَنَفْيُهَا مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ
فَيُقَالُ سَلْبُ كَلَامِهِ وَتَقُولُهُ ... صِفَةَ الْكَلَامِ أَتَمُّ لِلنُّقْصَانِ
إِذْ أَخْرَسُ الْإِنْسَانِ أَكْمَلُ حَالَةً فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ ... مِنْ ذَا الْجَمَادِ بِأَوْضَحِ الْبُرْهَانِ
الْكَمَالِ مُخَالَفَةَ النَّـ ... ـقْصِ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ بِالْإِنْسَانِ
وَوَقَعْتَ فِي لِلتَّشْبِيهِ بِالنَّاقِصَا ... تِ الْجَامِدَاتِ وَذَا مِنَ الْخِذْلَانِ
اللهُ أَكْبَرُ هُنْكَتْ أَسْتَارُكُمْ ... حَتَّى غَدَوْتُمْ ضُحْكَةَ الصِّبْيَانِ

الشرح

وهذا الإلزام الذي ألزمه أهل السنة والجماعة للجهمية ومن تبعهم معروف مشهور، وهو أوضح إلزامه جدًّا، فإنه إذا لَمْ يكن الله متكلمًا ولا موصوفًا بالكلام، ومعلوم أن الكلام صفة مدح، لزم أن يكون الحيوان الذي يتكلم أكمل منه، لزم من ذلك مشابهته للجمادات التي لا تتكلم، فانظر كيف فروا من تشبيهه بالإنسان فوقعوا في تشبيهه بالجمادات التي لا تتكلم.

ولما عرفوا شنعة هذا الإلزام عليهم قالوا: إن نفي الكلام يكون نقصًا إذا نفي عمن هم قابل له ولضده كالإنسان، فإنه إذا كان أخرس نقص بكثير عن المتكلمين، وأما الذي لا يقبل الكلام ولا يصح منه فليس في إثبات الكلام وفيه عنه نقص.

فيقال لهم: كلامكم هذا مما زاد الأمر شرًا وبطلانًا، فإن نفي الكلام عنه نقص، ونفي القبول منه للكلام نقص آخر، فإن الحيوان المتكلم معلوم أنه أكمل من الجماد الذي لا

يتكلم، فنزلوا عن تشبيهه بالإنسان إلى تشبيهه بالجماد فصاروا مشبهين بفهمهم معطلين باعتقادهم. أما أهل السنة والجماعة فيقولون: ثبوت مادل عليه الوحي من جميع الصفات لا يقتضي تشبيهًا ولا تمثيلاً، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فصل
في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق حقه
وباطله عين كلام الله سبحانه

أَوَ لَيْسَ قَدْ قَامَ الدَّلِيلُ بِأَنَّ أَفْـ ... ـعَالَ الْعِبَادِ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ

مِنْ أَلْفِ وَجْهٍ أَوْ قَرِيبِ الأَلْفِ بَلْ ... بِصِحَّةِ الَّذِي يَعْنِي بِهَذَا الشَّانِ

فَيَكُونُ كُلُّ كَلَامِ هَذَا الْخَلْقِ عَنْـ ... ـهُ كَلَامُهُ سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ

إِذْ كَانَ مَنْسُوبًا إِلَيْهِ كَلَامُهُ خَلْقًا كَبَيْتِ اللهِ ذِي الأَرْكَانِ

هَذَا وَلَازِمُ قَوْلِكُمْ قَدْ قَالَهُ ذُو الاتِّحَادِ مُصَرِّحًا بِبَيَانِ

حَذَرَ التَّنَاقُضِ إِذْ تَنَاقَضْتُمْ وَلَـ ... ـكِنْ طَرْدَهُ فِي غَايَةِ الْكُفْرَانِ

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ تَخْصِيصَ الْقُرْا ... نِ كَبَيْتِهِ وَكَلَامُنَا خَلْقَانِ

فَيُقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لَا يُنْفِي الْعُمُو ... مَ كَرَبِّ ذِي الأَكْوَانِ

وَيُقَالُ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْضًا هَكَذَا لِخُصُوصِهِ لِإِضَافَةِ الْقُرْآنِ

لَا يَجْمَعُ التَّعْمِيمَ فِي الْبَاقِي وَذَا فِي غَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

الشرح

قد قامت الأدلة والبراهين من وجوه متعددة كثيرة جدًّا أن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن جميع أفعالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وجميع أحوالهم مخلوقة لله، فيلزم على قول الجهمية أن يكون كلام الخلق كله حقه وباطله كلام الله؛ لأنه منسوب إلى الله من جهة خلقه، فإن نسبة الكلام إلى الله -على قولهم- كنسبة بيت الله وناقة الله ونحو ذلك من الأعيان التي يعلم أن نسبتها إلى الله نسبة تشريف وتكريم ولا تخرج بذلك أن تكون مخلوقة، فالقرآن كذلك.

وهذا اللازم لزومه لقولهم واضح جدًّا، وهو أبطل ما يكون ويلزم منه شر الأقوال.

وبِهذا التزام هذا القول شر الطوائف وهم الاتحادية، وهو كفر بالله العظيم وتعطيل لوجوده.

فإن زعم الجَهمية أن هذا غير لازم لهم؛ لأنهم خصصوا، فيقال ما تقدم: أن هذا التخصيص لا ينفي التعميم، كما خصص ربوبيته بالعرش وبالبيت الحرام مع أنه رب العالمين، فهكذا قولهم أن هذا التخصيص للقرآن لا يمنع التعميم ولما كان أهل السنة قولهم حقًّا لم يلزم منه إلا كل حق والله أعلم.

فصل

في التفريق بين الخَلق والأمر

وَلَقَدْ أَتَى الْقُرْآنُ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْـ ... أَمْرِ الصَّرِيحِ وَذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

وَكِلاَهُمَا عِنْدَ الْمُنَازِعِ وَاحِدٌ ... وَالْكُلُّ خَلْقٌ مَا هُنَا شَيْئَانِ

وَالْعَطْفُ عِنْدَهُمُ كَعَطْفِ الْفَرْدِ مِنْ ... نَوْعٍ عَلَيْهِ وَذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

فَيُقَالُ هَذَا ذُو ابْتِدَاعٍ ظَاهِرٍ ... فِي آيَةِ التَّفْرِيقِ ذُو بُطْلاَنِ

فَاللهُ بَعْدَ الْخَلْقِ أَخْبَرَ أَنَّهَا ... قَدْ سُخِّرَتْ بِالأَمْرِ لِلْحَرَكَانِ

وَأَبَانَ عَنْ تَسْخِيرِهَا سُبْحَانَهُ ... بِالأَمْرِ بَعْدَ الْخَلْقِ بِالتِّبْيَانِ

وَالأَمْرُ إِمَّا مَصْدَرٌ أَوْ كَانَ مَفْـ ... ـعُولاً هُمَا فِي ذَاكَ مُسْتَوِيَانِ

مَعْ مِيزَةٍ هُوَ قَابِلٌ لِلأَمْرِ كَالْـ ... ـمَصْنُوعِ قَابِلُ صَنْعَةِ الرَّحْمَنِ

هَذَا انْتِفَى الأَمْرُ الَّتِي الْمَأْمُورُ كَالْـ ... ـمَخْلُوقِ يَنْفَى لاَبِنَفْسِ الْحِدْثَانِ

وَانْظُرْ إِلَى نَظْمِ السِّيَاقِ تَجِدْ بِهِ ... سِرًّا عَجِيبًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

ذِكْرَ الْخُصُوصِ وَبَعْدَهُ مُتَقَدِّمًا ... وَالْوَصْفَ وَالتَّعْمِيمَ فِي ذَا الثَّانِي

فَأَتَى بِنَوْعَيْ خَلْقِهِ وَبِأَمْرِهِ ... فِعْلاً وَوَصْفًا مُوجَزًا بِبَيَانِ

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَى ... فَالْعِلْمُ لَحْتٌ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ

الشرح

اعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الخَلق غير الأمر، وأن الفعل غير المَفعول، فالفعل صفة لله والمَفعول هو المَخلوق، والأمر تنشأ عنه المأمورات والشرائع، والخَلق تنشأ عنه المَخلوقات كلها.

وقد دل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1]. فتدبر هذه الآية الكريمة تجدها مصرحة بأن الخَلق غير الأمر كما أن المَعطوف غير المَعطوف عليه، ويَمتنع أنهما شيء واحد، فإنه الأمر كما أن المَعطوف غير المَعطوف عليه، ويَمتنع أنهما شيء واحد، فإنه صرح فيها أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وذلك بعد ما أخبر أنه خلقها، فخلقها ثُمَّ سخرها بأمره والأمر سواء قيل: إنه مصدر أو اسم مفعول فالغرض حاصل، فإن كان مصدرًا بمعنى المأمور فإن المأمور ناشئ عن الأمر كالمَصنوع ناشئ عن الصنعة، فيلزم من وجود المأمور وجود الأمر ومن انتفاء المأمور انتفاء الأمر، كما يلزم من وجود المَخلوق وجود صفة الخَلق الذي هو الفعل وبه وجد المَخلوق، ومن نفيه انتفاء الخَلق.

وتدبر في هذه الآية سرًا عجيبًا، فإنه ذكر في أولها خلقه السماوات والأرض خصوصًا، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم بأمره أيضًا خصوصًا، وصرح فيهما بالفعل، وذلك في آخرها الوصف والتعميم في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فجمع بين فعله ووصفه على وجه الخُصوص وعلى وجه العموم. فهذا القول الحَق المُوافق لما دل عليه القرآن، ولما هو معقول عند أولي الألباب.

وأما الجَهمية ومن تبعهم من المُتكلمين فحيث كان أصل قولهم أن الفعل عين المَفعول سووا بين الخَلق والأمر، وهذا قول متناقض باطل مُخالف للنقل وللمعلوم بالعقل، فكيف يثبتون فرعًا بلا أصل، وهل هذا إلا مبطل للفرع والأصل.

---

(١) [الأعراف: ٥٤].

فصل
في التفريق بين ما يضاف إلى الرب تعالى
من الأوصاف والأعيان

وَاللهُ أَخْبَرَ فِي الْكِتَابِ بِأَنَّهُ ... مِنْهُ وَمَخْرُورٌ بِهِ مِنْ نُوْعَانِ
عَيْنٌ وَوَصْفٌ قَائِمٌ بِالْغَيْرِ فَالْـ ... أَعْيَانُ خَلْقُ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ
وَالْوَصْفُ بِالْمَجْرُورِ قَامَ لأَنَّهُ ... أَوْلَى بِهِ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ
وَنَظِيرُ ذَا أَيْضًا سَوَاءٌ مَا يَضَا ... فُ إِلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ وَمِنْ أَعْيَانِ
فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ ... قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ
وَإِضَافَةُ الأَعْيَانِ ثَابِتَةٌ لَهُ ... مِلْكًا وَخَلْقًا مَا هُمَا سِيَّانِ
فَانْظُرْ إِلَى بَيْتِ الإِلَهِ وَعِلْمِهِ ... لَمَّا أُضِيفَا كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ
وَكَلاَمُهُ كَحَيَاتِهِ وَكَعِلْمِهِ ... فِي ذِي الإِضَافَةِ إِذْ هُمَا وَصْفَانِ
لَكِنَّ نَاقَةَ رَبِّنَا أَيْضًا هُمَا ... فَكَعَبْدِهِ أَيْضًا هُمَا ذَانِ
فَانْظُرْ إِلَى الْجَهْمِيِّ لَمَّا قَالَهُ الْـ ... ـحَقُّ الْمُبِينُ وَوَاضِحُ الْبُرْهَانِ
كَانَ الْجَمِيعُ لَدَيْهِ بَابًا وَاحِدًا ... وَالصُّبْحُ لاَحَ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشرح

وحاصل ذلك أن الذي يضيفه الله إلى نفسه إما أعيان تخصها بهذه الإضافة المقتضية للاختصاص والتشريف مثل عبد الله وناقة الله وبيت الله ومثله ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[1]. فهذه أعيان قائمة بأنفسها وهي من جملة المخلوقات، لكنه أضافها لنفسه تفضيلاً لها على غيرها وتعظيمًا.

وأما إضافة أوصاف كعلم الله وقدرته وإرادته، وكذلك كلامه وحياته، فهذه الإضافة تقتضي قيامها بالله وأنه موصوف بها.

---

(١) [الفرقان: ٦٣].

وكذلك كلامه وحياته، فهذه الإضافة تقتضي قيامها بالله وأنه موصوف بها.

وكذلك ما أخبر أنه منه، فإن كان أعيانًا كروح منه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1]. فهذه منه خلقًا وتقديرًا.

وإن كان ذلك أوصافًا كقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2]. دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها، ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى الصراط المستقيم، ولما ضل عنه الجهمية ونحوهم وقعوا في الأقوال الباطلة. والله أعلم.

فصل

وَأَتَى ابْنُ حَزْمٍ بَعْدَ ذَاكَ فَقَالَ مَا ... لِلنَّاسِ قُرْآنٌ وَلَا إِنْسَانُ

بَلْ أَرْبَعٌ كُلٌّ يُسَمَّى بِالْقُرْ ... آنِ وَذَاكَ قَوْلٌ بَيْنَ الْبُطْلَانِ

هَذَا الَّذِي يُتْلَى وَآخَرُ ثَابِتٌ ... فِي الرَّسْمِ بِدْعَى الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِي

وَالثَّالِثُ الْمَحْفُوظُ بَيْنَ صُدُورِنَا ... هَذِي الثَّلَاثُ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ

وَالرَّابِعُ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ كَمَا لَهُ ... كُلٌّ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِالْقُرْآنِ

وَأَظُنُّهُ قَدْ رَامَ شَيْئًا لَمْ يَجِدْ ... عَنْهُ عِبَارَةَ نَاطِقٍ بِبَيَانِ

إِنَّ الْمَعَانِيَ ذُو مَرَاتِبَ أَرْبَعٍ ... عُقِلَتْ فَلَا تَخْفَى عَلَى إِنْسَانِ

فِي الْعَيْنِ ثُمَّ الذِّهْنِ ثُمَّ اللَّفْظِ ثُـ ... ـمَّ الرَّسْمِ حِينَ تُخَطُّهُ بِبَنَانِ

وَعَلَى الْجَمِيعِ الِاسْمُ يُطْلَقُ لَكِنِ الْـ ... أَوْلَى بِهِ الْمَوْجُودُ فِي الْأَعْيَانِ

بِخِلَافِ قَوْلِ ابْنِ الْخَطِيبِ فَإِنَّهُ ... قَدْ قَالَ إِنَّ الْوَضْعَ لِلْأَذْهَانِ

فَالشَّيْءُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا أَرْبَعٌ ... فَدَعَى ابْنَ حَزْمٍ قِلَّةَ الْفُرْقَانِ

وَاللَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... يَتَكَلَّمُ بِالْوَحْيِ وَالْفُرْقَانِ

وَكَذَاكَ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ كِتَابَهُ ... بِصُدُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَكْتُوبُ فِي ... صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

---

(١) [الجاثية: ١٣].

(٢) [الزمر: ١]، وغيرها.

وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَتْلُوُّ وَالْـ ... ـمَقْرُوءُ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْإِنْسَانِ
وَالْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا أَنَّهُ هُوَ أَرْبَعٌ وَثَلَاثَةٌ وَاثْنَانِ
وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ أَفْعَالٌ لَنَا وَكَذَا الْكِتَابَةُ فَهِيَ خَطٌّ بَانِ
لَكِنَّمَا الْمَتْلُوُّ وَالْمَكْتُوبُ وَالْـ ... ـمَحْفُوظُ قَوْلُ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ
وَالْعَبْدُ يَقْرَؤُهُ بِصَوْتٍ طَيِّبٍ وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ صِفَتَانِ
وَكَذَاكَ يَكْتُبُهُ بِخَطٍّ جَيِّدٍ وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ خَطَّانِ
أَصْوَاتُنَا وَمِدَادُنَا وَأَدَاؤُنَا وَالرَّقُّ ثُمَّ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ
وَلَقَدْ أَتَى فِي نَظْمِهِ مَنْ قَالَ قَوْ ... لَ الْحَقِّ وَالْإِنْصَافِ غَيْرَ جَبَانِ
إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ بِأَنَامِلِ الْأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ
هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وَحُرُوفُهُ وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ
فَشَقِيَ وَفَرَّقَ بَيْنَ مَتْلُوٍّ وَمَصْ ... ـنُوعٍ وَذَاكَ حَقِيقَةُ الْعِرْفَانِ
الْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ الْـ ... ـمَتْلُوُّ مَخْلُوقًا هُنَا شَيْئَانِ
فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ فَالْـ إِطْلَاقُ وَالْإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ
قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ أَذْهَانَ وَالْآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ
وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِي تَعْرِيفِهَا بِاللَّامِ قَدْ يَعْنِي بِهَا شَيْئَانِ
يَعْنِي بِهِ الْمَتْلُوَّ فَهُوَ كَلَامُهُ هُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَذِي الْأَكْوَانِ
وَبِرَادِ أَفْعَالُ الْعِبَادِ كَصَوْتِهِمْ وَأَدَائِهِمْ وَكِلَاهُمَا خَلْقَانِ
هَذَا الَّذِي نَصَّتْ عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْـ إِسْلَامِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ
وَهُوَ الَّذِي قَصَدَ الْبُخَارِيُّ الرِّضَى لَكِنْ تَقَاصَرَ قَاصِرُ الْأَذْهَانِ
عَنْ فَهْمِهِ كَتَقَاصُرِ الْأَفْهَامِ عَنْ قَوْلِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ الشَّيْبَانِي
فِي اللَّفْظِ لَمَّا أَنْ نَفَى الضِّدَّيْنِ عَنْ ... ـهُ وَاقْتَدَى لِلنَّفْيِ ذُو عِرْفَانِ
فَاللَّفْظُ يَصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا وَكَذَاكَ يَصْلُحُ تَلَفُّظٌ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ
لَفْظِ مَلْفُوظٍ بِهِ وَهُوَ الْقُرَانُ فَذَانِ مُخْتَلِفَانِ
فَلِذَاكَ أَنْكَرَ أَحْمَدُ الْإِطْلَاقَ فِي لَفْظِي وَإِثْبَاتِ بِلَا قُرْآنِ

الشرح

وزعم أبو مُحَمَّد بن حزم الظاهري أن مسمى القرآن يطلق على أربعة أشياء: يطلق على المُصحف الذي جمعه عثمان بن عفان ﷺ، ويطلق على هذا الذي نقلوه، ويطلق على ما هو مَحفوظ في الصدور.

فهذه الثلاثة عنده مَخلوقة.

ويطلق على المُعنَى القديم القائم بذاته كقيام علمه بِحيث لا يتعلق بِمشيئته، فهذا غير مخلق.

وهذا القول هو قول الكلابية السابق إلا أن التعبير اختلف، فأبو مُحَمَّد قال: إنه مَخلوق كما صرح بذلك المُعتزلة والكلابية، والأشعرية: قالوا عبارة وحكاية عن كلام الله كما تقدم قولهم.

والذي أوجب لابن جزم أن يقول بِهذا التفصيل الذي هو من الأضاليل أنه لما رأى مراتب الوجودات أربعة:

للمعينات وجود في الخَارج، ووجود في اللفظ، ووجود في الرسم، ووجود في الذهن، فوجود الشيء يطلق على كل من هذه الأمور الأربعة، وأن أولاها بالقرآن عنده الوجود الخَارجي وهو المُعنَى النفسي القديم، وخالفه أبو عبد الله الرازي فزعم أن الأولى بِهذه المَراتب الوجود الذهني، وكل هذا غلط فاحش وقلة فرقان، وإلا فالشيء واحد في نفسه حيثما تصرف، فالقرآن كلام الله بوجوداته الأربعة إذا تلاه التالون أو حفظه الحَافظون أو كتبه الكاتبون أو تكلم رب العالمين، فهم في كل هذه المراتب كلام الله منزل غير مَخلوق، وهو حقيقة في جَميع هذه المراتب، ولِهذا أخبر الله عن القرآن خبرًا واحدًا في أحواله كلها فأخبر أنه تكلم به، وأنه كلامه وتنزيله، وأنه نزل منه وأخبر أنه في صدور أهل العلم مَحفوظ، وأنه في صحف مطهرة، وأنه متلو مقروء وكل ذلك على وجه الحَقيقة وهذا بِخلاف القول في تلاوة العبد، فإن التلاوة غير المتلو، والقراءة غير المقروء. فالتلاوة فعل العبد وهي مخلوقة، والمتلو هو كلام الله غير مَخلوق.

ولهذا كان الأئمة يقولون: إن كتابة العباد وأصواتهم والرق الذي كتب عليه القرآن والمداد الذي كتب به هذه كلها مخلوقة، فإن جميع ما يرجع إلى ذوات العباد وأوصافهم مخلوق، وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فإنه كلامه غير مخلوق، وهذا الفرق واضح شرعًا وعقلاً.

والتلاوةُ قد يعني بها المتلو فهو كلام الله غير مخلوق، وقد يعني بها تلاوة العباد وأصواتهم وأفعالهم فهي مخلوقة.

وهذا الفرق هو الذي قرره البخاري وغيره. وأنكر عليه بعض أهل العلم؛ حيث لم يفهموا مراده، وجرى بينه وبين الإمام مُحَمَّد بن يحيى الذهلي محنة مشهورة، وكل منهما إمام من أهل السنة والجماعة، فمحمد بن يحيى قصد سد الباب عن تطرق الجهمية والمعتزلة، والبخاري فصل الحق الذي به يزول الإشكال وتستقيم به الأحوال، وكل منهما يحمد على سعيه المشكور ولكن الحق أحق أن يتبع.

فالواجب على من عرف الحقائق أن يفصلها ويميز بين الحقائق المتباينة، وعلى من عنده توقف وإشكال أن يقف حتى يتضح له الصواب.

وكل من البخاري والذهلي نسب القول الذي نصره إلى الإمام أحمد، ولكن بهذا الحمل الذي ذكرناه يتضح أن كلا منهما وممن قال بقولهما من أئمة السلف محمود مشكور، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ورضي الله عنهم وأرضاهم.

فصل

في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب جل جلاله

وَأَتَى ابْنُ سِينَا الْقَرْمَطِي مُصَانِعًا ... لِلْمُسْلِمِينَ بِإِفْكِهِ ذِي بَيْهَقَانِ

فَرَآهُ فَيْضًا فَاضَ مِنْ عَقْلٍ هُوَ الْـ ... ـفَعَّالُ عِلَّةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

حَتَّى لِلَفْظِهِ زُكِّيَ فَاضِلٌ ... حَسَنُ التَّخَيُّلِ جَيِّدُ التِّبْيَانِ

فَأَتَى بِهِ لِلْعَالَمِينَ خُطَابَةً ... وَمَوَاعِظًا غَرِيبَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

مَا صَرَّحَتْ أَخْبَارُهُ بِالْحَقِّ بَلْ ... رَمَزَتْ إِلَيْهِ إِشَارَةَ الْغَمْدَانِ

أصلح للناس، ولذلك يحرمون تأويل النصوص؛ لأنها تخالف ما قصده الرسل من التخييل والإتيان بالحقائق على صور الأمثال والرموز.

وهم من جراءتهم وكبريائهم ادعوا لأنفسهم مقامات أعلى من مقامات الأنبياء، فالنبي للعوام، والفيلسوف للخواص.

ومن تصور أقوالهم جزم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا يثبتون وجوده ولا يثبتون الرسالة ولا المعاد الأخروي، وعلم أن ما قالوه مع مخالفته لجميع ما جاءت به الرسل فإنه مخالف لما دلت عليه العقول الصحيحة، وأن ما ادعوه من العقليات هو في الحقيقة جهليات وخيالات.

وبسط الكلام على مذهبهم يستدعي أكثر من ذلك.

وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لما فيه من التمويهات والتلبيس والنفاق ويصادف مع هذا قلة بصيرة والله المستعان.

وتقدم أن الاتحادية لا يبعدون عن الفلاسفة في حقيقة عقيدتهم إلا أنهم ينتسبون إلى التأله والتصوف لهذا ذكر قولهم فقال:

فصل
في مقالات طوائف الاتحادية في كلام
الرب جل جلاله

وَأَتَتْ طَوَائِفُ الِاتِّحَادِ بِمِلَّةٍ ... طَمَّتْ عَلَى مَا قَالَ كُلُّ لِسَانِ

قَالُوا كَلَامُ اللهِ كُلُّ كَلَامِ مَنْ ... ذَا الْخَلْقِ مِنْ جِنٍّ وَمِنْ إِنْسَانِ

نَظْمًا وَنَثْرًا زُورَةً وَصَحِيحَةً ... صِدْقًا وَكِذْبًا وَاضِحَ الْبُطْلَانِ

فَالشِّعْرُ وَالشَّتْمُ الْقَبِيحُ وَقَذْفُهُمْ ... لِلْمُحْصَنَاتِ وَكُلُّ نَوْعٍ أَغَانِ

وَالنَّوْحُ وَالتَّعْزِيمُ وَالسِّحْرُ الْمُبِيـ ... ـنُ وَسَائِرُ الْهَذَيَانِ وَالْهَذَيَانِ

هُوَ عَيْنُ قَوْلِ اللهِ جَاءَ حَلَالُهُ ... وَكَلَامُهُ حَقًّا بِلَا نُكْرَانِ

هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ أَصْلُهُمْ ... وَعَلَيْهِ قَامَ مُكَشِّحُ الْبُنْيَانِ

إِذْ أَصْلُهُمْ أَنَّ الْإِلَهَ حَقِيقَةٌ ... عَيْنُ الْوُجُودِ وَعَيْنُ ذِي الْأَكْوَانِ

فَكَلَامُهَا وَصِفَاتُهَا هُوَ قَوْلُهُ ... وَصِفَاتُهُ مَا هَا هُنَا قَوْلَانِ

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِالضِّـ ... ـدَّيْنِ مِنْ قُبْحٍ وَمِنْ إِحْسَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ وَصَفُوهُ أَيْضًا بِالْكَمَا ... لِ وَضِدِّهِ مِنْ سَائِرِ النُّقْصَانِ
هَذِي مَقَالَاتُ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا ... حُمِلَتْ إِلَيْكَ رَخِيصَةَ الْأَثْمَانِ
وَأَظُنُّ لَوْ فَتَّشْتَ كُتْبَ النَّاسِ مَا ... أَلْفَيْتَهَا أَبَدًا بِذَا التِّبْيَانِ
زُفَّتْ إِلَيْكَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ نَاظِرٌ ... أَبْصَرْتَ ذَاتَ الْحُسْنِ وَالْإِحْسَانِ

الشرح

لما كان قولهم أن الوجود جميعه واحد، وأنه ما ثُمَّ خالق ومخلوق، وأن الرب عين العبد والعبد عين الرب. تعالَى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، بنوا عليه أن كلام الموجودات كلها من الإنس والجِن والمُلائكة وغيرهم من المُخلوقات هو كلام الله حقه وباطله محموده ومذمومه.

وحسبك بقول بلغ هذا المُبلغ فسادًا وبطلانًا.

فهذه المُقالات فِي هذه الفصول هي مقالات الطوائف فِي كلام الله، وكلهم منحرف عن الصراط المُستقيم، ويتفاوتون فِي هذا كما تقدمت حكاية أقوالهم، والحَق الذي لا شك فيه من هذه الأقوال هو مذهب أهل السنة والجَماعة أن القرآن كلام الله ألفاظه ومعانيه، وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. وأنه من اتصافه به فهو من صفات فعله المُتعلقة بقدرته ومشيئته. والله أعلم.

فَاعْطِفْ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ الْمُغْلِ الْأُلَى ... خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ
شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ ... بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمْ بِأَذَانِ
أَفْسَدْتُمُ الْمَعْقُولَ وَالْمَنْقُولَ وَالْـ ... ـمَسْمُوعَ مِنْ لُغَةٍ بِكُلِّ لِسَانِ
أَيَصِحُّ وَصْفُ الشَّيْءِ بِالْمُشْتَقِّ وَالْـ ... ـمَسْلُوبِ مَعْنَاهُ لِذِي الْأَذْهَانِ
صَبَّارٌ وَلَا صَبْرٌ لَهُ ... وَيَصِحُّ شَكَّارٌ بِلَا شُكْرَانِ
وَيَصِحُّ عَلَّامٌ وَلَا عِلْمٌ لَهُ ... وَيَصِحُّ غَفَّارٌ بِلَا غُفْرَانِ
وَيُقَالُ هَذَا سَامِعٌ أَوْ مُبْصِرٌ ... وَالسَّمْعُ وَالْإِبْصَارُ مَفْقُودَانِ
هَذَا مُحَالٌ فِي الْعُقُولِ وَفِي النُّقُو ... لِ وَفِي اللُّغَاتِ وَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... لَكِنْ بِقَوْلٍ قَامَ بِالإِنْسَانِ
أَوْ غَيْرِهِ فَيُقَالُ هَذَا بَاطِلٌ ... وَعَلَيْكُمُ فِي ذَاكَ مَحْذُورَانِ
نَفْيُ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُودِ مَعْـ ... ـنَاهُ بِهِ وَثُبُوتُهُ لِلثَّانِي
أَعْنِي الَّذِي مَا قَامَ مَعْنَاهُ بِهِ ... قَلْبُ الْحَقَائِقِ أَقْبَحُ الْبُهْتَانِ
وَنَظِيرُ ذَا أَخَوَانِ هَذَا مُبْصِرٌ ... وَأَخُوهُ مَعْدُودٌ مِنَ الْعِمْيَانِ
سَمَّيْتُمُ الأَعْمَى بَصِيرًا إِذْ أَخُو ... هُ مُبْصِرٌ وَبِعَكْسِهِ فِي الثَّانِي
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ ... فِي فِعْلِهِ كَالْخَلْقِ لِلأَكْوَانِ
وَالْفِعْلُ لَيْسَ بِقَائِمٍ بِإِلَهِنَا ... إِذْ لاَ يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدْثَانِ
وَيَصِحُّ أَنْ يُشْتَقَّ مِنْهُ خَالِقٌ ... فَكَذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُ الْوَحْدَانِي
هُوَ فَاعِلٌ لِكَلاَمِهِ وَكِتَابِهِ ... لَيْسَ الْكَلاَمُ لَهُ بِوَصْفِ مَعَانِي
وَمُخَالِفُ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْـ ... ـفِطْرَاتِ وَالْمَسْمُوعِ لِلإِنْسَانِ
مَنْ قَالَ إِنَّ كَلاَمَهُ سُبْحَانَهُ ... وَصْفٌ قَدِيمٌ أَحْرُفٌ وَمَعَانِي
وَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَيْسَتْ بَعْدَهَا ... لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ
أَوْ قَالَ إِنَّ كَلاَمَهُ سُبْحَانَهُ ... مَعْنًى قَدِيمٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ
مَا أَنْ لَهُ كُلٌّ وَلاَ بَعْضٌ وَلاَ الْـ ... ـعَرَبِي حَقِيقَتُهُ وَلاَ الْعِبْرَانِي
وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ وَاسْتِفْهَامُهُ ... هُوَ عَيْنُ أَخْبَارٍ بِلاَ فُرْقَانِ
وَكَلاَمُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْـ ... ـدُورٌ لَهُ بَلْ لاَزِمُ الرَّحْمَنِ
هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ الْمَعْقُولَ وَالْـ ... ـمَنْقُولَ وَالْفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ
أَمَّا الَّذِي قَدْ قَالَ إِنَّ كَلاَمَهُ ... ذُو أَحْرُفٍ قَدْ رُتِّبَتْ بِبَيَانِ
وَكَلاَمُهُ بِمَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ ... كَالْفِعْلِ مِنْهُ كِلاَهُمَا سِيَانِ
فَهْوَ الَّذِي قَدْ قَالَ قَوْلاً يَعْلَمُ الْـ ... ـعُقَلاَءُ صِحَّتَهُ بِلاَ نُكْرَانِ
فَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ ... أَوْلَى وَأَقْرَبَ مِنْهُ لِلْبُرْهَانِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ دَائِمًا كَفَّرْتُمُ ... أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ بِالْعُدْوَانِ
فَدَعُوا الدَّعَاوَى وَابْحَثُوا مَعْنًى بِتَحْـ ... ـقِيقٍ وَإِنْصَافٍ بِلاَ عُدْوَانِ

وَارْفُضُوا مَذَاهِبَكُمْ وَسُدُّوا طُرُقَهَا ... إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْضُ فِي الإِمْكَانِ

فَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ بَيْنَهُمُ فَقَدْ ... أَدْلَوْا إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ وَبَيَانِ

لاَ تَنْصُرَنَّ سِوَى الْحَدِيثِ وَأَهْلَهُ ... هُمْ عُسْكَرُ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

وَلَتَحْزَنَنَّ إِلَيْهِمُ لاَ غَيْرُهُمْ ... لِتَكُونَ مَنْصُورًا لَدَى الرَّحْمَنِ

فَتَقُولُ هَذَا الْقَدْرُ قَدْ أَعْيَا عَلَى ... أَهْلِ الْكَلاَمِ وَقَادَهُ أَضْلاَنِ

إِحْدَاهُمَا هَلْ فِعْلُهُ مَفْعُولُهُ ... أَوْ غَيْرُهُ فَهُمَا لَهُمْ قَوْلاَنِ

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ هُوَ عَيْنُهُ ... قَرُبُوا مِنَ الأَوْصَافِ بِالْحَدَثَانِ

لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ وَصَرِيحُهُ ... تَعْطِيلُ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

عَنْ فِعْلِهِ إِذْ فِعْلُهُ مَفْعُولُهُ ... لَكِنَّهُ مَا قَامَ بِالرَّحْمَنِ

فَعَلَى الْحَقِيقَةِ مَا لَهُ فِعْلٌ إِذِ الَّـ ... ـمَفْعُولُ مُنْفَصِلٌ عَنِ الدَّيَّانِ

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ غَيْرٌ لَهُ ... مُتَنَازِعُونَ وَهُمْ فَطَائِفَتَانِ

إِحْدَاهُمَا قَالَتْ قَدِيمٌ قَائِمٌ ... بِالذَّاتِ وَهُوَ كَقُدْرَةِ الْمَنَّانِ

سَمُّوهُ تَكْوِينًا قَدِيمًا قَالَهُ ... أَتْبَاعُ شَيْخِ الْعَالَمِ النُّعْمَانِي

وَخُصُومُهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا فِي رَدِّهِ ... بَلْ كَابَرُوهُمْ مَا أَتَوْا بِبَيَانِ

وَالآخَرُونَ رَأَوْهُ أَمْرًا حَادِثًا ... بِالذَّاتِ قَامَ وَأَنَّهُمْ نَوْعَانِ

إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مُفْتَتَحًا بِهِ ... حَذْرَ التَّسَلْسُلِ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

هَذَا الَّذِي قَالَتْهُ كَرَّامِيَّةٌ ... فَفِعَالُهُ وَكَلاَمُهُ سِيَّانِ

وَالآخَرُونَ أُولُو الْحَدِيثِ كَأَحْمَدَ ... ذَاكَ ابْنُ حَنْبَلِ الرِّضَا الشَّيْبَانِي

قَدْ قَالَ إِنَّ اللهَ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... مُتَكَلِّمًا إِنْ شَاءَ ذُو إِحْسَانِ

جَعَلَ الْكَلاَمَ صِفَاتِ فِعْلٍ قَائِمٍ ... بِالذَّاتِ لَمْ يَفْقِدْ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَكَذَا الَّذِي نَصَّ عَلَى دَوَامِ الْفِعْلِ بِالْـ ... إِحْسَانِ أَيْضًا فِي مَكَانٍ ثَانِ

وَكَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ فَرَاجِعْ قَوْلَهُ ... لَمَّا أَجَابَ مَسَائِلَ الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ جَعْفَرٌ الإِمَامُ الصَّادِقُ الَّـ ... ـمَقْبُولُ عِنْدَ الْخَلْقِ ذُو الْعِرْفَانِ

قَدْ قَالَ لَمْ يَزَلِ الْمُهَيْمِنُ مُحْسِنًا ... بَرًّا جَوَادًا عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

وَكَذَا الإِمَامُ الدَّارِمِي فِي أَئِمَّةٍ ... قَدْ قَالَ مَا فِيهِ هُدَى الْحَيْرَانِ

قَالَ الْحَيَاةُ مَعَ الْفِعَالِ كِلاَهُمَا ... مُتَلاَزِمَانِ فَلَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

صَدَقَ الإِمَامُ فَكُلُّ حَيٍّ فَهُوَ فَعْـ ... ـَالٌ وَذَا فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

إِلاَّ إِذَا مَا كَانَ ثَمَّ مَوَانِعٌ ... مِنْ آفَةٍ أَوْ قَاسِرِ الْحَيَوَانِ

وَالرَّبُّ لَيْسَ لِفِعْلِهِ مِنْ مَانِعٍ ... مَا شَاءَ كَانَ بِقُدْرَةِ الدَّيَّانِ

وَمَشِيئَةُ الرَّحْمَنِ لاَزِمَةٌ لَهُ ... وَكَذَاكَ قُدْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

هَذَا وَقَدْ فَطَرَ الإِلَهُ عِبَادَهُ ... إِنَّ الْمُهَيْمِنَ ذَالِكُمُ الإِحْسَانِ

أَوَ لَسْتَ تَسْمَعُ قَوْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... يَا ذَالِكُمَ الْمَعْرُوفَ وَالسُّلْطَانِ

وَقَدِيمَ الإِحْسَانِ الْكَثِيرِ وَذَالِكُمَ الْـ ... ـجُودِ الْعَظِيمِ وَصَاحِبَ الْغُفْرَانِ

مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ فِطْرَةً ... فُطِرُوا عَلَيْهَا لاَ لِوَاصِي لَانِ

أَوْ لَيْسَ فِعْلُ الرَّبِّ تَابِعَ وَصْفِهِ ... وَكَمَالِهِ أَفَذَاكَ ذُو حَدَثَانِ

وَكَمَالُهُ سَبَبُ الْفِعَالِ وَخَلْقُهُ ... أَفْعَالُهُمْ سَبَبُ الْكَمَالِ الثَّانِي

أَوَ مَا فِعَالُ الرَّبِّ عَيْنُ كَمَالِهِ ... أَفَذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الْمَنَّانِ

أَزَلاً إِلَى أَنْ صَارَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ ... مُتَمَكِّنًا وَالْفِعْلُ ذُو إِمْكَانِ

لِلَّهِ قَدْ ضَلَّتْ عُقُولُ الْقَوْمِ إِذْ ... قَالُوا بِهَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلاَنِ

مَاذَا الَّذِي أَضْحَى لَهُ مُتَجَدِّدًا ... حَتَّى تَمَكَّنَ قَالِطُوهُ بِبَيَانِ

وَالرَّبُّ لَيْسَ مُعَطَّلاً عَنْ فِعْلِهِ ... بَلْ كُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا فِي شَانِ

وَالأَمْرُ وَالتَّكْوِينُ وَصْفُ كَمَالِهِ ... قِدَمًا فَذَا وَوُجُودُهُ سِيَانِ

وَتَخَلُّفُ التَّأْثِيرِ بَعْدَ تَمَامِ مُو ... جِبِهِ مُحَالٌ لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

وَاللهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ ذَا قُدْرَةٍ ... وَمَشِيئَةٍ وَبِهِمَا وَصْفَانِ

الْعِلْمُ مَعْ وَصْفِ الْحَيَاةِ وَهَذِهِ ... أَوْصَافُ ذَاتِ الْخَالِقِ الْمَنَّانِ

وَبِهَا تَمَامُ الْفِعْلِ لَيْسَ بِدُونِهَا ... فِعْلٌ بِتِمِّ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

فَلأَيِّ شَيْءٍ قَدْ تَأَخَّرَ فِعْلُهُ ... مَعْ مُوجِبٍ قَدْ تَمَّ بِالأَرْكَانِ

مَا كَانَ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ الْفِعْلُ بَلْ ... مَا زَالَ فِعْلُ اللهِ ذَا إِمْكَانِ

وَاللهُ عَابَ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ ... عَبَدُوا الْحِجَارَةَ فِي رِضَا الشَّيْطَانِ

وَنَعَى عَلَيْهِمْ كَوْنَهَا لَيْسَتْ بِحَا ... لَقَةٍ وَلَيْسَتْ ذَاتَ نُطْقٍ بَيَانِ

فَبَيَانَ أَنَّ الْعَقْلَ وَالتَّكْلِيمَ مِنْ ... أَوْصَافِهِمْ لَا شَكَّ مَفْقُودَانِ

وَإِذَا هُمَا فُقِدَا فَمَا مَسْئُولُهَا ... بِإِلَهِ حَقٍّ وَهُوَ ذُو بُطْلَانِ

وَاللهُ فَهُوَ إِلَهُ حَقٍّ دَائِمًا ... أَفَعَنْهُ ذَا الْوَصْفَانِ مَسْئُولَانِ

أَزَلاً وَلَيْسَ لِفَقْدِهَا مِنْ عِلَّةٍ ... هَذَا الْمُحَالُ وَأَعْظَمُ الْبُطْلَانِ

إِنْ كَانَ رَبُّ الْعَرْشِ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... أَبَدًا إِلَهَ الْحَقِّ ذَا سُلْطَانِ

فَكَذَاكَ أَيْضًا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... بَلْ فَاعِلاً مَا شَاءَ ذَا إِحْسَانِ

وَاللهِ مَا فِي الْعَقْلِ مَا يَقْضِي لِذَا ... بِالرَّدِّ وَالإِبْطَالِ وَالنُّكْرَانِ

بَلْ لَيْسَ فِي الْمَعْقُولِ غَيْرُ ثُبُوتِهِ ... لِلْخَالِقِ الأَزَلِيِّ ذِي الإِحْسَانِ

هَذَا وَمَا دُونَ الْمُهَيْمِنِ حَادِثٌ ... لَيْسَ الْقَدِيمُ سِوَاهُ فِي الأَكْوَانِ

وَاللهُ سَابِقُ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِ ... مَا رَبُّنَا وَالْخَلْقُ مُقْتَرِنَانِ

وَاللهُ كَانَ وَلَيْسَ شَيْءٌ غَيْرُهُ ... سُبْحَانَهُ جَلَّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

لَسْنَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ الْمُلْحِدُ الـ ... زِّنْدِيقُ صَاحِبُ مَنْطِقِ الْيُونَانِ

بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ وَالـ ... أَرْوَاحِ فِي أَزَلٍ وَلَيْسَ بِفَانِ

هَذِي مَقَالَاتُ الْمَلَاحِدَةِ الأُلَى ... كَفَرُوا بِخَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

وَأَتَى ابْنُ سِينَا بَعْدَ ذَاكَ مُضَافِعًا ... لِلْمُسْلِمِينَ فَقَالَ بِالإِمْكَانِ

لَكِنَّهُ الأَزَلِيَّ لَيْسَ بِمُحْدَثٍ ... مَا كَانَ مَعْدُومًا وَلَا هُوَ فَانِي

وَأَتَى بِصُلْحٍ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ بَيْـ ... ـنَهُمَا الْحُرُوبُ وَمَا هُمَا بِسِلْمَانِ

أَنَّى يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ وَشِيعَةُ الـ ... يُونَانِ صُلْحًا قَطُّ فِي الإِيمَانِ

وَالسِّلْمُ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ وَبَيْنَهُمْ ... وَالْحَرْبُ بَيْنَهُمْ لَحَرْبُ عَوَانِ

وَكَذَا أَتَى الطُّوسِي بِالْحَرْبِ الضَّرُو ... حِ بِصَارِمٍ مِنْهُ وَسَلِّ لِسَانِ

وَأَتَى إِلَى الإِسْلَامِ يَهْدِمُ أَصْلَهُ ... مِنْ أَسِّهِ وَقَوَاعِدِ الْبُنْيَانِ

عَمَرَ الْمَدَارِسَ لِلْفَلَاسِفَةِ الأُلَى ... كَفَرُوا بِدِينِ اللهِ وَالْقُرْآنِ

وَأَتَى إِلَى أَوْقَافِ أَهْلِ الدِّينِ بَلْـ ... ـقَلْهَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ذِي أَضْغَانِ

وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الإِشَارَاتِ الَّتِي ... هِيَ لابْنِ سِينَا مَوْضِعَ الْفُرْقَانِ

وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الشَّرِيعَةِ بِالَّتِي ... هِيَ الَّتِي كَانَتْ لِذِي الْيُونَانِ

لَكِنَّهُ عَلِمَ اللَّعِينُ بِأَنَّ هَـ ... ـذَا لَيْسَ فِي الْمَقْدُورِ وَالإِمْكَانِ

إِلاَّ إِذَا قَتَلَ الْخَلِيفَةَ وَالْقُضَا ... ةَ وَسَائِرَ الْفُقَهَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

فَسَعَى لِذَاكَ وَسَاعَدَ الْمَقْدُورُ ... بِالأَمْرِ الَّذِي هُوَ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

فَأَشَارَ أَنْ يَضَعَ التَّتَارُ سُيُوفَهُمْ ... فِي عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

لَكِنَّهُمْ يَقُفُونَ أَهْلَ مَصَانِعِ الدَّ ... ذْلِيلِ لأَجْلِ مَصَالِحِ الأَبْدَانِ

فَعَدَا عَلَى سَيْفِ التَّتَارِ الأَلْفُ فِي ... مِثْلٍ لَهَا مَضْرُوبَةٌ بِوِزَانِ

وَكَذَا ثَمَانِ مِئِيهَا فِي أَلْفِهَا ... مَضْرُوبَةٌ بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

حَتَّى بَكَى الإِسْلامُ أَعْدَاهُ الْيَهُو ... دُ كَذَا الْمَجُوسُ وَعَابِدُ الصُّلْبَانِ

فَنَفَى اللَّعِينُ النَّفْسَ مِنْ حِزْبِ الرَّسُو ... لِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

وَبِوُدِّهِ لَوْ كَانَ فِي أُحُدٍ وَقَدْ ... شَهِدَ الْوَقِيعَةَ مَعَ أَبِي سُفْيَانِ

لأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ وَأَوْفَى نَذْرَهُ ... أَوْ أَنْ يَرَى مُتَمَزِّقَ اللَّحْمَانِ

وَشَوَاهِدُ الأَحْدَاثِ ظَاهِرَةٌ عَلَى ... ذَا الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ بِالْبُرْهَانِ

وَأَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ تَشْهَدُ كُلُّهَا ... بِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ

لَوْ كَانَ غَيْرُ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ ... مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رُبَّانِ

إِذْ كَانَ عَنْ رَبِّ الْعُلاَ مُسْتَغْنِيًا ... فَيَكُونُ حِينَئِذٍ لَنَا رَبَّانِ

وَالرَّبُّ بِاسْتِقْلالِهِ مُتَوَحِّدٌ ... أَفَمُمْكِنٌ أَنْ يَسْتَقِلَّ اثْنَانِ

لَوْ كَانَ ذَاكَ تَنَافَيَا وَتَنَاقَضَا ... فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ

وَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ يَشْهَدُ مِنْهُمَا ... كُلٌّ لِصَاحِبِهِ هُمَا عَدْلاَنِ

وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَا جَمِيعًا فِي صِفَا ... تِ اللهِ فَانْظُرْ ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

فَالْوَاحِدُ الْقَهَّارُ حَقٌّ لَيْسَ فِي الْـ ... إِمْكَانِ أَنْ تَخْطَى بِهِ ذَانِ

الشرح

ثُمَّ عطف المُؤلف على الجَهمية بنقض إبطال ما قالوه في نفي صفات الرب العظيم، وأن قولهم مناقض للعقل والنقل واللغة؛ فإنه من المعلوم عقلاً ونقلاً ولغة وعرفًا أنه لا يصح وصف الشيء بوصف مشتق منه وهو منفي عنه وثابت لغيره فلا يقال: عالم وقادر وحي وسميع وبصير ونَحوها.

والعلم والحَياة والقدرة والسمع والبصر وصف لغيره فلا تقال هذه الأسْمَاء ونَحوها إلا لمن اتصف بِمعانيها ففي قولهم هذا مَحذوران: نفي الصفات لمن أثبتته له النصوص، وإثباتها لمن لَمْ نقم به، فإن هذا من باب قلب الحَقائق ومكابرة الأمور المَعلومة ببداهة العقول. ونظير هذا في المكابرة إذا كان أخوان واحد منهما مبصر والثاني أعمى ووصف كل منهما بوصف أخيه.

وإذا قالت الجَهمية: إن هذا ثابت في الأفعال فإن الله يسمى الخَالق وخلقه قائم بغيره لأنه لو قام به لكان مَحلا للحوادث وذلك محال فكذلك الكلام هو فاعل للكلام وخالق له والكلام قائم بغيره، وأيدوا هذا الإيراد بردهم لِمذهب الاقترانية الذين يقولون: إن كلامه قديم، والكلمات والحروف مقترن بعضها ببعض.

وردهم أيضًا لِمذهب الكلابية والأشعرية القائلين: إنه معنًى واحد أو خمسة معان قديمة قائمة بالله، وإنه ليس للقرآن كل ولا بعض ولا فيه تعدد، وإن الأمر عين النهي، والاستفهام عين الخبر، وإن قيام الكلام بذات المُتكلم كقيام الحَياة. فإن هذين المُذهبين باطلان مُخالفَان للعقل والنقل كما تقدم، وأنه بِمجرد تصورها يَجزم بفسادها.

قالوا: وأما نَحن فقد قلنا قولاً يوافق العقل؛ فإننا قلنا إن كلامه كلمات وحروف مرتبةن وأنه متعلق بِمشيئته، وإرادته بِمنزلة فعله، قالوا: فلاي شيء ينكر علينا ويرجح المُرجح أحد المُذهبين مذهب الاقترانية والكلابية.

فنحن أحق بالعقل والنقل منهما، وإذا كان لابد من الترجيح فرجحوا بالدليل والفرقان لا بِمجرد الدعاوى؛ فإنَّها لا تسمن ولا تغني من جوع. هذا مضمون إيرادهم.

وحاصل الجواب: عن هذا الإيراد أن الخلاف مبني على أصلين تكرر ذكرهما في كلام المصنف وهما: هل الفعل غير المفعول أو الفعل عين المفعول؟ وهل هم قائم بذاته أو منفصل عنه؟

وتقدم أن الكتاب والسنة والعقل دلت على أن الفعل وصف الفاعل والمفعول مفعوله وأثره، فالفعل غير المفعول.

وأما الجهمية والمنحرفون من أهل الكلام فتوهموا أن الفعل هو المفعول وأنه إذا كان غيره لزم حلول الحوادث بالله.

وهذا الوهم باطل وخطأ وضلال واضح؛ فإن الله لم يزل فعالا لما يريد، ولم يزل بفعله يفعل الأشياء ويحدث الحوادث شيئًا بعد شيء ولا يلزم من هذا حلول الحوادث في ذاته وإنما الحوادث منفصلة عنه.

والفعل الذي هو الوصف قديم النوع، ولكنه لا يزال يفعل ما يريد.

وبهذا الأصل العظيم الذي دل عليه الكتاب والسنة وقبله العقل الصريح يندفع كل إيراد يورده المبطلون على نفي ما أثبته الله ورسوله من أوصافه المقدسة، وبذلك يُمكن قمع الفلاسفة الدهريين وبطلان قولهم بقدم العالم، وبه علم بطلان قول الجهمية الذين قالوا الفعل هو المفعول.

فعلى قولهم بأي شيء حدثت الحوادث أعيانها وأفعالها وصفاتها فتعطيلهم لفعله تعطيل في الحقيقة للمفعولات.

فالقائلون بأن الفعل غير المفعول طائفتان:

إحداهما: أهل السنة المتقدم شرح قولهم.

والثانية: قول الحنفية التابعون لأبي منصور الماتريدي القائلون: إن تكوين الله قديم قائم بذاته كقيام قدرته متعلق بكل مكون مخلوق.

وبقي على هؤلاء بقية وهي أن الفعل مع قيامه بالله فهو متعلق بمشيئته وقدرته.

ومذهب الكرامية أن الفعل غير المفعول.

ولكن له ابتداء وافتتاح حذر التسلسل كما تقدم وليس له غاية.

وتقدم صواب القول في ذلك: إن الله لَمْ يزل ولا يزال يقول ويفعل ما يشاء، والفعل من لوازم الحَياة فلا توجد الحَياة بدون الفعل، فمن لَمْ يثبت لله أفعالاً تقوم به لزمه نفي حياته، تعالَى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وإذا كان من المَعلوم بالضرورة أن الرب لَمْ يزل على كل شيء قديرًا ولَمْ يزل نافذ الإرادة ولَمْ يزل مُحسنًا عفوًا رحيمًا، فلأي شيء تمتنع هذه الأفعال عن الله في وقت من الأوقات، أليس إثبات فعله المَذكور من أعظم الكمال ونفيه من أرذل النقص، أليس الخَلق مفطورين باللهج بقولهم:

يا دائم المَعروف والإحسان، يا قديم الجُود والامتنان من غير أن ينكر بعضهم على بعض، بل يرون هذا من أعظم ما يقربهم إلَى الله ويتوسلون به لقضاء حوائجهم أليس الفعل من لوازم الكمال؟ فالله كمل ففعل، وخلقه للمخلوقات أعيانها وأوصافها كمال حصل بكماله.

وقد خالف العقل والنقل من زعم أن الفعل ممتنع عليه في الأزل.

ثُمَّ انتقل من هذا المُحال إلَى الإمكان فما الذي تجدد له من الكمال حَتَّى تمكن من الفعل الذي كان ممتنعًا، فإن الله غير مُعطل عن فعله كل وقت، فكل يوم هو في شأن، يدبر الأمور ويحدث ما تقتضيه حكمته.

ومن المَعلوم المتقرر أنه لو فرض وجود القدرة على الكلام والتكوين وعدم القدرة على ذلك لكان الأولى هو الكمال، وإذا كان الكمال فكيف يتخلف التأثير بعد وجود موجبه وسببه ومقتضية.

وأيضًا إذا كان الله لَمْ يزل موصوفًا بتمام القدرة ونفوذ المَشيئة والحَياة الكاملة والعلم المُحيط، فإنَّها أوصاف ذاتية الله تعالَى، فمع وجودها يمتنع امتناع الفعل؛ لأن تمام الفعل بوجودها فلأي شيء قد تأخر فعله مع وجود سببه التام، والله تعالَى قد عاب آلهة المُشركين بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تفعل ولا تكلم وعاب من هذه صفته وبين أنَّها لا تستحق من الإلهية شيئًا، وأما الباري تعالَى فلم يزل هو الإله الحَق، فهل يُمكن أن يسلب عنه الفعل والتكليم، فإذا كان لَمْ يزل إلهًا، فإنه لَمْ يزل فاعلاً متكلمًا، وليس في العقول ما ينافي هذا

القول الحق، بل ليس فيه إلا ما يطابقه ويؤيده.

والله تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، السابق لكل شيء فليس شيء من مفعولاته مقارنًا له كما يقوله زنادقة الدهرية من الفلاسفة؛ فإنهم صرحوا بقدم العالم، وأتى بعدهم ابن سينا المتفلسف هو موافق لهم على هذا القول، لكنه لما كان منتسبًا للإسلام -وهو منه بريء- فرأى أن مصانعة المسلمين بالعبارات الموهمة التي ليست صريحة أولى به من التصريح المحض، فتلطف بتقريب قولهم فزعم أن العالم ممكن، والممكن عنده هو المعلول لعلة تامة تقتضي مقارنتها لمعلولها بحيث لا يتأخر معلولها عنها، وهذا هو القول بقدم العالم، ولكن زوره وبهرجه ليقرب المذهب الدهري إلى الدين الإسلامي، وهذا من العجائب الغرائب أن يسعى في التقريب بين مذهبين متباينين غاية في التباين: مذهب الرسل الذي هو دين الإسلام والمسلمين من الأولين والآخرين الرسل وأتباعهم المبنى على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتوحيد العلمي والاعتقادي، والتوحيد العلمي وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والاعتراف بانفراد الرب بالخلق والتدبير والملك والسلطان والربوبية.

ومذهب الفلاسفة الدهرية المباين لمذهب الرسل في جميع هذه الأصول من غير استثناء والحرب لم يزل بين الأنبياء وأتباعهم وبين أهل هذا المذهب الخبيث، فيستحيل غاية الاستحالة التقريب بينهما فضلاً عن الجمع بينهما.

وجرى خلف ابن سينا القرامطة والملاحدة والباطنية والنصيرية الدروز ونحوهم من كل معطل لرب العالمين جاحد لرسله وكتبه ودينه.

ومن أعظم من نصر مذهب ابن سينا؛ الملحد الطوسي الذي كان كالوزير لملك التتار لما خرجوا على المسلمين وقتلوا ملكهم وخلفاءهم وعلماءهم، وقد ذكروا أنه هو الذي أشار على التتار بقتل المذكورين، وأبقاء أهل الصنائع والحرف والعملة، وعمَّر المدارس لتعليم الإلحاد والفلسفة، وصرف لها الأوقاف الإسلامية، وأراد أن يجعل إشارات ابن سينا موضع القرآن، وأن يقرر القواعد والنواميس المشيدة للإلحاد الهادمة للدين الإسلامي، وعرف أنه لا يتم له مقصودة حتى يستأصل رؤساء الدين، فأشار على التتار بوضع السيف فيهم، فجرى

على الإسلام بذلك من المُصائب والرزايا ما يفجع القلوب، ولولا حفظ الله لدينه لجرى عليه ما جرى على الأديان السابقة من الذهاب والاضمحلال.

واعلم أن أدلة الخَلق وحدوث هذا العالم المُشاهد ظاهرة جلية عقلية ونقلية، من أعظمها جَميع الأدلة والبراهين الدالة على توحد الله وتفرده بصفات الكمال وبديع الأفعال، فكلها تدل على حدوث كل ما سواه، فلو كان معه شيء قديم لزم أن يساوي الله في غناه ووحدانيته، فمحال أن يكون ربان متكافئين متصانعين مستقلين؛ فإن استقلال أحدهما ينافي استقلال الآخر، وذلك أنهما إما أن يذهب كل واحد بِمَا خلقه ويستقل بتدبير ما هو مالك له ويبقى الأمر هكذا فهذا أيضًا باطل؛ لأنه يلزم من ذلك المُغالبة وأن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون الرب واحدًا قاهرًا لكل شيء والكل مقهور بقهره داخل تحت نفوذه وتدبيره وهذا هو الحَق، قال تعالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[1]. ولذلك أخبر تعالَى أنه الواحد القهار في عدة آيات؛ لأن الوحدة والقهر متلازمان فلا يكون منفردًا بالوحدانية حَتَّى يكون منفردًا بالقهر، ومن انفرد بالقهر للأشياء كلها فقد تفرد بالوحدانية، فمحال أن توجد الصفتان وتجتمعا في ذاتين، وإنَّما هما لله الواحد القهار.

فصل
في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية الرب تعالَى وكلامه والانفصال عنه

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ ... قُلْنَا صَدَقْتُمْ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

كَتَسَلْسُلِ الْآثَارِ فِي مُسْتَقْبَلٍ ... هَلْ بَيْنَ ذَلِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

وَاللهِ مَا افْتَرَقَا لِذِي عَقْلٍ وَلَا ... نَقْلٍ وَلَا نَظَرٍ وَلَا بُرْهَانِ

فِي سَلْبِ إِمْكَانٍ وَلَا فِي ضِدِّهِ ... هَذِي الْعُقُولُ وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ

فَلِمَاتِ بِالْفُرْقَانِ مَنْ هُوَ فَارِقٌ ... فَرْقًا بَيِّنَ لِصَالِحِ الْأَذْهَانِ

---

(١) [المؤمنون: ٩١].

وَكَذَاكَ سَوَّى الْجَهْمُ بَيْنَهُمَا كَذَا الْـ ... ـمَلَاقُ فِي الْإِنْكَارِ وَالْبُطْلَانِ

وَلِأَجْلِ ذَا حَكَمَا بِحُكْمٍ بَاطِلٍ قَطْعًا عَلَى الْجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ

فَالْجَهْمُ أَفْنَى الذَّاتَ وَالْمَلَاقُ لِلْـ ... ـحَرَكَاتِ أَفْنَى قَالَةَ الثَّوْرَانِ

وَأَبُو عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَالْأَشْعَرِي وَبَعْدَهُ ابْنُ الطَّيِّبِ الرَّبَّانِي

وَجَمِيعُ أَرْبَابِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْـ ... ـمَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْإِيمَانِ

فَرَقُوا وَقَالُوا ذَاكَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ حَقٌّ وَفِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ

قَالُوا لِأَجْلِ تَنَاقُضِ الْأَزَلِي وَالْـ ... أَحْدَاثُ مَا هَذَانِ يَجْتَمِعَانِ

لَكِنَّ دَوَامَ الْفِعْلِ فِي مُسْتَقْبَلٍ مَا فِيهِ مَحْذُورٌ مِنَ الْكُفْرَانِ

فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ فِي ذَا الْفَرْقِ تَرْ وَيْحًا عَلَى الْعُورَانِ وَالْعُمْيَانِ

مَا قَالَ ذُو عَقْلٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ ذُو أَزَلٍ لِذِي ذِهْنٍ وَلَا أَعْيَانِ

بَلْ كُلُّ فَرْدٍ فَهُوَ مَسْبُوقٌ بِفَرْ دٍ قَبْلَهُ أَبَدًا بِلَا حُسْبَانِ

وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهُوَ مَلْـ ... ـحُوقٌ بِفَرْدٍ بَعْدَهُ حُكْمَانِ

النَّوْعُ وَالْآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْـ ... ـحُوقٌ وَكُلٌّ فَهُوَ مِنْهَا فَانِ

وَالنَّوْعُ لَا يَفْنَى أَجَلْ فَهُوَ لَا يَفْنَى كَذَلِكَ أَوَّلًا بَيَّانِ

وَتَعَاقُبُ الْأَوْقَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي الذِّهْنِ وَهُوَ كَذَاكَ فِي الْأَعْيَانِ

فَإِذَا أَبَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ أَوَّلُ الْأَو قَاتِ مُفْتَتَحٌ بِلَا نُكْرَانِ

مَا كَانَ ذَاكَ الْآنَ مَسْبُوقًا يُرَى إِلَّا بِسَلْبِ وُجُودِهِ الْحَقَّانِي

فَيُقَالُ مَا تَعْنُونَ بِالْأَوْقَاتِ هَلْ تَعْنُونَ مُدَّةَ هَذِهِ الْأَزْمَانِ

مِنْ حِينِ إِحْدَاثِ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالْأَرْضِ وَالْأَفْلَاكِ وَالْقَمَرَانِ

وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَكْوَانِ

هَلْ جَاءَكُمْ فِي ذَاكَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ نَصٍّ وَمِنْ نَظَرٍ وَمِنْ بُرْهَانِ

هَذَا الْكِتَابُ وَهَذِهِ الْآثَارُ وَالْـ ... ـمَعْقُولُ فِي الْفِطَرَاتِ وَالْأَذْهَانِ

إِنَّا نُحَاكِمُكُمْ إِلَى مَا شِئْتُمُو مِنْهَا فَكُلُّ الْحَقِّ فِي تِبْيَانِ

أَوْ لَيْسَ خَلْقُ الْكَوْنِ فِي الْأَيَّامِ كَا نَ وَذَاكَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقُرْآنِ

أَوْ لَيْسَ ذَلِكُمُ الزَّمَانُ بِمُدَّةٍ ... لِحُدُوثِ شَيْءٍ وَهُوَ غَيْرُ زَمَانِ

فَحَقِيقَةُ الْأَزْمَانِ بِنْتَةُ حَادِثٍ ... لِسِوَاهُ تِلْكَ حَقِيقَةُ الْأَزْمَانِ

وَاذْكُرْ حَدِيثَ السِّتِّ لِلتَّقْدِيرِ وَالـ ... ـتَّوْقِيتِ قَبْلَ جَمِيعِ ذِي الْأَعْيَانِ

خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ سِنِينَ عَدَدُهَا الْـ ... ـمُخْتَارُ سَابِقَةً لِذِي الْأَكْوَانِ

هَذَا وَعَرْشُ الرَّبِّ فَوْقَ الْمَاءِ مِنْ ... قَبْلِ السِّنِينَ بِمُدَّةٍ وَزَمَانِ

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ

هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمْدَانِي

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلَ لَا أَلَـ ... ـةَ قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ

وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ لَعَقْبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ

لَمَّا بَرَاهُ اللهُ قَالَ اكْتُبْ كَذَا ... فَعَدَا بِأَمْرِ اللهِ ذَا جَرَيَانِ

فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَبَدًا إِلَى ... يَوْمِ الْمَعَادِ بِقُدْرَةِ الرَّحْمَنِ

أَفَكَانَ رَبُّ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... مِنْ قَبْلُ ذَا عَجْزٍ وَذَا لُقْصَانِ

أَمْ لَمْ يَزَلْ ذَا قُدْرَةٍ وَالْفِعْلُ مَقْـ ... ـدُورٌ لَهُ أَبَدًا وَذُو إِمْكَانِ

فَلَئِنْ سَأَلْتَ وَقُلْتَ مَا هَذَا الَّذِي ... أَدْهَاهُمُ لِخِلَافِ ذَا التِّبْيَانِ

وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا إِنَّهُ ... سُبْحَانَهُ هُوَ دَائِمُ الْإِحْسَانِ

فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا أَسَّسُوا ... أَصْلَ الْكَلَامِ عَمُوا عَنِ الْقُرْآنِ

وَعَنِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْمَعْقُولِ بَلْ ... عَنْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَانِ

وَبَنَوْا قَوَاعِدَهُمْ عَلَيْهِ فَقَادَهُمْ ... قَسْرًا إِلَى التَّعْطِيلِ وَالْبُطْلَانِ

نَفْيِ الْقِيَامِ لِكُلِّ أَمْرٍ حَادِثٍ ... بِالرَّبِّ خَوْفَ تَسَلْسُلِ الْأَعْيَانِ

فَيُسَدُّ ذَاكَ عَلَيْهِمُ فِي زَعْمِهِمْ ... إِثْبَاتَ صَانِعِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

إِذْ أَثْبَتُوهُ بِكَوْنِ ذِي الْأَجْسَادِ حَا ... دِثَةً فَلَا تَنْفَكُّ عَنْ حَدَثَانِ

فَإِذَا تَسَلْسَلَتِ الْحَوَادِثُ لَمْ يَكُنْ ... لِحُدُوثِهَا إِذْ ذَاكَ مِنْ بُرْهَانِ

فَلِأَجْلِ ذَا قَالُوا التَّسَلْسُلُ بَاطِلٌ ... وَالْجِسْمُ لَا يَخْلُو عَنِ الْحَدَثَانِ

فَيَصِحُّ حِينَئِذٍ حُدُوثُ الْجِسْمِ مِنْ ... هَذَا الدَّلِيلِ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

هَـذِي نِهَايَـاتٌ لإِقْـدَامِ الْـوَرَى فِـي ذَا الْمَقَـامِ الضَّيِّقِ الأَعْطَـانِ
فَمَـنِ الَّـذِي يَـأْتِي بِفَـتْحٍ بَـيِّنٍ يُنْجِـي الْـوَرَى مِـنْ غَمْـرَةِ الْحَيْرَانِ
فَـاللهُ يَجْزِيـهِ الَّـذِي هُـوَ أَهْلُـهُ مِـنْ جَنَّـةِ الْمَـأْوَى مَـعَ الرِّضْـوَانِ

الشرح

وذلك أن المُتكلمين عطلوه عن فعله فيما مضى كقول الكلابية والأشعرية، أو في المَاضي والمُستقبل كقول الجَهمية.

والذي حملهم على هذا القول الباطل الفرار والحَذر من التسلسل، والجَواب عن هذا الزام القول بالتسلسل في المَاضي كما قال الكلابية والأشعرية بِجوازه ووجوبه في المُستقبل، وأي فرق بين الأمرين فمن زعم أن لفعل الله ابتداء وهو يقول: ليس له انتهاء فقد تناقض، فكلاهما متساويان فِي الإمكان والوجوب عقلا ونقلاً.

وقد طرد هذا القول الجَهمية ونفوا التسلسل لفعله تعالَى فِي المَاضي والمُستقبل، وبنوا على هذا القول الذي هو أبطل من قول الكلابية والأشعرية القول بفناء الجَنة والنار، فالجهم أفنى ذاتها، والعلاَّف شيخ المُعتزلة أفنى حركاتهما، كما تقدم فِي شرح قولهم، وأما أبو علي الجُبائي وابنه وأبو الحَسن الأشعري وأبو بكر ابن الطيب ومن بعدهم من أهل الكلام الباطل ففرقوا بين الأمرين، وفرقهم باطل، وناقضوا، وتناقضهم أهون شرًا من قول الجَهمية والمَحذور الذي ظنوه أنَّهم إذا أثبتوا دوام فعل الرب فِي المَاضي وفيما لا يزال لزم صحة قول الفلاسفة فِي قدم العالم، وهذا الظن خطأ مَحض؛ فإن المثبتين للتسلسل فِي أفعال الباري ماضيًا ومستقبلاً وهم أهل السنة والجَماعة لَمْ يقل أحد منهم: إن شيئًا من أعيان المَخلوقات وأفرادها قديم، ولكنهم يقولون بدوام نوع الفعل الذي لا يدل العقل والنقل إلا عليه، فنوع فعله تعالَى لَمْ يزل ولا يزال، فالله لَمْ يزل يفعل وهو الفعال لما يريد، وكل فرد من أفراد مَخلوقاته السماوات وما فيها والأرضون وما فيهما وما قبل ذلك من المَخلوقات وما قبلها وما قبلها وهلم جرا فكلها مَخلوقة موجودة بعد أن لَمْ تكن.

وأما النوع الذي هو من لوازم الكمال وهو وصفه تعالَى فلا له مبتدأ وليس له منتهى؛

لأن الله لا يُمكن أن يكون في وقت من الأوقات فاقدًا لشيء من الكمال.

ونظير تعاقب الأعيان أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق وقبل ذلك مخلوق إلى غير غاية ونهاية، ونظيره تعاقب الأزمنة، فما من زمان إلا وقبله زمان وقبل ذلك زمان وقبله وقبله إلى غير غاية، وهذا يدرك بأقل تأمل.

فإن قالوا: إننا نمنع التسلسل أيضًا في الأزمنة، فيقال لهم: ما تعنون بالأزمنة؟ هل تعنون بها المُدة والزمان الكائن منذ خلق الله السماوات والأرض، وهذا مرادهم، ولا يفيدهم شيئًا، أم تعنون أنه لم يكن قبلها من المخلوقات شيء، فهذا لا دليل عليه من الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في النقل بل هذه الأدلة كلها تدل على أن الله تعالى قد خلق السماوات والأرض، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهذه الأيام التي خلقها الله بها مقدرة بزمان غير الزمان المُقدر بسير الشمس والقمر، فدل على أنه مقدر بحركة أخرى غير سير الشمس والقمر، وذلك دليل على وجود زمان ومخلوقات قبل ذلك؛ فإن الأزمنة تقدر فيها الحوادث.

وقد ثبت في الصحيح: أن الله لما خلق القلم قال له: اكتب، قال: ما اكتب قال: أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام وكان عرشه على الماء[1]. وهذا صريح في وجود مخلوقات قبل السماوات والأرض.

وقد اختلف الناس أيُّ العرش والقلم خلق أولًا؟ حكى أبو العلاء الهمداني في ذلك قولين، والراجح أن العرش قبل القلم؛ لأنه قال في الحديث الذي فيه: «أول ما خلق الله القلم». إلى أن قال فيه: «وكان عرشه على الماء»[2]. وهذا ظاهر في تقدم العرش؛ فإن الحديث صريح في أن العرش قبل الكتابة، فإن الكتابة تعقبت إيجاد القلم من غير مهلة.

فهذا ونحوه من الآثار يدل على أن الله تعالى لم يزل يفعل، ومما يدل عليه عقلا وفطرة القاعدة المتقدمة.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٧، ٢٠١٨) وليس فيه «وكان عرشه على الماء» وهذا الجزء في مسلم كما تقدم.

وهو أن الله تعالى باتفاق الناس موصوف بالكمال المُطلق من جَميع الوجوه، وهذا الكمال ثابت له في جَميع الأوقات، يستحيل أن يكون عادمًا له في وقت من الأوقات، وهذا واضح لا يقبل الريب، ولكن أهل الكلام لما أصلوا أصولا فاسدة وقواعد باطلة اعتقدوها وحرفوا لأجلها النصوص وردوا لأجلها ما خالفها بعقولهم الفاسدة، اشتبه الأمر عليهم، وإلا فانصاف الباري تعالى أنه على الدوام فعال لما يريد لا يَحتاج إلى كثير نظر.

فصل

فَاسْمَعْ إِذًا وَافْهَمْ قَذَاكَ مُعَطِّلٌ ... وَمُشَبِّهٌ وَهَذَاكَ ذُو الْعُرْفَانِ

هَذَا الدَّلِيلُ هُوَ الَّذِي أَرْدَاهُمُ ... بَلْ هَدَّ كُلَّ قَوَاعِدِ الْقُرْآنِ

وَهُوَ الدَّلِيلُ الْبَاطِلُ الْمَرْدُودُ عَنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

مَا زَالَ أَمْرُ النَّاسِ مُعْتَدِلاً إِلَى ... أَنْ دَارَ فِي الأَوْرَاقِ وَالأَذْهَانِ

وَتَمَكَّنَتْ أَجْزَاؤُهُ بِقُلُوبِهِم ... فَأَتَتْ لَوَازِمُهُ إِلَى الإِيمَانِ

رُفِعَتْ قَوَاعِدُهُ وَتَحْتَ أَسَاسِهِ ... فَهَوَى الْبِنَاءُ وَخَرَّ لِلأَرْكَانِ

وَجَنَوْا عَلَى الإِسْلاَمِ كُلَّ جِنَايَةٍ ... إِذْ سَلَّطُوا الأَعْدَاءَ بِالْعُدْوَانِ

حَمَلُوا بِأَسْلِحَةِ الْمُحَالِ فَخَانَهُمْ ... ذَاكَ السِّلاَحُ فَمَا اتَّقَوْا بِطِعَانِ

وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سِلاَحِهِمُ فَقَا ... تَلَهُمْ بِهِ فِي غَيْبَةِ الْفُرْسَانِ

يَا مِحْنَةَ الإِسْلاَمِ وَالْقُرْآنِ مِنْ ... جَهْلِ الصَّدِيقِ وَبَغْيِ ذِي طُغْيَانِ

وَاللهِ لَوْلاَ اللهُ نَاصِرُ دِينِهِ ... وَكِتَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

لَتَخَطَّفَتْ أَعْدَاؤُنَا أَرْوَاحَنَا ... وَلَقُطِّعَتْ مِنَّا عُرَى الإِيمَانِ

أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَا اهْتَدَى ... غَيْرُ الْقُرُونِ لَهُ مُحَالٌ ذَانِ

وَلَقَدْ نَمَوْا لِلْحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا ... أَصْلِ الْيَقِينِ وَمَقْعَدِ الْعِرْفَانِ

وَهَدَيْتُمُونَا لِلَّذِي لَمْ يَهْتَدُوا ... أَبَدًا بِهِ وَاشِدَّةَ الْحِرْمَانِ

وَدَخَلْتُمُ لِلْحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا ... دَخَلُوهُ وَاعَجَبًا لِهَذَا الْخِذْلاَنِ

وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ دُو ... نَ الْقَوْمِ وَاعَجَبًا لِهَذَا الْهَيْتَانِ

وَعَرَفْتُمُ الرَّحْمَنَ بِالأَجْسَامِ وَالْـ ... أَعْرَاضِ وَالْحَرَكَاتِ وَالأَلْوَانِ

وَهُمْ فَمَا عَرَفُوهُ مِنْهَا بَلْ مِنَ الْـ ... آيَاتِ وَهْيَ فَغَيْرُ ذِي بُرْهَانِ
اللهُ أَكْبَرُ أَنْتُمْ أَوْ هُمْ عَلَى ... حَقٍّ وَفِي غَيٍّ وَفِي خُسْرَانِ
دَعْ ذَا أَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَبْدَى لَنَا ... حَقَّ الأَدِلَّةِ وَهْيَ فِي الْقُرْآنِ
مُتَنَوِّعَاتٌ صُرِّفَتْ وَتَظَاهَرَتْ ... فِي كُلِّ وَجْهٍ فَهْيَ ذُو أَفْنَانِ
مَعْلُومَةٌ لِلْعَقْلِ أَوْ مَشْهُودَةٌ ... لِلْحِسِّ أَوْ فِي فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
أَسَمِعْتُمْ لِدَلِيلِكُمْ فِي بَعْضِهَا ... خَبَرًا أَوَ احْسَسْتُمْ لَهُ بِبَيَانِ
أَيَكُونُ أَصْلُ الدِّينِ مَا تَمَّ الْهُدَى ... إِلاَّ بِهِ وَبِهِ قُوَى الإِيمَانِ
وَسِوَاهُ لَيْسَ بِمُوجِبٍ مَنْ لَمْ يَحُطْ ... عِلْمًا بِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْ كُفْرَانِ
وَاللهُ ثُمَّ رَسُولُهُ قَدْ بَيَّنَا ... طُرُقَ الْهُدَى فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ
فَلأَيِّ شَيْءٍ أَعْرَضَا عَنْهُ وَلَمْ ... نَسْمَعْهُ فِي أَثَرٍ وَلاَ قُرْآنِ
لَكِنْ أَتَانَا بَعْدَ خَيْرِ قُرُونِنَا ... بِظُهُورِ أَحْدَاثٍ مِنَ الشَّيْطَانِ
وَعَلَى لِسَانِ الْجَهْمِ جَاءُوا حِزْبَهُ ... مِنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَيْرَانِ
وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ النَّكِيرُ عَلَيْهِمُ ... مِنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
صَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ بَلْ رَمَوْا ... فِي إِثْرِهِمْ بِتَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ
عَرَفُوا الَّذِي يَفْضِي إِلَيْهِ قَوْلُهُمْ ... وَدَلِيلُهُمْ بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ
وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي خَفَارَةِ جَهْلِهِ ... وَالْجَهْلُ قَدْ يَنْجِي مِنَ الْكُفْرَانِ

الشرح

لَمْ يزل المسلمون وأئمة الهُدي مثبتين مادل عليه الكتاب والسنة من نعوت الباري الذاتية والفعلية، وليس في قلوبهم أدنى شبهة تناقض هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها، حَتَّى جاء هؤلاء المُتكلمون بالكلام الباطل، وأصلوا لَهم أصولا من تلقاء أنفسهم ما أنزل الله بِهَا من سلطان نقل ولا علقي، فابتدعوا هذا الاستدلال الذي نفوا به أفعال الله وظنوا وقالوا: إنَّهم للإسلام ينصورن، وهم في الحَقيقة لا للإسلام نصروا ولا على أعدائه وجاحديه انتصروا، بل صار دليلهم هذا أكبر سلاح لأعداء الإسلام عليهم، وألزموهم لأجله اللوازم

الَّتي عجزوا عن التخلص منها، وبذلك أغروا عدوّ الإسلام في لزومه لقوله، وظنوا بالإسلام الظنون السيئة حيث ظنوا أن هذا مما جاء به الإسلام، مع أن الإسلام بريء منه كل البراءة.

ولولا أن الله متكفل بحفظ دينه، ومقيم له الأنصار والحُفظة من أئمة الهُدى ومصابيح الدجى لذهب الإسلام.

ولقد بينوا أن هذا الدليل الذي ابتدعه أهل الكلام الباطل دليل باطل مستدل به على باطل، فاللازم والملزوم باطلان.

ومما يدل على بطلانه أن أعيان خيار هذه الأمة وصفوتهم وأعلاهم أخلاقًا وأعمالاً أو أكملهم إيمانًا من المُهاجرين والأنصار والقرون المُفضلة وجَميع أئمة الدين ومُحققي المسلمين لَمْ يعرفوا هذا الدليل، وليس له عندهم حس ولا خبر ولا عين ولا أثر، ولَمْ يعرفوا الله بهذا الدليل، وليس له عندهم حس ولا خبر ولا عين ولا أثر.

ولَمْ يعرفوا الله بهذه الألفاظ المبتدعة بالأجسام والأعراض والجواهر ونحوها، فمن المُحال أن يكون هذا الدليل صحيحًا وقد حرم منه هؤلاء الصفوة الأخيار ويفوز به هذا الخَلف السوء.

فإيمان السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان مبني على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، مؤيد بالعقل الصحيح الذي يعترف به أهل العقول الوافية والألباب الكاملة، فهل يقاربهم من إيمانه مبني على دليل الأعراض الذي ليس له في النصوص ذكر ولا إشارة، ولا قاله أحد من السلف، ولقد اعترف كثير من فضلائهم ببطلانه كالأشعري وغيره وأنه دليل مبتدع، وصرح بعضهم بالحَق وهو أنه في نفسه باطل ومقدماته فاسدة وأنه مفسد للدين والإيمان، مخبط للأذهان، مشوش للحقائق العقلية، مُخالف للأدلة النقلية.

وأيضًا فالله ورسوله قد بينا جَميع الطرق المُعرفة بالله وصرفاها ونوعاها ولَمْ يذكر الله ولا رسوله هذا الدليل فلو كان حقا لذكراه، ولكنه باطل.

ولهذا لما اطلع الأئمة على حقيقة هذا الدليل أنكروا على أهله غاية الإنكار، وحذروا منه غاية التحذير لعلمهم بما يفضي إليه.

ومن أراد معرفة بطلانه حقًا بالأدلة الشرعية والأدلة العقلية، ونقل أعتراف فضلائهم

ببطلانه وتناقض المثبتين له، وتوضيح فساد مقدماته، وعجز أهله عن نصرته غاية العجز، فلينظر إلى كتاب العقل والنقل لشيخ الإسلام والمسلمين ابن تيمية، فقد أتى فيه بالعجب العجاب، وقاوم فحولهم وأساطينهم ونظارهم، وبين الأدلة المتنوعة بطلان أقوالهم وفسادهم، وأنهم أدعوا أنهم أهل العقول والنظر، فاتضح أن عقولهم فاسدة، وآراءهم ضالة، وعقلياتهم جهليات وخيالات، ونحمد الله على نعمة السنة والإسلام، ونشكره أن قيض لنصره مثل هذا الإمام وأمثاله، جزاهم الله خير الجزاء والله أعلم.

فصل

في الرد على الجهمية المعطلة القائلين بأنه ليس على العرش إله يعبد ولا فوق السموات إله يصلى له ويسجد وبيان فساد قولهم عقلاً ونقلاً ولغة وفطره

وَاللهُ كَانَ وَلَيْسَ شَيءٌ غَيْرَهُ ... وَيَرَى الْبَرِيَّةَ وَهْيَ ذُو جَحْدَانِ

فَسَلِ الْمُعَطِّلَ هَلْ يَرَاهَا خَارِجًا ... عَنْ ذَاتِهِ أَمْ فِيهِ حَلَّتْ ذَانِ

لَابُدَّ مِنْ إِحْدَاهُمَا أَوْ أَنَّهَا ... هِيَ عَيْنُهُ مَا ثَمَّ مَوْجُودَانِ

مَا ثَمَّ مَخْلُوقٌ وَخَالِقُهُ وَمَا ... شَيءٌ مُغَايِرُ هَذِهِ الأَعْيَانِ

لَابُدَّ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ خِلْوًا عَنِ الرُّوَغَانِ

وَكَذَاكَ قَالَ مُحَقِّقُو الْقَوْمِ الَّذِي ... رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

هُوَ عَيْنُ هَذَا الْكَوْنِ لَيْسَ بِغَيْرِهِ ... أَنَّى وَلَيْسَ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ

كَلَّا وَلَيْسَ مُجَانِبًا أَيْضًا لَهَا ... فَهُوَ الْوُجُودُ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْخَلَائِقِ رَبُّهَا ... فَالْقَوْلُ هَذَا الْقَوْلَ فِي الْمِيزَانِ

إِذْ لَيْسَ يَعْقِلُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّهُ ... قَدْ حَلَّ فِيهَا وَهْيَ كَالأَذْهَانِ

وَالرُّوحُ ذَاتُ الْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَلَّتْ بِهَا كَمَقَالَةِ النَّصْرَانِي

فَاحْكُمْ عَلَى مَنْ قَالَ لَيْسَ بِخَارِجٍ ... عَنْهَا وَلَا فِيهَا بِحُكْمِ بَيَانِ

بِخِلَافِهِ الْوَحْيَيْنِ وَالإِجْمَاعِ وَالـ ... ـعَقْلِ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

فَعَلَيْهِ أَوْقَعَ حَدَّ مَعْدُومٍ بِلَا ... حَدِّ الْمُحَالِ بِغَيْرِ مَا فُرْقَانِ

يا لَلْعُقُولِ إِذَا نَفَيْتُمْ مُخْبِرًا ... وَنَقِيضَهُ هَلْ ذَاكَ فِي إِمْكَانِ
إِنْ كَانَ نَفْيُ دُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ ... لَا يَصْدُقَانِ مَعًا لِذِي الإِمْكَانِ
إِلَّا عَلَى عَدَمٍ صَرِيحٍ نَفْيُهُ ... مُتَحَقِّقٌ بِبَدَاهَةِ الإِنْسَانِ
أَيَصِحُّ فِي الْمَعْقُولِ يَا أَهْلَ النُّهَى ... ذَاتَانِ لَا بِالْغَيْرِ قَائِمَتَانِ
لَيْسَتْ تُبَايِنُ مِنْهُمَا ذَاتٌ لِأُخْـ ... ـرَى أَوْ تُحَاذِيهَا فَيَجْتَمِعَانِ
إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ فَهُوَ ذَا ... فَارْجِعْ إِلَى الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي ... هُوَ قَابِلٌ مِنْ جِسْمٍ اوْ جِسْمَانِ
وَالرَّبُّ لَيْسَ كَذَا فَنَفْيُ دُخُولِهِ ... وَخُرُوجِهِ مَا فِيهِ مِنْ بُطْلَانِ
فَيُقَالُ هَذَا أَوَّلًا مِنْ قَوْلِكُمْ ... دَعْوَى مُجَرَّدَةٌ بِلَا بُرْهَانِ
ذَاكَ اصْطِلَاحٌ مِنْ فَرِيقٍ فَارَقُوا الْـ ... ـوَحْيَ الْمُبِينَ بِحِكْمَةِ الْيُونَانِ
وَالشَّيْءُ يَصْدُقُ نَفْيُهُ عَنْ قَابِلٍ ... وَسِوَاهُ فِي مَعْهُودِ كُلِّ لِسَانِ
أَنْسِيتَ نَفْيَ الظُّلْمِ عَنْهُ وَقَوْلُكَ الظْـ ... ـلْمُ الْمُحَالُ وَلَيْسَ ذَا إِمْكَانِ
وَنَسِيتَ نَفْيَ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ الَّتِي ... لَيْسَتْ لِرَبِّ الْعَرْشِ فِي الإِمْكَانِ
وَنَسِيتَ نَفْيَ الطُّعْمِ عَنْهُ وَلَيْسَ ذَا ... مَقْبُولَةً وَالنَّفْيُ فِي الْقُرْآنِ
وَنَسِيتَ نَفْيَ وِلَادَةٍ أَوْ زَوْجَةٍ ... وَهُمَا عَلَى الرَّحْمَنِ مُمْتَنِعَانِ
وَاللهُ قَدْ وَصَفَ الْجَمَادَ بِأَنَّهُ ... مَيْتٌ أَصَمُّ وَمَا لَهُ عَيْنَانِ
وَكَذَا نَفَى عَنْهُ الشُّعُورَ وَنُطْقَهُ ... وَالْخَلْقَ نَفْيًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ
هَذَا وَلَيْسَ بِهَا قَبُولٌ لِلَّذِي ... يُنْفِي وَلَا مِنْ جُمْلَةِ الْحَيَوَانِ
وَيُقَالُ أَيْضًا ثَانِيًا لَوْ صَحَّ هَـ ... ـذَا الشَّرْطُ كَانَ لِمَا هُمَا ضِدَّانِ
لَا فِي النَّقِيضَيْنِ اللَّذَيْنِ كِلَاهُمَا ... لَا يُثْبَتَانِ وَلَيْسَ يَرْتَفِعَانِ
وَيُقَالُ أَيْضًا نَفْيُكُمْ لِقَبُولِهِ ... لَهُمَا يَزِيلُ حَقِيقَةَ الإِمْكَانِ
بَلْ ذَا كَنَفْيِ قِيَامِهِ بِالنَّفْسِ أَوْ ... بِالْغَيْرِ فِي الْفِطْرَاتِ وَالأَذْهَانِ
فَإِذَا الْمُعَطِّلُ قَالَ إِنَّ قِيَامَهُ ... بِالنَّفْسِ أَوْ بِالْغَيْرِ ذُو بُطْلَانِ
إِذْ لَيْسَ يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْ ذَيْنِكَ الْـ ... أَمْرَيْنِ إِلَّا وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

جِسْمٌ يَقُومُ بِنَفْسِهِ أيضًا كَذَا ... عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِهِ أَحْيَانِ

فِي حُكْمِ إِمْكَانٍ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ... مَا كَانَ فِيهِ حَقِيقَةُ الإِمْكَانِ

فَكِلاَكُمَا يَنْفِي الإِلَهَ حَقِيقَةً ... وَكِلاَكُمَا فِي نَفْيِهِ بُرْهَانِ

مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ ... فِي النَّفْيِ صِرْفًا إِذْ هُمَا عِنْدَانِ ضَاهَيْتَ هَذَا

وَالْفَرْقُ لَيْسَ بِمُمْكِنٍ لَكَ بَعْدَمَا ... النَّفْيُ فِي الْبُطْلاَنِ

فَوِزَانُ هَذَا النَّفْيِ مَا قَدْ قُلْتَهُ ... حَرْفًا بِحَرْفٍ أَنْتُمَا صِنْوَانِ

وَالْخَصْمُ يَزْعُمُ أَنَّ مَا هُوَ قَابِلٌ ... لِكِلَيْهِمَا فَكِقَابِلٍ لِمَكَانِ

فَافْرُقْ لَنَا فَرْقًا بَيِنَ مَوَاقِعَ الْـ ... إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بِالْبُرْهَانِ

أَوْ لاَ فَأَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا وَخَلِّ ... لِ الْقَشْرَ عَنْكَ وَكُثْرَةَ الْهَذَيَانِ

الشرح

قد علم وتقرر نقلاً وعقلاً أن الله تعالى كان وليس شيء غيره من المخلوقات، ثُمَّ خلق المخلوقات وأوجد الكائنات.

فيقال للمعطل: هل خلق المخلوقات بائنة عنه، أم خلقها حالة فيه؟ فلابد أن يُجيب بأحد الأمرين، أو بجواب ثالث وهو التحيز إلى قول الاتحادية الذين هم أخبث الطوائف قولاً: إن الخالق هو عين المخلوق وهؤلاء هم غلاة المعطلين، فإن قالوا: إن الله خلق المخلوقات حالة في ذاته حلول الروح في الجسم، فقد زعموا أنه مفتقر ومحتاج إليها، وإن قالوا: هو لا داخل العالم ولا خارجه. فقد حكموا عليه بالعدم؛ لأنهم إذا رفعوا النقيضين فهذا وصف المعدوم، وإن قالوا الحق وهو أنه خلقها بائنة عنه وهو باين عنها فقد أقروا بالحق، ويلزم على هذا أن يكون عليًا على خلقه مستويًا على عرشه.

فإن قالوا: إن هذا النفي إنَّمَا يكون ينطبق على المعدوم فيما يقبل الدخول والخروج، وأما الباري فليس بقابل لواحد منهما؛ إذ هذا من خصائص الأجسام والله منزه عن هذا.

فيقال: هذه دعوى مجردة على الدليل فهي ممنوعة فلا تقبل فإن مثل هذه الدعوى دعوى المذهب والإصلاح الذي اصطلح عليه هؤلاء المتكلمون فتكون الدعوى باطلة.

ويقال ثانيًا بل يصدق نفي الشيء على القابل للشيء المنفي وغير القابل لغة وشرعًا فإنه نفى عن نفسه الظلم وهو محال عند الجهمية كما تقدم تفسيرهم للظلم أنه المُمتنع لذاته، فهو وإن كان تفسيرًا باطلا ولكنهم يعتقدونه فيحسن ذكره في مقام إلزامهم، وكذلك نفى عن نفسه النوم والسنة والطعم والولادة والزوجية وهذه ممتنعة على الرحمن، وكذلك نفي عن بعض الجمادات السمع والبصر والنطق والشعور وأنها لا تخلق شيئًا وليست بقابلة لشيء من ذلك.

ويقال ثالثًا: لو صح ما قالوه أن الشيء لا ينفي إلا عن المُحل القابل فإنَّما ذلك في الضدين اللذين لا يجتمعان وقد يرتفعان، لا في النقيضين اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ومسألة نفي دخوله العالم ومباينته له من هذا القسم.

ويقال رابعًا: نفيكم لقبوله للدخول والخروج يزيل وينفي وصفه بأنه واجب الوجود بل ينفي إمكانه؛ لأنه إذا لَمْ يقبل الدخول والخروج كان ممتنعًا عقلا وفطرة.

فإذا قال المُعطل: إن نفي الأمرين القيام بالنفس والقيام بالغير باطل؛ إذ لا يقبل أحد الأمرين إلا المُمكنات والله ليس بقابل للأمرين، كان هذا من أعظم أوصاف المعدوم الممتنع، فلو قيل: صفوا لنا المعدوم. ما وصف بأبلغ من هذا، وهذا في الحقيقة نفي لوجود الله فلا يُمكنه التفريق بين الأمرين أبدًا، وإن طرد الأمرين ظهر كفره وإلحاده والله أعلم.

فصل

في سياق هذا الدليل على وجه آخر

وَسَلِ الْمُعَطِّلَ عَنْ مَسَائِلَ خَمْسَةٍ ... تَرْدِي قَوَاعِدَهُ مِنَ الأَرْكَانِ

قُلْ لِلْمُعَطِّلِ هَلْ تَقُولُ إِلَهُنَا الْـ ... ـمَعْبُودُ حَقًّا خَارِجَ الأَذْهَانِ

فَإِذَا نَفَى هَذَا فَذَاكَ مُعَطِّلٌ ... لِلرَّبِّ حَقًّا بَالِغُ الْكُفْرَانِ

وَإِذَا أَقَرَّ بِهِ فَسَلْهُ ثَانِيًا ... أَتَرَاهُ غَيْرَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

فَإِذَا نَفَى هَذَا وَقَالَ بِأَنَّهُ ... هُوَ عَيْنُهَا مَا هَا هُنَا غَيْرَانِ

فَقَدِ ارْتَدَى بِالإِتِّحَادِ مُصَرِّحًا ... بِالْكُفْرِ جَاحِدَ رَبِّهِ الرَّحْمَنِ

حَاشَا النَّصَارَى أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ ... وَهُمُ الْحَمِيرُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

هُمْ خَصُّوهُ بِالْمَسِيحِ وَأُمِّهِ ... وَأُولَاءِ مَا صَانُوهُ عَنْ حَيَوَانِ

وَإِذَا أَقَرَّ بِأَنَّهُ غَيْرُ الْوَرَى ... عَبْدٌ وَمَعْبُودٌ هُمَا ثَنَيَانِ

فَاسْأَلْهُ هَلْ هَذَا الْوَرَى فِي ذَاتِهِ ... أَمْ ذَاتُهُ فِيهِ هُنَا أَمْرَانِ

فَإِذَا أَقَرَّ بِوَاحِدٍ مِنْ ذَيْنِكَ الْـ ... ـأَمْرَيْنِ قُلْ حَدَّثْتَ النَّصْرَانِي

وَيَقُولُ أَهْلًا بِالَّذِي هُوَ مِثْلُنَا ... حَشَدَاتُنَا وَحَبِيبُنَا الْحَقَّانِي

وَإِذَا نَفَى الْأَمْرَيْنِ فَاسْأَلْهُ إِذَا ... هَلْ ذَاتُهُ اسْتَغْنَتْ عَنِ الْأَكْوَانِ

فَلِذَاكَ قَامَ بِنَفْيِهِ أَمْ قَامَ بِالْـ ... أَعْيَانِ كَالْأَعْرَاضِ وَالْأَلْوَانِ

فَإِذَا أَقَرَّ وَقَالَ بَلْ هُوَ قَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ فَاسْأَلْهُ وَقُلْ ذَانِكَ

بِالنَّفْسِ قَائِمَتَانِ أَخْبِرْنِي هُمَا ... مَثَلَانِ أَوْ ضِدَّانِ أَوْ غَيْرَانِ

وَعَلَى التَّقَادِيرِ الثَّلَاثِ فَإِنَّهُ ... لَوْلَا التَّبَايُنُ لَمْ يَكُنْ ثَنَيَانِ

ضِدَّيْنِ أَوْ مِثْلَيْنِ أَوْ غَيْرَيْنِ كَا ... نَا بَلْ هُمَا لَا شَكَّ مُتَّحِدَانِ

فَلِذَاكَ قُلْنَا إِنَّكُمْ بَابٌ لِمَنْ ... بِالِاتِّحَادِ يَقُولُ بَلْ بَابَانِ

نَقْطَعُ لَهُمْ وَهُمْ خَطُّوا عَلَى ... نُقَطٍ لَكُمْ كَمُعَلِّمِ الصِّبْيَانِ

الشرح

وهذه العادة في أدلة الحق وشواهده حيث صرفت وأديرت على أي وجه وبأي عبارة فإن دلالتها واحدة؛ لأن الحق ثابت لا يتغير مستقر في العقول الصحيحة السليمة إلا أن العبارات تختلف في وضوحها وجلائها وأخفائها بخلاف أدلة الباطل؛ فإنها لا تكاد تقبل إلا إذا وافقت ضعف بصيرة وقلة علم ونظمت بعبارة مخصوصة مزوقة مزخرفة، فإذا أديرت بعبارة وسياق آخر بان بطلانها، وكلما حرفت اتضح فسادها بمنزلة الشيء المغشوش يظهر غشه بأدنى أختيار، فتقدم الإلزم للمعطل واستخباره واستفهامه هل يقول: إنه برأ البرية في نفسه أو خراجًا عنه أو ينفي الأمرين، وأنه يضطر إلى الاعتراف بأنه خلقها باثنة عنه وهو باثن عنها عال عليها وأنه إن قال غير هذا فهو غالط مكابر.

وهذا سؤال آخر فإنه يقال للمعطل الأول هل الرب تعالى ثابت في الأذهان أم لا؟ فإن

قال: لا فهو جاحد لرب العالمين؛ فإن الذي لا وجود له في الأذهان والقلوب لا وجود له أصلا.

فإن قال: نعم هو موجود في الأذهان. فإنه يقال له ثانيًا: هل هو هذه الأكوان أو غيرها؟ فإن قال: هو هي وهي هو. فقد قال بقول الاتحاديين الذين هم أكفر الناس برب العالمين، فإن قال: بل هو غيرها. فإنه يقال له ثالثًا: هل هو حال في الأكوان أو هي حالة فيه؟ فإذا قال بأحد الأمرين فقد قال بقول النصارى القائلين بإلهية المسيح ابن مريم وأن اللاهوت حل الناسوت.

وهؤلاء أبلغ من النصارى؛ فإن النصارى خصصوه بعيسى وهؤلاء عمموه بجميع المخلوقات فإذا نفى الأمرين بأن قال لم يَحُل فيها ولم تحل فيه فيقال له رابعًا: هل هو قائم بنفسه غنى عن الأكوان والخلق أم هو قائم بغيره كقيام الألوان والأعراض بمحالها فإن أقر بالحق وقال: بل هو قائم بنفسه مستغن عن جميع خلقه، فيسأل خامسًا فيقال: له هل ذاته تماثل الذوات أو تضادها أو تغايرها؟ وعلى هذه التقادير الثلاثة فإنه لولا أنه بائن عنها لم يكن شيئان متماثلان أو متضادين أو متغايرين؛ لأن كل واحد من هذه الثلاثة بالنسبة إلى قسيمه يكون غيره لا يُمكن أن يتحد معه، فيضطر إلى أن يختار أحدها.

إما أنه هذه المخلوقات وينفي التماثل والتضاد والتغاير ويصرح بقول الاتحاديين ويخرج من ربقة الدين، وأما أن يعترف بالحق. الواضح وهو أن الخالق غير المخلوق، وأنه بائن عن مخلوقاته، متوحد في صفاته متفرد بربوبيته والهيته، علي على جميع بريته.

فهذه إشارة إلى تقاسيم عقلية وحقائق يعترف بها من له لب تلجيء المنصف إلى الاعتراف بالحق ويعلم بها أن من خالفها فهو مكابر للمحسوس والمعقول، كما أنه مخالف للمنقول.

فلما ذكر الأدلة العقلية والألزامات المفحمة لكل مبطل ذكر الأدلة النقلية فقال:

فصل
في الإشارة إلى الطرق النقلية الدالة على أن الله سبحانه فوق سمواته على عرشه

وَلَقَدْ أَتَانَا عَشْرُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْـ ... ـمَنْقُولِ فِي فَوْقِيَّةِ الرَّحْمَٰنِ

مَـعَ مِثْلِهَـا أَيْضًـا تُزِيـدُ بِوَاحِـدٍ ... فَـمَا نَحْـنُ نَسْـرُدُهَا بِـلاَ كُتْمَـانِ

مِنْهَا اسْـتِوَاءُ الـرَّبِّ فَـوْقَ الْعَـرْشِ فِـي ... سَـبْعِ أَتَـتْ فِـي مُحْكَـمِ الْقُـرْآنِ

وَكَـذَلِكَ اطَّـرَدَتْ بِـلاَ لاَمٍ وَلَـوْ ... كَانَـتْ بِمَعْنَـى اللاَّمِ فِـي الأَذْهَـانِ

لأَتَتْ بِهَا فِـي مَوْضِـعٍ كَـيْ يَحْمِـلَ الْـ ... ـبَـاقِي عَلَيْهَـا بِالْبَيَـانِ الثَّـانِي

وَلَظَـيْرُ ذَا إِضْـمَارُهُمْ فِـي مَوْضِـعٍ ... حَمْـلاً عَلَـى الْمَـذْكُورِ فِـي التِّبْيَـانِ

لاَ يَضْـمُرُونَ مَـعَ اطِّـرَادِ دُونَ ذِكْـ ... ـرِ الْمُضْـمَرِ الْمَحْـذُوفِ دُونَ بَيَـانِ

بَـلْ فِـي مَحَـلِّ الْحَـذْفِ يَكْثُـرُ ذِكْـرُهُ ... فَـإِذَا هُـمُ أَلِفُـوهُ إِلْـفَ لِسَـانِ

حَـذْفُوهُ تَخْفِيفًـا وَإِيجَـازًا فَـلاَ ... يَخْفَـى الْمُـرَادُ بِـهِ عَلَـى الإِنْسَـانِ

هَذَا وَمِـنْ عِشْـرِينَ وَجْهًـا يَنْطُـلُ الـ ... ـقَـوْلُ بِاسْـتِوَلَّى لِـذِي الْعِرْفَـانِ

قَـدْ أُفْـرِدَتْ بِمُصَنَّـفٍ لِإِمَـامِ هَـ ... ـذَا الشَّـأْنِ بَحْـرِ الْعَـالِمِ الْحَرَّانِـي

الشرح

ذكر المُصنفة أحدًا وعشرين نوعًا من الأدلة على هذه المسألة العظيمة كل نوع منها تحته من الأفراد ما لا يعد ولا يحصى.

الأول: الأخبار بأنه استوى على عرشه في سبعة مواضع من القرآن معروفة، وكلها جاءت بلفظ على العرش فإن (على) تدل على العلو والارتفاع، وهذا نص لا يقبل الاحتمال ولا الاشتباه في معناه.

فإنها لو كانت بمعنى «استولى» كما قاله الجَهمية وأتباعهم لأتت اللام في موضع واحد بذلك كانت نصًا صريحًا في العلو والفوقية؛ فإن العرب جرت عادتهم في كلامهم الفصيح أن يضمروا بعض القيود في بعض كلامهم ويذكروه في كلام ولفظ آخر فيحمل مطلق الكلام على مقيده، وأما هذا الموضع فالحمل متعذرٌ، وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية تفسير الجَهمية أن معنى استوى على العرش استولى بعشرين وجهًا كل واحد منها كاف شاف.

فصل

هَـذَا وَثَانِيهَـا صَـرِيحُ عُلُـوِّهِ ... وَلَـهُ بِحُكْـمِ صَـرِيحِهِ لَفْظَـانِ

لَفْـظُ الْعَلِـيِّ وَلَفْظَـةُ الأَعْلَـى مُعَـرْ ... رَفَـةٌ [أَتَتْكَ هُـدًى] لِقَصْـدِ بَيَـانِ

إِنَّ الْعُلُـوَّ لَـهُ بِمُطْلَقِـهِ عَلَـى الـ ... ـتَّعْمِـيمِ وَالإِطْـلَاقِ بِالْبُرْهَـانِ

وَلَـهُ الْعُلُـوُّ مِـنَ الْوُجُـوهِ جَمِيعِهَـا ... ذَاتًـا وَقَهْـرًا مَـعْ عُلُـوِّ الشَّـانِ

لَكِـنْ نُفَـاةُ عُلُـوِّهِ سَـلَبُوهُ إِكْـ ... ـمَالَ الْعُلُـوِّ فَصَـارَ ذَا نُقْصَـانِ

خَافُـوهُ مِـنْ إِفْـكِ النُّفَـاةِ وَسَـلْبِهِمْ ... فَلَـهُ الْكَمَـالُ الْمُطْلَـقُ الرَّبَّـانِي

وَعُلُـوُّهُ فَـوْقَ الْخَلِيقَـةِ كُلِّهَـا ... فُطِـرَتْ عَلَيْـهِ الْخَلْـقُ وَالثَّقَلَانِ

لَا يَسْـتَطِيعُ مُعَطِّـلٌ تَبْـدِيلَهَا ... أَبَـدًا وَذَلِـكَ سُـنَّةُ الـرَّحْمَنِ

كُـلٌّ إِذَا مَـا نَابَـهُ أَمْـرٌ يَـرَى ... مُتَوَجِّهًـا بِضَـرُورَةِ الإِنْسَـانِ

نَحْـوَ الْعُلُـوِّ فَلَـيْسَ يَطْلُـبُ خَلْفَـهُ ... وَأَمَامَـهُ أَوْ جَانِـبَ الإِنْسَـانِ

وَنِهَايَـةُ التَّشْـبِيهَاتِ تَشْـكِيكٌ وَلَحْـ ... ـمِيشٌ وَتَعْـيِيرٌ عَلَـى الإِيمَـانِ

لَا يَسْـتَطِيعُ لِعَـارِضِ الْمَعْلُـومِ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ عِنْـدَ بَدَائِـهِ الإِنْسَـانِ

فَمِنَ الْمُحَـالِ الْقَـدْحُ فِـي الْمَعْلُـومِ بِالشُّـ ... ـبُهَاتِ هَـذَا بَـيِّنُ الْبُطْلَانِ

وَإِذَا الْبَدَائِـهُ قَابَلَتْهَـا هَـذِهِ الشُّـ ... ـبُهَاتِ لَـمْ تَحْـتَجْ إِلَـى بُطْـلَانِ

شَـتَّانَ بَـيْنَ مُقَالَـةٍ أَوْصَـى بِهَـا ... بَعْـضٌ لِـبَعْضٍ أَوَّلٌ لِلثَّـانِي

وَمُقَالَـةٍ فَطَـرَ الإِلَـهُ عِبَـادَهُ ... حَقًّـا عَلَيْهَـا مَـا هُمَـا عِـدْلَانِ

الشرح

الثاني: التصريح بلفظ العلو، وقد تكرر في الكتاب وصفة بالعلي الأعلى، وذلك يدل على أن العلي الأعلى بكل وجه ومعنًى، واعتبار علو الذات والصفات وعلو القدر والعظمة وعلو القهر والجبروت.

لكن المُعطلة على أصلهم الفاسد ينفون عنه علو الذات ويفسرونه بالوجهين الأخيرين،

وهذا هضم منهم لهذا المعنى العظيم وإنكار لعلوه الذي فطر الله عليه الخليقة.

فإنه ما توجه متوجه من البرية إلى الله إلا رفع قلبه وطرفه إلى الله لا يلتفت يمنة ولا يسرة وهذه الفطرة لا يستطيع المعطلون تبديلها، ولو رجعوا إلى أنفسهم لوجدوا هذا المعنى موكوزًا في فطرهم ولكن العقائد الباطلة مسيطرة على الفطرة وعلى كل حقيقة، ونهاية ما يوردونه على هذا الأمر المقطوع به شكوك وشبهات لا تعارض العلم واليقين؛ فإن علوه معلوم بالضرورة نقلا وعقلا وفطرة، فإذا تقابلت هذه البراهين والضرورات التي تعرف ببداهة العقول مع هذه الشبهات اضمحلت الشبهات ولم يكن عندها أدنى مقاومة للبراهين اليقينية.

فصل

هَذَا وَتَالِيهَا صَرِيحُ الْفَوْقِ مَعْـ ... ـنًى بَيِّنٌ وَبِدُونِهَا نَوْعَانِ

إِحْدَاهُمَا هُوَ قَابِلُ التَّأْوِيلِ وَالْـ ... أَصْلُ الْحَقِيقَةُ وَحْدَهَا بَيَانِ

فَإِذَا ادَّعَى تَأْوِيلَ ذَلِكَ مُدَّعٍ لَمْ تُقْبَلِ الدَّعْوَى بِلاَ بُرْهَانِ

لَكِنَّمَا الْمَحْذُورُ لَيْسَ بِقَابِلِ التْـ ... ـتَأْوِيلِ فِي لُغَةٍ وَعُرْفِ لِسَانِ

وَأَصِحُّ لِقَاعِدَةٍ جَلِيلٍ قَدْرُهَا نَهْدِيكَ لِلتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

إِنَّ الْكَلاَمَ إِذَا أَتَى بِبِيَاقِهِ يَبْدِي الْمُرَادَ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

أَضْحَى كَنَصٍّ قَاطِعٍ لاَ يَقْبَلُ التْـ ... ـتَأْوِيلَ يَعْرِفُ ذَا أُولُو الأَذْهَانِ

فَبِيَاقَةُ الأَلْفَاظِ مِثْلُ شَوَاهِدِ الْـ ... أَحْوَالِ إِنْهُمَا لَنَا صِنْوَانِ

إِحْدَاهُمَا لِلْعَيْنِ مَشْهُودَةٌ بِهَا لَكِنَّ ذَاكَ لِمَسْمَعِ الإِنْسَانِ

فَإِذَا أَتَى التَّأْوِيلُ بَعْدَ بِيَاقَةِ لِبْدِي الْمُرَادَ أَتَى عَلَى اسْتِهْجَانِ

وَإِذَا أَتَى الْكِتْمَانُ بَعْدَ شَوَاهِدِ الْـ ... أَحْوَالِ كَانَ كَأَقْبَحِ الْكِتْمَانِ

فَتَأَمَّلِ الأَلْفَاظَ وَانْظُرْ مَا الَّذِي سِيقَتْ لَهُ إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ

وَالْفَوْقُ وَصْفٌ ثَابِتٌ بِالذَّاتِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ لِقَاطِعِ الأَكْوَانِ

لَكِنْ نُفَاةُ الْفَوْقِ مَا وَافَوْا بِهِ جَحَدُوا كَمَالَ الْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ

سَلْ قُلْ لَهُمْ بِأَنْ قَدْرَ اللهُ أَعْـ ... ـلَى لاَ بِفَوْقِ الذَّاتِ لِلرَّحْمَنِ

قَالُوا وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّاسِ فِي ... ذَهَبٍ يُرَى مِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ

هُوَ فَوْقَ جِنْسِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ لاَ ... بِالذَّاتِ بَلْ فِي مُقْتَضَى الأَثْمَانِ

وَالْفَوْقُ أَنْوَاعٌ ثَلاَثٌ كُلُّهَا ... لِلَّهِ ثَابِتَةٌ بِلاَ نُكْرَانِ

هَذَا الَّذِي قَالُوا وَفَوْقَ الْقَهْرِ وَالْـ ... ـفَوْقِيَّةُ الْعُلْيَا عَلَى الأَكْوَانِ

هَذَا وَرَابِعُهَا عُرُوجُ الرُّوحِ وَالْـ ... أَمْلاَكِ صَاعِدَةً إِلَى الرَّحْمَنِ

وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَتَيْنِ كِلاَهُمَا اشْـ ... ـتَمَلاَ عَلَى التَّقْدِيرِ بِالأَزْمَانِ

فِي سُورَةٍ فِيهَا الْمَعَارِجُ قُدِّرَتْ ... خَمْسِينَ أَلْفًا كَامِلَ الْحُسْبَانِ

وَبِسَجْدَةِ التَّنْزِيلِ أَلْفًا قُدِّرَتْ ... فَلأَجْلِ ذَا قَالُوا هُمَا يَوْمَانِ

يَوْمُ الْمَعَادِ بِذِي الْمَعَارِجِ ذِكْرُهُ ... وَالْيَوْمُ فِي التَّنْزِيلِ فِي ذَا الآنِ

وَكِلاَهُمَا عِنْدِي فَيَوْمٌ وَاحِدٌ ... وَعُرُوجُهُمْ فِيهِ إِلَى الدَّيَّانِ

فَالأَلْفُ فِيهِ مَسَافَةُ النُّزُولِهِمْ ... وَصُعُودِهِمْ لِحَوَ الرَّفِيعِ الدَّانِي

هَذِي السَّمَاءُ فَإِنَّهَا قَدْ قُدِّرَتْ ... خَمْسِينَ فِي عَشْرٍ وَذَا صِنْفَانِ

لَكِنَّمَا الْخَمْسُونَ أَلْفَ مَسَافَةِ السَّـ ... ـبْعِ الطِّبَاقِ وَبُعْدُ ذِي الأَكْوَانِ

مِنْ عَرْشِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى الثَّرَى ... عِنْدَ الْحَضِيضِ الأَسْفَلِ التَّحْتَانِي

وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ الْـ ... ـبَغَوِي ذَاكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي

وَمُجَاهِدٌ قَدْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ لَـ ... ـكِنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ الْجَلِيلَ الشَّانِ

قَالَ الْمَسَافَةُ بَيْنَنَا وَالْعَرْشِ ذَا الْـ ... ـمِقْدَارُ فِي سَيْرٍ مِنَ الإِنْسَانِ

وَالْقَوْلُ الأَوَّلُ قَوْلُ عِكْرِمَةٍ وَقَوْ ... لُ قَتَادَةٍ وَهُمَا لَنَا عَلَمَانِ

وَاخْتَارَهُ الْحَسَنُ الرِّضَى وَرِوَايَةٌ عَنْ ... بَحْرِ الْعُلُومِ مُفَسِّرِ الْقُرْآنِ

وَبِرَجْحِ الْقَوْلَ الَّذِي قَدْ قَالَهُ ... سَادَاتُنَا فِي فَرْقِهِمْ أَمْرَانِ

إِحْدَاهُمَا مَا فِي الصَّحِيحِ لِمَانِعٍ ... لِزَكَاتِهِ مِنْ هَذِهِ الأَعْيَانِ

يُكْوَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَهْرُهُ ... وَجَبِينُهُ وَكَذَلِكَ الْجَنْبَانِ

خَمْسُونَ أَلْفًا قَدْرُ ذَاكَ الْيَوْمِ فِي ... هَذَا الْحَدِيثِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَانِ

فَالظَّاهِرُ الْيَوْمَانِ فِي الْوَجْهَيْنِ يَوْ ... مٌ وَاحِدٌ مَا إِنْ هُمَا يَوْمَانِ

قَالُوا وإيرادُ السِّياقِ يبينُ الـ ... ـمَضْمُونَ مِنْهُ بأوْضَحِ التِّبْيانِ
فَانْظُرْ إلى الإضْمارِ ضِمْنَ يرَوْنَهُ ... وَنَراهُ ما تَفْسِيرُهُ بِبَيانِ
فَاليَوْمُ بالتَّفْسِيرِ أوْلَى مِنْ عَذا ... بٍ واقِعٍ لِلْقُرْبِ والجِيرانِ
وَيَكُونُ ذِكْرُ عُرُوجِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّ ... دُنْيا وَيَوْمَ قِيامَةِ الأبْدانِ
فَنُزُولُهُمْ أيضًا هُنالِكَ ثابِتٌ ... كَنُزُولِهِمْ أيضًا هُنا لِلشَّانِ
وَعُرُوجُهُمْ بَعْدَ القَضا كَعُرُوجِهِمْ ... أيضًا هُنا فَلَهُمْ إذًا شَأْنانِ
وَيَزُولُ هَذا السَّقْفُ يَوْمَ مَعادِنا ... فَعُرُوجُهُمْ لِلْعَرْشِ والرَّحْمَنِ
هَذا وَما اتَّضَحَتْ لَدَي وَعِلْمُها الـ ... ـمَوْكُولُ بَعْدُ لِمَنْزِلِ القُرْآنِ
وَأعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ جَزْمٍ بِلا ... عِلْمٍ وَهَذا غايَةُ الإمْكانِ
وَاللهُ أعْلَمُ بِالمُرادِ بِقَوْلِهِ ... وَرَسُولُهُ المَبْعُوثُ بِالفُرْقانِ

الشرح

الثالث: التصريح بالفوقية لله تعالَى تارة بمن كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[1]. وتارة غير مقرونة كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[2]. فالمقرون بمن نص في معناه لا يقبل التأويل والآخر هو ظاهر في المُراد، وقد يقبل التأويل على وجه ضعيف لكن إذا دل الدليل، وهنا دل الدليل على تعين المُعنَى الظاهر، هذا بالنظر إلَى مُجرد الألفاظ بقطع النظر عن سياق الكلام وما اقترن به مِمَّا يعين معناه فإذا أتى الكلام بسياقه ونظمه وتعبيره عن المُعاني العالية فإنه يكون نصًا في معناه قاطعًا لا يقبل التأويل لسياقه ونظمه، فالمدار كله على السياق وأساليب الكلام، فلذلك مثل شواهد الأحوال فتأويل الكلام إذا أتى بعد سياقه بأسلوبه الناص على معناه يكون في غاية الهجنة، كالكتمان إذا أتى بعد شواهد الأحوال كان كذبًا قبيحًا.

والفوقية وصف ثابت لله تعالَى لا يُمكن أن يكون إلا كذلك، وله الفوقية المُطلقة فوقية الذات، وفوقية القدر، وفوقية القهر، فمن أنكر واحدًا منها كان مبطلاً مكابرًا متناقضًا كما هو

(١) [النحل: ٥٠].
(٢) [الأنعام: ٦١].

قول المُعطلة النافين لعلو ذاته وفوقيتها وأن المُراد عندهم فوقية القدر مثل قول الناس: الذهب فوق الفضة، وهذه دعوى بلا دليل مُخالفة للدليل.

وذكر المُؤلف كلام المُفسرين على قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾[2]. فقيل: إن تقديره بخمسين ألف سنة المُراد به يوم القيامة وإن هذا مقداره في التقدير وتقديره بألف سنة في الدنيا، وقيل: إنهما يعودان إلى يوم واحد وهو تقدير مسافة العالم العلوي والسفلي من المركز الأسفل إلى أعلى العرش خمسين ألف سنة ومن وجه الأرض إلى سماء الدنيا ألف سنة ثُمَّ من سماء إلى الأخرى كذلك، ويؤيده ما ورد في هذا التقدير من الآثار.

وقيل: إن هذا التفاوت يرجع إلى اختلاف السير، وفيه أقوال أخر والمُؤلف توقف عن الجزم بواحد من هذه الأوجه والظاهر لي أن آية «المعارج» التقدير الذي فيها ليوم القيامة، وأن معنى الكلام الإخبار بعظمة ذلك اليوم وطوله العظيم وأنه في ذلك اليوم يظهر للخلائق من عظمة الرب وعظمة ملكه وكمال تدبيره وأن أمور الملك وتدابيره تعرج بها الملائكة إليه وتنزل فيها منه والسياق في الآيات التي في المعارج يدل على ذلك.

وأما تقديره بالألف في سورة السجدة فإنه في الدنيا؛ لأن السياق أيضًا يدل عليه؛ فإنه في سياق بيانه في الدنيا ليعرفوا عظمة الله وكبرياءه ونفوذ تدبيره والله أعلم.

فصل

هَـٰذَا وَخَامِسُهَا صُعُودُ كَلَامِنَا ... بِالطَّيِّبَاتِ إِلَيْهِ وَالْإِحْسَانِ

وَكَذَا صُعُودُ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَا ... تِ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ ذِي الْإِيمَانِ

وَكَذَا صُعُودُ تَصَدُّقٍ مِنْ طَيِّبٍ ... أَبَدًا إِلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

وَكَذَا عُرُوجُ مَلَائِكٍ قَدْ وُكِّلُو ... مِنَّا بِأَعْمَالٍ وَهُمْ بَدَلَانِ

فَإِلَيْهِ تَعْرُجُ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ... وَالصُّبْحُ يَجْمَعُهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ

---

(١)[السجدة: ٤].

(٢)[السجدة: ٥].

كَـي يَشْـهَدُونَ وَيَعْرُجُـونَ إِلَيـهِ بِالْـ أَعْمَـالِ سُـبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّـانِ
وَكَـذَاكَ سَـعْيُ اللَّيْلِ يَرْفَعُـهُ إِلَـى الـ رَحْمَـنِ مِـنْ قَبْـلِ النَّهَارِ الثَّـانِي
وَكَـذَاكَ سَـعْيُ الْيَـوْمِ يَرْفَعُـهُ لَـ مِـنْ قَبْـلِ لَيْـلِ خَـافِظِ الإِنْسَـانِ
وَكَـذَاكَ مِعْـرَاجُ الرَّسُـولِ إِلَيْـهِ حَـ قَّ ثَابِـتٌ مَـا فِيـهِ مِـنْ نُكْـرَانِ
بَـلْ جَـاوَزَ السَّـبْعَ الطِّبَـاقَ وَقَـدْ دَنَـ مِنْـهُ إِلَـى أَنْ قُـدِّرَتْ قَوْسَـانِ
بَـلْ عَـادَ مِـنْ مُوسَـى إِلَيْـهِ صَـاعِدٌ خَمْسًـا عِـدَادَ الْفَـرْضِ فِـي الْحُسْـبَانِ
وَكَـذَاكَ رَفْـعُ الـرُّوحِ عِيسَـى الْمُرْتَضَـ حَقًّـا إِلَيْـهِ جَـاءَ فِـي الْقُـرْآنِ
وَكَـذَاكَ تَصْـعَدُ رُوحُ كُـلِّ مُصَـدِّقٍ لَنَـا لِفَـوْزٍ بِفُرْقَـةِ الأَبْـدَانِ
حَقًّـا إِلَيْـهِ كَـي تَفُـوزَ بِقُرْبِـهِ وَتَعُـودَ يَـوْمَ الْعَـرْضِ لِلْجُثْمَـانِ
وَكَـذَا دُعَـا الْمُضْـطَرِّ أَيْضًـا صَـاعِدًا أَبَـدًا إِلَيْـهِ عِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ
وَكَـذَا دُعَـا الْمَظْلُـومِ أَيْضًـا صَـاعِدًا حَقًّـا إِلَيْـهِ قَـاطِعَ الأَكْـوَانِ

الشرح

الْخَامس: التصريح بصعود بعض المخلوقات والأعمال إلى الله تعالى من العمل الصالح الكلم الطيب والملائكة والأرواح كما وردت بذلك النصوص الكثيرة، وكذلك تواترت الأحاديث الصحيحة والحسنة في معراج النبي ﷺ إلى ما فوق السماوات السبع وأن عروجه إلى الله وإخباره برفع عيسى بن مريم عليه السلام إليه وكذلك ما في الأحاديث والآثار من ارتفاع دعوات المضطرين والمظلومين إلى الله، وذلك كله صريح في علو الله وفوقيته ومبايته لخلقه.

فصل

هَـذَا وَسَادِسُـهَا وَسَـابِعُهَا الـذِي لَ كَـذَلِكَ التَّنْزِيـلُ لِلْقُـرْآنِ
وَاللهُ أَخْبَرَنَـا بِـأَنَّ كِتَابَـهُ تَنْزِيلُـهُ بِـالْحَقِّ وَالْبُرْهَـانِ
أَيَكُـونُ تَنْـزِيلاً وَلَـيْسَ كَـلَامَ مَـنْ فَـوْقَ الْعِبَـادِ أَذَاكَ ذُو إِمْكَـانِ
أَيَكُـونُ تَنْـزِيلاً مِـنَ الـرَّحْمَنِ وَالـ رَحْمَـنُ لَـيْسَ مُبَايِنَ الأَكْـوَانِ

وكذا نزول الرب جل جلاله ... في النصف من ليل وذاك الثاني
فيقول لست بسائل غيري بأخـ ... ـوال العباد أنا العظيم الشان
من ذا يسألني فيعطى سؤله ... من ذا يتوب إلي من عصيان
من ذا يسألني فأغفر ذنبه ... فأنا الودود الواسع الغفران
من ذا يريد شفاءه من سقمه ... فأنا الطبيب مجيب من ناداني
ذا شأنه سبحانه وبحمده ... حتى يكون الفجر فجرا ثاني
يا قوم ليس نزوله وعلوه ... حقا لديكم بل هما عدمان
وكذا يقول ليس شيئا عندكم ... لا ذا ولا قول سواه ثاني
كل مجاز لا حقيقة تحته ... أول وزد والنقص يلا برهان

الشرح

السادس والسابع: إخباره أن القرآن العظيم نزل منه، وأنه تنزيل منه في عدة آيات، ومن المعلوم أن النزول لا يكون إلا لمن هو فوق عباده ومن هو عال عليهم، وكذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في نزوله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول: «من يسألني فأعطيه، من يدعوني فاستجيب له، من يستغفرني فأغفر له»[1].

فهذا كله دليل على علوه وارتفاعه وعند الجهمية ومن تبعهم أنه لا ينزل والنزول إنما هو لأمره، وهذا باطل نقلاً وعقلاً، والأحاديث نص في نزوله نزولاً يليق بعظمته وجلاله، وأنه هو الذي يقول: «من يدعوني فاستجب له». إلى آخره، لا كما حرفه الجهمية أنه يأمر من يقول ذلك.

فصل

هذا وثانيها بسورة غافر ... هو رفعة الدرجات للرحمن
درجاته مرفوعة كمعارج ... أبعاد له وكلاهما رفعان

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

وَفَعِيلٌ فِيهَا لَيْسَ مَعْنَى فَاعِلِ ... وَبَاقِيهَا بِأَنَاةٍ ذُو التِّبْيَانِ

لَكِنَّهَا مَرْفُوعَةٌ دَرَجَاتُهُ ... لِكَمَالِ رِفْعَتِهِ عَلَى الأَكْوَانِ

هَذَا هُوَ القَوْلُ الصَّحِيحُ فَلاَ تَحِدْ ... عَنْهُ وَخُذْ مَعْنَاهُ فِي القُرْآنِ

فَنَظِيرُهَا المُبْدِي لَنَا نَشْرَهَا ... فِي ذِي المَعَارِجِ لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

وَالرُّوحُ وَالأَمْلاَكُ تَصْعَدُ فِي مَعَا ... رِجِهِ إِلَيْهِ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

ذَا رِفْعَةُ الدَّرَجَاتِ حَقًّا مَا هُمَا ... إِلاَّ سَوَاءٌ أَوْ هُمَا شَيْئَانِ

فَخُذِ الكِتَابَ بِبَعْضِهِ بَعْضًا كَذَا ... تَفْسِيرُ أَهْلِ العِلْمِ لِلْقُرْآنِ

الشرح

الثامن: ما أخبر به عن رفعته وعظمته بسورة غافر في قوله ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾[1]. فإن فعيلا فيها بمعنى مفعول وأن معناه مرفوعة درجاته لرفعته وارتفاعه وعلو شأنه وكماله.

فصل

هَذَا وَثَانِيهَا الخُصُوصُ بِأَنَّهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَذَا بِلاَ خُسْرَانِ

فَاسْتَحْضِرِ الوَحْيَيْنِ وَالفِطَرَ ذَاكَ تَلْـ ... ـقَاهُ مُبْتَدِيًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ

وَلَسَوْفَ نَذْكُرُ بَعْضَ ذَلِكَ عَنْ قَرِيـ ... ـبٍ كَي تَقُومَ شَوَاهِدُ الإِيمَانِ

وَإِذَا أَتَتْكَ فَلاَ تَكُنْ مُتَوَحِّشًا ... مِنْهَا وَلاَ لَكَ عَنْدَهَا بِجَنَانِ

لَيْسَتْ تَدُلُّ عَلَى الحِصَارِ إِلَيْهَا ... عَقْلاً وَلاَ عُرْفًا وَلاَ بِلِسَانِ

إِذْ أَجْمَعَ السَّأْفُ الكِرَامُ بِأَنَّ مَعْـ ... ـنَاهَا كَمَعْنَى الفَوْقِ بِالبُرْهَانِ

أَوْ أَنَّ لَفْظَ سَمَائِهِ يَعْنِي بِهِ ... نَفْسَ العُلُوِّ المُطْلَقِ الحَقَّانِي

وَالرَّبُّ فِيهِ وَلَيْسَ يَحْصُرُهُ مِنَ الـ ... ـمَخْلُوقِ شَيءٌ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ

كُلُّ الجِهَاتِ بِأَسْرِهَا عَدَمِيَّةٌ ... فِي حَقِّهِ هُوَ فَوْقَهَا بِبَيَانِ

قَدْ بَانَ عَنْهَا كُلِّهَا فَهُوَ المُحِيـ ... ـطُ وَلاَ يُحَاطُ بِخَالِقِ الأَكْوَانِ

---

(١) [غافر: ١٥].

مَا ذَاكَ يَلْقَمُ بَعْدُ ذُو التَّعْطِيلِ مِنْ ... وَصْفِ الْعُلُوِّ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ
أَبِيرُدُّ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ قَطُّ ذَا ... بَعْدَ التَّصَوُّرِ يَا أُولِي الأَذْهَانِ
وَاللهِ مَا رَدَّ امْرُؤٌ هَذَا بِهِ ... إِلَّا بِرَأْسِ الْجَهْلِ أَوْ بِحَمِيَّةِ الشَّيْطَانِ

الشرح

التاسع: إخباره بأنه في السماء كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. ومعناها عند جميع المُفسرين معنَى العلو وأن معناها أنه فوق العالم كله أو أن «في» بمعنَى «على» وليس معناها أن السماوات تحصره وتُحيط به؛ فإنه أعظم وأجل، ومعناها أنه في العلو، وبقية النصوص الدالة على علوه تعين هذا المُعنَى وتزيل ما فيه من الاشتباه على إفهام الحَائرين، بل الجِهات كلها إذا نسبت إلَى الله اضمحلت وعدمت فهو المُحيط ولا يَحاط به.

فصل

هَذَا وَعَاشِرُهَا اخْتِصَاصُ الْبَعْضِ مِنْ ... أَمْلَاكِهِ بِالْعَبْدِ لِلرَّحْمَنِ
وَكَذَا اخْتِصَاصُ كِتَابِ رَحْمَتِهِ بِعَبْـ ... ـدِ اللهِ فَوْقَ الْعَرْشِ ذُو تِبْيَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْوَرَى ... كَانُوا جَمِيعًا عِنْدَ ذِي السُّلْطَانِ
وَيَكُونُ عِنْدَ اللهِ إِبْلِيسُ وَجُنْـ ... ـدِيلٌ هُمَا فِي الْعِنْدِ مُسْتَوِيَانِ
وَتَمَامُ ذَاكَ الْقَوْلِ أَنَّ مَحَبَّةَ الرَّ ... حْمَنِ عَيْنُ إِرَادَةِ الأَكْوَانِ
وَكِلَاهُمَا مَحْبُوبُهُ وَمُرَادُهُ ... وَكِلَاهُمَا هُوَ عِنْدَهُ بِيَانِ
إِنْ قُلْتُمُ عِنْدِيَّةُ التَّكْوِينِ فَالـ ... ـذَّانِ عِنْدَ اللهِ مَخْلُوقَانِ
أَوْ قُلْتُمُ عِنْدِيَّةُ التَّقْرِيبِ فَالـ ... ـرَّبِّ الْحَبِيبُ وَمَا هُمَا عِدْلَانِ
فَالْحُبُّ عِنْدَكُمُ الْمَشِيئَةُ نَفْسُهَا ... وَكِلَاهُمَا فِي حُكْمِهَا مِثْلَانِ
لَكِنْ مُنَازِعُكُمْ يَقُولُ بِأَنَّهَا ... عِنْدِيَّةٌ حَقًّا بِلَا رَوَغَانِ
جَمَعَتْ لَهُ حُبَّ الإِلَهِ وَقُرْبَهُ ... مِنْ ذَاتِهِ وَكَرَامَةَ الإِحْسَانِ

---

(١) [الملك: ١٦].

وَالْحُبُّ وَصْفٌ وَهْوَ غَيْرُ مَبِينَةٍ وَالْعِنْدُ قُرْبٌ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

الشرح

العاشر: إخبار النصوص باختصاص بعض المخلوقات بأنها عند الله، كقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[1]. وقول النبي ﷺ: «إن الله كتب كتابًا فهو عنده على العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[2].

فإن هذا دليل وبرهان على علوه تعالى على عباده؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكان أشرف المخلوقات وأدناها وجميع الذوات عنده في القرب سواء كما قال ذلك الجهمية، وتمموا هذا القول الباطل بقولهم أن محبة الله عين إرادته فكل ما أراده فقد أحبه، والكون كله مراد الله فيكون محبوبًا لله على قولهم، وحرفوا النصوص في محبة الله لبعض عباده وللأعمال الصالحة ونحوها فإذا جمعت قوليهم الفاسدين أن جميع الذوات في القرب منه سواء وأن جميع ما أراده فقد أحبه ظهر فساد ذلك وقبحه وآثاره الخبيثة، وأن نفس القولين متناقضان فإذا قالوا: المراد بالعندية والقرب عندية الخلق والتكوين فالذوات كلها مكونة مخلوقة له، وإن قالوا: العندية عندية التقريب والشرف فهم ينفون هذا؛ لأن المحبة عندهم هي الإرادة فيستحيل هذا التأويل ويتبين أنه مكابرة للمعقول كما أنه مناف للمنقول.

فصل

هَذَا وَحَادِي عَشْرَهُنَّ إِشَارَةٌ لِحُلُوِّ الْعُلُوِّ بِإِصْبَعٍ وَبَنَانِ
لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَا غَيْرِهِ إِذْ ذَاكَ إِشْرَاكٌ مِنَ الإِنْسَانِ
وَلَقَدْ أَشَارَ رَسُولُهُ فِي مَجْمَعِ الْـ ـحَجِّ الْعَظِيمِ بِمَوْقِفِ الْقُرْآنِ
لِحُلُوِّ السَّمَاءِ بِإِصْبَعٍ قَدْ كُرِّمَتْ مُتَشَهِّدًا لِلْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ
يَا رَبِّ فَاشْهَدْ أَنِّي بَلَّغْتُهُمْ وَبَشِيرُ لِحُلُوِّهِمْ لِقَصْدِ بَيَانِ

---

(١) [الأنبياء: ١٩].

(٢) رواه البخاري (٣١٩٤)، مسلم (٢٧٥١).

فَهٰذَا الْبَيَانُ مُرْفَعًا وَمُصَوَّبًا صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ ذُو الْغُفْرَانِ
أَدَّيْتَ ثُمَّ نَصَحْتَ إِذْ بَلَّغْتَنَا حَقَّ الْبَلَاغِ الْوَاجِبِ الشُّكْرَانِ

الشرح

الْحَادي عشر: إشارته ﷺ إِلَى العلو حين خطب الناس يوم عرفة وقال: هل بلغت قالوا نعم، فأشار بإصبعه إِلَى السماء يشير إِلَى الله وينكبها إِلَى الناس يقول: اللهم أشهد. وهذا برهان على علوه وارتفاعه.

فصل

هٰذَا وَثَانِ عَشْرِهَا وَصْفُ الظُّهُو رِ لَهُ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَالظَّاهِرُ الْعَالِي الَّذِي مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ كَمَا قَدْ قَالَ ذُو الْبُرْهَانِ
حَقًّا رَسُولُ اللهِ ذَا تَفْسِيرُهُ وَلَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِضَمَانِ
فَاقْبَلْهُ لَا تَقْبَلْ سِوَاهُ مِنَ الْقَفَا بِرِ الَّتِي قِيلَتْ بِلَا بُرْهَانِ
وَالشَّيْءُ حِينَ يَتِمُّ مِنْهُ عُلُوُّهُ فَظُهُورُهُ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ
أَوَ مَا تَرَى هَذِي السَّمَا وَعُلُوَّهَا وَظُهُورَهَا وَكَذَلِكَ الْقَمَرَانِ
وَالْعَكْسُ أَيْضًا ثَابِتٌ فَسُفُولُهُ وَخَفَاؤُهُ إِذْ ذَاكَ مُصْطَحِبَانِ
فَالظُّرْ إِلَى عُلُوِّ الْمُحِيطِ وَأَخْذِهِ صِفَةَ الظُّهُورِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَانِ
وَالظُّرْ خَفَاءَ الْمَرْكَزِ الْأَدْنَى وَوَصْـ ـفَ السُّفْلِ فِيهِ وَكَوْنَهُ لِلْحَتَّانِي
وَظُهُورُهُ سُبْحَانَهُ بِالذَّاتِ مِثْـ ـلُ عُلُوِّهِ فَلَهُمَا لَهُ صِفَتَانِ
لَا تَجْحَدَنَّهُمَا جُحُودَ الْجَهْمِ أَوْ صَافَ الْكَمَالِ لَكُونَ ذَا بُهْتَانِ
وَظُهُورُهُ هُوَ مُقْتَضٍ لِعُلُوِّهِ وَعُلُوُّهُ لِظُهُورِهِ بُرْهَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ دَخَلَتْ هُنَالِكَ الْفَاءُ لِلسَّـ ـبَبِ مُؤْذِنَةً بِهَذَا الشَّانِ
فَتَأَمَّلَنْ تَفْسِيرَ أَعْلَمِ خَلْقِهِ بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
إِذْ قَالَ أَنْتَ كَذَا فَلَيْسَ لِعَبْدِهِ أَبَدًا إِلَيْكَ لَطَرْقُ الْإِتْيَانِ

الشرح

الثاني عشر: أن الله وصف نفسه وسماها بأنه الظاهر، وقد فسره ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه؛ إذ قال في دعائه واستفتاحه: «وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء»[1].

فهذا تفسير صريح من الصادق المصدوق وقرره بنفي ضده بقوله: «فليس فوقك شيء». وهذا هو المفهوم من لفظ الظاهر؛ فإن الظاهر يدل على العلو فكلما علا الشيء ظهر وبان، كما أنه كلما سفل خفي واستتر كما هو مشاهد في المركز الأسفل لهذا العالم وأن أعلاه ومحيطه أظهرها وأوسعها، فالله أعظم من ذلك وأعلى، فالعلو والظهور كل منهما مقتض للآخر فهما متلازمان.

فصل

هَـذَا وَثَالِـثُ عَشْـرِهَا إِخْبَـارُهُ ... أَنَّـا نَـرَاهُ بِجَنَّـةِ الْحَيَـوَانِ

فَسَلِ الْمُعَطِّلَ هَلْ نَرَى مَنْ تَحْتَنَا ... أَمْ عَنْ شَمَائِلِنَا وَعَنْ أَيْمَانِ

أَمْ خَلْفَنَا وَأَمَامَنَا سُبْحَانَهُ ... أَمْ هَلْ نَرَى مِنْ فَوْقِنَا بِبَيَانِ

يَا قَوْمُ مَا فِي الأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرَ ذَا ... أَوْ أَنَّ رُؤْيَتَهُ بِلاَ إِمْكَانِ

إِذْ رُؤْيَةٌ لاَ فِي مُقَابَلَةٍ مِنَ الرْ ... رَائِي مُحَالٌ لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا سِوَى ذَا كَانَ دَعْـ ... ـوَاهُ مُكَابَرَةً عَلَى الأَذْهَانِ

وَلِذَاكَ قَالَ مُحَقِّقٌ مِنْكُمْ لأَهْـ ... ـلِ الإِعْتِزَالِ مَقَالَةً بِأَمَانِ

مَا بَيْنَنَا خُلْفٌ وَبَيْنَكُمُ لِذِي التْـ ... ـحْقِيقِ فِي مَعْنَى فَيَا إِخْوَانِي

شُدُّوا بِأَجْمَعِنَا لِنَحْمِلَ حَمْلَةً ... نَذَرُ الْمُجَسِّمَ فِي أَذَلِّ هَوَانِ

إِذْ قَالَ إِنَّ إِلَهَنَا حَقًّا يَرَى ... يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يَرَى الْقَمَرَانِ

وَتَصِيرُ أَبْصَارُ الْعِبَادِ نَوَاظِرًا ... حَقًّا إِلَيْهِ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

وليس هو من أدعية الاستفتاح وإنما هو من أذكار النوم.

لاَ رَيْبَ أَنَّهُمُ إِذَا قَالُوا بِذَا لَزِمَ الْعُلُوُّ لِقَائِلِ الأَكْوَانِ
وَيَكُونُ فَوْقَ الْعَرْشِ جَلَّ جَلاَلُهُ فَلِذَاكَ نَحْنُ وَحِزْبُهُمْ خَصْمَانِ
لَكِنَّنَا سَلَّمْنَا وَأَنْتُمْ إِذْ نَسَبْتُمْ عَدْنَا عَلَى نَفْيِ الْعُلُوِّ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ
فَالْعُلُوُّ عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فَوْ قَ الْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلاَ دَيَّانِ
لاَ تَصِلُوا مَعْنَا الْخِلاَفَ فَمَا لَهُ طَعْمٌ فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ
هَذَا الَّذِي وَاللهِ مُودَعُ كُتْبِهِمْ فَانْظُرْ تَرَى يَا مَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشرح

الثالث عشر: ما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النَّبِي ﷺ مع دلالات القرآن المُتعددة في رؤية أهل الجَنة ربهم تعالَى، فإن هذه النصوص من أعظم البراهين على علو الله، ولِهذا لا يُمكن المُعطل أن يثبت الرؤية إثباتًا صحيحًا على وجه يعقل حَتَّى يثبت علو الله على خلقه؛ فإنه إذا أثبت الرؤية ونفي العلو كقول أكثر الأشاعرة فإنه يسأل ويقال له: من أين يرى ربنا، هل من تَحتنا أو يَمينا أو شمالنا أو خلفنا أو أمامنا؟

وهذا باطل فلابد أن يضطر ويقول: من فوقنا إذا لَمْ يكابر، فإن الرؤية المَعقولة المَعروفة تقتضي مقابلة الرائي للمرئي فمن زعم خلاف ذلك فقد كابر المَحسوس، ولِهذا فسر هؤلاء الرؤية بشيء لا يدل عليه الشرع واللغة والحَس، فسروها بأنه ينكشف لأهل الجَنة زيادة علوم ومعارف، فجمعنا مَحذورين نفي رؤية الله الَّتِي دلت عليها النصوص القرآنية والنبوية، وإتيانهم من عند أنفسهم بِمعنًى لَمْ يرده الله ولا رسوله، والعقائد الباطلة هكذا تصنع بأصحابها.

ولِهذا كان بعض فضلاء الأشعرية يقول: إنه لا فرق بين مذهب الأشاعرة ومذهب المُعتزلة في نفي الرؤية إلا اختلاف عبارات، وهو كما قال؛ لأن زيادة معارف أهل الجَنة بربهم وانكشاف العلم الذي فسروا به الرؤية لَمْ يزل مصاحبًا لَهم في جَميع أحوالهم وهذا من أعظم ما يبين بطلان هذا التفسير الذي هو تَحريف وتَمويه.

فصل

هَـذَا وَرَابِـعُ عَشْـرِهَا إِقْـرَارُ مَـا ... للهِ بِاللَّفْـظِ الأَبِـي لِلـرَّحْمَنِ

وَلَقَـدْ رَوَاهُ أَبُـو رَزِيـنٍ بَعْـدَمَا ... سُـئِلَ الرَّسُـولُ بِلَفْظَـةٍ بِـوِزَانِ

وَرَوَاهُ تَلْمِيـذٌ لَـهُ وَمُقَـرِّرًا ... لَمَّـا أَقَـرَّ بِـهِ بِـلَا نُكْـرَانِ

هَـذَا وَمَـا كَـانَ الْجَـوَابُ جَـوَابَ مَـنْ ... لَكِـنْ جَـوَابُ اللَّفْـظِ بِـالْمِيزَانِ

كَـلَّا وَلَـيْسَ لِمَـنْ دُخُـولٌ قَـطُّ فِـي ... هَـذَا السِّـيَاقِ لِمَـنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

دَعْ ذَا فَقَـدْ قَـالَ الرَّسُـولُ بِنَفْسِـهِ ... أَيْـنَ الإِلَـهُ لِعَـالِمٍ بِلِسَـانِ

وَاللهِ مَـا قَصَـدَ الْمُخَاطِـبُ غَيْـرَ مَعْـ ... ـنَاهَا الَّـذِي وُضِـعَتْ لَـهُ الْحَقَّـانِي

وَاللهِ مَـا فَهِـمَ الْمُخَاطِـبُ غَـيْرَهُ ... وَاللَّفْـظُ مَوْضُـوعٌ لِقَصْـدِ بَيَـانِ

يَا قَـوْمُ لَفْـظُ الأَيْـنَ مُتَّبَـعٌ عَلَـى الـ ... ـرَّحْمَـنِ عِنْـدَكُمْ وَذُو بُطْـلَانِ

وَيَكَـادُ قَـائِلُكُمْ يُكَفِّرُنَـا بِـهِ ... بَـلْ قَـدْ وَهَـذَا غَايَـةُ الْعُـدْوَانِ

لَفْـظٌ صَـرِيحٌ جَـاءَ عَـنْ خَـيْرِ الْـوَرَى ... قَـوْلًا وَإِقْـرَارًا هُمَـا بُرْهَـانِ

وَاللهِ مَـا كَـانَ الرَّسُـولُ بِعَـاجِزٍ ... عَـنْ لَفْـظِ مَـنْ مَـعَ أَنَّهَـا حَرْفَـانِ

وَالأَيْـنَ أَحْرُفُهَـا ثَـلَاثٌ وَهْـيَ ذُو ... لَـبْسٍ وَمَـنْ هِـيَ غَايَـةُ الْبُيَـانِ

وَاللهِ مَـا الْمَلَكَـانِ أَفْصَـحُ مِنْـهُ إِذْ ... فِـي الْقَبْـرِ مَـنْ رَبُّ السَّـمَا يَسْـأَلَانِ

وَيَقُـولُ أَيْـنَ اللهُ يَعْنِـي مَـنْ قَـلَا ... وَاللهِ مَـا اللَّفْظَـانِ مُتَّحِـدَانِ

كَـلَّا وَلَا مَعْنَاهُمَـا أَيْضًـا لِـذِي ... لُغَـةٍ وَلَا شَـرْعٍ وَلَا إِنْسَـانِ

الشرح

الرابع عشر: أنه صلى الله عليه وسلم قال للجارية: «أين الله؟»[1]. وأجاب السائل له: أين الله.

بجواب الأين فقال: في السماء.

ولَمْ يجبه بجواب من الله كما هو قول الجهمية.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

وهذا الذي أراد ﷺ وهو الذي فهمه السائل وكل سامع لَمْ يتمكن منه مذهب الجَهمية، فدل ذلك دلالة قاطعة على علو الله على خلقه، وأن الجواب السديد الصحيح لمن سأل أين الله؟ أن يقال: فوق عرشه عال على خلقه.

والجَهمية يَمتنع عندهم السؤال بالأين ولا الجواب عنه، وأن ورد ذلك كان معناه معنى الاستفهام.

وهذا معلوم البطلان، فهم يصرحون بنفيه، والرسول ﷺ يصرح بإثباته فعلا وإقرارًا، وهذا من أعظم المشاقة لله ولرسوله وكيف يعدل النَّبِي ﷺ مع كمال نصحه وكمال علمه وكمال بيانه عن لفظ من وهي أخصر وأوضح وأفصح إلَى لفظ أين وهي بِخلاف ذلك؟ هذا من المُحال.

فصل

هَـذَا وَخَـامِسَ عَشْـرَهَا الإِجْمَـاعُ مِـنْ ... رُسُـلِ الإِلَـهِ الْوَاحِـدِ الْمَنَّـانِ

فَالْمُرْسَـلُونَ جَمِيعُهُمْ مَـعْ كُتْبِهِمْ ... قَـدْ صَرَّحُوا بِـالْفَوْقِ لِلـرَّحْمَنِ

وَحَكَـى لَنَـا إِجْمَاعَهُمْ شَـيْخُ الْـوَرَى ... وَالـدِّينِ عَبْـدُ الْقَـادِرِ الْجِيلَانِـي

وَأَبُـو الْوَلِيـدِ الْمَـالِكِي أَيْضًـا حَكَـى ... إِجْمَـاعَهُمْ أَعْنِـي ابْـنَ رُشْـدٍ الثَّانِي

وَكَـذَا أَبُـو الْعَبَّـاسِ أَيْضًـا قَـدْ حَكَـى ... إِجْمَـاعَهُمْ عَلَـمُ الْهُـدَى الْحَرَّانِـي

وَلَـهُ اطِّـلَاعٌ لَـمْ يَكُـنْ مِـنْ قَبْلِـهِ ... لِسِـوَاهُ مِـنْ مُتَكَلِّمٍ وَلِسَـانِ

هَـذَا وَنَقْطَـعُ نَحْـنُ أَيْضًـا أَنَّـهُ ... إِجْمَـاعُهُمْ قَطْعًـا عَلَـى الْبُرْهَـانِ

وَكَـذَاكَ نَقْطَـعُ أَنَّهُـمْ جَـاءُوا بِأَنْـ ... ـبَاتِ الصِّفَاتِ لِخَالِقِ الأَكْـوَانِ

وَكَـذَاكَ نَقْطَـعُ أَنَّهُـمْ جَـاءُوا بِأَنْـ ... ـبَاتِ الْكَـلَامِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

وَكَـذَاكَ نَقْطَـعُ أَنَّهُـمْ جَـاءُوا بِأَنْـ ... ـبَاتِ الْمَعَـادِ لِهَـذِهِ الأَبْـدَانِ

وَكَـذَاكَ نَقْطَـعُ أَنَّهُـمْ جَـاءُوا بِنَفْـ ... ـيِ جَهْـدِ الإِلَـهِ وَمَـا لَـهُ مِـنْ ثَانِي

وَكَـذَاكَ نَقْطَـعُ أَنَّهُـمْ جَـاءُوا بِأَنْـ ... ـبَاتِ الْقَضَـاءِ وَمَـا لَهُـمْ قَـوْلَانِ

فَالرُّسْـلُ مُتَّفِقُـونَ قَطْعًـا فِـي أُصُـو ... لِ الـدِّينِ دُونَ شَـرَائِعِ الإِيمَـانِ

كُـلٌّ لَـهُ شِـرْعَةٌ وَمِنْهَـاجٌ وَذَا ... فِـي الأَمْـرِ لَا التَّوْحِيـدِ فَـافْهَمْ ذَانِ

تَتِمَّةُ
القَصِيدَةِ النُّونِيَّةِ

فَالدِّينُ فِي التَّوْحِيدِ دِينٌ وَاحِدٌ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ اثْنَانِ
دِينُ الإِلَهِ اخْتَارَهُ لِعِبَادِهِ ... وَلِنَفْسِهِ هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ
فَمِنَ الْمُحَالِ بِأَنْ يَكُونَ لِرُسْلِهِ ... فِي وَصْفِهِ خَبَرَانِ مُخْتَلِفَانِ
وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِعَدْ ... لِ اللهِ بَيْنَ طَوَائِفِ الإِنْسَانِ
وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ أَيْضًا دَعَوْا ... لِلْخَمْسِ وَهْيَ قَوَاعِدُ الإِيمَانِ
إِيمَانُنَا بِاللهِ ثُمَّ بِرُسْلِهِ ... وَبِكُتْبِهِ وَقِيَامَةِ الأَبْدَانِ
وَبِجُنْدِهِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الأُلَى ... هُمْ رُسْلُهُ لِمَصَالِحِ الأَكْوَانِ
هَذِي أُصُولُ الدِّينِ حَقًّا لَا أُصُو ... لُ الْخَمْسِ لِلْقَاضِي هُوَ الْهَمْدَانِي
تِلْكَ الأُصُولُ لِلاعْتِزَالِ وَكَمْ لَهَا ... فَرْعٌ فَمِنْهُ الْخَلْقُ لِلْقُرْآنِ
وَجُحُودُ أَوْصَافِ الإِلَهِ وَنَفْيُهُمْ ... لِعُلُوِّهِ وَالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ نَفْيُهُمُ لِرُؤْيَتِنَا لَهُ ... يَوْمَ اللِّقَاءِ كَمَا يَرَى الْقَمَرَانِ
وَنَفَوْا قَضَاءَ الرَّبِّ وَالْقَدَرَ الَّذِي ... سَبَقَ الْكِتَابُ بِهِ هُمَا شَيْئَانِ
مِنْ أَجْلِ هَاتِيكَ الأُصُولِ وَخَلَّدُوا ... أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي لَظَى النِّيرَانِ
وَلأَجْلِهَا نَفَوُا الشَّفَاعَةَ فِيهِمُ ... وَرَمَوْا رُوَاةَ حَدِيثِهَا بِطِعَانِ
[وَلأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ ... يَقْدِرْ عَلَى إِصْلَاحِ ذِي الْعِصْيَانِ][1]
وَلأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ ... يَقْدِرْ عَلَى إِيمَانِ ذِي الْكُفْرَانِ
وَلأَجْلِهَا حَكَمُوا عَلَى الرَّحْمَنِ بِالشَّـ ... ـرْعِ الْمُحَالِ شَرِيعَةِ الْبُهْتَانِ
وَلأَجْلِهَا هُمْ يُوجِبُونَ رِعَايَةً ... لِلأَصْلَحِ الْمَوْجُودِ فِي الإِمْكَانِ
حَقًّا عَلَى رَبِّ الْوَرَى بِعُقُولِهِمْ ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذِي السُّبْحَانِ

الشرح

الْخَامس عشر: إِجْمَاع الكتب السماوية والرسل عليهم الصلاة والسلام على التصريح

---

(١) زيادة من (خ، ق، س) سقطت من (ط).

بعلو الله على خلقه وفوقيته، حكى ذلك غير واحد من العلماء المُعتبرين، كالشيخ عبد القادر الجيلاني في غنيته وأبي الوليد بن رشد وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، صاحب التحقيق الكامل والاطلاع الواسع الذي لا يوجد له نظير في معارفه ومعلوماته وتحقيقاته العقلية والنقلية، وكذلك المُصنف -رحمه الله- قطع بذلك وقطع باتفاق الرسل على جميع أصول الدين التي أصلها إثبات صفات رب العالمين، وعلوه على الخلق، وأنه المُتكلم على الحقيقة، وأن الله هو المعبود وحده، وأن القضاء خيره وشره من الله والإيمان باليوم الآخر، فجميع الأنبياء والمُرسلين متفقون في أصول الدين في الشرائع الكبار التي لا تختلف باختلاف الأزمنة، كالعبادات الكلية، والعدل في المعاملات والأحكام والولايات، وتحريم الظلم والكذب والغيبة والنميمة والفواحش الظاهرة والباطنة، والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم؛ لأنه يستحيل أن تأتي الشرائع السماوية بخلاف ذلك.

فهذه الأصول الحقة النافعة التي لا تحصل سعادة الدنيا والآخرة إلا بها.

وأما أصول مذهب المُعتزلة فإنها منافية لهذه الأصول غاية المنافاة، فعندهم أصول خمسة من خصائص مذهبهم: جحود صفات الباري، وعلوه على خلقه، ورؤيته في الآخرة، والقول بخلق القرآن، وما يسمونه العدل الذي مضمونه نفي قدرة الله على أفعال العباد وأن الفاسق الملي ينفي عنه الإيمان ولا يسمى كافرًا ولكنهم يخلدونه في النار، وينفون الشفاعة بأهل المعاصي ولأجل هذه الأصول قالوا: لا يقدر الله على هداية الكافرين ولا إصلاح العاصين، ولأجلها قالوا بوجوب الصلاح والأصلاح على ربهم بحسب ما اقتضته عقولهم الفاسدة وقد علم بالضرورة منافاة هذه الأصول للشرع والعقل.

فصل

هَذَا وَسَادِسُ عَشْرِهَا إِجْمَاعُ أَهْـ ... ـلِ الْعِلْمِ أَعْنِي حُجَّةَ الأَزْمَانِ

مِنْ كُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ شَهِدَتْ لَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ

لاَ عِبْرَةٌ بِمُخَالِفٍ لَهُمُ وَلَوْ كَانُوا عَدِيدَ الشَّاءِ وَالْبُعْرَانِ

إِنَّ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلاَ وَالْعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ

هُوَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى الرَّحْمَنِ

فَاسْمَعْ إِذَا أَقْوَالَهُمْ وَاشْهَدْ عَلَيـ ... ـهِمْ بَعْدَهَا بِالْكُفْرِ وَالإِيمَانِ
وَاقْرَأْ تَفَاسِيرَ الأَئِمَّةِ ذَاكِرِي الْـ ... ـإِسْنَادِ فَهْيَ هِدَايَةُ الْحَيْرَانِ
وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِتَفْـ ... ـسِيرِ اسْتَوَى إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ
وَانْظُرْ إِلَى أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ ... كَمُجَاهِدٍ وَمُقَاتِلٍ حَبْرَانِ
وَانْظُرْ إِلَى الْكَلْبِي أَيْضًا وَالَّذِي ... قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيْرِ مَا نُكْرَانِ
وَكَذَا رَفِيعُ التَّابِعِي أَجَلُّهُمْ ... ذَاكَ الرِّيَاحِي الْعَظِيمُ الشَّانِ
كَمْ صَاحِبٍ أَلْقَى إِلَيْهِ عِلْمَهُ ... فَلِذَاكَ مَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ اثْنَانِ
فَلَيْهِنَّ مَنْ قَدْ سَبَّهُ إِذْ لَمْ يُوا ... فِقْ قَوْلَهُ تَحْرِيفُ ذِي الْبُهْتَانِ
فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهْيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ ... تَفَعَ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ أَرْبَعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِ
يَخْتَارُ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ ... أَدْرَى مِنَ الْجَهْمِي بِالْقُرْآنِ
وَالأَشْعَرِي يَقُولُ تَفْسِيرُ اسْتَوَى ... بِحَقِيقَةِ اسْتَوْلَى مِنَ الْبُهْتَانِ
هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الإِعْتِزَالِ وَقَوْلُ أَتْـ ... ـبَاعٍ لِجَهْمٍ وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ
فِي كُتْبِهِ قَدْ قَالَ ذَا مِنْ مُوجَزٍ ... وَإِبَانَةٍ وَمَقَالَةٍ بِبَيَانِ
وَكَذَلِكَ الْبَغَوِي أَيْضًا قَدْ حَكَا ... هُ عَنْهُمُ بِمَعَالِمِ الْقُرْآنِ
وَانْظُرْ كَلَامَ إِمَامِنَا هُوَ مَالِكٌ ... قَدْ صَحَّ عَنْ قَوْلٍ لِذِي إِتْقَانِ
فِي الاسْتِوَاءِ بِأَنَّهُ الْمَعْلُومُ لَـ ... ـكِنْ كَيْفَهُ خَافٍ عَلَى الأَذْهَانِ
وَرَوَى ابْنُ نَافِعٍ الصَّدُوقُ سَمَاعَهُ ... مِنْهُ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالإِتْقَانِ
اللهُ حَقًّا فِي السَّمَاءِ وَعِلْمُهُ ... سُبْحَانَهُ حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ
فَانْظُرْ إِلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الذَّاتِ وَالْـ ... ـمَعْلُومِ مِنْ ذَا الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
فَالذَّاتُ خُصَّتْ بِالسَّمَاءِ وَإِنَّمَا الْـ ... ـمَعْلُومُ عَمَّ جَمِيعَ ذِي الأَكْوَانِ
ذَا ثَابِتٌ عَنْ مَالِكٍ مَنْ رَدَّهُ ... فَلَسَوْفَ يَلْقَى مَالِكًا بِهَوَانِ
وَكَذَاكَ قَالَ التِّرْمِذِي بِجَامِعٍ ... عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكِنْ عِلْمُهُ ... مَعَ خَلْقِهِ تَفْسِيرُ ذِي الإِتْقَانِ

وَكَذَاكَ أَوْزَاعِيهِمُ أَيْضًا حَكَى ... عَنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

مِنْ قُرْبِهِ وَالتَّابِعِينَ جَمِيعِهِمْ ... مُتَوَافِرِينَ وَهُمْ أُولُوا الْعِرْفَانِ

إِثْبَاتُهُمْ بِعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ الْعِبَادِ وَفَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ

وَكَذَاكَ قَالَ الشَّافِعِي حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُ الْبَيْهَقِي وَشَيْخُهُ الرَّبَّانِي

حَقًّا قَضَى اللهُ الْخَلَائِقَ رَبُّنَا ... فَوْقَ السَّمَاءِ لأَصْدَقِ الْعُبْدَانِ

حِبُّ الرَّسُولِ وَقَائِمٌ مِنْ بَعْدِهِ ... بِالْحَقِّ لاَ فَشَلٌ وَلاَ مُتَوَانِ

فَانْظُرْ إِلَى الْمَقْضِي فِي ذِي الأَرْضِ لَـ ... ـكِنْ فِي السَّمَاءِ قَضَاءُ ذِي السُّلْطَانِ

وَقَضَاؤُهُ وَصْفٌ لَهُ لَمْ يَنْفَصِلْ ... عَنْهُ وَهَذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

وَكَذَلِكَ النُّعْمَانُ قَالَ وَبَعْدَهُ ... بِعُقُوبُ وَالأَلْفَاظُ لِلنُّعْمَانِ

مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِعَرْشِهِ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

وَيُقِرُّ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ لاَ ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاجِسُ الأَذْهَانِ

فَهُوَ الَّذِي لاَ شَكَّ فِي تَكْفِيرِهِ ... لله دَرُّكَ مِنْ إِمَامِ زَمَانِ

هَذَا الَّذِي فِي الْفِقْهِ الأَكْبَرِ عِنْدَهُمْ ... وَلَهُ شُرُوحٌ عِدَّةٌ لِبَيَانِ

وَانْظُرْ مَقَالَةَ أَحْمَدٍ وَنُصُوصَهُ ... فِي ذَاكَ تَلْقَاهَا بِلاَ كِتْمَانِ

فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِعُلُوِّهِ ... وَبِالاسْتِوَا وَالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

وَلَهُ نُصُوصٌ وَارِدَاتٌ لَمْ تَقَعْ ... لِسِوَاهُ مِنْ قُرْسَانِ هَذَا الشَّانِ

إِذْ كَانَ مُمْتَحَنًا بِأَعْدَاءِ الْحَدِيـ ... ـثِ وَشِيعَةِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

وَإِذَا أَرَدْتَ نُصُوصَهُ فَانْظُرْ إِلَى ... مَا قَدْ حَكَى الْخَلاَّلُ ذُو الإِتْقَانِ

وَكَذَاكَ إِسْحَاقُ الإِمَامُ فَإِنَّهُ ... قَدْ قَالَ مَا فِيهِ هُدَى الْحَيْرَانِ

وَابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ قَوْلاً ثَالِثًا ... إِنْكَارُهُ عَلَمٌ عَلَى الْبُهْتَانِ

قَالُوا لَهُ مَا ذَاكَ نَعْرِفُ رَبَّنَا ... حَقًّا بِهِ لِتَكُونَ ذَا إِيمَانِ

فَأَجَابَ نَعْرِفُهُ بِوَصْفِ عُلُوِّهِ ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ

وَبِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَقًّا عَلَى الْـ ... ـعَرْشِ الرَّفِيعِ لِجَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

وَهُوَ الَّذِي قَدْ شَجَّعَ ابْنَ خُزَيْمَةٍ ... إِذْ سَلَّ سَيْفَ الْحَقِّ وَالْعِرْفَانِ
وَقَضَى بِقَتْلِ الْمُنْكِرِينَ عُلُوَّهُ ... بَعْدَ اسْتِتَابَتِهِمْ مِنَ الْكُفْرَانِ
وَبِأَنَّهُمْ يَلْقَوْنَ بَعْدَ الْقَتْلِ فَوْ ... قَ مَزَابِلِ الْمَيْتَاتِ وَالْأَنْتَانِ
فَشَفَى الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْحَبْرُ الَّذِي ... يُدْعَى إِمَامَ أَئِمَّةِ الْأَزْمَانِ
وَلَقَدْ حَكَاهُ الْحَاكِمُ الْعَدْلُ الرِّضَا ... فِي كُتْبِهِ عَنْهُ بِلَا نُكْرَانِ
وَحَكَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي تَمْهِيدِهِ ... وَكِتَابِ الِاسْتِذْكَارِ غَيْرَ جَبَانِ
إِجْمَاعَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ اللهَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ بِالْإِيضَاحِ وَالْبُرْهَانِ
وَأَتَى هُنَاكَ بِمَا شَفَى أَهْلَ الْهُدَى ... لَكِنَّهُ مَرَضٌ عَلَى الْعِمْيَانِ
وَكَذَا عَلِيُّ الْأَشْعَرِيُّ فَإِنَّهُ ... فِي كُتْبِهِ قَدْ جَاءَ بِالتِّبْيَانِ
مِنْ مُوجَزٍ وَإِبَانَةٍ وَمَقَالَةٍ ... وَرَسَائِلٍ لِلثَّغْرِ ذَاتِ بَيَانِ
وَأَتَى بِتَقْرِيرِ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ [بِالْإِيضَاحِ وَالْبُرْهَانِ][1]
وَأَتَى بِتَقْرِيرِ الْعُلُوِّ بِأَحْسَنِ التَّـ ... ـقْرِيرِ فَانْظُرْ كُتْبَهُ بِعِيَانِ
وَاللهِ مَا قَالَ الْمُجَسِّمُ مِثْلَ مَا ... قَدْ قَالَهُ ذَا الْعَالِمُ الرَّبَّانِي
فَارْمُوهُ وَيْحَكُمُ بِمَا تَرْمُوا بِهِ ... هَذَا الْمُجَسِّمَ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
أَوْ لَا فَقُولُوا إِنَّ ثَمَّ حَزَازَةً ... وَتَنَفُّسَ الصُّعَدَاءِ مِنْ حَرَّانِ
فَسَلُوا الْإِلَهَ شِفَاءَ ذَا الدَّاءِ الْعُضَا ... لِ مُجَانِبِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ
وَانْظُرْ إِلَى حَرْبٍ وَإِجْمَاعٍ حَكَى ... للهِ دَرُّكَ مِنْ فَتًى كَرْمَانِي
وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ وَهْبٍ أَوْحَدِ الْـ ... ـعُلَمَاءِ مِثْلَ الشَّمْسِ فِي الْمِيزَانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَ عَبْدُ اللهِ فِي ... تِلْكَ الرِّسَالَةِ مُفْصِحًا بِبَيَانِ
مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ... بِالذَّاتِ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْأَكْوَانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الْكَرْخِيُّ فِي ... شَرْحٍ لِتَصْنِيفِ امْرِئٍ رَبَّانِي
وَانْظُرْ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ شَرْحُهُ ... فَهُمَا الْهُدَى لِمُلَدَّدٍ حَيْرَانِ
وَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِ عَبْدٍ مَا الَّذِي ... فِيهِ مِنَ الْآثَارِ فِي ذَا الشَّانِ

---

(١) في (خ) [لم ينكره ذوا إيمان]

وَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِ ذَاكَ الْفَاضِلِ الـ ... ـنَّبْتِ الرِّضَا الْمُتَضَلِّعِ الرَّبَّانِي

ذَاكَ الإِمَامُ ابْنُ الإِمَامِ وَشَيْخُهُ ... وَأَبُوهُ سُفْيَانٌ فَرَائِدُ كَانِ

وَانْظُرْ إِلَى الثَّانِي فِي تَفْسِيرِهِ ... هُوَ عِنْدَنَا سِفْرٌ جَلِيلُ مَعَانِي

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَرْشِ لِلْعَبَّادِ وَهْـ ... ـوَ مُحَمَّدُ الْمَوْلُودُ مِنْ غُطَفَانِ

وَاقْرَأْ لِمُسْنَدِ عَمِّهِ وَمُصَنَّفٍ ... أَتَرَاهُمَا لَجْمَيْنِ أَوْ شَمْسَانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ الإِسْتِقَامَةِ لِلرِّضَا ... ذَاكَ ابْنُ أَصْرَمَ حَافِظٌ رَبَّانِي

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْحَافِظِ [النقة] الرِّضَا ... فِي السُّنَّةِ الْعُلْيَا الْفَتَى الشَّيْبَانِي[1]

ذَاكَ ابْنُ أَحْمَدَ أَوْحَدُ الْحُفَّاظِ [قد] ... شَهِدَتْ لَهُ الْحُفَّاظُ بِالإِتْقَانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ الأَثْرَمِ الْعَدْلِ الرِّضَا ... فِي السُّنَّةِ الأُولَى إِمَامَ زَمَانِ[2]

وَكَذَا الإِمَامُ ابْنُ الإِمَامِ الْمُرْتَضَى ... حَقًّا أَبِي ذَاوُدَ ذِي الْعِرْفَانِ

تَصْنِيفُهُ نَظْمًا وَنَثْرًا وَاضِحٌ ... فِي السُّنَّةِ الْمُثْلَى هُمَا لَجْمَانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ السُّنَّةِ الأُولَى الَّتِي ... أَبْدَاهُ مُصْطَلِحٌ مِنَ الإِتْقَانِ

ذَاكَ النَّبِيلُ ابْنُ النَّبِيلِ كِتَابُهُ ... أَيْضًا نَبِيلٌ وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ أَسْبَاطِ الرِّضَا ... وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرِّضَا سُفْيَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ زَيْدٍ ذَاكَ حَمْـ ... ـمَادٌ وَحَمَّادُ الإِمَامُ الثَّانِي

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُدَى ... عُثْمَانُ ذَاكَ الدَّارِمِي[3] الرَّبَّانِي

فِي نَقْضِهِ وَالرَّدِّ بِالْهَمَّا كِتَا ... بَا سُنَّةٍ وَهُمَا لَنَا عَلَمَانِ

هُدِمَتْ قَوَاعِدُ فِرْقَةٍ جَهْمِيَّةٍ ... خَرَّتْ سُقُوفُهُمُ عَلَى الْحِيطَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ... ذَاكَ الْبُخَارِي الْعَظِيمُ الشَّانِ

مِنْ رَدِّهِ مَا قَالَهُ الْجَهْمِي بِالنَّـ ... ـقْلِ الصَّحِيحِ الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

وَانْظُرْ إِلَى تِلْكَ التَّرَاجِمِ مَا الَّذِي ... فِي ضِمْنِهَا إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الطَّبَرِي فِي التَّـ ... ـشْرِحِ الَّذِي هُوَ عِنْدَكُمْ سِفْرَانِ

---

(١) كذا في (ح، ق، س) أما في (ط) [الأولى إمام زمان].

(٢) كذا في (ح، ق، س) أما في (ط) [المثلى هما لجمان].

(٣) في (ح) [العالم].

أَعْنِي الْفَقِيهَ الشَّافِعِيَّ اللَّاكَا ... نِي الْمُسَدَّدَ نَاصِرَ الْإِيمَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُدَى الذَّ ... يِي فِي إِيضَاحِهِ وَبَيَانِ

ذَاكَ الَّذِي هُوَ صَاحِبُ التَّرْهِيبِ وَالتَّ ... رْهِيبِ مَمْدُوحٌ بِكُلِّ لِسَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ فِي السُّنَّةِ الْـ ... ـكُبْرَى سُلَيْمَانُ هُوَ الطَّبَرَانِي

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ شَيْخُ الْهُدَى ... يَدْعَى بِطَلْمَنْكِيهِمُ ذُو شَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الطَّحَاوِي الرِّضَا ... وَأَجِرَّةٍ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي بُهْتَانِ

وَكَذَلِكَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ هُوَ ابْـ ... ـنُ الْبَاقِلَانِي قَائِدُ الْفُرْسَانِ

قَدْ قَالَ فِي تَمْهِيدِهِ وَرَسَائِلٍ ... وَالشَّرْحِ مَا فِيهِ جَلِي بَيَانِ

فِي بَعْضِهَا حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الْأَكْوَانِ

وَأَتَى بِتَقْرِيرِ الْعُلُوِّ وَأَبْطَلَ الْـ ... لَامَ الَّتِي زِيدَتْ عَلَى الْقُرْآنِ

مِنْ أَوْجُهٍ شَتَّى وَذَا فِي كُتْبِهِ ... بَادٍ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ كُلَّابٍ وَمَا ... يَقْضِي بِهِ لِلْمُعْطِلِ الرَّحْمَنِ

أَخْرِجْ مِنَ النَّقْلِ الصَّحِيحِ وَعَقْلِهِ ... مَنْ قَالَ قَوْلَ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ

لَيْسَ الْإِلَهُ بِدَاخِلٍ فِي خَلْقِهِ ... أَوْ خَارِجٍ عَنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الطَّبَرِي فِي التَّـ ... ـفْسِيرِ وَالتَّهْذِيبِ قَوْلَ مَعَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ فِي سُورَةِ الْـ ... أَعْرَافِ مَعْ طَهَ وَمَعْ سُبْحَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الْبَغَوِي فِي ... تَفْسِيرِهِ وَالشَّرْحِ بِالْإِحْسَانِ

فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ الْإِسْتِوَى ... فِيهَا وَفِي الْأُولَى مِنَ الْقُرْآنِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ ذُو سُنَّةٍ ... وَقِرَاءَةٍ ذَاكَ الْإِمَامُ الدَّانِي

وَكَذَا سُنَّةُ الْأَصْبَهَانِي أَبِي الشَّـ ... ـيْخِ الرِّضَا الْمُتَنَقِّلُ مِنْ جِنَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ الْـ ... بَحْرُ الْخِضَمُّ الشَّافِعِي الثَّانِي

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُدَى ... أَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا الثَّعْلَبَانِ

وَكِتَابُهُ فِي الْفِقْهِ وَهُوَ بِبَالِهِ ... يُبْدِي مَكَانَتَهُ مِنَ الْإِيمَانِ

وَانْظُرْ إِلَى السُّنَنِ الَّتِي قَدْ صَنَّفَ الْـ ... ـعُلَمَاءُ بِالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ

زَادَتْ عَلَى الْمِائَتَيْنِ مِنْهَا مُفْرَدٌ أَوْفَى مِنَ الْخَمْسِينَ فِي الْحُسْبَانِ
مِنْهَا لأَحْمَدَ عِدَّةٌ مَوْجُودَةٌ فِينَا رَسَائِلُهُ إِلَى الإِخْوَانِ
وَاللاَّءِ فِي ضِمْنِ التَّصَانِيفِ الَّتِي فَكَثِيرَةٌ جِدًّا شُهِرَتْ وَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى حُسْبَانِ
فَتَنْ يَكُ رَاغِبًا فِيهَا يَجِدْ فِيهَا هُدَى الْحَيْرَانِ
أَصْحَابُهَا هُمْ حَافِظُوا الإِسْلاَمِ لاَ أَصْحَابُ جَهْمٍ حَافِظُو الْكُفْرَانِ
وَهُمُ النُّجُومُ لِكُلِّ عَبْدٍ سَائِرٍ يَبْغِي الإِلَهُ وَجَنَّةَ الْحَيَوَانِ
وَسِوَاهُمُ وَاللهِ قُطَّاعُ الطَّرِيـ ـقِ أَئِمَّةٌ تَدْعُو إِلَى النِّيرَانِ
مَا فِي الَّذِينَ حَكَيْتُ عَنْهُمْ آنِفًا مِنْ حَنْبَلِي وَاحِدٍ بَضَمَانِ
بَلْ كُلُّهُمْ وَاللهِ شِيعَةُ أَحْمَدٍ فَأُصُولُهُ وَأُصُولُهُمْ سِيَانِ
وَبِذَاكَ فِي كُتُبٍ لَهُمْ قَدْ صَرَّحُوا وَأَخُو الْعَمَايَةِ مَا لَهُ عَيْنَانِ
أَتَظُنُّهُمْ لَفِظِيَّةً جَهْلِيَّةً مِثْلَ الْحَمِيرِ تُقَادُ بِالأَرْسَانِ
حَاشَاهُمُ مِنْ ذَاكَ بَلْ وَاللهِ هُمْ أَهْلُ الْعُقُولِ وَصِحَّةِ الأَذْهَانِ
فَانْظُرْ إِلَى تَقْرِيرِهِمْ لِعُلُوِّهِ بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ
عَقْلاَنِ عَقْلٌ بِالنُّصُوصِ مُؤَيَّدٌ وَمُؤَيَّدٌ بِالْمَنْطِقِ الْيُونَانِي
وَاللهِ مَا اسْتَوَيَا وَلَنْ يَتَلاَقَيَا حَتَّى تَشِيبَ مَفَارِقُ الْغِرْبَانِ
أَفَتَقْذِفُونَ أُولاَءِ بَلْ أَضْعَافَهُمْ مِنْ سَادَةِ الْعُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانِ
بِالْجَهْلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَالتَّـ ـبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْبُهْتَانِ
يَا قَوْمَنَا اللهَ فِي إِسْلاَمِكُمْ لاَ تُفْسِدُوهُ لِنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ
يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِمَصْرَعِ مَنْ خَلاَ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ
لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ كِذْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ وَقِتَالُهُمْ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ
كَلاَّ وَلاَ التَّدْلِيسُ وَالتَّلْبِيسُ عِنْـ ـدَ النَّاسِ وَالْحُكَّامِ وَالسُّلْطَانِ
وَبَدَا لَهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ غِطَائِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِي حُسْبَانِ
وَبَدَا لَهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ حَقَائِقِ الْـ إِيمَانِ أَنَّهُمْ عَلَى الْبُطْلاَنِ
مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ غَيْرُ شِكَايَةٍ فَأْتُوا بِعِلْمٍ وَانْطِقُوا بِبَيَانِ

مَا يَشْتَكِي إِلاَّ الَّذِي هُوَ عَاجِزٌ ... فَاشْكُوا لِنَعْذُرَكُمْ إِلَى الْقُرْآنِ

ثُمَّ اسْمَعُوا مَاذَا الَّذِي يَقْضِي لَكُمْ ... وَعَلَيْكُمُ فَالْحَقُّ فِي الْفُرْقَانِ

لَبِسْتُمْ مَعْنَى النُّصُوصِ وَقَوْلِنَا ... فَغَدَا لَكُمْ فِي الْحَقِّ تَلْبِيسَانِ

مَنْ حَرَّفَ النَّصَّ الصَّرِيحَ فَكَيْفَ لاَ ... يَأْتِي بِتَحْرِيفٍ عَلَى إِنْسَانِ

يَا قَوْمُ وَاللهِ الْعَظِيمِ أَسَأْتُمُ ... بِأَئِمَّةِ الإِسْلاَمِ ظَنَّ الشَّانِي

مَا ذَنْبُهُمْ وَنَبِيُّهُمْ قَدْ قَالَ مَا ... قَالُوا كَذَلِكَ مُنْزِلُ الْفُرْقَانِ

مَا الذَّنْبُ إِلاَّ لِلنُّصُوصِ لَدَيْكُمُ ... إِذْ جَسَّمَتْ بَلْ شَبَّهَتْ صِنْفَانِ

مَا ذَنْبُ مَنْ قَدْ قَالَ مَا نَطَقَتْ بِهِ ... مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ عُدْوَانِ

هَذَا كَمَا قَالَ الْخَبِيثُ لِصَحْبِهِ ... كَلْبُ الرَّوَافِضِ أَخْبَثُ الْحَيَوَانِ

لَمَّا أَفَاضُوا فِي حَدِيثِ الرَّفْضِ عِنْـ ... ـدَ الْقَبْرِ لاَ تَخْشَوْنَ مِنْ إِنْسَانِ

يَا قَوْمِ أَصْلُ بَلاَئِكُمْ وَمُصَابِكُمْ ... مِنْ صَاحِبِ الْقَبْرِ الَّذِي تَرَيَانِ

كَمْ قَدْ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ بَلْ غَدَا ... يُثْنِي عَلَيْهِ ثَنَاءَ ذِي شُكْرَانِ

وَيَقُولُ فِي مَرَضِ الْوَفَاءِ يَؤُمُّكُمْ ... عَنِّي أَبُو بَكْرٍ بِلاَ رَوَغَانِ

وَيَظَلُّ يَمْنَعُ مِنْ إِمَامَةِ غَيْرِهِ ... حَتَّى يَرَى فِي صُورَةِ الْغَضْبَانِ

وَيَقُولُ لَوْ كُنْتُ الْخَلِيلَ لِوَاحِدٍ ... فِي النَّاسِ كَانَ هُوَ الْخَلِيلُ الدَّانِي

لَكِنَّهُ الأَخُ وَالرَّفِيقُ وَصَاحِبِي ... وَلَهُ عَلَيْنَا مِنَّةُ الإِحْسَانِ

وَيَقُولُ لِلصِّدِّيقِ يَوْمَ الْغَارِ لاَ ... تَحْزَنْ فَنَحْنُ ثَلاَثَةٌ لاَ اثْنَانِ

اللهُ ثَالِثُنَا وَتِلْكَ فَضِيلَةٌ ... مَا حَازَهَا إِلاَّ فَتَى عُثْمَانِ

يَا قَوْمُ مَا ذَنْبُ النَّوَاصِبِ بَعْدَ ذَا ... لَمْ يَدْهَكُمْ إِلاَّ كَبِيرُ الشَّانِ

فَتَفَرَّقَتْ تِلْكَ الرَّوَافِضُ كُلُّهُمْ ... قَدْ أَطْبَقَتْ أَسْنَانَهُ الشَّفَتَانِ

وَكَذَلِكَ الْجَهْمِي ذَاكَ رَضِيعُهُمْ ... فَهُمَا رَضِيعَا كُفْرِهِمْ بِلِبَانِ

ثَوْبَانِ قَدْ نُسِجَا عَلَى الْمِنْوَالِ يَا ... عُرْيَانُ لاَ تَلْبَسْ فَمَا ثَوْبَانِ

وَاللهِ شَرٌّ مِنْهُمَا فَهُمَا عَلَى ... أَهْلِ الضَّلاَلَةِ وَالشَّقَا عَلَمَانِ

الشرح

السادس عشر: إجْمَاع أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة المُسلمين المُعتبرين الذين إجماعهم هو الحجة والعصمة، وأما من سواهم مِمَّن هو معروف ببدعة وإلحاد فوجود خلافهم لا يقدح في الإجْمَاع، وقد قرر هذا الإجْمَاع كثير من الأئمة بالنقل، والمُتواتر عنهم بالألفاظ المُتنوعة على علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، وتتبع ذلك كثيرًا جدًّا موجود في كتب التفسير والأصول والآثار والفقه، لَمْ يخالف منهم مُخالف، بل كلهم مقرون بذلك منكرون على ما تأول وأنكر أوشك فيه.

وأطال المُؤلف في تعداده لمن حكى هذا الإجْمَاع من الأئمة، وسرد أقوالهم على وجه الإشارة، وذكر أنَّهم أهل العقول الكاملة المُؤيدة بنور الوحي والبصيرة وأهل الصدق الكامل والدين المُتين، فهل يوزن بهذه العقول سفهاء الأحلام أرباب الكلام الباطل وقشور الفلسفة الذين كذبوا بالحَق فهم في أمر مريج لا يفرح بوفاتهم ولا يؤسف على خلافهم.

فصل

هَـذَا وَسَـابِعَ عَشْـرِهَا إِخْبَارُهُ ... سُـبْحَانَهُ فِـي مُحْكَـمِ الْقُـرْآنِ

عَـنْ عَبْـدِهِ مُوسَـى الْكَلِـيمِ وَحَرْبِـهِ ... فِرْعَـوْنَ ذِي التَّكْـذِيبِ وَالطُّغْيَـانِ

تَكْذِيـبِهِ مُوسَـى الْكَلِـيمِ بِقَوْلِـهِ ... اللهُ رَبِّـي فِـي السَّـمَا تَبْـانِي

وَمِـنَ الْمُحَـالِ قَـوْلُهُمْ إِنْ اعْتَقَـا ... دَ الْقَـوْمِ مِـنْ فِرْعَـوْنَ ذِي الْكُفْـرَانِ

فَـإِذَا اعْتَقَـدْتُمْ ذَا فَأَشْـنَعُ لَـهُ ... أَنْـتُمْ وَذَا مِـنْ أَعْظَـمِ الْبُهْتَـانِ

فَاسْـمَعْ إِذًا مَـنْ ذَا الَّـذِي أَوْلَـى بِفِـرْ ... عَـوْنَ الْمُعَطِّـلِ جَاحِـدِ الرَّحْمَنِ

فَانْظُرْ إِلَى مَـا جَـاءَ فِـي الْقَصَـصِ الَّـتِي ... نَحْكِـي مَقَـالَ إِمَامِهِمْ بِبَيَـانِ

وَاللهُ قَـدْ جَعَـلَ الصَّـلَاةَ قُـدْوَةً ... بِأَئِمَّـةٍ تَـدْعُو إِلَـى الْإِيمَانِ

فَإِمَـامُ كُـلِّ مُعَطِّـلٍ فِـي نَفْيِـهِ ... فِرْعَـوْنُ مَـعْ نَمْـرُودَ مَـعْ هَامَـانِ

طَلَـبَ الصُّعُودَ إِلَـى السَّـمَاءِ مُكَـذِّبًا ... مُوسَـى وَرَامَ الصَّـرْحَ بِالْبُنْيَـانِ

بَـلْ قَـالَ مُوسَـى كَـاذِبٌ فِـي زَعْمِـهِ ... فَـوْقَ السَّـمَاءِ الرَّبُّ ذُو السُّـلْطَانِ

فَابْنُوا لِي الصَّرْحَ الرَّفِيعَ لَعَلِّي ... أَرْقَى إِلَيْهِ بِحِيلَةِ الإِنْسَانِ
وَأَظُنُّ مُوسَى كَاذِبًا فِي قَوْلِهِ ... اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ ذُو السُّلْطَانِ
وَكَذَا لَكَ كَذَبَهُ بِأَنَّ إِلَهَهُ ... نَادَاهُ بِالتَّكْلِيمِ دُونَ عَيَانِ
هُوَ أَنْكَرَ التَّكْلِيمَ وَالْفَوْقِيَّةَ الْـ ... ـعُلْيَا كَقَوْلِ الْجَهْمِ ذِي صَفْوَانِ
فَمِنَ الَّذِي أَوْلَى بِفِرْعَوْنٍ إِذَا ... مَا وَمِنْكُمْ بَعْدَ ذَا التِّبْيَانِ
يَا قَوْمَنَا وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا ... أَلْفًا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَلْ أَلْفَانِ
عَقْلاً وَنَقْلاً مَعْ صَرِيحِ الْفِطْرَةِ الْـ ... أُولَى وَذَوْقِ حَلاَوَةِ الإِيمَانِ[1]
كُلٌّ يَدُلُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ
أَلَمْ تَرَوْنَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ ... لِجَمَاجِعِ التَّعْطِيلِ وَالْهَذَيَانِ
يَا قَوْمُ مَا أَلَمُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَى ... أَنْ تُرْجِعُوا لِلْوَحْيِ بِالإِذْعَانِ
وَتُحَكِّمُوهُ فِي الْجَلِيلِ وَدِقِّهِ ... تَحْكِيمَ تَسْلِيمٍ مَعَ الرُّضْوَانِ
قَدْ أَقْسَمَ اللهُ الْعَظِيمُ بِنَفْيِهِ ... قَسَمًا بِهِ بَيَّنَ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ
أَنْ لَيْسَ يُؤْمِنُ مَنْ يَكُونُ مَحَكِّمًا ... غَيْرَ الرَّسُولِ الوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
بَلْ لَيْسَ يُؤْمِنُ غَيْرُ مَنْ قَدْ حَكَّمَ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ حَسْبُ فَذَاكَ ذُو إِيمَانِ
هَذَا وَمَا ذَاكَ الْمُحَكِّمُ مُؤْمِنًا ... إِنْ كَانَ ذَا حَرَجٍ وَضِيقٍ بِطَانِ
هَذَا وَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ حَتَّى يَسْلَـ ... ـمَ لِلَّذِي يَقْضِي بِهِ الْوَحْيَانِ
يَا قَوْمُ بِاللهِ الْعَظِيمِ نُشِدُّكُمْ ... وَبِحُرْمَةِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
هَلْ حَدَّثَتْكُمْ قَطُّ أَنْفُسُكُمْ بِذَا ... فَسَلُوا نُفُوسَكُمُ عَنِ الإِيمَانِ
لَكِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَجُنْدَهُ ... وَرَسُولَهُ الْمَبْعُوثَ بِالْقُرْآنِ
هُمْ يَشْهَدُونَ بِأَنَّكُمْ أَعْدَاءُ مَنْ ... ذَا شَأْنُهُ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَحْمَدُ خَصْمَكُمْ ... أَعْنِي ابْنَ حَنْبَلِ الرُّضَا الشَّيْبَانِي
وَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ بَعْدُ خُصُومُكُمْ ... أَهْلَ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرَ الْقُرْآنِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَيْضًا خَصْمَكُمْ ... شَيْخُ الْوُجُودِ الْعَالِمُ الْحَرَّانِي

---

(١) كذا في (ع) أما في (ط) [الْقُرْآنِ].

أعني أبا العباس ناصر سنة الـ ... ـمختار قامع سنة الشيطان
والله لم يك ذنبه شيئا سوى ... تجريده لحقيقة الإيمان
إذ جرد التوحيد عن شرك كذا ... تجريده للوحي عن بهتان
فتجرد المقصود عن قصد له ... فلذاك لم ينصف إلى إنسان
ما منهم أحد دعا لمقالة ... غير الحديث ومقتضى القرآن
فالقوم لم يدعوا إلى غير الهدى ... ودعوتم أنتم لرأي فلان
شتان بين الدعوتين فحسبكم ... يا قوم ما بكم من الخذلان
قالوا لنا لما دعوناهم إلى ... هذا مقالة ذي هوى ملآن
ذهبت مقادير الشيوخ وحرمة الـ ... ـعلماء بل عبرتهم العينان
وتركتم أقوالهم هدرا وما ... أصغت إليها منكم أذنان
لكن حفظنا نحن حرمتهم ولم ... نعد الذي قالوه قدر بنان
يا قوم والله العظيم كذبتم ... وأتيتم بالزور والبهتان
ونسبتم العلماء للأمر الذي ... هم منه أهل براءة وأمان
والله ما أوصاكم أن تتركوا ... قول الرسول لقولهم بلسان
كلا ولا في كتبهم هذا بلى ... بالعكس أوصاكم بلا كتمان
إذ قد أحاط العلم منهم أنهم ... ليسوا بمعصومين بالبرهان
كلا وما منهم أحاط بكل ما ... قد قاله المبعوث بالقرآن
فلذاك أوصاكم بأن لا تجعلوا ... أقوالهم كالنص في الميزان
لكن زنوها بالنصوص فإن توا ... فقها فتلك صحيحة الأوزان
لكنكم قدمتم أقوالهم ... أبدا على النص العظيم الشان
والله لا لوصية العلماء نفـ ... ـذتم ولا لوصية الرحمن
وركبتم الجهلين ثم تركتم النـ ... ـصين مع ظلم ومع عدوان
قلنا لكم فتعلموا قلتم أما ... نحن الأئمة فاضلو الأزمان
من أين والعلماء أنتم فاستحوا ... أين النجوم من الثرى التحتاني

لَمْ يَشْبِهِ الْعُلَمَاءُ إِلاَّ أَنْتُمُ ... أَشْبَهْتُمُ الْعُلَمَاءَ فِي الأَذْقَانِ
وَاللهِ لاَ عِلْمٌ وَلاَ دِينٌ وَلاَ ... عَقْلٌ وَلاَ بِمُرُوءَةِ الإِنْسَانِ
عَامَلْتُمُ الْعُلَمَاءَ حِينَ دَعَوْكُمُ ... لِلْحَقِّ بَلْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
إِنْ أَنْتُمُ إِلاَّ الذُّبَابُ إِذَا رَأَى ... طُعْمًا فَيَا لِمَسَاقِطِ الذُّبَّانِ
وَإِذَا رَأَى فَزَعًا تَطَايَرَ قَلْبُهُ ... مِثْلَ الْبُغَاثِ يَسَاقُ بِالْعُقْيَانِ
وَإِذَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى الْبُرْهَانِ كَا ... نَ جَوَابُكُمْ جَهْلاً بِلاَ بُرْهَانِ
نَحْنُ الْمُقَلِّدَةُ الأُلَى أَلْفَوْا كَذَا ... آبَاءَهُمْ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
قُلْنَا فَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَمَا لَكُمْ ... عِلْمٌ بِتَكْفِيرٍ وَلاَ إِيمَانِ
إِذْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مُقَلِّدًا ... لِلنَّاسِ وَالأَعْمَى هُمَا أَخَوَانِ
وَالْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الْهُدَى بِدَلِيلِهِ ... مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ مُسْتَوِيَانِ
حِرْنَا بِكُمْ وَاللهِ لاَ أَنْتُمْ مَعَ الْـ ... ـعُلَمَاءِ تَنْقَادُونَ لِلْبُرْهَانِ
كَلاَّ لاَ مُتَعَلِّمُونَ فَمَنْ تُرَى ... تَدْعُونَ نَحْسَبُكُمْ مِنَ الثِّيرَانِ
نَالَتْ بِهِمْ خَيْرًا وَنَالَتْ مِنْكُمُ الْـ ... ـمَعْهُودَ مِنْ بَغْيٍ وَمِنْ عُدْوَانِ
فَمَنِ الَّذِي خَيْرٌ وَأَنْفَعُ لِلْوَرَى ... أَنْتُمْ أَمِ الثِّيرَانُ بِالْبُرْهَانِ

الشرح

السابع عشر: ما أخبر به تعالى عن موسى عليه السلام وعن فرعون حين دعاه إلى ربه وأنكر فرعون دعوته وموه على قومه وقال لوزيره هامان على وجه التكذيب لموسى والتهكم به: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[1]. فهذا صريح في تكذيبه لموسى في قوله: إن الله فوق السماوات والخلق كلهم، وتبع فرعون على قوله هذا جميع الجهمية الفرعونية ورموا ببلائهم أهل السنة والجماعة وقالوا: إن مذهبهم مذهب فرعون الذي اعتقد علو الله على خلقه.

---

(١) [غافر: ٣٦-٣٧].

وهذا من العجائب وقلب الحقائق، فإنه لا يشك أحد أن مقالة فرعون المذكورة تكذيب لموسى ورد لقوله وأن فرعون أراد أن يموه على قومه فيصعد السماء إلى إله موسى الذي دعاه موسى إلى عبادته، فموسى إمام المثبتين لعلو رب العالمين وفرعون إمام كل مُعطل.

فصل

هَذَا وَثَامِنُ عَشْرِهَا تَنْزِيهُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ مُوجِبِ النُّقْصَانِ
وَعَنِ الْعُيُوبِ وَمُوجِبِ التَّمْثِيلِ وَالتَّـ ... ـشْبِيهِ جَلَّ اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
وَلِذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ثَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ظَهِيرٌ فِي الْوَرَى ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ
أَوْ أَنْ يُوَلِّي خَلْقَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ حَاجَةٍ أَوْ ذِلَّةٍ وَهَوَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ أَصْلاً شَافِعٌ ... إِلاَّ بِإِذْنِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
وَكَذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ وَالِدٍ ... وَكَذَاكَ عَنْ وَلَدٍ هُمَا نَسَبَانِ
وَكَذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ زَوْجَةٍ ... وَكَذَاكَ عَنْ كُفُؤٍ يَكُونُ مُدَانِي
وَلَقَدْ أَتَى التَّنْزِيهُ عَمَّا لَمْ يَقُلْ ... كَيْ لاَ يَدُورَ بِخَاطِرِ الإِنْسَانِ
فَانْظُرْ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنْ طُعْمٍ وَلَمْ ... يَنْسَبْ إِلَيْهِ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ مَوْتٍ وَعَنْ ... نَوْمٍ وَعَنْ سِنَةٍ وَعَنْ غِشْيَانِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ نِسْيَانِهِ ... وَالرَّبُّ لَمْ يَنْسَبْ إِلَى نِسْيَانِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ ظُلْمٍ وَفِي الْـ ... أَفْعَالِ عَنْ عَبَثٍ وَعَنْ بُطْلاَنِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ تَعَبٍ وَعَنْ ... عَجْزٍ يُنَافِي قُدْرَةَ الرَّحْمَنِ
وَلَقَدْ حَكَى الرَّحْمَنُ قَوْلاً قَالَهُ ... فِنْحَاصُ ذُو الْبُهْتَانِ وَالْكُفْرَانِ
إِنَّ الإِلَهَ هُوَ الْفَقِيرُ وَنَحْنُ أَصْـ ... ـحَابُ الْغِنَى ذُو الْوَجْدِ وَالإِمْكَانِ
وَكَذَاكَ أَضْحَى رَبُّنَا مُسْتَقْرِضًا ... أَمْوَالَنَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ
وَحَكَى مَقَالَةَ قَائِلٍ مِنْ قَوْمِهِ ... أَنَّ الْعُزَيْرَ ابْنٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
هَذَا وَمَا الْقَوْلاَنِ قَطُّ مَقَالَةٌ ... مَنْصُورَةٌ فِي مَوْضِعٍ وَزَمَانِ
لَكِنْ مَقَالَةُ كَوْنِهِ فَوْقَ الْوَرَى ... وَالْعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ

قَدْ طَبَّقَتْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا ... وَغَدَتْ مُقَرِّرَةً لَدَى الأَذْهَانِ

فَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَنَزِّهْ نَفْسَهُ ... سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

عَنْ ذِي الْمَقَالَةِ مَعْ تَفَاقُمِ أَمْرِهَا ... وَظُهُورِهَا فِي سَائِرِ الأَدْيَانِ

بَلْ دَائِمًا يُبْدِي لَنَا إِبْطَالَهَا ... وَبِعِدَّةِ بِأَدِلَّةِ التِّبْيَانِ

لاَ سِيَّمَا لِلْمَقَالَةِ عِنْدَكُمْ ... مَقْرُونَةٌ بِعَادَةِ الأَوْثَانِ

أَوْ أَنَّهَا كَمَقَالَةٍ لُمِثَلَّثٍ ... عِنْدَ الصَّلِيبِ الْمُشْرِكِ النَّصْرَانِي

إِذْ كَانَ جِسْمًا كُلُّ مَوْصُوفٍ بِهَا ... لَيْسَ الإِلَهُ مُنَزَّلَ الْفُرْقَانِ

فَالْعَابِدُونَ لِمَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... بِالذَّاتِ لَيْسُوا عَابِدِي الدَّيَّانِ

لَكِنَّهُمْ عُبَّادُ أَوْثَانٍ لَدَى ... هَذَا الْمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ

وَلِذَاكَ قَدْ جَعَلَ الْمُعَطِّلُ كُفْرَهُمْ ... هُوَ مُقْتَضَى الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

هَذَا رَأَيْنَاهُ بِكُتْبِكُمْ وَلَمْ ... نَكْذِبْ عَلَيْكُمْ فِعْلَ ذِي الْبُهْتَانِ

وَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يُحَذِّرْ خَلْقَهُ ... عَنْهَا وَهَذَا شَأْنُهَا بَيَّانِ

هَذَا وَلَيْسَ فَسَادُهَا بِمُبَيَّنٍ ... حَتَّى يُحَالَ لَنَا عَلَى الأَذْهَانِ

وَلِذَاكَ قَدْ شَهِدَتْ أَفَاضِلُكُمْ لَهَا ... بِظُهُورِهَا لِلْوَهْمِ فِي الإِنْسَانِ

وَعَفَاءِ مَا قَالُوهُ مِنْ نَفْيِ عَلَى الـ ... أَذْهَانِ بَلْ لِحَتَاجِ لِلْبُرْهَانِ

الشرح

الثامن عشر: أن الله تعالى قد نزه نفسه عن النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتشبيه، كما نزه نفسه عن الشريك والظهير والعوين والوزير والولد والصاحبة والحاجة وأن يوالي أحدًا من الذلة، وكذلك نزه نفسه أن يكون أحد يشفع عنده بدون إذنه، بل نزه نفسه عن أمور ما قالها أحد تحذيرًا من وقوعها، فإنه نزه نفسه عن الطعم والموت والنوم والسنة والنسيان ولم ينسبه أحد إلى شيء من ذلك، كذلك نزه نفسه عن الظلم أرادته وعن العبث والباطل والتعب والعجز المنافي لقدرة الله تعالى، ونزه نفسه عن كل ما لا يليق بجلاله، ونزه نفسه عن مقالة قالها بعض طوائف اليهود أن العزير ابن الله، فكل نقص وتمثيل قد نفاه عن نفسه، فلو كانت

مقالة المُعطلين النافين لعلو الله على عرشه فوق مخلوقاته ومباينته لَهم حقًا لنزه نفسه عن العلو والفوقية، فكيف والأمر بالعكس فهو دائمًا يبدي ويعيد في ذكره علوه وفوقيته ويقرر ذلك بكل دليل وبرهان، فلو فرض أن النصوص خالية من تقدير العلو والاستواء على العرش لكان تركه تنزيهه عن العلو أكبر دليل على تقرير ذلك ورضاه به والعلم بأنه غير مناف لكماله، فكيف وهو مع ذلك والأدلة الشرعية كلها على خلاف قول الجهمية، فلو بسطت أنواعها وجعلت أفرادًا لزادت على ألف دليل فإن كان يُمكن تأويلها وإنكارها مع هذا البيان والوضوح وتنوع الأدلة أمكن تأويل الدين كله وإنكاره كما فعل ذلك المُلاحدة الزنادقة من القرامطة والباطنية والإسماعيلية، فإذا كان معلومًا بطلان قولهم في الشرائع والمُعاد والتوحيد فكذلك قول المُتأولين للعلو ولا فرق بين الأمرين في الحقيقة.

فصل

هَذَا وَتَاسِعَ عَشْرَهَا إِلْزَامُ ذِي التَّـ ... ـعْطِيلِ أَفْسَدَ لَازِمٍ بِبَيَانِ
وَفَسَادُ لَازِمِ قَوْلِهِ هُوَ مُقْتَضَى ... لِفَسَادِ ذَاكَ الْقَوْلِ بِالْبُرْهَانِ
فَسَلِ الْمُعَطِّلَ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلٍ ... تَقْضِي عَلَى التَّعْطِيلِ بِالْبُطْلَانِ
مَاذَا تَقُولُ أَكَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ ... هَذَا الرَّسُولُ حَقِيقَةَ الْعِرْفَانِ
أَمْ لَا وَهَلْ كَانَتْ نَصِيحَتُهُ لَنَا ... كُلَّ النَّصِيحَةِ لَيْسَ بِالْخَوَّانِ
أَمْ لَا وَهَلْ حَازَ الْبَلَاغَةَ كُلَّهَا ... فَاللَّفْظُ وَالْمَعْنَى لَهُ طَوْعَانِ
فَإِذَا انْتَهَتْ هَذِي الثَّلَاثَةُ فِيهِ كَا ... مِلَةً مُبَرَّأَةً مِنَ النُّقْصَانِ
فَلِأَيِّ شَيْءٍ عَاشَ فِينَا كَاتِمًا ... لِلنَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ فِي الْأَزْمَانِ
بَلْ مُفْصِحًا بِالضِّدِّ مِنْهُ حَقِيقَةَ الْـ ... إِفْصَاحِ مُوضِحَةً بِكُلِّ بَيَانِ
وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يُصَرِّحْ بِالَّذِي ... صَرَّحْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ
أَلِعَجْزِهِ عَنْ ذَاكَ أَمْ تَقْصِيرِهِ ... فِي النُّصْحِ أَمْ لِخَفَاءِ هَذَا الشَّانِ
حَاشَاهُ بَلْ ذَا وَصْفُكُمْ يَا أُمَّةَ التَّـ ... ـعْطِيلِ لَا الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَذْكُرُ ضِدَّ ذَا ... فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ زَمَانِ
أَتَرَاهُ أَصْبَحَ عَاجِزًا عَنْ قَوْلِهِ اسْـ ... ـتَوْلَى وَيَنْزِلُ أَمْرُهُ وَفُلَانِ

وَيَقُولُ أَيْنَ اللهُ يَعْنِي مَنْ بِلَفْـ ... ـظِ الأَيْنَ هَلْ هَذَا مِنَ التِّبْيَانِ
وَاللهِ مَا قَالَ الأَئِمَّةُ غَيْرَ مَا ... قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيْرِ مَا كِتْمَانِ
لَكِنْ لأَنَّ عُقُولَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ... ضَاقَتْ بِحَمْلِ دَقَائِقِ الإِيمَانِ
وَغَدَتْ بَصَائِرُهُمْ كَخُفَّاشٍ أَتَى ... ضَوْءُ النَّهَارِ فَكَفَّ عَنْ طَيَرَانِ
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ ظَلاَمُهُ ... أَبْصَرْتَهُ يَسْعَى بِكُلِّ مَكَانِ
وَكَذَا عُقُولُكُمُ لَوِ اسْتَشْعَرْتُمُ ... يَا قَوْمِ كَالْحَشَرَاتِ وَالْفِيرَانِ
أَنِسَتْ بِإِيحَاشِ الظَّلاَمِ وَمَا لَهَا ... بِمَطَالِعِ الأَنْوَارِ قَطُّ يَدَانِ
لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ مُعَطِّلٌ ... لِعُلُوِّهِ وَصِفَاتِهِ الرَّحْمَنِ
لَزِمَتْكُمُ شِنَعٌ ثَلاَثٌ فَارْتَئُوا ... أَوْ خُلَّةٌ مِنْهُنَّ أَوْ ثِنْتَانِ
تَقْدِيمُهُمْ فِي الْعِلْمِ أَوْ فِي نُصْحِهِمْ ... أَوْ فِي الْبَيَانِ أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ
إِنْ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ حَقًّا فَقَدْ ... ضَلَّ الْوَرَى بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
إِذْ فِيهِمَا ضِدُّ الَّذِي قُلْتُمْ وَمَا ... ضِدَّانِ فِي الْمَعْقُولِ يَجْتَمِعَانِ
بَلْ كَانَ أَوْلَى أَنْ يُعَطَّلَ مِنْهُمَا ... وَيُحَالَ فِي عِلْمٍ وَفِي عِرْفَانِ
إِمَّا عَلَى جَهْمٍ وَجَعْدٍ أَوْ عَلَى النَّـ ... ـظَّامِ أَوْ ذِي الْمَذْهَبِ الْيُونَانِي
وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ لَهُمْ فَقْعُ الْفَلاَ ... صُمٌّ وَبُكْمٌ تَابِعُو الْعِمْيَانِ
وَكَذَاكَ أَفْرَاخُ الْقَرَامِطَةِ الأُولَى ... قَدْ جَاهَرُوا بِعَدَاوَةِ الرَّحْمَنِ
كَالْحَاكِمِيَّةِ وَالأُلَى وَالُوهُمُ ... كَأَبِي سَعِيدٍ ثُمَّ آلِ سِنَانِ
وَكَذَا ابْنُ سِينَا وَالنَّصِيرُ نَصِيرُ أَهْـ ... ـلِ الشِّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْكُفْرَانِ
وَكَذَاكَ أَفْرَاخُ الْمَجُوسِ وَشِبْهُهُمْ ... وَالصَّابِئِينَ وَكُلِّ ذِي بُهْتَانِ
إِخْوَانُ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَجُنْدُهُ ... لاَ مَرْحَبًا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ
أَفَمَنْ حِوَالَتُهُ عَلَى التَّنْزِيلِ وَالْـ ... ـوَحْيِ الْمُبِينِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ
كَمُحَيِّرٍ أَضْحَتْ حَوَالَتُهُ عَلَى ... أَمْثَالِهِ أَمْ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ
أَمْ كَيْفَ يَشْعُرُ تَائِهٌ بِمُصَابِهِ ... وَالْقَلْبُ قَدْ جُعِلَتْ لَهُ قُفْلاَنِ
قُفْلٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ ... قُفْلُ التَّعَصُّبِ كَيْفَ يَنْفَتِحَانِ

وَمَفَاتِحُ الأَقْفَالِ فِي يَدِ مَنْ لَهُ التَّـ ـصْرِيفُ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ
فَاسْأَلْهُ فَتْحَ الْقُفْلِ مُجْتَهِدًا عَلَى الْـ أَسْنَانِ إِنَّ الْفَتْحَ بِالأَسْنَانِ

الشرح

التاسع عشر: أن يقال للمعطل: هل تعترف أن مُحَمَّدًا ﷺ كان يعرف ربه؟ فلابد أن يقول نعم، فيقال له: هل كانت نصيحته لأمته كاملة تامة لا يُمكن أن يساويه فيها أحد؟ فلابد أن يقول: نعم، فيقال له: هل كان فصيحًا بليغًا مقتدرًا على التعبير عن المعاني المقصودة بالألفاظ الجَلية الفصيحة فمعاني كلامه أجل المعاني وألفاظه أفصح الألفاظ؟ فلابد أن يقول: نعم؛ لأن هذه الأمور الثلاثة في حق النَّبِي ﷺ لا يُمكن أن ينازع فيها مسلم يعظم الرسول، فإذا علم بالضرورة أن هذه الأمور الثلاثة قد كملت فيه على أكمل وجه كان من أعظم المحال أن يكتم ما يَجب لله من العلو والفوقية وصفات الكمال ويفصح بضد ذلك.

بل لما كان ﷺ كامل العلم بربه وبدينه فهو أعلم الخَلق وأخشاهم لربه وكان بالمُؤمنين رحيمًا أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأبلغ الخَلق وأقدرهم على التعبير على المَعاني النافعة، علمهم ﷺ ما لَمْ يكونوا يعلمون، وقد بين للناس جَميع ما يَحتاجون إليه.

خصوصًا الأمور المُهمة والعقائد الدينية والأصول الإيمانية، فلو كان الحَق فيما يقوله النفاة والنَّبِي ﷺ لَمْ يصرح بشيء منه بل صرح بضده وجعل الأمر موكولاً لعقول الناس وآرائهم الضعيفة لزم انتفاء هذه الأمور الثلاثة كلها، وهذا لا يفوه به مسلم يؤمن بالله ورسوله بل لما كان هذا الباب أنفع الأصول وأفرضها والناس مضطرون إليه صرح ﷺ بأنواعه وتفاصيله حَتَّى أن كثيرًا من الأئمة لَمْ يقل جَميع ما قاله الرسول في هذا الباب لا كتمانًا منهم، بل مراعاة لأحوال وقتهم وأهل زمانهم، وأن كثيرًا منهم لا تكاد أفهامهم تطيق وتَحتمل بعض الدقائق الإيمانية فلم يخبروا به للمصلحة، فالعلم يَجب بيانه إلا إذا اقتضت المُصلحة السكوت عن بعضه مراعاة لأهم الأمرين؛ فإن الشرع دائر مع المَصالح وتقديم راجحها على مرجوحها والله أعلم.

فصل

هَـذَا وَخَـاتِمُ الْعِشْـرِينَ وَجْهُهَـا ... وَهُـوَ أَقْرَبُهَـا إِلَـى الأَذْهَـانِ

سِـرُّ النُّصُـوصِ فَإِنَّهَـا قَـدْ نَوَّعَـتْ ... طُـرُقَ الأَدِلَّـةِ فِـي أَتَـمِّ بَيَـانِ

وَالـنَّظْمُ يَجْتَنِـي مِـنَ اسْـتِيفَائِهَا ... وَبِـيَاقَةُ الأَلْفَـاظِ بِـالْمِيزَانِ

فَأَشِـيرُ بَعْـضَ إِشَـارَةٍ لِمَوَاضِـعٍ ... مِنْهَـا وَأَيْـنَ الْبَحْـرُ مِـنْ عُلْجَـانِ

فَـاذْكُرْ نُصُـوصَ الاسْـتِوَاءِ فَإِنَّهَـا ... فِـي سَـبْعِ آيَـاتٍ مِـنَ الْقُـرْآنِ

وَاذْكُرْ نُصُـوصَ الْفَـوْقِ أَيْضًـا فِـي تَـلَا ... ثِ قَـدْ غَـدَتْ مَعْلُومَـةَ التِّبْيَـانِ

وَاذْكُـرْ نُصُـوصَ عُلُـوِّهِ فِـي خَمْسَـةٍ ... مَعْلُومَـةٍ بَرِئَـتْ مِـنَ النُّقْصَـانِ

وَاذْكُـرْ نُصُوصًـا فِـي الْكِتَـابِ تَضَمَّنَتْ ... لِلرِّبْلَـةِ مِـنْ رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

فَتَضَمَّنَتْ أَصْـلَيْنِ قَـامَ عَلَيْهِمَـا الْـ ... إِسْـلَامُ وَالإِيمَـانُ كَالْبُنْيَـانِ

كَـوْنُ الْكِتَـابِ كَلَامَـهُ سُـبْحَانَهُ ... وَعُلُـوُّهُ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

وَعِـدَادُهَا سَـبْعُونَ حِـينَ تَعُـدُّ أَوْ ... زَادَتْ عَلَـى السَّـبْعِينَ فِـي الْحُسْـبَانِ

وَاذْكُـرْ نُصُوصًـا ضَمَّنَتْ رَفْعًـا وَمَعْـ ... ـرَاجًا وَإِصْـعَادًا إِلَـى الدَّيَّانِ

هِـيَ خَمْسَـةٌ مَعْلُومَـةٌ بِالْعَـدِّ وَالْـ ... ـحُسْبَانِ فَاطْلُبْهَـا مِـنَ الْقُـرْآنِ

وَلَقَـدْ أَتَـى فِـي سُـورَةِ الْمُلْـكِ الَّتِـي ... لَتَجِـي لِقَارِئِهَـا مِـنَ الْبُرْهَانِ

نُصَّـانِ أَنَّ اللهَ فَـوْقَ سَـمَاتِهِ ... عِنْـدَ الْمُحَـرِّفِ مَـا هُمَـا نَصَّـانِ

وَلَقَـدْ أَتَـى التَّخْصِـيصُ بِالْعِنْـدِ الَّـذِي ... قُلْنَـا بِسَـبْعٍ بَـلْ أَتَـى بِثَمَـانِ

مِنْهَـا صَـرِيحٌ مَوْضِـعَانِ بِسُـورَةِ الْـ ... أَعْـرَافِ ثُـمَّ الأَنْبِيَـاءِ الثَّـانِي

فَـدَبِّرِ الْعَيْـنَ وَانْظُـرْ مَـا الَّـذِي ... لِـوَاهُ لَيْـسَ تَقْتَضِـي الْعُنْـوَانِ

وَبِسُـورَةِ التَّحْـرِيمِ أَيْضًـا نَالَـتْ ... بَـادِي الظُّهُـورِ لِمَـنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

وَلَدَيْـهِ فِـي مُزَّمِّـلٍ قَـدْ بَيَّنَـتْ ... نَفْـسُ الْمُـرَادِ وَقُيِّـدَتْ بَيَـانِ

لَا نَـقْصَ الْبَـاقِي فَمَـا لِمُعَطِّـلٍ ... مِـنْ رَاحَـةٍ فِيهَـا وَلَا تِبْيَـانِ

وَبِسُـورَةِ الشُّـورَى وَفِـي مُزَّمِّـلٍ ... سِـرٌّ عَظِـيمٌ شَـأْنُهُ ذُو شَـانِ

فِـي ذِكْـرِ لَفْـظِ السَّـمَاءِ فَمَـنْ يَـرِدْ ... عِلْمًـا بِـهِ فَهُـوَ الْقَرِيـبُ الدَّانِي

لَمْ يَسْمَحِ الْمُتَأَخِّرُونَ بِنَقْلِهِ ... جُبْنًا وَضَعْفًا عَنْهُ فِي الإِيمَانِ

بَلْ قَالَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ فَوَارِسُ الْـ ... ـإِسْلَامِ هُمْ أُمَرَاءُ هَذَا الشَّانِ

وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرِ الطَّبَرِي فِي ... تَفْسِيرِهِ حُكِيَتْ بِهِ الْقَوْلَانِ

الشرح

العشرون: من البراهين الدالة على علو الله على خلقه واستوائه على عرشه الدليل العظيم والبرهان القاطع، وهو ما يحصل من مجموع الأدلة السابقة وغيرها؛ فإنه يحصل من سرد أنواعها وأفرادها ونصوصها وقواطعها ما يوصل إلى اليقين الاضطراري والعلم الضروري الذي لا يُمكن دفعه ويحصل الجزم التام الذي لا ريب فيه بعلو الله وارتفاعه واستوائه على عرشه.

وأشار المؤلف إليها في هذا الموضع إشارة لطيفة تعرف مما تقدم، وذلك أن واحدًا من الأدلة يفيد العلم بالمقصود ثُمَّ الآخر كذلك ثُمَّ يستفاد من انضمام أحدهما للآخر دلالة أخرى ثُمَّ مجموع الجميع دلالة هي أقوى أنواع الدلالات فتتزايد شواهد الإيمان وتتعاون أدلته حتَّى يكون الإيمان في القلب أرسخ من الجبال.

فصل

هَذَا وَحَادِيهَا وَعِشْرُونَ الَّذِي ... قَدْ جَاءَ فِي الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

إِلْيَانُ رَبِّ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَمَجِيئُهُ لِلْفَصْلِ بِالْمِيزَانِ

فَانْظُرْ إِلَى التَّقْسِيمِ وَالتَّنْوِيعِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ تُلْفِيهِ صَرِيحَ بَيَانِ

إِنَّ الْمَجِيءَ لِذَاتِهِ لاَ أَمْرِهِ ... كَلاَّ وَلاَ مَلَكٍ عَظِيمِ الشَّانِ

إِذْ ذَانِكَ الأَمْرَانِ قَدْ ذُكِرَا وَبَيْـ ... ـنَهُمَا مَجِيءُ الرَّبِّ ذِي الْغُفْرَانِ

وَاللهِ مَا احْتَمَلَ الْمَجِيءُ سِوَى مَجِي ... ءِ الذَّاتِ بَعْدَ تَبَيُّنِ الْبُرْهَانِ

مِنْ أَيْنَ يَأْتِي يَا أُولِي الْمَعْقُولِ إِنْ ... كُنْتُمْ ذَوِي عَقْلٍ مَعَ الْعِرْفَانِ

مِنْ فَوْقِنَا أَوْ تَحْتِنَا أَوْ عَنْ شِمَا ... لِنَا وَمِنْ خَلْفٍ وَعَنْ أَيْمَانِ

وَاللهِ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ تَحْتِهِمْ ... أَبَدًا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
كَلَّا وَلَا مِنْ خَلْفِهِمْ ... وَعَنِ الشَّمَائِلِ أَوْ عَنِ الأَيْمَانِ
وَاللهِ لَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا مِنَ الْـ ... ـعُلْوِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

الشرح

الْحَادي والعشرون: أنه ورد في الكتاب والسنة ذكر مَجيء الله للفصل بين عباده كما في قوله تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[1]. فهذا التنويع والتقسيم المُصرح بِمجيء المَلائكة ثُمَّ مَجيء الله ثُمَّ مَجيء بعض آياته يَمنع تأويله بأنه يأتي أمره أو ملك من المَلائكة، وأنه من باب تَحريف الكلم عن مواضعه؛ لأن الأمرين صرح بذكرهما وصرح بينهما بذكر مَجيئه فلم يبق للاحتمال موضع بوجه، فإذا ثبت وتقرر مَجيئه كان معلومًا أنه يأتيهم من فوقهم لا من بقية جهاتهم كما تقدم في الرؤية.

فصل

في الإشارة إلى ذلك من السنة

وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ تَضَمَّنَتْ ... كَلِمَاتُهُ تَكْذِيبَ ذِي الْبُهْتَانِ
لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلِيقَةَ رَبُّنَا ... كَتَبَتْ يَدَاهُ كِتَابَ ذِي الإِحْسَانِ
وَكِتَابُهُ هُوَ عِنْدَهُ وَضْعٌ عَلَى الْـ ... ـعَرْشِ الْمَجِيدِ الثَّابِتِ الأَرْكَانِ
إِنِّي أَنَا الرَّحْمَنُ تَسْبِقُ رَحْمَتِي ... غَضَبِي وَذَاكَ لِرَأْفَتِي وَحَنَانِي
وَلَقَدْ أَشَارَ نَبِيُّنَا فِي خُطْبَةٍ ... نَحْوَ السَّمَاءِ بِأَصْبُعٍ وَبَنَانِ
مُسْتَشْهِدًا رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... لِيَرَى وَيَسْمَعَ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ
أَتُرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَشْهِدًا ... أَمْ لِلَّذِي هُوَ فَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ
وَلَقَدْ أَتَى فِي رُقْيَةِ الْمَرْضَى عَنِ الْـ ... ـنَصِّ هَادِي الْمُبِينِ أَتَمُّ مَا تِبْيَانِ

---

(١) [الأنعام: ١٥٨].

بِأَنَّ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... فَاسْمَعْهُ إِنْ سَمَحَتْ[1] لَكَ الأَذْنَانِ

وَلَقَدْ أَتَى خَبَرٌ رَوَاهُ عُمُّهُ الْـ ... ـعَبَّاسُ صَوْبَ أَبِيهِ ذُو الإِحْسَانِ

أَنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا مِنْ فَوْقِهَا الْـ ... ـكُرْسِي عَلَيْهِ الْعَرْشُ لِلرَّحْمَنِ

وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ يَنْظُرُ خَلْقَهُ ... فَالنَّظْرَةُ إِنْ سَمَحَتْ لَكَ الْعَيْنَانِ

وَاذْكُرْ حَدِيثَ حُصَيْنِ بْنِ الْمُنْذِرِ الرَّ ... قَّةِ الرِّضَا أَعْنِي أَبَا عِمْرَانِ

إِذْ قَالَ رَبِّي فِي السَّمَاءِ لِرَغْبَتِي ... وَلِرَهْبَتِي أَدْعُوهُ كُلَّ أَوَانِ

فَأَقَرَّهُ الْهَادِي الْبَشِيرُ وَلَمْ يَقُلْ ... أَنْتَ الْمُجَسِّمُ قَائِلٌ بِمَكَانِ

حَيَّرْتَ بَلْ جَهَّلْتَ بَلْ شَبَّهْتَ بَلْ ... جَسَّمْتَ لَسْتَ بِعَارِفِ الرَّحْمَنِ

هَذِي مَقَالَتُهُمْ لِمَنْ قَدْ قَالَ مَا ... قَدْ قَالَهُ حَقًّا أَبُو عِمْرَانِ

فَاللهُ يَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْهُمْ وَمِنْ ... أَتْبَاعِهِمْ فَالْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ

وَاذْكُرْ شَهَادَتَهُ لِمَنْ قَدْ قَالَ رَبْـ ... ـبِي فِي السَّمَا بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ

وَشَهَادَةَ الْعَدْلِ الْمُعَطِّلِ لِلَّذِي ... قَدْ قَالَ ذَا بِحَقِيقَةِ الْكُفْرَانِ

وَاحْكُمْ بِأَيِّهِمَا تَشَاءُ وَإِنَّنِي ... لأَرَاكَ تَقْبَلُ شَاهِدَ السُّلْطَانِ

إِنْ كُنْتَ مِنْ أَتْبَاعِ جَهْمٍ صَاحِبِ التَّـ ... ـعْطِيلِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

وَاذْكُرْ حَدِيثًا لابْنِ إِسْحَاقَ الرِّضَا ... ذَاكَ الصَّدُوقُ الْحَافِظُ الرَّبَّانِي

فِي قِصَّةِ امْتِحَانِهِمْ يَسْتَدْفِعُو ... نَ إِلَى الرَّسُولِ بِرَبِّهِ الْمَنَّانِ

فَاسْتَعْظَمَ الْمُخْتَارُ ذَاكَ وَقَالَ شَأْـ ... ـنُ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ أَعْظَمُ شَأْنِ

اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ فَوْقَ سَمَائِهِ ... سُبْحَانَ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ

وَلِعَرْشِهِ مِنْهُ أَطِيطٌ مِثْلَ مَا ... قَدْ أَطَّ رَحْلُ الرَّاكِبِ الْعَجْلَانِ

لِلَّهِ مَا لِقِي ابْنُ إِسْحَاقَ مِنَ الْـ ... ـجَهْمِي إِذْ يَرْمِيهِ بِالْعُدْوَانِ

وَيَظَلُّ يَمْدَحُهُ إِذَا كَانَ الَّذِي ... يَرْوِي يُوَافِقُ مَذْهَبَ الطَّعَّانِ

كَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْهُمُ أَمْثَالَ ذَا ... فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الشَّانِ

هَذَا هُوَ التَّطْفِيفُ لاَ التَّطْفِيفُ فِي ... ذَرْعٍ وَلاَ كَيْلٍ وَلاَ مِيزَانِ

---

(١) كذا في (ح) أما في (ط) [سمعت].

وَاذْكُرْ حَدِيثَ نُزُولِهِ نِصْفَ الدُّجَى ... فِي ثُلُثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِ
فَنُزُولُ رَبٍّ لَيْسَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... فِي الْعَقْلِ مُمْتَنِعٌ وَفِي الْقُرْآنِ
وَاذْكُرْ حَدِيثَ الصَّادِقِ ابْنِ رَوَاحَةٍ ... فِي شَأْنِ جَارِيَةٍ لَدَى الْغَشَيَانِ
فِيهِ الشَّهَادَةُ أَنَّ عَرْشَ اللهِ فَوْ ... قَ السَّمَاءِ خَارِجَ هَذِهِ الْأَكْوَانِ
وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْيِ ذِي الْبُهْتَانِ
ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي اسْتِيعَابِهِ ... هَذَا وَصَحَّحَهُ بِلَا نُكْرَانِ
وَحَدِيثُ مِعْرَاجِ الرَّسُولِ فَثَابِتٌ ... وَهُوَ الصَّرِيحُ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ
وَإِلَى إِلَهِ الْعَرْشِ كَانَ عُرُوجُهُ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْ صَحْبِهِ رَجُلَانِ
وَاذْكُرْ بِقِصَّةِ خَنْدَقٍ حُكْمًا جَرَى ... لِقُرَيْظَةٍ مِنْ سَعْدٍ الرَّبَّانِي
شَهِدَ الرَّسُولُ بِأَنَّ حُكْمَ إِلَهِنَا ... مِنْ فَوْقِ سَبْعٍ وَفْقَهُ بِوِزَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثًا لِلْبَرَاءِ رَوَاهُ أَصْـ ... ـحَابُ الْمَسَانِدِ مِنْهُمُ الشَّيَانِي
وَأَبُو عَوَانَةَ ثُمَّ حَاكِمُنَا الرِّضَا ... وَأَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ الرَّبَّانِي
قَدْ صَحَّحُوهُ وَفِيهِ نَصٌّ ظَاهِرٌ ... مَا لَمْ يُحَرِّفْهُ أُولُو الْعُدْوَانِ
فِي شَأْنِ رُوحِ الْعَبْدِ عِنْدَ وَدَاعِهَا ... وَفِرَاقِهَا لِمَسَاكِنِ الْأَبْدَانِ
فَتَظَلُّ تَصْعَدُ فِي سَمَاءٍ فَوْقَهَا ... أُخْرَى إِلَى خَلَّاقِهَا الرَّحْمَنِ
حَتَّى تَصِيرَ إِلَى سَمَاءٍ رَبُّهَا ... فِيهَا وَهَذَا نَصُّهُ بِأَمَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ وَفِيـ ... ـهِ تَحْذِيرٌ لِذَاتِ الْبَعْلِ مِنْ هِجْرَانِ
مِنْ سُخْطِ رَبٍّ فِي السَّمَاءِ عَلَى الَّتِي ... هَجَرَتْ بِلَا ذَنْبٍ وَلَا عُدْوَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ جَابِرٌ ... فِيهِ الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الْإِيمَانِ
فِي شَأْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا وَمَا ... يَلْقَوْنَ مِنْ فَضْلٍ وَمِنْ إِحْسَانِ
بَيْنَاهُمْ فِي عَيْشِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ ... وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعِ الْغَشَيَانِ
لَكِنَّهُمْ رَفَعُوا إِلَيْهِ رُءُوسَهُمْ ... فَإِذَا هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الْغُفْرَانِ
فَيُسَلِّمُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَيْهِمْ وَهُوَ ذُو الْإِحْسَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ الشَّافِعِي ... ي طَرِيقُهُ فِيهِ أَبُو الْيَقْظَانِ

فِي فَضْلِ يَوْمِ الْجُمْعَةِ الْيَوْمِ الَّذِي ... بِالْفَضْلِ قَدْ شَهِدَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ

يَوْمُ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

وَاذْكُرْ مَقَالَتَهُ أَلَسْتُ أَمِينَ مَنْ ... فَوْقَ السَّمَاءِ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

وَاذْكُرْ حَدِيثَ أَبِي رُزَيْنٍ ثُمَّ سُقْـ ... ـهُ بِطُولِهِ كَمْ فِيهِ مِنْ عِرْفَانِ

وَاللهِ مَا لِمُعَطِّلِي بِسَمَاعِهِ ... أَبَدًا قُوًى إِلَّا عَلَى الْكُفْرَانِ

فَأُصُولُ دِينِ نَبِيِّنَا فِيهِ أَتَتْ ... فِي غَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

وَبِطُولِهِ قَدْ سَاقَهُ ابْنُ إِمَامِنَا ... فِي سُنَّةٍ وَالْحَافِظُ الطَّبَرَانِي

وَكَذَا أَبُو بَكْرٍ بِتَارِيخٍ لَهُ ... وَأَبُوهُ ذَاكَ زُهَيْرٌ الرِّبْعِي

وَاذْكُرْ كَلَامَ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ ... أَقِمِ الصَّلَاةَ وَتِلْكَ مِنْ سُبْحَانِ

فِي ذِكْرِ تَفْسِيرِ الْمَقَامِ لأَحْمَدٍ ... مَا قِيلَ ذَا بِالرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

إِنْ كَانَ لَجْمًا فَإِنَّ مُجَاهِدًا ... هُوَ شَيْخُهُمْ بَلْ شَيْخُهُ الْفَوْقَانِي

وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ الْجُلُوسِ بِهِ وَفِي ... أَثَرٍ رَوَاهُ جَعْفَرٌ الرِّبْعِي

أَعْنِي ابْنَ عَمِّ نَبِيِّنَا وَبِغَيْرِهِ ... أَيْضًا أَتَى وَالْحَقُّ ذُو التِّبْيَانِ

وَالدَّارَقُطْنِي الإِمَامُ بَيَّنَ أَنَّ ... آثَارَ فِي ذَا الْبَابِ غَيْرَ جَبَانِ

وَلَهُ قَصِيدَةٌ ضَمَّنَتْ هَذَا وَفِيـ ... ـهَا لَسْتُ لِلْمَرْوِي ذَا لَكِرَانِ

وَجَرَتْ لِذَلِكَ فِتْنَةٌ فِي وَقْتِهِ ... مِنْ فِرْقَةِ التَّعْطِيلِ وَالْعُدْوَانِ

وَاللهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَرَسُولِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

لَكِنْ بِمِحْنَةِ حِزْبِهِ مِنْ حِزْبِهِ ... ذَا حِكْمَةٌ مُذْ كَانَتِ الْفِتَنَانِ

وَقَدِ اقْتَصَرْتُ عَلَى يَسِيرٍ مِنْ كَثِيـ ... ـرٍ فَاتَ لِلْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

مَا كُلُّ هَذَا قَابِلُ التَّأْوِيلِ بِالتَّـ ... ـحْرِيفِ فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ

الشرح

أشار المُصنف -رحمه الله- في هذا الفصل إلى بعض ما تضمنته الأحاديث النبوية من علو الله تعالى واستوائه على عرشه، وقد بسط الأدلة في ذلك والآثار في كتابه الجيوش

الإسلامية فليرجع إليه من أحب الوقوف عليه، وذكر في آخر الفصل حين أشار إليها أن هذه الأدلة الكثيرة المتنوعة لا تقبل التأويل بوجه من الوجوه وأن تأويلها من باب تحريف الكلم عن مواضعه.

فصل

في جناية التأويل على ما جاء به الرسول

والفرق بين المردود منه والمقبول

هَذَا وَأَصْلُ بَلِيَّةِ الإِسْلَامِ مِنْ ... تَأْوِيلِ ذِي التَّحْرِيفِ وَالبُطْلَانِ

وَهُوَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ السَّبْعِينَ بَلْ ... زَادَتْ ثَلَاثًا قَوْلَ ذِي البُرْهَانِ

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الخَلِيفَةَ جَامِعَ الـ ... ـقُرْآنِ ذَا النُّورَيْنِ وَالإِحْسَانِ

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الخَلِيفَةَ بَعْدَهُ ... أَعْنِي عَلِيًّا قَاتِلَ الأَقْرَانِ

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الحُسَيْنَ وَأَهْلَهُ ... فَغَدَوْا عَلَيْهِ مُمَزَّقِي اللُّحْمَانِ

وَهُوَ الَّذِي فِي يَوْمِ حَرَّتِهِمْ أَبَا ... حَ حِمَى المَدِينَةِ مَعْقِلَ الإِيمَانِ

حَتَّى جَرَتْ تِلْكَ الدِّمَاءُ كَأَنَّهَا ... فِي يَوْمِ عِيدِ سُنَّةِ القُرْبَانِ

وَغَدَا لَهُ الحَجَّاجُ يَسْفِكُهَا وَيَقْـ ... ـتُلُ صَاحِبَ الإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

وَجَرَى بِمَكَّةَ مَا جَرَى مِنْ أَجْلِهِ ... مِنْ عَسْكَرِ الحَجَّاجِ ذِي العُدْوَانِ

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَا الخَوَارِجَ مِثْلَ إِنْـ ... ـشَاءِ الرَّوَافِضِ أَخْتِ الخَوَّانِ

وَلأَجْلِهِ شَتَمُوا جِهَارَ الخَلْقِ بَعْـ ... ـدَ الرَّسُولِ بِالعُدْوَانِ وَالبُهْتَانِ

وَلأَجْلِهِ سَلَّ الغُثَاةُ سُيُوفَهُمْ ... فَكَبَا بِأَيْهِمُ ذَوُو إِحْسَانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ قَالَ أَفْضَلُ الإِغْـ ... ـزَالِ مَقَالَةً هَدَّتْ قُوَى الإِيمَانِ

وَلأَجْلِهِ قَالُوا بِأَنَّ كَلَامَهُ ... سُبْحَانَهُ خَلْقٌ مِنَ الأَكْوَانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ كَذَّبَتْ بِقَضَائِهِ ... شِبْهُ المَجُوسِ الْعَابِدِي النِّيرَانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ خَلَّدُوا أَفْضَلَ الكَبَا ... ئِرِ فِي الجَحِيمِ كَعَابِدِي الأَوْثَانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ أَنْكَرُوا لِلشَّفَاعَةِ الـ ... ـمُخْتَارِ فِيهِمْ غَايَةَ النُّكْرَانِ

وَلأَجْلِهِ ضَرَبَ الإِمَامُ بِسَوْطِهِمْ ... صِدِّيقُ أَهْلِ السُّنَّةِ الشَّيْبَانِي

وَلأَجْلِهِ قَدْ قَالَ جَهْمٌ لَيْسَ رَبْـ ... ـبُ الْعَرْشِ خَارِجَ هَذِهِ الأَكْوَانِ

كَلاَّ وَلاَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلاَ ... وَالْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلاَ رَحْمَنِ

مَا فَوْقَهَا رَبٌّ يُطَاعُ جِنَاهُنَا ... نَهْوِي لَهُ بِسُجُودِ ذِي خُضْعَانِ

وَلأَجْلِهِ جُحِدَتْ صِفَاتُ كَمَالِهِ ... وَالْعَرْشُ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَلأَجْلِهِ أَفْنَى الْجَحِيمَ وَجَنَّةَ الْـ ... ـمَأْوَى مَقَالَةَ كَاذِبٍ فَتَّانِ

وَلأَجْلِهِ قَالُوا الإِلَهُ مُعَطِّلٌ ... أَزَلاً بِغَيْرِ نِهَايَةٍ وَزَمَانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ قَالَ لَيْسَ لِفِعْلِهِ ... مِنْ غَايَةٍ هِيَ حِكْمَةُ الدَّيَّانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ كَذَّبُوا بِنُزُولِهِ ... نَحْوَ السَّمَاءِ بِنِصْفِ لَيْلٍ ثَانِ

وَلأَجْلِهِ زَعَمُوا الْكِتَابَ عِبَارَةً ... وَحِكَايَةً عَنْ ذَلِكَ الْقُرْآنِ

مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ سِوَى الْمَخْلُوقِ وَالْـ ... ـقُرْآنُ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الرَّحْمَنِ

مَا ذَا كَلاَمُ اللهِ قَطُّ حَقِيقَةً ... لَكِنْ مَجَازٌ وَبِحُ ذَا الْبُهْتَانِ

وَلأَجْلِهِ قُتِلَ ابْنُ نَصْرٍ أَحْمَدٌ ... ذَاكَ الْخُزَاعِيُّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

إِذْ قَالَ ذَا الْقُرْآنُ نَفْسُ كَلاَمِهِ ... مَا ذَاكَ مَخْلُوقٌ مِنَ الأَكْوَانِ

وَهُوَ الَّذِي جَرَّ ابْنَ سِينَا وَالأُلَى ... قَالُوا مَقَالَتَهُ عَلَى الْكُفْرَانِ

فَتَأَوَّلُوا خَلْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلاَ ... وَحُدُوثَهَا بِحَقِيقَةِ الإِمْكَانِ

وَتَأَوَّلُوا عِلْمَ الإِلَهِ وَقَوْلَهُ ... وَصِفَاتِهِ بِالسَّلْبِ وَالْبُطْلاَنِ

وَتَأَوَّلُوا الْبَعْثَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ ... رُسُلُ الإِلَهِ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ

بِفِرَاقِهَا لِعَنَاصِرٍ قَدْ رُكِّبَتْ ... حَتَّى تَعُودَ بَسِيطَةَ الأَرْكَانِ

وَهُوَ الَّذِي جَرَّ الْقَرَامِطَةَ الأُلَى ... يَتَأَوَّلُونَ شَرَائِعَ الإِيمَانِ

فَتَأَوَّلُوا الْعَسَلِيَّ مِثْلَ تَأَوُّلِ الْـ ... ـعِلْمِيِّ عِنْدَكُمُ بِلاَ فُرْقَانِ

وَهُوَ الَّذِي جَرَّ النَّصِيرَ وَحِزْبَهُ ... حَتَّى أَتَوْا بِعَسَاكِرِ الْكُفْرَانِ

فَجَزَى عَلَى الإِسْلاَمِ أَعْظَمَ مِحْنَةٍ ... وَحِمَارُهَا فِينَا إِلَى ذَا الآنِ

وَجَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ بِدَعٍ وَأَحْـ ... ـدَاثٍ لِخَالِفُ مُوجَبَ الْقُرْآنِ

فَأَسَاسُهَا التَّأْوِيلُ ذُو الْبُطْلاَنِ لاَ ... تَأْوِيلُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

إِذْ ذَاكَ تَفْسِيرُ الْمُرَادِ وَكَشْفُهُ ... وَبَيَانُ مَعْنَاهُ إِلَى الْأَذْهَانِ

قَدْ كَانَ أَعْلَمَ خَلْقِهِ بِكَلَامِهِ ... صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ كُلَّ أَوَانِ

يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ عِنْدَ رُكُوعِهِ ... وَسُجُودِهِ لِأُولِي ذِي بُرْهَانِ

هَذَا الَّذِي قَالَتْهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِ ... نَ حِكَايَةً عَنْهُ لَهَا بِلِسَانِ

فَانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيلِ مَا تَعْنِي بِهِ ... خَبَرُ النِّسَاءِ وَأَفْقَهُ النِّسْوَانِ

أَتُظَنُّهَا تَعْنِي بِهِ صَرْفًا عَنِ الْـ ... ـمَعْنَى الْقَوِيِّ لِغَيْرِ ذِي الرُّجْحَانِ

وَانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيلِ حِينَ يَقُولُ عَلْـ ... ـقَمَةُ لِعَبْدِ اللهِ فِي الْقُرْآنِ

مَاذَا أَرَادَ بِهِ سِوَى تَفْسِيرِهِ ... وَظُهُورِ مَعْنَاهُ لَهُ بَيَانِ

قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ التَّأْوِيلُ لَا ... تَأْوِيلُ جَهْمِيٍّ أَخِي بُهْتَانِ

وَحَقِيقَةُ التَّأْوِيلِ مَعْنَاهُ الرَّجُو ... عُ إِلَى الْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْبُطْلَانِ

وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الْتِّمَامِ حَقِيقَةُ الْـ ... ـأَمْرِ لَا التَّخْرِيفُ بِالْهُتَّانِ

وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الَّذِي قَدْ أَخْبَرَتْ ... رُسُلُ الْإِلَهِ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ

تَفْسِيرُ الْحَقِيقَةِ إِذْ تُشَاهِدُهَا لَدَى ... يَوْمِ الْمَعَادِ بِرُؤْيَةٍ وَعِيَانِ

لَا خُلْفَ بَيْنَ أَئِمَّةِ التَّفْسِيرِ فِي ... هَذَا وَذَلِكَ وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

هَذَا كَلَامُ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... وَأَئِمَّةِ التَّفْسِيرِ لِلْقُرْآنِ

تَأْوِيلُهُ هُوَ عِنْدَهُمْ تَفْسِيرُهُ ... بِالظَّاهِرِ الْمَفْهُومِ لِلْأَذْهَانِ

مَا قَالَ مِنْهُمْ قَطُّ شَخْصٌ وَاحِدٌ ... تَأْوِيلُهُ صَرْفٌ عَنِ الرُّجْحَانِ

كَلَّا وَلَا تَفْسِيرُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا وَلَا ... عَزْلُ النُّصُوصِ عَنِ الَّذِي قَدْ كَانَ

تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمَرْدُودِ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ الْعِرْفَانِ وَالْإِيمَانِ

وَهُوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِي بُطْلَانِهِ ... وَاللهُ يَقْضِي فِيهِ بِالْبُطْلَانِ

فَجَعَلْتُمُ اللَّفْظَ مُعْتَبَرًا وَمَعْـ ... ـنَاهُ لَدَيْهِمْ بِاصْطِلَاحٍ ثَانِ

وَجَعَلْتُمُ لَفْظَ الْكِتَابِ عَلَيْهِ حَتْـ ... ـمًا لَيْسَ جَاءَكُمْ مِنْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ

كَذِبٌ عَلَى الْأَلْفَاظِ مَعْ كَذِبٍ عَلَى ... مَنْ قَالَهَا كَذِبَانِ مَقْبُوحَانِ

وَلَأَهْوَنُ الْأَمْرَيْنِ أَقْبَحُ مِنْهُمَا ... جَحْدُ الْهُدَى وَشَهَادَةُ الْبُهْتَانِ

إذْ يشهدونَ الزُّورَ أنَّ مُرادَهُ غيرُ الحقيقةِ وهْيَ ذُو بُطلانِ

الشرح

لا يرتاب عارف أن جَميع المَصائب الَّتي جرت في صدر الإسلام وبعد ذلك وقوع الفتن والاقتتال والتحريات كلها متفرعة عن التأويل الباطل الذي لا ينتج إلا شرًا فالتأويل الباطل سبب فتن الأقوال والبدع الاعتقادية، والفتن الفعلية، فلم يزل التأويل يتوسع، وكل بدعة متأخرة تحدث من التأويلات الباطلة غير ما أحدثته الَّتي قبلها، حَتَّى وصلت النوبة إلَى ابن سينا وأتباعه، فتأولوا جَميع الشرائع العلمية والعملية، وأبطل القرامطة جَميع الشرع، وفسروا شرائعه الكبار بتفاسير يعلم الصبيان بطلانها.

فهذه البدع أصلها الذي تأسست عليه التأويل الباطل المردود.

وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله بالطرق المُوصلة إلَى ذلك فهذه طريقة الصحابة والتابعين لَهم بإحسان، وهي الَّتي أمر الله ورسوله بِهَا ومدح أهلها، وكذلك التأويل الذي هو بِمعنَى ما يؤل إليه الأمر من العمل بأمر الله ومن فهم ما يؤل إليه الخبر، فلفظ «التأويل» في الكتاب والسنة الغالب عليه هذان الأمران: إما نفس وقوع ما أخبر الله به ورسوله، وإما العمل بِمَا أمر الله به ورسوله.

فالأول: راجع إلَى التصديق.

والثاني: راجع إلَى الطاعة والإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله هو الخَير كله وسبب السعادة والفلاح.

فتبين أن التأويل الصحيح كله يعود إلَى فهم مراد الله ورسوله، وإلَى العمل بالخَير، وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ويراد به صرف النصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله، إلَى بدعهم وضلالهم، وهو من أعظم ما يدخل في القول على الله بلا علم وقول غير الحَق.

وكل من ادعى تأويلًا يُخالف اللفظ لَمْ تصح دعواه إلا بأربعة أمور لو اختل واحد منها فتأويله باطل:

أحدها: أن يأتي بدليل يدل على قوله؛ لأنه خلاف الأصل؛ فإن الأصل حمل اللفظ على

ظاهره وحقيقته، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه البرهان.

فإذا أتى بدليل طولب بأمر ثان وهو أن ذلك الذي تأوله إلى ذلك المعنى يحتمله، لأنه لابد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب؛ لأنه باللسان العربي أنزله الله ليعقله العباد إذا تدبروا ألفاظه، فهل يُمكن أن يعقلوا أو يفهموا ما ليس له ارتباط ودلالة على المعاني من ذات اللفظ ونفس العبارة بحيث لا يحتاجون إلى أمور خارجه.

فإذا أتى بما يدل ويحتمل ذلك المعنى الذي عينه وهيهات له ذلك طولب بأمر ثالث وهو تعيينه المعنى الذي تأول اللفظ له، فهب أن ظاهره غير مراد فلابد من دليل يعين المعنى الذي صرفه إليه وخصصه به، فإن التخصيص من دون دليل من باب التكهن والتخرص؛ لأن اللفظ لا يدل عليه بخصوصه، فقد يكون القصد به معنى غير الذي عينوه وقد يكون اللفظ متعبدًا بتلاوته ولفظه مجردًا عن المعاني، وهو أولى من تحريفهم أو إتيانهم بمعان ما أنزل الله بها من سلطان، وإن كان الأمران ينافيان حكمة الباري، لكن التعبد أهون من التحريف.

فإن فرض أنه تأول على غير ظاهره وأتى بدليل على الاحتمال وعلى التعين طولب بأمر رابع وهو الجواب عن المعارض؛ لأن الدعوى لا تتم إلا بذلك، والمعارض للنفي هو جميع الأدلة النقلية من الكتاب والسنة والأدلة العقلية والفطرة كما تقدمت الإشارة إليها، ومن المستحيل أن يعارض وحيه وتنزيله وقول رسوله وأصحابه والتابعين بإحسان بأقوال النفاة الذين بنوا أمرهم على المحال.

فتبين أن المعطلين النافين لا سبيل لهم إلى إثبات قولهم أبدًا بوجه من الوجوه وهو المطلوب.

فصل

فيما يلزم مدعي التأويل لتصحيح دعواه

وَعَلَيْكُمُ فِي ذَا وَظَائِفُ أَرْبَعٌ ... وَاللهِ لَيْسَ لَكُمْ بِهِنَّ يَدَانِ

مِنْهَا دَلِيلٌ صَارِفٌ لِلَّفْظِ عَنْ ... مَوْضُوعِهِ الأَصْلِي بِالبُرْهَانِ

إِذْ مُدَّعِي نَقْلِ الحَقِيقَةِ مُدَّعٍ ... لِلأَصْلِ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى بُرْهَانِ

فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكُمْ دَلِيلُ الصَّرْفِ يَا ... هَيْهَاتَ طُولِبْتُمْ بِأَمْرٍ ثَانِ

وَهُوَ احْتِمَالُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى الَّذِي ... قُلْتُمْ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالتِّبْيَانِ
فَإِذَا أَتَيْتُمْ ذَاكَ طُولِبْتُمْ بِأَمْـ ... ـرٍ ثَالِثٍ مِنْ بَعْدِ هَذَا الثَّانِي
إِذْ قُلْتُمْ أَنَّ الْمُرَادَ كَذَا فَمَا ... ذَا ذَلِكُمْ أَتَخَرُّصُ الْكُهَّانِ
هَبْ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدِ الْمَوْضُوعَ لَـ ... ـكِنْ قَدْ يَكُونُ الْقَصْدُ مَعْنًى ثَانِ
غَيْرَ الَّذِي عَيَّنْتُمُوهُ وَقَدْ يَكُو ... نُ اللَّفْظُ مَقْصُودًا بِدُونِ مَعَانِ
لِتَعَبُّدٍ وَتِلَاوَةٍ وَيَكُونُ ذَا ... كَ الْقَصْدُ أَنْفَعَ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ
مِنْ قَصْدِ تَحْرِيفٍ لَهَا يُسْمَى بِتَأْ ... وِيلٍ مَعَ الْإِتْعَابِ لِلْأَذْهَانِ
وَاللهِ مَا الْقَصْدَانِ فِي حَدٍّ سَوَا ... فِي حِكْمَةِ الْمُتَكَلِّمِ الْمَنَّانِ
بَلْ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ تُبْطِلُ قَصْدَهُ التَّـ ... ـحْرِيفَ حَاشَا حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ تُبْطِلُ قَصْدَهُ إِنْزَالَهَا ... مِنْ غَيْرِ مَعْنًى وَاضِحِ التِّبْيَانِ
وَهُمَا طَرِيقَا فِرْقَتَيْنِ كِلَاهُمَا ... عَنْ مَقْصِدِ الْقُرْآنِ مُنْحَرِفَانِ

فصل

في طريقة ابن سينا وذويه من الملاحدة في التأويل

وَأَتَى ابْنُ سِينَا بَعْدَ ذَا بِطَرِيقَةٍ ... أُخْرَى وَلَمْ يَأْنَفْ مِنَ الْكُفْرَانِ
قَالَ الْمُرَادُ حَقَائِقُ الْأَلْفَاظِ تَخْـ ... ـيِيلًا وَتَقْرِيبًا إِلَى الْأَذْهَانِ
عَجَزَتْ عَنِ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعْقُولِ إِلَّا ... فِي مِثَالِ الْحِسِّ كَالصِّبْيَانِ
كَيْ يَبْرُزَ الْمَعْقُولَ فِي صُورٍ مِنَ الْـ ... ـمَحْسُوسِ مَقْبُولًا لَدَى الْأَذْهَانِ
فَتَسَلُّطُ التَّأْوِيلِ إِبْطَالٌ لِهَـ ... ـذَا الْقَصْدِ وَهْوَ جِنَايَةٌ مِنْ جَانِ
هَذَا الَّذِي قَدْ قَالَهُ مَعَ نَفْيِهِ ... لِحَقَائِقِ الْأَلْفَاظِ فِي الْأَذْهَانِ
وَطَرِيقَةُ التَّأْوِيلِ أَيْضًا قَدْ غَدَتْ ... مُشْتَقَّةً مِنْ هَذِهِ الْخُلْجَانِ
وَكِلَاهُمَا اتَّفَقَا عَلَى أَنَّ الْحَقِيـ ... ـقَةَ مُنْتَفٍ مَضْمُونُهَا بِبَيَانِ
لَكِنْ قَدِ اخْتَلَفَا فَعِنْدَ فَرِيقِكُمْ ... مَا إِنْ أُرِيدَتْ قَطُّ بِالتِّبْيَانِ
لَكِنَّ عِنْدَهُمُ أُرِيدَ ثُبُوتُهَا ... فِي الذِّهْنِ إِذْ عُدِمَتْ مِنَ الْإِحْسَانِ

إِذْ ذَاكَ مَصْلَحَةُ الْمُخَاطَبِ عِنْدَهُمْ ... وَطَرِيقَةُ الْبُرْهَانِ أَنْتَ تَدَانِ

فَكِلَاهُمَا ارْتَكَبَا أَشَدَّ جِنَايَةٍ ... جَنَيَتْ عَلَى الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ

جَعَلُوا النُّصُوصَ لِأَجْلِهَا غَرَضًا لَهُمْ ... قَدْ خَرْقُوهُ بِأَسْهُمِ الْهَذَيَانِ

وَتَسَلُّطُ الْأَوْغَادِ وَالْأَوْبَاشِ وَالـ ... أَرْذَالِ بِالتَّحْرِيفِ وَالْبُهْتَانِ

كُلٌّ إِذَا قَابَلْتَهُ بِالنَّصِّ قَا ... لَكَ هُوَ بِتَأْوِيلٍ بِلَا بُرْهَانِ

وَيَقُولُ تَأْوِيلِي كَتَأْوِيلِ الَّذِي ... نَ تَأَوَّلُوا قَوْلَ الرَّحْمَنِ

بَلْ دُونَهُ فَظُهُورُهَا فِي الْوَحْيِ بِالـ ... نِّسْبَةِ مِثْلُ الشَّمْسِ فِي التِّبْيَانِ

أَيْنُوغُ تَأْوِيلُ الْعُلُوِّ لَكُمْ وَلَا ... تَتَأَوَّلُوا الْبَاقِي بِلَا فُرْقَانِ

وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الصِّفَاتِ مَعَ الْهُدَى ... مِلْءُ الْحَدِيثِ وَمِلْءُ ذَا الْقُرْآنِ

وَاللهِ تَأْوِيلُ الْعُلُوِّ أَشَدُّ مِنْ ... تَأْوِيلِنَا لِقِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِحَيَاتِهِ ... وَلِعِلْمِهِ وَمَشِيئَةِ الْأَكْوَانِ

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِحُدُوثِ هَـ ... ـذَا الْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ بِالْإِمْكَانِ

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا بَعْضَ الشَّرَا ... ئِعِ عِنْدَ ذِي الْإِنْصَافِ وَالْمِيزَانِ

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِكَلَامِهِ ... بِالْقَيْضِ مِنْ فَعَّالِ ذِي الْأَكْوَانِ

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِ أَهْلِ الرَّفْضِ أَخْـ ... ـبَارَ الْفَضَائِلِ حَازَهَا الشَّيْخَانِ

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِ كُلِّ مُؤَوِّلٍ ... نَصًّا بِأَنَّ مُرَادَهُ الْوَحْيَانِ

إِذْ صَرَّحَ الْوَحْيَانِ مَعْ كُتُبِ الْإِلَـ ... ـهِ جَمِيعِهَا بِالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

فَلِأَيِّ شَيْءٍ نَحْنُ كُفَّارٌ بِهَذَا الشَّـ ... تَأْوِيلِ بَلْ أَنْتُمْ عَلَى الْإِيمَانِ

إِنَّا تَأَوَّلْنَا وَأَنْتُمْ قَدْ تَأَوْ ... وَلْتُمْ فَهَاتُوا وَاضِحَ الْفُرْقَانِ[1]

أَلَكُمْ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ حَـ ... ـقٌّ لَنَا عَلَى تَأْوِيلِنَا وِزْرَانِ

هَذِي مَقَالَتُهُمْ لَكُمْ فِي كُتْبِهِمْ ... مِنْهَا نَقَلْنَاهَا بِلَا عُدْوَانِ

رُدُّوا عَلَيْهِمْ إِنْ قَدَرْتُمْ أَوْ فَنَحْـ ... ـنُوا عَنْ طَرِيقِ عَسَاكِرِ الْإِيمَانِ

لَا تَحْطِمَنَّكُمْ جُنُودُهُمْ كَحَطْـ ... ـمِ السَّيْلِ مَا لَاقَى مِنَ الدِّيدَانِ

---

(١) في (ع) [البرهان].

وَكَذَا نُطَالِبُكُمْ بِأَمْرٍ رَابِعٍ ... وَاللهِ لَيْسَ لَكُمْ بِذَا إِمْكَانِ
وَهُوَ الْجَوَابُ عَنِ الْمُعَارِضِ إِذْ بِهِ الدْ ... دَعْوَى تَتِمُّ سَلِيمَةَ الأَرْكَانِ
لَكِنَّ ذَا عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَوْ يَا ... عِدُكُمْ عَلَيْهِ رَبُّ كُلِّ لِسَانِ
فَأَدِلَّةُ الإِثْبَاتِ حَقًّا لاَ يَقُو ... مُ لَهَا الْجِبَالُ وَسَائِرُ الأَكْوَانِ
تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَحْيُهُ ... مَعْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَانِ
أَنَّى يُعَارِضُهَا كُنَاسَةُ هَذِهِ الْـ ... أَذْهَانِ بِالشُّبُهَاتِ وَالْهَذَيَانِ
وَجَعَاجِعٌ وَفَرَاقِعٌ مَا تَحْتَهَا ... إِلاَّ السَّرَابُ لِوَارِدٍ ظَمْآنِ
فَلْتَهْنِكُمْ هَذِي الْعُلُومُ اللاَّءِ قَدْ ... ذُخِرَتْ لَكُمْ عَنْ تَابِعِ الإِحْسَانِ
بَلْ عَنْ مَشَايِخِهِمْ جَمِيعًا ثُمَّ وُفْـ ... وُفِّقْتُمْ لَهَا مِنْ بَعْدِ طُولِ زَمَانِ
وَاللهِ مَا ذُخِرَتْ لَكُمْ لِفَضِيلَةٍ ... لَكُمْ عَلَيْهِمْ يَا أُولِي النُّقْصَانِ
لَكِنْ عُقُولُ الْقَوْمِ كَانَتْ فَوْقَ ذَا ... قَدْرًا وَشَأْنُهُمُ فَأَعْظَمُ شَانِ
وَهُمُ أَجَلُّ وَعِلْمُهُمْ أَعْلَى وَأَشْـ ... ـرَفُ أَنْ يُشَابَ بِزُخْرُفِ الْهَذَيَانِ
فَلِذَاكَ صَانَهُمُ الإِلَهُ عَنِ الَّذِي ... فِيهِ وَقَعْتُمْ صَوْنَ ذِي إِحْسَانِ
سَمَّيْتُمُ التَّحْرِيفَ تَأْوِيلاً كَذَا التَّـ ... ـعْطِيلَ تَنْزِيهًا هُمَا لَقَبَانِ
وَأَضَفْتُمُ أَمْرًا إِلَى ذَا ثَالِثًا ... شَرًّا وَأَقْبَحَ مِنْهُ ذَا بُهْتَانِ
فَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَجْسِيمًا وَتَشْـ ... ـبِيهًا وَذَا مِنْ أَقْبَحِ الْعُدْوَانِ
فَقَلَبْتُمُ تِلْكَ الْحَقَائِقَ مِثْلَ مَا ... قُلِبَتْ قُلُوبُكُمُ عَنِ الإِيمَانِ
وَجَعَلْتُمُ الْمَمْدُوحَ مَذْمُومًا كَذَا ... بِالْعَكْسِ حَتَّى اسْتَكْمَلَ اللُّبْسَانِ
وَأَرَدْتُمُ أَنْ تُحْمَدُوا بِالاِتِّبَا ... عِ نَعَمْ لَكِنْ لِمَنْ يَا فِرْقَةَ الْبُهْتَانِ
وَبَغَيْتُمُ أَنْ تَنْسِبُوا لِلاِبْتِدَا ... عِ عَسَاكِرَ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ
وَجَعَلْتُمُ الْوَحْيَيْنِ غَيْرَ مُفِيدَةٍ ... لِلْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانِ
لَكِنْ عُقُولُ النَّاكِبِينَ عَنِ الْهُدَى ... لَهُمَا تُفِيدُ وَمَنْطِقُ الْيُونَانِ
وَجَعَلْتُمُ الإِيمَانَ كُفْرًا وَالْهُدَى ... عَيْنَ الضَّلاَلِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ
ثُمَّ اسْتَخَفَّتْكُمْ عُقُولاً مَا أَرَا ... دَ اللهُ أَنْ تَزْكُو عَلَى الْقُرْآنِ

حَتَّى اسْتَجَابُوا مُهْطِعِينَ لِدَعْوَةِ النَّـ ... ـتَعْطِيلِ قَدْ هَرَبُوا مِنَ الإِيمَانِ
يَا وَيْحَهُمْ لَوْ يَشْعُرُونَ بِمَنْ دَعَا ... وَلِمَا دَعَا قَعَدُوا قُعُودَ جَبَانِ

فصل

في شبهه المحرفين للنصوص باليهود وإرثهم التحريف منهم وبراءة أهل الإثبات مما رموهم به من هذا الشبه

هَذَا وَثَمَّ بَلِيَّةٌ مَسْتُورَةٌ ... فِيهِمْ سَأُبْدِيهَا لَكُمْ بِبَيَانِ
وَرِثَ الْمُحَرِّفُ مِنْ يَهُودَ وَهُمْ أُولُو النَّـ ... ـتَحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْكِتْمَانِ
فَأَرَادَ مِيرَاثَ الثَّلَاثَةِ مِنْهُمُ ... فَعَصَتْ عَلَيْهِ غَايَةَ الْعِصْيَانِ
إِذْ كَانَ لَفْظُ النَّصِّ مَحْفُوظًا فَمَا النَّـ ... ـتَبْدِيلُ وَالْكِتْمَانِ فِي الإِمْكَانِ
فَأَرَادَ تَبْدِيلَ الْمَعَانِي إِذْ هِيَ الْـ ... ـمَقْصُودُ مِنْ تَعْبِيرِ كُلِّ لِسَانِ
فَأَتَى إِلَيْهَا وَهْيَ بَارِزَةٌ مِنَ الْـ ... ـأَلْفَاظِ ظَاهِرَةٌ بِلَا كِتْمَانِ
فَنَفَى حَقَائِقَهَا وَأَعْطَى لَفْظَهَا ... مَعْنًى سِوَى مَوْضُوعِهِ الْحَقَّانِي
فَجَنَى عَلَى الْمَعْنَى جِنَايَةَ جَاحِدٍ ... وَجَنَى عَلَى الأَلْفَاظِ بِالْعُدْوَانِ
وَأَتَى إِلَى حِزْبِ الْهُدَى أَعْطَاهُمُ ... شِبْهَ الْيَهُودِ وَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ
إِذْ قَالَ إِنَّهُمُ مُشَبِّهَةٌ وَأَنْـ ... ـتُمْ مِثْلُهُمْ فَمَنِ الَّذِي يَلْحَانِي
فِي هَتْكِ أَسْتَارِ الْيَهُودِ وَشِبْهِهِمْ ... مِنْ فِرْقَةِ التَّحْرِيفِ لِلْقُرْآنِ
يَا مُسْلِمُونَ بِحَقِّ رَبِّكُمُ اسْمَعُوا ... قَوْلِي وَعُوهُ وَعْيَ ذِي عِرْفَانِ
ثُمَّ احْكُمُوا مِنْ بَعْدِ مَنْ هَذَا الَّذِي ... أَوْلَى بِهَذَا الشِّبْهِ بِالْبُرْهَانِ
أُمِرَ الْيَهُودُ بِأَنْ يَقُولُوا حِطَّةٌ ... فَأَبَوْا وَقَالُوا حِنْطَةٌ لِهَوَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِي قِيلَ لَهُ اسْتَوَى ... فَأَبَى وَزَادَ الْحَرْفَ لِلنُّقْصَانِ
قَالَ اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ ... لُغَةً وَعَقْلًا مَا هُمَا سِيَانِ
عِشْرُونَ وَجْهًا تُبْطِلُ التَّأْوِيلَ بِاسْـ ... ـتَوْلَى فَلَا تَخْرُجْ عَنِ الْقُرْآنِ

قَدْ أَفْرَدَتْ بِمُصَنَّفٍ هُوَ عِنْدَنَا نَصْبِيفُ حَبْرٍ عَالِمٍ رَبَّانِي
وَلَقَدْ ذَكَرْنَا أَرْبَعِينَ طَرِيقَةً قَدْ أَبْطَلَتْ هَذَا بِحُسْنِ بَيَانِ
هِيَ فِي الصَّوَاعِقِ إِنْ تُرِدْ تَحْقِيقَهَا لَا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى الْعُمْيَانِ
تُسَمُّونَ الْيَهُودَ وَلَامُ جَهْمِي هُمَا فِي وَحْيِ رَبِّ الْعَرْشِ زَائِدَتَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِي عَطَّلَ وَصْفَهُ وَبِهُودُ قَدْ وَصَفُوهُ بِالنُّقْصَانِ
فَهُمَا إِذَا فِي نَفْيِهِمْ لِصِفَاتِهِ الْـ ـعُلْيَا كَمَا يَشْتَدُّ أَخَوَانِ

الشرح

وذلك أن المحرفين من الجَهمية ونحوهم رموا أهل السنة بأنهم ممثلون ومشبهون مشابهون لليهود لأن اليهود على زعمهم ممثلون، فعندهم أن أهل السنة ممثلون؛ لأنهم أثبتوا لله صفات الكمال التي نطق بها الكتاب والسنة ودلت عليها العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة لعقول الجَهمية ومن دان بقولهم توهموا أن إثبات الصفات تمثيل ورموا به أهل السنة، والحال أن المشابهة الحقيقة لليهود منطبقة على الجَهمية، فإن اليهود قد جمعوا بين تبديل النصوص وكتمانها وبين تحريف ما لا يُمكن فيه أحد الأمرين، فهؤلاء والجَهمية لما تعذر عليهم التبديل، والكتمان؛ لأن الله نزل الذكر وحفظه فيستحيل تبديله وكتمانه، عمدوا إلى تحريف معاني النصوص وتبديلها، فنفوا المعنى الذي أراده الله ورسوله، وأثبتوا لها معاني من تلقاء أنفسهم.

فهذا هو الشبه الحقيقي باليهود، وكذلك اليهود لما قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[1]. دخلوا على استاههم وقالوا: حبة في حنطة. تهكما وجرأة على الله، كذلك الجَهمية لما نص الله أنه: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[2]. قالوا: معنى استوى استولى: فاليهود زادوا النون في قولهم حنطة بدل حطة والجَهمية زادوا اللام في قولهم استولى بدل استوى.

وهذا قول باطل قد بين الأئمة بطلانه من وجوه كثيرة وقد ذكر المؤلف في كتابه الصواعق

---

(١) [البقرة: ٥٨].
(٢) [الأعراف: ٥٤].

المُرسلة أكثر من أربعين وجهًا في إبطال هذا التحريف، واليهود قد وصفوا الله بالنقائص والعيوب وهؤلاء نفوا صفاته وهو أشنع التنقيص.

فصل

في بيان بهتانهم في تشبيه أهل الإثبات بفرعون وقولهم أن مقالة العلو عنه أخذوها وأنهم أولى بفرعون وهم أشباهه

وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ فِرْعَوْنُ مَذْ ... هَبُهُ الْعُلُوُّ وَذَاكَ فِي الْقُرْآنِ
وَلِذَاكَ قَدْ طَلَبَ الصُّعُودَ إِلَيْهِ بِالصَّـ ... ـرْحِ الَّذِي قَدْ رَامَ مِنْ هَامَانِ
هَذَا رَأَيْنَاهُ بِكُتْبِهِمْ وَمِنْ أَفْـ ... ـوَاهِهِمْ سَمِعًا إِلَى [ذَا] الآذَانِ
فَاسْمَعْ إِذًا مِنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْ ... عَوْنَ الْمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ
وَانْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ مُوسَى كَاذِبٌ ... حِينَ ادَّعَى فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ
فَمِنَ الْمَصَائِبِ أَنْ فِرْعَوْنَكُمْ أَضْحَى بِكُفْرِ صَاحِبِ الإِيمَانِ
وَيَقُولُ ذَاكَ مُبَدِّلٌ لِلدِّينِ سَا ... عٍ بِالْفَسَادِ وَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ
إِنَّ الْمُوَرِّثَ ذَا لَهُمْ فِرْعَوْنُ حِـ ... ـنَ رَمَى بِهِ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ
فَهُوَ الإِمَامُ لَهُمْ وَهَادِيهِمْ وَمَتْـ ... ـبُوعٌ يَقُودُهُمْ إِلَى النِّيرَانِ
هُوَ أَنْكَرَ الْوَصْفَيْنِ وَصْفَ الْفَوْقِ وَالـ ... تَكْلِيمِ إِنْكَارًا عَلَى الْبُهْتَانِ
إِذْ قَصْدُهُ إِنْكَارُ ذَاتِ الرَّبِّ فَالتَّـ ... ـعْطِيلُ مَرْقَاةٌ لِذَا الْكُفْرَانِ
وَسِوَاهُ جَاءَ بِسُلَّمٍ وَبِآلَةٍ وَأَتَى بِقَانُونٍ عَلَى بُنْيَانِ
وَأَتَى بِذَاكَ مُفَكِّرًا وَمُقَدِّرًا وَرَتَّ الْوَلِيدَ الْعَابِدَ الأَوَّانِ
وَأَتَى إِلَى التَّعْطِيلِ مِنْ أَبْوَابِهِ لاَ مِنْ ظُهُورِ الدَّارِ وَالْجُدْرَانِ
وَأَتَى بِهِ فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّـ ... ـعْظِيمِ لَيْسَ عَلَى الْعُمْيَانِ
وَأَتَى إِلَى وَصْفِ الْعُلُوِّ فَقَالَ ذَا التَّـ ... ـجْسِيمُ لَيْسَ يَلِيقُ بِالرَّحْمَنِ
فَاللَّفْظُ قَدْ أَنْشَاهُ مِنْ بُنَيَّاتِهِ وَكَذَاهُ وَصْفَ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ صَبِيُّ الْعَقْلِ لَمْ يَبْـ ... ـلُغْ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الشُّيْخَانِ
إِلاَّ أُنَاسًا سَلَّمُوا لِلْوَحْيِ هُمْ أَهْلُ الْبُلُوغِ وَأَعْقَلُ الإِنْسَانِ

فَأَتَى إِلَى الصِّبْيَانِ فَالْقَاذُوا لَهُ كَالثَّاءِ إِذْ تُنْقَادُ لِلْخَوَّانِ
فَانْظُرْ إِلَى عَقْلٍ صَغِيرٍ فِي يَدَيْ شَيْطَانَ مَا يُلْقَى مِنَ الشَّيْطَانِ

الشرح

وذلك أن الجَهمية رموا أهل السنة وسموهم فرعونية، يقولون: إن مذهبهم مذهب فرعون؛ لأنهم يعتقدون أن الله فوق خلقه كما اعتقد فرعون ذلك حَتَّى طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليبلغ الأسباب أسباب السماوات فيطلع إلَى إله موسى تكذيبًا لموسى وجحدًا لرب العالمين.

ومن المعلوم أن الجَهمية أولى بفرعون في هذه الحَالة؛ لأنه قالها إنكارًا، وهو نفس مذهب الجَهمية، فإنهم أنكروا كلام الله وعلوه على خلقه كما أنكر فرعون ذلك بتكذيبه لرسالة موسى ولعلو الله، وليس بينهم فرق إلا أن فرعون صرح بالإنكار وهم موهوا العبارات وزخرفوا الألفاظ وقبحوا الحُسن وحسنوا القبيح وسموا أنفسهم أهل الحَق وسموا غيرهم أهل الباطل فانخدعوا لِهذه الزخارف وخدعوا غيرهم.

فصل
في بيان تدليسهم وتلبيسهم الحَق بالباطل

قَالُوا إِذَا قَالَ الْمُجَسِّمُ رَبُّنَا حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى بِلِسَانِ
فَسَلُوهُ كَمْ لِلْعَرْشِ مَعْنًى وَاسْتَوَى أَيْضًا لَهُ فِي الْوَضْعِ خَمْسُ مَعَانِ
وَعَلَى فَكَمْ مَعْنًى لَهَا أَيْضًا لَدَى عَشْرٍ وَذَاكَ إِتْمَامُ هَذَا الشَّانِ
بَيِّنْ لَنَا تِلْكَ الْمَعَانِي وَالَّذِي مِنْهَا أُرِيدَ بَوَاضِحِ التِّبْيَانِ
فَاسْمَعْ فَذَاكَ مُعَطِّلٌ هَذِي الْجَعَا جِعُ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الْهَذَيَانِ
قُلْ لِلْمُجَعْجِعِ وَيْحَكَ اعْقِلْ ذَا الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ
الْعَرْشُ عَرْشُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَاللَّامُ لِلْمَعْهُودِ فِي الْأَذْهَانِ
مَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلَا هُوَ مُوهِمٌ نَقْلُ الْمَجَازِ وَلَا لَهُ وَضْعَانِ

وَمُحَمَّدٌ وَالأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ ... شَهِدُوا بِهِ لِلْخَالِقِ الرَّحْمَنِ
مِنْهُمْ عَرَفْنَاهُ وَهُمْ عَرَفُوهُ مِنْ ... رَبٍّ عَلَيْهِ قَدِ اسْتَوَى دَيَّانِ
لَمْ تَفْهَمِ الأَذْهَانُ مِنْهُ سَرِيرَ بَلْـ ... ـقِيسٍ وَلاَ بَيْتًا عَلَى الأَرْكَانِ
كَلاَّ وَلاَ عَرْشًا عَلَى بَحْرٍ وَلاَ ... عَرْشًا لِجِبْرِيلٍ بِلاَ بُنْيَانِ
كَلاَّ وَلاَ الْعَرْشَ الَّذِي إِنْ تُلَّ مِنْ ... عَبْدٍ هَوَى تَحْتَ الْحَضِيضِ الدَّانِي
كَلاَّ وَلاَ عَرْشَ الْكُرُومِ وَهَذِهِ الْـ ... أَعْنَابِ فِي حَرْثٍ وَفِي بُسْتَانِ
لَكِنَّهَا فَهِمَتْ بِحَمْدِ اللهِ عَرْ ... شَ الرَّبِّ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ
وَعَلَيْهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدِ اسْتَوَى ... حَقًّا كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَكَذَا اسْتَوَى الْمَوْصُولُ بِالْحَرْفِ الَّذِي ... ظَهَرَ الْمُرَادُ بِهِ ظُهُورَ بَيَانِ
لاَ فِيهِ إِجْمَالٌ وَلاَ هُوَ مُفْهِمٌ ... لِلاِشْتِرَاكِ وَلاَ مَجَازٍ ثَانِ
تَرْكِيبُهُ مَعْ حَرْفِ الاِسْتِعْلاَءِ نَصْ ... صٌ فِي الْعُلُوِّ بِوَضْعِ كُلِّ لِسَانِ
فَإِذَا تَرَكَّبَ مَعْ إِلَى فَالْقَصْدُ مَعْ ... مَعْنَى الْعُلُوِّ لِوَضْعِهِ بِبَيَانِ
وَإِلَى السَّمَاءِ قَدِ اسْتَوَى فَمُقَيَّدٌ ... بِتَمَامِ صَنْعَتِهَا مَعَ الإِتْقَانِ
لَكِنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى هُوَ مُطْلَقٌ ... مِنْ بَعْدِهَا قَدْ تَمَّ بِالأَرْكَانِ
لَكِنَّمَا الْجَهْمِي يَقْصُرُ فَهْمُهُ ... عَنْ ذَا فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الْمَنَّانِ
فَإِذَا اقْتَضَى وَاوَ الْمَعِيَّةِ كَانَ مَعْـ ... ـنَاهُ اسْتَوَى مُتَقَدِّمٌ وَالثَّانِي
فَإِذَا أَتَى مِنْ غَيْرِ حَرْفٍ كَانَ مَعْـ ... ـنَاهُ الْكَمَالَ فَلَيْسَ ذَا نُقْصَانِ
لاَ تَلْبِسُوا بِالْبَاطِلِ الْحَقَّ الَّذِي ... قَدْ بَيَّنَ الرَّحْمَنُ فِي الْفُرْقَانِ
وَعَلَى لِلاِسْتِعْلاَءِ فَهْيَ حَقِيقَةٌ ... فِيهِ لَدَى أَرْبَابِ هَذَا الشَّانِ
وَكَذَلِكَ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلاَلُهُ ... لَمْ يَحْتَمِلْ مَعْنًى سِوَى الرَّحْمَنِ
يَا وَيْحَهُ بِعَمَاهُ لَوْ وَجَدَ اسْمَهُ الرَّ ... حْمَنَ مُحْتَمِلاً لِخَمْسِ مَعَانِ
لَقَضَى بِأَنَّ اللَّفْظَ لاَ مَعْنَى لَهُ ... إِلاَّ التِّلاَوَةُ عِنْدَنَا بِلِسَانِ
فَلِذَاكَ قَالَ أَئِمَّةُ الإِسْلاَمِ فِي ... مَعْنَاهُ مَا قَدْ سَاءَكُمْ بِبَيَانِ
وَلَقَدْ أَحَلْنَاكُمْ عَلَى كُتُبٍ لَهُمْ ... هِيَ عِنْدَنَا وَاللهِ بِالْكِيمَانِ

الشرح

وذلك أن كل صاحب بدعة يقصد نصر مقالته يأتي إلى الحق الصريح المناقض لقوله فيستخرج له الاحتمالات البعيدة والألفاظ المُجملة، فإن هؤلاء الجَهمية، فإن موهوا وقالوا لأخوانهم: إذا قال لكم المُجسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1]. فقولوا له: هذا لفظ مُجمل؛ فإن «العرش» له عدة معاني و«الاستواء» له عدة محامل، فأي المُعاني، فإذا سمع الجَاهل هذا التدليس والتمويه استعظم ذلك ورآه إشكالا يعسر الانحلال عنه، وأما المتبصر الذي نور الله قلبه فإنه يعرف أن هذا ليس مُحل إشكال ولا لبس بل هو من أوضح الأشياء وأبينها، فإن الألف واللام في «العرش» للعهد الذي يفهمه كل مسلم أنه عرش الرب العظيم لا غيره من عروش الكرم ونحوها، ولو قيل له يَحتمل واحدا غير هذا البادر لإنكاره، هذا مع اتفاق جَميع الرسل وشهادتهم أنه استوى على العرش العظيم، فكل مؤمن يفهم المُعنَى من قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾.

وكذلك لفظ الاستواء المُعدّي بعلى فإنه واضح جدًّا دال على العلو والظهور، فإن الاستواء حيث عُدّي بعلى فإنه يدل على العلو والظهور، وأما إذا عدى بإلى نحو ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[2]. فإنه يدل على القصد، وإذا قيل: استوى كذا وكذا دل معية الأول للثاني كقوله لموسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾[3] فهذه المعاني المُتباينة بحسب تعديته بالحروف كما ذكرنا، فعلم علما يقينًا أن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[4]. لا إشكال فيه ولا إجمال، خصوصًا وقد طرد إتيانه بهذا السياق في جَميع موارده ومصادره، ولم يأت هذا المُعنَى بلفظ فيه إجمال فلو كان المراد ما قصده الجَهمي لأتي به ولو في موضع واحد ليستبين المُراد، والجَهمي من تلبيسه جعل هذه الألفاظ مجملة مُحتملة لعدة معاني ليتمكن من تحريفه، فينبغي مع ذلك أن يتمم هذا التحريف والتلبيس فيقول والرحمن له عدة معاني ليكمل إلحاده ويستريح ويجعل قوله:

---

(١)[طه: ٥].

(٢)[البقرة: ٢٩].

(٣)[القصص: ١٤].

(٤)[طه: ٥].

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ ليس له معنًى وإنَّما يتبرك بقراءته تبركًا ونظير هذا الفصل، الفصل الذي بعده وهو قوله.

فصل

في بيان سبب غلطهم في الألفاظ والحكم عليها باحتمال عدة معان حتَّى أسقطوا الاستدلال بها

وَاللَّفْظُ مِنْهُ مُفْرَدٌ وَمُرَكَّبٌ ... فِي الاعْتِبَارِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

وَاللَّفْظُ فِي التَّرْكِيبِ نَصٌّ فِي الَّذِي ... قَصَدَ الْمُخَاطِبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ

أَوْ ظَاهِرٌ فِيهِ وَذَا مِنْ حَيْثُ نِسْـ ... ـبَتُهُ إِلَى الإِفْهَامِ وَالأَذْهَانِ

فَيَكُونُ نَصًّا عِنْدَ طَائِفَةٍ وَعِنْـ ... ـدَ سِوَاهُمْ هُوَ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

وَالَّذِي سِوَاهُمْ مُجْمَلٌ لَمْ يَتَّضِحْ ... لَهُمُ الْمُرَادُ بِهِ اتِّضَاحَ بَيَانِ

فَالأَوَّلُونَ لإِلْفِهِمْ ذَاكَ الْخَطَا ... بِ وَإِلْفِهِمْ مَعْنَاهُ طُولَ زَمَانِ

طَالَ الْمِرَاسُ لَهُمْ لِمَعْنَاهُ كَمَا اسْـ ... ـتَدَّتْ عَنَايَتُهُمْ بِذَاكَ الشَّانِ

وَالْعِلْمُ مِنْهُمْ بِالْمُخَاطَبِ إِذْ هُمُ ... أَوْلَى بِهِ مِنْ سَائِرِ الإِنْسَانِ

وَلَهُمْ أَلِمُّ عِنَايَةٍ بِكَلَامِهِ ... وَقُصُودِهِ مَعَ صِحَّةِ الْعِرْفَانِ

فَخِطَابُهُ نَصٌّ لَدَيْهِمْ قَاطِعٌ ... فِيمَا أُرِيدَ بِهِ مِنَ التِّبْيَانِ

لَكِنَّ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ فِي ذَاكَ لَمْ ... يَقْطَعْ بِقَطْعِهِمُ عَلَى الْعِرْفَانِ

وَيَقُولُ يَظْهَرُ ذَا وَلَيْسَ بِقَاطِعٍ ... فِي ذِهْنِهِ لاَ سَائِرَ الأَذْهَانِ

وَلإِلْفِهِ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ مُقْتَدٍ ... بِكَلَامِهِ مِنْ عَالِمِ الأَزْمَانِ

هُوَ قَاطِعٌ بِمُرَادِهِ وَكَلَامُهُ ... نَصٌّ لَدَيْهِ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

وَالْفِتْنَةُ الْعُظْمَى مِنَ الْمُتَسَلِّقِ الـ ... ـمُخْلُوعِ ذِي الدَّعْوَى أَخِي الْهِذْيَانِ

لَمْ يَعْرِفِ الْعِلْمَ الَّذِي فِيهِ الْكَلاَ ... مُ وَلاَ [لَهُ] إِلْفٌ بِهَذَا الشَّانِ

لَكِنَّهُ مِنْهُ غَرِيبٌ لَيْسَ مِنْ ... سُكَّانِهِ كَلاَّ وَلاَ الْجِيرَانِ

فَبِهِ الزَّعِيمُ دَعِي قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ ... مِنْهُمْ وَلَمْ يَعْتَدَّهُمْ بِمَكَانِ

وَكَلاَمُهُمْ أَبَدًا لَدَيْهِ مُجْمَلٌ ... وَبِمَعْزِلٍ عَنْ إِمْرَةِ الإِيقَانِ

نَشَدَ التِّجَارَةَ بِالزُّيُوفِ بِحَالِهَا ... نَقْدًا صَحِيحًا وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ
حَتَّى إِذَا رُدَّتْ عَلَيْهِ نَالَهُ ... مِنْ رَدِّهَا خِزْيٌ وَسُوءُ هَوَانِ
فَأَرَادَ تَصْحِيحًا لَهَا إِذْ لَمْ يَكُنْ ... نَقْدُ الزُّيُوفِ يَرُوجُ فِي الأَثْمَانِ
وَرَأَى اسْتِحْلَالَ هَذَا بِدُونِ الطَّعْنِ فِي ... بَاقِي النُّقُودِ فَجَاءَ بِالْعُدْوَانِ
وَاسْتَعْوَضَ الثَّمَنَ الصَّحِيحَ بِجَهْلِهِ ... وَبِظُلْمِهِ يَبْغِيهِ بِالْبُهْتَانِ
عِوَجًا لِيَسْلَمَ نَقْدُهُ بَيْنَ الْوَرَى ... وَيَرُوجُ فِيهِمْ كَامِلَ الأَوْزَانِ
وَالنَّاسُ لَيْسُوا أَهْلَ نَقْدٍ لِلَّذِي ... قَدْ قِيلَ إِلاَّ الْفَرْدَ فِي الأَزْمَانِ
وَالزَّيْفُ بَيْنَهُمُ هُوَ النَّقْدُ الَّذِي ... قَدْ رَاجَ فِي الأَسْفَارِ وَالْبُلْدَانِ
إِذْ هُمْ قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ وَارْتَضَوْا ... بِجَوَازِهِ جَهْرًا بِلاَ كِتْمَانِ
إِذْ هُمْ قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ وَارْتَضَوْا ... بِجَوَازِهِ جَهْرًا بِلاَ كِتْمَانِ
فَإِذَا أَتَاهُمْ غَيْرُهُ وَلَوْ أَنَّهُ ... ذَهَبٌ مُصَفًّى خَالِصُ الْعِقْيَانِ
رَدُّوهُ وَاعْتَذَرُوا بِأَنَّ نُقُودَهُمْ ... مِنْ غَيْرِهِ بِمَرَاسِمِ السُّلْطَانِ
فَإِذَا تَعَامَلْنَا بِنَقْدِ غَيْرِهِ ... قُطِعَتْ جَوَامِكُنَا مِنَ الدِّيوَانِ
وَاللهِ مِنْهُمْ قَدْ سَمِعْنَا ذَا وَلَمْ ... نَكْذِبْ عَلَيْهِمْ وَيْحَ ذِي الْبُهْتَانِ
يَا مَنْ تُرِيدُ تِجَارَةً تُنْجِيهِ مِنْ ... غَضَبِ الإِلَهِ وَمَوْقِدِ النِّيرَانِ
وَتُفِيدُهُ الأَرْبَاحُ بِالْجَنَّاتِ وَالْـ ... ـحُورِ الْحِسَانِ وَرُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ
فِي جَنَّةٍ طَابَتْ وَدَامَ نَعِيمُهَا ... مَا لِلْفَنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ
هَيِّئْ لَهَا ثَمَنًا يَبَاعُ بِمِثْلِهَا ... لاَ تُشْتَرَى بِالزَّيْفِ مِنْ أَثْمَانِ
نَقْدًا عَلَيْهِ سِكَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... ضَرْبُ الْمَدِينَةِ أَشْرَفِ الْبُلْدَانِ
أَظَنَنْتَ يَا مَغْرُورُ بَائِعَهَا الَّذِي ... يَرْضَى بِنَقْدٍ ضَرْبِ جَنْكِيسْخَانِ
مَنَّتْكَ وَاللهِ الْمُحَالَ النَّفْسُ أَنْ ... طَمِعَتْ بِذَا وَخُدِعَتْ بِالشَّيْطَانِ
فَاسْمَعْ إِذًا سَبَبَ الضَّلاَلِ وَمَنْشَأَ النْـ ... ـتَخْلِيطِ إِذْ يَتَنَاظَرُ الْخَصْمَانِ
يَحْتَجُّ بِاللَّفْظِ الْمُرَكَّبِ عَارِفٌ ... مَضْمُونَهُ بِسِيَاقِهِ لِبَيَانِ
وَاللَّفْظُ حِينَ يَسَاقُ بِالتَّرْكِيبِ مَحْـ ... ـفُوفٌ بِهِ لِلْفَهْمِ وَالتِّبْيَانِ

جُنْدٌ يُنَادِي بِالْبَيَانِ عَلَيْهِ مِثْـ ... ـلَ نِدَائِنَا بِإِقَامَةٍ وَأَذَانِ
كَيْ يَحْصُلَ الإِعْلَامُ بِالْمَقْصُودِ مِنْ ... إِيرَادِهِ وَيَصِيرُ فِي الأَذْهَانِ
فَيُفَكُّ تَرْكِيبُ الْكَلَامِ مُعَانِدٌ ... حَتَّى يَقْلَقِلَهُ مِنَ الأَرْكَانِ
وَيَرُومُ مِنْهُ لَفْظَةً قَدْ حُمِّلَتْ ... مَعْنًى سِوَاهَا فِي كَلَامٍ ثَانِ
فَيَكُونُ دُبُّوسَ الشِّقَاقِ وَعُدَّةً ... لِلدَّفْعِ فِعْلَ الْجَاهِلِ الْفَتَّانِ
فَيَقُولُ هَذَا مُجْمَلٌ وَاللَّفْظُ مُحْـ ... ـتَمَلٌ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْبُهْتَانِ
وَبِذَاكَ يَفْسُدُ كُلُّ عِلْمٍ فِي الْوَرَى ... وَالْفَهْمُ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ
إِذْ أَكْثَرُ الأَلْفَاظِ تَقْبَلُ ذَاكَ فِي الْـ ... إِفْرَادِ قَبْلَ الْعَقْدِ وَالتِّبْيَانِ
لَكِنْ إِذَا مَا رُكِّبَتْ زَالَ الَّذِي ... قَدْ كَانَ مُحْتَمِلاً لَدَى الْوِحْدَانِ
فَإِذَا تَجَرَّدَ كَانَ مُحْتَمِلاً لِغَيْـ ... ـرِ مُرَادِهِ أَوْ فِي كَلَامٍ ثَانِ
لَكِنَّ ذَا التَّجْرِيدَ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ ... يَفْرَضْ يَكُنْ لَا شَكَّ فِي الأَذْهَانِ
وَالْمُفْرَدَاتُ بِغَيْرِ تَرْكِيبٍ كَمِثْـ ... ـلِ الصَّوْتِ تَنْعِقُهُ بِتِلْكَ الضَّانِ
وَهُنَالِكَ الإِجْمَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالتَّـ ... ـجْهِيلُ وَالتَّحْرِيفُ وَالإِتْيَانُ بِالْبُطْلَانِ
فَإِذَا هُمُ فَعَلُوهُ رَامُوا نَقْلَهُ ... لِمُرَكَّبٍ قَدْ حُفَّ بِالتِّبْيَانِ
وَقَضَوْا عَلَى التَّرْكِيبِ بِالْحُكْمِ الَّذِي ... حَكَمُوا بِهِ لِلْمُفْرَدِ الْوِحْدَانِي
جَهْلاً وَتَجْهِيلاً وَتَدْلِيسًا وَتَلْـ ... ـبِيسًا وَتَرْوِيجًا عَلَى الْعِمْيَانِ

الشرح

اعلم أن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة تأتي مركبة صريحة في معانيها لا تحتمل غيره بوجه، هذا حالها في نفسها، وقد اتفق على هذا جميع أئمة المسلمين الذين عرفوا مقاصد الشارع في مصادره وموارده، وتمرنوا على ألفاظه ومعانيه، فكما لا يستريبون في نصوصه في الأحكام الفروعية فلا يستريبون أيضًا في نصوصه في الأصول، بل يرون هذا النوع أكثر بيانًا وأبلغ وضوحًا لشدة الحاجة والضرورة إليه.

ودون هؤلاء من أهل العلم من لم يصل إلى ما وصلوا إليه؛ لأنه ليس عندهم من الاعتناء

بالنصوص كما عند أولئك، فنصوص الشارع عندهم ظواهر ظاهرة في معناها في مداركهم وأفهامهم، وربما وقع لبعض هؤلاء من الاحتمالات والإشكالات ما لا يقدرون على جله، وبين هؤلاء وبين الأولين فرق عظيم في هذه الأبواب والأصول العظيمة، وليس نزوعهم عن الأولين لقصور في أفهامهم وإنما ذلك لعدم إقبالهم التام واعتنائهم بكلام الشارع، ولهذا تجدهم في المذاهب التي تفقهوا بها واعتنوا بها جازمين بمقاصد أئمتهم ومرادهم بألفاظهم ونصوصهم؛ لأنهم وفروا مداركهم لتحصيل ذلك فمروا فيها.

وأما القسم الثالث المذموم: فهم جمهور أهل الكلام الباطل الذين أصلوا أصولاً ما أنزل الله بها من سلطان حالت بينهم وبين فهم مراد الله ورسوله، حتى جعلوا كلامهم أصلاً واضحًا محكمًا وكلام الله ورسوله تابعًا مجملاً متشابهًا، وموهوا على الناس أنهم أهل الحق ومن سواهم أهل الباطل، وسموا مقالاتهم بأسماء ممدوحة راجت على أكثر الخلق الذين يَغْتَرُّون بزخارف الألفاظ ولا تنفذ بصائرهم إلى بواطن المعاني، ثم تمموا مقالتهم الباطلة بأن سموا أهل السنة والجماعة بالأسماء المذمومة كالمجسمة والمشبهة ومقالتهم تجسيمًا وتشبيهًا وتنقيصًا، ثم عمدوا إلى ألفاظ السنة الصريحة الواضحة المركبة ففككوا تراكيبها وتكلموا على مفرداتها وأنها تحتمل كذا وكذا من المعاني من حيث أفرادها، فأسقطوا بعلمهم هذا الاستدلال بها، وأفسدوا على الناس عقائدهم وحرفوا معاني الوحي.

فصل
في بيان شبه غلطهم في تجريد اللفظ بغلط الفلاسفة في تجريد المعاني

هَـذَا هُـدَاكَ اللهُ مِـنْ إِضْـلَالِهِمْ ... وَضَـلَالِهِمْ فِـي مَنْطِـقِ الإِنْسَـانِ

كَمُجَـرَّدَاتٍ فِـي الْخَيَـالِ وَقَـدْ بَنَـى ... قَـوْمٌ عَلَيْهَـا أَوْهَـنَ الْبُنْيَـانِ

ظَنُّـوا بِـأَنَّ لَهَـا وُجُـودًا خَارِجًـا ... وَوُجُودُهَـا لَـوْ صَحَّ فِـي الأَذْهَـانِ

أَنَّـى وَتِلْـكَ مُشَخْصَـاتٌ حُصِّلَـتْ ... فِـي صُـورَةٍ جُزْئِيَّـةٍ بِعِيَـانِ

لَكِنَّهَـا كُلِّيَّـةٌ إِنْ طَابَقَـتْ ... أَفْرَادَهَـا كَـاللَّفْظِ فِـي الْمِيزَانِ

بِدَعُولَـةِ الْكُلِّـي وَهُـوَ مُعَيَّنٌ ... فَـرْدٌ كَـذَا الْمَعْنَـى هُنَـا سِيَّانِ

تجـرُّدًا ذا فـي الـذِّهْنِ أوْ فـي خـارجِ ... عَـنْ كُـلِّ قَـيْدٍ لَـيْسَ فـي الإمْكَـانِ
لا الـذِّهْنُ يَعْقِلُـهُ ولا هُـوَ خـارجٌ ... هُـوَ كَالْخَيَـالِ لَطِيفَـةُ السُّكْرَانِ
لَكِـنْ تجرُّدُهـا الْمُقَيَّـدُ ثَابِـتٌ ... وَسِـوَاهُ مُمْتَنِـعٌ بِـلا إمْكَـانِ
فَتجَـرُّدُ الأعْيَـانِ عَـنْ وَصْـفٍ وَعَـنْ ... وَضْـعٍ وَعَـنْ وَقْـتٍ لَهَـا وَمَكَـانِ
فَـرْضٌ مِـنَ الأذْهَـانِ بِفَرْضُـهُ كَفَـرْ ... ضِ الْمُسْـتَحِيلِ هُمَـا لَهَـا فَرْضَـانِ
اللهُ أكْبَـرُ كَـمْ دَهَـى مِـنْ فَاضِـلٍ ... هَـذَا التَّجَـرُّدُ مِـنْ قَـدِيمِ زَمَـانِ
تجْرِيـدُ ذِي الأَلْفَـاظِ عَـنْ تَرْكِيبِهَـا ... وَكَـذَاكَ تجْرِيـدُ الْمَعَـانِي الثَّـانِي
وَالْحَـقُّ أنَّ كِلَيْهِمَـا فِـي الـذِّهْنِ مَفْـ ... ـرُوضٌ فَلا تَحْكُـمْ عَلَيْـهِ وَهُـوَ فِـي الأَذْهَـانِ
فَيَقُـودُكَ الْخَصْـمُ الْمُعَانِـدُ بِالَّـذِي ... سَـلَّمْتَهُ لِلْحُكْـمِ فِـي الأَعْيَـانِ
فَعَلَيْـكَ بِالتَّفْصِـيلِ إنْ هُـمْ أطْلَقُـوا ... أوْ أجْمَلُـوا فَعَلَيْـكَ بِالتِّبْيَـانِ

الشرح

فاعلم هداك الله أن المجردات اللفظية والمجردات المعنوية لا وجود لها في الخارج، وإنما يفرضها الذهن فرضًا خياليًّا وهو غلط في هذا الفرض، فإنه لا يستفاد من لفظ مفرد مجرد عن التركيب والقيود معنى أصلاً، وإنَّما تستفاد المعاني بانضمام الألفاظ بعضها إلى بعض وتركيبها تركيبًا صحيحًا، ونظير فعل المتكلمين في الألفاظ المجردة نظير فعل الفلاسفة في المعاني المجردة كالوجود المطلق عن كل قيد فحكموا بوجوده خارجًا وجودًا مطلقًا مجردًا عن كل قيد وحيوانًا مطلقًا وإنسانًا مجردًا، فحصل بذلك من الغلط العظيم التخبيط للأذهان والإلحاد شر عظيم، فالحاصل أن الألفاظ المجردة والمعاني المجردة عن كل قيد ووصف مفروض بالذهن لا وجود له أصلاً.

فصل
في بيان تناقضهم وعجزهم عن الفرق
بين ما يجب تأويله وما لا يجب

وَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ النَّقْلِ عَنْ أَشْيَاخِهِمْ كَتَمَسُّكِ الْعُمْيَانِ
وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ النَّـ ـصِّينِ وَا عَجَبًا مِنَ الْخِذْلَانِ
قَوْلُ الشُّيُوخِ مُحَرَّمٌ تَأْوِيلُهُ إِذْ قَصْدُهُمْ لِلشَّرْحِ وَالتِّبْيَانِ
فَإِذَا تَأَوَّلْنَا عَلَيْهِمْ كَانَ إِبْـ ـطَالاً لِمَا رَامُوا بِلاَ بُرْهَانِ
فَعَلَى ظَوَاهِرِهَا لَنَا نُصُوصُهُمْ وَعَلَى الْحَقِيقَةِ حَمْلُهَا لِبَيَانِ
يَا لَيْتَهُمْ أَجْرَوْا نُصُوصَ الْوَحْيِ ذَا الْـ ـمَجْرَى مِنَ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ
بَلْ عِنْدَهُمْ تِلْكَ النُّصُوصُ ظَوَاهِرٌ لَفْظِيَّةٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ
لَمْ تُغْنِ شَيْئًا طَالِبَ الْحَقِّ الَّذِي يَبْغِي الدَّلِيلَ وَمُقْتَضَى الْبُرْهَانِ
وَسَطَوْا عَلَى الْوَحْيَيْنِ بِالتَّحْرِيفِ إِذْ سَمَّوْهُ تَأْوِيلاً بِوَضْعٍ ثَانِ
فَانْظُرْ إِلَى الأَعْرَافِ ثُمَّ لِيُوسُفٍ وَالْكَهْفِ وَافْهَمْ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ
فَإِذَا مَرَرْتَ بِآلِ عِمْرَانَ فَهِمْـ ـتَ الْقَصْدَ فَهْمَ مُوَفَّقٍ رَبَّانِي
وَعَلِمْتَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ لَيْـ ـسَ بِبَيْنِ الْحَقِيقَةِ لاَ الْمَجَازِ الثَّانِي
وَرَأَيْتَ تَأْوِيلَ الثُّقَاةِ مُخَالِفًا لِجَمِيعِ هَذَا لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ
اللَّفْظُ هُمْ أَلِفُوا لَهُ مَعْنًى بِذَا كَ الإِصْطِلاَحِ وَذَاكَ أَمْرٌ ثَانِ
وَأَتَوْا إِلَى الإِلْحَادِ فِي الأَسْمَاءِ وَالـ ـتَّحْرِيفِ لِلأَلْفَاظِ بِالْبُهْتَانِ
فَكَسَوْهُ هَذَا اللَّفْظَ لَيْسَا وَنَدْ لِيسَا عَلَى الْعُمْيَانِ وَالْعُوَرَانِ
فَاسْتَعْنْ كُلَّ مُنَافِقٍ وَمُكَذِّبٍ مِنْ بَاطِنِيٍّ قُرْمُطِيٍّ جَانِ
فِي ذَا بِسُنَّتِهِمْ وَسُمِّيَ جَحْدُهُ لِلْحَقِّ تَأْوِيلاً بِلاَ فُرْقَانِ
وَأَتَى بِتَأْوِيلٍ كَتَأْوِيلاَتِهِمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ صَارِخًا بِأَذَانِ
إِنَّا تَأَوَّلْنَا كَمَا أَوَّلْتُمُ فَأْتُوا لِنُحَاكِمَكُمْ إِلَى الْمِيزَانِ
فِي الْكَفَّتَيْنِ نَحُطُّ تَأْوِيلاَتِنَا وَكَذَاكَ تَأْوِيلاَتُكُمْ بِمِيزَانِ

هٰذَا وَقَدْ أَقْرَرْتُمْ أَنَّا بِأَبْـ ... ـدِنَا صَرِيحُ الْعَدْلِ وَالْمِيزَانِ

وَعَدَدْتُمْ فِيهِ لِلإِمَامِ لَنَا أَوْ ... لَيْسَ ذَلِكَ مَنْطِقُ الْيُونَانِ

مِثْلَ تَعْلِيلِكُمْ وَنَحْنُ شُيُوخُكُمْ ... لَا تَجْحَدُونَا مِنَّةَ الإِحْسَانِ

فَسَلُوا مَشَايِخَكُمْ سُؤَالَ تَفَهُّمٍ ... وَسَلُوا الْقَوَاعِدَ رَبَّةَ الأَرْكَانِ

مِنْ أَيْنَ جَاءَكُمْ وَأَيْنَ أُصُولُهَا ... وَعَلَى يَدَيْ مَنْ يَا أُولِي الْكُفْرَانِ

فَلأَيِّ شَيْءٍ نَحْنُ كُفَّارٌ وَأَنْـ ... ـتُمْ مُؤْمِنُونَ وَنَحْنُ مُتَّفِقَانِ

إِنَّ النُّصُوصَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... لَمْ تُفْضِ قَطُّ بِنَا إِلَى إِيقَانِ

فَلِذَاكَ حَكَّمْنَا الْعُقُولَ وَأَنْتُمُ ... أَيْضًا كَذَاكَ فَنَحْنُ مُصْطَلِحَانِ

فَلأَيِّ شَيْءٍ قَدْ رَمَيْتُمْ بَيْنَنَا ... حَرْبَ الْحُرُوبِ وَنَحْنُ كَالأَخَوَانِ

الأَصْلُ مَعْقُولٌ وَلَفْظُ الْوَحْيِ مَعْـ ... ـزُولٌ وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سَوَّانِ

لَا بِالنُّصُوصِ نَقُولُ نَحْنُ وَأَنْتُمُ ... أَيْضًا كَذَاكَ فَنَحْنُ مُصْطَلِحَانِ

فَذَرُوا عَدَاوَتَنَا فَإِنَّ وَرَاءَنَا ... ذَاكَ الْعَدُوَّ الثَّقْلَ ذُو الأَحْقَادِ

فَهُمُ عَدُوُّكُمْ وَكُمْ أَعْدَاؤُنَا ... فَجَمِيعُنَا فِي حَرْبِهِمْ سِيَّانِ

تِلْكَ الْمُجَسِّمَةُ الأُلَى قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَّ اللهَ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ قَوْلُنَا وَفِعَالُنَا ... وَإِلَيْهِ تَرْقَى رُوحُ ذِي الإِيمَانِ

وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً ... وَكَذَا ابْنُ مَرْيَمَ صَعْدَةَ الأَبْدَانِ

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ بِالذَّاتِ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ قَدْ زَالَتْ بِكُلِّ مَكَانِ

وَكَذَاكَ يَنْزِلُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... نَحْوَ السَّمَاءِ فَهَا هُنَا جِهَتَانِ

لِلابْتِدَاءِ وَالانْتِهَاءِ وَذَانِ لِلَّـ ... ـهِ أَجْسَامٌ أَبَانَ اللهُ مِنْ هَذَانِ

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ تَكَلَّمَ ... قَامَ الْكَلَامُ بِهِ فَيَا إِخْوَانِ

أَيَكُونُ ذَاكَ بِغَيْرِ حَرْفٍ أَمْ بِلَا ... صَوْتٍ فَهَذَا لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

وَكَذَاكَ قَالُوا مَا حَكَيْنَا عَنْهُمُ ... مِنْ قَبْلُ قَوْلَ مُحَبِّهِ الرَّحْمَنِ

فَذَرُوا الْحِرَابَ لَنَا وَشُدُّوا كُلُّنَا ... جَمْعًا عَلَيْهِمْ حَمْلَةَ الْفُرْسَانِ

حَتَّى نَسُوقَهُمْ بِأَجْمَعِنَا إِلَى ... وَسْطِ الْعَرِينِ مُمَزِّقِي اللُّحْمَانِ

فَلَقَدْ كَرَرْتُ بِالْفُصُوصِ وَمَا لَنَا ... بِلِقَائِهَا أَبَدَ الزَّمَانِ يَدَانِ

كَمْ ذَا يَقُولُ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... مِنْ فَوْقِ أَعْنَاقٍ لَنَا وَبَنَانِ

إِذْ نَحْنُ قُلْنَا قَالَ آرِسْطُو الْمُعَلِّـ ... ـمُ أَوَّلاً أَوْ قَالَ ذَاكَ الثَّانِي

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا ابْنُ سِينَا قَالَ ذَا ... أَوْ قَالَهُ الرَّازِي ذُو التِّبْيَانِ

قَالُوا لَنَا قَالَ الرَّسُولُ وَقَالَ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ كَيْفَ الدَّفْعُ لِلْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ أَنْتُمْ مِنْهُمُ أَيْضًا بِهَـ ... ـذَا الْمَنْزِلِ الْعُشْكِ الَّذِي لَرَبَانِ

إِنْ جِئْتُمُوهُمْ بِالْعُقُولِ أَتَوْكُمُ ... بِالنَّصِّ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

فَتَحَالَفُوا أَنَّا عَلَيْهِمْ كُلُّنَا ... حَرْبٌ وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ

فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْهُمُ فَحِلَافُنَا ... سَهْلٌ فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ أَخَوَانِ

فَالْعَرْشُ عِنْدَ فَرِيقِنَا وَفَرِيقِكُمْ ... مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ بِلاَ كِتْمَانِ

مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ سِوَى الْعَدَمِ الَّذِي ... لاَ شَيْءَ فِي الأَعْيَانِ وَالأَذْهَانِ

مَا اللهُ مَوْجُودٌ هُنَاكَ وَإِنَّمَا الْـ ... ـعَدَمُ الْمُحَقَّقُ فَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ

وَاللهُ مَعْدُومٌ هُنَاكَ حَقِيقَةً ... بِالذَّاتِ عَكْسَ مَقَالَةِ الدَّيْصَانِ

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِنَا ... وَفَرِيقِكُمْ وَحَقِيقَةُ الْعِرْفَانِ

وَكَذَا جَمَاعَتُنَا عَلَى التَّحْقِيقِ فِي التَّـ ... ـوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ

لَيْسَتْ كَلاَمَ اللهِ بَلْ قَيْضٌ مِنَ الْـ ... ـفَعَّالِ أَوْ خَلْقٌ مِنَ الأَكْوَانِ

فَالأَرْضُ مَا فِيهَا لَهُ قَوْلٌ وَلاَ ... فَوْقَ السَّمَا لِلْخَلْقِ مِنْ دَيَّانِ

يَتَسَرَّ أَتَى بِالْوَحْيِ وَهُوَ كَلاَمُهُ ... فِي ذَاكَ نَحْنُ وَأَنْتُمُ مِثْلاَنِ

وَكَذَاكَ قُلْنَا إِنْ رُؤْيَتَنَا لَهُ ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

وَزَعَمْتُمُ أَنَّا نَرَاهُ رُؤْيَةَ الْـ ... ـمَعْدُومِ لاَ الْمَوْجُودِ فِي الأَعْيَانِ[1]

إِذْ كُلُّ مَرْئِيٍّ بِقُومُ بِنَفْسِهِ ... أَوْ غَيْرِهِ لاَ بُدَّ فِي الْبُرْهَانِ

مِنْ أَنْ يُقَابِلَ مَنْ يَرَاهُ حَقِيقَةً ... مِنْ غَيْرِ بُعْدٍ مُفْرِطٍ وَتَدَانِ

وَلَقَدْ تَسَاعَدْنَا عَلَى إِبْطَالِ ذَا ... أَنْتُمْ وَنَحْنُ فَمَا هُنَا قَوْلاَنِ

---

(١) كذا في (ط) أما في (خ) [البرهان].

أمَّا الَّتِي فِيهَا قَوْلُ مُجَسِّمٍ ... قَالَ الْقُرْآنُ بَدَا مِنَ الرَّحْمَنِ

هُوَ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ مِنْهُ بَدَا ... لَفْظًا وَمَعْنًى لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

سَمِعَ الْأَمِينُ كَلَامَهُ مِنْهُ وَأَدْ ... دَاهُ إِلَى الْمُخْتَارِ مِنْ إِنْسَانِ

فَلَهُ الْأَدَاءُ كَمَا الْأَدَا لِرَسُولِهِ ... وَالْقَوْلُ قَوْلُ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ

هَذَا الَّذِي قُلْنَا وَأَلْسُنُهُمْ إِلَـ ... ـعَيْنِ الْمُحَالِ وَذَاكَ ذُو بُطْلَانِ

فَإِذَا لَسَاعَدَنَا جَمِيعًا أَلْسُنٌ ... مَا بَيْنَنَا لِلهِ مِنْ قُرْآنِ

إِلَّا كَمَا بَيْنَ اللهِ تِلْكَ إِضَافَةُ الْـ ... ـمَخْلُوقِ لَا الْأَوْصَافُ لِلدَّيَّانِ

فَعَلَامَ هَذَا الْحَرْبُ فِيمَا بَيْنَنَا ... مَعَ ذَا الْوِفَاقِ وَنَحْنُ مُصْطَلِحَانِ

فَإِذَا أَبَيْتُمْ سِلْمَنَا فَتَحَيَّزُوا ... لِمَقَالَةِ التَّجْسِيمِ بِالْإِذْعَانِ

عُودُوا مُجَسِّمَةً وَقُولُوا دِينُنَا الْـ ... ـإِثْبَاتُ دِينٍ مُشَبِّهِ الْأَدْيَانِ

أَوْ لَا فَلَا مِنَّا وَلَا مِنْهُمْ وَذَا ... شَأْنُ الْمُنَافِقِ إِذْ لَهُ وَجْهَانِ

هَذَا يَقُولُ مُجَسِّمٌ وَخَصُومُهُ ... لِرَبِّهِ بِالتَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

هُوَ قَائِمٌ هُوَ قَاعِدٌ هُوَ جَاحِدٌ ... هُوَ مُثْبِتٌ لِلذَّاتِ ذَا الْأَلْوَانِ

يَوْمًا بِتَأْوِيلٍ يَقُولُ وَتَارَةً ... يَسْطُو عَلَى التَّأْوِيلِ بِالنُّكْرَانِ

الشرح

وذلك أن المتكلمين بالكلام الباطل من جهمية ومعتزلة وقدرية وكلابية وأشعرية قد أشتركوا في نفي صفات الباري، وقد تفاوتوا في كثرة ما ينفونه منها، وكل فريق منهم فيما ينفيه من الصفات إذا وردت عليه النصوص من الكتاب والسنة في إثباتها تأولها تأويلات تنفي ما تدل عليه من المعاني الصريحة الظاهرة الحقة، وصرفها لمعان باطلة لا تدل عليه؛ لأجل موافقة نحلته ومذهبه.

وجرأهم على هذا التأويل أنَّهم سَموا المعاني الفلسفية والأصول اليونانية قواطع عقلية وبراهين يقينية وأدلة الكتاب والسنة ظواهر لفظية قابلة للتأويل، فسطوا عليها بالتأويلات الباطلة التي يجزم كل ذي بصيرة أنَّها خلاف مراد الله ورسوله منها.

ثم أنهم لابد أن يثبتوا أشياء من الصفات أو من الأسماء ويمتنعوا من تأويلها، ومن تأولها أنكروا عليه الإنكار، فصاروا بهذه الحال مذبذبين لا من النافين للرب المعطلين له بالكلية كالفلاسفة الزنادقة ونحوهم من كل مارق خارج عن الأديان ولا من أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبته الله ورسوله على الوجه الذي يفهمه كل أحد لم تفسد عقيدته القواعد الباطلة والمقالات الفاسدة فصاروا أعداء للطائفتين بما خالفوهم فيه وانقطعوا عند مناظرتهم لكل من الفريقين، وكانت الفلاسفة تعترض عليهم بما وافقوهم فيه من الأصول الباطلة يقولون لهم كيف لا تلتزمونها ولا تطردونها فتوافقونا على قولنا، وصار أهل السنة والجماعة لا يلزمونهم ويقولون لهم أن تأويلاتكم هذه من جنس تأويلات الفلاسفة الزنادقة -الذين لا يؤمنون بالله ورسله- لنصوص الكتاب والسنة في جميع الشريعة، فلأي شيء ساغ تأويل أهل الكلام من الجهمية ونحوهم لم يسغ تأويل الفلاسفة، بذلك سلطوا على أنفسهم أعداء الإسلام ويلزمونهم بالتحيز إليهم، وكفى شرًا بمقالة تصل بأصحابها إلى هذا الحد، وكان أهل السنة والجماعة ينكرون عليهم النفي والتعطيل ويقولون لهم هذا الخلاف ما أتت به الأدلة النقلية والعقلية، وقالوا لهم جميع الصفات من العلو والاستواء والكلام وغيرها صريحة في الوحيين لا ريب في دلالتها عليها، فبأي شيء فرقتم بينها فأثبتهم أشياء ونفيتم أشياء وجميعها وردت وردًا واحدًا، فعجزا عن الفرق الصحيح تشبثوا بفروق لفظية لا حقائق معنوية، فادعى بعضهم ما أشار إليه في هذا الفصل.

فصل

في المطالبة بالفرق بين ما يتأول وما لا يتأول

فَنَقُولُ فَرِّقْ بَيْنَ مَا أَوَّلْتَهُ ... وَنَعَتَّهُ بِقَرِينَةٍ ذِي بُرْهَانِ

فَيَقُولُ مَا يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ أَوْ ... وَلَّدْتَهُ مِنْ خَبْرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

كَالاسْتِوَاءِ مَعَ النُّكُولِ هَكَذَا ... لَفْظُ النُّزُولِ كَذَاكَ لَفْظُ يَدَانِ

إِذْ هَذِهِ أَوْصَافُ جِسْمٍ مُحْدَثٍ ... لَا يَنْبَغِي لِلْوَاحِدِ الْمَنَّانِ

فَنَقُولُ أَنْتَ وَصَفْتَهُ أَيْضًا بِمَا ... يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ وَالْحِدْثَانِ

فَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالأَبْصَارِ مَعْ ... نَفْيِ الْحَيَاةِ وَعِلْمِ ذِي الأَكْوَانِ

وَوَصْفُهُ بِمَشِيئَةٍ مَعَ قُدْرَةٍ ... وَكَلَامِهِ النَّفْسِيِّ وَهُوَ مَعَانِ

أَوْ وَاحِدٌ وَالْجِسْمُ حَامِلُ هَذِهِ الْـ ... أَوْصَافِ حَقًّا قَامَتْ بِالْقُرْآنِ

بَيْنَ الَّذِي يَفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ أَوْ ... لَا يَقْتَضِيهِ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

وَاللهِ لَوْ نُشِرَتْ شُيُوخُكَ كُلُّهُمْ ... لَمْ يَقْدِرُوا أَبَدًا عَلَى الْفُرْقَانِ

الشرح

وهذه المطالبة موجهة إلى الكلابية والأشعرية والماتريدية الذين يثبتون الصفات السبع، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر، وينفون ما عداها من الرحمة والرضى والغضب والعلو والاستواء على العرش وغيرها فإذا قيل لهم فرقوا بين ما أثبتم وما نفيتم إذ الجميع وردت في الكتاب والسنة ورودًا واحدًا مثبتة لله كسائر ما يثبت له من الأسماء والأوصاف، فكيف تأولتم ما نفيتم وتركتم ما أثبتم، فقالوا ما يقتضي التجسيم تأولناه؛ لأن الجسم من خصائص المحدثات المخلوقة فهذا الذي تأولناه ما نعقل منه إلا التجسيم فتعين فيه التأويل، بخلاف الصفات السبع فإنها لا تدل على التجسيم بل تثبت لله على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته.

فقال هل أهل الإثبات: هلا سلكتم هذا المسلك في الصفات الأخرة وأثبتموها لله على وجه لا يماثله فيه أحد من الخلق بوجه من الوجوه كما هو الحق الواجب، فتفريقكم بين الأمرين تفريق بين متماثلين، فإذا قالوا ما نفهم من هذا الذي تأولناه إلا التجسيم فتعين نفيه قال لهم النفاة من الجهمية ونحوهم: ما نفهم من الصفات السبع إلا التجسيم، فتعين نفيها، فما أجابوا به الجهمية من أنهم يثبتوها وينفون عنها خصائص المخلوقين يقول لهم أهل السنة فافعلوا هذا في بقية الصفات فالباب واحد، وإلا فبينوا فرقًا صحيحًا.

ومن المعلوم اليقيني أنهم لا يهتدون إلى فرق بين الصفات بإثبات بعضها ونفي بعضها، ولو نشرت شيوخهم لعلمنا أن الجميع طريقه واحد، والتماثل بين الصفات أم يقيني قطعي لا يؤثر فيه الشبهات والفروق الخيالية.

فلذلك فرَّ بعضهم إلى فرق آخر خيالي وهي فقال: ما دل عليه العقل وهو الصفات

السبع أثبتناها، فإن وجود المخلوقات دل على القدرة، وما فيها من التخصيصيات دال على الإرادة.

وذلك دليل العلم، والعلم والقدرة والإرادة تدل على الحياة والحياة الكاملة تدل على السمع والبصر والكلام.

وما لا يدل عليه العقل نفيناه وهو ما سوى المذكورات.

فقال لهم أهل السنة: هذا عجب منكم كيف أنكرتم التجسيم غاية الإنكار وقامت لذلك قيامتكم وزعمتم أن كل موصوف فهو جسم، ثم أثبتم هذه الصفات السبع ولم تتحاشوا من كونها دالة على التجسم.

فإن كان في العقل ما يدل على التجسيم وأنتم تنفونه غاية النفي فيلزمكم نفي الصفات السبع وموافقة الجهمية في النفي التام، وإن كان فيه ما يدل على ثبوته فلأي شيء تفرون من إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له أعلم خلقه وأتقاهم وأورعهم، وإذا قلتم أنه منفي في شيء دون شيء فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

ويقال أيضًا: نفي الدليل المعين لا يدل على نفي المدلول، فقدروا أن بقية الأوصاف لم يدل عليها العقل، فالسمع قد دل عليها دلالة واضحة جلية قاطعة، ودلالة السمع دلالة شرعية يقينية متفق عليها بين حملة الشريعة، فيجب اتباع الدليل السالم من المعارض والمقاوم.

ثم يقال أيضًا: قد ثبت كثير من الصفات الخبرية بأمور عقلية عيانية، فما في المخلوقات من أنواع المنافع والمصالح والنعم يدل على رحمة الخالق، وما يشاهد من إكرامه أوليائه وإهانة أعدائه أكبر دليل على رضاه على هؤلاء وغضبه على الأعداء، وما يشاهد من إحكام المخلوقات وإتقانها وحكم الشرائع وأسرارها دال على كمال حكمة الله فهذه الصفات ثابتة شرعًا وعقلاً وفطرة فعلم أن المفرقين في ضلال بعيد.

فصل

في ذكر فرق لهم آخر وبيان بطلانه

فَلِذَاكَ قَالَ زَعِيمُهُمْ فِي نَفْيِهِ فَرْقًا سِوَى هَذَا الَّذِي تَرَيَانِ

هَذِي الصِّفَاتُ عَقُولُنَا دَلَّتْ عَلَى إِثْبَاتِهَا مَعْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ

فَلِذَاكَ صُنَّاهَا عَنِ التَّأْوِيلِ فَاعْـ ـجَبْ يَا أَخَا التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ
كَيْفَ اعْتِرَافُ الْقَوْمِ أَنَّ عُقُولَهُمْ دَلَّتْ عَلَى التَّجْسِيمِ بِالْبُرْهَانِ
فَيُقَالُ هَلْ فِي الْعَقْلِ تَجْسِيمٌ أَمِ الْـ ـمَعْقُولُ نَنْفِيهِ كَذَا النُّقْصَانِ
إِنْ قُلْتُمُ نَنْفِيهِ فَاتْلُوا هَذِهِ الْـ أَوْصَافَ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْقُرْآنِ
أَوْ قُلْتُمُ نَقْضِي بِإِثْبَاتٍ لَهُ فَفِرَارُكُمْ مِنْهَا لِأَيِّ مَعَانِ
أَوْ قُلْتُمُ نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ وَلَا نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ بِلَا بُرْهَانِ
فَيُقَالُ مَا الْفُرْقَانُ بَيْنَهُمَا وَمَا الْـ ـبُرْهَانُ فَأْتُوا الْآنَ بِالْفُرْقَانِ
وَيُقَالُ قَدْ شَهِدَ الْعِيَانُ بِأَنَّهُ ذُو حِكْمَةٍ وَعِنَايَةٍ وَحَنَانِ
مَعْ رَأْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَتَابِعِي الْقُرْآنِ
وَلِذَاكَ خُصُّوا بِالْكَرَامَةِ دُونَ أَعْـ ـدَاءِ الْإِلَهِ وَشِيعَةِ الْكُفْرَانِ
وَهُوَ الدَّلِيلُ لَنَا عَلَى غَضَبٍ وَبُغْـ ـضٍ مِنْهُ مَعْ مَقْتٍ لِذِي الْعِصْيَانِ
وَالنَّصُّ جَاءَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مَعْ مِثْلِ الصِّفَاتِ السَّبْعِ فِي الْقُرْآنِ
وَيُقَالُ سَلَّمْنَا بِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُفْضِي إِلَيْهَا فَهْيَ فِي الْفُرْقَانِ
أَفَنَفْيُ آحَادِ الدَّلِيلِ يَكُونُ لِلْـ ـمَدْلُولِ نَفْيًا يَا أُولِي الْعِرْفَانِ
أَوْ نَفْيُ مُطْلَقِهِ يَدُلُّ عَلَى انْتِفَا الْـ ـمَدْلُولِ فِي عَقْلٍ وَفِي قُرْآنِ
أَفَبَعْدَ ذَا الْإِنْصَافِ وَيَحْكُمُو سِوَى مَحْضِ الْعِنَادِ وَنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ
وَتَحَيُّزٍ مِنْكُمْ إِلَيْهِمْ لَا إِلَى الْـ ـقُرْآنِ وَالْآثَارِ وَالْإِيمَانِ

فصل

في بيان مخالفة طريقهم لطريق أهل الاستقامة عقلاً ونقلاً

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَهُمْ عَكْسُ الطَّرِيـ ـقِ الْمُسْتَقِيمِ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ
جَعَلُوا كَلَامَ شُيُوخِهِمْ نَصًّا لَهُ الْـ إِحْكَامُ مَوْزُونًا بِهِ النُّصَّانِ

وَكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدِهِ[1] مُتَشَابِهًا مُتَحَمِّلًا لِمَعَانِ

فَوَلَدْتَ مِنْ ذِهْنِكَ الأَصْلَيْنِ أَوْ لَادٌ أَتَتْ لِلْغَيِّ وَالْبُهْتَانِ

إِذْ مِنْ سِفَاحٍ لَا نِكَاحٍ كَوْنُهَا بِنْسَ الْوَلِيدُ وَبِئْسَتِ الأَبَوَانِ

عَرَضُوا النُّصُوصَ عَلَى كَلَامِ شُيُوخِهِمْ فَكَأَنَّهَا جَيْشٌ لِذِي سُلْطَانِ

وَالْعَزْلُ وَالإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى السُّـ ـلْطَانِ دُونَ رَعِيَّةِ السُّلْطَانِ

وَكَذَاكَ أَقْوَالُ الشُّيُوخِ فَإِنَّهَا الْـ ـمِيزَانُ دُونَ النَّصِّ وَالْقُرْآنِ

إِنْ وَافَقَا قَوْلَ الشُّيُوخِ فَمَرْحَبًا أَوْ خَالَفَتْ فَالدَّفْعُ بِالإِحْسَانِ

إِمَّا بِتَأْوِيلٍ فَإِنْ أَعْيَا فَتَفْـ ـوِيضٌ وَتَرْكُهَا لِقَوْلِ فُلَانِ

إِذْ قَوْلُهُ نَصٌّ لَدَيْنَا مُحْكَمٌ فَظَوَاهِرُ الْمَنْقُولِ ذَاتُ مَعَانِ

وَالنَّصُّ فِيهِ بِهِ عَلَيْهِمْ دَوْلَةٌ وَبِحَالِهِ مَا حِيلَةُ الْعُمْيَانِ

إِلَّا تَسَكُّعُهُمْ بِأَيْدِي مُبْصِرٍ حَتَّى يَقُودَهُمُ كَذِي الأَرْسَانِ

فَاعْجَبْ لِعُمْيَانِ الْبَصَائِرِ أَبْصَرُوا كَوْنَ الْمُقَلِّدِ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

وَرَأَوْهُ بِالتَّقْلِيدِ أَوْلَى مِنْ سِوَا هُ بِغَيْرِ مَا بَصَرٍ وَلَا بُرْهَانِ

وَعَمُوا عَنِ الْوَحْيَيْنِ إِذْ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُمَا عَجَبًا لِذِي الْحِرْمَانِ

قَوْلُ الشُّيُوخِ أَتَمُّ بَيَانًا مِنَ الْـ ـوَحْيَيْنِ لَا وَالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

النَّقْلُ نَقْلٌ صَادِقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ ذِي عِصْمَةٍ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

وَسِوَاهُ إِمَّا كَاذِبٌ أَوْ صَحَّ لَمْ يَكُ قَوْلَ مَعْصُومٍ وَذِي تِبْيَانِ

أَفَيَسْتَوِي الثَّقَلَانِ يَا أَهْلَ النُّهَى وَاللهِ لَا يَتَمَالَأُ الثَّقَلَانِ

هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا فِي اللهِ نَحْنُ لِأَجْلِهِ خَصْمَانِ

نَصَرُوا الضَّلَالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ لَكِنْ نَصَرْنَا مُوجَبَ الْقُرْآنِ

وَلَنَا سُؤَالٌ حِدَّ مَسْلَكِهِمْ فَمَا رَجُلَانِ مِنَّا قَطُّ يَلْتَقِيَانِ

إِنَّا أَبَيْنَا أَنْ نَدِينَ بِمَا بِهِ دَانُوا مِنَ الآرَاءِ وَالْبُهْتَانِ

إِنَّا عَرَفْنَاهَا وَلَمْ نَعْبَأْ بِهَا يَكْفِي الرَّسُولُ وَمُحْكَمُ الْفُرْقَانِ

---

(١) كذا في (خ، س) وفي (ط) [تأويلهم وقول رسولهم].

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَفِّهِ ذَانِ فَلاَ كَفَا ... هُ اللهُ شَرَّ حَوَادِثِ الأَزْمَانِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِشَفِيهِ ذَانِ فَلاَ شَفَا ... هُ اللهُ فِي قَلْبٍ وَلاَ أَبْدَانِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِغَيْبِهِ ذَانِ رَمَاهُ رَبْ ... بُ الْعَرْشِ بِالإِعْدَامِ وَالْحِرْمَانِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِهَدْيِهِ ذَانِ فَلاَ هَدَا ... هُ اللهُ سُبْلَ الْحَقِّ وَالإِيمَانِ
إِنَّ الْكَلاَمَ مَعَ الْكِبَارِ وَلَيْسَ مَعْ ... تِلْكَ الأَرَاذِلِ ثِقْلَةُ الْحَيَوَانِ
أَوْ نَاحَ هَذَا الْخَلْقُ بَلْ أَنْثَالَهُ ... جَيْشُ الْوُجُودِ وَأَحْدَثَ الأَذَانِ
الطَّالِبِينَ دِمَاءَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْـ ... ـكُفْرَانِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ
الشَّانِئِي أَهْلَ الْحَدِيثِ عَدَاوَةً ... لِلسُّنَّةِ الْغَلْبَا مَعَ الْقُرْآنِ
جَعَلُوا مَسَبَّتَهُمْ طَعَامَ خُلُوقِهِمْ ... فَاللهُ يَقْطَعُهَا مِنَ الأَذْقَانِ
كِبْرًا وَإِعْجَابًا وَتِيهًا زَائِدًا ... مُتَجَاوِزًا لِمَرَاتِبِ الإِنْسَانِ
لَوْ كَانَ هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةٍ ... كُنَّا حَمَلْنَا رَايَةَ الشُّكْرَانِ
لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ كُلِّ تَخَلُّفٍ ... عَنْ زُلَّةِ الإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ
مَنْ لِي بِشَيْءٍ خَوَارِجٍ قَدْ كَفَّرُوا ... بِالذَّنْبِ تَأْوِيلاً بِلاَ إِحْسَانِ
وَلَهُمْ نُصُوصٌ قَصَّرُوا فِي فَهْمِهَا ... فَأَتَوْا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْعِرْفَانِ
وَخُصُومُنَا قَدْ كَفَّرُونَا بِالَّذِي ... هُوَ غَايَةُ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ

الشرح

اعلم طريق أهل الكلام والباطل مخالف لطريق أهل الاستقامة من جهة التأصيل والتفريع، وذلك أن أصل طريقهم الذي بنوا عليه قواعدهم وأقوالهم وأعمالهم أن رأي متبوعهم وشيوخهم وعقولهم في الأصل الأصيل، وهو النص الواضح الذي توزن به المقالات، فإذا جاءهم كلام الله كلام رسوله مخالفًا لهذا الأصل قالوا هذا متشابه يحتمل عدة معاني، وكلام متبوعنا نص لا احتمال فيه فإن أمكنكم التأويل والتحريف فعلوا ذلك، وإلا قالوا متشابه لا يعلمه إلا الله.

وإذا قيل لهم هذا بيان الله ورسوله ما فيه اشتباه ولا إشكال أجابوا بأننا مقلدون ومتبوعنا

أعلم منا بمراد الله ومراد رسوله، فهذا من أعجب العجب، كيف اهتدوا مع اعترافهم أنهم مقلدون عاجزون عن الاستدلال أن يعينوا أولوية ذلك المتبوع على غيره، بل اهتدوا لوجوب اتباعه وإهدار أقوال من سواه، كيف نهض بهم الاستدلال إلى هذا الحد وهو من أصعب الأشياء وعجزوا عن الأخذ عن الله ورسوله مع استيلاء الوحيين على غاية البيان والبلاغة.

ولا ريب أن هذا غاية الحرمان.

والمقصود أن طريق هؤلاء المتكلمين أخبث الطرق، إذ جعلوا أصولهم في الأصل وكلام الله ورسوله تبعًا لها، فما وافقها قبلوه وإلا حرفوه أو فوضوه.

أما طريقه أهل الاستقامة فإنها بالعكس من هذا الطريق، بل سلكوا الصراط المستقيم وتبعوا بذلك سيد المرسلين وأتباعه من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، حيث كان أصلهم الذي عليه يتعمدون وفي أصولهم وفروعهم إليه يرجعون كتاب الله وسنة رسوله إذ فيهما الهدى التام والكفاية والشفا والغنى عما سواهما، فصدقوا أخبارهما وحققوا أوامرهما بالامتثال والنواهي بالاجتناب، وعلموا أن الحق ما اشتمل عليه الكتاب والسنة وليس بعد الحق إلا الضلال، وعرضوا جميع المقالات والعقائد عليهما فما وافق ذلك قبلوه وما خالفه ردوه على من قاله، وعلموا أن كل أحد من الخلق يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما أشكل عليهم هل هو موافق أو مخالف من المقالات الغامضة والألفاظ المجملة توقفوا فيه ولم يحكموا له بقبول ولا رد حتى يتبين حاله.

فهذه الطريق هي المنجية العاصمة من المهالك، والكفيلة ببيان الحقائق وتعدي الخلائق، التي من استمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقى والسبب الأقوى فإن النقل نقل مصدق والقائل معصوم، وأما غير الرسول من النقلة والقائلين فالنقل غير مصدق بل يعتريه من الكذب والتغيير شيء كثير، ثم القائل غير معصوم لا وثوق لأحد بقوله في فرع من فروع الذين فضلًا عن أصوله فضلاً عن تقديمه على الأصول الكبار، فهذا تحقيق الفرق، ولا يخفى الأمر على أولي الألباب.

فصل
في بيان كذبهم ورميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج
وبيان شبههم المحقق بالخوارج

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ ... قَدْ دَانَ بِالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ
أَنْتُمْ بِدَا مِثْلُ الْخَوَارِجِ إِنَّهُمْ ... أَخَذُوا الظَّوَاهِرَ مَا اقْتَدَوْا لِنَعَانِ
فَانْظُرْ إِلَى ذَا الْبُهْتِ هَذَا وَصْفُهُمْ ... لَمْ يَأْتُوا إِلَيْهِ شِيعَةَ الإِيمَانِ
سَلُّوا عَلَى سُنَنِ الرَّسُولِ وَحِزْبِهِ ... سَيْفَيْنِ سَيْفَ يَدٍ وَسَيْفَ لِسَانِ
خَرَجُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا خَرَجَ الأُلَى[1] ... مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
وَاللهِ مَا كَانَ الْخَوَارِجُ هَكَذَا ... وَهُمُ الْبُغَاةُ أَئِمَّةُ الطُّغْيَانِ
كَفَّرْتُمْ أَصْحَابَ سُنَّتِهِ وَهُمْ ... فُسَّاقُ مِلَّتِهِ فَمَنْ بِلَحَانِي
إِنْ قُلْتَ هُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى مِنْكُمُ ... وَاللهِ مَا الْفِتْيَانِ مُسْتَوِيَانِ
شَتَّانَ بَيْنَ مُكَفِّرٍ بِالسُّنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا وَبَيْنَ مُكَفِّرِ الْعِصْيَانِ
قُلْتُمْ تَأَوَّلْنَا كَذَاكَ تَأَوَّلُوا ... وَكِلَاكُمَا فِتْيَانِ بَاغِيَتَانِ
وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِيزَةُ التَّعْطِيلِ وَالـ ... ـتَحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْبُهْتَانِ
وَلَهُمْ عَلَيْكُمْ مِيزَةُ الإِثْبَاتِ وَالتَّـ ... ـصْدِيقِ مَعْ خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
أَلَكُمْ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ إِذْ ... لَهُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِمْ وِزْرَانِ
حَاشَا رَسُولَ اللهِ مِنْ ذَا الْحُكْمِ بَلْ ... أَنْتُمْ وَهُمْ فِي حُكْمِهِ بِيَانِ
وَكِلَاكُمَا لِلنَّصِّ فَهْوَ مُخَالِفٌ ... هَذَا وَبَيْنَكُمَا مِنَ الْفُرْقَانِ
هُمْ خَالَفُوا نَصًّا لِنَصٍّ مِثْلِهِ ... لَمْ يَفْهَمُوا التَّوْفِيقَ بِالإِحْسَانِ
لَكِنَّكُمْ خَالَفْتُمُ الْمَنْصُوصَ لِلشَّـ ... ـبَهِ الَّتِي هِيَ فِكْرَةُ الأَذْهَانِ
فَلِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمُ خَيْرٌ وَأَقْـ ... ـرَبُ مِنْهُمُ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ
هُمْ قَدَّمُوا الْمَفْهُومَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَا ... بِ عَلَى الْحَدِيثِ الْمُوجِبِ التِّبْيَانِ

---

(١) كذا في (خ، س) وفي (ط) [هَكَذَا].

لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمُو رَأْيَ الرِّجَا ... لِ عَلَيْهِمَا أَفَأَنْتُمَا عِدْلَانِ
أَمْ هُمْ إِلَى الإِسْلَامِ أَقْرَبُ مِنْكُمُ ... لَاحَ الصَّبَاحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ
وَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْجَزَا ... بِالْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ وَالْمِيزَانِ
هَذَا وَنَحْنُ فَمِنْهُمُ بَلْ مِنْكُمُ ... بُرَآءُ إِلَّا مِنْ هُدًى وَبَيَانِ
فَاسْمَعْ إِذًا قَوْلَ الْخَوَارِجِ ثُمَّ قَوْ ... لَ خُصُومِنَا وَاحْكُمْ بِلَا مَيْلَانِ
مَنْ ذَا الَّذِي مِنَّا إِذًا أَشْبَاهُهُمْ ... إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَذَا عِرْفَانِ
قَالَ الْخَوَارِجُ لِلرَّسُولِ اعْدِلْ فَلَمْ ... تَعْدِلْ وَمَا ذِي قِسْمَةُ الدَّيَّانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِي قَالَ نَظِيرَ ذَا ... لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ فِي الطُّغْيَانِ
قَالَ الصَّوَابُ بِأَنَّهُ اسْتَوْلَى فَلِمْ ... قُلْتَ اسْتَوَى وَعَدَلْتَ عَنْ تِبْيَانِ
وَكَذَاكَ يَنْزِلُ أَمْرُهُ سُبْحَانَهُ ... لِمَ قُلْتَ يَنْزِلُ صَاحِبُ الْغُفْرَانِ
مَاذَا بِعَدْلٍ فِي الْعِبَارَةِ وَهْيَ مُو ... هِمَةُ التَّحَرُّكِ وَانْتِقَالِ مَكَانِ
وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّ رَبَّكَ فِي السَّمَا ... أَوْهَمْتَ حَيْزَ خَالِقِ الأَكْوَانِ
كَانَ الصَّوَابُ بِأَنْ يُقَالَ بِأَنَّهُ ... فَوْقَ السَّمَا سُلْطَانُ ذِي السُّلْطَانِ
وَكَذَاكَ قُلْتَ إِلَيْهِ يُعْرَجُ وَالصَّوَا ... بُ إِلَى كَرَامَةِ رَبِّنَا الْمَنَّانِ
وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّ مِنْهُ يَنْزِلُ الْـ ... ـقُرْآنُ تَنْزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ
كَانَ الصَّوَابُ بِأَنْ يُقَالَ نُزُولُهُ ... مِنْ لَوْحِهِ أَوْ مِنْ مَحَلٍّ ثَانِ
وَتَقُولُ أَيْنَ اللهُ ذَاكَ الأَيْنُ مُمْـ ... ـتَنِعٌ عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ
لَوْ قُلْتَ مَنْ كَانَ الصَّوَابَ كَمَا تَرَى ... فِي الْقَبْرِ يَسْأَلُ ذَنْكَ الْمَلَكَانِ
وَتَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّاهِدُ الْـ ... أَعْلَى تُشِيرُ بِإِصْبَعٍ وَبَنَانِ
نَحْوَ السَّمَاءِ وَمَا إِشَارَتُنَا لَهُ ... حِسِّيَّةٌ بَلْ تِلْكَ فِي الأَذْهَانِ
وَاللهِ مَا نَدْرِي الَّذِي نُبْدِيهِ فِي ... هَذَا مِنَ التَّأْوِيلِ لِلإِخْوَانِ
قُلْنَا لَهُمْ إِنَّ السَّمَا هِيَ قِبْلَةُ الدُّ ... دَاعِي كَبَيْتِ اللهِ ذِي الأَرْكَانِ
قَالُوا لَنَا هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ ... فَوْقَ السَّمَا بِأَوْضَحِ الْبُرْهَانِ
فَالنَّاسُ طُرًّا إِنَّمَا يَدْعُونَهُ ... مِنْ فَوْقِ هَذِي فِطْرَةُ الرَّحْمَنِ

لاَ يَسْأَلُونَ الْقِبْلَةَ الْعُلْيَا وَلَـ ... ـكِنْ يَسْأَلُونَ الرَّبَّ ذَا الإِحْسَانِ

قَالُوا وَمَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ إِلَى ... غَيْرِ الشَّهِيدِ مُنَزِّلِ الْفُرْقَانِ

أَتُرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَنْهِدًا ... حَاشَاهُ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي الْبُهْتَانِ

وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... وَكَلاَمُهُ الْمَسْمُوعُ بِالآذَانِ

نَادَى الْكَلِيمَ بِنَفْسِهِ وَكَذَاكَ قَدْ ... سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الأَبْوَانِ

وَكَذَا يُنَادِي الْخَلْقَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... بِالصَّوْتِ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلاَنِ

إِلَى أَنَا الدَّيَّانُ آخُذُ حَقَّ مَظْـ ... ـلُومٍ مِنَ الْعَبْدِ الظَّلُومِ الْجَانِي

وَلِقَوْلِهِ إِنَّ اللهَ قَالَ وَقَالَ ... وَكَذَا يَقُولُ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

قَوْلٌ بِلاَ حَرْفٍ وَلاَ صَوْتٍ يُرَى ... مِنْ غَيْرِ مَا شَفَةٍ وَغَيْرِ لِسَانِ

أَوْقَعْتَ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ مَنْ ... لَمْ يَنْفِ مَا قَدْ قُلْتَ فِي الرَّحْمَنِ

لَوْ لَمْ تَقُلْ فَوْقَ السَّمَاءِ وَلَمْ تُشِرْ ... بِإِشَارَةٍ حِسِّيَّةٍ بَيَّانِ

وَسَكَتَّ عَنْ تِلْكَ الأَحَادِيثِ الَّتِي ... قَدْ صَرَّحَتْ بِالْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ

وَذَكَرْتَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِدَاخِلٍ ... فِينَا وَلاَ هُوَ خَارِجُ الأَكْوَانِ

كَذَا انْتَفَتْ مِنْ أَوْلِيِ التَّجْسِيمِ بَلْ ... كَانُوا لَنَا أُسْرَى عَبِيدَ هَوَانِ

لَكِنْ مَنَحْتَهُمُ سِلاَحًا كُلَّمَا ... شَاءُوا لَنَا مِنْهُمْ أَشَدَّ طِعَانِ

وَعَدَوْا بِأَسْهُمِكَ الَّتِي أَغْطَيْتَهُمْ ... يَرْمُونَنَا غَرَضًا بِكُلِّ مَكَانِ

لَوْ كُنْتَ تَعْدِلُ فِي الْعِبَارَةِ بَيْنَنَا ... مَا كَانَ يُوجَدُ بَيْنَنَا رَجُفَانِ

هَذَا لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي ... ذَاتِ الصُّدُورِ يَقُولُ بِالْكِتْمَانِ

يَبْدُوا عَلَى قَلَقَاتِ أَلْسِنِهِمْ وَفِي ... صَفَحَاتِ أَوْجُهِهِمْ يُرَى بِعِيَانِ

سِيمَا إِذَا قُرِئَ الْحَدِيثُ عَلَيْهِمُ ... وَتَلَوْتَ شَاهِدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ

فَهُنَالِكَ بَيْنَ النَّازِعَاتِ وَكُوِّرَتْ ... تِلْكَ الْوُجُوهُ كَثِيرَةُ الأَلْوَانِ

وَبِكَادُ قَائِلُهُمْ بِصَرْحٍ لَوْ يَرَى ... مِنْ قَابِلٍ فَتَرَاهُ ذَا كُثْمَانِ

يَا قَوْمُ شَاهِدُنَا وُعُوسُكُمْ عَلَى ... هَذَا وَلَمْ تَشْهَدْهُ مِنْ إِنْسَانِ

[إِلاَّ وَحَشْوُ فُؤَادِهِ غِلٌّ عَلَى ... سُنَنِ الرَّسُولِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ]

وَهُوَ الَّذِي فِي كُتُبِهِمْ لَكِنْ بِلَفْـ ... ـظٍ عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانِ

وَأَخُو الْجَهَالَةِ بَسْطَةٌ لِلْفَظِّ وَالْـ ... ـمَعْنَى فَنَسْبُ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

يَا مَنْ يَظُنُّ بِأَنَّنَا حَقْنَا عَلَيْـ ... ـهِمْ كُتُبُهُمْ تُنِيلُكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

فَانْظُرْ تَرَى لَكِنْ تَرَى لَكَ تَرْكَهَا حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَائِدَ الشَّيْطَانِ

فَشِبَاكُهَا وَاللهِ لَمْ يُعْلَقْ بِهَا مِنْ ذِي جَنَاحٍ قَاصِرِ الطَّيَرَانِ

إِلاَّ رَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي قَفَصِ الرَّدَى يَبْكِي لَهُ نَوْحَ عَلَى الأَغْصَانِ

وَيَظَلُّ يَخْبِطُ طَالِبًا لِخَلاَصِهِ فَيَضِيقُ عَنْهُ فُرْجَةُ الْعِيدَانِ

وَالذِّئْبُ ذَلَّبَ الطَّيْرِ أَخْلَى طِيبَ الثَّـ ... ـمَرَاتِ فِي عَالٍ مِنَ الأَفْنَانِ

وَأَتَى إِلَى تِلْكَ الْمَزَابِلِ يَبْتَغِي الْـ ... ـفَضَلاَتِ كَالْحَشَرَاتِ وَالدِّيدَانِ

يَا قَوْمُ وَاللهِ الْعَظِيمِ نَصِيحَةً مِنْ مُشْفِقٍ وَأَخٍ لَكُمْ مِعْوَانِ

جَرَّبْتُ هَذَا كُلَّهُ وَوَقَعْتُ فِي تِلْكَ الشِّبَاكِ وَكُنْتُ ذَا طَيَرَانِ

حَتَّى أَتَاحَ لِي الإِلَهُ بِفَضْلِهِ مَنْ لَيْسَ تَجْرِيهِ يَدِي وَلِسَانِي

حَرَّ أَتَى مِنْ أَرْضِ حَرَّانَ فَيَا أَهْلاً بِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ حَرَّانِ

فَاللهُ يَجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ مِنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الرِّضْوَانِ

أَخَذَتْ يَدَاهُ يَدِي وَسَارَ فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى أَرَانِي مَطْلَعَ الإِيمَانِ

وَرَأَيْتُ أَعْلاَمَ الْمَدِينَةِ حَوْلَهَا نُزُلَ الْهُدَى وَعَسَاكِرَ الْقُرْآنِ

وَرَأَيْتُ آثَارًا عَظِيمًا شَأْنُهَا مَحْجُوبَةً عَنْ زُمْرَةِ الْعُمْيَانِ

وَوَرَدْتُ رَأْسَ الْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيًا حَصْبَاؤُهُ كَلآلِئِ الْجُمَّانِ

وَرَأَيْتُ أَكْوَابًا هُنَالِكَ كَثِيرَةً مِثْلَ النُّجُومِ لِوَارِدٍ ظَمْآنِ

وَرَأَيْتُ حَوْضَ الْكَوْثَرِ الصَّافِي الَّذِي لاَ زَالَ يَنْضَحُ فِيهِ مِيزَابَانِ

مِيزَابُ سُنَّتِهِ وَقَوْلُ إِلَهِهِ وَهُمَا مَدَى الأَيَّامِ لاَ يَنِيَانِ

وَالنَّاسُ لاَ يَرِدُونَهُ إِلاَّ مِنَ الْـ ... ـآلاَفِ أَفْرَادًا ذَوِي إِمْعَانِ

وَرَدُوا عَذَابَ مَنَاهِلٍ أَكْرِمْ بِهَا وَوَرَدْتُمُ أَنْتُمْ عَذَابَ هَوَانِ

فَبِحَسْبِ مَنْ أَعْطَاكُمْ ذَا الْعَدْلَ وَالْـ ... ـإِنْصَافَ وَالتَّخْصِيصَ بِالْعِرْفَانِ

مَنْ ذَا عَلَى دِينِ الْخَوَارِجِ بَعْدَ ذَا ... أَنْتُمْ أَمِ الْحَشْوِي مَا تَرَيَانِ

وَاللهِ مَا أَنْتُمْ لَدَى الْحَشْوِي أَهْـ ... ـلاً أَنْ يُقَدِّمَكُمْ عَلَى غُثْمَانِ

فُضَلاً عَنِ الْفَارُوقِ وَالصِّدِّيقِ فَضْـ ... ـلاً عَنْ رَسُولِ اللهِ وَالْقُرْآنِ

وَاللهِ لَوْ أَبْصَرْتُمُ لَرَأَيْتُمُ الْـ ... ـحَشْوِي حَامِلَ رَايَةِ الإِيمَانِ

وَكَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدِهِ ... فِي قَلْبِهِ أَغْلَى وَأَكْرَمُ شَانِ

مِنْ أَنْ يُحَرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَأَنْ ... يَقْضِي لَهُ بِالْعَزْلِ عَنْ إِيقَانِ

وَيَرَى الْوِلَايَةَ لِابْنِ بِنْتٍ أَوْ أَبِي ... نَصْرٍ أَوِ الْمَوْلُودِ مِنْ صَفْوَانِ

أَوْ مَنْ يُتَابِعُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ ... أَوْ مَنْ يُقَلِّدُهُمْ مِنَ الْعُمْيَانِ

يَا قَوْمَنَا بِاللهِ قُومُوا وَانْظُرُوا ... وَتَفَكَّرُوا فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ

نَظَرًا وَإِنْ شِئْتُمْ مُنَاظَرَةً فَمَنْ ... مُنْتَسٍ عَلَى هَذَا وَمَنْ وُخْدَانِ

أَيِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ ذَا أَدْنَى إِلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

فَإِذَا تَبَيَّنَ ذَا فَإِمَّا أَنْ تَعُوا ... أَوْ تَعْذِرُوا أَوْ تُؤْذِنُوا بِطِعَانِ

الشرح

بدعة الخروج معروفة، وهم الحرورية الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والصحابة وكَفَّروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وأسوا لهم بدعة خبيثة وهي تكفير أهل الكبائر وتخليدهم في النار، وإنكار الشفاعة فيهم، فقدحوا في الصحابة ومن لم يدن بدينهم من فضلاء الأمة، بل قال قائلهم وهو ذو الخويصرة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أعدل يا محمد وهذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقدحوا في قصده وحكمه وَرَوَّجوا مذهبهم الباطل بنصوص من الكتاب والسنة لم يفهموها وحملوها على مذهبهم.

وقد اتفق السلف على بدعتهم وأنهم مارقون من الدين كما ثبت به الحديث.

فهؤلاء الجهمية شابَهوا الخوارج مشابَهة ظاهرة: سموا أنفسهم أهل الحق ومن قال بقول الصحابة والتابعين لهم بإحسان بأهل الباطل، والنصوص الثابتة في الكتاب والسنة الدالة على الإثبات ردوا منها ما تمكنوا من رده وحرفوا ما حرفوا وكَفَّروا المثبتين، فانطلق عليهم الشبه

المحقق بالخوارج من كل وجه، بل الخوارج أحسن حالاً منهم من وجوه كثيرة، منها أن أدلتهم التي بنوا عليها مذهبهم نصوص فهموها من الكتاب والسنة غلطوا فيها، والجهمية إنما بنوا مذهبهم على آرائهم الفاسدة وعقولهم الكاسدة وعرضوا عليها الكتاب والسنة والخوارج أصدق منهم وأورع عن الكذب ولكنهم مع هذا رموا أهل السنة والجماعة أنهم أشباه الخوارج تمويهًا وترويجًا، والخوارج جردوا سيوفهم وألسنتهم على من قالوا أنهم فعلوا الكبائر، وهؤلاء سلو سيوفهم على سنن الرسول بالرد والتكذيب والتحريف وعلى أئمة الهدى بالقتل والتضليل والتبديع، والخوارج مثبتون لصفات ربِّهم والجهمية نافون لها، وأهل السنة وإن كانوا براء من الطائفتين يدينون الله ببغضهم ومعاداتهم فالحق أحق أن يقال، والواجب معرفة مراتب الأقوال وتنزل الأمور منازلها، وكل وصف نعت به الخوارج فالجهمية مثلهم أو أشر منهم، فإن الخارجي قال للرسول إعدل والجهمية لما قال الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1] قالوا: الصواب استولى فاستدركوا على الله وعلى رسوله.

وكذلك لما تواترت النصوص في نزول الرب إلى سماء الدنيا، قال جهمي مستدركًا على الرسول: الصواب ينزل أمره؛ لأن إخبار الرسول أنه ينزل يشوش عقائد الناس! وقالوا في معراجه: الصواب أنه عرج إلى كرامة الله لا إلى الله، وإن توجه العباد إلى علو طالبين لربهم في أدعيتهم وتضرعاتهم قالوا: الصواب لا داخل العالم ولا خارجه.

لما وصف المؤلف أحوال الجهمية أخبر أنه لم ينقل عنهم سوى ما قالوه.

وأنه ممن جرب مقالتهم ووقع فيها في أول أمره حتى هيأ الله له شيخ الإسلام ابن تيمية فلازمه وتبين له بسببه الحق المبين من الباطل وحصلت له الهداية والنور التام.

وَبَيَّنَ أصول الدين ورد أقول المبطلين.

والحاصل أن أهل السنة والجماعة تبعوا ما قاله الله ورسوله وهم أعلم الناس بمراد الله مراد رسوله ولم يزيدوا على ذلك شعرة ولم ينقصوا منه ذرة، وكلام الله ورسوله أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من كل شيء، وأسهل شيء عليهم رد كلام الناس كلهم إذا خالفوا نصًا واحدًا من الكتاب والسنة، فبالله عليك أيهم أشبه بالخوارج وأولاهم بهم والجواب

---

(١) [طه: ٥].

لا يحتاج إلى ذكر لوضحه.

فصل

في تلقيبهم أهل السنة بالحشوية

وبيان من أولى بالوصف المذموم من هذا اللقب من الطائفتين

وذكر أول من لقب به أهل السنة أم أهل البدعة

وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اقْتَدَى ... بِالْوَحْيِ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

حَشْوِيَّةٌ يَعْنُونَ حَشْوًا فِي الْوُجُو ... دِ وَفَضْلَةً فِي أُمَّةِ الْإِنْسَانِ

وَيَظُنُّ جَاهِلُهُمْ بِأَنَّهُمْ حَشَوْا ... رَبَّ الْعِبَادِ بِدَاخِلِ الْأَكْوَانِ

إِذْ قَوْلُهُمْ فَوْقَ الْعِبَادِ وَفِي السَّمَا ... ءِ الرَّبُّ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ

ظَنَّ الْحَمِيرُ بِأَنَّ فِي لِلظَّرْفِ وَالرْ ... رَحْمَنَ مَحْوِي بِظَرْفِ مَكَانِ

وَاللهِ لَمْ يَسْمَعْ نِدًا مِنْ فَرْقَةٍ ... قَالَتْهُ فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ

لَا تَبْهَتُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ بِهِ فَمَا ... ذَا قَوْلُهُمْ تُبًّا لِذِي الْبُهْتَانِ

بَلْ قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... فِي كَفِّ خَالِقِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ مُمْـ ... ـسِكِهَا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

أَتَرَوْنَهُ الْمَحْصُورَ بَعْدُ أَمِ السَّمَا ... يَا قَوْمَنَا ارْتَدِعُوا عَنِ الْعُدْوَانِ

كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ وَكَمْ حَشْوِيَّةٌ ... فَالْبُهْتُ لَا يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ

يَا قَوْمَنَا إِنْ كَانَ الْكِتَابُ وَسُنَّةُ الْـ ... ـمُخْتَارِ حَشْوًا فَاشْهَدُوا بِبَيَانِ

أَنَّا بِحَمْدِ إِلَهِنَا حَشْوِيَّةٌ ... صِرْفٌ بِلَا جَحْدٍ وَلَا كِتْمَانِ

تَدْرُونَ مَنْ سَمَّتْ شُيُوخُكُمْ بِهَـ ... ـذَا الْإِسْمِ فِي الْمَاضِي مِنَ الْأَزْمَانِ

سَمَّى بِهِ ابْنُ عُبَيْدٍ عَبْدَ اللهِ ذَا ... كَ ابْنُ الْخَلِيفَةِ طَارِدِ الشَّيْطَانِ

فَوَرِثْتُمْ عَمْرًا كَمَا وَرِثُوا لِعَبْـ ... ـدِ اللهِ أَنَّى يَسْتَوِي الْإِرْثَانِ

تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الْإِسْمِ وَهْـ ... ـوَ مُنَاسِبٌ أَحْوَالَهُ بِوِزَانِ

مَنْ قَدْ حَشَا الْأَوْرَاقَ وَالْأَذْهَانَ مِنْ ... بِدَعٍ تُخَالِفُ مُوجِبَ الْقُرْآنِ

هَذَا هُوَ الْحَشْوِي لَا أَهْلُ الْحَدِيـ ... ـثِ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

وَرَدُوا عَذَابَ مَنَاهِلِ السُّنَنِ الَّتِي لَيْسَتْ زِبَالَةَ هَذِهِ الأَدْخَانِ
وَوَرَدْتُمُ الْقُلُوطَ مَجْرَى كُلِّ ذِي أَوْسَاخِ وَالأَقْذَارِ وَالأَدْرَانِ
وَكَمَالُكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا لِلْوِرْدِ مِنْ رَأْسِ الشَّرِيعَةِ حَيْثُ الْكَتَّانِ

الشرح

سبب تلقيب الجهمية لأهل السنة بالحشوية أن الإيمان عندهم نفي الصفات، فمن لم يتصف بوصفهم فليس له من العلم والإيمان وإلا اسمهما ولا من الحقائق إلا رسمها، فأهل السنة لما كانو يثبتون لله صفات الكمال سموهم (حشوية) يعني أنهم حشو وفضله في الناس وغثاء كغثاء السيل.

وجهال الجهمية يتوهمون أن أهل السنة يعتقدون أن الباري في جوف السموات والأرض وأنه حشوها، وهذا غاية ما يكون من الجهل، إذ لم يقل بهذة المقالة أحد من الناس، وأبعد الناس عنها أهل السنة والجماعة، فإن من اعتقادهم أن السموات وما فيها من العوالم والأرضين وما فيها في قبضة الرحمن أصغر من خردلة في كف ممسكها، وله من العظمة والكبرياء والقدس والجلالة مالا تدركه عقول العالمين ولا تحيط به عبارات المعبرين، فكيف ينسب إليهم هذا القول الذي يدل على أن ما قاله لم يقع في قلبه من معرفة الرب وعظمته أدنى شيء ولا قدروا الله حق قدره.

المقصود أن الجهمية اختلفوا في أهل السنة هل المراد أنهم حشو الوجود وفضله فيه أو كما قاله جهالهم من تلك المقالة التي لم يخطر بقلب إنسان ولأهل السنة أسوة بغيرهم، فقد ذكر أن أول من لقب هذا اللقب عمرو بن عبيد المعتزلي لعبد الله بن عمر بن الخطاب وأهل السنة والجماعة لا يتركون السنة لأجل تشنيع المشنعين، فإن كان من يتبع الكتاب والسنة حشويًا فإنهم يُشْهِدُون كل أحد أنهم حشوية بهذا المعنى، والمدار كله على المعاني لا على الأسماء، فكم سمى أهل الباطل لأهل الحق بالأسماء المذمومة وسموا أنفسهم بالأسماء الممدوحة، وذلك لا يضر أهل الحق ولا يرفع أهل الباطل، وإنما هذا شبكة يصطاد بها الذين لا بصيرة لهم، أما الذين هم أحق بهذا اللقب المذموم فإنهم أهل الكلام الباطل الذين حشوا الأوراق من الهذيان

والقلوب من الشبه والافتراء وفرحوا بما عندهم من العلوم الباطلة المخالفة لعلوم الرسل، لا أهل السنة الذين حشوا القلوب علمًا وإيمانًا، وأناروا الوجود صدقًا ومعارف وإيقانًا، ووردوا عين الشريعة أعذب المناهل وأصفاها إذ ورد غيرهم زبالة الأفكار ونتن الآراء.

فصل

في بيان عدوانهم في تلقيب أهل القرآن والحديث بالمجسمة وبيان أنهم أولى بكل لقب خبيث

كَمْ ذَا مُجَسِّمَةٌ مُشَبِّهَةٌ وَكَمْ ... تَدْعُونَنَا بِنَوَابِتٍ قُذُعَانِ[1]

أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمْ بِهَا أَهْلَ الْحَدِيـ ... ـثِ وَنَاصِرِي الْقُرْآنِ وَالإِيمَانِ

سَمَّيْتُمُوهُمْ أَنْتُمْ وَشُيُوخُكُمْ ... بَهْتًا بِهَا مِنْ غَيْرِ مَا سُلْطَانِ

وَجَعَلْتُمُوهَا سُبَّةً لِتَنَفِّرُوا ... عَنْهُمْ كَفِعْلِ السَّاحِرِ الشَّيْطَانِ

مَا ذَلَّلَهُمْ وَاللهِ إِلاَّ أَنَّهُمْ ... أَخَذُوا بِوَحْيِ اللهِ وَالْقُرْآنِ

وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَحَيَّرُوا لِمَقَالَةٍ ... غَيْرِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ

وَأَبَوْا بِدِينُوا بِالَّذِي دِنْتُمْ بِهِ ... مِنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ

وَصَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فِي التَّمْثِينِ مِنْ ... خَبَرٍ صَحِيحٍ ثُمَّ مِنْ قُرْآنِ

إِنْ كَانَ ذَا التَّجْسِيمُ عِنْدَكُمُ فَيَا ... أَهْلاً بِهِ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

إِنَّا مُجَسِّمَةٌ بِحَمْدِ اللهِ لَمْ ... نَجْحَدْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مِنَّا بِأَنْ ... اللهُ جِسْمٌ يَا أُولِي الْبُهْتَانِ

وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا فِي وَصْفِهِ ... لَمْ نَعْدُ مَا قَدْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ

أَوْ قَالَهُ أَيْضًا رَسُولُ اللهِ فَهْـ ... ـوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ بِالْبُرْهَانِ

أَوْ قَالَهُ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... فَهُمُ النُّجُومُ مَطَالِعُ الإِيمَانِ

سُمُّوهُ تَجْسِيمًا وَتَشْبِيهًا فَلَنَـ ... ـا جَاحِدِيهِ لِذَلِكَ الْهَذَيَانِ

بَلْ بَيْنَنَا فَرْقٌ لَطِيفٌ بَلْ هُوَ الْـ ... ـفَرْقُ الْعَظِيمُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

---

(١) كذا في (ع، س) وفي (ط) [نَوَابِتٌ مُشَبِّهَةٌ جَاهِلِ].

إنَّ الْحَقِيقَـــةَ عِنْـــدَنَا مَقْصُـــودَةٌ ... بِـــالنَّصِّ وَهْـــوَ مُـــرَادَةُ التِّبْيَـــانِ
لَكِـــنْ لَـــدَيْكُمْ فَهْـــيَ غَـــيْرُ مُـــرَادَةٍ ... أَنَّـــى يُـــرَادُ مُحَقِّـــقُ الْـــبُطْلَانِ
فَكَلَامُـــهُ فِيمَـــا لَـــدَيْكُمْ لَا حَقِيـــ ... ـــقَةَ تَحْتَـــهُ تَبْـــدُو إِلَـــى الْأَذْهَـــانِ
فِـــي ذِكْـــرِ آيَـــاتِ الْعُلُـــوِّ وَسَـــائِرِ الْـــ ... أَوْصَـــافِ وَهْـــيَ الْقَلْـــبُ لِلْقُـــرْآنِ
بَـــلْ قَـــوْلُ رَبِّ النَّـــاسِ لَـــيْسَ حَقِيقَـــةً ... فِيمَـــا لَـــدَيْكُمْ يَـــا أُولِـــي الْعِرْفَـــانِ
وَإِذَا جَعَلْـــتُمْ ذَا مَجَـــازًا صَـــحَّ أَنْ ... يُنْفَـــى عَلَـــى الْإِطْـــلَاقِ وَالْإِمْكَـــانِ
وَحَقَـــائِقُ الْأَلْفَـــاظِ بِالْعَقْـــلِ ائْتَفَـــتْ ... فِيمَـــا زَعَمْـــتُمْ فَاسْـــتَوَى النَّفْيَـــانِ
نَفْـــيُ الْحَقِيقَـــةِ وَانْتِفَـــاءُ اللَّفْـــظِ إِنْ ... دَلَّـــتْ عَلَيْـــهِ فَحَظُّكُـــمْ نَفْيَـــانِ
وَنَصِـــيبُنَا إِثْبَـــاتُ ذَاكَ جَمِيعِـــهِ ... لَفْظًـــا وَمَعْنًـــى ذَاكَ إِثْبَاتَـــانِ
فَمَـــنِ الْمُعَطِّـــلُ فِـــي الْحَقِيقَـــةِ غَيْرُكُـــمْ ... لَقَـــبٌ بِـــلَا كَـــذِبٍ وَلَا عُـــدْوَانِ
وَإِذَا سَـــبَبْتُمْ بِالْمُحَـــالِ فَسَـــبُّنَا ... بِأَدِلَّـــةٍ وَحِجَـــاجِ ذِي بُرْهَـــانِ
تُبْـــدِي فَضَـــائِحَكُمْ وَتَهْتِـــكُ سِـــتْرَكُمْ ... وَتُـــبِينُ جَهْلَكُـــمُ مَـــعَ الْعُـــدْوَانِ
يَـــا بُعْـــدَ مَـــا بَـــيْنَ السِّـــبَابِ بِذَاكُمُ ... وَسِـــبَابُكُمْ بِالْكِـــذْبِ وَالطُّغْيَـــانِ
مَـــنْ سَـــبَّ بِالْبُرْهَـــانِ لَـــيْسَ بِظَـــالِمٍ ... وَالظُّلْـــمُ سَـــبُّ الْعَبْـــدِ بِالْبُهْتَـــانِ
فَحَقِيقَـــةُ التَّجْسِـــيمِ أَنْ تَـــكُ عِنْـــدَكُمْ ... وَصْـــفَ الْإِلَـــهِ الْخَـــالِقِ الـــدَّيَّانِ
بِصِـــفَاتِهِ الْعُلْيَـــا الَّتِـــي شَـــهِدَتْ بِهَـــا ... آيَاتُـــهُ وَرَسُـــولُهُ الْعَـــدْلَانِ
فَتَحَمَّلُـــوا عَنَّـــا الشَّـــهَادَةَ وَاشْـــهَدُوا ... فِـــي كُـــلِّ مُجْتَمَـــعٍ وَكُـــلِّ مَكَـــانِ
أَنَّـــا مُجَسِّـــمَةٌ بِفَضْـــلِ اللهِ وَلْـــ ... ـــيَشْهَدْ بِـــذَلِكَ مَعْكُـــمُ الثَّقَلَانِ
اللهُ أَكْبَـــرُ كَشَّـــرَتْ عَـــنْ نَابِهَـــا الْـــ ... ـــحَرْبُ الْعَـــوَانُ وَصِـــيحَ بِـــالْأَقْرَانِ
وَتَقَابَـــلَ الصَّـــفَّانِ وَانْقَسَـــمَ الْـــوَرَى ... قِسْـــمَيْنِ وَاتَّضَـــحَتْ لَنَـــا الْقِسْـــمَانِ

الشرح

وذلك لأن أهل السنة أثبتوا لله صفات الكمال كلها، فزعم الجهمية أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم، فسموا المثبتين بذلك فأهل السنة يجيبونهم بجواب يفحمهم ويخصمهم أن

إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من الأوصاف إما أن لا يقتضي التشبيه والتجسيم؛ لأن الله ليس كمثله شيء فيكون رميكم لنا من باب البهت والافتراء، وإما أن يقتضي ذلك فإن اقتضاه لم نترك ما دل عليه الكتاب والسنة لأي لازم يقوله أهل الباطل، ولا لأجل شناعة المشنعين، فالمبطل في الحقيقة إنما يوجه الإلزامات التي يذكرها على كلام الله ورسوله، وحسبك فحشًا وقبحًا مقالة تصل إلى هذا الحد.

فبين أهل السنة وأهل الباطل فروق عظيمة.

أهل السنة يقولون: ما دلت عليه النصوص فهو حق على حقيقة مبين غاية البيان، فلا بعد بيان الله ورسوله بيان، وما خالف هذا الحق فهو باطل.

والمتكلمون جعلوا ظواهر النصوص غير مرادة وهي مجاز مع أن المجاز يجوز نفيه وفي نفيه من الكفر ما لا يخفى.

ومن قولهم أيضًا أن حقائق الألفاظ منتفية عقلاً، فإذا انتفت الألفاظ والمعاني فما الذي بقي من الدين ومن كلام رب العالمين ونصوص سيد المرسلين، فالنفي والتعطيل للحق والحقائق الثابتة سيما هذه الطائفة والذم نعت لهؤلاء المبتدعين.

فصل
في بيان مورد أهل التعطيل
وأنهم تعوَّضُوا بالقُلُوط عن السلسبيل

يـا وَارِدَ الْقُلُـوطِ وَيْحَـكَ لَـوْ تَـرَى ... مَـاذَا عَلَـى شَـفَتَيْكَ وَالأَسْـنَانِ

أَوَمَـا تَـرَى آثَارَهَـا فِـي الْقَلْـبِ وَالـ ... ـنَّـاتِ وَالأَعْمَـالِ وَالأَرْكَـانِ

لَـوْ طَـابَ مِنْـكَ الْـوَرْدُ طَابَـتْ كُلُّهَـا ... أَنَّـى لِطِيـبِ مَـوَارِدُ الأَلْتَـانِ

يـا وَارِدَ الْقُلُـوطِ طَهِّـرْ فَـالاً مِـنْ ... خَبَـثٍ بِـهِ وَاغْسِـلْهُ مِـنْ أَلْتَـانِ

ثُـمَّ ارْتَـعِ الْحَشْـوِيَّ حَشْـوَ الدِّينِ وَالـ ... ـقُرْآنِ وَالآثَـارِ وَالإِيمَـانِ

[أَهْـلاً بِهِـمْ حَشْـوَ الْهُـدَى وَسْـوَاهُم ... حَشْـوَ الضَّـلالَ فَمَـا هُمَـا سِـيَّانِ]

أَهْـلاً بِهِـمْ حَشْـوَ الْيَقِينِ وَغَيْرُهُـمْ ... حَشْـوُ الشُّـكُوكِ فَمَـا هُمَـا سِـيَّانِ

أَهْـلاً بِهِـمْ حَشْـوَ الْمَسَـاجِدِ وَالْـ ... ـنَّوَى حَشْـوُ الْكَنِيـفِ فَمَـا هُمَـا عَـدْلاَنِ

أهلاً بهم حشو الجنان وغيرهم ... حشو الجحيم أيستوي الحشوان

يا وارد القلوط ويحك لو ترى الـ ... ـحشوي وارد منهل الفرقان

وتراه من رأس الشريعة شاربا ... من كف من قد جاء بالقرآن

وتراه يسقي الناس فضلة كأسه ... وبحانها منك على ريحان

لعذرتك إن بال في القلوط لم ... يشرب به مع جملة العثمان

يا وارد القلوط لا تكتل فرا ... س الماء فاقصده قريب دان

هو منهل سهل قريب واسع ... كاف إذا نزلت به الظعان

والله ليس بأصعب الوردين بل ... هو أسهل الوردين للظمآن

الشرح

أطيب الموارد وألذها وأصفاها وأنفعها مورد الشريعة المحمدية سهلة التناول واضحة الألفاظ حسنة المعاني تملأ القلوب أمنًا وإيمانًا وتصديقًا وتعظيمًا وعلومًا ومعارف، فإن فهم أصول الدين وفروعه من الوحيين متيسر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[1] وآثارها في القلب واللسان والجوارح، والهدي والسمت أحسن الآثار وأجلها، وتصلح القلوب فتصلح لها الجوارح، وعكس ذلك موارد المبطلين، وخصوصًا الذين بنوا أصول دينهم على جهليات يسمونها عقليات وعلى قواعد الفلسفة، فنفوا لذلك صفات المولى التي هي التوحيد وهي أصل جميع الأصول وبها تستقيم الأمور، ففسد بذلك موردهم وخبث بواطنهم وظواهرهم، وتعرضوا عن مورد الشرع والسلسبيل موارد الأخباث والأنجاس التي هي أصل التعطيل، فيا بئس ما أصلوا وما فرعوا.

---

(١) [القمر: ١٧].

فصل

في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن

يا قَوْمُ بِاللهِ انْظُرُوا وَتَفَكَّرُوا ... فِي هَذِهِ الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
مِثْلَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ لِلَّذِي ... قَدْ قَالَهُ ذُو الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ
فَأَقَلُّ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَا عِنْدَكُمْ ... حَدًّا سَوَاءً يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
وَاللهِ مَا اسْتَوَيَا لَدَى زُعَمَائِكُمْ ... فِي الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ
عَزَلُوهُمَا بَلْ صَرَّحُوا بِالْعَزْلِ عَنْ ... نَيْلِ الْيَقِينِ وَرُتْبَةِ الْبُرْهَانِ
قَالُوا وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... لَسْنَا نُحَكِّمُهَا عَلَى الإِيقَانِ
مَا أُنْزِلَتْ لِيَنَالَ مِنْهَا الْعِلْمُ بِالْـ ... إِثْبَاتِ لِلأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ
بَلْ بِالْعُقُولِ يَنَالُ ذَاكَ وَهَذِهِ ... عَنْهُ بِمَعْزِلٍ غَيْرِ ذِي السُّلْطَانِ
فَبِجَهْدِنَا تَأْوِيلُهَا وَالدَّفْعُ فِي ... أَكْنَافِهَا دَفْعًا لِذِي الصَّوَلَانِ
كَكَبِيرِ قَوْمٍ جَاءَ يَشْهَدُ عِنْدَ ذِي ... حَكَمٍ يُرِيدُ دِفَاعَهُ بِلِيَانِ
فَيَقُولُ قَدْرُكَ فَوْقَ ذَا وَشَهَادَةٌ ... لِسِوَاكَ تَصْلُحُ فَاذْهَبَنْ بِأَمَانِ
وَبِوُدِّهِ لَوْ كَانَ شَيْءٌ غَيْرُ ذَا ... لَكِنْ مَخَافَةَ صَاحِبِ السُّلْطَانِ
فَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ كَبِيرٍ فِيهِمُ ... وَهُوَ الْحَقِيرُ مَقَالَةُ الْكُفْرَانِ
لَوْ كَانَ يُمْكِنُنِي وَلَيْسَ بِمُمْكِنٍ ... لَحَكَكْتُ مِنْ ذَا الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِي
ذِكْرَ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ لَـ ... ـكِنْ ذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الإِنْسَانِ
وَاللهِ لَوْلاَ هَيْبَةُ الإِسْلاَمِ وَالْـ ... ـقُرْآنِ وَالأُمَرَاءِ وَالسُّلْطَانِ
لأَتَوْا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَلَدَكْدَكُوا الْـ ... إِسْلاَمَ فَوْقَ قَوَاعِدِ الأَرْكَانِ
فَلَقَدْ رَأَيْتُمْ مَا جَرَى لأَئِمَّةِ الْـ ... إِسْلاَمِ مِنْ مِحَنٍ عَلَى الأَزْمَانِ
لاَ سِيمَا لَمَّا اسْتَمَالُوا جَاهِلاً ... ذَا قُدْرَةٍ فِي النَّاسِ مَعْ سُلْطَانِ
وَسَعَوْا إِلَيْهِ بِكُلِّ إِفْكٍ بَيِّنٍ ... بَلْ قَاسَمُوهُ بِأَغْلَظِ الأَيْمَانِ
أَنَّ النَّصِيحَةَ قَصْدُهُمْ كَنَصِيحَةِ الشَّـ ... ـيْطَانِ حِينَ خَلاَ بِهِ الأَبَوَانِ

فَتَرَى عَمَائِمَهُمْ ذَاتَ أَذْنَابٍ عَلَى ... تِلْكَ الْقُشُورِ طَوِيلَةَ الأَرْدَانِ

وَتَرَى هَبَوْلَى لاَ تَهُولُ لِمُبْصِرٍ ... وَتَهُولُ أَعْمَى فِي لِبَابِ جَبَانِ

فَإِذَا أَصَاخَ بِسَمْعِهِ مَلْثُوثَةٌ مِنْ ... كَذِبٍ وَتَلْبِيسٍ وَمِنْ بُهْتَانِ

فَتَرَى وَيَسْمَعُ فِكْرَهُمْ وَفُكَارَهُمْ ... يَا مِحْنَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالأُذُنَانِ

فَتَحُوا جِرَابَ الْجَهْلِ مَعْ كَذِبٍ فَخُذْ ... وَاحْمِلْ بِلاَ كَيْلٍ وَلاَ مِيزَانِ

وَأَتَوْا إِلَى قَلْبِ الْمُطَاعِ فَفَتَّشُوا ... عَمَّا هُنَالِكَ لِيَدْخُلُوا بِأَمَانِ

فَإِذَا بَدَا غَرَضٌ لَهُمْ دَخَلُوا بِهِ ... مِثْلَ إِلِيهِ كَحِيلَةِ الشَّيْطَانِ

فَإِذَا رَأَوْهُ هَشَّ لِلْحَدِيثِ حَدِيثِهِمْ ... طَفَرُوا وَقَالُوا رِبْحَ آلِ فُلاَنِ

هُوَ فِي الطَّرِيقِ بِسُوقِ مَوْلاَنَا عَنِ الـ ... ـمَقْصُودِ وَهْوَ عَدُوُّ هَذَا الشَّانِ

فَإِذَا هُمُ غَرَسُوا الْعَدَاوَةَ وَاجْتَنَوْا ... شَقْيَ الْغِرَاسِ كَفِعْلِ ذِي الْبُهْتَانِ

حَتَّى إِذَا مَا أَثْمَرَتْ وَدَنَا لَهُمْ ... وَقْتُ الْجُذَاذِ وَصَارَ ذَا إِمْكَانِ

رَكِبُوا عَلَى حَرْدٍ لَهُمْ وَحَمِيَّةٍ ... وَاسْتَنْجَدُوا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

فَهُنَالِكَ ابْتَلِيَتْ جُنُودُ اللهِ مِنْ ... جُنْدِ اللَّعِينِ بِسَائِرِ الأَلْوَانِ[1]

ضَرْبًا وَحَبْسًا ثُمَّ تَكْفِيرًا وَلَبْـ ... ـدِيعًا وَشَتْمًا ظَاهِرَ الْبُهْتَانِ

فَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ... أَمْرًا تُهَدُّ لَهُ قُوَى الإِيمَانِ

مِنْ سَبِّهِمْ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَدِينُهُمْ ... أَخْذُ الْحَدِيثِ وَتَرْكُ قَوْلِ فُلاَنِ

يَا أُمَّةً غَضِبَ الإِلَهُ عَلَيْهِمُ ... أَلأَجْلِ هَذَا تَشْتُمُوا بِهَوَانِ

لَبَّى لَكُمْ إِذْ تَشْتُمُونَ زَوَامِلَ الـ ... ـإِسْلاَمِ حِزْبَ اللهِ وَالْقُرْآنِ

وَسَبَبْتُمُوهُمْ ثُمَّ لَسْتُمْ كُفْأَهُمْ ... فَرَأَوْا مَسَبَّتَكُمْ مِنَ النُّقْصَانِ

هَذَا وَهُمْ قَبِلُوا وَصِيَّةَ رَبِّهِمْ ... فِي تَرْكِهِمْ لِسَبِّةِ الأَوْثَانِ

حَذَرَ الْمُقَابَلَةِ الْقَبِيحَةِ مِنْهُمُ ... بِسَبَبِّةِ الْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ

وَكَذَاكَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ ... ضُرِبَتْ لَهُمْ وَلَكُمْ بِذَا أَمْثَالاَنِ

سَبُّوكُمْ جُهَّالُهُمْ فَسَبَبْتُمُ ... سُنَنَ الرَّسُولِ وَعَسْكَرَ الإِيمَانِ

---

(١) كذا في (ط) وفي (ح) [الأكوان].

وَصَدَدْتُمُ سُفَهَاءَكُمْ عَنْهُمْ وَعَنْ ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

وَدَعَوْتُمُوهُمْ لِلَّذِي قَالَتْهُ أَشْـ ... ـيَاخٌ لَكُمْ بِالْخَرْصِ وَالْحُسْبَانِ

فَأَبَوْا إِجَابَتَكُمْ وَلَمْ يَتَحَيَّرُوا ... إِلَّا إِلَى الْآثَارِ وَالْقُرْآنِ

وَإِلَى أُولِي الْعِرْفَانِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيـ ... ـثِ خُلَاصَةِ الْإِنْسَانِ وَالْأَكْوَانِ

قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْإِلَهُ لِحِفْظِ هَـ ... ـذَا الدِّينِ مِنْ ذِي بِدْعَةٍ شَيْطَانِ

وَأَقَامَهُمْ حَرَسًا مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّـ ... ـحْرِيفِ وَالتَّتْمِيمِ وَالنُّقْصَانِ

يَزَكٌّ عَلَى الْإِسْلَامِ بَلْ حِصْنٌ لَهُ ... يَأْوِي إِلَيْهِ عَسَاكِرُ الْفُرْقَانِ

فَهُمُ الْمَحَكُّ فَمَنْ يَرَى مُتَنَقِّصًا ... لَهُمْ فَزِنْدِيقٌ خَبِيثُ جَنَانِ

إِنْ تَتَّهِمْهُ فَقَبْلَكَ السَّلَفُ الْأُلَى ... كَانُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

أَيْضًا قَدِ اتَّهَمُوا الْخَبِيثَ عَلَى الْهُدَى ... وَالْعِلْمِ وَالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ

وَهُوَ الْحَقِيقُ بِذَاكَ إِذْ عَادَى رُوَا ... ةَ الدِّينِ وَهْيَ عَدَاوَةُ الدَّيَّانِ

فَإِذَا ذَكَرْتَ النَّاصِحِينَ لِرَبِّهِمْ ... وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ بِلِسَانِ

فَاغْسِلْهُ وَيْلَكَ مِنْ دَمِ التَّعْطِيلِ وَالتَّـ ... ـكْذِيبِ وَالْكُفْرَانِ وَالْبُهْتَانِ

أَتَسُبُّهُمْ عَدْوًا وَلَسْتَ بِكُفْنِهِمْ ... فَاللهُ يَفْدِي حِزْبَهُ بِالْجَانِي

قَوْمٌ هُمُ بِاللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... أَوْلَى وَأَقْرَبُ مِنْكَ لِلْإِيمَانِ

شَتَّانَ بَيْنَ التَّارِكِينَ نُصُوصَهُ ... حَقًّا لِأَجْلِ زِبَالَةِ الْأَذْهَانِ

وَالتَّارِكِينَ لِأَجْلِهَا آرَاءَ مَنْ ... آرَاؤُهُمْ ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

لَمَّا فَسَا الشَّيْطَانُ فِي آذَانِهِمْ ... ثَقُلَتْ رُءُوسُهُمُ عَنِ الْقُرْآنِ

فَلِذَاكَ نَامُوا عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحُوا ... يَتَلَاعَبُونَ تَلَاعُبَ الصِّبْيَانِ

وَالرَّكْبُ قَدْ وَصَلُوا الْعُلَا وَتَيَمَّمُوا ... مِنْ أَرْضِ طِيبَةَ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

وَأَتَوْا إِلَى رَوْضَاتِهَا وَتَيَمَّمُوا ... مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ مَطْلَعِ الْقُرْآنِ

قَوْمٌ إِذَا مَا نَاجِذُ النَّصِّ بَدَا ... طَارُوا لَهُ بِالْجَمْعِ وَالْوُحْدَانِ

وَإِذَا بَدَا عَلَمُ الْهُدَى اسْتَبَقُوا لَهُ ... كَتَسَابُقِ الْفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ

وَإِذَا هُمُ سَمِعُوا بِمُبْتَدِعٍ هَذَى ... صَاحُوا بِهِ طُرًّا بِكُلِّ مَكَانِ

وَرِثُوا رَسُولَ اللهِ لَكِنْ غَيْرُهُمْ ... قَدْ رَاحَ بِالنُّقْصَانِ وَالْحِرْمَانِ
وَإِذَا اسْتَهَانَ سِوَاهُمُ بِالنَّصِّ لَمْ ... يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا مِنَ الْخُسْرَانِ
عَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ رَغْبَةً ... فِيهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِ بِمُهَانِ
لَيْسُوا كَمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً ... وَتِلَاوَةً قَصْدًا بِتَرْكِ فُلَانِ
عَزَلُوهُ فِي الْمَعْنَى وَوَلَّوْا غَيْرَهُ ... كَأَبِي الرَّبِيعِ خَلِيفَةِ السُّلْطَانِ
ذَكَرُوهُ فَوْقَ مَنَابِرٍ وَبِسِكَّةٍ ... رَقَمُوا اسْمَهُ فِي ظَاهِرِ الْأَثْمَانِ
وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمُطَاعُ لِغَيْرِهِ ... وَلِمُهْتَدٍ ضُرِبَتْ بِذَا مَثَلَانِ
يَا لَلْعُقُولِ أَيَسْتَوِي مَنْ قَالَ بِالْـ ... ـقُرْآنِ وَالْآثَارِ وَالْبُرْهَانِ
وَمُخَالِفٌ هَذَا وَفِطْرَةَ رَبِّهِ ... اللهُ أَكْبَرُ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ
بَلْ فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَى ... مَضْمُونِهَا وَالْعَقْلُ مَقْبُولَانِ
وَالْوَحْيُ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهُمَا فَلَا ... تُلْقِ الْعَدَاوَةَ مَا هُمَا حَرْبَانِ
سِلْمَانِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ وَمُصَدِّقٍ ... وَاللهُ يَشْهَدُ أَنْ هُمَا سِلْمَانِ
فَإِذَا تَعَارَضَ نَصُّ لَفْظٍ وَارِدٍ ... وَالْعَقْلُ حَتَّى لَيْسَ يَلْتَقِيَانِ
فَالْعَقْلُ إِمَّا فَاسِدٌ وَيَظُنُّهُ الرَّ ... ائِي صَحِيحًا وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ
أَوْ أَنَّ ذَاكَ النَّصَّ لَيْسَ بِثَابِتٍ ... مَا قَالَهُ الْمَعْصُومُ بِالْبُرْهَانِ
وَنُصُوصُهُ لَيْسَتْ تُعَارِضُ بَعْضَهَا ... بَعْضًا فَسَلْ عَنْهَا عَلِيمَ زَمَانِ
وَإِذَا ظَنَنْتَ تَعَارُضًا فِيهَا فَذَا ... مِنْ آفَةِ الْأَفْهَامِ وَالْأَذْهَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونَ الْبَعْضُ لَيْسَ بِثَابِتٍ ... مَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ
لَكِنَّ قَوْلَ مُحَمَّدٍ وَالْجَهْمِ فِي ... قَلْبِ الْمُوَحِّدِ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ
إِلَّا وَيَطْرُدُ كُلُّ قَوْلٍ ضِدَّهُ ... فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا فَمُقْتَتِلَانِ
وَالنَّاسُ بَعْدُ عَلَى ثَلَاثٍ حِزْبِهِ ... أَوْ حَزْبِهِ أَوْ فَارِغٍ مُتَوَانِ
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَيْنَ تَجْعَلُهَا فَلَا ... وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعِ الْأَعْيَانِ
مَنْ قَالَ بِالتَّعْطِيلِ فَهْوَ مُكَذِّبٌ ... بِجَمِيعِ رُسْلِ اللهِ وَالْفُرْقَانِ
إِنَّ الْمُعَطِّلَ لَا إِلَهَ لَهُ سِوَى الْـ ... ـمَنْحُوتِ بِالْأَفْكَارِ فِي الْأَذْهَانِ

وَكَذَا إِلَهُ الْمُشْرِكِينَ فَتَحْتَهُ الَّـ ... ـذِي هُمَا فِي نَحْتِهِمْ بَانِ
لَكِنَّ إِلَهَ الْمُرْسَلِينَ هُوَ الَّذِي ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ
لَاهُ قَدْ نَسَبَ الْمُعَطِّلُ كُلَّ مَنْ ... بِالْبَيِّنَاتِ أَتَى إِلَى الْكِتْمَانِ
وَاللهِ مَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُعَطِّلٌ ... لَا فِي صِفَاتِ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ
كُلًّا وَلَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُشَبِّهٌ ... حَاشَاهُمُ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ
فَخُذِ الْهُدَى مِنْ عَبْدِهِ وَكِتَابِهِ ... فَهُمَا إِلَى سُبُلِ الْهُدَى سَيَّانِ

الشرح

أعاد المؤلف هذه المباحث المهمة بتعبيرات متنوعة؛ لأنه بذلك تتضح الحقائق وتتبين الطرائق، فهؤلاء الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام الباطل سعوا في هدمهم قواعد الإسلام والقرآن، بما أصلوه من الأصول الباطلة، وبما نفوه من الأصول الصحيحة.

فمن المعلوم أن قواعد الإسلام والإيمان إنما ثبتت وتأسست وانبنت على نصوص الكتاب والسنة، والجهمية عزلوا هذه الأساس العظيمة بما أصلوه من الأصول الفاسدة فزعموا أن كلام الفلاسفة وعقولهم الفاسدة تفيد اليقين والقطع وأن كلام الله ورسوله يفيد غلبة الظن، وإذا تعارضت القواطع العقلية مع الظواهر السمعية قدمت قواطع العقل، فهذا أخبث أصل أصلوه وأفسدوا به العقائد الصحيحة، وعزلوا لأجله النصوص الصحيحة الصريحة، وتمموا هذا الأصل الخبيث بأن جعلوا عقولهم الفاسدة هي الميزان دون عقول أولي الألباب الذين ينقحون الحقائق الخالصة، ويميزون بين العقليات والجهليات وبين البراهين والشبه، فهؤلاء هم الذين يتعين الرجوع إلى أقوالهم وآرائهم الصائبة.

وقد تتبع المحققون جميع الأصول الدينية فوجودها متطابقة للمعقول الصريح وحققوا كل ما قاله هؤلاء الحيارى الضالون من عقلياتهم التي عارضوا بها الحق فوجدوها جهليات هي على جهل أصحابها وانسلاخهم من زمرة أولي الألباب من أوضح الأدلة ومن أراد تفصيل هذه الجملة فليطالع كتاب «العقل والنقل» وكتاب «التأسيس» لشيخ الإسلام ابن تيمية وكيف نقد أكبر براهينهم التي سموها براهين، ووضح ما فيها من الفساد والتناقض، وشهادة

بعضهم على بعض بفسادها، وربَّما كان بعض رؤسائهم يذكرها في موضع من كتبه وينصرها ويذكرها في موضع آخر ويبطلها.

وقد تصدى في هذين الكتابين لبيان مُخالفتها للعقل الصريح كما ناقضت النص الصحيح.

فأدلة الكتاب والسنة وأدلة العقول الصحيحة لا تتناقض؛ لأنَّها من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[1].

واعلم أن العقل مع النقل له ثلاث مقامات: إما أن يشهد بِمَا دل عليه الشرع، بِمَا يراه من مَحاسن الدين وبناء أحكامه على تَحصيل المَصالح وتكميلها، وعلى دفع المَفاسد وتقليلها حسب الإمكان، وبيان أن هداية الدين وإرشاداته تَجري مع الوقت والزمان لا تتغير ولا تَحصل الرشد بغيرها.

وإما أن لا يهتدي العقل لمعرفة تفاصيلها كأمور الغيب والبرزخ والجَنة والنار وأحوال يوم القيامة مِمَّا لا تهتدي العقول إليه إجمالا ولا تفصيلا إلا بالوحي السماوي، والعقل فيها يَخضع ويسلم للسمع لتيقنه صدق الشارع وأنه لا يقول إلا الحَق، وإما أن يأتي الشارع بِمَا تَحار فيه العقول ولا تعرف وجهه ولا حكمته، وهذا النوع سماه الفقهاء تعبدًا.

فهذه الأمور الثلاثة هي الَّتي ترد الشرائع بِهَا.

وأما ورودها بأمر يشهد العقل الصريح ببطلانه وإحالته فهذا من المُحال الممتنع؛ لأن الحَق لا يتعارض، والأمور اليقينة لا تتناقض، فحيث ظن في شيء من أمور الشرع تناقض ومناقضة للعقل فهو لأحد أمرين لا ثالث لَهما:

إما العقل الفاسد يظنه صاحبه معقولًا وحقيقة وهو خيال لا حقيقة له، وإما أن النقل غير صحيح.

فالنقل غير الصحيح ليس من الشرع فلا تتصور المعارضة.

وإذا بنى العبد إيمانه على هذا الأصل العظيم فقد استقام إيمانه وتَمَّ يقينه واهتدي للحقائق الصحيحة وسلك أحسن الطرائق المربحة، ومتى سلك الطريق المُخالف لِهذا فهو ضال

---

(١) [النساء: ٨٢].

زائغ، ونسأل الله أن يهدينا وإخواننا المسلمين لمعرفة الحق واتباعه آمين.

فصل

في إبطال قول الملحدين أن الاستدلال بكلام الله ورسوله لا يفيد العلم واليقين

وَاحْذَرْ مَقَالاَتِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا ... شِيَعًا وَكَانُوا شِيعَةَ الشَّيْطَانِ

وَاسْأَلْ خَبِيرًا عَنْهُمُ يُنْبِيكَ عَنْ ... أَسْرَارِهِمْ بِنَصِيحَةٍ وَبَيَانِ

قَالُوا الْهُدَى لاَ يُسْتَفَادُ بِسُنَّةٍ ... كَلاَّ وَلاَ أَثَرٍ وَلاَ قُرْآنِ

إِذْ كُلُّ ذَاكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... لَمْ تُبْدِ عَنْ عِلْمٍ وَلاَ إِيقَانِ

فِيهَا اشْتِرَاكٌ ثُمَّ إِجْمَالٌ يُرَى ... وَتَجُوزُ بِالتَّزْيِيدِ وَالنُّقْصَانِ

وَكَذَاكَ الإِضْمَارُ وَالتَّحْقِيقُ وَالْـ ... ـحَذْفُ الَّذِي لَمْ يُبْدِ عَنْ تِبْيَانِ

وَالنَّقْلُ آحَادٌ فَمَوْقُوفٌ عَلَى ... صِدْقِ الرُّوَاةِ وَلَيْسَ ذَا بُرْهَانِ

إِذْ بَعْضُهُمْ فِي الْبَعْضِ يَقْدَحُ دَائِمًا ... وَالْقَدْحُ فِيهِمْ فَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

وَتَوَاتُرٌ وَهْوَ الْقَلِيلُ وَنَادِرٌ ... جِدًّا فَأَيْنَ الْقَطْعُ بِالْبُرْهَانِ

هَذَا وَيَحْتَاجُ السَّلاَمَةَ بَعْدُ مِنْ ... ذَاكَ الْمُعَارِضِ صَاحِبِ السُّلْطَانِ

وَهْوَ الَّذِي بِالْعَقْلِ يَعْرِفُ[1] صِدْقَهُ ... وَالنَّفْيُ مَظْنُونٌ لَدَى الإِنْسَانِ

فَلأَجْلِ هَذَا قَدْ عَزَلْنَاهَا وَوَلَّـ ... ـيْنَا الْعُقُولَ وَمَنْطِقَ الْيُونَانِ

فَانْظُرْ إِلَى الإِسْلاَمِ كَيْفَ بَقَاؤُهُ ... مِنْ بَعْدِ هَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلاَنِ

وَانْظُرْ إِلَى الْقُرْآنِ مَعْزُولاً لَدَيْـ ... ـهِمْ عَنْ نُفُوذِ وِلاَيَةِ الإِيقَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ كَذَاكَ مَعْـ ... ـزُولاً لَدَيْهِمْ لَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

وَاللهِ مَا عَزَلُوهُ تَعْظِيمًا لَهُ ... أَيَظُنُّ ذَلِكَ قَطُّ ذُو عِرْفَانِ

يَا لَيْتَهُمْ إِذْ يَحْكُمُونَ بِعَزْلِهِ ... لَمْ يَرْفَعُوا رَايَاتِ جَنْكِسْخَانِ

يَا وَيْلَهُمْ وَلَّوْا نَتَائِجَ فِكْرِهِمْ ... وَقَضَوْا بِهَا قَطْعًا عَلَى الْقُرْآنِ

---

(١) كذا في (خ، س) أما في (ط) [يفرض].

وَرِذَالُهُمْ وَلَّوْا إِشَارَاتِ ابْنِ سِـ ـنَا حِينَ وَلَّوْا مَنْطِقَ الْيُونَانِ
وَانْظُرْ إِلَى نَصِّ الْكِتَابِ مُجَنْدَلاً وَسْطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقَ اللُّحْمَانِ
بِالطَّعْنِ بِالإِجْمَالِ وَالإِضْمَارِ وَالتَّـ ـخْصِيصِ وَالتَّأْوِيلِ بِالْبُهْتَانِ
وَالاشْتِرَاكِ وَبِالْمَجَازِ وَحَذْفِ مَا شَاءُوا بِدَعْوَاهُمْ بِلاَ بُرْهَانِ
وَانْظُرْ إِلَيْهِ لَيْسَ يَنْفُذُ حُكْمُهُ بَيْنَ الْخُصُومِ وَمَا لَهُ مِنْ شَانِ
وَانْظُرْ إِلَيْهِ لَيْسَ يَقْبَلُ قَوْلُهُ فِي الْعِلْمِ بِالأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ
لَكِنَّمَا الْمَقْبُولُ حُكْمُ الْعَقْلِ لاَ أَحْكَامُهُ لاَ يَسْتَوِي الْحُكْمَانِ
يَبْكِي عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَجُنُودُهُ بِدِمَائِهِمْ وَمَدَامِعِ الأَجْفَانِ
عَهِدُوهُ قِدْمًا لَيْسَ يَحْكُمُ غَيْرُهُ وَسِوَاهُ مَعْزُولٌ عَنِ السُّلْطَانِ
إِنْ غَابَ نَابَتْ عَنْهُ أَقْوَالُ الرَّسُو لِ هُمَا لَهُمْ دُونَ الْوَرَى حَكَمَانِ
فَأَتَاهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ظَنِّهِمْ فِي حُكْمِ جَنْكِسْخَانَ ذِي الطُّغْيَانِ
بِجُنُودِ تَعْطِيلٍ وَكُفْرَانٍ مِنَ الْـ ـمَفْعُولِ ثُمَّ اللاَّصِ وَالْعِلاَّنِ
فَعَلُوا بِمِلَّتِهِ وَسُنَّتِهِ كَمَا فَعَلُوا بِأُمَّتِهِ مِنَ الْعُدْوَانِ
وَاللهِ مَا انْقَادُوا لِجَنْكِسْخَانَ حَتْـ ـتَى أَعْرَضُوا عَنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
وَاللهِ مَا وَلَّوْهُ إِلاَّ بَعْدَ عَزْ لِ الْوَحْيِ عَنْ عِلْمٍ وَعَنْ إِيقَانِ
عَزَلُوهُ عَنْ سُلْطَانِهِ وَهُوَ الْيَقِيـ ـنُ الْمُسْتَفَادُ لَنَا مِنَ السُّلْطَانِ
هَذَا وَلَمْ يَكْفِ الَّذِي فَعَلُوهُ حَتْـ ـتَى تَمَّمُوا الْكُفْرَانَ بِالْبُهْتَانِ
جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ إِذْ عَضَهُوهُ أَنْـ ـوَاعًا مُعَدَّدَةً مِنَ النُّقْصَانِ
مِنْهَا انْتِفَاءُ خُرُوجِهِ مِنْ رَبِّنَا لَمْ يَبْدُ مِنْ رَبٍّ وَلاَ رَحْمَنِ
لَكِنَّهُ خَلْقٌ مِنَ اللَّوْحِ ابْتَدَا أَوْ جِبْرَئِيلَ أَوِ الرَّسُولِ الثَّانِي
مَا قَالَهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ الْعُلاَ لَيْسَ الْكَلاَمُ بِوَصْفِ ذِي الْغُفْرَانِ
تَبًّا لَهُمْ سَلَبُوهُ أَكْمَلَ وَصْفِهِ عَضَهُوهُ عَضَّةَ الرَّيْبِ وَالْكُفْرَانِ
هَلْ يَسْتَوِي بِاللهِ نِسْبَتُهُ إِلَى بَشَرٍ وَنِسْبَتُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ
مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَيْنُ صِفَاتِهِ اللهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

بَيْنَ الصِّفَاتِ وَبَيْنَ مَخْلُوقٍ كَمَا ... بَيْنَ الإِلَهِ وَهَذِهِ الأَكْوَانِ

هَذَا وَقَدْ عَضَّهُوهُ أَنْ نُصُوصَهُ ... مَعْزُولَةٌ عَنْ إِمْرَةِ الإِيقَانِ

لَكِنْ عَانِيهَا الظُّنُونُ وَلَيْسَهُ ... كَمَا يَكُونُ مُطَابِقًا بِبَيَانِ

لَكِنْ ظَوَاهِرُ مَا يُطَابِقُ ظَنَّهَا ... مَا فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا بِوِزَانِ

إِلاَّ إِذَا مَا أُوِّلَتْ فَمَجَازُهَا ... بِزِيَادَةٍ فِيهَا أَوِ النُّقْصَانِ

أَوْ بِالْكِنَايَةِ وَاسْتِعَارَاتٍ وَتَشْـ ... ـبِيهٍ وَأَنْوَاعِ الْمَجَازِ الثَّانِي

فَالْقَطْعُ لَيْسَ بِفِيدَةٍ وَالظَّنُّ مَنْـ ... ـفِيٌّ كَذَلِكَ فَالتَّقِي الأَمْرَانِ

فَلِمَ الْمَلاَمَةُ إِذْ عَزَلْنَاهَا وَوَلْـ ... ـلَيْنَا الْعُقُولَ وَفِكْرَةَ الأَذْهَانِ

فَاللهُ يَعْظِمُ فِي النُّصُوصِ أُجُورَكُمْ ... يَا أُمَّةَ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ

مَاتَتْ لَدَى الأَقْوَامِ لاَ يُحْيُونَهَا ... أَبَدًا وَلاَ تُحْيِيهِمُ لَيَوَانِ

هَذَا وَقَوْلُهُمُ خِلاَفُ الْحِسِّ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

مَعْ كَوْنِهِ أَيْضًا خِلاَفَ الْفِطْرَةِ الَّـ ... أُولَى وَسُنَّةِ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

فَاللهُ قَدْ فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَى الَّتِي ... هُمْ بِالْخِطَابِ لِمَقْصِدِ التِّبْيَانِ

كُلٌّ يَدُلُّ عَلَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ ... بِكَلاَمِهِ مِنْ أَفْضَلِ كُلِّ لِسَانِ

فَتَرَى الْمُخَاطَبَ قَاطِعًا بِمُرَادِهِ ... هَذَا مَعَ التَّقْصِيرِ فِي الإِلْسَانِ

إِذْ كُلُّ لَفْظٍ غَيْرِ لَفْظٍ لُبْنَا ... هُوَ دُولَةٌ فِي ذَا بِلاَ نُكْرَانِ

حَاشَا كَلاَمُ اللهِ فَهُوَ الْغَايَةُ الَّـ ... ـقُصْوَى لَهُ أَعْلَى ذُرَى التِّبْيَانِ

لَمْ يَفْهَمِ الثَّقَلاَنِ مِنْ لَفْظٍ كَمَا ... فَهِمُوا مِنَ الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

فَهُوَ الَّذِي اسْتَوَلَى عَلَى التِّبْيَانِ كَانْـ ... ـتِيلاَئِهِ حَقًّا عَلَى الإِحْسَانِ

مَا بَعْدَ تِبْيَانِ الرَّسُولِ لِنَاظِرٍ ... إِلاَّ الْعَمَى وَالْغَبْنُ فِي الْعِرْفَانِ

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ لِسَائِلٍ ... مِنْ صَحْبِهِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ

حَقًّا يَرَوْنَ إِلَهَكُمْ يَوْمَ اللُّقَا ... رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يَرَى الْقَمَرَانِ

كَالْبَدْرِ لَيْلَ تَمَامِهِ وَالشَّمْسِ فِي ... لَحْرِ الظَّهِيرَةِ مَا هُمَا مِنْدَانِ

بَلْ قَصْدُهُ لِتَحْقِيقِ رُؤْيَتِنَا لَهُ ... فَأَتَى بِأَظْهَرِ مَا يُرَى بِعِيَانِ

وَتَفَى السَّحَابَ وَذَاكَ أَمْرٌ شَائِعٌ ... مِنْ رُؤْيَةِ الْقَمَرَيْنِ فِي ذَا الآنِ

فَأَتَى إِذًا بِالْمُقْتَضَى وَتَفَى الْمُوَا ... نِعَ خَشْيَةَ التَّقْصِيرِ فِي التِّبْيَانِ

صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا هَذَا الَّذِي ... يَأْتِي بِهِ مِنْ بَعْدِ ذَا التِّبْيَانِ

مَاذَا يَقُولُ الْقَاصِدُ التِّبْيَانَ يَا ... أَهْلَ الْعَمَى مِنْ بَعْدِ ذَا التِّبْيَانِ

فَبِأَيِّ لَفْظٍ جَاءَكُمْ قُلْتُمْ لَهُ ... ذَا اللَّفْظُ مَعْزُولٌ عَنِ الإِيقَانِ

وَحَرَّمْتُمْ فِي وَجْهِهِ بِعَسَاكِرِ التَّـ ... ـأْوِيلِ دَفْعًا مِنْكُمُ بِلِيَانِ

لَوْ أَنَّكُمْ وَاللهِ عَامَلْتُمْ بِذَا ... أَهْلَ الْعُلُومِ وَكُتْبَهُمْ بِوِزَانِ

فَسَدَتْ نَصَائِفُ الْوُجُودِ بِأَسْرِهَا ... وَغَدَتْ عُلُومُ النَّاسِ ذَاتَ هَوَانِ

هَذَا وَلَيْسُوا فِي بَيَانِ عُلُومِهِمْ ... مِثْلَ الرَّسُولِ وَمُنْزِلِ الْقُرْآنِ

وَاللهِ لَوْ صَحَّ الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ ... قُطِعَتْ سَبِيلُ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

فَالْعَقْلُ لاَ يَهْدِي إِلَى تَفْصِيلِهَا ... لَكِنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الْوَحْيَانِ

فَإِذَا غَدَا التَّفْصِيلُ لَفْظِيًّا وَمَعْـ ... ـزُولاً عَنِ الإِيقَانِ وَالرُّجْحَانِ

فَهُنَالِكَ لاَ عِلْمًا أَفَادَتْ لاَ وَلاَ ... ظَنًّا وَهَذَا غَايَةُ الْحِرْمَانِ

لَوْ صَحَّ ذَاكَ الْقَوْلُ لَمْ يَحْصُلْ لَنَا ... قَطْعٌ بِقَوْلٍ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ

وَغَدَا التَّخَاطُبُ فَاسِدًا وَفَسَادُهُ ... أَصْلُ الْفَسَادِ لِنَوْعِ ذَا الإِنْسَانِ

مَا كَانَ يَحْصُلُ عِلْمُنَا بِشَهَادَةٍ ... وَوَصِيَّةٍ كَلاَّ وَلاَ إِتْقَانِ

وَكَذَلِكَ الإِقْرَارُ يَصْبِحُ فَاسِدًا ... إِذْ كَانَ مُحْتَمِلاً لِسَبْعِ مَعَانِ

وَكَذَا عُقُودُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهَا ... بِاللَّفْظِ إِذْ يَتَخَاطَبُ الرَّجُلاَنِ

أَيُسُوغُ لِلشُّهَدَا شَهَادَتُهُمْ بِهَا ... مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمُ بَيَانِ

إِذْ تِلْكُمُ الأَلْفَاظُ غَيْرُ مُفِيدَةٍ ... لِلْعِلْمِ بَلْ لِلظَّنِّ ذِي الرُّجْحَانِ

بَلْ لاَ يُسُوغُ لِشَاهِدٍ أَبَدًا شَهَا ... دَتُهُ عَلَى مَدْلُولِ لَفْظٍ لِسَانِ

بَلْ لاَ يُرَاقُ دَمٌ بِلَفْظِ الْكُفْرِ مِنْ ... مُتَكَلِّمٍ بِالطَّنِّ وَالْحُسْبَانِ

بَلْ لاَ يُبَاحُ الْفَرْجُ بِالإِذْنِ الَّذِي ... هُوَ شَرْطُ صِحَّتِهِ مِنَ النِّسْوَانِ

أَيُسُوغُ لِلشُّهَدَاءِ جَزْمُهُمُ بِأَنْ ... رَجَحَتْ بِلَفْظٍ قَبِيلِ لِمَعَانِ

هَـذَا وَجُمْلَـةُ مَـا يُقَـالُ بِأَنَّـهُ ... فِـي ذَا فَسَـادُ الْعَقْـلِ وَالأَدْيَـانِ

هَـذَا وَمِـنْ بُهْتَانِهِمْ أَنَّ اللُّغَـا ... تِ أَتَـتْ بِنَقْـلِ الْفَـرْدِ وَالْوُحْـدَانِ

فَـانْظُرْ إِلَـى الأَلْفَـاظِ فِـي جَرَيَانِهَـا ... فِـي هَـذِهِ الأَخْبَـارِ وَالْقُـرْآنِ

أَنَظُنُّهَـا تَحْتَـاجُ نَقْـلاً مُسْـنَدًا ... مُتَـوَاتِرًا أَوْ نَقْـلَ ذِي وَحْـدَانِ

أَمْ قَـدْ جَـرَتْ مَجْـرَى الضَّـرُورِيَّاتِ لاَ ... تَحْتَـاجُ نَقْـلاً وَهْـيَ ذَاتُ بَيَـانِ

إِلاَّ الأَقَـلَّ فَإِنَّـهُ يَحْتَـاجُ لِلنَّـ ... ـقْلِ الصَّـرِيحِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

وَمِـنَ الْمَصَـائِبِ قَـوْلُ قَـائِلِهِمْ بِـأَنْ ... نَّ اللهَ أَظْهَـرُ لَفْظَـةٍ بِلِسَـانِ

وَحِلاَفُهُـمْ فِيـهِ كَـثِيرٌ ظَـاهِرٌ ... عَرَبِـي وَضْـعٍ ذَاكَ أَمْ سُـرْيَانِي

وَكَـذَا حِلاَفُهُـمْ أَمُشْـتَقًّا يُـرَى ... أَمْ جَامِـدًا قَـوْلاَنِ مَشْـهُورَانِ

وَالأَصْـلُ مَـاذَا فِيـهِ حُلْـفٌ ثَابِـتٌ ... عِنْـدَ الْحُمَـاةِ وَذَاكَ ذُو أَلْـوَانِ

هَـذَا وَلَفْـظُ اللهِ أَظْهَـرُ لَفْظَـةٍ ... نَطَـقَ اللِّسَـانُ بِهَـا مَـدَى الأَزْمَـانِ

فَـانْظُرْ بِحَـقِّ اللهِ مَـاذَا فِـي الَّـذِي ... قَـالُوهُ مِـنْ لَـبْسٍ وَمِـنْ بُهْتَـانِ

هَـلْ خَـالَفَ الْعُقَـلاَءُ أَنَّ اللهَ رَبْـ ... ـبُ الْعَـالَمِينَ مُـدَبِّرُ الأَكْـوَانِ

مَـا فِيـهِ إِجْمَـالٌ وَلاَ هُـوَ مُـوهِمٌ ... نَقْـلَ الْمَجَـازِ وَلاَ لَـهُ وَضْـعَانِ

وَالْحُلْـفُ فِـي أَحْـوَالِ ذَاكَ اللَّفْـظِ لاَ ... فِـي وَضْـعِهِ لَـمْ يَخْتَلِـفْ رَجُـلاَنِ

وَإِذَا هُـمُ اخْتَلَفُـوا بِلَفْظَـةِ مَكَّـةٍ ... فِيـهِ لَهُـمْ قَـوْلاَنِ مَعْرُوفَـانِ

أَفَيَـنْهَهُمْ حُلْـفٌ بِـأَنَّ مُـرَادَهُمْ ... حَـرَمُ الإِلَـهِ وَقِبْلَـةُ الْبُلْـدَانِ

وَإِذَا هُـمُ اخْتَلَفُـوا بِلَفْظَـةِ أَحْمَـدٍ ... فِيـهِ لَهُـمْ قَـوْلاَنِ مَـذْكُورَانِ

أَفَيَـنْهَهُمْ حُلْـفٌ بِـأَنَّ مُـرَادَهُمْ ... مِنْـهُ رَسُـولُ اللهِ ذُو الْبُرْهَـانِ

وَنَظِيـرُ هَـذَا لَـيْسَ يَحْصُـرُ كَثْـرَةً ... يَـا قَـوْمُ فَاسْـتَحْيُوا مِـنَ الرَّحْمَنِ

أَبِمِثْـلِ ذَا الْهَـذَيَانِ قَـدْ عُزِلَـتْ لُصُـ ... ـصُ الْـوَحْيِ عَـنْ عِلْـمٍ وَعَـنْ إِيقَـانِ

فَالْحَمْـدُ للهِ الْمُعَـافِي عَبْـدَهُ ... مِمَّـا بَلاَكُـمْ يَـا ذَوِي الْعِرْفَـانِ

فَلأَجْـلِ ذَا نَبَـذُوا الْكِتَـابَ وَرَاءَهُـمْ ... وَعَكَفُـوا عَلَـى آثَـارِ كُـلِّ مُهَـانِ

وَلأَجْـلِ ذَاكَ غَـدَوْا عَلَـى السُّـنَنِ الَّتِـي ... جَـاءَتْ وَأَهْلِيهَـا ذَوِي أَضْـغَانِ

يرمونهم كذبًا بكل عظيمة حاشاهم من إفك ذي بهتان

الشرح

وهذا من جنس ما قبله، فهؤلاء الملحدون زعموا أن أدلة الكتاب والسنة ظنية، وعللوا هذا بأنها ألفاظ تحتمل عدة معان لاشتراكها وإجمالها ولما فيها من الحذف والإضمار والمجاز ونحوه، وهذا يوجب التوقف في مدلولها.

والسنة عندهم أغلبها آحاد كذبوا منه وحرفوا ما لم يتمكنوا من رده. وقد تقدم إبطال هذا الأصل الخبيث.

أما أهل السنة والجماعة وجميع أئمة الهدى ومصابيح الدجى فهم يقولون: صدق الله العظيم وصدق رسوله النبي الكريم ومن أصدق من الله قيلا وحديثًا، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1]. الوحيان قد اشتملا على أجل المسائل وأوضح البراهين، بعبارات وألفاظ واضحة متصادقة، ويصرف الله المعنى الجليل من أصول الدين في أساليب متنوعة وألفاظ متغايره وكلها في غاية الوضوح والبيان والتبين.

ويؤيد المعاني النافعة بضرب الأمثال وتنبيه العقول والألباب على صحتها وعلى الطرق الموصلة إليها، فهي أدلة نقلية عقلية فطرية، وكل ما قرره أساطين العقلاء وأذكياء الحكماء من الحقائق الصحيحة فهي جزء مما دل عليه القرآن، وأدلة الوحيين تثبت الإيمان في القلوب حتى يكون أرسخ وأقوى من الجبال الرواسي، لوضوحها وقوتها وجلاء براهينها وشهادة العقول بصحتها، لا تحصى الأدلة والبراهين التي يبديها الله ورسوله للأصول الكبار، وكلما كان الأصل أعظم كانت براهينه أكثر وأعظم وأوضح، قد نوعها الله من جميع الوجوه وصرفها، والنبي ﷺ أعطى جوامع الكلم وأيده الله بقوة البيان وبلاغة التعبير، وقد اجتمع فيه ثلاثة أمور لم يصل ولن يصل إليها أحد من الأولين والآخرين: النصح الكامل، والعلم الواسع القوي التام، والبلاغة التامة.

---

(١) [الفرقان: ٣٣].

فمن اجتمعت فيه هذه الأمور الثلاثة هل تظن أن في كلامه نقصًا أو في تعبيره قصورًا أو يُمكن أحدًا أن يستدرك على كلامه أو يحمله على خلاف ما يبين ويتضح منه أم تقول والحق تقول أن كلامه هو الغاية الَّتي لا غاية فوقها في البيان والإرشاد والهدي والهداية إلى كل علم نافع ويقين وكلامه هو الدليل والمدلول، فيا ويح من زعم أن اليقين لا يستفاد من كلام الله ولا من كلام الرسول: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾[1].

فصل

في تنزيه أهل الحديث والشريعة عن الألقاب القبيحة الشنيعة

فَرَمَوْهُمْ بَغْيًا بِمَا الرَّامِي بِهِ ... أَوْلَى لِيَدْفَعَ عَنْهُ فِعْلَ الْجَانِي

يَرْمِي الْبَرِيءَ بِمَا جَنَاهُ مُبَاهِتًا ... وَلِذَاكَ عِنْدَ الْغِرِّ يَشْتَبِهَانِ

سَمُّوهُمْ حَشْوِيَّةً وَنَوَابِتًا ... وَمُجَسِّمِينَ وَعَابِدِي أَوْثَانِ

وَكَذَاكَ أَعْدَاءُ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ ... وَهُمُ الرَّوَافِضُ أَخْبَثُ الْحَيَوَانِ

نَصَبُوا الْعَدَاوَةَ لِلصَّحَابَةِ ثُمَّ سَمْـ ... ـمَوْا بِالنَّوَاصِبِ شِيعَةَ الرَّحْمَنِ

وَكَذَا الْمُعَطِّلُ شَبَّهَ الرَّحْمَنَ بِالْـ ... ـمَعْدُومِ فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْوَصْفَانِ

وَكَذَاكَ شَبَّهَ قَوْلَهُ بِكَلَامِنَا ... حَتَّى نَفَاهَا وَذَانِ تَشْبِيهَانِ

وَكَذَاكَ شَبَّهَ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا ... حَتَّى نَفَاهُ عَنْهُ بِالْبُهْتَانِ

وَأَتَى إِلَى وَصْفِ الرَّسُولِ لِرَبِّهِ ... سَمَّاهُ تَشْبِيهًا فَيَا إِخْوَانِي

بِاللهِ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الِاسْمِ مِنْ ... هَذَا الْخَبِيثِ الْمُخْبِثِ الشَّيْطَانِي

إِنْ كَانَ تَشْبِيهًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ فَبِكَامِلٍ[2] ذِي شَانِ

لَكِنَّ نَفْيَ صِفَاتِهِ تَشْبِيهُهُ ... بِالْجَامِدَاتِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

بَلْ بِالَّذِي هُوَ غَيْرُ شَيْءٍ وَهُوَ مَعْـ ... ـدُومٌ وَإِنْ يُفْرَضْ فَفِي الْأَذْهَانِ

فَمَنِ الْمُشَبِّهُ بِالْحَقِيقَةِ أَنْتُمْ ... أَمْ مُثْبِتُ الْأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

---

(١) [الجاثية: ٦]

(٢) كذا في (خ) أما في (ط) [أكمل به].

فصل

في نكتة بديعة تبين ميراث الملقّبين والملقّبين من المشركين والموحدين

هَـذَا وَثَـمَّ لَطِيفَـةٌ عَجَـبٌ سَأُبْـ ... ـدِيهَا لَكُـمْ يَـا مَعْشَـرَ الإِخْـوَانِ

فَاسْـمَعْ فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ وَمُشَـبِّهٌ ... وَاعْقِـلْ فَـذَاكَ حَقِيقَـةُ الإِنْسَـانِ

لَابُـدَّ أَنْ يَـرِثَ الرَّسُـولَ وَضِـدَّهُ ... فِـي النَّـاسِ طَائِفَتَـانِ مُخْتَلِفَـانِ

فَـالْوَارِثُونَ لَـهُ عَلَـى مِنْهَاجِـهِ ... وَالْوَارِثُـونَ لِضِـدِّهِ فِئَتَـانِ

إِحْـدَاهُمَا حَـرْبٌ لَـهُ وَلِحِزْبِـهِ ... مَـا عِنْـدَهُمْ فِـي ذَاكَ مِـنْ كِتْمَـانِ

فَرَمَـوْهُ مِـنْ أَلْقَـابِهِمْ بِعَظَـائِمٍ ... هُـمْ أَهْلُهَـا لَا خِـيرَةُ الـرَّحْمَنِ

فَـأَتَى الأُلَـى وَرِثُـوهُمُ فَرَمَـوْا بِهَـا ... وُرَّاثَـهُ بِـالْبَغْيِ وَالْعُـدْوَانِ

هَـذَا يُحَقِّـقُ إِرْثَ كُـلٍّ مِنْهُمَـا ... فَاسْـمَعْ وَعِـهْ يَـا مَـنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

وَالآخَـرُونَ أُولُـو النِّفَـاقِ فَأَضْمَـرُوا ... شَـيْئًا وَقَـالُوا غَـيْرَهُ بِلِسَـانِ

وَكَـذَا الْمُعَطِّـلُ مُضْـمِرٌ تَعْطِيلَـهُ ... قَـدْ أَظْهَـرَ التَّنْزِيـهَ لِلـرَّحْمَنِ

هَـذِي مَوَارِيـثُ الْعِبَـادِ تَقَسَّـمَتْ ... بَـيْنَ الطَّوَائِـفِ قِسْـمَةَ الْمَنَّـانِ

هَـذَا وَثَـمَّ لَطِيفَـةٌ أُخْـرَى بِهَـا ... سُـلْوَانُ مَـنْ قَـدْ سُـبَّ بِالْبُهْتَـانِ

تَجِـدُ الْمُعَطِّـلَ لَاعِنًـا لِمُجَسِّـمٍ ... وَمُشَـبِّهٍ لِلَّهِ بِالإِنْسَـانِ

وَاللَّهُ يَصْـرِفُ ذَاكَ عَـنْ أَهْـلِ الْهُـدَى ... كَمُحَمَّـدٍ وَمُـذَمِّمٍ إِسْـمَانِ

هُـمْ يَشْـتُمُونَ مُـذَمَّمًا وَمُحَمَّـدٌ ... عَـنْ شَـتْمِهِمْ فِـي مَعْـزِلٍ وَصِـيَانِ

صَـانَ الإِلَـهُ مُحَمَّـدًا عَـنْ شَـتْمِهِمْ ... فِـي اللَّفْـظِ وَالْمَعْنَـى هُمَـا صِنْوَانِ

كَصِيَانَةِ الأَتْبَـاعِ عَـنْ شَـتْمِ الْمُعَطِّـ ... ـلِ لِلْمُشَـبِّهِ هَكَـذَا الإِرْثَـانِ

وَالسَّـبُّ مَرْجِعُـهُ عَلَـيْهِمْ إِذْ هُـمُ ... أَهْـلٌ لِكُـلِّ مَذَمَّـةٍ وَهَـوَانِ

وَكَـذَا الْمُعَطِّـلُ يَلْعَـنُ اسْـمَ مُشَـبِّهٍ ... وَاسْـمُ الْمُوَحِّـدِ فِـي حِمَـى الـرَّحْمَنِ

هَـذِي حِسَـانُ عَـرَائِسٍ زُفَّـتْ لَكُـمْ ... وَلَـدَى الْمُعَطِّـلِ هُـنَّ غَـيْرُ حِسَـانِ

وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ قَلْبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ ... مِنْ غَيْرِ أَبْوَابٍ وَلَا اسْتِئْذَانِ
وَبِرُدَّةُ الْمَحْرُومِ مِنْ خِذْلَانِهِ ... لَا تُنْطِقَنَا اللَّهُمَّ بِالْحِرْمَانِ
يَا فِرْقَةً نَفَتِ الْإِلَهَ وَقَوْلَهُ ... وَعُلُوَّهُ بِالْجَحْدِ وَالْكُفْرَانِ
مُوتُوا بِغَيْظِكُمُ فَرَبِّي عَالِمٌ ... بِسَرَائِرِ مِنْكُمْ وَخُبْثِ جَنَانِ
فَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَرَسُولِهِ بِالْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ
وَالْحَقُّ رُكْنٌ لَا يَقُومُ لِهَدْهِ ... أَحَدٌ وَلَوْ جُمِعَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ
تُوبُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ تَعْطِيلِكُمْ ... فَالرَّبُّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعُدْوَانِ
مَنْ تَابَ مِنْكُمْ فَالْجِنَانُ مَصِيرُهُ ... أَوْ مَاتَ جَهْبِذًا فَفِي الْجِنَانِ

الشرح

تبين ميراث الملقين والملقين من المُشركين والمُوحدين.

النكتة: هي الفائدة اللطيفة الَّتِي لا تكاد تدرك إلا بدقة فهم ولطف عبارة.

وذلك أن أعداء الرسول ﷺ من الكفار والمُنافقين رموه بألقاب هم أهلها وأحق بِهَا، ورسول الله ﷺ أبعد الْخلق عنها، رموه بالكذب والإفتراء والقول على الله وأنه الذي قطع الأرحام وأتاهم بِمَا لَمْ يأت به أحد.

وقد برأه الله من ذلك وأخبر أن هذه الأوصاف الشنيعة وصف أعدائه.

كذلك حالة من ورث هؤلاء المُشركين من جهمية وملاحدة لقبوا ورثة الرسول بالألقاب القبيحة وهم أبعد عنها ومن رماهم أحق بِهَا.

ومن بديع ذلك وعجيبه أن المُشركين كانوا يسمون مُحَمَّدًا ﷺ مذمما بدل مُحَمَّد فيشتمون مذمما ويقول النَّبِي ﷺ: «أتعجبون كيف يشتمون مذمما وأنا مُحَمَّد»[1]. فصرف الله عن نبيه شتمهم لفظًا ومعنًى، وكذلك أتباع مُحَمَّد يسميهم أعداؤهم مجسمة مشبهة حشوية نواصب، فيرمونهم بِهذه الأسْمَاء ويشتمونهم، ويصرف الله شتمهم عنهم لفظًا ومعنًى، فهذا تَحقيق هَذا الْمِيراث من الوارثين والوارثين، ولله ألطاف وأسرار لا تبلغها الأفهام.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٣).

فصل

في بيان اقتضاء التجهم والجبر والإرجاء للخروج عن جميع ديانات الأنبياء

وَاسْمَعْ وَعِهْ سِرًّا عَجِيبًا كَانَ مَكْـ ... ـتُومًا مِنَ الأَقْوَامِ مُنْذُ زَمَانِ
فَأَذَعْتُهُ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي ... نُصْحًا وَخَوْفَ مَعَرَّةِ الْكِتْمَانِ
جِيمٌ وَجِيمٌ ثُمَّ جِيمٌ مَعْهُمَا ... مَقْرُونَةٌ مَعْ أَحْرُفٍ بِوِزَانِ
فِيهَا أَلْدَى الأَقْوَامِ طِلْسِمٌ مَتَى ... تَحْلُلْهُ تَحْلُلْ ذِرْوَةَ الْعِرْفَانِ
فَإِذَا رَأَيْتَ الثَّوْرَ فِيهِ تَقَارَنَ الْـ ... ـجِيمَاتُ بِالتَّثْلِيثِ شَرَّ قِرَانِ
دَلَّتْ عَلَى أَنَّ النُّحُوسَ جَمِيعَهَا ... سَهْمُ الَّذِي قَدْ فَازَ بِالْخِذْلَانِ
جَبْرٌ وَإِرْجَاءٌ وَجِيمُ تَجَهُّمٍ ... فَتَأَمَّلِ الْمَجْمُوعَ فِي الْمِيزَانِ
فَاحْكُمْ بِطَالِعِهَا لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ ... بِخَلَاصِهِ مِنْ رِبْقَةِ الإِيمَانِ
فَاحْمِلْ عَلَى الأَقْدَارِ ذَنْبَكَ كُلَّهُ ... حَمْلَ الْجُذُوعِ عَلَى قُوَى الْجُدْرَانِ
وَافْتَحْ لِنَفْسِكَ بَابَ عُذْرٍ إِذْ تَرَى الْـ ... أَفْعَالَ فِعْلَ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ
فَالْحَبْرُ يَشْهَدُكَ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا ... مِثْلَ ارْتِعَاشِ الشَّيْخِ ذِي الرَّجَفَانِ
لَا فَاعِلٌ أَبَدًا وَلَا هُوَ قَادِرٌ ... كَالْمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الأَكْفَانِ
وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ اللَّذَانِ تَوَجَّهَا ... فَهُمَا كَأَمْرِ الْعَبْدِ بِالطَّيَرَانِ
وَكَأَمْرِهِ الأَعْمَى بِنَقْطِ مَصَاحِفٍ ... أَوْ شَكْلِهَا حَذَرًا مِنَ الأَلْحَانِ
وَإِذَا ارْتَفَعَتْ دُرَيْجَةٌ أُخْرَى رَأَيْـ ... ـتَ الْكُلَّ طَاعَاتٍ بِلَا عِصْيَانِ
إِنْ قِيلَ قَدْ خَالَفْتَ أَمْرَ الشَّرْعِ قُلْ ... لَكِنْ أَطَعْتُ إِرَادَةَ الرَّحْمَنِ
وَمُطِيعُ أَمْرِ اللهِ مِثْلُ مُطِيعِ مَا ... يَقْضِي بِهِ وَكِلَاهُمَا عَبْدَانِ
عَبْدُ الأَوَامِرِ مِثْلُ عَبْدِ مَشِيئَةٍ ... عِنْدَ الْمُحَقِّقِ لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ
فَانْظُرْ إِلَى مَا قَادَتِ الْجِيمُ الَّذِي ... لِلْجَبْرِ مِنْ كُفْرٍ وَمِنْ بُهْتَانِ
وَكَذَلِكَ الإِرْجَاءُ حِينَ تُقِرُّ بِالْـ ... ـمَعْبُودِ تُصْبِحُ كَامِلَ الإِيمَانِ
فَارْمِ الْمَصَاحِفَ فِي الْحَشُوشِ وَخَرِّبِ الْـ ... بَيْتَ الْعَتِيقَ وَجِدْ فِي الْعِصْيَانِ

وَاقْـــلْ إِذَا مَـــا اسْـــطَعْتَ كُـــلَّ مُوَحِّـــدٍ ... وَتَمَسَّـــحَنْ بِـــالْقَسِّ وَالصُّـــلْبَانِ

وَابْشُمْ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ أَتَوْا ... مِـــنْ عِنْـــدِهِ جَهْـــرًا بِـــلاَ كِتْمَـــانِ

وَإِذَا رَأَيْـــتَ حِجَـــارَةً فَاسْـــجُدْ لَهَـــا ... بَـــلْ خُـــرَّ لِلأَصْـــنَامِ وَالأَوْثَـــانِ

وَأَقِـــرَّ أَنَّ اللهَ جَـــلَّ جَلاَلُـــهُ ... هُـــوَ وَحْـــدَهُ الْبَـــارِي لِـــذِي الأَكْـــوَانِ

وَأَقِـــرَّ أَنَّ رَسُـــولَهُ حَقًّـــا أَتَـــى ... مِـــنْ عِنْـــدِهِ بِـــالْوَحْيِ وَالْقُـــرْآنِ

فَتَكُـــونَ حَقًّـــا مُؤْمِنًـــا وَجَمِيـــعُ ذَا ... وِزْرٌ عَلَيْـــكَ وَلَـــيْسَ بِـــالْكُفْرَانِ

هَـــذَا هُـــوَ الإِرْجَـــاءُ عِنْـــدَ غُلاَتِهِـــمْ ... مِـــنْ كُـــلِّ جَهْمِـــيٍّ أَخِـــي الشَّـــيْطَانِ

فَاصِـــفْ إِلَـــى الْجِسْمَيْنِ جِسْـــمَ لَجَهْـــمٍ ... وَالْـــفِ الصِّـــفَاتِ وَأَلْـــقِ بِالأَرْكَـــانِ

قُـــلْ لَـــيْسَ فَـــوْقَ الْعَـــرْشِ رَبٌّ عَـــالِمٌ ... بِسَـــرَائِرٍ مِنَّـــا وَلاَ إِعْـــلاَنِ

بَـــلْ لَـــيْسَ فَـــوْقَ الْعَـــرْشِ ذُو سَـــمْعٍ وَلاَ ... بَصَـــرٍ وَلاَ عَـــدْلٍ وَلاَ إِحْسَـــانِ

بَلْ لَيْسَ فَـوْقَ الْعَـرْشِ مَعْبُـودٌ سِـوَى الْـ ... ـــعَدَمِ الَّـذِي لاَ شَـيْءَ فِـي الأَعْيَـانِ

بَـــلْ لَـــيْسَ فَـــوْقَ الْعَـــرْشِ مِـــنْ مُتَكَلِّمٍ ... بِـــأَوَامِرٍ وَزَوَاجِـــرٍ وَقُـــرْآنِ

كَـــلاَّ وَلاَ كَلَّـــمَ إِلَيْـــهِ صَـــاعِدٌ ... أَبَـــدًا وَلاَ عَمِـــلَ لِـــذِي شُـــكْرَانِ

أَنَّـى وَخَـطُّ الْعَـرْشِ مِنْـهُ كَخَـطِّ مَـا ... تَحْـتَ الثَّـرَى عِنْـدَ الْحَضِـيضِ الدَّانِي

بَـــلْ لَيْـــسَ لِلرَّحْمَنِ عِنْـــدَ فَرِيقِهِمْ ... لِلْعَـــرْشِ نِسْـــبَتُهُ إِلَـــى الْكُثْبَـــانِ

فَعَلَيْهِمَـــا اسْـــتَوَتَا جَمِيعًـــا قُـــدْرَةً ... وَكِلاَهُمَـــا مِـــنْ ذَاتِـــهِ خَلْـــوَانِ

هَـــذَا الَّـــذِي أَعْطَتْـــهُ جَهْمُ لِجَهْـــمٍ ... حَتْـــوًا بِـــلاَ كَـــلٍّ وَلاَ مِـــرْيَانِ

لِـــلَّهِ مَـــا اسْـــتَجْمَعْتَ عِنْـــدَ مُعَطِّـــلٍ ... جَمْعًـــا لَهَـــا وَلَدَيْـــهِ مِـــنْ إِتْقَـــانِ

وَالْجَهْـــمُ أَصْـــلُهَا جَمِيعًـــا فَاغْتَـــدَتْ ... مَقْـــسُومَةً فِـــي النَّـــاسِ بِـــالْمِيزَانِ

وَالْوَارِثُـــونَ لَـــهُ عَلَـــى التَّحْقِيـــقِ هُـــمْ ... أَصْـــحَابُهَا لاَ شِـــيعَةُ الإِتْقَـــانِ

لَكِـــنْ لَقَسَّـــمَتِ الطَّوَائِـــفُ قَوْلَـــهُ ... ذُو الشَّـــهْمِ وَالشَّـــهْمَيْنِ وَالشَّـــهْمَانِ

لَكِنْ نَجَا أَهْـلُ الْحَـدِيثِ الْمَحْـضِ أَنَّـ ... ـــبَاعُ الرَّسُـــولِ وَتَـــابِعُو الْقُـــرْآنِ

عَرَفُوا الَّـذِي قَـدْ قَـالَ مَـعْ عِلْـمٍ بِمَـا ... قَـــالَ الرَّسُـــولُ فَهُـــمْ أُولُـــو الْعِرْفَـــانِ

وَسِوَاهُمُ فِـي الْجَهْـلِ وَالـدَّعْوَى مَـعَ الْـ ... ـــكِبْرِ الْعَظِـيمِ وَكَثْـرَةِ الْهَـذَيَانِ

مَـدُّوا يَـدًا لِحَـوِ الْعُـلاَ بِتَكَلُّـفٍ وَتَحَلُّـفٍ وَتَكَثُّـرٍ وَتَـوَانِ
أَتَـرَى يَنَالُوهَـا وَهَـذَا شَـأْنُهُمْ حَاشَـا الْعُـلاَ مِـنْ ذَا الرَّبُـونِ الْفَـانِي

الشرح

وهذا من المناسبات العجيبة اللفظية أن كل واحدة من هذه الجيمات في هذه الأسماء الثلاثة تقتضي الخروج عن بعض الدين، فإذا استجمعت بواحد خرج من الدين بالكلية.

وذلك أن الدين مبني على ثلاث أصول:

التوحيد، والإيمان وإثبات أفعال العباد حقيقة.

فالتجهم يخل بالتوحيد لأن التوحيد؛ مبناه إثبات تفرد الرب بصفات الكمال، والجَهمية ينفون ذلك كما تقدم من نفيهم لصفاته الذاتية والمعنوية والفعلية، وأما الجبر فإن مذهب الجَبرية كما تقدم يقتضي أن العبد مجبور مقهور على أفعاله وأقواله.

وهذا يبطل الشرع والحكمة، ويثبت للعصاة العذر العظيم في كفرهم ومعاصيهم، وأنهم إذا عذبوا عليها فهم مظلُمون. لأنهم عذبوا على ما لم يكن لهم فيه أثر.

ويرتقي هذا المذهب الخبيث ببعض غلاتهم إلى ان يثبت أن معاصيه طاعات ومخالفته عبادات؛ لأنه وإن عصى الأمر بغير اختيار، فقد أطاع القدر الذي لابد له منه.

وحسبك بهذا المذهب شرًا وضلالاً.

وأما جيم الإرجاء فالمُرجئة يرون أن الإيمان هو إقرار العبد واعترافه بأن الله هو الخلاق وحده وما عدا هذا فلا يدخل في الإيمان. ومن المعلوم أن الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة دل على أن الإيمان شامل لعقائد القلوب كلها وأعماله وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، وأن نقص شيء من ذلك في الإيمان.

ولا يخفى أن من جمع هذه الجيمات فقد اجتمع في الشر كله وفاته الخير كله، وهذا مذهب الجَهمية المحضة الذين لا نصيب لهم من الدين، وقد يوجد في أتباعهم بعض هذه الأصول الخبيثة دون بعض، والشر كله دركات كما أن الخير درجات، ولم ينج من هذه الأقوال الباطلة إلا أهل السنة والجماعة الذين وصفوا ربهم بكل صفة كمال، ونزهوه عن

كل عيب ونقص، وحققوا الإيمان فأدخلوا فيه الإعتقادات والأعمال الباطنة والظاهرة وقالوا: إن «الإيمان» اسم لذلك كله، وهو يزيد بتكميل هذه الأمور وينقص بنقصها، والناس في الإيمان درجات، وعرفوا مع ذلك أن الله قدير مريد لكل شيء، ومع ذلك فأعمال العباد خيرها وشرها مع دخولها في قضاء الله وقدره هم الذين فعلوها بقدرتهم واختيارهم لم يجبروا عليها، وقد قامت الحجة على العباد فليس لأحد على الله حجة، وحاشاه لله أن يجبر العباد على ما لا يريدون والله أعلم.

فصل

في جواب الرب تبارك وتعالى يوم القيامة إذا سأل المُعطل والمشبه عن قول كل منهما

وَسَلِ الْمُعَطِّلَ مَا تَقُولُ إِذَا أَتَى ... فِتْنَانِ عِنْدَ اللهِ يَخْتَصِمَانِ
إِحْدَاهُمَا حَكَمَتْ عَلَى مَعْبُودِهَا ... بِعُقُولِهَا وَبِفِكْرَةِ الأَذْهَانِ
سَمَّتْهُ مَعْقُولاً وَقَالَتْ إِنَّهُ ... أَوْلَى مِنَ الْمَنْصُوصِ بِالْبُرْهَانِ
وَالنَّصُّ قَطْعًا لاَ يَفِيدُ فَنَحْنُ أَوْ ... وَلْنَا وَفَوَّضْنَا لَنَا قَوْلاَنِ
قَالَتْ وَقُلْنَا فِيكَ لَسْتَ بِدَاخِلٍ ... فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجِ الأَكْوَانِ
وَالْعَرْشَ أَخْلَيْنَاهُ مِنْكَ فَلَسْتَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ لَسْتَ بِقَابِلٍ لِمَكَانِ
وَكَذَاكَ لَسْتَ بِقَائِلِ الْقُرْآنِ بَلْ ... قَدْ قَالَهُ بَشَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ
وَنَسَبْتَهُ حَقًّا إِلَيْكَ بِنِسْبَةِ التَّـ ... ـشْرِيفِ تَعْظِيمًا لِذِي الْقُرْآنِ
وَكَذَاكَ قُلْنَا لَسْتَ تَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... إِنَّ النُّزُولَ صِفَاتُ ذِي الْجُثْمَانِ
وَكَذَاكَ قُلْنَا لَسْتَ ذَا وَجْهٍ وَلاَ ... سَمْعٍ وَلاَ بَصَرٍ فَكَيْفَ يَدَانِ
وَكَذَاكَ قُلْنَا لاَ تُرَى فِي هَذِهِ الدُّ ... نْيَا وَلاَ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي
وَكَذَاكَ قُلْنَا مَا لِفِعْلِكَ حِكْمَةٌ ... مِنْ أَجْلِهَا خَصَّصْتَهُ بِزَمَانِ
مَا ثَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ ... مَثَلاً عَلَى مَثَلٍ بِلاَ رُجْحَانِ
لَكِنْ مِنَّا مَنْ يَقُولُ بِحِكْمَةٍ ... لَيْسَتْ بِوَصْفٍ قَامَ بِالرَّحْمَنِ
هَذَا وَقُلْنَا مَا اقْتَضَتْهُ عُقُولُنَا ... وَعُقُولُ أَشْيَاخٍ ذَوِي عِرْفَانِ

قَالُوا لَنَا لَا تَأْخُذُوا بِظَوَاهِرِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ لَتَسْلَخُوا مِنَ الْإِيمَانِ
بَلْ فَكِّرُوا بِعُقُولِكُمْ إِنْ شِئْتُمُ ... أَوْ فَاقْبَلُوا آرَاءَ عَقْلِ فُلَانِ
فَلِأَجْلِ هَذَا لَمْ نُحَكِّمْ لَفْظَ آ ... ثَارٍ وَلَا خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ
إِذْ كُلُّ تِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... مَعْزُولَةٌ عَنْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

شرح

قصد المُؤلف تنويع الأدلة وتصريفها بوجوه متعددة وطرق كثيرة على بطلان مذهب المُعطلين؛ لأن الحَق والباطل متَى حرفا بأساليب متنوعة ظهر واتضح وبانت حالهما.

وهذا الفصل فِي بيان نتيجة المُقالتين وثَمرة العقيدتين، فِي المُقام الذي لا تنفع فيه مُجرد الدعاوي، ولا تروج فيه البهرجة.

فالمعطل النافي إذا سأله ربه عما يقوله ويعتقده فيه صار جوابه الحَقيقي: يا رب إني قد نفيت عنك صفات الكمال، ونفيت مالك من الحكمة وبديع الأفعال، وما أخبر به عنك نبيك من الاستواء والنزول، وكل ما ورد به الكتاب والسنة من هذا الباب، فقد نفيته مقتديا فِي ذلك بآراء المُتهوكين الذين قدموا آراءهم الفاسدة وعقولهم المُنحرفة على كتابك وسنة نبيك.

أما المُثبت فإن حاصل جوابه أن يقول: يا رب قد قلت ما قلته فِي كتابك، وقاله عنك رسولك مُحَمَّدﷺ من الصفات الذاتية والمُعنوية والفعلية، لَمْ أعدُ ذلك شعرة، ولَمْ أسلط عليها الآراء بالتأويل والتحريف، وكيف أقدم عليها قولاً أو عقيدة أو رأيا وهي فِي غاية الوضوح والبيان، تملأ القلب معرفة وإيمانًا وأنوارًا، ويشهد لَهَا كل ذي عقل سليم ورأي صحيح مستقيم.

فبالله عليك أي الجَواب أصح وأولى وأنجي من عذاب الله وأقرب إِلَى رضي الله.

والله المُسئول بفضله أن يَحيينا على سنة رسوله، ويَميتنا عليها، ويبعثنا عليها إنه جواد كريم.

فصل

وَالآخَرُونَ أَتَوْا بِمَا قَدْ قَالَهُ ... مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ كِتْمَانِ
قَالُوا تَلَقَّيْنَا عَقِيدَتَنَا عَنِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ بِالأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
فَالْحُكْمُ مَا حَكَمَا بِهِ لاَ رَأْيُ أَهْـ ... ـلِ الاخْتِلاَفِ وَظَنُّ ذِي الْحُسْبَانِ
آرَاؤُهُمْ أَحْدَاثُ هَذَا الدِّينِ نَا ... قِضَةٌ لأَصْلِ طَهَارَةِ الإِيمَانِ
آرَاؤُهُمْ رِيحُ الْمَقَاعِدِ أَيْنَ تِلْـ ... ـكَ الرِّيحُ مِنْ رَوْحٍ وَمِنْ رَيْحَانِ
قَالُوا وَأَنْتَ رَقِيبُنَا وَشَهِيدُنَا ... مِنْ فَوْقِ عَرْشِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ
إِنَّا أَبَيْنَا أَنْ نَدِينَ بِبِدْعَةٍ ... وَضَلاَلَةٍ أَوْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ
لَكِنْ بِمَا قَدْ قُلْتَهُ أَوْ قَالَهُ ... مَنْ قَدْ أَتَانَا عَنْكَ بِالْقُرْآنِ
وَكَذَاكَ فَارَقْنَاهُمْ حِينَ[1] احْتِيَا ... جِ النَّاسِ لِلأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ
كَيْلاَ نَصِيرَ مَصِيرَهُمْ فِي يَوْمِنَا ... هَذَا وَنَطْمَعُ مِنْكَ بِالْغُفْرَانِ
فَمَنِ الَّذِي مِنَّا أَحَقُّ بِأَمْنِهِ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ
لاَبُدَّ أَنْ نَلْقَاهُ نَحْنُ وَأَنْتُمُ ... فِي مَوْقِفِ الْعَرْضِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
وَهُنَاكَ يَسْأَلُنَا جَمِيعًا رَبُّنَا ... وَلَدَيْهِ قَطْعًا نَحْنُ مُخْتَصِمَانِ
فَنَقُولُ قُلْتَ كَذَا وَقَالَ نَبِيُّنَا ... أَيْضًا كَذَا فَإِمَامُنَا الْوَحْيَانِ
فَافْعَلْ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلٌ بَعْدَ ذَا ... نَحْنُ الْعَبِيدُ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ
أَفَتَقْدِرُونَ عَلَى جَوَابٍ مِثْلَ ذَا ... أَمْ تَعْدِلُونَ عَلَى جَوَابٍ ثَانِ
مَا فِيهِ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... بَلْ فِيهِ قُلْنَا مِثْلَ قَوْلِ فُلاَنِ
وَهُوَ الَّذِي أَدَّتْ إِلَيْهِ عُقُولُنَا ... لَمَّا وَزَنَّا الْوَحْيَ بِالْمِيزَانِ
إِنْ كَانَ ذَلِكُمُ الْجَوَابُ مُخَلِّصًا ... فَامْضُوا عَلَيْهِ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ
تَاللهِ مَا بَعْدَ الْبَيَانِ لِمُنْصِفٍ ... إِلاَّ الْعِنَادُ وَمَرْكَبُ الْخِذْلاَنِ

---

(١) في (خ) [عند].

فصل

في تحميل أهل الإثبات للمعطلين شهادة تؤدي عند رب العالمين

يا أيها الباغي على أتباعه ... بالظلم والبهتان والعدوان
قد حملوك شهادة فاشهد بها ... إن كنت مقبولاً لدى الرحمن
واشهد عليهم إن سئلت بأنهم ... قالوا إله العرش والأكوان
فوق السموات العلا حقاً على الـ ... ـعرش استوى سبحان ذي السلطان
والأمر ينزل منه ثم يسير في الـ ... أقطار سبحان العظيم الشان
وإليه يصعد ما يشاء بأمره ... من طيبات القول والشكران
وإليه قد صعد الرسول وقبله ... عيسى ابن مريم كاسر الصلبان
وكذلك الأملاك تصعد دائماً ... من ها هنا حقاً إلى[1] الديان
وكذاك روح العبد بعد مماتها ... ترقى إليه وهو ذو إيمان
واشهد عليهم أنه سبحانه ... متكلم بالوحي والقرآن
سمع الأمين كلامه منه وأد ... داه إلى المبعوث بالفرقان
هو قول رب العالمين حقيقة ... لفظاً ومعنى ليس يفترقان
واشهد عليهم أنه سبحانه ... قد كلم المولود من عمران
سمع ابن عمران الرسول كلامه ... منه إليه مسمع الآذان
واشهد عليهم أنهم قالوا بأن ... ن الله ناداه [وناجاه] بلا كتمان
واشهد عليهم أنهم قالوا بأن ... ن الله نادى قبله الأبوان
واشهد عليهم أنهم قالوا بأن ... ن الله يسمع صوته الثقلان
والله قال بنفسه لرسوله ... إني أنا الله العظيم الشان
والله قال بنفسه لرسوله ... اذهب إلى فرعون ذي الطغيان
والله قال بنفسه حم مع ... طه ومع يس قول بيان

---

(١) كذا في (خ، س) أما في (ط، ق) [عل].

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَصَفُوا الإِلَـ ـهَ بِكُلِّ مَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَبِكُلِّ مَا قَالَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ عُدْوَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ قَوْلَ نَبِيِّهِمْ وَكَلاَمَ رَبِّ الْعَرْشِ ذَا التِّبْيَانِ
نَصٌّ يُفِيدُ لَدَيْهِمْ عِلْمَ الْيَقِيـ ـنِ إِفَادَةَ الْمَعْلُومِ بِالْبُرْهَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ قَابَلُوا التَّـ ـعْطِيلَ وَالتَّمْثِيلَ بِالنُّكْرَانِ
إِنَّ الْمُعَطِّلَ وَالْمُمَثِّلَ مَا هُمَا مُتَيَقِّنِينَ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ
ذَا عَابِدُ الْمَعْدُومِ لاَ سُبْحَانَهُ أَبَدًا وَهَذَا عَابِدُ الأَوْثَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الـ أَسْمَاءَ وَالأَوْصَافَ لِلدَّيَّانِ
وَكَذَلِكَ الأَحْكَامُ أَحْكَامُ الصِّفَا تِ وَهَذِهِ الأَرْكَانُ لِلإِيمَانِ
قَالُوا عَلِيمٌ وَهْوَ ذُو عِلْمٍ وَيَعْـ ـلَمُ غَايَةَ الإِسْرَارِ وَالإِعْلاَنِ
وَكَذَا بَصِيرٌ وَهْوَ ذُو بَصَرٍ وَيُبْـ ـصِرُ كُلَّ مَرْئِيٍّ وَذِي الأَكْوَانِ
وَكَذَا سَمِيعٌ وَهْوَ ذُو سَمْعٍ وَيَسْـ ـمَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ مِنَ الأَكْوَانِ
مُتَكَلِّمٌ وَلَهُ كَلاَمٌ وَصْفُهُ وَيُكَلِّمُ الْمَخْصُوصَ بِالرِّضْوَانِ
وَهْوَ الْقَوِيُّ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ وَمَلِيكٌ يَقْدِرُ يَا أَخَا السُّلْطَانِ
وَهْوَ الْمُرِيدُ لَهُ الإِرَادَةُ هَكَذَا أَبَدًا يُرِيدُ صَنَائِعَ الإِحْسَانِ
وَالْوَصْفُ مَعْنًى قَائِمٌ بِالذَّاتِ وَالْـ أَسْمَاءُ أَعْلاَمٌ لَهُ بِوِزَانِ
أَسْمَاؤُهُ دَلَّتْ عَلَى أَوْصَافِهِ مُشْتَقَّةٌ مِنْهَا اشْتِقَاقَ مَعَانِ
وَصِفَاتُهُ دَلَّتْ عَلَى أَسْمَائِهِ وَالْفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الأَمْرَانِ
وَالْحُكْمُ نِسْبَتُهَا إِلَى مُتَعَلِّقَا تٍ تَقْتَضِي آثَارَهَا بِبَيَانِ
وَلَرُبَّمَا يُعْنَى بِهِ الإِخْبَارُ عَنْ آثَارِهَا يُعْنَى بِهِ أَمْرَانِ
وَالْفِعْلُ إِعْطَاءُ الإِرَادَةِ حُكْمَهَا مَعْ قُدْرَةِ الْفَعَّالِ وَالإِمْكَانِ
فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ سُبْحَانَهُ فَجَمِيعُ هَذَا بَيْنَ الْبُطْلاَنِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِهَـ ـذَا كُلِّهِ جَهْرًا بِلاَ كِتْمَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنْ تَأْوِيلِ كُلِّ مُحَرِّفٍ شَيْطَانِ

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَتَأَوَّلُو ... نَ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ فِي الْقُرْآنِ
هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَهْلُ تَأْوِيلِ الَّذِي ... يُعْنَى بِهِ لَا قَائِلُ الْهَذَيَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ تَأْوِيلَاتِهِمْ ... صَرْفٌ عَنِ الْمَرْجُوحِ لِلرُّجْحَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَمَلُوا النُّصُو ... صَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا الْمَجَازِ الثَّانِي
إِلَّا إِذَا مَا اضْطَرَّهُمْ لِمَجَازِهَا الْـ ... ـمُضْطَرُّ مِنْ حِسٍّ وَمِنْ بُرْهَانِ
فَهُنَاكَ عِصْمَتُهَا إِبَاحَتُهُ بِغَيْـ ... ـرِ تَجَانُفٍ لِلْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُو ... نَكُمْ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ
إِذْ أَنْتُمُ أَهْلُ الْجَهَالَةِ عِنْدَهُمْ ... لَسْتُمْ أُولِي كُفْرٍ وَلَا إِيمَانِ
لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْكُفْرَانِ بَلْ ... لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ
إِلَّا إِذَا عَانَدْتُمُ وَرَدَدْتُمُ ... قَوْلَ الرَّسُولِ لِأَجْلِ قَوْلِ فُلَانِ
فَهُنَاكَ أَنْتُمْ أَكْفَرُ الثَّقَلَيْنِ مِنْ ... إِنْسٍ وَجِنٍّ سَاكِنِي النِّيرَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ ... أَقْدَارَ وَارِدَةً مِنَ الرَّحْمَنِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ حُجَّةَ رَبِّهِمْ ... قَامَتْ عَلَيْهِمْ وَهْوَ ذُو غُفْرَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ هُمْ فَاعِلُو ... نَ حَقِيقَةَ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ
وَالْجَبْرُ عِنْدَهُمْ مُحَالٌ هَكَذَا ... نَفْيِ الْقَضَاءِ فَبِئْسَتِ الرَّأْيَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الْوَرَى ... قَوْلٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ عَقْدُ جَنَانِ
وَيَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ قَطْعًا هَكَذَا ... بِالضِّدِّ يَمْشِي وَهْوَ ذُو نُقْصَانِ
وَاللهِ مَا إِيمَانُ عَاصِينَا كَإِيـ ... ـمَانِ الْأَمِينِ مُنَزِّلِ الْقُرْآنِ
كَلَّا وَلَا إِيمَانُ مُؤْمِنِنَا كَإِيـ ... ـمَانِ الرَّسُولِ مُعَلِّمِ الْإِيمَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْلُدُوا ... أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي حَمِيمٍ آنِ
بَلْ يَخْرُجُونَ بِإِذْنِهِ بِشَفَاعَةٍ ... وَبِدُونِهَا لِمَسَاكِنٍ بِجَنَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ رَبَّهُمْ يَرَى ... يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يَرَى الْقَمَرَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُو ... لِ خِيَارُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ
حَاشَا النَّبِيِّينَ الْكِرَامَ فَإِنَّهُمْ ... خَيْرُ الْبَرِيَّةِ خِيرَةُ الرَّحْمَنِ

وَخِيَارُهُمْ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... وَخِيَارُهُمْ حَقًّا هُمَا الْعُمَرَانِ
وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ أَحَقُّ بِالتَّـ ... ـقْدِيمِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ بِبَيَانِ
كُلٌّ بِحَسْبِ السَّبْقِ أَفْضَلُ رُتْبَةً ... مِنْ لاَحِقٍ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

شرح

أهل الإثبات لصفات المولى من أهل السنة والجماعة يعلنون جهارًا بعقيدتهم، ويحمدون للمعطلين لها من الجهمية ونحوهم جازمين بها مطمئنة بها قلوبهم قائمين بها ممتثلين قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

فمن أصولهم العظيمة أنهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم: إن الله هو العلي الأعلى، وإنه فوق سماواته على عرشه بائن عن خلقه، تنزل من عنده الأحكام والأوامر القدرية والشرعية، وترفع إليه تصعد إليه الأملاك، والأرواح والأعمال وقد صعد إليه رسوله محمد ﷺ ليلة المعراج وعيسى بن مريم.

ويعتقدون أنه متكلم ولم يزل ولا يزال يتكلم بما شاء إذا شاء، وأن القرآن كلامه حقًا تكلم به وسمعه جبريل وأداه إلى محمد ﷺ وبلغه محمد أمته.

ويثبتون جميع ما ورد به الكتاب والسنة من أنواع كلامه لمن شاء من خلقه، والقرآن جميعه ألفاظه ومعانيه كلام الله منزل غير مخلوق.

ومن كليات أصولهم أن كل ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال ونعوت العظمة والكبرياء والجلال أو وصفه به رسوله فهو حق ثابت على حقيقته، لا ينفون شيئًا من ذلك، ولا يحرفون، ولا يمثلون وعندهم أعلى مراتب العلم واليقين مدلول كلام الله وكلام رسوله، وأنه مشتمل على البراهين القاطعة والمسائل النافعة، ويبرءون إلى الله من تقديم غيرها عليها، وهي أعظم في صدورهم وأجل في نفوسهم من أن يتقدم عليها معقول أو رأي أو قياس أو قول أحد من الناس كائنًا من كان.

---

(١) سور [آل عمران: ٦٤].

ومن أصولهم العظيمة أنه لا يتم الإيمان بالله حَتَّى يؤمن العبد بجميع أسماء الله الحُسنى، وجَميع ما دلت عليه من الصفات، وما صدر عنها من الأفعال والمُتعلقات والأحكام.

وهذه الأصول الثلاثة هي أركان الإيمان بالأسماء والصفات.

فيقولون: إنه عليم، وذو علم عظيم، ويعلم كل شيء.

قدير، ذو قدرة، ويقدر على كل شيء وهكذا بقية الأسْمَاء الحُسنى على هذه الطريقة.

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة: الأسْمَاء تدل على الصفات وهي مشتقة منها، وصفاته تدل على أسمائه، فما سُمي بالعليم القدير الحي السميع البصير ونَحوها إلا لما اتصف به من كمال العلم والقدرة والحَياة والسمع والبصر، والفعل تصدر عنها غير معقول، فآثار الرحمة والنعم تدل على أنه موصوف بالرحمة العظيمة، وآثار الحكمة وانتظام الخَلق والأمر تدل على كمال حكمته، وهكذا.

وقد تطلق الصفة ويراد بها آثارها كما قال تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]. وفي الحَديث الصحيح: «لما احتجت الجَنة: والنار قال الله للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي»[2]. فأطلق على الجَنة الرحمة؛ لأنها ناشئة عنها ومملوءة بها.

ومن الممتنع المستحيل إثبات فعل من دون أن يعود إلَى فاعله وصف منه.

والفعل له شروط ثلاثة: نفوذ الإرادة، وتمام القدرة، وإمكان الفعل.

والرب تعالَى تام القدرة نافذ الإرادة، وليس عليه شيء ممتنع.

ومن أصولهم الكلية أنهم يبرءون إلَى الله من كل تأويل يخالف مراد الله ومراد رسوله من تحريفات المُبتدعة واختراعات المتكلفين، وإنَّما تأويلهم يعود إلَى الجَد في معرفة مراد الله ومراد رسوله، وإذا ورد في الكتاب والسنة لفظ مشتبه ردوا المتشابه إلَى المُحكم ليصير الجَميع محكمًا، وهذا عند الضرورة، وإلا فلا يعدلون عن ظاهر الكتاب والسنة ما وجدوا إليه سبيلاً.

ومن مَمادح أهل السنة أنَّهم يَجتهدون في معرفة الحَق بكل طريق يوصل إليه، ويرحمون

---

(١) [آل عمران: ١٠٧].

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠)، مسلم (٢٨٤٦).

الخَلق فهم أرحم خلق الله للخلق يقصدون هدايتهم مهما أمكنهم.

ومن خالف الكتاب والسنة من كل مبتدع فهم يبدعونه وينكرون عليه بدعته ويزجرون عنها بكل وسيلة، ولكنهم لا يكفرون المُبتدعين المُتأولين الذين ضلوا عن الحَق وظنوا أن ما قالوه واعتقدوه هو مراد الله ومراد رسوله جهلاً وضلالاً.

فالبدعة وإن كانت منافية للإيمان قد يَمنع من تكفير قائلها جهله وضلالة وتأويله إذا كان مؤمنًا بالرسول معظمًا له ملتزمًا لطاعته وتصديق خبره، وأما من عرف منهم مُخالفة بدعته لما قاله الرسول وعاند وشاق الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى فإنه كافر؛ لأن الكفر جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه.

ويؤمنون بالقدر خيره وشره، فيعلمون أن الله على كل شيء قدير، وقد أحاط علمه بكل شيء وكتب في اللوح المَحفوظ كل شيء وأن مشيته الله نافذة وإرادته عامة لكل ما وجد من الأعيان والأوصاف والأفعال، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمَعاصي، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم مُختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

ومن أصولهم أن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجَوارح وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمَعصية، وأن الناس يتفاضلون في عقائد الإيمان وفي أعماله القلبية والبدنية وأقوال اللسان قوة وضعفًا وحسنًا وضده وقلة وكثرة، ويبرءون من مذهب المُرجئة الذين يرون الإيمان مجرد إقرار القلب وأن الناس في الإيمان متساوون، ومن مذهب الخَوارج المُخلدين أهل الكبائر في النار، ومن مذهب المُعتزلة المُوافقين لهم في الحُكم، بل عند أهل السنة أن أهل الكبائر لا يسلب عنهم اسم الإيمان ولا يَخلدون في النار بل لابد من خروجهم منها بشفاعة أو برحمة من أرحم الراحمين، ومع ذلك فهم ناقصو الإيمان.

ويعتقدون ما ثبت في الكتاب والسنة المُتواترة من أن المُؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى كما يرى القمر ليلة البدر، يرونه في عرصات القيامة ثُمَّ يرونه في الجَنة كما يشاء الله سبحانه في أوقات قدرها الرب الرحيم لأوليائه المُطيعين لتقر أعينهم وتبتهج قلوبهم ويزدادوا من معرفته ومَحبته وتوابع ذلك الذي هو أكبر النعيم وأجل الفوز العظيم.

ويعتقدون أن خير الخَلق بعد النبيين والمُرسلين أصحاب نبيهم، لما ثبتت به وبفضائلهم نصوص الكتاب والسنة، ولما منَّ الله به عليهم من السوابق والفضائل والخَصائص الَّتي لا يشاركهم فيها أحد من الأمة، وأفضلهم أبو بكر الصديق وعمر ثُمَّ عثمان ثُمَّ علي ثُمَّ باقي العشرة المَشهود لَهم بالجَنة ثُمَّ السابقون الأولون من المُهاجرين والأنصار مِمَّن أسلم قبل صلح الحُديبية وهم مراتبهم من السبق بِحسب مقاماتهم رضي الله عنهم.

فصل

في عهود المثبتين مع رب العالمين

يا ناصرَ الإسلامِ والسُّنَنِ الَّتي ... جاءَتْ عَنِ المَبْعُوثِ بِالفُرْقانِ

يا مَنْ هُوَ الحَقُّ المُبينُ وَقَوْلُهُ ... وَلِقاؤُهُ وَرَسُولُهُ بِبَيانِ

اشْرَحْ لِدينِكَ صَدْرَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... شَرْحًا يَنالُ بِهِ ذُرَى الإيمانِ

وَاجْعَلْهُ مُؤْتَمًّا بِوَحْيِكَ لا بِما ... قَدْ قالَهُ ذُو الإفْكِ وَالبُهْتانِ

وَانْصُرْ بِهِ حِزْبَ الهُدَى وَاكْبِتْ بِهِ ... حِزْبَ الضَّلالِ وَشِيعَةَ الشَّيْطانِ

وَانْعِشْ بِهِ مَنْ قَصْدُهُ إحْياؤُهُ ... وَاعْصِمْهُ مِنْ كَيْدِ امْرِئٍ فَتّانِ

وَاضْرِبْ بِحَقِّكَ عُنْقَ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالتَّـ ... ـبْديلِ وَالتَّكْذيبِ وَالطُّغْيانِ

فَوَحَقِّ نِعْمَتِكَ الَّتي أَوْلَيْتَني ... وَجَعَلْتَ قَلْبي واعِيَ القُرْآنِ

وَكَتَبْتَ في قَلْبي مُتابَعَةَ الهُدَى ... فَقَرَأْتُ فيهِ أَسْطُرَ الإيمانِ

وَنَشَلْتَني مِنْ حُبِّ أَصْحابِ الهَوَى ... بِحَبائِلٍ مِنْ مُحْكَمِ الفُرْقانِ

وَجَعَلْتَ شِرْبي المَنْهَلَ العَذْبَ الَّذي ... هُوَ رَأْسُ ماءِ الوارِدِ الظَّمْآنِ

وَعَصَمْتَني مِنْ شِرْبِ سِفْلِ الماءِ تَحْـ ... ـتَ نَجاسَةِ الآراءِ وَالأَذْهانِ

وَحَفِظْتَني مِمّا ابْتَلَيْتَ بِهِ الأُلَى ... حَكَمُوا عَلَيْكَ بِشِرْعَةِ البُهْتانِ

نَبَذُوا كِتابَكَ مِنْ وَراءِ ظُهُورِهِمْ ... وَتَمَسَّكُوا بِزَخارِفِ الهَذَيانِ

وَأَرَيْتَني البِدَعَ المُضِلَّةَ كَيْفَ يَلْـ ... ـقيها مُزَخْرَفَةً إلَى الإنْسانِ

شَيْطانُهُ فَيَظَلُّ يَنْقُشُها لَهُ ... نَقْشَ المُشَبِّهِ صُورَةً بِدِهانِ

فَيَظُنُّها المَغْرُورُ حَقًّا وَهْيَ في التَّـ ... ـحْقيقِ مِثْلُ اللّالِ في القِيعانِ

لأجاهدنّ عدا كما أتقيني ... ولأجعلنّ قتالهم ديداني
ولأفصحنّهم على رؤس الملا ... ولأفرينّ أديمهم بلساني
ولأكشفنّ سرائرا خفيت على ... ضعفاء خلقك منهم ببيان
ولأتبعنّهم إلى حيث انتهوا ... حتى يقال أتعد عاداني
ولأرجمنّهم بأعلام الهدى ... رجم المريد بثاقب الشهبان
ولأقعدنّ لهم مراصد كيدهم ... ولأحضرنّهم بكل مكان
ولأجعلنّ لحومهم ودماءهم ... في يوم نصرك أعظم القربان
ولأحملنّ عليهم بعساكر ... ليست تفر إذا التقى الزحفان
بعساكر الوحيين والفطرات بالـ ... ـمعقول والمنقول بالإحسان
حتى يبين لمن له عقل من الـ ... أولى بحكم العقل والبرهان
ولأفصحنّ الله ثم رسوله ... وكتابه وشرائع الإيمان
إن شاء ربي ذا يكون بحوله ... إن لم يشا فالأمر للرحمن

شرح

توسل المُصنف إلى الله بالحق الذي وصفه ووصف دينه ووعده ووعيده أن ينصره دينه ويشرح له صدر كل مؤمن موحد لينال أعلى المقامات، فإن الله إذا أراد هداية عبده شرح صدره للإسلام والإيمان، فتلقى ما جاء به الرسول بقوة، وأقبل على تفهم معانيه والعمل بما يدل عليه ويقتضيه هاديًا مهديًا، وعاهد ربه بما ألتزمه من السمع والطاعة على نصر دينه ووحيه، وعلى مجاهدة المبطلين وأصناف المُبتعدين بالطرق النقلية والعقلية.

فصل
في شهادة أهل الإثبات على أهل التعطيل أنه ليس
في السماء إله يعبد ولا لله بيننا كلام ولا
في القبر رسول الله

إنا لحملنا الشهادة بالذي ... قلتم تؤديها لدى الرحمن

مَا عِنْدَكُمْ فِي الأَرْضِ قُرْآنٌ كَلاَ ... مِ اللهِ حَقًّا يَا أُولِي الْعُدْوَانِ

كَلاَّ وَلاَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلاَ ... رَبِّ بَطَّاغٍ بِوَاجِبِ الشُّكْرَانِ

كَلاَّ وَلاَ فِي الْقَبْرِ أَيْضًا عِنْدَكُمْ ... مِنْ مُرْسَلٍ وَاللهِ عِنْدَ لِسَانِ

هَاتِيكَ عَوْرَاتٌ ثَلاَثٌ قَدْ بَدَتْ ... مِنْكُمْ فَغَطُّوهَا بِلاَ وَرَعَانِ

فَالرُّوحُ عِنْدَكُمُ مِنَ الأَعْرَاضِ قَا ... ئِمَةٌ بِجِسْمِ الْحَيِّ كَالأَلْوَانِ

وَكَذَا صِفَاتُ الْحَيِّ قَائِمَةٌ بِهِ ... مَشْرُوطَةٌ بِحَيَاةِ ذِي الْجُثْمَانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَيَنْتَفِي ... مَشْرُوطُهَا بِالْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ

وَرِسَالَةُ الْمَبْعُوثِ مَشْرُوطٌ بِهَا ... كَصِفَاتِهِ بِالْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَكُلُّ مَشْـ ... ـرُوطٍ بِهَا عَدَمٌ لِذِي الأَذْهَانِ

شرح

أما الأولتان فقد تقدم الكلام عليهما مرارًا، وأما شهادة أهل الإثبات على الجَهمية ومن تبعهم أنه لي في القبر رسول فلأن من قول المُعطلين أن روح الإنسان عرض من الأعراض القائمة به كالألوان ونحوها، وتلك مشروطة بوجوده وحياته فإذا مات زالت هذه الأعراض.

فلهذا أنكر بعضهم نعيم البرزخ وعذابه وبعضهم جعله للجسم دون الروح لكونها معدومة مضمحلة.

ولا يَخفى بطلان هذين القولين ومُخالفتهما للنصوص الثابتة المُتواترة في أن الروح جسم لطيف له من اللطافة والخفة والحركة السريعة ما يناسب حاله كما سيأتي -إن شاء الله- الكلام الله عليها، وأن نعيم البرزخ وعذابه على الروح أصلا وعلى الروح مع البدن.

فصل
في الكلام في حياة الأنبياء في قبورهم

وَلأَجْلِ هَذَا رَامَ نَاصِرُ قَوْلِكُمْ ... تَرْقِيعَهُ بِالْكَذْرَةِ الْخُلْقَانِ

قَالَ الرَّسُولُ بِقَبْرِهِ حَيٌّ كَمَا ... قَدْ كَانَ فَوْقَ الأَرْضِ وَالرَّحْمَانِ

مِنْ فَوْقِهِ أَطْبَاقُ ذَاكَ التُّرْبِ وَالـ ... ـلَبِنَاتُ قَدْ غُرِضَتْ عَلَى الْجُدْرَانِ

لَوْ كَانَ حَيًّا فِي الضَّرِيحِ حَيَاتُهُ ... قَبْلَ الْمَمَاتِ بِعَيْنِ مَا فَوْقَانِ

مَا كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ بَلْ مِنْ فَوْقِهَا ... وَاللهِ هَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

أَتُرَاهُ تَحْتَ الأَرْضِ حَيًّا ثُمَّ لاَ ... يُفْضِيهِمُ بِنَوَازِعِ الإِيمَانِ

وَيُرِيحُ أُمَّتَهُ مِنَ الآرَاءِ وَالـ ... ـمَخْلُوقِ الْعَظِيمِ وَسَائِرِ الْهَتَّانِ

أَمْ كَانَ حَيًّا عَاجِزًا عَنْ نُطْقِهِ ... وَعَنِ الْجَوَابِ لِسَائِلٍ لَقَّانِ

وَعَنِ الْجِرَاكِ فَمَا الْحَيَاةُ الَّتِي قَدْ ... أَثْبَتُوهَا أَوْضَحُوا بُرْهَانِ

هَذَا وَلَمْ لاَ جَاءَهُ أَصْحَابُهُ ... يَشْكُونَ بَأْسَ الْفَاجِرِ الْفَتَّانِ

إِنْ كَانَ ذَلِكَ ذَأْبَهُمْ وَلَبِيبُهُمْ ... حَيٌّ يُشَاهِدُهُمْ شُهُودَ عِيَانِ

هَلْ جَاءَكُمْ أَثَرٌ بِأَنَّ صَحَابَهُ ... سَأَلُوهُ قُبَيْلَ وَهُوَ فِي الأَكْفَانِ

فَأَجَابَهُمْ بِجَوَابِ حَيٍّ نَاطِقٍ ... فَأَتَوْا إِذًا بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

هَيْهَاتَ أَجَابَهُمْ جَوَابًا شَافِيًا ... إِنْ كَانَ حَيًّا نَاطِقًا بِلِسَانِ

هَذَا وَمَا شَدَّتْ رَكَائِبُهُ عَنِ الـ ... ـحُجُرَاتِ لِلْقَاضِي مِنَ الْبُلْدَانِ

مَعَ شِدَّةِ الْحِرْصِ الْعَظِيمِ لَهُ عَلَى ... إِرْشَادِهِمْ بِطَرِيقِ التِّبْيَانِ

أَتُرَاهُ يَشْهَدُ رَأْيَهُمْ وَخِلاَفَهُمْ ... وَيَكُونُ لِلشَّيْطَانِ ذَا كِتْمَانِ

إِنْ قُلْتُمُ سَبَقَ الْبَيَانُ هُنَاكَمُ ... قَدْ كَانَ بِالتَّكْرَارِ ذَا إِحْسَانِ

هَذَا وَكَمْ مِنْ أَمْرِ اشْكَلَ بَعْدَهُ ... أَعْيَى عَلَى عُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانِ

أَوْ مَا تَرَى الْفَارُوقَ وَدَّ بِأَنَّهُ ... قَدْ كَانَ مِنْهُ الْعَهْدُ ذَا تِبْيَانِ

بِالْجَدِّ فِي مِيرَاثِهِ وَكَلاَلَةٍ ... وَبِبَعْضِ أَبْوَابِ الرِّبَا الْفَتَّانِ

قَدْ قَصَّرَ الْفَارُوقُ عِنْدَ فَرِيقِكُمْ ... إِذْ لَمْ يُبَنْ وَهُوَ فِي الأَكْفَانِ

أَتُرَاهُمْ يَأْتُونَ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... لِسُؤَالِ أَنْهَمْ أَعَزَّ خَصَّانِ

وَلَبِيبُهُمْ حَيٌّ يُشَاهِدُهُمْ وَيَسْـ ... ـمَعُهُمْ وَلاَ يَأْتِي لَهُمْ بِبَيَانِ

أَفَكَانَ يَعْجِزُ أَنْ يَجِيبَ بِقَوْلِهِ ... إِنْ كَانَ حَيًّا دَاخِلَ الْبُنْيَانِ

يا قَوْمَنَا اسْتَحْيُوا مِنَ الْعُقَلاءِ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ بِالْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ
وَاللهِ لاَ قَدْرُ الرَّسُولِ عَرَفْتُمُ كَلاَّ وَلاَ لِلنَّفْسِ وَالإِنْسَانِ
مَنْ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ فَلْيَسْتَتِرْ بِالصَّمْتِ وَالْكِتْمَانِ
وَلَقَدْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ رَسُولَهُ مَيِّتٌ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
أَفَجَاءَ أَنَّ اللهَ بَاعِثُهُ لَنَا فِي الْقَبْرِ قَبْلَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
آلاَتُ مَوْتَاتٍ تَكُونُ لِرُسْلِهِ وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ مَوْتَانِ
إِذْ عِنْدَ نَفْخِ الصُّورِ لاَ يَبْقَى امْرُؤٌ فِي الأَرْضِ حَيًّا قَطُّ بِالْبُرْهَانِ
أَفَيَقُولُ يَمُوتُ الرُّسْلُ أَمْ يَتَقَوَّلُوا إِذَا مَاتَ الْوَرَى أَمْ هَلْ لَكُمْ قَوْلاَنِ
فَتَكَلَّمُوا بِالْعِلْمِ لاَ الدَّعْوَى وَجِيـ ... ـئُوا بِالدَّلِيلِ فَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ
أَوْ لَمْ يَقُلْ مِنْ قَبْلِكُمْ لِلرَّافِعِي الْـ أَصْوَاتِ حَوْلَ الْقَبْرِ بِالْكُرْبَانِ
لاَ تَرْفَعُوا الأَصْوَاتَ حُرْمَةُ عَبْدِهِ مَيْتًا كَحُرْمَتِهِ لَدَى الْحَيَوَانِ
قَدْ كَانَ يَحْكُمُهُمْ بِقَوْلِوا إِنَّهُ حَيٌّ فَلاَ تُعْطُوا الصَّوْتَ بِالإِحْسَانِ
لَكِنَّهُمْ بِاللهِ أَعْلَمُ مِنْكُمُ وَرَسُولِهِ وَحَقَائِقِ الإِيمَانِ
وَلَقَدْ أَتَوْا يَوْمًا إِلَى الْعَبَّاسِ يَسْـ ... ـتَسْقُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجَدْبِ زَمَانِ
هَذَا وَبَيْنَهُمُ وَبَيْنَ لَبِيبِهِمْ عَرْضُ الْجِدَارِ وَحُجْرَةُ السُّوَّانِ
فَلَبِيبُهُمْ حَيٌّ وَيَسْتَسْقُونَ غَيْـ ... ـرَ لَبِيبِهِمْ حَاشَا أُولِي الإِيمَانِ

فصل
فيما احتجوا به على حياة الرسل في القبور

فَإِنِ احْتَجَجْتُمْ بِالشَّهِيدِ بِأَنَّهُ حَيٌّ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَالرُّسْلُ أَكْمَلُ حَالَةً مِنْهُ بِلاَ شَكٍّ وَهَذَا ظَاهِرُ التِّبْيَانِ
فَلِذَاكَ كَانُوا بِالْحَيَاةِ أَحَقَّ مِنْ شُهَدَائِنَا بِالْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ
وَبِأَنَّ عَقْدَ نِكَاحِهِ لَمْ يَنْفَسِخْ فَلَبَاؤُهُ فِي عِصْمَةٍ وَصِيَانِ
وَلأَجْلِ هَذَا لَمْ يَحِلَّ لِغَيْرِهِ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ مَدَى الأَزْمَانِ

أَفَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ ... حَيٌّ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ

أَوْ لَمْ يَرَ الْمُخْتَارُ مُوسَى قَائِمًا ... فِي قَبْرِهِ لِصَلَاةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ

أَفَمَيِّتٌ يَأْتِي الصَّلَاةَ وَإِنَّ ذَا ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَوَاضِحُ الْبُطْلَانِ

أَوْ لَمْ يَقُلْ إِنِّي أَرُدُّ عَلَى الَّذِي ... يَأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الإِحْسَانِ

أَبْرُدُّ مَيِّتُ السَّلَامَ عَلَى الَّذِي ... يَأْتِي بِهِ هَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ

هَذَا وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُمْ ... أَحْيَاءٌ فِي الأَجْدَاثِ ذَا تِبْيَانِ

وَبِأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ عَلَيْهِ تُعْـ ... ـرَضُ ذَاتُهَا فِي جُمْعَةٍ يَوْمَانِ

يَوْمُ الْخَمِيسِ وَيَوْمُ الاثْنَيْنِ الَّذِي ... قَدْ خُصَّ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

فصل

في الْجواب عما احتجوا به في هذه الْمَسألة

فَيُقَالُ أَصْلُ دَلِيلِكُمْ فِي ذَاكَ حَيْـ ... ـثُ جِئْتُمَا عَلَيْكُمْ وَهْيَ ذَاتُ بَيَانِ

إِنَّ الشَّهِيدَ حَيَاتُهُ مَنْصُوصَةٌ ... لاَ بِالْقِيَاسِ الْقَائِمِ الأَرْكَانِ

هَذَا مَعَ النَّهْيِ الْمُؤَكَّدِ أَنْ تَرَا ... لِلدَّعْوَةِ مَيْتًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

وَبِسَاؤُهُ حِلٌّ لَنَا مِنْ بَعْدِهِ ... وَالْمَالُ مَقْسُومٌ عَلَى الْوَرِثَانِ

هَذَا وَأَنَّ الأَرْضَ تَأْكُلُ لَحْمَهُ ... وَسِبَاعُهَا مَعْ أُمَّةِ الدَّيْدَانِ

لَكِنَّهُ مَعْ ذَاكَ حَيٌّ قَارِئٌ ... مُتَمَتِّعٌ بِكَرَامَةِ الرَّحْمَنِ

فَالرُّسْلُ أَوْلَى بِالْحَيَاةِ لَدَيْهِ مَعْ ... مَوْتِ الْجُسُومِ وَهَذِهِ الأَبْدَانِ

وَهْيَ الطَّرِيَّةُ فِي التُّرَابِ وَأَكْلُهَا ... فِيهِ الْحَرَامُ عَلَيْهِ بِالْبُرْهَانِ

وَلِبَعْضِ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ يَكُونُ ذَا ... أَيْضًا وَقَدْ وَجَدُوهُ رَأْيَ عِيَانِ

فَانْظُرْ إِلَى قَلْبِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِمُ ... حَرْفًا بِحَرْفٍ ظَاهِرِ التِّبْيَانِ

لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ خُصَّ نِسَاؤُهُ ... بِخَصِيصَةٍ عَنْ سَائِرِ النِّسْوَانِ

حُرِّمْنَ بَيْنَ رُسُولِهِ وَسِوَاهُ فَاحْـ ... ـتَرَمَ الرَّسُولَ لِصِحَّةِ الإِيمَانِ

شُكْرًا الإِلَهُ لَهُ فَذَاكَ وَرُبَّمَا ... سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ ذُو شُكْرَانِ

قَصْرُ الرَّسُولِ عَلَى أُولَئِكَ رَحْمَةٌ ... مِنْهُ بِهِنَّ وَشُكْرُ ذِي الإِحْسَانِ

وَكَذَاكَ أَيْضًا قَصْرُهُنَّ عَلَيْهِ مَعْـ ... ـلُومٌ بِلَا شَكٍّ وَلَا كُتْمَانِ

زَوْجَاتُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْـ ... أُخْرَى بِنَصِّ وَاضِحِ الْبُرْهَانِ

فَلِذَا حَرُمْنَ عَلَى سِوَاهُ بَعْدَهُ ... إِذْ ذَاكَ صَوْنًا عَنْ فِرَاشِ زَنَانِ

لَكِنْ أَلِفْنَ بِعِدَّةٍ شَرْعِيَّةٍ ... فِيهَا الْحِدَادُ وَمُلْزَمُ الأَوْطَانِ

هَذَا وَرُؤْيَتُهُ الْكَلِيمَ مُصَلِّيًا ... فِي قَبْرِهِ أَثَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ

فِي الْقَلْبِ مِنْهُ حَبِيكَةٌ هَلْ قَالَهُ ... فَالْحَقُّ مَا قَدْ قَالَ ذُو الْبُرْهَانِ

وَلِذَاكَ أَعْرَضَ فِي الصَّحِيحِ مُحَمَّدٌ ... عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بِلَا نِسْيَانِ

وَالدَّارَقُطْنِي الإِمَامُ أَعَلَّهُ ... بِرِوَايَةٍ مَعْلُومَةِ التِّبْيَانِ

أَنَسٌ يَقُولُ رَأَى الْكَلِيمَ مُصَلِّيًا ... فِي قَبْرِهِ فَاعْجَبْ لِذَا الْقُرْآنِ

فَرِوَايَةٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِ وَلَيْسَ بِالْـ ... ـمَرْفُوعِ وَاشْوَقًا إِلَى الْعِرْفَانِ

بَيْنَ السِّيَاقِ إِلَى السِّيَاقِ تَفَاوُتٌ ... لَا لَطْرَحَتْهُ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

لَكِنْ تُقَلِّدُ مُسْلِمًا وَسِوَاهُ مِنْ ... مَنْ صَحَّ هَذَا عِنْدَهُ بِبَيَانِ

فَرِوَايَةُ الأَثْبَاتِ أَعْلَامِ الْهُدَى ... حُفَّاظُ هَذَا الدِّينِ فِي الأَزْمَانِ

لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ ... وَاللهُ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

فَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ الصُّدُوقُ وَغَيْرُهُ ... خَبَرًا صَحِيحًا عِنْدَهُ ذَا شَانِ

فِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي قَبْرِ الَّذِي ... قَدْ مَاتَ وَهُوَ مُحَقِّقُ الإِيمَانِ

فَتَمَثُّلُ الشَّمْسِ الَّذِي قَدْ كَانَ بِرْ ... غَافًا لأَجْلِ صَلَاةِ ذِي الْقُرْبَانِ

عِنْدَ الْغُرُوبِ يَخَافُ فَوْتَ صَلَاتِهِ ... فَيَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ هَلْ لِدُعَائِي

حَتَّى أُصَلِّيَ الْعَصْرَ قَبْلَ فَوَاتِهَا ... قَالَا سَتَفْعَلُ ذَاكَ بَعْدَ الآنِ

هَذَا مَعَ الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ لَا الَّذِي ... حُكِيَتْ لَنَا بِثُبُوتِهِ الْقُرْآنِ

هَذَا وَثَابِتُ الْبُنَانِي قَدْ دَعَا الرَّ ... حْمَنَ دَعْوَةَ صَادِقِ الإِيقَانِ

أَنْ لَا يَزَالَ مُصَلِّيًا فِي قَبْرِهِ ... إِنْ كَانَ أَعْطَى ذَاكَ مِنْ إِنْسَانِ

لَكِنْ رُؤْيَتُهُ لِمُوسَى لَيْلَةَ الْـ ... ـمِعْرَاجِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

يرويه أصحاب الصحاح جميعهم ... والقطع موجبه بلا نكران
ولذاك ظن معارضا لصلاته ... في قبره إذ ليس يجتمعان
وأجيب عنه بأنه أسري به ... ليراه ثم مشاهدا بعيان
فرآه ثم وفي الصريح وليس ذا ... بتناقض إذ أمكن الوقتان
هذا ورد نبينا التسليم من ... يأتي بتسليم مع الإحسان
ما ذاك مختصا به أيضا كما ... قد قاله المبعوث بالقرآن
من زار قبر أخ له فأتى بتسـ ... ـليم عليه وهو ذو إيمان
رد الإله عليه حقا روحه ... حتى يرد عليه رد بيان
وحديث ذكر حياتهم بقبورهم ... لما يصح وظاهر النكران
فانظر إلى الإسناد تعرف حاله ... إن كنت ذا علم بهذا الشان
هذا ونحن نقول هم أحياء لـ ... ـكن عندنا كحياة ذي الأبدان
والترب تحتهم وفوق رءوسهم ... وعن الشمائل ثم عن أيمان
مثل الذي قد قلتموه معاذنا ... بالله من إفك ومن بهتان
بل عند ربهم تعالى مثل ما ... قد قال في الشهداء في القرآن
لكن حياتهم أجل وحالهم ... أعلى وأكمل عند ذي الإحسان
هذا وأما عرض أعمال العبا ... د عليه فهو الحق ذو إمكان
وأتى به أثر فإن صح الحديـ ... ـث به فحق ليس ذا نكران
لكن هذا ليس مختصا به ... أيضا بآثار روين حسان
فعلى أبي الإنسان يعرض سعيه ... وعلى أقاربه مع الإخوان
إن كان سعيا صالحا فرحوا به ... واستبشروا يا لذة الفرحان
أو كان سعيا سيئا حزنوا وقا ... لوا رب راجعه إلى الإحسان
ولذا استعاذ من الصحابة من روى ... هذا الحديث عقيبه بلسان
يا رب إني عائذ من خزية ... أخزى بها عند القريب الداني
ذاك الشهيد المرتضى ابن رواحة الـ ... ـمحبو بالغفران والرضوان

لكن هذا ذو اختصاص والذي ... للمصطفى ما يعمل الثقلان
هذي نهايات لأقدام الورى ... في ذا المقام الضنك صعب الشان
والحق فيه ليس تحمله عقو ... ل بني الزمان لغلظة الأذهان
ولجهلهم بالروح مع أحكامها ... وصفاتها للإلف بالأبدان
فارض الذي رضي الإله لهم به ... أتريد تنقض حكمة الديان
هل في عقولهم بأن الروح في ... أعلى الرفيق مقيمة بجنان
وترد أوقات السلام عليه من ... أتباعه في سائر الأزمان
وكذاك إن زرت القبور مسلما ... ردت لهم أرواحهم للآن
فهم يردون السلام عليك لـ ... ـكن لست تسمعه بذي الأذنان
هذا وأجواف الطيور الخضر مسـ ... ـكنها لدى الجنات والرضوان
من ليس يحمل عقله هذا فلا ... تظلمه واعذره على النكران
للروح شأن غير ذي الأجسام لا ... تهمله شأن الروح أعجب شان
وهو الذي حار الورى فيه فلم ... يعرفه غير الفرد في الأزمان
هذا وأمر فوق ذا لو قلته ... بادرت بالإنكار والعدوان
فلذاك أمسكت العنان ولو أرى ... ذاك الرفيق جريت في الميدان
هذا وقولي إنها مخلوقة ... وحدوثها المعلوم بالبرهان
هذا وقولي إنها ليست كما ... قد قال أهل الإفك والبهتان
لا داخل فينا ولا هي خارج ... عنا كما قالوه في الديان
والله لا الرحمن أنتم ولا ... أرواحكم يا مدعي العرفان
عطلتم الأبدان من أرواحها ... والعرش عطلتم من الرحمن

الشرح

والقصد أن الجهمية إذا قالوا هذا الأصل الفاسد ترتب على قولهم ولزم منه بطلان رسالة الرسول بموته وأنه رسول ما دام حيًّا فإذا مات عدمت رسالته كما تعدم روحه عندهم،

فلما علموا أن هذا القول مُخالف للمعلوم بالضرورة من الدين قال من أراد نصر هذه القول: إن الرسول حي في قبره حياة مماثلة لحياته في الدنيا ولذلك بقي تحريم زوجاته على أمته، والشهداء ذكر الله أنهم أحياء والأنبياء بلا شك أكمل حياة منهم واحتجوا أيضًا بأنه ﷺ رأى موسى في قبره يصلي والصلاة لا تقع إلا من حي، وبأنه ﷺ قال: «ما من مسلم يسلم على إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه»[1]. وكذلك ما ورد في عرض أعمال أمته عليه يوم الأثنين ويوم الخميس[2].

هذا حاصل ما احتجوا به، وهو لا يدل على مطلوبهم بوجه من الوجوه؛ فإنه لو كان في قبره حيا حياة، مماثلة لهذه الحياة لَمْ يجز أن يحبس في قبره ويسجن ذلك السجن المُوحش، ولو كان حيا في قبره يرشد أمته ويفتيهم ويدلهم على ما فيه صلاحهم وينهاهم عما يضرهم، ولأرواحهم من الاختلافات الجارية على الدوام بين أمته، ولجاءه الصحابة ﷺ يسألونه ويشكون إليه ما نزل بهم من المُلمات على عادتهم إذ كان بين أظهرهم، ولو حيا لاستسقوا به إذا أجدبوا، ولَمْ يفعلوا ذلك بغيره لا العباس ولا غيره، ولكنهم ﷺ قد عرفوه حق المعرفة وعرفوا أن الأمور المُختصة به في حياته لَمْ يكن لها أثر بعد وفاته، فكم من مشكلة أشكلت عليهم وكم ملمة نزلت بهم ولَمْ يجيئوا إليه لذلك، فكل هذا دليل على أنهم اتفقوا على أنه كان ميتًا كما أخبر الله به في كتابه.

فهل جاء بعد هذا خبر صحيح أنه بعث في قبره وأنه حي كما كان في الدنيا.

وأيضًا فإن الناس لهم موتتان وحياتان، قال تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[3]. وعلى قولهم بحياة الأنبياء في قبورهم يكون الأنبياء ثلاث موتات، فهذا مع مُخالفته للكتاب فلا يقوله إلا من لا يبالي بالأقوال شيء لا مستند لها.

وأما قياسهم لحياة الأنبياء بحياة الشهداء فهذا من أكبر الأدلة عليهم فإن الشهيد نص الله في كتابه على حياته في البرزخ فلم تثبت حياتهم بالقياس بل بالنص المُثبت لحياتهم الناهي عن تسميتهم أمواتًا.

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٢٠٤١)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٢٦٦).

(٢) الذي ثبت هو عرض الأعمال على الله -عز وجل- لا على النبي ﷺ فليس هناك ما يدل على ذلك.

(٣) [غافر: ١١]

ومع هذا فالشهيد تحل نساؤه لمن بعده ويقسم ماله ويحكم عليه بما يحكم على أموات المسلمين إلا في الصلاة والتغسيل، وكذلك جسمه بلا شك يبلى، لكن المراد بحياته أنها حياة برزخية تبتهج الروح برضا الله وكرامته وفضله، والأنبياء أكمل حالة منهم في ذلك بلا ريب.

وأما تحريم نساء النبي ﷺ على غيره فقد ذكروا لذلك عدة حكم، منها أنهن نساؤه في الدنيا والآخرة؛ لأنهن لما خيرن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن عملهن ولم يزل الله شكورًا، فمنع رسوله أن يتزوج عليهن وأن يستبدل غيرهن بهن، وجعلهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فلذلك حرمن على غيره لا لأجل أنه حي كما هو في الدنيا فإن هذا لا تستقر عليه قدم عالم.

ومنها أنهن أمهات المؤمنين في المحبة.

ومنها أنه يجب تقديم محبة النبي ﷺ على كل محبة بعد محبة الله فمنع الله من كل ذريعة تحول دون هذا المقصود ودون تكميله ولا شك أن تزوج الرجل لزوجه الرجل من بعده من جملة الدواعي لنقصان المحبة ولغير ذلك من الحكم، ولذلك اعتددن بعده ولزمن الأحداد أربعة أشهر وعشرًا -رضي الله عنهن-، وكل هذا دليل على موته.

وأما رؤيته لموسى يصلي في قبره ففي النفس منه شيء لأن؛ البخاري ترك تخريجه في صحيحه على عمد فلولا أن عنده علة توجب تركه لم يتركه، ولذلك أعله الدارقطني بالوقف على أنس، وبين الحديث المرفوع والموقوف فرق عظيم، ولكن خرجه مسلم في صحيحه فنقله ونقله غيره من الأئمة، وعلى هذا التقدير فليس هذا مختصًا بالرسول، فقد روى ابن عباس وغيره حديثًا صحيحًا حين يأتي الملكان إلى المسلم يسألانه فتمثل له الشمس عند الغروب فيقول: دعاني أصلي العصر، فيقولان: أنك ستصليها بعد.

فإذا كان هذا الموت الذي لم يشك فيه أحد علم أنه لا منافاة بين موت الإنسان وبين صلاته في قبره وفي برزخه، فإنه وإن كانت التكاليف قد انقطعت فإن الله يكرم أنبياءه وأولياءه بكرامات، ومن أعظم الكرامات فعل العبادات المتصلة بمعرفة ربهم ومحبته فإنها من أعظم اللذات والكرامات.

ولهذا سأل الله ثابتٌ البنانيُ إن كان قد أعطى أحدًا الصلاة في قبره أن لا يزال مصليًا؛ فرؤي بعد وفاته يصلي في قبره، وقد رأى ﷺ موسى ليلة المعراج في السماء السادسة كما رآه في قبره

مصليًا ولا منافاة بين الأمرين؛ فإن للروح شأنا غير شأن البدن، فإنها في غاية اللطافة وسرعة الحركة كما ثبتت به الآثار.

ولما كانت مخالفة في أوصافها لهذا الجسم الكثيف كثر غلط الخائضين فيها؛ لأنهم لم يشاهدوها ولا شاهدوا لها نظيرًا، ولكن الأدلة ثبتت بذكر أوصافها وتنقلاتها وسرعة حركتها فيستبعد الخائضون بها أن تكون في أعلى عليين فوق السماوات السبع مقيمة هناك وترد إلى قبره أسرع من لمح البصر فترد السلام على المسلم عليها، وقد أظهر الله لعباده في هذه الأوقات من المخترعات وعجائب الكهرباء ما هو أكبر الأدلة على أحوال الروح وعلى ما أخبر به الله ورسوله من أمور الغيب التي لا تدركها الحواس فإذا كان علم المخلوق وقدرته وصل إلى هذه العجائب والله هو الذي علمه وأقدره فكيف بقدرة الخلاق العليم الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

وأما استدلالهم برد النبي ﷺ سلام من يسلم عليه فليس خاصًا به؛ فإنه ثبت في السنن مرفوعًا: «ما من مسلم يمر على قبر أخ له كان يعرفه فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه»[1]. وأما الحديث الذي فيه ذكر رؤية الأنبياء في قبورهم أحياء فهو غير صحيح بل منكر، فتبين أنه ليس لهم دليل واحد على ما قالوا.

والمنكر من قولهم في هذا المقام قولهم أن الأنبياء أحياء في قبورهم حياة مماثلة للحياة الدنيوية وهم محبوسون في قبورهم والتراب قد عمهم من جميع جوانبهم، فهذا مما يعلم الله بالضرورة بطلانه.

وأما الحياة الثابتة في الكتاب والسنة وفي حق الأنبياء فإنها حياة برزخية للروح أصلا والبدن تابع فيها الروح يسرى إليه أحيانًا من نعيمها وعذابها.

وأما عرض الأعمال على النبي ﷺ يوم الأثنين والخميس فإنه قد وردت الآثار تدل على عرض أعمال الناس على أبائهم وأمهاتهم وأقاربهم[2]، ولكن الذي يعرض على النبي ﷺ جميع أعمال الأمة والذي على غيره خاص بأقاربهم وأخصائهم، فليس في هذا ما يدل على الحياة

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (٥٢٠٨).

(٢) موضوع: انظر ضعيف الجامع (٢٤٤٦) للعلامة الألباني.

المُعهودة، والكلام في الأرواح كثير منتشر صنفت فيه الكتب وكثر فيه خوض الخائضين ومن أحسن الكتب المُصنفة فيه «كتاب الروح» للمؤلف فإنه أتى فيه بِمَا يشفى ويكفي.

والذي يَجب اعتقاده في شأن الروح أنَّها مَخلوقة حادثة بعد عدمها، وأن الله خالقها للبقاء.

ولِهذا إذا مات العبد بقيت الروح منعمة إن كان صاحبها من السعداء أو معذبة إن كان من الأشقياء.

وكذلك يَجب اعتقاد جَميع ما وصفت فيه الروح في الكتاب والسنة وأنَّها مداخلة لِهذا البدن الكثيف فإذا فارقته مات وفارق الدنيا، وأنَّها ليست كما ذكره أهل الكلام الباطل ليست داخل البدن ولا خارجه، فإن هذا في الحَقيقة نفي لَهَا كما قالوه في الباري كما تقدمت الإشارة إليه.

فصل

في كسر المنجنيق الذي نصبه أهل التعطيل على معاقل الإيمان وحصونه جيلاً بعد جيل

لاَ يفزعنك قعاقع وفراقع ... وجعاجع عريت عن البرهان

ما عندهم شيء يهولك غير ذا ... ك المنجنيق مقطع الأفخاذ والأركان

وهو الذي يدعونه التركيب منـ ... ـصوبا على الإثبات منذ زمان

أرأيت هذا المنجنيق فإنهم ... نصبوه تحت معاقل الإيمان

بلغت حجارته الحصون فهدت الشـ ... ـرفات واستولت على الجدران

لله كم حصن عليه استولت الـ ... ـكفار من ذا المنجنيق الجاني

والله ما نصبوه حتى عبروا ... قصدا على الحصن العظيم الشان

ومن البلية أن قوما بين أهـ ... ـل الحصن واطوهم على العدوان

ورموا به معهم وكان مصاب أهـ ... ـل الحصن منهم فوق ذي الكفران

فتركبت من كفرهم ووفاق من ... في الحصن أنواع من الطغيان

وجرت على الإسلام أعظم محنة ... من ذين تقديرا من الرحمن

والله لولا أن تدارك دينه الـ ... ـرحمن كان كسائر الأديان

لَكِنْ أَقَامَ لَهُ الإِلَهُ بِفَضْلِهِ ... بِرْكًا مِنَ الأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ

فَرَمَوْا عَلَى ذَا الْمُنْجَنِيقِ صَوَاعِقًا ... وَحِجَارَةً هَدَّتْهُ لِلأَرْكَانِ

فَاسْأَلْهُمُ مَاذَا الَّذِي يَعْنُونَ بِالتـ ... ـرْكِيبِ فَالتَّرْكِيبُ سِتُّ مَعَانِ

إِحْدَى مَعَانِيهِ هُوَ التَّرْكِيبُ مِنْ ... مُتَبَايِنٍ كَتَرَكُّبِ الْحَيَوَانِ

مِنْ هَذِهِ الأَعْضَا كَذَا أَعْضَاؤُهُ ... قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الأَرْكَانِ

أَلْلَازِمُ ذَا لِلصِّفَاتِ لِرَبِّنَا ... وَعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

وَلَعَلَّ جَاهِلَكُمْ يَقُولُ مُبَاهِتًا ... ذَا لَازِمُ الإِثْبَاتِ بِالْبُرْهَانِ

فَالْبَحْثُ عِنْدَكُمُ رَجِيصٌ سِعْرُهُ ... خُسُّوا بِلاَ كَيْلٍ وَلاَ مِيزَانِ

هَذَا وَثَانِيهَا فَتَرْكِيبُ الْجَوَا ... هِرِ وَذَاكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَفْتَرِقَانِ

كَالْجِسْمِ وَالْبَابِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ ... بِجِوَارِهِ لِمُخَلَّةٍ مِنْ بَانِ

وَالأَوَّلُ الْمَدْعُوُّ تَرْكِيبَ امْتِزَا ... جٍ وَاخْتِلاَطٍ وَهْوَ ذُو تِبْيَانِ

أَلْلَازِمُ ذَا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... أَيْضًا لِمَوْلَانَا الْعَلِيِّ اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

وَالثَّالِثُ التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَمَاثِلِ ... يَدْعَى الْجَوَاهِرَ فَرْدَةَ الأَكْوَانِ

وَالرَّابِعُ الْجِسْمُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هُيُـ ... ـلاَهُ وَصُورَتِهِ لَدَى الْيُونَانِ

وَالْجِسْمُ فَهْوَ مُرَكَّبٌ مِنْ ذَيْنِ عِنْـ ... ـدَ الْفَيْلَسُوفِ وَذَاكَ ذُو بُطْلاَنِ

وَمِنَ الْجَوَاهِرِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَلاَ ... مِ وَذَاكَ أَيْضًا وَاضِحُ الْبُطْلاَنِ

فَالْمُثْبِتُونَ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ الَّذِي ... زَعَمُوهُ أَصْلَ الدِّينِ وَالإِيمَانِ

قَالُوا بِأَنَّ الْجِسْمَ مِنْهُ مُرَكَّبٌ ... وَلَهُمْ جِلاَفٌ وَهْوَ ذُو أَلْوَانِ

هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْأَيْنِ أَوْ ... مِنْ أَرْبَعٍ أَوْ سِتَّةٍ وَثَمَانِ

أَوْ سِتَّ عَشْرَةَ قَدْ حَكَاهُ الأَشْعَرِ ... ي لِلَّذِي مَقَالاَتٌ عَلَى الثَّبَانِ

أَلْلَازِمُ ذَا مِنْ كُتُبِ صِفَاتِهِ ... وَعُلُوُّهُ سُبْحَانَ ذِي السُّبْحَانِ

وَالْحَقُّ أَنَّ الْجِسْمَ لَيْسَ مُرَكَّبًا ... مِنْ ذَا وَلاَ هَذَا هُمَا عَدَمَانِ

وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ الَّذِي قَدْ أَثْبَتُو ... هُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

لَوْ كَانَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَرُمِ الْمُحَا ... لُ لِوَاضِحِ الْبُطْلاَنِ وَالْبُهْتَانِ

مِنْ أَوْجُهٍ شَتَّى وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا ... جِدًّا لأَجْلِ صُعُوبَةِ الأَوْزَانِ

أَتَكُونُ حَرْدَلَةً تُسَاوِي الطَّوْدَ فِي الـ ... أَجْزَاءِ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَذْهَانِ

إِذْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَجْزَاؤُهُ ... لاَ تَنْتَهِي بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

وَإِذَا وَضَعْتَ الْجَوْهَرَيْنِ وَثَالِثًا ... فِي الْوَسْطِ وَهُوَ الْحَاجِزُ الْوَسْطَانِي

فَلأَجْلِهِ افْتَرَقَا فَلاَ يَتَلاَقَيَا ... حَتَّى يَزُولَ إِذًا فَيَلْتَقِيَانِ

مَا مَسَّهُ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ هُوَ الْـ ... ـمَمْسُوسُ لِلثَّانِي بِلاَ قُرْآنِ

هَذَا مُحَالٌ أَوْ تَقُولُ بِغَيْرِهِ ... فَهُوَ الْقِيَامُ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

وَالْخَامِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ ذَاتٍ مَعَ الْـ ... أَوْصَافِ هَذَا بِاصْطِلاَحٍ ثَانِ

سَمُّوهُ تَرْكِيبًا وَذَلِكَ وَضْعُهُمْ ... مَا ذَاكَ فِي عُرْفٍ وَلاَ قُرْآنِ

لَسْنَا نُقِرُّ بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ ... بِالاِصْطِلاَحِ لِشِيعَةِ الْيُونَانِ

أَوْ مَنْ تَلَقَّى عَنْهُمُ مِنْ فِرْقَةٍ ... جَهْمِيَّةٍ لَيْسَتْ بِذِي عِرْفَانِ

مِنْ وَصْفِهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ الْـ ... ـعُلْيَا وَيَشْرَحُ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

وَالْعَقْلُ وَالْفِطَرَاتُ أَيْضًا كُلُّهَا ... تَتْلُو الْقَضَاءَ وَمُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْـ ... أَسْمَاءِ بِالأَلْقَابِ ذَاتِ الشَّانِ

هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا التَّـ ... ـرْكِيبِ مِنْ عَقْلٍ وَمِنْ قُرْآنِ

وَاللهِ لَوْ بُشِّرْتَ شُيُوخَكُمْ لَنَا ... قَدَرُوا عَلَيْهِ لَوْ أَتَى الثَّقَلاَنِ

وَالسَّادِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ مَاهِيَةٍ ... وَوُجُودِهَا مَا هَا هُنَا ثَالِثَانِ

إِلاَّ إِذَا اخْتَلَفَ اعْتِبَارُهُمَا فَذَا ... فِي الذِّهْنِ وَالثَّانِي فَفِي الأَعْيَانِ

فَهُنَالِكَ يَعْقِلُ كَوْنَ ذَا غَيْرًا لِذَا ... فَعَلَى اعْتِبَارِهِمَا هُمَا غَيْرَانِ

أَمَّا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا كَانَ لَفْـ ... ـظُ وُجُودِهَا هُوَ ذَاتُهَا لاَ ثَانِ

مَنْ قَالَ شَيْئًا غَيْرَ ذَا كَانَ الَّذِي ... قَدْ قَالَهُ حَرْبًا مِنَ الْفُعْلاَنِ

هَذَا وَكَمْ خَبْطٍ هُنَا قَدْ زَالَ بِالتَّـ ... ـفْصِيلِ وَهُوَ الأَصْلُ فِي الْعِرْفَانِ

وَابْنُ الْخَطِيبِ وَحِزْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... لَمْ يَهْتَدُوا لِمَوَاقِعِ الْقُرْآنِ

نَالُوا خَبْطًا نَقْلاً وَتَخْتًا أَوْجَبَا ... شَكًّا لِكُلِّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ

هَـلْ ذَاتُ رَبِّ الْعَـالَمِينَ وُجُـودُهُ أَمْ غَـيْرُهُ فِيهِمَـا إِذَا شَـيْئَانِ
فَيَكُـونُ تَرْكِيبًـا مُحَـالاً ذَا لَدَا إِنْ قُلْتَـا بِـهِ فَيَصِـيرُ ذَا إِمْكَـانِ
وَإِذَا نَفَيْتَـا ذَا صَـارَ وُجُـودُهُ كَـالْمُطْلَقِ الْمَوْجُـودِ فِـي الأَذْهَـانِ
وَحَكَـوْا أَقَـاوِيلاً ثَلاثًـا فِيكَ الَّـ ـقَوْلَيْنِ إِطْلاَقًـا بِـلاَ فُرْقَـانِ
الثَّالِـثُ التَّفْرِيـقُ بَـيْنَ الْوَاجِبِ الَّـ أَعْلَـى وَبَـيْنَ وُجُـودِ ذِي الإِمْكَـانِ
وَسَـطُوا عَلَيْهَـا كُلِّهَـا بِـالنَّقْضِ وَالَّـ إِبْطَـالِ وَالتَّشْـكِيكِ لِلإِنْسَـانِ
حَتَّـى أَتَـى مِـنْ أَرْضِ آمِـدَ آخِـرًا نُـورٌ كَـبِيرٌ بَـلْ حَقِيرُ الشَّـانِ
قَـالَ الصَّـوَابُ الْوَقْـفُ فِـي ذَا كُلِّـهِ وَالشَّـكُّ فِـيهِ ظَـاهِرُ التِّبْيَـانِ
هَـذَا قُصَـارَى بَحْثِـهِ وَعُلُومِـهِ أَنْ شَـكَّ فِـي اللهِ الْعَظِـيمِ الشَّـانِ

شرح

وهو الذي يسميه المتكلمون «دليل التركيب» فإنَّهم قرروا هذا الدليل الباطل بقولهم: لو كان موصوفًا بالصفات كالحَياة والعلم والقدرة وغيرها كان مركبًا، ولو كان مركبًا كان مُحدثًا، فتعين أن تنفى عنه الصفات، وأن لا يوصف بوصف زائد على مُجرد الذات.

فهذا قد أخذه متأخرهم عن متقدمهم، وغيروا بذلك عقائد الخَلق وموهوا على ضعفاء البصائر، ونفوا لأجله أجل الحَقائق وأوضحها وأحقها بالإثبات، وتركوا لأجله ما هو معلوم من الدين بالضرورة ثابت في الكتاب والسنة.

فأكبر الأدلة على بطلان هذا الطاغوت مُخالفته للأدلة اليقينية من الكتاب والسنة فمخالفة المعلوم بالضرورة باطل بلا ريب.

ثُمَّ بقطع النظر عن ذلك هو في نفسه باطل يستفسر أهله عن مرادهم بالتركيب، فإن التراكيب المصطلح عليها كثيرة فيقال لهم: هل تعنون بهذا التركيب «التركيب الإمتزاجي الاختلاطي» كتركب الإنسان والحَيوان من عدة أعضاء ومن الأركان الأربعة أم تعنون بذلك «تركيب المُجاورة» كتركيب السقف على البنيان والجَسر على النهر.

فإن عنيتم واحدًا من هذين الأمرين لَمْ يلزم شيء منهما في إثبات صفات الباري الَّتي

أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ عند أحد من العقلاء.

وإن عنيتم «التركيب من الجواهر الفردة» وهي الجزء الذي لا يتجزأ، أو من الهيولي والصورة، فأكثر العقلاء لا يتصورون الجواهر الفردة فضلا عن إثباتها، بل من تصور الأمر على ما هو عليه علم بطلان ذلك وأنه لا وجود له ولا يتركب منه موجود، ثُمَّ على التقدير الباطل الممتنع فلا يلزم من إثبات الصفات تركبه من هذه الحالات.

وإن عنيتم أنه تركب من الذات والصفات فما المحذور من هذا الإثبات؟ فسموه ما شئتم فلن يترك بتسمية المبطلين له بالأسماء المنفرة.

وصورة التلازم هكذا: لو كان موصوفًا بالصفات لزم أن يكون موصوفًا بالصفات.

كما يقول القائل: لو كان موجودًا، ولو كان حيًا لكان حيًا. فإذا اتحد اللازم والملزوم كان اللازم للحق بلا شك حقًا.

والقصد أنهم يطالبون بوجود معاني هذه التراكيب في الكتاب والسنة أو كلام أهل اللغة، ولن يجدوها، فإن هذه الإسماء من اصطلاح فلاسفة اليونان.

ثُمَّ يقال ثانيًا: هب أنه كان يسمى تركيبًا فليس لكم دليل على نفي هذا الذي تسمونه «التركيب»؛ لأنه ثابت في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وما ثبت بذلك فمحال أن يقاومه دليل آخر.

وهنا شيء يسمونه «التركيب من الماهية والوجود» وهل الماهية هي الوجود أو هي غيره فمتى قالوا: إنَّها الوجود لم يتصور تركيب كما هو قول لبعض المتكلمين، ومتى قالوا: هي غيره ارتكبوا في هذا الموضع؛ لأن «التركيب» عندهم باطل، وكل شيء اقتضى معنى التركيب في جانب الباري فهو باطل، فلهذا منهم من أطلق الكلام نفيًا وإثباتًا، ومنهم من توقف، والتحقيق أن يقال: إن وجود كل شيء هو عين ماهيته، وماهيته عين وجوده فإذا اختلفت اعتبارهما ذهنًا وعينًا وخارجًا ورسمًا فكل واحد من المذكورات له اعتبار مختص به.

فصل
في أحكام هذه التراكيب الستة

فَالأَوَّلانِ حَقِيقَةُ التَّرْكِيبِ لاَ ... تَعْدُوهُمَا فِي اللَّفْظِ وَالأَذْهَانِ
وَكَذَلِكَ الأَعْيَانُ أَيْضًا إِنَّمَا ... التَّرْكِيبُ فِيهَا ذَانِكَ النَّوْعَانِ
وَالأَوْسَطَانِ هُمَا اللَّذَانِ تَنَازَعَا الـ ... ـعُقَلاَءَ فِي تَرْكِيبِ ذِي الْجُثْمَانِ
وَلَهُمْ أَقَاوِيلٌ ثَلاَثٌ قَدْ حَكَى ... عَنْهَا وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ بَيَّانِ
الآخِرَانِ هُمَا اللَّذَانِ عَلَيْهِمَا ... دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الَّتِي تَرَيَانِ
أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ وَصْفَهُ[1] سُبْحَانَهُ ... بِعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الأَكْوَانِ
وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي نَعَتَتْ لَهُ ... بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ ذِي الْبُرْهَانِ
مِنْ جُمْلَةِ التَّرْكِيبِ ثُمَّ نَفَيْتُمُ ... مَعْنَاهُ لَيْسَ مِنَ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ
[فَجَعَلْتُمُ الْمَرْقَاةَ لِلتَّعْطِيلِ هَـ ... ـذَا الاصْطِلاَحَ وَذَا مِنَ الْعُدْوَانِ]
لَكِنْ إِذَا قِيلَ اصْطِلاَحٌ حَادِثٌ ... لاَ حَجْرَ لِي هَذَا عَلَى إِنْسَانِ
فَنَقُولُ نَفْيُكُمْ بِهَذَا الاصْطِلاَ ... حِ صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ الْبُطْلاَنِ
وَكَذَاكَ نَفْيُكُمْ بِهِ لِعُلُوِّهِ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ
وَكَذَاكَ نَفْيُكُمْ بِهِ لِكَلاَمِهِ ... بِالْوَحْيِ كَالتَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ
وَكَذَاكَ نَفْيُكُمْ لِرُؤْيَتِنَا لَهُ ... يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يَرَى الْقَمَرَانِ
وَكَذَاكَ نَفْيُكُمْ لِسَائِرِ مَا أَتَى ... فِي النَّقْلِ مِنْ وَصْفٍ بِغَيْرِ مَعَانِ
كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَالأَصَابِعِ وَالَّذِي ... أَبْدَا يَسُوءُكُمْ بِلاَ كِتْمَانِ
وَيَسُوءُكُمْ لَوْ لَمْ يَقُلْهُ رَبُّنَا ... وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَانِ
وَيَسُوءُكُمْ وَاللهِ لَيْتَ قَالَهُ ... أَنْ لَيْسَ يَدْخُلُ سَمْعَ الإِنْسَانِ
قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِنَادِ الْكَوْنِ أَجْـ ... ـمَعِهِ إِلَى خَلاَّقِهِ الرَّحْمَنِ
مَا قَامَ قَطُّ عَلَى انْتِفَاءِ صِفَاتِهِ ... وَعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الأَكْوَانِ

---

(١) كذا في (ظ) أما في (ع، س، ق) [وَصَلَهُ].

هُوَ وَاحِدٌ فِي وَصْفِهِ وَعُلُوِّهِ ... مَا لِلْوَرَى رَبٌّ سِوَاهُ ثَانِ

فَلِأَيِّ مَعْنًى تَجْحَدُونَ عُلُوَّهُ ... وَصِفَاتِهِ بِالْفَخْرِ وَالْهَذَيَانِ

هَذَا وَمَا الْمَحْذُورُ إِلَّا أَنْ يُقَا ... لَ مَعَ الإِلَهِ لَنَا إِلَهٌ ثَانِ

أَوْ أَنْ يُعَطَّلَ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ ... هَذَانِ مَحْذُورَانِ مَحْظُورَانِ

أَمَّا إِذَا مَا قِيلَ رَبٌّ وَاحِدٌ ... أَوْصَافُهُ أَرْبَتْ عَلَى الْحُسْنَانِ

وَهُوَ الْقَدِيمُ فَلَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ ... تُوَحِّدًا بَلْ لَمْ يَزَلْ ذَا الإِحْسَانِ

فَبِأَيِّ بُرْهَانٍ تَقِيسُمْ ذَا وَقُلْـ ... ـتُمْ لَيْسَ هَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ نَقْصٌ فَذَا ... بَهَتٌ فَمَا فِي ذَاكَ مِنْ نُقْصَانِ

النَّقْصُ فِي أَمْرَيْنِ سَلْبُ كَمَالِهِ ... أَوْ شِرْكَةٌ بِالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

أَتَكُونُ أَوْصَافُ الْكَمَالِ نَقِيصَةً ... فِي أَيِّ عَقْلٍ ذَاكَ أَمْ قُرْآنِ

إِنَّ الْكَمَالَ بِكَثْرَةِ الأَوْصَافِ لَا ... فِي سَلْبِهَا ذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

مَا النَّقْصُ غَيْرُ السَّلْبِ حَسْبُ وَكُلُّ نَفْـ ... ـيٍ أَصْلُهُ سَلْبٌ وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

فَالْجَهْلُ سَلْبُ الْعِلْمِ وَهُوَ نَقِيصَةٌ ... وَالظُّلْمُ سَلْبُ الْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

مُتَنَقِّصُ الرَّحْمَنِ سَالِبُ وَصْفِهِ ... حَقًّا لَعَالِي اللهُ عَنْ نُقْصَانِ

وَكَذَا الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ذِكْرُ صِفَاتِهِ ... وَالْحَمْدُ وَالتَّمْجِيدُ كُلَّ أَوَانِ

وَلِذَاكَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ أَدْرَاهُمُ ... بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

وَلَهُ صِفَاتٌ لَيْسَ يُحْصِيهَا سِوَا ... هُ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَلَا إِنْسَانِ

وَلِذَاكَ يُثْنِي فِي الْقِيَامَةِ سَاجِدًا ... لَمْ يَرْأَهُ الْمُصْطَفَى بِعِيَانِ

بِثَنَاءِ حَمْدٍ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا لِبَعْضِهِ مَدَى الأَزْمَانِ

وَثَنَاؤُهُ بِصِفَاتِهِ لَا بِالسُّلُو ... بِ كَمَا يَقُولُ الْعَادِمُ الْعِرْفَانِ

وَالْعَقْلُ دَلَّ عَلَى انْتِهَاءِ الْكَوْنِ أَجْـ ... ـسَامِهِ إِلَى رَبٍّ عَظِيمِ الشَّانِ

وَثُبُوتُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لِذَاتِهِ ... لَا يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا الْبُرْهَانِ

وَالْكَوْنُ يَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهُ لَهُ ... لِيَ ذُو الْكَمَالِ وَذَاتِهِ السُّلْطَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ الْوُجُودِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ ـمَعْبُودُ لَا شَيْءٌ مِنَ الْأَكْوَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ذُو حِكْمَةٍ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ ذُو قُدْرَةٍ حَيٌّ عَلِيمٌ دَائِمُ الْإِحْسَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْفَعَّالُ حَقْـ ـقًا كُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا فِي شَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْمُخْتَارُ فِي أَفْعَالِهِ حَقًّا بِلَا نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْقَيُّومُ قَا مَ بِنَفْسِهِ وَمُقِيمُ ذِي الْأَكْوَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ ذُو رَحْمَةٍ وَإِرَادَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ خَلَّاقُ بَاعِثُ هَذِهِ الْأَبْدَانِ
لَا تَجْعَلُوهُ شَاهِدًا بِالزُّورِ وَالتَّـ ـعْطِيلِ تِلْكَ شَهَادَةُ الْبُطْلَانِ
وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ رَأَيْتَهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعِمْيَانِ
بِشَهَادَةِ الْإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا لِلَّهِ لَا بِشَهَادَةِ النُّكْرَانِ
وَكَذَاكَ رُسْلُ اللهِ شَاهِدَةٌ بِهِ أَيْضًا فَسَلْ عَنْهُمْ عَلِيمَ زَمَانِ
وَكَذَاكَ كُتْبُ اللهِ شَاهِدَةٌ بِهِ أَيْضًا فَهَذَا مُحْكَمُ الْقُرْآنِ
وَكَذَلِكَ الْفِطَرُ الَّتِي مَا غُيِّرَتْ عَنْ أَصْلِ خِلْقَتِهَا بِأَمْرٍ ثَانِ
وَكَذَا الْعُقُولُ الْمُسْتَنِيرَاتُ الَّتِي فِيهَا مَصَابِيحُ الْهُدَى الرَّبَّانِي
أَتَرَوْنَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ لِشَهَادَةِ الْجَهْمِيِّ وَالْيُونَانِي
هَذِي الشُّهُودُ فَإِنْ طَلَبْتُمْ شَاهِدًا مِنْ غَيْرِهَا سَيَقُومُ بَعْدَ زَمَانِ
إِذْ يَنْجَلِي هَذَا الْغُبَارُ فَيَظْهَرُ الْـ ـحَقُّ الْمُبِينُ مُشَاهَدًا بِعِيَانِ
فَإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ إِنَّهُ مَلْزُومُ تَرْكِيبٍ فَمَنْ يَلْحَانِي
إِنْ قُلْتُ لَا عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ لَكُمْ وَصَرَخْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِأَذَانِ
هَلْ يَجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ الْـ ـمَنْفِي هَذَا بَيْنُ الْبُطْلَانِ
فَالشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفَى لَدَى عَقْلٍ سَلِيمٍ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

قُلْتُمْ نَفَيْنَا وَصْفَهُ وَعُلُوَّهُ ... مِنْ خَشْيَةِ التَّرْكِيبِ وَالإِمْكَانِ

لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

أَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْفَوْقُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّفِقَانِ

فَنَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ مَعْ ... تَغْيِيرِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِشَانِ

بَلْ صُورَةُ الْبُرْهَانِ أَصْبَحَ شَكْلُهَا ... شَكْلاً عَقِيمًا لَيْسَ ذَا بُرْهَانِ

لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ كَذَاكَ مَوْ ... صُوفًا وَهَذَا حَاصِلُ الْبُرْهَانِ

فَإِذَا جَعَلْتُمْ لَفْظَةَ التَّرْكِيبِ بِالْـ ... ـمَعْنَى الصَّحِيحِ أَمَارَةَ الْبُطْلَانِ

جِئْنَا إِلَى الْمَعْنَى فَخَلِّصْنَاهُ مِنْـ ... ـهَا وَاطَّرَحْنَاهَا اطِّرَاحَ مُهَانِ

هِيَ لَفْظَةٌ مَقْبُوحَةٌ بِدْعِيَّةٌ ... مَذْمُومَةٌ مِنَّا بِكُلِّ لِسَانِ

وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ نَجْعَلُهُ مَكَا ... نَ اللَّفْظِ بِالتَّرْكِيبِ فِي الْبُطْلَانِ

وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ أَوْلَى بِالصِّفَا ... تِ وَبِالْعُلُوِّ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ الرُّسْلِ لاَ ... أَصْحَابِ جَهْمٍ شِيعَةِ الْكُفْرَانِ

شرح

ما تقدم من شرح «التراكيب» فإنَّما هو اصطلاح للمتكلمين أخذوه عن فلاسفة اليونان، أما حكمها في الواقع فإن القسمين الأولين «تركيب الامتزاج» كالحيوان و«تركيب الجوار» كالسقف مع الجُدار فهما التركيبان المعروفان في النطق والعين والذهن.

وقد تقدم أنه لا يلزم من إثبات صفات الله على الوجه الوارد في الكتاب والسنة شيء منها عند كل أحد.

والثالث والرابع: «التركيب من الجواهر المُنفردة» أو «من الهيولي والصورة» أكثر العقلاء لا يثبتونهما ويرون أنه لا حقيقة لذلك كما تقدم، وعلى إثباتهما عند من يقول به فلا يلزم ذلك في إثبات الصفات.

وأما التركيب الخامس والسادس عند المصطلحين عليهما فقد تقدم أنه لا يسمى هذا تركيبًا وعلى فرض تسميته ليس لهم دليل واحد على نفيه، لكن لما كانت عقيدتهم الفاسدة

أدتهم إلى نفي صفات الله جعلوا يتوسلون إلى قولهم بكل شبهة تروجه.

وإذا قالوا: لا مشاحة في الاصطلاحات التي لاتتضمن محذورًا، وأما تمكين المبطل أن يصطلح هو وذووه اصطلاحات يتوسلون بها إلى رد الحق ونصر الباطل فهذا يشاح فيه كل المشاحة ويدفع بكل وسيلة؛ فإن اصطلاحهم هذا ردوا به ما ثبت في الكتاب والسنة من صفات الله وعلوه على عرشه وتكليمه بوحيه من شاء من عباده ورءية العباد له وغير ذلك مما هو ثابت في الكتاب والسنة.

والدليل العقلي والنقلي إنما قام ودل على استناد الكون جميعه إلى الرب العظيم في إيجاده وامداده وبقائه وجميع شئونه وما يحتاج إليه، وكذلك دل على انتهاء الكون إلى الله وأن إلى ربك المنتهى في كل شيء.

فالأصل الأول: افتقار جميع العالم العلوي والسفلي إلى الله في كل شيء وغناه الكامل عنها.

والأصل الثاني: فيه إثبات كمال أوصافه وأن غاية الكمال الذي لا يتصوره المتصورون، ولا يعبر عن كنهه المعبرون، فإن محمدًا ﷺ أعلم خلقه قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]. وإذا سبحه يوم القيامة عندما يشفع للخلق يفتح عليه من محامد الله وثنائه وتمجيده ما لم يفتحه على أحد من الأولين والآخرين.

فكل مخلوق قاهر لمخلوق آخر ثم ذلك القاهر فوقه من هو أقدر منه حتى تنتهي العزة والقدرة للواحد القهار.

وكذلك كل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى المحيط علمه بكل شيء وهكذا جميع أوصاف الكمال تنتهي كلها إلى من هو بها أحق من كل موجود وهو الذي له الكمال المطلق بكل معنى واعتبار.

وليس المحذور من إثبات الصفات كما توهمته الجهمية، وإنما أكبر المحاذير وأفظعها من إثبات أهين اثنين.

وأما إذا قيل: إن الإله واحد متفرد في وحدانيته كثير الأسماء والصفات فهو الحق الأكبر الذي لا أحق منه ولا أعظم، وهو أكبر الأصول وهو أصل الكمال، فإن النقص يرجع إلى

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦).

أمرين: إما سلب كماله وصفاته، وإما اعتقاد الشركة لله تعالى.

فالذم كله راجع إلى هذين الأمرين، كما أن الحمد والمدح والثناء راجع إلى إثبات صفات الله ونعوته.

ومن تأمل هذا العالم كله، وتغلغل فكره فيما احتوى عليه من آثار القدرة والرحمة والحكمة، رآه شاهدًا بلسان المقال ولسان الحال بأن الله هو الخالق وحده، المعبود وحده، الذي له كل صفة كمال ورحمة وحكمة ومدح وثناء وتعظيم، وأنه على كل شيء قدير، فعال لما يريد، له الحياة الكاملة والقيومية التامة فلا تأخذه سنة ولا نوم، قام بنفسه بما هو عليه من كمال الغنى والعظمة، وقام بجميع المخلوقات، فكل يوم هو في شأن، يدبر الأمر، يفصل الآيات.

فهذه الأصول يشهد بها الكون لله الواحد القهار، لكن الجهمية ردوا هذه الشهادات المبنية على البراهين القواطع بشبة يونانية لا تسمن ولا تغني من جوع.

وإذا أردت أن تعرف حقيقة التركيب الذي يصول به المتكلمون ويقدمونه على كل شيء فعبر عن المعاني المقصودة الصحيحة بعبارات واضحة، خصوصًا الألفاظ القرآنية والألفاظ النبوية؛ فإنها مضمون لها العصمة وقد استولت على غاية البيان، فقل في هذا الذي يسموه تركيبًا ونفوا صفات الله لأجل هذا قل كاشفًا للمعنى لو كان موصوفًا بصفات الكمال كان موصوفًا بصفات الكمال، ولو كان موصوفًا بأنه العلي الأعلى لكان عليًا أعلى، ولو كان موصوفًا بالكلام لكان موصوفًا بالكلام، ونحو ذلك من العبارات البينة الواضحة التي تعبر عن المعنى الصحيح بعبارة صحيحة، وفيها يتحد اللازم والملزوم، فإذا عبر عنه النافي بعبارات أخر وتدرج بها إلى نفيها ظهر أنه مكابر معاند عندما ينكشف المعنى بالعبارات المذكورة، فإذا أصر على التعبير بالعبارات البدعية فقل: إن أردت ما ذكرنا من هذا المعنى الواضح فنحن نقبل المعنى الذي دل عليه الشرع ولو عبر عنه بأي عبارة تكون.

فصل

في أقسام التوحيد والفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد النفاة المعطلي

فَاسْمَعْ إِذًا أَنْوَاعَهُ هِيَ خَمْسَةٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ أَقْسَامُهَا بِبَيَانِ
تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سِينَا وَهُوَ مَنْـ ... ـسُوبٌ لِأَرِسْطُو مِنَ الْيُونَانِ
مَا لِلْإِلَهِ لَدَيْهِمُ مَاهِيَّةٌ ... غَيْرُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْوِحْدَانِ
مَسْلُوبُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا ... لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ لَيْسَ بِفَانِ
مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُو ... دِ الْمُطْلَقِ الْمَسْلُوبِ كُلِّ مَعَانِ
فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا ... عِلْمٌ وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
وَلِذَاكَ قَالُوا لَيْسَ ثَمَّ مَشِيئَةٌ ... وَإِرَادَةٌ لِوُجُودِ ذِي الْأَكْوَانِ
بَلْ تِلْكَ لَازِمَةٌ لَهُ بِالذَّاتِ لَمْ ... تَنْفَكَّ عَنْهُ قَطُّ فِي الْأَزْمَانِ
مَا اخْتَارَ شَيْئًا قَطُّ يَفْعَلُهُ وَلَا ... هَذَا لَهُ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ
وَبَنَوْا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خَرْقِ ذِي الْـ ... أَفْلَاكِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ
وَلِذَاكَ قَالُوا لَيْسَ يَعْلَمُ قَطُّ شَيْـ ... ـئًا مَا مِنَ الْمَوْجُودِ فِي الْأَعْيَانِ
لَا يَعْلَمُ الْأَفْلَاكَ كَمْ أَعْدَادُهَا ... وَكَذَا النُّجُومُ وَذَانِكَ الْقَمَرَانِ
بَلْ لَيْسَ يَسْمَعُ صَوْتَ كُلِّ مُصَوِّتٍ ... كَلَّا وَلَيْسَ يَرَاهُ رَأْيَ عِيَانِ
بَلْ لَيْسَ يَعْلَمُ حَالَةَ الْإِنْسَانِ تَفْـ ... ـصِيلًا مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ
كَلَّا وَلَا عِلْمٌ لَهُ بِتَسَاقُطِ الْـ ... أَوْرَاقِ أَوْ بِمَنَابِتِ الْأَغْصَانِ
عِلْمًا عَلَى التَّفْصِيلِ هَذَا عِنْدَهُمْ ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَازِمُ الْإِمْكَانِ
بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْمُحَا ... لِ وَلَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ
مَا زَالَ نَوْعُ النَّاسِ مَوْجُودًا وَلَا ... يَفْنَى كَذَاكَ الدَّهْرُ وَالْمَلْوَانِ
هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... مِثْلِ ابْنِ سِينَا وَالنَّصِيرِ الثَّانِي
قَالُوا وَأَلْجَأَنَا إِلَى ذَا خَشْيَةُ التَّـ ... ـرْكِيبِ وَالتَّجْسِيمِ ذِي الْبُطْلَانِ
وَلِذَاكَ قُلْنَا مَا لَهُ سَمْعٌ وَلَا ... بَصَرٌ وَلَا عِلْمٌ فَكَيْفَ يَدَانِ

وَكَذَاكَ قُلْنَا لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلْـ ... ـلاَ الْمُسْتَحِيلُ وَلَيْسَ ذَا إِمْكَانِ
جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلاَ الْجِسْمَيْنِ مَحْـ ... ـدُودٌ يَكُونُ كِلاَهُمَا صِنْوَانِ
فَلِذَاكَ حَقًّا صَرَّحُوا فِي كُتْبِهِمْ ... وَهُمُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ الْكُفْرَانِ
لَيْسُوا مَخَانِيثَ الْوُجُودِ فَلاَ إِلَى الْـ ... ـكُفْرَانِ يَنْحَازُوا وَلاَ الإِيمَانِ
وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَافِ إِذْ يَبْقَى هُنَاكَ اثْنَانِ
غَيْرُ الْوُجُودِ فَصَارَ ثَمَّ ثَلاَثَةٌ ... فَلِذَا نَفَيْنَا اثْنَيْنِ بِالْبُرْهَانِ
نَفْيُ الْوُجُودِ فَلاَ يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْـ ... ـءٌ غَيْرُهُ فَيَصِيرَ ذَا إِمْكَانِ

فصل

في النوع الثاني من أنواع التوحد لأهل الإلحاد

هَذَا وَثَانِيهَا فَتَوْحِيدُ ابْنِ سَبْـ ... ـعِينَ وَشِيعَتِهِ أُولِي الْبُهْتَانِ
كُلُّ اتِّحَادِي خَبِيثٍ عِنْدَهُ ... مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ الْحَقَّانِي
تَوْحِيدُهُمْ أَنَّ الإِلَهَ هُوَ الْوُجُو ... دُ الْمُطْلَقُ الْمَبْثُوثُ فِي الأَعْيَانِ
هُوَ عَيْنُهَا لاَ غَيْرُهَا مَا هَا هُنَا ... رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ
لَكِنَّ وَهْمَ الْعَبْدِ ثُمَّ خَيَالَهُ ... فِي ذِي الْمَظَاهِرِ دَائِمًا يَلِجَانِ
فَلِذَاكَ حُكْمُهُمَا عَلَيْهِ نَافِذٌ ... فَابْنُ الطَّبِيعَةِ ظَاهِرُ النُّقْصَانِ
فَإِذَا تَجَرَّدَ عِلْمُهُ عَنْ حِسِّهِ ... وَخَيَالِهِ بَلْ ثَمَّ تَجْرِيدَانِ
تَجْرِيدُهُ عَنْ عَقْلِهِ أَيْضًا فَإِنْـ ... ـنَ الْعَقْلَ لاَ يَدْنِيهِ مِنْ ذَا الشَّانِ
بَلْ يَخْرِقُ الْحُجُبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَا ... وَهْمًا وَحِسًّا ثُمَّ عَقْلٌ وَانِ
فَالْوَهْمُ مِنْهُ وَحِسُّهُ وَخَيَالُهُ ... وَالْعِلْمُ وَالْمَعْقُولُ فِي الأَذْهَانِ
حُجُبٌ عَلَى ذَا الشَّانِ فَاخْرِقْهَا وَإِلْـ ... ـلاَ كُنْتَ مَحْجُوبًا عَنِ الْعِرْفَانِ
هَذَا وَأَكْتَفْهَا حِجَابُ الْحِسِّ وَالْـ ... ـمَعْقُولُ ذَانِكَ صَاحِبُ الْفُرْقَانِ
فَهُنَاكَ صِرْتَ مُوَحِّدًا حَقًّا تَرَى ... هَذَا الْوُجُودَ حَقِيقَةَ الدَّيَّانِ
وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَتَنْوِيعُ الْوُجُو ... دِ وَقَوْلُنَا إِنَّ الْوُجُودَ اثْنَانِ

واحتج بوما بالكتاب عليهم شخص فقالوا الشرك في القرآن
لكنما التوحيد عند الفاضلين من بالاتحاد فهم أولو العرفان
رب وعبد كيف ذا وإنما الـ ـموجود فرد ما له من ثان

فصل
في النوع الثالث من توحيد أهل الإلحاد

هذا وثانيها هو التوحيد عند الجهم المعطل بلا إيمان
نفي الصفات مع العلو كذا لقـ ـي كلامه بالوحي والقرآن
فالعرش ليس عليه شيء بتة لكنه حلو من الرحمن
ما فوقه رب بطاع ولا عليـ ـه للورى من خالق رحمن
بل حظ عرش الرب عند فريقهم منه كحظ الأسفل التحتاني
فهو المعطل عن لعوت كماله وعن الكلام وعن جميع معاني
وانظر إلى ما قد حكينا عنه في مبدا القصيد حكاية الثبيان
هذا هو التوحيد عند فريقهم تلك الفحول مقدمي الكهتان
والشرك عندهم فإثبا ت لربنا وبهابة الكفران
إن كان شرك ذا وكل الرسل قد جاءوا به يا خيبة الإنسان

فصل
في النوع الرابع من أنواعه

هذا ورابعها فتوحيد لدى جبريهم هو غاية العرفان
العبد مبت ما له لفعل ولا لكن ما ترى هو لفعل ذي السلطان
والله فاعل فعلنا من طاعة ومن الفسوق وسائر العصيان
هي لفعل رب العالمين حقيقة ليست بفعل قط للإنسان

فَالْعَبْدُ مَيْتٌ وَهْوَ مَجْبُورٌ عَلَى ... أَفْعَالِهِ كَالْمَيْتِ فِي الأَكْفَانِ
وَهْوَ الْمَلُومُ عَلَى فِعَالِ إِلَهِهِ ... فِيهِ وَدَاخِلُ جَاحِمِ النِّيرَانِ
يَا وَيْحَهُ الْمِسْكِينُ مَظْلُومٌ يَرَى ... فِي صُورَةِ الْعَبْدِ الظَّلُومِ الْجَانِي
لَكِنْ نَقُولُ بِأَنَّهُ هُوَ ظَالِمٌ ... فِي نَفْسِهِ أَدَبًا مَعَ الرَّحْمَنِ
هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... مِنْ كُلِّ جَبْرِي خَبِيثِ جَنَانِ
وَالْكُلُّ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ طَاعَاتُنَا ... مَا ثَمَّ فِي التَّحْقِيقِ مِنْ عِصْيَانِ
وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ اعْتِقَادُكَ فَاعِلاً ... غَيْرَ الإِلَهِ الْمَالِكِ الدَّيَّانِ
فَانْظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا ... فِيهِ مِنَ الإِشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ
مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ ... هَاتِيكَ كُتْبُهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ
أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأَوْا ... مِنْ خَالِقٍ ثَانٍ لِذِي الأَكْوَانِ
أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقَرُّوا أَنَّهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لِلإِنْسَانِ
فَإِذَا ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التَّـ ... ـوْحِيدِ صَارَ الشِّرْكُ ذَا بُطْلَانِ
فَالنَّاسُ كُلُّهُمُ أَقَرُّوا أَنَّهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لَيْسَ اثْنَانِ
إِلَّا الْمَجُوسَ فَإِنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَ الشَّرَّ خَالِقُهُ إِلَهٌ ثَانِ

شرح

أما توحيد الفلاسفة: فهو إثبات وجود مطلق لا ذات له ولا اسم ولا صفة ولا فعل، ومضمون هذا إنكار وجود الله أصلا؛ لأن هذا الذي نعتوه لا يُمكن وجوده في الخارج، وأنما يتصوره الذهن الفاسد كما يتصور الخيالات الَّتِي لا حقيقة لَهَا، والشرك عندهم إثبات الذات والصفات.

وكذلك توحيد الاتحادية القائلين: بأن الوجود واحد، فلا ثُمَّ رب ولا مربوب وإنَّما الخالق عندهم عين المخلوق ولكن الحس والوهم يظن تباينهما، وإلا فالكل شيء واحد.

ومُحققهم لا يصل إِلَى تحقيق قولهم الباطل حَتَّى يخرق الحِس والعقل فضلا عن الوهم والخيال، فحينئذٍ يصل إِلَى هذا التوحيد الذي حقيقته الكفر برب العالمين وتعطيله عن اسمائه

وصفاته وأفعاله، وهو قريب من توحيد الفلاسفة أو هو هو لكن التعبير اختلف، والشرك عند هؤلاء إثبات التباين بين الخالق والمخلوق، فجعلوا التوحيد شركًا والتعطيل حقًا.

ولما احتج المحتج عليهم فقال: فصوصكم تخالف القرآن فقال: القرآن كله شرك وإنما التحقيق في كلامنا.

فقاتل الله من عد هذه الطائفة من أمة محمد وهم برآء من جميع الأنبياء، ولا أظن أحدًا يعرف قولهم وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان فيرتاب في أمرهم ويعرف أنهم مباينون للدين كل المباينة.

وأما توحيد الجهمية: فقد تقدمت حكايته، والشرك عندهم إثبات صفات الله التي نطق بها الكتاب والسنة.

وأما توحيد الجبرية: فقد تقدم: أيضًا قولهم: إن العبد مجبور على أفعاله لا اختيار له فيها، وعندهم أن الله هو الفاعل للطاعات والمعاصي.

فهذه الأنواع المذكورة مع ما اشتملت عليه من الكفر بالله والتكذيب لأنبيائه وإبطال أمره وشرعه هي الأقوال الرائجة بين الناس المنصورة عند جماهير المتكلمين فاقرن بينها وبين توحيد الأنبياء والمرسلين تجد الفرق عظيمًا.

فصل
في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

فاسمع إذًا توحيد رسل الله ثم اجعله داخل كفة الميزان
مع هذه الأنواع وانظر أيها أولى لدى الميزان بالرجحان
توحيدهم نوعان قولي وفعلـ ـي كلاهما نوعيه ذو برهان
فالأول القولي ذو نوعين أيـ ـضًا في كتاب الله موجودان
إحداهما سلب وذا نوعان أيـ ـضًا [في كتاب الله][1] مذكوران

---

(١) كذا في (خ، س) أما في (ط) [فيه خطأ فيه] أما في (ق) [فيه].

سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ جَمِيعِهَا ... عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ مَعْقُولَانِ

سَلْبٌ لِمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا ... نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ أَنْتَ الثَّانِي

سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيـ ... ـعِ بِدُونِ إِذْنِ الْمَالِكِ[1] الدَّيَّانِ

وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ الَّذِي ... نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ

وَكَذَاكَ نَفْيُ الْكُفْءِ أَيْضًا وَالْوَلِيـ ... ـيِّ لَنَا سِوَى الرَّحْمَنِ ذِي الْغُفْرَانِ

وَالأَوَّلُ التَّنْزِيهُ لِلرَّحْمَنِ عَنْـ ... ـهُ وَصْفُ كُلِّ عُيُوبِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

كَالْمَوْتِ وَالإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي ... يَنْفِي الْفُتُورَ الْخَالِقَ الْمَنَّانَ[2]

وَالنَّوْمِ وَالسِّنَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُهُ ... وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنْهُ فِي الأَكْوَانِ

وَكَذَلِكَ الْعَجْزُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْـ ... ـمَتُهُ وَحَمْدُ اللهِ ذِي الإِلْقَانِ

وَكَذَاكَ تَرْكُ الْخَلْقِ إِهْمَالاً سُدًى ... لاَ يَعْقِلُونَ إِلَى مَعَادٍ ثَانِ

كَلاَّ وَلاَ أَمْرٌ وَلاَ نَهْيٌ عَلَيْـ ... ـهِمْ مِنْ إِلَهٍ قَادِرٍ دَيَّانِ

وَكَذَاكَ ظُلْمُ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَنِـ ... ـيُّ فَمَا لَهُ وَالظُّلْمُ لِلإِنْسَانِ

وَكَذَاكَ غَفْلَتُهُ تَعَالَى وَهُوَ عَلَّـ ... ـامُ الْغُيُوبِ فَظَاهِرُ الْبُطْلاَنِ

وَكَذَلِكَ النِّسْيَانُ جَلَّ إِلَهُنَا ... لاَ يَعْتَرِيهِ قَطُّ مِنْ نِسْيَانِ

وَكَذَاكَ حَاجَتُهُ إِلَى طُعْمٍ وَرِزْ ... قٍ وَهُوَ رَزَّاقٌ بِلاَ خُسْرَانِ

هَذَا وَثَانِي نَوْعَيِ السَّلْبِ الَّذِي ... هُوَ أَوَّلُ الأَنْوَاعِ فِي الأَوْزَانِ

تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَنِ التَّـ ... ـشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْكُفْرَانِ

لَيْسَتْ كَمِثْلِهِ وَصْفُهُ بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الأَوْثَانِ

كَلاَّ وَلاَ نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْهَيْمَانِ

مَنْ مَثَّلَ اللهَ الْعَظِيمَ بِخَلْقِهِ ... فَهُوَ الشَّبِيهُ لِمُشْرِكٍ نَصْرَانِي

أَوْ عَطَّلَ الرَّحْمَنَ عَنْ أَوْصَافِهِ ... فَهُوَ الْكَفُورُ وَلَيْسَ ذَا إِيمَانِ

---

(١) كذا في (ح، س، ق) وفي (ص) [الخالق]

(٢) كذا في (ح، س، ق) وفي (ص) [الديان]

شرح

وهذا هو التوحيد الحقيقي الصحيح.

وهو الذي لا يصدق على مسماه سواه؛ فإنه الاعتراف بتوحيد الباري بكل صفة كمال وجمال وجلال ومجد وحمد وعظمة وكبرياء، والعمل بمقتضى هذا من التعظيم الكامل لله والحب التام والخضوع له وإخلاص العمل له، فهو نوعان علمي اعتقادي وعملي.

وقدم المُصنف الاعتقادي؛ لأن التوحيد العملي يتفرع عنه ويقوى بقوته؛ ولأنه أكبر البراهين على توحيد الإلهية ووجوب إفراد الباري بالعبادة؛ ولأن معظم الخلاف مع أهل الكلام الباطل في هذا النوع.

وهذا النوع مبني على أصلين عظيمين:

أحدهما: تنزيه الباري وتقديسه عما لا يليق بجلاله وما ينافي كماله، وحاصل هذا النوع يعود إلى تنزيه الله عن مشاركة أحد من المخلوقين لله في شيء من صفات كماله أو في حق من حقوقه وخصائصه، وإلى حفظ صفات كماله عن أمور ثلاثة: عن تشبيهها بصفات المخلوقين، أو نفيها عن الله، أو نفي بعض معانيها.

فيعلم أن له الكمال المطلق الذي لا يُمكن التعبير عن عظمته وكنهه، وأن له من ذلك الكمال غايته ومنتهاه وأكمله فهو المُنزه عن الشريك والظهير والعوين والشفيع بلا أذنه، وهو الذي لَمْ يلد ولَمْ يولد ولَمْ يكن له كفوًا أحد، وهو المُنزه عن السِّنة والنوم والموت والتعب واللغوب، وأن يغيب عن سمعه وبصره أو علمه شيء، وهو المُنزه عن كل ما ينافي كماله وعظمته وجلاله.

فصل

في النوع الثاني من أنوع الأول وهو الثبوت

هَـذَا وَمِـنْ تَوْحِـيدِهِمْ إِثْـبَاتُ أَوْ ... صَـافِ الْكَمَـالِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

كَعُلُـوِّهِ سُـبْحَانَهُ فَـوْقَ السَّمَـا ... ـوَاتِ الْعُـلاَ بَـلْ فَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ

فَهُـوَ الْعَلِـي بِذَاتِـهِ سُـبْحَانَهُ ... إِذْ يَسْـتَحِيلُ خِـلاَفُ ذَا بِبَيَـانِ

وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ

حَيٌّ مُرِيدٌ قَادِرٌ مُتَكَلِّمٌ ... ذُو رَحْمَةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَانِ

هُوَ أَوَّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ ... هُوَ بَاطِنٌ هِيَ أَرْبَعٌ بِوِزَانِ

مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا بَعْدَهُ ... شَيْءٌ لَعَالِي اللهِ ذُو السُّلْطَانِ

مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا دُونَهُ ... شَيْءٌ وَذَا لِلْقَهْرِ ذِي الْبُرْهَانِ

فَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ بِتَدَبُّرٍ ... وَتَبَصُّرٍ وَلِعَقْلِ لِلْعَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْـ ... ـرِفَةٍ لِخَالِقِنَا الْعَظِيمِ الشَّانِ

وَهُوَ الْعَلِيُّ فَكُلُّ أَنْوَاعِ الْعُلُوْ ... وِ فَثَابِتَةٌ لَهُ بِلاَ نُكْرَانِ

وَهُوَ الْعَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التَّـ ... ـعْظِيمَ لاَ بِخَصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

وَهُوَ الْجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الْجَلاَ ... لِ لَهُ مُحَقَّقَةٌ بِلاَ بُطْلاَنِ

وَهُوَ الْجَمِيلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَيْفَ لاَ ... وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

مِنْ بَعْضِ آثَارِ الْجَمِيلِ فَرُبَّهَا ... أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي الْعِرْفَانِ

فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوْصَافِ وَالْـ ... أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ بِالْبُرْهَانِ

لاَ شَيْءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

وَهُوَ الْمَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْـ ... ـظِيمٍ فَشَأْنُ الْوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ

وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلاَنِ

وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ ... فَالسِّرُّ وَالإِعْلاَنُ مُسْتَوِيَانِ

وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ لاَ ... يُخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي

وَهُوَ الْبَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّـ ... ـوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرِ وَالصَّوَّانِ

وَيَرَى مَجَارِي الْقُوتِ فِي أَعْضَائِهَا ... وَيَرَى نِيَاطَ[1] عُرُوقِهَا بِعِيَانِ

وَيَرَى خَيَانَاتِ الْعُيُونِ بِلَحْظِهَا ... وَيَرَى كَذَا لَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

وَهُوَ الْعَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلاَنِ

وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ ... فَهُوَ الْمُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

---

(١) في (ق) [بياض].

وَكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا قَدْ كَانَ وَالْمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ
وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ـفَ يَكُونُ ذَا إِمْكَانِ

شرح

وهذا النوع هو المقصود الأعظم، وما مضى وسيلة وتتميم وحفظ لهذا النوع فإن جميع ما ينزه الله عنه فإنما ذات لأجل ثبوت ضده، وهذا النوع مبناه على إثبات جميع صفات الله الموجودة في الكتاب والسنة والأسماء الحسنى ومعانيها على وجهها والتفقه في معرفة معانيها والتحقيق بها تصديقا ومعرفة وتعبدا لله بها.

وكلما قويت هذه الأمور قوي التوحيد في القلب حتى يكون في قلوب العارفين الربانيين أعظم من الجبال الراوسي، وأطيب وأحل وألذ من كل اللذات.

وذلك بإثبات أنه العلي الأعلى بكل وجه واعتبار: علوّ الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، علو الذات هو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة، متكلم بأحكامه القدرية وتدبيراته الكونية وبأحكامه الشرعية.

وأما علو القدر فهو أن صفاته كلها صفات كمال، وله من كل وصف ونعت أكمله ونهايته، وأما علو القهر فهو قهره تعالى لجميع المخلوقات، فالعالم العلوي والسفلي كلهم خاضعون له، لعظمته مفتقرون إليه في كل شئونهم.

ومن أسمائه: الأول، والآخر والظاهر، والباطن وقد فسرها النبي ﷺ تفسيرًا كاملاً واضحًا فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1]، ففسر كل اسم بكل معناه، ونفى عنه كل ما يضاده، فمهما قدر المقدرون وفرض الفارضون من الأوقات السابقة المتسلسلة إلى غير نهاية فالله قبل ذلك، وكل وقت لاحق مهما قدر وفرض الله بعد ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

ولهذا لا يستحق اسم «واجب الوجود» إلا هو، فمن خصائصه أنه لا يكون إلا موجودًا كاملاً فلا يشاركه في وجوب الوجود أحد، فوجوب وجوده بنعوته الكاملة في جميع الأوقات، وهو الذي أوجد الأوقات وجميع الموجودات، وكلها مستندة في وجودها وبقائها إلى الله، فالأول والآخر يتضمنان إحاطته بجميع الأزمنة وجميع المخلوقات من كل وجه، والظاهر والباطن يقتضيان إحاطته بجميع الأمكنة وأنها تنتهي إلى الله في العلو والقرب، ولا منافاة بين الأمرين في حقه تعالى؛ لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فهو العلي في دنوه القريب في علوه.

ومن أسمائه الحسنى: «الكبير، العظيم، الجليل» وهو الذي له كل عظمة وكبرياء وجلال.

ومعاني العظمة نوعان:

أحدهما: أنه متصف بصفات المجد والعظمة والكبرياء.

والثاني: أنه يستحق أن يعظم غاية التعظيم، ويخضع العباد لجلاله وكبريائه وإخلاص المحبة والعبودية له.

ومن كماله عظمته تنزيهه عن كل صفة نقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من خلقه.

ومن أسمائه: «الجليل، الجميل» وما أحسن الجمع بينهما؛ فإن «الجليل» من له صفات الجلال والكبرياء والعظمة، و«الجميل» من له نعوت الحسن والإحسان؛ فإنه جميل في ذاته، وجمال المخلوقات بأسرها من آثار جماله، وهو الذي أعطاهم الجمال، فمعطي الجمال أحق بالجمال، وهو جميل في أسمائه؛ لأنها كلها حسنى، وجميل في صفاته؛ إذ كلها صفات كمال، وجميل في أفعاله فلا أحسن منه حكمًا ولا وصفًا.

فصل

وهو الحميد فكل حمد واقع ... أو كان مفروضًا مدى الأزمان

تملأ الوجود جميعه وتطيرة ... من غير ما عدد ولا حسبان

هو أهله سبحانه وبحمده ... كل المحامد وصف ذي الإحسان

شرح

ومن أسمائه العظيمة: «الحميد، المجيد» فالحمد كثرة الصفات والخيرات، والمجد عظمة

الصفات وسعتها، فهو الحَميد لكثرة صفاته الحُميدة، والمَجيد لعظمتها وعظمة ملكه وسلطانه، فهو يقارب الجَميع بين الجَليل والجَميل.

ومن أسمائه الحُسنى: «السميع، البصير» الذي يسمع جَميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فالسر عنده علانية والبعيد عنده قريب، ويرى دبيب النملة السوداء في جوف الصخور في الليالي المُظلمة وجريان القوت في أعضائها وعروقها الدقيقة الضئيلة، وسريان المَاء في أغصان الأشجار والنبات، ويرى خيانات الأعين، وما في أخفى الأمكنة.

ومن أسمائه الحُسنى: «العليم» الذي أحاط علمه بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لَمْ يكن لو كان كيف كان يكون.

ويعلم الواجبات والممتنعات والجَائزات وما أقطار العالم العلوي والسفلي: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾[1]، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾[2].

فصل

وَهُوَ الْمُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِنَكْـ ... ـلِيمِ الْخِطَابِ وَقَبْلَهُ الأَبَوَانِ
كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ وَالتَّـ ... ـعْدَادِ بَلْ عَنْ حَصْرِ ذِي الْحُسْبَانِ
لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ الْبِلَادِ جَمِيعَهَا الْـ ... ـأَقْلَامُ تَكْتُبُهَا بِكُلِّ بَنَانِ
وَالْبَحْرُ لِلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ لِكِتَابَةِ الْكَلِمَاتِ كُلَّ زَمَانِ
نَفِدَتْ وَلَمْ تَنْفَدْ بِهَا كَلِمَاتُهُ لَيْسَ الْكَلَامُ مِنَ الإِلَهِ بِفَانِ
وَهُوَ الْقَدِيرُ وَلَيْسَ يَعْجِزُهُ إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا قَطُّ ذُو سُلْطَانِ
وَهُوَ الْقَوِي لَهُ الْقُوَى جَمْعًا لَعَا لَيْسَ [رَبِّ ذِي الأَقْدَارِ وَالأَكْوَانِ][3]
وَهُوَ الْغَنِي بِذَاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا تِي لَهُ كَالْجُودِ وَالإِحْسَانِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ أَنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

---

(١) [الأنعام: ٥٩].

(٢) [طه: ٧].

(٣) كذا في (ح) وفي (ط) [اللهُ ذُو الأكوانِ والسُّلطانِ]، وفي (س) [رَبِّ ذِي الأكوانِ والأزمانِ]، وفي (ق) [رَبِّ ذِي الأكوانِ]

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ الْغَلَّابُ لَمْ ... يَلْحَقْهُ شَيْءٌ هٰذِهِ صِفَتَانِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... فَالْعِزُّ حَيْثُ تَلَاثُ مَعَنَانِ

وَهِيَ الَّتِي كَمُلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ عَادِمِ النُّقْصَانِ

وَهُوَ الْحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... نَوْعَانِ أَيْضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ

حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا ... نَوْعَانِ أَيْضًا ثَابِتَا الْبُرْهَانِ

وَالْحُكْمُ شَرْعِي وَكَوْنِي وَلَا ... يَتَلَازَمَانِ وَمَا هُمَا بِيَانِ

بَلْ ذَاكَ يُوجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا ... وَالْعَكْسُ أَيْضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ

لَنْ يَخْلُوَ الْمَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا ... أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ

لَكِنَّمَا الشَّرْعِي مَحْبُوبٌ لَهُ ... أَبَدًا وَلَنْ يَخْلُوَ مِنَ الْأَكْوَانِ

هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِي جَاءَتْ رُسْلُهُ ... بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ

لَكِنَّمَا الْكَوْنِي فَهُوَ قَضَاؤُهُ ... فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا ... وَالشَّأْنُ فِي الْمَقْضِي كُلِّ الشَّانِ

فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَنَسْخَطُ الْـ ... ـمَقْضِي حِينَ يَكُونُ بِالْعِصْيَانِ

فَاللهُ يَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَيَسْخَطُ الْـ ... ـمَقْضِي مَا الْأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ

فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِهِ قَامَتْ وَمَا الْـ ... ـمَقْضِي إِلَّا صَنْعَةُ الْإِنْسَانِ

[وَالْكَوْنُ مَحْبُوبٌ وَمَبْغُوضٌ لَهُ ... وَكِلَاهُمَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمٰنِ]

هٰذَا الْبَيَانُ بِزِبْدِ لُبِّ طَالَمَا ... هَلَكَتْ عَلَيْهِ النَّاسُ كُلَّ زَمَانِ

وَبِحَبْلِ مَا قَدْ عَقَّدُوا بِأُصُولِهِمْ ... وَبِحُولِهِمْ فَافْهَمْهُ فَهْمَ بَيَانِ

مَنْ وَافَقَ الْكَوْنِي وَافَقَ شَرْعَهُ ... أَوْ لَمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدَّيَّانِ

فَلِذَاكَ لَا يَعْدُوهُ ذَمٌّ أَوْ قَوْ ... تُ الْحَمْدِ مَعْ أَجْرٍ وَمَعْ رِضْوَانِ

وَمُوَافِقُ الدِّينِي لَا يَعْدُوهُ أَجْـ ... ـرٌ بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ

فصل

وَالْحِكْمَةُ الْعُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أَيْـ ... ـضًا حُصِّلَا بِقَوَاطِعِ الْبُرْهَانِ

إحداهما في خلقه سبحانه ... نوعان أيضاً ليس يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده ... في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له ... وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه ... أيضاً وفيها ذانك الوصفان
غاياتها الأتي حمدن وكونها ... في غاية الإتقان والإحسان

شرح

وهو تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا بكلماته الكونية والشرعية ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1]. صدقًا في الأخبار وعدلاً في أوامرها ونواهيها ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[2].

وكلامه تعالى نوعان: نوع بلا واسطة كما كلم الله موسى وآدم وحواء ومحمدًا ليلة المعراج ويكلم عباده في الآخرة وفي الجنة، ونوع بواسطة أنبيائه ورسوله.

ومن أسمائه: «القوي، العزيز، المتين، القدير» ومعانيها متقاربة تقتضي كمال قوته وعظمته وكبريائه فلا يملك الخلق نفعه فينفعونه ولا ضره فيضرونه، وكمال اقتداره على جميع الموجودات والمعدومات، وأن جميع العالم طوع قدرته ومشيته يتصرف فيها بما يشاء وكيف يشاء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[4]. وهي عزة الامتناع والقوة والقهر والغلبة، كلها قد كملت لله الواحد القهار من جميع الوجوه.

ومن أسمائه: «الغني» بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه فكل المخلوقات مفتقرة إليه في إيجادها وإعدادها وإمدادها في أمور دينها ودنياها في جلب

---

(١) [الأنعام: ١١٥].
(٢) [لقمان: ٢٧].
(٣) [يس: ٨٢].
(٤) [يونس: ٦٥].

المنافع ودفع المضار، وهو الذي أغناها وأقناها، ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولم يكن له كفوًا أحد، ومن سعة غناه أن جميع الخيرات والعطايا والنعم في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قطرة من بحر غناه وجوده وكرمه، فهو الغني بذاته المستغني عن جميع مخلوقاته، المغني لعباده بما أدره عليهم من الخيرات وأنزله من البركات.

ومن أسمائه الحسنى: «الحليم» وهو الذي يضع الأمور مواضعها اللائقة بها، وله الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وله الحكمة في شرعه والحكمة في قدره، فأحكامه الشرعية هي ما جاءت به الرسل، وهي متعلق رضاه ومحبته ومناط أمره ونهيه، والأحكام الكونية القدرية وهي جميع التدابير جليلها وصغيرها الواقعة في العالم العلوي والعالم السفلي، وقد يجتمع في حق المؤمن الحكمان إذا أطاع الله، وقد ينفرد الحكم القدري في وجود ما وجد من المعاصي والمباحات.

ولذلك يقال: من وافق الحكم الشرعي فقد وافق رضى الله تعالى ومحبتهن؛ فإن الله يحب المؤمنين والمتقين والصابرين؛ ومن وافق حكمه القدري فقط فإن كان معصية فله الذم والعقوبة؛ لمخالفته لأمر الله وتجرئة على معاصية، وإن كان مباحًا فلا له ولا عليه، ولكن قد يفوته من الخير ما هو بصدد فعله.

والقضاء صفة لله، والله لا يوصف إلا بكل وصف جميل، والمقضي فعل الإنسان وصنعته وهو ينقسم إلى محمود ومذموم ومباح فلذلك وجب التفصيل في الرضا بالقضاء، فالرضا بنفس ما يقدره ويرضاه بقطع النظر عن فعل العبد لازم، والرضا بالمقضي الذي هو فعل العبد فيه تفصيل بحسبه إن كان خيرًا تعين الرضاء به وإن كان شرًا تعين عدم الرضاء، فأحكام الرب القدرية والشرعية وكذلك أحكام الجزاء كلها متضمن هذا اسمه «الحكيم» وهو الذي له الحكم بين عباده الذي لا حاكم إلا هو بالحق والعدل والحمد وأما الحكمة فهي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها اللائقة بها، وهو تعالى قد أتقن ما صنعه وأحسن ما شرعه، فالمخلوقات كلها والشرائع مشتملات على الحكم والغايات الحميدة.

كما أنها في نفسها في غاية الإحكام، فمن أجل الغايات في ذلك أنه خلق الخلق وشرع

الأمر؛ ليعرف بأسمائه وصفاته، وليعبد وحده لا شريك له، ويحمد ويشكر ويثنى عليه، ويخلص له الدين، وكذلك ليبتلي عباده أيهم أحسن عملاً؛ وليجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، فالحكيم هو الحاكم بين عباده في أقداره وشرائعه وجزائه وكون أحكامه في نفسها جارية على الحكم والحق في أصلها وفرعها وغاياتها وثمراتها وتفصيل هذه الجمل كثير جدًا.

فصل

وهو الحي فليس يفتح عنه ... عند التخاطر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره ... فهو الستير وصاحب الغفران
وهو الحليم فلا يعاجل عنده ... بعقوبة لذنوب من عصيان
وهو العفو فعفوه وسع الورى ... لولاه غار الأرض بالسكان
وهو الصبور على أذى أعدائه ... شتموه بل نسبوه للبهتان
قالوا له ولد وليس بعبدنا ... شتمًا وتكذيبًا من الإنسان
هذا وذاك بسمعه وبعلمه ... لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعافيهم ويرزقهم وهم ... يؤذونه بالشرك والكفران

شرح

ومن أسمائه: «الحكيم، الحي، الستار، الصبور، العفو» وكل هذه الأسماء تتعلق بجرائم العباد وذنوبهم؛ فإنه تعالى الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، فكما أنه الجواد بإعطاء الخيرات ونيل المواهب والهبات والبركات فإنه الجواد بالحلم عن العاصين، والستر على المخالفين، والصبر على المحاربين له ولرسله المبارزين، العفو عن الذنوب، فالعباد يبارزونه بالعظائم وبما يغضبه، وهو تعالى يسدي إليهم النعم ويصرف عنهم النقم كأنهم لم يعصوه، ويعافيهم ويرزقهم كأنهم لم يزالوا يشكرونه، وكذلك لا يزالون ليتوبوا، ويذكرهم لينيبوا، والعبد يجاهره بالمخالفات والرب يستحيي من فضيحته ويسدل عليه ستره القدري وستره

الشرعي ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾[1].

هذا مع كمال غناه عنهم، وكمال قدرته عليهم، ونهاية حاجتهم وفقرهم إليه، واضطرارهم إليه في كل لحظة ونفس.

وفي الحديث الصحيح: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم»[2]. وفي الصحيحين مرفوعًا قال الله تعالى: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. أما تكذيبه إياي فقوله أن لي ولدًا وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. وأما شتمه أياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»[3].

هذا وهو تعالى يسمع ما يقولون ويعلم ما تكن صدروهم وما به يتفوهون، وهو يلاطفهم بنعمه، ويتحبب إليهم بكرمه، فياويح المعرضين عنه ماذا حرموا من الخيرات، ويا سعادة المنقطعين إليه ماذا ادخر لهم من الألطاف والكرامات، ويا بؤس العاصين ما أقل حياءهم وأعظم شقاءهم وأشد جرأتهم.

فصل

وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الْخَوَاطِرِ وَاللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بِالْأَفْعَالِ وَالْأَرْكَانِ

وَهُوَ الْحَفِيظُ عَلَيْهِمُ وَهُوَ الْكَفِيـ ... ـلُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِ

وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الْأُمُورِ بِخِبْرَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ

فَتَبَارَكَ عِزَّةً وَيَدِي لُطْفَهُ ... وَالْعَبْدُ فِي الْغَفَلَاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

شرح

ومن أسمائه الحسنى: «الشهيد، والرقيب» وهو المطلع على ما في الضمائر وأكنته السرائر

---

(١) [فاطر: ٤٥].

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٧٤).

ولحظته العيون وما اختفى في خبايا الصدور، فكيف الأقوال والأفعال الظاهرة.

ومقام الإحسان الذي هو مقام «المُراقبة» التعبد لله بهذين الاسمين الكريمين، وحفظ الخواطر أن تساكن مالا يُحب الاطلاع عليه.

ومن أسمائه: «الحَفيظ» وهو يتضمن شيئين: حفظه على العباد جميع ما عملوه بعمله وكتابته وأمره الكرام الكاتبين بحفظه، وحفظه لعباده من جميع المكاره والشرور، وأخص من هذا حفظه لخواص عباده الذين حفظوا وصيته وحفظوه بالغيب بحفظ إيمانهم من النقص والخلل، وحفظهم وحمايتهم من الخطأ والزلل، وحفظه عليهم دينهم ودنياهم قال النَّبي ﷺ «احفظ الله يَحفظك»[1]. أي احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده لا تتعدها، يَحفظك في دينك ودنياك.

ومن أسمائه الحُسنى: «اللطيف» الذي لطف علمه حَتَّى أدرك الخفايا والخبايا، وما احتوت عليه الصدور، وما في الأراضي من خفايا البذور.

ولطف بأوليائه وأصفيائه فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وسهل لَهم كل طريق يوصل على مرضاته وكرامته، وحفظهم من كل سبب ووسيلة توصل إلَى سخطه، ومن طرق يشعرون بها، ومن طرق لا يشعرون بها.

وقدر عليهم أمورًا يكرهونها لينيلهم ما يحبون، فلطف بهم في أنفسهم فأجراهم على عوائده الجميلة وصنائعه الكريمة، ولطف لَهم في أمور خارجة عنهم لَهم فيها كل خير وصلاح ونجاح، فاللطيف مقارب لمعاني الخبير الرؤف الكريم.

فصل

وَهُوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ ... يُعْطِيهِمُ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِي

وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِالـ ... ـدَّاعِي وَعَابِدِهِ عَلَى إِتْقَانِ

وَهُوَ المُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْ ... ـهُ أَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

وَهُوَ المُجِيبُ لِدَعْوَةِ المُضْطَرِّ إِذْ ... يَدْعُوهُ فِي بَرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه العلامة الألباني.

وهو الجواد فجوده عم الورى ... جميعه بالفضل والإحسان
وهو الجواد فلا يجب سائلاً ... ولو انه من أمة الكفران
وهو المجيب لكل مخلوقاته ... وكذا يجيب إغاثة اللهفان

شرح

ومن أسمائه: «الرفيق» في أفعاله وشرعه.

ومن تأمل ما احتوى عليه شرعه من الرفق وشرع الأحكام شيئًا بعد شيء وجريانها على وجه السداد واليسر ومناسبة العباد وما في خلقه من الحكمة؛ إذ خلق الخلق أطوارًا، ونقلهم من حالة إلى أخرى بحكم وأسرار لا تُحيط بها العقول، وهو تعالى يُحب من عباده أهل الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، ويسر من جرى على ما يُحبه أموره كلها.

والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقًا في أموره متأنيًا، ومع ذلك لا يفوّت الفرص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عرضت.

ومن أسمائه: «المُجيب» لجميع الداعين، وإجابة خاصة للمضطرين، وأخص من ذلك إجابته للمحبين الخاضعين لعظمته المُنكسرة قلوبهم من أجله، فأجابته تعالى عامة للمخلوقات برها وفاجرها، بأعطائهم ما سألوه بلسان المقال، وما احتاجوه بلسان الحال، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[1]، والإجابة المذكورة أسبابها في الكتاب والسنة كإجابته للمضطرين وللمحبين والوالد لولده والمُسافر والمريض ونحوهم.

ومن أسمائه: «المُغيث» وهو المُنقذ من الشدائد الفادحة والكروب ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[2].

ومن أسمائه الحُسنى: «الجواد الكريم، الوهّاب» الذي عم بجوده أهل السماء والأرض، فما بالعباد من نعمة فمنه، وهو الذي إذا مسهم الضر فإليه يرجعون، وبه يتضرعون، فلا يَخلو مخلوق من إحسانه طرفة عين، ولكن يتفاوت العباد في إفاضة الجُود عليهم بحسب ما منَّ الله به

---

(١) [إبراهيم: ٣٤].
(٢) [الأنعام: ٦٣].

عليهم من الأسباب المقتضية لجوده وكرمه، وأعظمها: تكميل عبودية الله الظاهرة والباطنة العلمية والعملية، القولية والفعلية والمالية، وتحقيقها باتباع مُحَمَّدٍ ﷺ في الحركات والسكنات.

فصل

وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ ... أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُو ... بِهِمْ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِ

هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حَقًّا لاَ مُعَا ... وَضَةٌ وَلاَ لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ

لَكِنْ يُحِبُّ شُكُورَهُمْ وَشُكُورُهُمْ ... لاَ لِاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ

وَهُوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضِيعَ سَعْيَهُمْ ... لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلاَ حُسْبَانِ

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ

كَلاَّ وَلاَ عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ ... إِنْ كَانَ بِالإِخْلاَصِ وَالإِحْسَانِ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ

شرح

ومن أسمائه الحُسنى: «الودود» بمعنى الواد وبمعنى المودود، فهو المحبوب لأنبيائه ورسله واتباعهم محبة لا يشبهها ولا يُماثلها شيء من المحابن كما أن محبوبهم ليس كمثله شيء في كماله، فلا يرون كمالا فَم ولا صلاحًا ولا فلاحًا إلا بمحبة ربهم، ومحبته في قلوبهم أحل من كل شيء وألذ من كل شيء، وبقوة محبته قاموا بعبوديته الظاهرة والباطنة، وروح العبودية هي المحبة وهو الذي وضع هذه المحبة في قلوبهم فأحبوه، وكل من كانت محبته أكمل كانت عبوديته لله أقوى وأتم يحبون ربهم لذاته ويحبونه لما قام به من صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، ويحبونه لما يغذوهم به من نعمة الظاهرة والباطنة، وخصوصًا أكبر النعم وهي نعمة الإسلام الخالص والإيمان الكامل، وهو تعالى يُحبهم لكمال إحسانه وسعة بره، بل حبهم لله تعالى يحبهم لكمال إحسانه وسعة بره، بل حبهم لله تعالى محفوف بحنين منه فَم: حب وضعه في قلوبهم فانقادوا له طوعًا واطمأنت به قلوبهم، ثُمَّ أحبهم جزاء حبهم، وكمل فَم محبته،

والفضل كله منه، والمِنّة لله أولا وأخيرًا، فمن تقرب منه شبرًا تقرب الله منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يَمشي أتاه الله هرولة، كما نطق به الصادق المُصدوق.

ومن أسمائه الحُسنى: «الشكور» وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بغير عد ولا حساب، ومن شكره أنه يجزي بالحَسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد يجزي الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الأجل وليس عليه حق واجب بمقتضى أعمال العباد، وإنّما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرمًا منه وجودًا والله لا يضيع أجر العاملين إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالى.

فصل

وَهُوَ الْغَفُورُ فَلَوْ أُتِي بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ الْعِصْيَانِ

لأَتَاهُ[1] بِالْغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الْغُفْرَانِ

وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولِهَا ... بَعْدَ الْمَتَابِ بِمِنَّةِ الْمَنَّانِ

شرح

ومن أسمائه الحُسنى: «الغفور، الغفار، التواب» الذي يغفر ذنوب التائبين، الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثُمَّ اهتدى، الرجاع لعباده بالخيرات وحلول البركات ومغفرة الذنوب وستر العيوب وتوبة العبد محفوفة بتوبتين من ربه تاب عليه أولا فاقبل بقلبه على التوبة والإنابة والرجوع، ثُمَّ تاب عليه ثانيًا بالقبول والجزاء والإحسان.

فصل

وَهُوَ الإِلَهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي ... صَمَدَتْ إِلَيْهِ الْخَلْقُ بِالإِذْعَانِ

---

(١) كذا في (خ، ط) أما في (ق، س) [لأتاه].

الْكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الْوُجُو ... هِ كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ
وَكَذَلِكَ الْقَهَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... فَالْخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَزِيزًا قَادِرًا ... مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَمِنْ سُلْطَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ لِمَعَانِ
جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلُّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ... ذَا كَسْرَةٍ فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانِ
وَالثَّانِ جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي ... لَا يَتَّقِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ
وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُلُوْ ... وُ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ
مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الْـ ... ـعُلْيَا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانِ

شرح

ومن أسمائه الْحُسنى: «الصمد» وهو الذي صمدت له المخلوقات بحاجاتها وملماتها الدقيقة والجليلة، وذلك لكمال عظمته وسعة جوده وسلطانه وعظمة صفاته.

ومن أسمائه: «القهار، الجبار» وهو القوي العزيز الذي قهر المخلوقات كلها، ودانت له الموجودات بأسرها.

ومن لوازم قهره أنه يقتضي أنه كامل الحياة والعلم والقدرة.

والجبار بمعنى القهار، وبمعنى أنه يجبر الكسير، ويغني الفقير، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله.

وهو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى المتكبر عن كل نقص وسوء ومثال.

فصل

وَهُوَ الْحَسِيبُ كِفَايَةً وَحِمَايَةً ... وَالْحَسْبُ كَافِي الْعَبْدِ كُلَّ أَوَانِ
وَهُوَ الرَّشِيدُ فَقَوْلُهُ وَفِعَالُهُ ... رُشْدٌ وَرُشْدُكَ مُرْشِدُ الْحَيْرَانِ
وَكِلَاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُهُ ... وَالْفِعْلُ لِلإِرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي
وَالْعَدْلُ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي فِعْلِهِ ... وَمَقَالِهِ وَالْحُكْمِ فِي الْمِيزَانِ

فَعَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَهُنَا قَوْلاً وَفِعْلاً ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

شرح

ومن أسمائه: «الحَسيب» بِمعنَى الرقيب المُحاسب لعباده المُتولي جزاءهم بالعدل والفضل، وبِمعنَى الكافي عبده همومه وغمومه.

وأخص من ذلك أنه الحَسيب للمتوكلين ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]. أي كافية أمور دينه ودنياه.

وهو «الرشيد» وهو الذي أقواله رشد، وأفعاله رشد، وهو مرشد الحَائرين فِي الطريق الحسي والضالين فِي الطريق المعنوي، فيرشد الخَلق بِمَا شرعه على ألسنة رسله من الهداية الكاملة ويرشد عبده المُؤمن، إذا خضع له وأخلص عمله وأرشده إِلَى جَميع مصالحه، ويسره لليسرى وجنبه العسري.

ومن أسمائه: «الحكم، العدل» الذي إليه الحكم فِي كل شيء، فيحكم تعالَى بشرعه، ويبين لعباده جَميع الطرق الَّتِي يَحكم بِهَا بين المُتخاصمين، ويفصل بين المُتنازعين. من الطرق العادلة الحكيمة، ويَحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويَحكم فيهم بأحكام القضاء والقدر، فيجري عليهم منها ما تقتضيه حكمته، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، ويقضي بينهم يوم الجَزاء والحَساب فيقضي بينهم بالحَق، ويَحمده الخَلائق على حكمه حَتَّى قضى عليهم بالعذاب يعترفون له بالعدل وأنه لَمْ يظلمهم مثقال ذرة.

فصل

هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ الْقُدُّوسِ ذُو التَّـ ـنْزِيهِ بِالتَّعْظِيمِ لِلرَّحْمَنِ

وَهُوَ السَّلَامُ عَلَى الْحَقِيقَةِ سَالِمٌ مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

وَالْبِرُّ فِي أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ هُوَ كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ وَالإِحْسَانِ

صَدَرَتْ عَنِ الْبِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ فَالْبِرُّ حِينَئِذٍ لَهُ نَوْعَانِ

---

(١) [الطلاق: ٣].

وَصْفٌ وَفِعْلٌ فَهْوَ بَرٌّ مُحْسِنٌ ... مُولِي الْجَمِيلِ وَدَائِمِ الإِحْسَانِ
وَكَذَلِكَ الْوَهَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... فَانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الأَزْمَانِ
أَهْلُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالأَرْضِ عَنْ ... تِلْكَ الْمَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ
وَكَذَلِكَ الْفَتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالْفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا ... وَالْفَتْحُ بِالأَقْدَارِ فَتْحٌ ثَانِ
وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلاً وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ
وَكَذَلِكَ الرَّزَّاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالرِّزْقُ مِنْ أَفْعَالِهِ نَوْعَانِ
رِزْقٌ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ... نَوْعَانِ أَيْضًا ذَانِ مَعْرُوفَانِ
رِزْقُ الْقُلُوبِ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ وَالرِّ ... زْقُ الْمُعَدُّ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ
هَذَا هُوَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ وَرَبُّنَا ... رَزَّاقُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ
وَالثَّانِ سَوْقُ الْقُوتِ لِلأَعْضَاءِ فِي ... تِلْكَ الْمَجَارِي سَوْقُهُ بِوِزَانِ
هَذَا يَكُونُ مِنَ الْحَلَالِ كَمَا يَكُو ... نُ مِنَ الْحَرَامِ كِلَاهُمَا رِزْقَانِ
وَاللهُ رَازِقُهُ بِهَذَا الاعْتِبَا ... رِ وَلَيْسَ بِالإِطْلَاقِ دُونَ بَيَانِ

شرح

ومن أسمائه: «القدوس، السلام» وهو المُعظم المُقدس عن كل عيب، السالم من كل نقص ومن أن يكون له مثل أو كفؤ أو نديد أو سمي، وذلك لكماله وكمال أسمائه الحُسنى وصفاته العلي.

ومن أسمائه: «الفتاح» وفتحه نوعان: فتح بأحكامه القدرية والشرعية والجزائية، وهو حكمه بين عباده، يشرع الشرائع، ويسن لعباده الأحكام والوسائل والطرق الَّتي يهتدون بِهَا إِلَى جَميع منافعهم ومصالحهم، ويَحكم بين الرسل وأتباعهم وبين أعدائه، فيكرم الرسل وأتباعهم فِي الدنيا والآخرة.

ويهين أعداءهم ويكون هذا أكبر دليل على أن هؤلاء على الحَق وأولئك على الباطل.

والنوع الثاني: فتحه لعباده الرحمة والبركات، قال تعالَى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا

مُسِيكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[1].

ويفتح لعبده المؤمن أبواب المعارف وحلاوة الإيمان وسرور اليقين وسهولة الطاعات وتيسير القربات. اللهم افتح علينا فتوحك على العارفين.

ومن أسمائه: «الرزاق» لجميع المخلوقات، فما من موجود في العالم العلوي والعالم السفلي إلا متمتع برزقه، مغمور بكرمه.

ورزقه نوعان:

أحدهما الرزق النافع الذي لا تبعة فيه: وهو موصل للعبد إلى أعلى الغايات، وهو الذي على يد الرسول ﷺ بهدايته وإرشاده.

وهو نوعان أيضًا: رزق القلوب بالعلوم النافعة والإيمان الصحيح، فإن القلوب لا تصلح ولا تفلح ولا تشبع حتى يحصل لها العلم بالحقائق النافعة والعقائد الصائبة، ثم التخلق بالأخلاق الجميلة والتنزه عن الأخلاق الرذيلة، وما جاء به الرسول كفيل بالأمرين على أكمل وجه، بل لا طريق لها إلا من طريقه.

والنوع الثاني: أن يغني الله عبده بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه والأول هو المقصود الأعظم وهذا وسيلة إليه ومعين له، فإذا رزق الله العبد العلم النافع والإيمان الصحيح والرزق الحلال والقناعة بما أعطاه الله منه فقد تمت أموره واستقامت أحواله الدينية والبدنية وهذا النوع من الرزق هو الذي مدحته النصوص النبوية واشتملت عليه الأدعية النافعة.

وأما النوع الثاني: وهو إيصال الباري جميع الأقوات التي تتغذى بها المخلوقات برها وفاجرها المكلفون وغيرهم فهذا قد يكون من المحرام كما يكون من الحلال.

وهذا فصل النزاع في مسألة هل الحرام يسمى رزقًا أم لا؟ فإن أريد النوع الأول وهو الرزق المطلق الذي لا تبعة فيه فلا يدخل في الحرام فإن العبد إذا سأل ربه أن يرزقه فلا يريد به إلا الرزق وهو النوع الثاني فهو داخل فيه فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها.

ومثل هذا يقال في النعمة والرحمة ونحوها.

---

(١) [فاطر: ٢].

فصل

هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ الْقَيُّـومُ وَالْـ ... ـقَيُّومُ فِـي أَوْصَـافِهِ أَمْـرَانِ
إِحْـدَاهُمَا الْقَيُّـومُ قَـامَ بِنَفْسِـهِ ... وَالْكَـوْنُ قَـامَ بِـهِ هُمَـا الأَمْـرَانِ
فَـالأَوَّلُ اسْـتِغْنَاؤُهُ عَـنْ غَـيْرِهِ ... وَالْفَقْـرُ مِـنْ كُـلٍّ إِلَيْـهِ الثَّـانِي
وَالْوَصْـفُ بِـالْقَيُّومِ ذُو شَـأْنٍ عَظِيـمٍ ... هَكَـذَا مَوْصُـوفُهُ أَيْضًـا عَظِيـمُ الشَّـانِ
وَالْحَـيُّ يَتْلُـوهُ فَأَوْصَـافُ الْكَمَـا ... لِ هُمَـا لأُفْـقِ سَـمَائِهَا قُطْبَـانِ
فَـالْحَيُّ وَالْقَيُّـومُ لَـنْ تَتَخَلَّـفَ الْـ ... أَوْصَـافُ أَصْـلاً عَنْهُمَـا بِبَيَـانِ
هُـوَ قَـابِضٌ هُـوَ بَاسِـطٌ هُـوَ خَـافِضٌ ... هُـوَ رَافِـعٌ بِالْعَـدْلِ وَالْمِيـزَانِ[1]
وَهُـوَ الْمُعِـزُّ لأَهْـلِ طَاعَتِـهِ وَذَا ... عِـزٌّ حَقِيقِـي بِـلاَ بُطْـلاَنِ
وَهُـوَ الْمُـذِلُّ لِمَـنْ يَشَـاءُ بِذِلَّـةِ الـدَّ ... ارَيْـنِ ذُلٌّ شَـقًا وَذُلٌّ هَـوَانِ
هُـوَ مَـانِعٌ مُعْـطٍ فَهَـذَا فَضْـلُهُ ... وَالْمَنْـعُ عَـيْنُ الْعَـدْلِ لِلْمَنَّـانِ
[يُعْطِـي بِرَحْمَتِـهِ وَيَمْنَـعُ مَـنْ يَشَـا ... ءُ بِحِكْمَـةٍ وَاللهُ ذُو سُـلْطَانِ]

فصل

وَالنُّـورُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ أَيْضًـا وَمِـنْ ... أَوْصَـافِهِ سُـبْحَانَ ذِي الْبُرْهَـانِ
قَـالَ ابْـنُ مَسْـعُودٍ كَلاَمًـا قَـدْ حَكَـا ... هُ الـدَّارِمِي عَنْـهُ بِـلاَ نُكْـرَانِ
مَـا عِنْـدَهُ لَيْـلٌ يَكُـونُ وَلاَ نَهَـا ... رٌ قُلْـتُ تَحْـتَ الْفُلْـكِ يُوجَـدُ ذَانِ
نُـورُ السَّـمَوَاتِ الْعُـلاَ مِـنْ نُـورِهِ ... وَالأَرْضُ كَيْـفَ النَّجْمُ وَالْقَمَـرَانِ
مِـنْ نُـورِ وَجْـهِ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلاَلُـهُ ... وَكَـذَا حَكَـاهُ الْحَـافِظُ الطَّبَرَانِـي
فِيـهِ اسْـتَنَارَ الْعَـرْشُ وَالْكُرْسِـي مَـعْ ... سَـبْعِ الطِّبَـاقِ وَسَـائِرِ الأَكْـوَانِ
وَكِتَابُـهُ نُـورٌ كَـذَلِكَ شَـرْعُهُ ... نُـورٌ كَـذَا الْمَبْعُـوثُ بِالْفُرْقَـانِ
وَكَـذَلِكَ الإِيمَـانُ فِـي قَلْـبِ الْفَتَـى ... نُـورٌ عَلَـى نُـورٍ مَـعَ الْقُـرْآنِ

---

(١) كذا في (خ، س، ق) أما في (ط) [وَالإِحْسَانِ].

وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كَشَفَ الْحِجَا ... بُ لَأَحْرَقَ السُّبُحَاتُ لِلْأَكْوَانِ
وَإِذَا أَتَى لِلْفَصْلِ يَشْرِقُ نُورُهُ ... فِي الْأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ
وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ الْعُلَا ... نُورٌ تَلَأْلَأَ لَيْسَ ذَا بُطْلَانِ
وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ وَوَصْـ ... ـفٌ مَا هُمَا وَاللهِ مُتَّحِدَانِ
وَكَذَلِكَ الْمَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَحْـ ... ـسُوسٌ وَمَعْقُولٌ هُمَا شَيْئَانِ
احْذَرْ تَزِلَّ فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ ... كَمْ قَدْ هَوَى فِيهَا عَلَى الْأَزْمَانِ
مِنْ عَابِدٍ بِالْجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ ... فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الدَّانِي
لَاحَتْ لَهُ أَنْوَارُ آثَارِ الْعِبَا ... دَةِ ظَنَّهَا الْأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ
فَأَتَى بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَبَلِيَّةٍ ... مَا شِئْتَ مِنْ شَطْحٍ وَمِنْ هَذَيَانِ
وَكَذَا الْحُلُولِيُّ الَّذِي هُوَ خِدْنُهُ ... مَنْ هَا هُنَا حَقًّا هُمَا أَخَوَانِ
وَيُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ وَالْـ ... ـحُجُبِ الْكَثِيفَةِ مَا هُمَا سِيَّانِ
ذَا فِي كَثَافَةِ طَبْعِهِ وَظَلَامِهِ ... وَبِظُلْمَةِ التَّعْطِيلِ هَذَا الثَّانِي
وَالنُّورُ مَحْجُوبٌ فَلَا هَذَا وَلَا ... هَذَا لَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ يَزْيَانِ

شرح

ومن أسمائه الحُسنى: «النور» فالنور وصفه العظيم، فأسماؤه حسنى، وصفاته أكمل الصفات، وأفعاله تعالى رحمة وحمد وحكمة، وهو نور السماوات والأرض، وبنوره استنارت قلوب المؤمنين، وبنوره استنارت جنات النعيم.

وحجابه نور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. والنور الذي هو وصفه من جملة نعوته العظيمة.

وأما النور المخلوق فهو نوعان: نور حسي كنور الشمس والقمر والكواكب وسائر المخلوقات المدرك نورها بالأبصار.

والثاني: نور معنوي وهو نور المعرفة والإيمان والطاعة، فإن لها نورًا في قلوب المؤمنين بحسب ما قام في قلوبهم من حقائق المعرفة ومواجيد الإيمان وحلاوة الطاعة وسرور المحبة.

وهذا النور هو الذي يَمنع صاحبه من المَعاصي ويَجذبه إلى الخَير ويدعوه إلى كمال الإخلاص لله ولِهذا كان من دعاء النَّبي ﷺ: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا ومن بين يدي نورًا ومن خلفي نورًا وفوقي نورًا وتحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا وزدني نورًا»[1].

وهذا النور الذي يعطيه الله عبده أعظم منة منه عليه، وهو أصل الخَير، وهذا النور مهما ترى فإنه مَخلوق، فإياك أن تضعف بصيرتك ويقل تَمييزك وعلمك فتظن هذا النور نور العيان ومشاهدة القلب لنور الذات المُقدسة، وإنَّما هو نور المَعرفة والإيمان، ويبتلي بهذا بعض الصوفية الذين ترد عليهم الواردات القوية فيقع منهم من الشطح والخَلط ما ينافي العلم والإيمان، كما أن كثيف الطبع جافي القلب قد تراكمت عليه الظلمات وتوالت عليه الغفلات فلم يكن له من هذا النور حظ ولا نصيب، بل ربَّما أزدري من سفاهة عقله وقلة وجده هذه الأحوال وزهد فيها، فمتى منَّ الله على العبد بمعرفة صحيحة متلقاة من الكتاب والسنة وتفقه في أسمَاء الله وصفاته وتعبد لله بها واجتهد أن يُحقق مقام الإحسان فيعبد الله كأنه يراه فإن لَمْ يكن يراه فإنه يراه وهج بذكر الله تعالى استنار قلبه وحصل له من لذة المَعرفة ومواجيد الإيمان أعظم اللذات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فصل

وَهُوَ الْمُقَدَّمُ وَالْمُؤَخَّرُ ذَانِكَ الصْـ ـفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ
وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا بِالذَّاتِ لاَ بِالْغَيْرِ قَائِمَتَانِ
وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنْـ ـنَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ
إِنْ لَمْ يَرِدْ هَذَا وَلَكِنْ قَدْ أَرَا دَ بِهَا بِالْفِعْلِ ذِي الإِمْكَانِ
وَالْفِعْلُ وَالْمَفْعُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ عِنْدَ الْمُقَسِّمِ مَا هُمَا شَيْئَانِ

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).
قال العلامة الألباني في المشكاة (١١٩٥) لفظه:
«اللهم اجعل في قلبي نورا وفي بصري نورا وفي سمعي نورا وعن يميني نورا وعن يساري نورا وفوقي نورا وتحتي نورا وأمامي نورا وخلفي نورا واجعل لي نورا، وزاد بعضهم وفي لساني نورا وذكر وعصبي ولحمي ودمي وشعري وبشري». وفي رواية فيما واجعل في نفسي نورا وأعظم لي نورا وفي آخرى لمسلم اللهم أعطني نورا.

فَلِذَاكَ وَصْفُ الْفِعْلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْـ ... ـلاَ نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ بِبَيَانِ
فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الْفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْـ ... ـسَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِ
مَوْجُودَةٌ لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا ... نِسَبٌ تُرَى عَدَمِيَّةَ الْوِجْدَانِ
هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلأَفْعَالِ كَالتَّـ ... ـعْطِيلِ لِلأَوْصَافِ بِالْمِيزَانِ
فَالْحَقُّ أَنَّ الْوَصْفَ لَيْسَ بِمَوْرِدِ التَّـ ... ـقْسِيمِ هَذَا مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ
بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذَّ ... ذَاتِ الَّتِي لِلْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ
فَهُمَا إِذًا نَوْعَانِ أَوْصَافٌ وَأَفْـ ... ـعَالٌ فَهَذِي قِسْمَةُ التِّبْيَانِ
فَالْوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا ... مَ الْفِعْلِ بِالْمَوْصُوفِ بِالْبُرْهَانِ
كَالْوَصْفِ بِالْمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ مَا ... إِنْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى ... مَنْ أَثْبَتَ الأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانِ
قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا ... لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ
وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الْفِعْلِ[1] قَا ... لُوا لَمْ تَقُمْ بِالْوَاحِدِ الدَّيَّانِ
فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الأَصْلَ الَّذِي ... رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَهُمْ بِوِزَانِ
إِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فَكَذَاكَ قَوْ ... لُ خُصُومِكُمْ أَيْضًا فَذُو إِمْكَانِ
وَالْوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَوْ ... نِي وَدِينِي هُمَا نَوْعَانِ
وَكِلاَهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِي وَنِسْـ ... ـبِي وَلاَ يَخْفَى [الْمَثَالُ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ][2]
وَاللهُ قَدَّرَ ذَاكَ أَجْمَعَهُ بِإِحْـ ... ـكَامٍ وَإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

فصل

هَذَا وَمِنْ أَسْمَائِهِ مَا لَيْسَ يَفْـ ... ـرَدُ بَلْ يُقَالُ إِذَا أَتَى بِقِرَانِ
وَهِيَ الَّتِي تُدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَا ... إِفْرَادُهَا خَطَرٌ عَلَى الإِنْسَانِ
إِذْ ذَاكَ مُوهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ جَلَّ رَبْـ ... ـبُ الْعَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

---

(١) كذا في (خ، س، ق) أما في (ط) [الْعَقْلِ].

(٢) كذا في (خ) أما في (ط) [عَلَى الأَذْهَانِ] وفي (ق) [الْمِثَالُ عَلَى أُولِي الأَذْهَانِ].

كالمانع المعطي وكالضار الذي هو نافع وكمالة الأمران
ونظيرُ هذا القابضُ الباسطُ اللفظان مقترنان
وكذا المعزُّ مع المذلِّ وخافضٌ مع رافعٍ لفظان مزدوجان
وحديثُ إفراد اسم منتقم فلو كما قد قال ذو العرفان
ما جاء في القرآن غير مقيد بالمجرمين وجا بذو لوعان

شرح

ومن أسمائه الحُسنى: «المُقدم، والمؤخر، المُعطي، المانع، الضار، النافع، الخافض، الرافع» من أسمائه الحُسنى ما يؤتى به مفردًا ويؤتى به مقرونًا مع غيره وهو أكثر الأسماء الحُسنى، فيدل ذلك على أن الله كمالا من إفراد كل من الاسمين فأكثر وكمال من اجتماعهما أو اجتماعها.

ومن أسمائه ما لا يؤتى به إلَّا مع مقابلة الاسم الآخر؛ لأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما، وذلك مثل هذه الأسماء، وهي متعلقة بأفعاله الصادرة عن إرادته النافذة وقدرته الكاملة وحكمته الشاملة، فهو تعالَى المُقدم في الزمان والمكان والأوصاف الحسية، والمُقدم في الفضائل والأوصاف المعنوية، والمؤخر لمن شاء في ذلك المُعطي من شاء من القوة والقوى الحسية والعقل والمعارف والكمالات المتنوعة، المانع لمن يشاء ممَّن لا يستحق ذلك وهو تعالَى النافع لمن شاء من عباده بالمنافع الدينية والدنيوية، الضار لمن فعل الأسباب التي توجب ذلك، وكل ذلك تبع لحكمته وسننه الكونية وللأسباب التي جعلها موصلة إلَى مسبباتها، فإن الله تعالَى جعل مقاصد للخلق وأمورًا محبوبة في الدين والدنيا، وجعل لها أسبابًا وطرقًا، وأمر بسلوكها ويسرها لعباده غاية التيسير، فمن سلكها أوصلته إلَى المقصود النافع، ومن تركها أو ترك بعضها أو فوَّت كمالها أو أتاها على وجه ناقص ففاته الكمال المطلوب فلا يلومن إلا نفسه، وليس له حجة على الله، فإن الله أعطاه السمع والبصر والفؤاد والقوة والقدرة وهداه النجدين وبين له الأسباب والمسببات ولم يَمنعه طريقًا يوصل إلَى خير ديني ولا دنيوي، فتخلفه هذه الأمور يوجب أن يكون هو الملوم عليها المذموم على تركها.

واعلم أن صفات الأفعال التي منها هذه الأسماء كلها متعلقة وصادرة عن هذه الصفات الثلاثة: القدرة الكاملة، والمشيئة النافذة، والحكمة الشاملة التامة.

وهي كلها قائمة بالله، الله متصف بها، وآثارها ومقتضياتها جميع ما يصدر عنها في الكون كله من التقديم والتأخير والنفع والضر والعطاء والحرمان والخفض والرفع، لا فرق بين محسوسها ومعقولها، ولا بين دينيها ودنيويها.

فهذا معنى كونها أوصاف أفعال لا كما ظنه أهل الكلام الباطل أن الفعل هو عين المفعول، وأنه لم يقم بالله منها وصف، فهذا مخالف للعقل والنقل، وقول متناقض في نفسه؛ فإن الآثار تدل على المؤثر كما أن الوصف يدل على الأثر، فهما شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، دل الكتاب والسنة والعقل على ذلك، فمن فرق بينهما فأثبت المفعول ونفى الفعل فقوله غير معقول ولا منقول.

واعلم أن الأفعال الاختيارية للباري نوعان: نوع متعلق بذاته المقدسة كالاستواء على العرش والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا والمجيء والإتيان ونحوها، ونوع متعلق بالمخلوقات كالخلق والرزق والعطاء والمنع وأنواع التدابير الكونية والشرعية والله أعلم.

فصل

وَدِلَالَةُ الأَسْمَاءِ أَنْوَاعٌ ثَلَا ... ثٌ كُلُّهَا مَعْلُومَةٌ بِبَيَانِ

ذَلَّتْ مُطَابَقَةً كَذَاكَ تَضَمُّنًا ... وَكَذَا الْتِزَامًا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

أَمَّا مُطَابَقَةُ الدِّلَالَةِ فَهِيَ أَنْ ... الِاسْمَ يَفْهَمُ مِنْهُ مَفْهُومَانِ

ذَاتُ الإِلَهِ وَذَلِكَ الْوَصْفُ الَّذِي ... يَشْتَقُّ مِنْهُ الِاسْمُ بِالْمِيزَانِ

لَكِنْ دِلَالَتُهُ عَلَى إِحْدَاهُمَا ... بِتَضَمُّنٍ فَالْفَهْمُ فَهْمُ بَيَانِ

وَكَذَا دِلَالَتُهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي ... مِنَ الِاشْتِقَاقِ مِنْهَا فَالْتِزَامٌ ذَانِ

وَإِذَا أَرَدْتَ لِهَذَا مِثَالًا بَيِّنًا ... فَمِثَالُ ذَلِكَ لَفْظَةُ الرَّحْمَنِ

ذَاتُ الإِلَهِ وَرَحْمَةٌ مَدْلُولَهَا ... فَهُمَا لِهَذَا اللَّفْظِ مَدْلُولَانِ

إِحْدَاهُمَا بِمُطَابَقٍ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ فَهْـ ... ـيَ تَضَمُّنٌ ذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

لَكِنْ وَصْفُ الْحَيِّ لَازِمُ ذَلِكَ الْـ ... ـمَعْنَى لُزُومَ الْعِلْمِ لِلرَّحْمَنِ

فَلِـــذَا دَلَالَتُـــهُ عَلَيْـــهِ بِـــالْتِزَا ... مِ بَـــيِّنٍ وَالْحَـــقُّ ذُو تِبْـــيَانِ

شرح

أسمائه الله كلها حسنى، وكلها تدل على الكمال المُطلق والحَمد المُطلق، وكلها مشتقة من أوصافها، فالوصف فيها لا ينافي العلمية، والعلمية لا تنافي الوصف.

ودلالتها ثلاثة أنواع: دلالة مطابقة إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله، ودلالة تضمن إذا فسرناه ببعض مدلوله، ودلاله التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسْمَاء الَّتِي يتوقف هذا الاسم عليها فمثلا «الرحمن» دلالته على الرحمة والذات دلالة مطابقة، وعلى أحداهما دلالة تضمن؛ لأنَّها داخلة في الضمن، ودلالته على الأسْمَاء الَّتِي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحَياة والعلم والإرادة والقدرة ونَحوها دلالة التزام، وهذه الاخيرة تَحتاج إِلَى قوة فكر وتأمل، ويتفاوت فيها أهل العلم، فالطريق إِلَى معرفتها أنك إذا فهمت اللفظ وما يدل عليه من المُعنَى وفهمته فهما جيدًا ففكر فيما يتوقف عليه ولا يتم بدونه، وهذه القاعدة تنفعك في جَميع النصوص الشرعية، فدلالاتها الثلاث كلها حجة، لأنَّها معصومة مُحكمة.

فصل

في بيان حقيقة الإلحاد في أسْماء رب العالمين

وذكر انقسام الملحدين

أَسْـــمَاؤُهُ أَوْصَـــافُ مَـــدْحٍ كُلُّهَـــا ... مُشْـــتَقَّةٌ قَـــدْ حُمِّلَـــتْ لِمَعَـــانِ

إِيَّـــاكَ وَالْإِلْحَـــادَ فِيهَـــا إِنَّـــهُ ... كُفْـــرٌ مَعَـــاذَ اللهِ مِـــنْ كُفْـــرَانِ

وَحَقِيقَـــةُ الْإِلْحَـــادِ فِيهَـــا الْمَيْـــلُ بِالْـــ ... إِشْـــرَاكِ وَالتَّعْطِيـــلِ وَالنُّكْـــرَانِ

فَالْمُلْحِـــدُونَ إِذًا ثَـــلَاثُ طَوَائِـــفٍ ... فَعَلَـــيْهِمُ غَضَـــبٌ مِـــنَ الـــرَّحْمَنِ

الْمُشْـــرِكُونَ لِأَنَّهُـــمْ سَـــمَّوْا بِهَـــا ... أَوْثَـــانَهُمْ قَـــالُوا إِلَـــهٌ ثَـــانِ

هُـــمْ شَـــبَّهُوا الْمَخْلُـــوقَ بِـــالْخَلَّاقِ عَكْـــ ... ـــسَ مُشَـــبِّهِ الْخَـــلَّاقِ بِالْإِنْسَـــانِ

وَكَـــذَاكَ أَهْـــلُ الْإِلْحَـــادِ فَـــإِنَّهُمْ ... إِخْـــوَانُهُمْ مِـــنْ أَقْـــرَبِ الْإِخْـــوَانِ

أَعْطُوا الْوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ ... إِذْ كَانَ عَيْنَ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ
وَالْمُشْرِكُونَ أَقَلُّ شِرْكًا مِنْهُمُ ... هُمْ خَصَّصُوا ذَا الاسْمَ بِالأَوْثَانِ
وَلِذَاكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكٍ عِنْدَهُمْ ... لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ
وَالْمُلْحِدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ ... يَنْفِي حَقَائِقَهَا بِلَا بُرْهَانِ
مَا ثَمَّ غَيْرُ الاسْمِ أَوَّلَهُ بِمَا ... يَنْفِي الْحَقِيقَةَ نَفْيَ ذِي بُطْلَانِ
فَالْقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الْحَقِيـ ... ـقَةِ فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ
عَطِّلْ وَحَرِّفْ ثُمَّ أَوِّلْ وَانْفِهَا ... وَاقْذِفْ بِتَجْسِيمٍ وَبِالْكُفْرَانِ
لِلْمُثْبِتِينَ حَقَائِقَ الأَسْمَاءِ وَالْـ ... أَوْصَافِ بِالأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ ... هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِ
فَإِذَا غُلِبْتَ عَنِ الْمَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ ... لَا يَسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ
أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ
فَإِذَا تَضَافَرَتِ الأَدِلَّةُ كَثْرَةً ... وَغُلِبْتَ عَنْ تَقْرِيرِ ذَا بِبَيَانِ
فَعَلَيْكَ حِينَئِذٍ بِقَانُونٍ وَضَعْـ ... ـنَاهُ لِدَفْعِ أَدِلَّةِ الْقُرْآنِ
وَلِكُلِّ نَصٍّ لَيْسَ يَقْبَلُ أَنْ يُؤَوْ ... وَلَ بِالْمَجَازِ وَلَا بِمَعْنًى ثَانِ
قُلْ عَارَضَ الْمَنْقُولَ مَعْقُولٌ وَمَا الْـ ... أَمْرَانِ عِنْدَ الْعَقْلِ يَتَّفِقَانِ
مَا ثَمَّ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَعٍ ... مُتَقَابِلَاتٍ كُلُّهَا بِمَوَازِنِ
إِعْمَالُ ذَيْنِ وَعَكْسُهُ أَوْ تُلْغِي الْـ ... ـمَعْقُولَ مَا هَذَا بِذِي إِمْكَانِ
الْعَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ ... تُبْطِلْهُ يَبْطُلْ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي
فَتَعَيَّنَ الإِعْمَالُ لِلْمَعْقُولِ وَالْـ ... إِلْغَاءُ لِلْمَنْقُولِ ذِي الْبُرْهَانِ
إِعْمَالُهُ يَفْضِي إِلَى إِلْغَائِهِ ... فَاهْجُرْهُ هَجْرَ التَّرْكِ وَالنِّسْيَانِ
وَاللهِ لَمْ نَكْذِبْ عَلَيْهِمْ إِنَّنَا ... وَهُمُ لَدَى الرَّحْمَنِ مُخْتَصِمَانِ
وَهُنَاكَ يَجْزِي الْمُلْحِدُونَ وَمَنْ نَفَى الْـ ... إِلْحَادَ يَجْزِي ثَمَّ بِالْغُفْرَانِ
فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ ... يَا مُثْبِتَ الأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ
فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ... ـنِي الْغَيْرُ وِزْرَ الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

فَسَائِلْهُمْ وَسَائِلْهُمْ عَنِ الْـ ... إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بَعْدَ زَمَانِ
فَأَعِدْ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا ... عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تِبْيَانِ
هَذَا وَسَائِلْهُمْ فَإِنَّهُمَا وَلَا ... فِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْبُهْتَانِ
ذَا جَاحِدُ الرَّحْمَنِ رَأْسًا لَمْ يُقِرْ ... رَ بِخَالِقٍ أَبَدًا وَلَا رَحْمَنِ
هَذَا هُوَ الإِلْحَادُ فَاحْذَرْهُ لَعَلْـ ... ـلَ اللهُ أَنْ يُنْجِيكَ مِنْ بُهْتَانِ
وَتَفُوزَ بِالرُّؤْيَا لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الْـ ... ـمَأْوَى مَعَ الْغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ
لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الْوَرَى ... فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الْحُسْبَانِ (١)
أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الْـ ... ـغُرَبَاءُ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانِ
قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ ... وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ
مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ ... وَمُحَارِبٍ بِالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ
وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمُ وَمَا ... ذُقْتَ الأَذَى فِي نُصْرَةِ الرَّحْمَنِ
كَلَّا وَلَا جَاهَدْتَ حَقَّ جِهَادِهِ ... فِي اللهِ لَا بِيَدٍ وَلَا بِلِسَانِ
فَتَبَيَّنْ وَاللهِ الْمُحَالَ النَّفْسُ فَاسْـ ... ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ
لَوْ كُنْتَ وَارِثَهُ لَآذَاكَ الأُلَى ... وَرِثُوا عِدَاهُ بِسَائِرِ الأَلْوَانِ

شرح

وهذا الفصل في نفي الإلحاد في أسمَاء الله وصفاته من تمام إثبات صفات الكمال وتفرد الرب بنعوت العظمة والجلال، فعلى العبد المؤمن أن يحققها علمًا وتعبدًا لله بها ونفيا للإلحاد فيها.

وحقيقة الإلحاد فيها هو الميل بها عن الاستقامة إما بإثبات المشاركة فيها لأحد من الخلق، كإلحاد المشركين الذين اشتقوا لآلهتهم من صفات الله ما لا يصلح إلا لله، كتسميتهم باللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان وكل مشرك تعلق بمخلوق اشتق لمعبوده من خصائص الربوبية والإلهية ما برر له عبادته.

---

(١) كذا في (ح، س، ق) أما في (ط) [الحُسْبَان].

وأعظم الخلق إلحادا طائفة الاتحادية الذين من قولهم أن الرب عين المربوب، فكل اسم ممدوح أو مذموم يطلق على الله عندهم، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرًا.

وإما نفي صفات الله وإثبات أسمائه لا حقيقة لها كما فعل الجهمية ومن تفرع عنهم، وإما بجحدها وإنكارها رأسا إنكارًا لوجود الله كما فعل زنادقة الفلاسفة فهؤلاء الملحدون قد انحرفوا عن الصراط المستقيم ويمموا طرق الجحيم.

فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

هذا وثاني نوعي التوحيد لو ... جد العبادة منك للرحمن
ألا تكون لغيره عبدا ولا ... تعبد بغير شريعة الإيمان
فتقوم بالإسلام والإيمان وال ... إحسان في بر وفي إعلان
والصدق والإخلاص ركنا ذلك الت ... توحيد كالركنين للبنيان
وحقيقة الإخلاص توحيد المرا ... د فلا يزاحمه مراد ثان
لكن مراد العبد يبقى واحدا ... ما فيه تفريق لدى الإنسان
إن كان ربك واحدا سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان
أو كان ربك واحدا أشراك لم ... يشركه إذ أشراك رب ثان
فكذاك أيضا واحدة فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ ... ل الجهد لا كسلا ولا متوان
والسنة المثلى لسالكها فتو ... حيد الطريق الأعظم السلطاني
فلو احد كن واحدا في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان
هذي ثلاث معدات للذي ... قد نالها والفضل للمنان
فإذا هي اجتمعت لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان
لله قلب شام هاتيك الربو ... ق من الحيام فهم بالطيران
لولا التعلل بالرجاء لصدعت ... أشواقه كتصدع البنيان

وَالْمَرْءُ يَبْسُطُهُ الرَّجَاءُ فَيَنْثَنِي ... مُتَمَايِلاً كَتَمَايُلِ النَّشْوَانِ

وَيَعُودُ بَعْدَ بَيْضَةِ الإِيمَانُ لِكَوْنِهِ ... مُتَخَلِّقًا عَنْ رِقَّةِ الإِحْسَانِ

فَالمَرْءُ بَيْنَ القَبْضِ وَالبَسْطِ الَّذِي ... مِنْ هُمَا لأَفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ

وَبِذَا لَهُ سَعْدُ السُّعُودِ فَصَارَ مِنْ ... سُرَرَاةِ عَلَيْهِ لاَ عَلَى الدَّبَرَانِ

لله ذَيْلَكَ القَرِيقَ فَإِنَّهُمْ ... خُصُّوا بِخَالِصَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

شُدَّتْ رَكَائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُودِهِمْ ... وَرَسُولِهِ يَا خَيْبَةَ الكُسْلاَنِ

فصل

وَالشِّرْكُ فَاحْذَرْهُ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ... ذَا القِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الغُفْرَانِ

وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَي ... يَا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ

يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ ... وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

وَاللهُ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ فِي ... خَلْقٍ وَلاَ رِزْقٍ وَلاَ إِحْسَانِ

فَاللهُ عِنْدَهُمُ هُوَ الخَلاَّقُ وَالـ ... ـرَّزَّاقُ مُولِي الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

لَكِنَّهُمْ سَاوَوْهُمُ بِاللهِ فِي ... حُبٍّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إِيمَانِ

جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا ... جَعَلُوا المَحَبَّةَ قَطُّ لِلرَّحْمَنِ

لَوْ كَانَ حُبُّهُمُ لأَجْلِ اللهِ مَا ... عَادَوْا أَحِبَّتَهُ عَلَى الإِيمَانِ

وَلَمَا أَحَبُّوا سُخْطَهُ وَتَجَنَّبُوا ... مَحْبُوبَهُ وَمَوَالِيَ الرَّحْمَنِ

شَرْطُ المَحَبَّةِ أَنْ تُوَافِقَ مَنْ تُحِبْ ... بَ عَلَى مَحَبَّتِهِ بِلاَ عِصْيَانِ

فَإِذَا ادَّعَيْتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَعْ خِلاَ ... فِكَ مَا يُحِبُّ فَأَنْتَ ذُو بُهْتَانِ

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيبِ وَتَدَّعِي ... حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ

وَكَذَا مُعَادِي جَاهِدًا أَحْبَابَهُ ... أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ

لَيْسَ العِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيدِ المَحَبَّ ... بَةِ مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ وَالأَرْكَانِ

وَالحُبُّ نَفْسٌ وِفَاقُهَ فِيمَا يُحِبْ ... بُ وَبُغْضُ مَا لاَ يَرْتَضِي بِحَنَانِ

وَوِفَاقُهَ نَفْسُ اتِّبَاعِكَ أَمْرَهُ ... وَالقَصْدُ وَجْهُ اللهِ ذِي الإِحْسَانِ

هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ شَرْطٌ فِي قَبُو ... لِ السَّعْيِ فَافْهَمْهُ مِنَ الْقُرْآنِ
وَالاتِّبَاعُ بِدُونِ شَرْعِ رَسُولِهِ ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَأَبْطَلُ الْبُطْلَانِ
فَإِذَا نَبَذْتَ كِتَابَهُ وَرَسُولَهُ ... وَتَبِعْتَ أَمْرَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ
وَتَخِذْتَ أَنْدَادًا تُحِبُّهُمُ كَحُبْ ... بِ اللهِ كُنْتَ مُجَانِبَ الإِيمَانِ
وَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ يَدَّعِي الْـ ... إِسْلَامَ شِرْكًا ظَاهِرَ التِّبْيَانِ
جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَالَوْهُمْ وَسَوْ ... وَوْهُمْ بِهِ فِي الْحُبِّ لَا السُّلْطَانِ
وَاللهِ مَا سَاوَوْهُمْ بِاللهِ بَلْ ... زَادُوا لَهُمْ حُبًّا بِلَا كِتْمَانِ
وَاللهِ مَا غَضِبُوا إِذَا انْتَهَكَتْ مَحَا ... رِمُ رَبِّهِمْ فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ
حَتَّى إِذَا مَا قِيلَ فِي الْوَثَنِ الَّذِي ... يَدْعُونَهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ
فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَضَبٍ وَمِنْ ... حَرْبٍ وَمِنْ شَتْمٍ وَمِنْ عُدْوَانِ
وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ وَتَعْـ ... ـزِيرٍ وَمِنْ سَبٍّ وَمِنْ تَسْجَانِ
وَاللهِ لَوْ عَطَّلْتَ كُلَّ صِفَاتِهِ ... مَا قَابَلُوكَ بِبَعْضِ ذَا الْعُدْوَانِ
وَاللهِ لَوْ خَالَفْتَ نَصَّ رَسُولِهِ ... نَصًّا صَرِيحًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ
وَتَبِعْتَ قَوْلَ شُيُوخِهِمْ أَوْ غَيْرِهِمْ ... كُنْتَ الْمُحَقِّقَ صَاحِبَ الْعِرْفَانِ
حَتَّى إِذَا خَالَفْتَ آرَاءَ الرِّجَا ... لِ لِسُنَّةِ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
نَادَوْا عَلَيْكَ بِبِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ ... قَالُوا وَفِي تَكْفِيرِهِ قَوْلَانِ
قَالُوا تَنَقَّصْتَ الْكِبَارَ وَسَائِرَ الْـ ... ـعُلَمَاءِ بَلْ جَاهَرْتَ بِالْبُهْتَانِ
هَذَا وَلَمْ تَسْلُبْهُمُ حَقًّا لَهُمْ ... لِيَكُونَ ذَا كَذِبٍ وَذَا عُدْوَانِ
وَإِذَا سَلَبْتَ صِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ ... وَكَلَامَهُ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ
لَمْ يَغْضَبُوا بَلْ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ ... عَيْنَ الصَّوَابِ وَمُقْتَضَى الإِحْسَانِ
وَالأَمْرُ وَاللهِ الْعَظِيمِ يَزِيدُ فَوْ ... قَ الْوَصْفِ [لَا يَخْفَى عَلَى الْعِمْيَانِ][1]
وَإِذَا ذَكَرْتَ اللهَ تَوْحِيدًا رَأَيْـ ... ـتَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُوفَةَ الأَلْوَانِ
بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ شَزْرًا مِثْلَ مَا ... نَظَرَ التُّيُوسُ إِلَى عَصَا الْجُوبَانِ

---

(١) كذا في (ط، س، ق) أما في (خ) [يعرفه أولو العرفان].

وَإِذَا ذَكَرْتَ بِمِدْحَةٍ شُرَكَاءَهُمْ يَتَبَاشَرُونَ بِأَشَرِّ الْفَرْحَانِ
وَاللهِ مَا شَمُّوا رَوَائِحَ دِينِهِ يَا زُكْمَةً أَعْيَتْ طَبِيبَ زَمَانِ

شرح

وهذا النوع يسمى توحيد الإلهية وتوحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة الظاهرة الباطنة.

وحقيقة هذا التوحيد هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتقرب إلى الله بمعرفة ذلك وفهمه واعتقاده؛ فإنه أصل التوحيد وأساسه، ثُمَّ القيام التام بعبودية القلب وهي قوة الإنابة إلى الله بمحبته وخوفه ورجائه وسائر أعمال القلوب، ثُمَّ القيام بالصلاة فرضها ونفلها، والزكاة والصدقة والصيام والحج والعمرة والجهاد في سبيله بالقول والفعل، وأداء حقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، وترك ما يكرهه الله ورسوله من المحرمات والمكروهات، وإخلاص ذلك كله لله تعالى، فكل هذا داخل في عبادة الله وتوحيده، ولا يتم ذلك إلا بتكميلها بالصدق وهو الجد والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه وأحسنها، وأن تكون موافقة لمرضاة الله وما شرعه رسوله، فهذه الثلاث: الإخلاص والمتابعة والصدق، من اجتمعت له تَمَّ له هذا التوحيد.

فإن الإخلاص ينفي الشرك الأكبر الجلي وهو صرف نوع من العبادة لغير الله واتخاذ ند مع الله، وكمال الإخلاص ينفي الشرك الأصغر في الألفاظ ووسائل الشرك، والصدق ينفي الكسل والفتور ونقصان العمل، والمتابعة تنفي البدع القولية الاعتقادية والبدع الفعلية، فبهذا يتحقق التوحيد، وكمال هذا بتكميل محبة الله وتقديمها على كل محبة، ومحبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه الله من الأشخاص والأعمال والأزمنة والأمكنة.

وبراهين هذا التوحيد أقوى البراهين: براهينه العلم بتفرد الرب بالربوبية والعظمة والكبرياء والسلطان، وأنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة وباطنة إلا منه، وهو الذي يأتي بالحسنات ويدفع السيئات، وهو المُنفس لكرب المكروبين وإغاثة المُضطرين، وهو الذي يجير ولا يجار عليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[1].

---

(١) [الشورى: ٢٨].

ومن براهينه أن جميع الكتب السماوية وجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم دعوا إلى توحيده وإخلاص العمل له.

وأنه مركوز في عقول جميع العقلاء التي لم تغيرها العقائد الباطلة وجوب عبادته وحده لا شريك له، ووجوب حمده وشكره وإخلاص العمل له.

ومن براهينه معرفة أوصاف ما عبد من دونه من جميع المخلوقين، وأنه ليس فيهم من خصائص الإلهية والربوبية شيء بل هم ناقصون فقراء عاجزون ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾[2].

فنسأل الله الكريم الوهاب أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، وأن يكمل لنا توحيده بقوة الإنابة إليه والشوق إلى لقائه والتلذذ بخدمته واللهج بذكره. وأن يحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا. ويكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ويجعلنا من الراشدين أنه جواد كريم.

فصل
في صف العسكرين وتقابل الصفين واستدارة رحى الحرب العوان وتصاول الأقران

يا مَنْ يشبُّ الحربَ جهلاً ما لكُمْ ... بقتالِ حزبِ اللهِ قطُّ يدانِ

أنى تقومُ جنودُكمْ لجنودِهمْ ... وهُمُ الهُداةُ [وناصروا الرحمنِ][3]

وجنودُكمْ ما بينَ كذّابٍ وذَجّـ ... ـالٍ ومُحتالٍ وذي بُهتانِ

مِنْ كلِّ أرعنَ يدّعي المعقولَ وهْـ ... ـوَ مُجانبٌ للعقلِ والإيمانِ

أوْ كلِّ مُبتدعٍ وجهميٍّ غدا ... في قلبِهِ حرجٌ مِنَ القرآنِ

---

(١) [سبأ: ٢٢].

(٢) [الأحقاف: ٥-٦].

(٣) كذا في (ط، ق) أما في (ح) [وعسكر الرحمن] وفي (س) [وعسكر القرآن].

أَوْ كُلُّ مَنْ قَدْ دَانَ دِينَ شُيُوخِ أَهْـ ... ـلِ الاعْتِزَالِ الْبَيْنِ الْبُطْلَانِ

أَوْ قَائِلٍ بِالاتِّحَادِ وَإِنَّهُ ... عَيْنُ الإِلَهِ وَمَا هُنَا ثَنَيَانِ

أَوْ مَنْ غَدَا فِي دِينِهِ مُتَحَيِّرًا ... أَتْبَاعُ كُلِّ مُلَحِّدٍ حَيْرَانِ

وَجُنُودُهُمْ جِبْرِيلُ مَعْ مِيكَالَ مَعْ ... بَاقِي الْمَلَائِكِ نَاصِرِي الْقُرْآنِ

وَجَمِيعُ رُسْلِ اللهِ مِنْ نُوحٍ إِلَى ... خَيْرِ الْوَرَى الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ

فَالْقَلْبُ حَسْبُهُمْ أُولُو الْعَزْمِ الأُلَى ... فِي سُورَةِ الشُّورَى أَتَوْا بِبَيَانِ

فِي أَوَّلِ الأَحْزَابِ أَيْضًا ذِكْرُهُمْ ... هُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ

وَلِوَاؤُهُمْ بِيَدِ الرَّسُولِ [مُحَمَّدٍ ... وَالْكُلُّ لَحْتَ لِوَاءِ ذِي الْفُرْقَانِ]

[وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الرَّسُولِ] عِصَابَةُ الْـ ... ـإِسْلَامِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَى ... طَبَقَاتِهِمْ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

أَهْلُ الْحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ وَأَئِمَّةُ الْـ ... ـفَتْوَى وَأَهْلُ حَقَائِقِ الْعِرْفَانِ

الْعَارِفُونَ بِرَبِّهِمْ وَبِنَبِيِّهِمْ ... وَمَرَاتِبِ الأَعْمَالِ فِي الرُّجْحَانِ

صُوفِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... لَيْسُوا أُولِي شَطْحٍ وَلَا هَذَيَانِ

هَذَا كَلَامُهُمُ لَدَيْنَا حَاضِرٌ ... مِنْ غَيْرِ مَا كَذِبٍ وَلَا كِتْمَانِ

فَاقْبَلْ حَوَالَةَ مَنْ أَحَالَ عَلَيْهِمُ ... هُمْ أَهْلُ بَأْوُهُمُ أُولُو إِمْكَانِ

فَإِذَا بَغَتْنَا غَارَةٌ مِنْ أُحْرِبَا ... تِ الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ بِالْقُرْآنِ

طَحَنَتْكُمُ طَحْنَ الرَّحَى لِلْحَبِّ حَتْـ ... ـمًا صِرْتُمُ كَالْعِهْنِ فِي الْقِيعَانِ

أَنَّى يُقَاوِمُ ذِي الْعَسَاكِرِ طَمْطَمٌ ... أَوْ تَكْلُؤُنَا أَوْ أَخُو الْيُونَانِ

أَعْنِي أَرِسْطُوا عَابِدَ الأَوْثَانِ أَوْ ... ذَاكَ الْكَفُورَ مُعَلِّمَ الأَلْحَانِ

ذَاكَ الْمُعَلِّمُ أَوَّلًا لِلْحَرْفِ وَالْـ ... ـبَانِي لِصَوْتٍ بِنْتِ الْعِلْمَانِ

هَذَا أَسَاسُ الْفِسْقِ وَالْحَرْفُ الَّذِي ... وَضَعُوا أَسَاسَ الْكُفْرِ وَالْهَذَيَانِ

أَوْ ذَلِكَ الْمَخْذُوعُ حَامِلُ رَايَةِ الْـ ... ـإِلْحَادِ ذَاكَ خَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ

أَعْنِي ابْنَ سِينَا ذَلِكَ الْمَخْذُولَ مِنْ ... أَذْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الْكُفْرَانِ

وَكَذَا نَصِيرُ الشِّرْكِ فِي أَتْبَاعِهِ ... أَعْدَاءُ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

نَصَرُوا الضَّلالَةَ مِنْ سَفاهَةِ رَأْيِهِمْ ... وَغَزَوْا جُيُوشَ الدِّينِ وَالْقُرْآنِ

فَجَرَى عَلَى الإِسْلامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ ... لَمْ تَجْرِ قَطُّ بِسالِفِ الأَزْمانِ

أَوْ جَعْدٌ أَوْ جَهْمٌ وَأَتْباعٌ لَهُ ... هُمْ أُمَّةُ التَّعْطِيلِ وَالْبُهْتانِ

أَوْ حَفْصٌ أَوْ بِشْرٌ أَوِ النَّظّامُ ذا ... كَ مُقَدَّمُ الْفُسّاقِ وَالْمُجّانِ

وَالْجَعْفَرانِ كَذاكَ شَيْطانٌ وَيَدْ ... عَى الطّاقَ لا حُيِّيتَ مِنْ شَيْطانِ

وَكَذَلِكَ الشَّحّامُ وَالْعَلّافُ وَالنَّـ ... ـجّارُ أَهْلُ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ

وَاللهِ ما فِي الْقَوْمِ شَخْصٌ رافِعٌ ... بِالْوَحْيِ رَأْساً بَلْ بِرَأْيِ فُلانِ

وَخِيارُ عَسْكَرِكُمْ فَذاكَ الأَشْـ ... ـعَرِيُّ الْقَرْمُ ذاكَ مُقَدَّمُ الْفُرْسانِ

لَكِنَّكُمْ وَاللهِ ما أَنْتُمْ عَلَى ... إِثْباتِهِ وَالْحَقُّ ذُو بُرْهانِ

هُوَ قالَ إِنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَاسْـ ... ـتَوْلَى مَقالَةَ كُلِّ ذِي بُهْتانِ

فِي كُتْبِهِ طُرّاً وَقَرَّرَ قَوْلَ ذِي الْـ ... إِثْباتِ تَقْرِيراً عَظِيمَ الشَّانِ

لَكِنَّكُمْ كَفَّرْتُمُوهُ وَقُلْتُمْ ... مَنْ قالَ هَذا فَهْوَ ذُو كُفْرانِ

فَخِيارُ عَسْكَرِكُمْ فَأَنْتُمْ مِنْهُمُ ... بُرَآءُ إِذْ قَرَّبُوا مِنَ الإِيمانِ

هَذِي الْعَساكِرُ قَدْ تَلاقَتْ جَهْرَةً ... وَدَنا الْقِتالُ وَصِيحَ بِالأَقْرانِ

صُفُّوا الْجُيُوشَ وَعَبِّئُوها وَابْرُزُوا ... لِلْحَرْبِ وَاقْتَرِبُوا مِنَ الْفُرْسانِ

فَهُمُ إِلَى لُقْياكُمُ بِالشَّوْقِ كَيْـ ... ـيُوفُوا بِنَذْرِهِمُ مِنَ الْقُرْبانِ

وَلَهُمْ إِلَيْكُمْ شَوْقُ ذِي قَرَمٍ فَما ... يَشْفِيهِ غَيْرُ مَوائِدِ اللُّحْمانِ

تَبّاً لَكُمْ لَوْ تَعْقِلُونَ لَكُنْتُمُ ... خَلْفَ الْخُدُورِ كَأَضْعَفِ النِّسْوانِ

مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ وَالْحَدِيثُ وَأَهْلُهُ ... وَالْوَحْيُ وَالْمَعْقُولُ بِالْبُرْهانِ

ما عِنْدَكُمْ إِلاَّ الدَّعاوِي وَالشَّكا ... وِي أَوْ شَهاداتٌ عَلَى الْبُهْتانِ

هَذا الَّذِي وَاللهِ نِلْنا مِنْكُمُ ... فِي الْحَرْبِ إِذْ يَتَقابَلُ الصَّفّانِ

وَاللهِ ما جِئْتُمْ بِقالَ اللهِ أَوْ ... قالَ الرَّسُولُ وَنَحْنُ فِي الْمَيْدانِ

إِلاَّ بِجَعْجَعَةٍ وَفَرْقَعَةٍ وَغَمْـ ... ـغَمَةٍ وَقَعْقَعَةٍ بِكُلِّ لِسانِ

وَبِحَقِّ ذاكَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ ... أَنْتُمْ بِحاصِلِكُمْ أُولُو عِرْفانِ

وبحفكم لحنوا مناصبكم وأن لحنوا ما كلكم بكل بيان
وبحفنا لحبي الهدى ونذبنا عن سنن الرسول ومقتضى القرآن
فسح الإلهة مناصبا ومآكلا فاقت على العدوان والطغيان
والله لو جئتم بقال الله أو قال الرسول كفعل ذي الإيمان
كنا لكم شاويش لعظيم واجب سلال كشاويش لدي سلطان
لكن هجرتم ذا وجئتم بدعة وأردتم التعظيم بالإهانة

شرح

وهذا في المقابلة بين الحق وأهله وبين الباطل وأهله على وجه العموم، فأهل الحق هم الرسل الكرام والأنبياء العظام وأئمة الهدى ومصابيح الدجى والعلماء الربانيون والفقهاء الصالحون وطبقات أهل العلم والإيمان على توالي الزمان خلاصة الخلق وأكمل الناس إيمانًا ويقينا وأرجحهم عقولاً وأصوبهم آراء، وسلاحهم وبراهينهم جميع الكتب السماوية، وجميع العلوم الصحيحة المورونة على الأنبياء والنقل الصحيح والعقل الصريح.

وأما أهل الباطل فهم كل زنديق ومارق وجاحد وملحد منافق ممن مرجت عقولهم وانحرفت أديانهم واختلت عقائدهم وعدمت فيهم الفضيلة واتصفوا بكل خصلة رذيلة.

وأما سلاحهم فمناسب لحالهم: زبد عقولهم التي هي شبه لا تسمن ولا تغني من جوع، قدموها على نصوص الوحي والسنة والقرآن فأوهت منهم العقائد وعدموا الإيمان والايقان، فشرح حال العسكرين يكفي في معرفة المحق من المبطل.

فصل

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة هم أولو العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فلان
كلا ولا جحد الصفات لربنا في قلب الشربه والسبحان
كلا ولا نفي العلو لفاطر الـ أكوان فوق جميع ذي الأكوان

كَـلاَّ وَلاَ عَـزَلَ الْغُـصُـوصَ وَأَلْهَـا ... لِـيَـنَـالَ نَقْـدَ حَـقَـائِقِ الإِيمَـانِ
إِذْ لاَ نُقَـلِّـدُكُمْ بِلَيْـسَـا لاَ وَلاَ ... عَلْمَـا فَـقَـدْ عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ
وَالْعِلْـمُ عِـنْـدَكُمُ يُـنَـالُ بِغَيْرِهَـا ... بِرِبَـالَـةِ الأَفْـكَـارِ وَالأَذْهَـانِ
سَـمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًـا عَقْلِيَّـةً ... وَهِـيَ[1] الظَّـوَاهِرُ حَـامِلاَتُ مَعَـانِ
كَـلاَّ وَلاَ إِحْصَـاءُ آرَاءِ الرِّجَـا ... لِ وَضَـبْطُهَا بِالْحَصْـرِ وَالْحُسْـبَانِ
كَـلاَّ وَلاَ التَّأْوِيـلُ وَالتَّبْـدِيلُ وَالتَّـ ... ـحْرِيـفُ لِلْـوَحْيَيْنِ بِالْبُهْتَـانِ
كَـلاَّ وَلاَ الإِشْـكَالُ وَالتَّشْـكِيكُ وَالْـ ... ـوَقْفُ الَّـذِي مَـا فِيـهِ مِـنْ عِرْفَـانِ
هَـذِي عُلُـومُكُمُ الَّـتِـي مِـنْ أَجْلِهَـا ... عَادَيْتُمُونَـا يَـا أُولِـي الْعِرْفَـانِ

فصل
في عقد الهدنة والأمانة الواقع بين المعطلة وأهل الإلحاد حزب جنكسخان

يَـا قَـوْمُ صَـالَحْتُمْ لُغَـاةَ الذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَـافِ صُـلْحًا مُوجِبًـا لأَمَـانِ
وَأَغَـرْتُمُ وَهْنًـا عَلَـيْـهِمْ غَـارَةً ... فَغَفَلْـتُمُ فِيهَـا لَهُـمْ بِبَنَـانِ
مَـا كَـانَ فِيهَـا مِـنْ قَتِيـلٍ مِنْهُمُ ... كَـلاَّ وَلاَ فِيهَـا أَسِـيرٌ عَـانِ
وَ لَطَفْـتُمُ فِـي الْقَـوْلِ أَوْ صَـالَحْتُمُ ... وَأَتَيْـتُمُ فِـي بَحْثِكُمْ بِـدِهَانِ
وَجَلَسْـتُمُ مَعَهُـمْ مَجَالِسَكُمْ مَـعَ الْـ ... أَسْـتَاذِ بِـالآدَابِ وَالْمِيـزَانِ
وَصَـرَعْتُمُ لِلْقَـوْمِ كُـلَّ صُـرَاعَةٍ ... حَتَّـى أَغَـارُوكُمْ بِـلاَحَ الْجَـانِي
فَغَـزَوْتُمُ بِـالْحِكْمِ لِعَـاكِرِ الْـ ... إِثْبَـاتِ وَالآثَـارِ وَالْقُـرْآنِ
وَلأَجْـلِ ذَا صَـالَحْتُمُوهُمْ عِنْـدَ حَـرْ ... بِكُـمْ لَهُـمْ بِـاللُّطْفِ وَالإِذْعَـانِ
وَلأَجْـلِ ذَا كُنْـتُمْ مَخَايِلَهُـمْ ... لَـمْ تَقْـبَحُ مِـنْكُمْ لَهُـمْ عَيْـبَانِ
حَـذَرًا مِـنَ انْـتِزَاعِهِمْ لِـسِلاَحِهِمْ ... قُـرُوْنَ بَعْـدَ السَّـلْبِ كَالثُّـعْبَانِ

---

(١) كذا في (خ، س) ألف في (ط، ق) [النفي].

وبحثتم مع صاحب الإثبات بالتـ ... ـكفير والتضليل والعدوان
وقلبتم ظهر المجن له وأجـ ... ـلبتم عليه بعسكر الشيطان
والله هذي ريبة لا يختفي ... مضمونها إلا على الثيران
هذا وبينهما أشد تفاوت ... فتنان في الرحمن يختصمان
هذا نفى ذات الإله ووصفه ... نفيا صريحا ليس بالكتمان
لكن إذا وصف الإله بكل أو ... صاف الكمال المطلق الرباني
ونفى النقائص والعيوب كنفيه التـ ... ـشبيه للرحمن بالإنسان
فلأي شيء كان حربكم له ... بالحد دون معطل الرحمن
قلنا نعم هذا المجسم كافر ... أفكان ذلك كامل الإيمان
لا تنطفي نيران غيظكم على ... هذا المجسم يا أولي النيران
فالله يوقدها ويصلي حرها ... يوم الحساب محرف القرآن
يا قومنا لقد ارتكبتم خطة ... لم يرتكبها قط ذو عرفان
وأعنتم أعداءكم بوفاقكم ... لهم على شيء من البطلان
أخذوا نواصيكم بها ولحاكم ... فغدت تجر بذلة وهوان
قلتم بقولهم ورمتم كسرهم ... أنى وقد غلقوا لكم برهان
وكسرتم الباب الذي من خلفه ... أعداء رسل الله والإيمان
فأتى عدو ما لكم بقتالهم ... وبحربهم أبد الزمان يدان
فغدوتم أسرى لهم بحبالهم ... أيديكم شدت إلى الأذقان
حملوا عليكم كالسباع استقبلت ... حمرا معقرة ذوي أرسان
صالوا عليكم بالذي صلتم به ... أتتم علينا صولة الفرسان
لولا تحيزكم إلينا كنتم ... وسط العرين ممزقي اللحمان
لكن بنا استنصرتم وبقولنا ... صلتم عليهم صولة الشجعان
وأليتم الإثبات إذ صلتم به ... وعزلتم التعطيل عزل مهان
وأتيتم تغزوننا بسرية ... من عسكر التعطيل والكفران

مَـنْ ذَا بِحَـقِّ اللهِ أَجْهَـلُ مِـنْكُمُ وَأَحَقُّـنَـا بِالْجَهْـلِ وَالْعُـدْوَانِ
لَـلهِ مَـا يَـدْرِي الْفَتَى بِمُصَـابِهِ وَالْقَلْـبُ لَحْـتَ الْحَـشْمِ وَالْخِـذْلَانِ

شرح

لما اتفق أهل التعطيل مع ملاحدة الفلاسفة على عزل الكتاب والسنة عن الاستدلال بهما على أعلى المطالب وأشرف الأصول ووافقوهم على الأصل الذي ردوا به الوحي وما جاء به الرسول، وخضعوا لهم في كثير من أصولهم وبحوثهم، وسلموا لهم كثيرًا من أصولهم الباطلة وعجزوا عن مقاومتهم عند مناظرتهم بما أعطوهم من سلاحهم، عقدوا بينهم وبينهم الهدنة، وقالوا بلسان الحال، وربما صرحوا به في لسان المقال: هلم نتفق على مقاومة أهل السنة والجماعة -وسموهم بالأسماء الشنيعة- هلم نقاتل من قابلونا بالسنة والقرآن، وصالوا علينا بالأدلة العقلية والنقلية، وسفهوا أحلامنا وعابوا عقائدنا وجهروا بالقدح في أصولنا.

فلما التقى الجمعان قال عراف الجهمية وزنادقة الفلاسفة: إنه لا سبيل لهم إلى مقاومة الحق. ولا يدان لهم أن يقاوموا صحيح المنقول وواضح الدلالة والمدلول وصريح المعقول بآراء المتهوكين وأقيسة الحائرين وإفك المفترين وتزوير المزورين، تالله أن أدنى سرية من سرايا الحق إذا قابلت الباطل بأجمعه سحقته، وأن واحدًا من شواهد الحق إذا وزن بجميع شبه الباطل محقه وأتلفه، وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فتأمل هذا الفصل، وهو:

فصل
في مصارع النفاة والمعطلين بأسنة أمراء الإثبات الموحدين

وَإِذَا أَرَدْتَ تَـرَى مَصَـارِعَ مَـنْ خَـلاَ مِـنْ أُمَّـةِ التَّعْطِـيلِ وَالْكُفْـرَانِ
وَتَـرَاهُمُ أَسْـرَى حَقِيـرٌ شَـأْنُهُمْ أَيْـدِيهِمُ غُلَّـتْ إِلَـى الأَذْقَـانِ
وَتَـرَاهُمُ لَحْـتَ الرِّمَـاحِ ذَرِيَّـةً مَـا فِـيهِمُ مِـنْ فَـارِسٍ طَعَّـانِ
وَتَـرَاهُمُ لَحْـتَ السُّـيُوفِ تَوَشَّـهُمْ مِـنْ عَـنْ شَـمَائِلِهِمْ وَعَـنْ أَيْمَـانِ

وَتَرَاهُمُ انْسَلَخُوا مِنَ الْوَحْيِينِ وَالْـ ... ـعَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَتَرَاهُمُ وَاللهِ ضُحْكَةَ سَاخِرٍ ... وَلَطَالَمَا سَخِرُوا مِنَ الإِيمَانِ
قَدْ أَوْحَشَتْ مِنْهُمْ رُبُوعٌ زَادَهَا الْـ ... ـجَبَّارُ إِيحَاشًا مَدَى الأَزْمَانِ
وَخَلَتْ دِيَارُهُمْ وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ ... مَا فِيهِمُ رَجُلَانِ مُجْتَمِعَانِ
قَدْ عَطَّلَ الرَّحْمَنُ أَفْئِدَةً لَهُمْ ... مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ
إِذْ عَطَّلُوا الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالْعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ
بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الْكَلَامِ وَعَنْ صِفَا ... تِ كَمَالِهِ بِالْجَهْلِ وَالْبُهْتَانِ
فَاقْرَأْ تَصَانِيفَ الإِمَامِ حَقِيقَةً ... شَيْخِ الْوُجُودِ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
أَعْنِي أَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ الْـ ... ـبَحْرَ الْمُحِيطَ بِسَائِرِ الْخُلْجَانِ
وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي ... مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِ
وَكَذَاكَ مِنْهَاجٌ لَهُ فِي رَدِّهِ ... قَوْلَ الرَّوَافِضِ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ
وَكَذَاكَ أَهْلُ الاعْتِزَالِ فَإِنَّهُ ... أَرْدَاهُمُ فِي حُفْرَةِ الْجَبَّانِ
وَكَذَلِكَ التَّأْسِيسُ أَصْبَحَ نَقْضُهُ ... أُعْجُوبَةً لِلْعَالِمِ الرَّبَّانِي
وَكَذَاكَ أَجْوِبَةٌ لَهُ مِصْرِيَّةٌ ... فِي سِتِّ أَسْفَارٍ كُتِبْنَ سِمَانِ
وَكَذَا جَوَابٌ لِلنَّصَارَى فِيهِ مَا ... يَشْفِي الصُّدُورَ وَإِنَّهُ سِفْرَانِ
وَكَذَاكَ شَرْحُ عَقِيدَةٍ لِلأَصْبَهَا ... نِي شَارِحِ الْمَحْصُولِ شَرْحَ بَيَانِ
فِيهَا النُّبُوَّاتُ الَّتِي إِثْبَاتُهَا ... فِي غَايَةِ التَّقْرِيرِ وَالتِّبْيَانِ
وَاللهِ مَا لأُولِي الْكَلَامِ نَظِيرُهُ ... أَبَدًا وَكُتْبُهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ
وَكَذَا حُدُوثُ الْعَالَمِ الْعُلْوِي وَالسُّـ ... ـفْلِي فِيهِ فِي أَتَمِّ بَيَانِ
وَكَذَا قَوَاعِدُ الاسْتِقَامَةِ إِنَّهَا ... سِفْرَانِ فِيمَا بَيْنَنَا ضَخْمَانِ
وَقَرَأْتُ أَكْثَرَهَا عَلَيْهِ فَزَادَنِي ... وَاللهِ فِي عِلْمٍ وَفِي إِيمَانِ
هَذَا وَلَوْ حَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّهُ ... قَبْلِي يَمُوتُ لَكَانَ هَذَا[1] الشَّانِ
وَكَذَاكَ تَوْحِيدُ الْفَلَاسِفَةِ الأُلَى ... تَوْحِيدُهُمْ هُوَ غَايَةُ الْكُفْرَانِ

---

(١) كذا في (ط، ق) أما في (خ، س) [غير].

سِفْرٌ لَطِيفٌ فِيهِ تَفْصِلُ أُصُولَهُمْ ... بِحَقِيقَةِ الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

وَكَذَاكَ تِسْعِينَ فِيهَا لَهُ ... رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ بِالتَّفْنَانِي

تِسْعُونَ وَجْهًا بِنْتُ بُطْلَانِهِ ... أَعْنِي كَلَامَ النَّفْسِ ذَا الْوَحْدَانِ

وَكَذَا قَوَاعِدُهُ الْكِبَارُ وَإِنَّهَا ... أَوْلَى مِنَ الْبَاطِنِ فِي الْحُسْبَانِ

لَمْ يَتَّبِعْ نَظْمِي لَهَا فَأُسُوقُهَا ... فَأَشَرْتُ بَعْضَ إِشَارَةٍ لِبَيَانِ

وَكَذَا رَسَائِلُهُ إِلَى الْبُلْدَانِ وَالـ ... ـأَطْرَافِ وَالْأَصْحَابِ وَالْإِخْوَانِ

هِيَ فِي الْوَرَى مَنْثُورَةٌ مَعْلُومَةٌ ... لَيْسَتْ بِأَلْغَالٍ مِنَ الْأَثْمَانِ

وَكَذَا فَتَاوَاهُ فَاخْتَرْنِي الَّذِي ... أَضْحَى عَلَيْهَا دَائِمَ الطُّوفَانِ

بَلَغَ الَّذِي أَلْقَاهُ مِنْهَا عِدَّةَ الـ ... أَيَّامِ مِنْ شَهْرٍ بِلَا نُقْصَانِ

سِفْرٌ بِقَابِلُ كُلَّ يَوْمٍ وَالَّذِي ... قَدْ فَاتَنِي مِنْهَا بِلَا حُسْبَانِ

هَذَا وَلَيْسَ بِقَاصِرٍ التَّقْصِيرُ عَنْ ... عَشْرِ كِبَارٍ لَيْسَ ذَا نُقْصَانِ

وَكَذَا الْمَقَارِيدُ الَّتِي فِي كُلِّ مَسْـ ... ـأَلَةٍ فَسِفْرٌ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

مَا بَيْنَ عَشْرٍ أَوْ تَزِيدُ بِضَعْفِهَا ... هِيَ كَالنُّجُومِ لِسَالِكٍ حَيْرَانِ

وَلَهُ الْمَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الْوَرَى ... قَدْ قَامَهَا لِلَّهِ غَيْرَ جَبَانِ

نَصْرُ الْإِلَهِ وَدِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَرَسُولِهِ بِالسَّيْفِ وَالْبُرْهَانِ

أَبْدَى فَضَائِحَهُمْ وَبَيْنَ جَهْلَهُمْ ... وَأَرَى تَنَاقُضَهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

وَأَصَارَهُمْ وَاللَّهِ تَحْتَ نِعَالِ أَهْـ ... ـلِ الْحَقِّ بَعْدَ مَلَابِسِ التِّيجَانِ

وَأَصَارَهُمْ تَحْتَ الْحَضِيضِ وَطَالَمَا ... كَانُوا هُمُ الْأَعْلَامَ لِلْبُلْدَانِ

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُ بِسِلَاحِهِمْ ... أَرْدَاهُمْ تَحْتَ الْحَضِيضِ الدَّانِي

كَانَتْ لَوَاحِيهِمْ بِأَيْدِيهِمْ فَمَا ... مِنْهَا لَهُمْ إِلَّا أَسِيرُ عَنَانِ

فَغَدَتْ لَوَاحِيهِمْ بِأَيْدِينَا فَلَا ... يَلْقَوْنَهَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ

وَغَدَتْ مُلُوكُهُمْ مَمَالِيكًا لِأَنْـ ... ـصَارِ الرَّسُولِ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

وَأَتَتْ جُنُودُهُمُ الَّتِي صَالُوا بِهَا ... مُنْقَادَةً لِعَسَاكِرِ الْإِيمَانِ

يَدْرِي بِهَذَا مَنْ لَهُ خَبَرٌ بِنَا ... قَدْ قَالَهُ فِي رَبِّهِ الْفَتَّانِ

وَالْقَدْمُ يوحِشُنَا وَلَيْسَ هُنَاكُمْ فَحُضُورُهُ وَمَغِيبُهُ سِيَانِ

شرح

ذكر المُصنف في هذا الفصل أنه لا يتم للإنسان معرفة حقيقة أهل البدع وما آلت إليه بدعهم من البطلان والاضمحلال حَتَّى يقف على تصانيف شيخ الإسلام حقيقة الذي لَمْ يجز هذا اللقب أحد بتمامه وكماله غيره، فهو شيخ الإسلام في أصول الدين وفروعه، ونصر الحَق وجهاد أهل الباطل على اختلاف مللهم ونَحلهم، فمن وقف على تصانيفه رآها كافية شافية، ورأى فحول أهل الكلام وأئمتهم وأساطين الفلاسفة وزنادقة أهل الوحدة وغيرهم مِمَّن يشار إليهم بالأصابع ويرمقون بالإبصار ويَخضع الكثير لأقوالهم وأصولهم قد تبين جهلهم وبان عيهم وتَحقق بطلان ما كانوا ينصرونه من الأقوال الباطلة الَّتِي طالما أضلت الخَليفة، فصارت بِهذا البيان والتحقيق من هذا الإمام العظيم في حيز المحال، وأباد خضراءهم، وقتلهم بسلاحهم الذي به صالوا، ورد عليهم بحججهم الَّتِي طالما في ميادينها جالوا، فلم يبق من فحولهم وأئمتهم وأكابرهم أحد إلا أرداه ووضح للناس ضلاله وعماه، فرحمة الله عليه من إمام عظيم منّ به الرحمن الرحيم في زمان تكاثرت فيه البدع، وتفاقمت فيه الطرائق المُنحرفة، ورفع فيه أهل الإلحاد رءوسهم فمزق جمعهم كل ممزق وذكر في تصانيفه المُعروفة ما مخبره كاف عن وصفه، وهي ولله الحَمد موجود أكثرها، وكل إصلاح في هذه الأوقات الأخيرة لا يَخفى على صاحب البصيرة أن لكتبه فيه الأثر الأكبر والحَظ الأوفر.

فصل

في بيان أن المصيبة الَّتِي حلت بأهل التعطيل والكفران من جهة الأسْمَاء الَّتِي ما أنزل الله بِهَا من سلطان

يَا قَوْمُ أَصْلُ بَلَائِكُمْ أَسْمَاءُ لَمْ يُنْزِلْ بِهَا الرَّحْمَنُ مِنْ سُلْطَانِ

هِيَ عَكَسَتْكُمْ غَايَةَ التَّعْكِيسِ وَاقْـ ـتَلَعَتْ دِيَارَكُمْ مِنَ الأَرْكَانِ

فَهَدَمْتُمْ تِلْكَ الْقُصُورَ وَأَوْحَشَتْ ... مِنْكُمْ رُبُوعَ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَالذَّنْبُ ذَنْبُكُمْ فَلِمْتُمْ لَفْظَهَا ... مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ وَلا فُرْقَانِ

وَهْيَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ مِنْ ... حَقٍّ وَأَمْرٍ وَاضِحِ السُّلْطَانِ

سَمَّيْتُمُ عَرْشَ الْمُهَيْمِنِ حَيِّزًا ... وَالاسْتِوَاءَ تَحَيُّزًا بِمَكَانِ

وَجَعَلْتُمُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلاَ ... جِهَةً وَسُمْتُمْ نَفْيَ ذَا بِوُزَانِ

وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا وَلَمْ ... سِيَّمَا وَهَذَا غَايَةُ الْبُهْتَانِ

وَجَعَلْتُمُ الْمَوْصُوفَ جِسْمًا قَابِلَ الـ ... أَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ وَالأَلْوَانِ

وَجَعَلْتُمُ أَوْصَافَهُ عَرَضًا وَهَذَا ... كُلُّهُ جَرَّ إِلَى الْكُفْرَانِ

وَكَذَاكَ سَمَّيْتُمْ حُلُولَ حَوَادِثٍ ... أَفْعَالُهُ لِلْفِعْلِ ذِي عُدْوَانِ

إِذْ تَنْفِرُ الأَسْمَاعُ مِنْ ذَا اللَّفْظِ نُفْـ ... ـرَتَهَا مِنَ التَّشْبِيهِ وَالنُّقْصَانِ

فَكَسَوْتُمُ أَفْعَالَهُ لَفْظَ الْحَوَا ... دِثِ ثُمَّ قُلْتُمْ قَوْلَ ذِي بُطْلاَنِ

لَيْسَتْ تَقُومُ بِهِ الْحَوَادِثُ وَالْمُرَا ... دُ النَّفْيُ لِلأَفْعَالِ لِلسُّبْحَانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ أَفْعَالُهُ وَصِفَاتُهُ ... وَكَلاَمُهُ وَعُلُوُّ ذِي السُّلْطَانِ

فَبِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَبًّا عِنْدَكُمْ ... يَا فِرْقَةَ التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

وَالْقَصْدُ نَفْيُ فِعَالِهِ عَنْهُ بِذَا النَّـ ... ـنَّفْيِ فِعْلَ الشَّاعِرِ الْفَنَّانِ

وَكَذَاكَ حِكْمَتُهُ رَبَطْنَا سَمَّيْتُمُ ... عَلَلاً وَأَغْرَاضًا وَذَانِ اسْمَانِ

لاَ يَشْعُرَانِ بِمِدْحَةٍ بَلْ ضِدُّهَا ... فِيهِمَا دَلِيلٌ حِينَئِذٍ عَلَى الأَذْهَانِ

نَفْيِ الصِّفَاتِ وَحِكْمَةِ الْخَلاَّقِ وَالـ ... أَفْعَالِ إِلْكَارًا لِهَذَا الشَّانِ

وَكَذَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ قُلْـ ... ـتُمْ إِنَّهُ التَّرْكِيبُ ذُو بُطْلاَنِ

وَكَذَاكَ وَجْهُ الرَّبِّ جَلَّ جَلاَلُهُ ... وَكَذَا لَفْظُ يَدٍ وَلَفْظُ يَدَانِ

سَمَّيْتُمُ ذَا كُلَّهُ الأَعْضَاءَ بَلْ ... سَمَّيْتُمُوهُ جَوَارِحَ الإِنْسَانِ

وَسَطَوْتُمُ بِالنَّفْيِ حِينَئِذٍ عَلَيْـ ... ـهِ كَنَفْيِنَا لِلنَّعْتِ مَعْ نُقْصَانِ

قُلْتُمْ لِنَزْهَتِهِ عَنِ الأَعْرَاضِ وَالـ ... أَعْرَاضِ وَالأَبْعَاضِ وَالْجُثْمَانِ

وَعَنِ الْحَوَادِثِ أَنْ تَحُلَّ بِذَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ مِنْ طَارِقِ الْحِدْثَانِ

وَالْقَصْدُ نَفْيُ صِفَاتِهِ وَفِعَالِهِ ... وَالِاسْتِوَاءِ وَحِكْمَةِ الرَّحْمَنِ

وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بِسَخْنِ اللَّفْظِ مَخْـ ... ـبُوسُونَ خَوْفَ مَعَرَّةِ النُّكْرَانِ

وَالْكُلُّ إِلَّا الْفَرْدَ يَفْعَلُ مِثْلَ مَا ... فِي قَالِبٍ وَبِرُدَّةٍ فِي ثَانِ

وَالْقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالْأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْعَالَ لَا تُنْفَى بِهَذَا الْهَذَيَانِ

سَوَّوْهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْـ ... أَسْمَاءِ بَلْ فِي مَقْصِدٍ وَمَعَانِ

كَمْ ذَا تَوَسَّلْتُمْ بِلَفْظِ الْجِسْمِ وَالتَّـ ... ـجْسِيمِ لِلتَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

وَجَعَلْتُمُوهُ الشَّرْسَ إِنْ قُلْنَا لَكُمْ ... اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْأَكْوَانِ

قُلْتُمْ لَنَا جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ نَعَا ... لَى اللهُ عَنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الْقُرْآنُ كَلَامُهُ ... مِنْهُ بَدَا لَمْ يَبْدُ مِنْ إِنْسَانِ

كَلَّا وَلَا مَلَكٌ وَلَا لَوْحٌ وَلَـ ... ـكِنْ قَالَهُ الرَّحْمَنُ قَوْلَ بَيَانِ

قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ الْكَلَامَ قِيَامُهُ ... بِالْجِسْمِ أَيْضًا وَهُوَ ذُو حَدَثَانِ

عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِ جِسْمٍ لَمْ يَكُنْ ... هَذَا بِمَعْقُولٍ لِذِي الْأَذْهَانِ

وَكَذَاكَ حِينَ نَقُولُ يَنْزِلُ رَبُّنَا ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِ

قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ النُّزُولَ لِغَيْرِ أَجْـ ... ـسَامٍ مُحَالٌ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَرَى سُبْحَانَهُ ... قُلْتُمْ أَجِسْمٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

أَمْ كَانَ ذَا جِهَةٍ تَعَالَى رَبُّنَا ... عَنْ ذَا فَلَيْسَ يَرَاهُ مِنْ إِنْسَانِ

أَمَّا إِذَا قُلْنَا لَهُ وَجْهٌ كَمَا ... فِي النَّصِّ أَوْ قُلْنَا كَذَاكَ يَدَانِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا كَمَا فِي النَّصِّ إِنْـ ... ـنَ الْقَلْبَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الْأَصَابِعُ فَوْقَهَا ... كُلُّ الْعَوَالِمِ وَهِيَ ذُو رَجَفَانِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَدَاهُ لِأَرْضِهِ ... وَسَمَائِهِ فِي الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا سَيَكْشِفُ سَاقَهُ ... فَيَخِرُّ ذَاكَ الْجَمْعُ لِلْأَذْقَانِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا بِمَجِيءِ فَصْلِهِ ... بَيْنَ الْعِبَادِ بِعَدْلِ ذِي سُلْطَانِ

قَامَتْ قِيَامَتُكُمْ كَذَاكَ قِيَامَةُ الْـ ... آتِي بِهَذَا الْقَوْلِ فِي الرَّحْمَنِ

وَاللهِ لَوْ قُلْنَا الَّذِي قَالَ الصَّحَا ... بَةُ وَالْأُلَى مِنْ بَعْدِهِمْ بِلِسَانِ

لَرَجَمْتُمُونَا بِالْحِجَارَةِ إِنْ قَدَرْ ... تُمْ بَعْدَ رَجْمِ الشَّتْمِ وَالْعُدْوَانِ

وَاللهِ قَدْ كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ بَعْـ ... ـضَ مَقَالِهِمْ يَا أُمَّةَ الْعُدْوَانِ

وَجَعَلْتُمُ الْجِسْمَ الَّذِي قَدَّرْتُمُ بُطْلَانَهُ طَاغُوتَ ذَا الْبُطْلَانِ

وَوَضَعْتُمُ لِلْجِسْمِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْـ ... ـرُوفٍ بِهِ فِي وَضْعِ كُلِّ لِسَانِ

وَبَنَيْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ عَلَيْهِ فَاجْـ ... ـتَمَعَتْ لَكُمْ إِذْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ

كَذِبٌ عَلَى لُغَةِ الرَّسُولِ وَنَفْيُ إِثْـ ... ـبَاتِ الْعُلُوِّ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

وَرَكِبْتُمُ إِذْ ذَاكَ تَحْرِيفَيْنِ تَحْـ ... ـرِيفَ الْحَدِيثِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

وَكَسَبْتُمْ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْيِ وَالـ ... ـتَحْرِيفِ فَاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كُفْلَانِ

وَعِدَاكُمْ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالْـ ... إِيمَانِ حَتَّى فَاتَكُمْ خَطَّانِ

وَكَسَبْتُمْ مَقْتَيْنِ مَقْتَ إِلَهِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ فَنَالَكُمْ مَقْتَانِ

وَلَبِسْتُمْ ثَوْبَيْنِ ثَوْبَ الْجَهْلِ وَالـ ... ـظُّلْمِ الْقَبِيحِ فَبِئْسَتِ الثَّوْبَانِ

وَاتَّخَذْتُمْ طُرْزَيْنِ طُرْزَ الْكِبْرِ وَالـ ... تِّيهِ الْعَظِيمِ فَبِئْسَتِ الطُّرْزَانِ

وَمَدَدْتُمْ نَحْوَ الْعُلَا بَاعَيْنِ لَـ ... ـكِنْ لَمْ تَطُلْ مِنْكُمْ لَهَا الْبَاعَانِ

وَأَتَيْتُمُوهَا مِنْ سِوَى أَبْوَابِهَا لَكِنْ تَسَوَّرْتُمْ مِنَ الْحِيطَانِ

وَغَلَقْتُمْ بَابَيْنِ لَوْ فُتِحَا لَكُمْ فُزْتُمْ بِكُلِّ بِشَارَةٍ وَتَهَانِ

بَابُ الْحَدِيثِ وَبَابُ هَذَا الْوَحْيِ مَنْ يَفْتَحْهُمَا فَلَهُ الْأَمَانُ

وَفَتَحْتُمْ بَابَيْنِ مَنْ يَفْتَحْهُمَا لَفُتِحَ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الشَّيْطَانِ

بَابَ الْكَلَامِ وَقَدْ بُهِتُّمْ عَنْهُ وَالْـ ... ـبَابَ الْحَرِيقَ فَتَنْطِقُ الْبُوَلَانِ

فَدَخَلْتُمْ دَارَيْنِ دَارَ الْجَهْلِ فِي الدُّ ... نْيَا وَدَارَ الْعَجْزِ فِي الثَّوَّانِ

وَطَعِمْتُمْ لَوْنَيْنِ لَوْنَ الشَّكِّ وَالتَّـ ... ـشْكِيكِ بَعْدَ فَبِئْسَتِ اللَّوْنَانِ

وَرَكِبْتُمْ أَمْرَيْنِ كَمْ قَدْ أَهْلَكَا مِنْ أُمَّةٍ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

تَقْدِيمَ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَى الَّذِي قَالَ الرَّسُولُ وَمُحْكَمَ الْقُرْآنِ

وَالثَّانِ نِسْبَتَهُمْ إِلَى الأَلْفَاظِ وَالتَّـ ... ـلْبِيسِ وَالتَّدْلِيسِ وَالْكِتْمَانِ

وَمَكَرْتُمْ مَكْرَيْنِ لَوْ نَشَأَ لَكُمْ لَتَفَطَّرَتْ فِينَا غُرَى الإِيمَانِ

أَطْفَأْتُمْ نُورَ الْكِتَابِ وَسُنَّةَ الْـ ... ـهَادِي بِذَا التَّحْرِيفِ وَالْهَذَيَانِ
لَكِنَّكُمْ أَوْقَدْتُمُوا لِلْحَرْبِ نَا ... رًا بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَانِ
وَاللهُ مُطْفِيهَا بِأَلْسِنَةِ الْأُلَى ... قَدْ خَصَّهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ
وَاللهِ لَوْ غَرِقَ الْمُجَسِّمُ فِي دَمِ الـ ... ـتَّجْسِيمِ مِنْ قَدَمٍ إِلَى الْآذَانِ
فَالنَّصُّ أَعْظَمُ عِنْدَهُ وَأَجَلُّ قَدْ ... رًا أَنْ يُعَارِضَهُ بِقَوْلِ فُلَانِ

شرح

اعلم أن العصمة والنجاة بالوقوف مع الألفاظ الشرعية كما أن الدين هو ما دلت عليه تلك الألفاظ من المعاني، فهي الكفيلة بكل هدى وبيان، العاصمة من كل خطأ وفساد، المُتمسك بِهَا قد استمسك بالعروة الوثقى، وهي الَّتِي دلالاتها الثلاث المُطابقة والتضمن والالتزام كلها حق وصدق، وأما الأسْمَاء والألفاظ البدعية الَّتِي لَمْ ترد فِي الكتاب والسنة فإن تعليق الاعتقادات والأقوال والأحكام عليها يجر إِلَى أقوال باطلة وضلال مبين، فانظر إِلَى أهل الكلام الباطل من الجَهمية والمُعتزلة والقدرية ومن تفرع عنهم لمَا علقوا اعقاداتهم على الألفاظ البدعية ضلوا وأضلوا، ولو هدوا لرشدهم وتَمسكوا بألفاظ الوحي ومعانيه لهدوا إِلَى الصراط المُستقيم.

فصل

فِي كسر الطاغوت الذي نفوا به صفات ذي الملكوت والجبروت

أَهْوِنْ بِذَا الطَّاغُوتِ لَا عَزَّ اسْمُهُ ... طَاغُوتُ ذِي التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ بَلْ جَرِيحٍ بَلْ قَتِيـ ... ـلٍ تَحْتَ ذَا الطَّاغُوتِ فِي الْأَزْمَانِ
وَتَرَى الْجَبَانَ يَكَادُ يَخْلَعُ قَلْبَهُ ... مِنْ لَفْظِهِ تَبًّا لِكُلِّ جَبَانِ
وَتَرَى الْمُخَنَّثَ حِينَ يَقْرَعُ سَمْعَهُ ... تَبْدُو عَلَيْهِ شَمَائِلُ النِّسْوَانِ
وَيَظَلُّ مَنْكُوحًا لِكُلِّ مُعَطِّلٍ ... وَلِكُلِّ زِنْدِيقٍ أَخِي كُفْرَانِ

وَتَرَى صَبِيَّ الْعَقْلِ يَفْزَعُهُ اسْمُهُ ... كَالْغُولِ حِينَ يُقَالُ لِلصِّبْيَانِ
كُفْرَانَ هَذَا الاسْمِ لا سُبْحَانَهُ ... أَبَدًا وَسُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ
كَمْ ذَا التَّتَرُّسُ بِالْمُحَالِ أَمَا تَرَى ... قَدْ مَزَّقَتْهُ كَثْرَةُ السُّهْمَانِ
جِسْمٌ وَتَجْسِيمٌ وَتَشْبِيهٌ أَمَا ... تَعْيُونَ مِنْ فَشْرٍ وَمِنْ هَذَيَانِ
أَأَنْتُمْ وَضَعْتُمْ ذَلِكَ الطَّاغُوتَ ثُمْ ... مَ بِهِ نَفَيْتُمْ مُوجِبَ الْقُرْآنِ
وَجَعَلْتُمُوهُ شَاهِدًا بَلْ حَاكِمًا ... هَذَا عَلَى مَنْ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
أَعَلَى كِتَابِ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... بِاللهِ فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ
فَقَضَاؤُهُ بِالْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ مِثْـ ... ـلُ قِيَامِهِ بِالزُّورِ وَالْعُدْوَانِ
وَقِيَامُهُ بِالزُّورِ مِثْلُ قَضَائِهِ ... بِالْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ
كَمْ ذِي الْجَعَاجِعُ لَيْسَ شَيْءٌ تَحْتَهَا ... إِلاَّ الصَّدَى كَالْبُومِ فِي الْخِرْبَانِ
وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ مُلْحِدِكُمْ وَقَدْ ... جَحَدَ الصِّفَاتِ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ
لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ
ذَا الْمَنْجَنِيقُ وَذَلِكَ الطَّاغُوتُ قَدْ ... هَدَمَا دِيَارَكُمْ إِلَى الأَرْكَانِ
وَاللهُ رَبِّي قَدْ أَعَانَ بِكَسْرِ ذَا ... وَبِقَطْعِ ذَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ هَذَا لازِمٌ ... لِمَقَالِكُمْ حَقًّا لُزُومَ بَيَانِ
فَلَنَا جَوَابَاتٌ ثَلاثٌ كُلُّهَا ... مَعْلُومَةُ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ
مَنْعُ اللُّزُومِ وَمَا بِأَيْدِيكُمْ سِوَى ... دَعْوَى مُجَرَّدَةٍ عَنِ الْبُرْهَانِ
لا يَرْتَضِيهَا عَالِمٌ أَوْ عَاقِلٌ ... بَلْ تِلْكَ حِيلَةُ مُفْلِسٍ فَتَّانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ مَنْعَ لُزُومِهِ ... مِنْكُمْ مُكَابَرَةٌ عَلَى الْبُطْلانِ
فَجَوَابُنَا الثَّانِي امْتِنَاعُ النَّفْيِ فِي ... مَا تَدَّعُونَ لُزُومَهُ بِبَيَانِ
إِنْ كَانَ ذَلِكَ لازِمًا لِلنَّصِّ وَالْـ ... ـمَلْزُومُ حَقٌّ وَهْوَ ذُو بُرْهَانِ
وَالْحَقُّ لازِمُهُ فَحَقٌّ مِثْلُهُ ... أَنَّى يَكُونُ الشَّيْءُ ذَا بُطْلانِ
وَيَكُونُ مَلْزُومًا بِهِ حَقًّا فَذَا ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ
فَتَعَيَّنَ الإِلْزَامُ حِينَئِذٍ عَلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

وَجَعَلْتُمُ أَتْبَاعَهُ مَا تَسْتُرَا ... خَوْفًا مِنَ التَّصْرِيحِ بِالْكُفْرَانِ
وَاللهِ مَا قُلْنَا سِوَى مَا قَالَهُ ... هَذِي مَقَالَتُنَا بِلَا كِتْمَانِ
فَجَعَلْتُمُوهَا جُنَّةً وَالْقَصْدُ مَفْـ ... ـهُومٌ فَنَحْنُ وِقَايَةُ الْقُرْآنِ
هَذَا وَثَالِثُ مَا نُجِيبُ بِهِ هُوَ اسْـ ... ـتِفْسَارُكُمْ يَا فِرْقَةَ الْعِرْفَانِ
مَاذَا الَّذِي تَعْنُونَ بِالْجِسْمِ الَّذِي ... أَلْزَمْتُمُونَا أَوْضِحُوا بِبَيَانِ
تَعْنُونَ مَا هُوَ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ أَوْ ... عَالٍ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
أَوْ ذَا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْأَوْصَافُ أَوْ ... صَافُ الْكَمَالِ عَدِيمَةُ النُّقْصَانِ
أَوْ مَا تَرَكَّبَ مِنْ جَوَاهِرَ فَرْدَةٍ ... أَوْ صُورَةٍ حَلَّتْ هَيُولَى ثَانِ
أَوْ مَا هُوَ الْجِسْمُ الَّذِي فِي الْعُرْفِ أَوْ ... فِي الْوَضْعِ عِنْدَ تَخَاطُبٍ بِلِسَانِ
أَوْ مَا هُوَ الْجِسْمُ الَّذِي فِي الذِّهْنِ ذَا ... كَ يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الْأَذْهَانِ
مَاذَا الَّذِي فِي ذَاكَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُو ... تِ عُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ
فَأْتُوا بِتَعْيِينِ الَّذِي هُوَ لَازِمٌ ... فَإِذَا تَعَيَّنَ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ
فَأْتُوا بِبُرْهَانَيْنِ بُرْهَانِ اللُّزُو ... مِ وَنَفْيِ لَازِمِهِ فَذَانِ اثْنَانِ
وَاللهِ لَوْ نُشِرَتْ لَكُمْ أَشْيَاخُكُمْ ... عَجَزُوا وَلَوْ وَاطَاهُمُ الثَّقَلَانِ
إِنْ كُنْتُمُ أَنْتُمْ فُحُولًا فَابْرُزُوا ... وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيلَةَ النِّسْوَانِ
وَإِذَا اشْتَكَيْتُمْ فَاجْعَلُوا الشَّكْوَى إِلَى الْـ ... ـوَحْيَيْنِ لَا الْقَاضِي وَلَا السُّلْطَانِ
فَنُجِيبُ بِالتَّرْكِيبِ حِينَئِذٍ جَوَا ... بًا شَافِيًا فِيهِ هُدَى الْحَيْرَانِ
الْحَقُّ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُهَا ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ
فَالْجِسْمُ إِمَّا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَا ... فَهُوَ الصَّوَابُ وَلَيْسَ ذَا بُطْلَانِ
أَوْ لَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... فَشَنَاعَةُ الْإِلْزَامِ بِالْبُهْتَانِ
فَالْمَنْعُ فِي إِحْدَى الْمُقَدِّمَتَيْنِ مَعْـ ... ـلُومُ الْبَيَانِ إِذًا بِلَا نُكْرَانِ
الْمَنْعُ إِمَّا فِي اللُّزُومِ أَوِ انْتِفَا ... ءِ اللَّازِمِ الْمَنْسُوبِ لِلْبُطْلَانِ
هَذَا هُوَ الطَّاغُوتُ قَدْ أَضْحَى كَمَا ... أَبْصَرْتُمُوهُ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

شرح

وهذا الطاغوت هو شبهتهم الباطلة؛ حيث زعموا أن إثبات الصفات للباري تستلزم التجسيم؛ لأننا لا نشاهد موصوفًا بالصفات إلا هذه الأجسام، والله ليس كمثله شيء، فتعين نفي الصفات وتعطيلها وأن نتأولها ونأتي لها بمعان مناسبة لها.

هذا حاصل هذا الطاغوت الذي من سمع به ممَّن لا بصيرة له هاله قولهم وخضع له وظن أن هذا الحق وهان عليه ردّ ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات؛ لأنه أعد هذا الطاغوت ترساله.

فيقال في إبطال هذا الطاغوت: قد علم ثبوت الصفات المتنوعة لله تعالى في الكتاب والسنة بألفاظ كثيرة وأساليب متنوعة صريحة يكفي بعضها في إفادة العلم اليقيني، فكل شبهة تناقض هذا المعلوم المفهوم فإنها باطلة كائنة ما كانت، بأي لفظ عبر عنها، وبأي أسلوب حرفت وكذلك قد علم بالضرورة من الدين ثبوت الصفات وهي أصل الأصول وأس الدين، ودلالة الكتاب والسنة عليها أعظم بكثير من دلالتها على الأحكام التي لا ينازع فيها مسلم كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع الأحكام الشرعية، فمن حاول إبطال النصوص الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات كانت محاولته لإبطال بقية شرائع الدين أهون بكثير، ومن نظر الأمر وأمعن التأمل جزم أن محاولة هدم السماوات والأرض والجبال الشوامخ أسهل من محاولة إبطال نص واحد من هذا الأصل الذي قامت عليه العقائد والعلوم والأعمال والخلق والأمر.

ويقال في إبطاله أيضًا: إن تصوره وتصور لوازمه وما يلزم منه من الزور والافتراء والإلحاد وإبطال أصول الإيمان وتشييد أصول الإلحاد والزندقة يكفي العاقل في رده وإبطاله فضلاً عن الأدلة الأخر الدالة على بطلانه.

ويقال أيضًا على وجه التنزل والفرض والتقدير في مقام المجادلة: إذا ألح المعطل وأبى إلا أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم والتركيب ونحوهم مما قالوه من هذا الجنس.

فلنا على هذا ثلاثة أجوبة:

الجواب الأول: المنع، فنقول بكفينا لرد قولكم أن نقول إنه ممنوع، فكل دعوى مُجردة لَمْ تقم على قواعد البراهين اليقينية إذا منعها المجادل كفى في ردها ودعواهم هذه من هذا القبيل.

الجواب الثاني: إذا قلتم: إنه لازم على كل حال وأبيتم إلا ذلك فنقول ما تدعون لزومه من الجسم ونحوه إن كان لازما لإثبات صفات الباري قلنا به لأننا نقول بالحق ولازم الحق حق، فكل نص من الكتاب والسنة نقول به وبجميع لوازمه كما هو الفرض على كل مسلم، كما أننا نعتقد ما دل عليه مطابقة وتضمنا، والإلزام الذي ذكرتموه في الحقيقة إلزام منكم لله ورسوله، فالله ورسوله منهما النص على إثبات تلك الصفات، فويح من استدرك على الله وعلى رسوله وخطأهما، فهل أعظم من هذا الإلحاد فنحن معاشر أهل السنة والجماعة لَمْ نأت بكلام من تلقاء أنفسنا وإنما قلنا ما قاله ربنا ونبينا الذي فرض علينا وعليكم أن نأخذ به كله وأن لا نرد منه شيئًا ولا نستدرك عليه.

فإن قنعتم بهذا الجواب الذي لا يسع مسلمًا الخروج عنه وإلا انتقلنا معكم إلى الجواب الثالث: ما تعنون بالجسم الذي نفيتم به الصفات وألزمتم به أهل السنة هذا الإلزام الذي لا يصدر ممَّن في قلبه إيمان وتعظيم لله ورسوله.

هل مرادكم به أن كل من قام بنفسه فهم جسم، أو كل من هو عال على خلقه فهو جسم.

فعلى هذه التقادير قد دلت البراهين اليقينية الصريحة التي لا معارض لها أصلاً على ثبوت الصفات وعلو الباري على خلقه واستوائه على عرشه، فتعين على كل مسلم تصديقها والاعتراف بها.

فإن كان الجسم لازمًا للإثبات فهو الحق والصواب، وإن لَمْ يكن لازمًا للإثبات فإن إلزامكم لأهل السنة تشنيع وهوى محض وإن أردتم بالجسم غير ذلك فعينوا واحدًا فحينئذٍ تحتاجون إلى أمرين:

أحدهما: أن تبرهنوا على لزوم ذلك المعنى الذي عنيتم ونفيتم به الصفات.

الثاني: أن تبرهنوا على نفي هذا اللازم على تقدير لزومه.

ومن المعلوم أن هذه طلبات مفحمة لا جواب عنها لا من مقلديهم ولا من أئمتهم، فتعين

بطلان هذا الطاغوت الذي نفوا به الصفات للباري والحمد لله رب العالمين.

فصل
في مبدأ العداوة الواقعة بين المثبتين
الموحدين وبين النفاة المعطلين

يـا قَـوْمُ لَـذْرُونَ الْعَـدَاوَةَ بَيْنَنَـا ... مِـنْ أَجْـلِ مَـاذَا فِـي قَـدِيمِ زَمَـانِ
إِنَّـا لَخَيْرْنَـا إِلَـى الْقُـرْآنِ وَالـ ... ـنَّقْـلِ الصَّـحِيحِ مُفَسِّـرِ الْقُـرْآنِ
وَكَذَا إِلَـى الْعَقْـلِ الصَّـرِيحِ وَفِطْـرَةِ الـ ... ـرَّحْمَـنِ قَبْـلَ تَغَيُّـرِ الإِنْسَـانِ
هِـيَ أَرْبَـعٌ مُتَلازِمَـاتٌ بَعْضُهَـا ... قَـدْ صَـدَّقَتْ بَعْضًـا عَلَـى مِيزَانِ
وَاللهِ مَـا اجْتَمَعَـتْ لَـدَيْكُمْ هَـذِهِ ... أَبَـدًا كَمَـا أَقْـرَرْتُمُ بِلِسَـانِ
إِذْ قُلْـتُمُ الْعَقْـلُ الصَّـحِيحُ يُعَـارِضُ الْـ ... ـمَنْقُولَ مِـنْ أَثَـرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ
فَتَقَـدَّمُ الْمَعْقُـولُ ثُـمَّ نُصَـرِّفُ الْـ ... ـمَنْقُولَ بِالتَّأْوِيـلِ ذِي الأَلْـوَانِ
فَـإِذَا عَجَزْنَـا عَنْـهُ أَلْقَيْنَـاهُ لَـمْ ... نَعْبَـأْ بِـهِ قَصْـدًا إِلَـى الإِحْسَـانِ
وَلَكُـمْ بِـذَا سَـلَفٌ لَهُـمْ لَـابَعْتُمْ ... لَمَّـا دَعَـوْا لِلأَخْـذِ بِـالْقُرْآنِ
صَـدُّوا فَلَمَّـا أَنْ أَصِـيبُوا أَقْسَـمُوا ... لَمُرَادُنَـا تَوْفِيـقُ ذِي الإِحْسَـانِ
وَلَقَـدْ أُصِـيبُوا فِـي قُلُـوبِهِمْ وَفِـي ... تِلْـكَ الْعُقُـولِ بِغَايَـةِ النُّقْصَـانِ
فَـأَتَوْا بِـأَقْوَالٍ إِذَا حَصَّلْتَهَـا ... أَسْـمَعْتَ ضَـحْكَةَ هَـازِلٍ مَجَّـانِ
هَـذَا جَـزَاءُ الْمُعْرِضِـينَ عَـنِ الْهُـدَى ... مُتَعَوِّضِـينَ زُخَـارِفَ الْهَـذَيَانِ
وَاضْـرِبْ لَهُـمْ مَـثَلاً بِنَـسْجِ الْقَـوْمِ إِذْ ... يَـأْبَى السُّـجُودَ بِكِبْـرِ ذِي طُغْيَـانِ
ثُـمَّ ارْتَضَـى أَنْ صَـارَ قَـوَّادًا لأَرْ ... بَـابِ الْفُسُـوقِ وَكُـلِّ ذِي عِصْيَـانِ
وَكَـذَاكَ أَهْـلُ الشِّـرْكِ قَـالُوا كَيْـفَ ذَا ... يَخُـصُّ أَلَـى بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ
ثُـمَّ ارْتَضَـوْا أَنْ يَجْعَلُـوا مَعْبُـودَهُمْ ... مِـنْ هَـذِهِ الأَحْجَـارِ وَالأَوْثَـانِ
وَكَـذَاكَ عُبَّـادُ الصَّـلِيبِ خَصَّـوْا بِنَـا ... رَكْبَهُـمْ مِـنَ الشُّـبَّانِ وَالْوِلْـدَانِ
وَأَتَـوْا إِلَـى رَبِّ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَا ... جَعَلُـوا لَـهُ وَلَـدًا مِـنَ الْـذُّكْرَانِ

وَكَذَلِكَ الْجَهْمِي نَزَّهَ رَبَّهُ ... عَنْ عَرْشِهِ مِنْ فَوْقِ [ذِي الأَكْوَانِ][1]

حَذَرًا مِنَ الْحَصْرِ الَّذِي فِي ظَنِّهِ ... أَوْ أَنْ يَرَى مُتَحَيِّزًا بِمَكَانِ

فَأَصَارَهُ عَدَمًا وَلَيْسَ وُجُودُهُ ... مُتَحَقِّقًا فِي خَارِجِ الأَذْهَانِ

[لَكِنَّمَا قُدَمَائِهِمْ قَالُوا بِأَنْ ... نَ الذَّاتَ قَدْ وُجِدَتْ بِكُلِّ مَكَانِ

جَعَلُوهُ فِي الآبَارِ وَالأَنْجَاسِ وَالْـ ... ـخَانَاتِ وَالْخَرَبَاتِ وَالْقِيعَانِ

وَالْقَصْدُ أَنَّكُمْ تَحَيَّزْتُمْ إِلَى الآ ... رَاءِ وَهِيَ كَثِيرَةُ الْهَذَيَانِ

فَتَلَوَّنَتْ مِنْكُمْ فَجِئْتُمْ أَنْتُمْ ... مُتَلَوِّنِينَ عَجَائِبَ الأَلْوَانِ

وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَدْ قَالَهُ الأَشْيَاخُ عَرْضَ وِزَانِ

وَجَعَلْتُمُ أَقْوَالَهُمْ مِيزَانَ مَا ... قَدْ قَالَهُ وَالْعَوْلُ فِي الْمِيزَانِ

وَوَرَدْتُمُ سِفْلَ الْمِيَاهِ وَلَمْ نَكُنْ ... نَرْضَى بِذَاكَ الْوِرْدُ لِلظَّمْآنِ

وَأَخَذْتُمُ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ وَنَحْـ ... ـنُ سِرْنَا فِي الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِي

وَجَعَلْتُمُ تُرْسَ الْكَلَامِ مُجِنَّكُمْ ... نُبًا لِذَاكَ التُّرْسِ عِنْدَ طِعَانِ]

وَرَمَيْتُمُ أَهْلَ الْحَدِيثِ بِأَسْهُمٍ ... عَنْ قَوْسِ مَوْتُورِ الْفُؤَادِ جَبَانِ

فَتَتَرَّسُوا بِالْوَحْيِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... تَتْلُوهُ نِعْمَ التُّرْسُ لِلشُّجْعَانِ

هُوَ تُرْسُهُمْ وَاللهِ مِنْ عُدْوَانِكُمْ ... وَالتُّرْسُ يَوْمَ الْبَعْثِ مِنْ نِيرَانِ

أَفَتَارِكُوهُ لِفَشْرِكُمْ وَمُحَالِكُمْ ... لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

وَدَعَوْتُمُونَا لِلَّذِي قُلْتُمْ بِهِ ... قُلْنَا مَعَاذَ اللهِ مِنْ خِذْلَانِ

فَاشْتَدَّ ذَاكَ الْحَرْبُ بَيْنَ فَرِيقِنَا ... وَفَرِيقِكُمْ وَتَفَاقَمَ الأَمْرَانِ

وَتَأَصَّلَتْ تِلْكَ الْعَدَاوَةُ بَيْنَنَا ... مِنْ يَوْمِ أَمْرِ اللهِ لِلشَّيْطَانِ

بِسُجُودِهِ فَعَصَى وَعَارَضَ أَمْرَهُ ... بِقِيَاسِهِ وَبِعَقْلِهِ الْخَوَّانِ

فَأَتَى التَّلَامِيذُ الْوِقَاحُ فَعَارَضُوا ... أَخْبَارَهُ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ

وَمُعَارِضٌ لِلأَمْرِ مِثْلُ مُعَارِضِ الْـ ... ـأَخْبَارِ هُمْ فِي كُفْرِهِمْ صِنْوَانِ

مَنْ عَارَضَ الْمَنْصُوصَ بِالْمَعْقُولِ قَدْ ... مَا أَخْبَرُونَا يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

---

(١) كذا في (س، ق، ط) أما في (خ) [كل ما كان].

أَوَ مَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ الْقَدَرِي وَالْـ ... ـجَبْرِي أَيْضًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ
إِذْ قَالَ قَدْ أَغْوَيْتَنِي وَفَتَنْتَنِي ... لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ مَدَى الْأَزْمَانِ
فَاحْتَجَّ بِالْمَقْدُورِ ثُمَّ أَبَانَ أَنَّـ ... ـنَ الْفِعْلَ مِنْهُ بِغَيَّةٍ وَزِيَانِ
فَانْظُرْ إِلَى مِيرَاثِهِمْ ذَا الشَّيْخَ بِالتَّـ ... ـعْصِيبِ وَالْمِيرَاثِ بِالسُّهْمَانِ
فَسَأَلْتُكُمْ بِاللهِ مَنْ وُرَّاثُهُ ... مِنَّا وَمِنْكُمْ بَعْدَ ذَا التِّبْيَانِ
هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا ... إِذْ ذَاكَ وَاتَّصَلَتْ إِلَى ذَا الْآنِ
أَصَّلْتُمْ أَصْلًا وَأَصَّلَ خَصْمُكُمْ ... أَصْلًا فَحِينَ تَقَابَلَ الْأَصْلَانِ
ظَهَرَ التَّبَايُنُ فَانْتَشَتْ مَا بَيْنَنَا الْـ ... ـحَرْبُ الْعَوَانُ وَصِيحَ بِالْأَقْرَانِ
أَصَّلْتُمْ آرَا الرِّجَالِ وَخَرَّصَهَا ... مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ
هَذَا وَكَمْ رَأْيٍ لَهُمْ فَبِرَأْيِ مَنْ ... تَزِنُ النُّصُوصَ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ
كُلٌّ لَهُ رَأْيٌ وَمَعْقُولٌ لَهُ ... يَدْعُو وَيَمْنَعُ أَخْذَ رَأْيِ فُلَانِ
وَالْخَصْمُ أَصْلُ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ مَعْ ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
وَبَنَى عَلَيْهِ فَاعْتَلَى بُنْيَانُهُ ... نَحْوَ السَّمَا أَعْظِمْ بِذَا الْبُنْيَانِ
وَعَلَى شَفَا جُرُفٍ بَنَيْتُمْ أَنْتُمْ ... فَأَتَتْ سُيُولُ الْوَحْيِ وَالْإِيمَانِ
قَلَعَتْ أَسَاسَ بِنَائِكُمْ فَتَهَدَّمَتْ ... تِلْكَ السُّقُوفُ وَخَرَّ لِلْأَرْكَانِ
اللهُ أَكْبَرُ لَوْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ الْـ ... ـبُنْيَانَ حِينَ عَلَا كَمِثْلِ دُخَانِ
تَسْمُو إِلَيْهِ نَوَاظِرٌ مِنْ تَحْتِهِ ... وَهُوَ الْوَضِيعُ وَلَوْ يَرَى بِعِيَانِ
فَاصْبِرْ لَهُ وَهْنًا وَرُدَّ الطَّرْفَ تَلْـ ... ـقَاهُ قَرِيبًا فِي الْحَضِيضِ الدَّانِي

شرح

فالعدواة منشأها من المآخذ والأدلة الَّتي بنى عليها كل فريق منهما اعتقاداته وأقواله وأحواله، وأنَّها في غاية التباين، وقد تقدم مرارًا أن المُثبتين المُوحدين بنوا عقيدتهم على ما قاله الله في كتابه وقاله رسوله ﷺ وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأيد ذلك العقل الصحيح والفطرة المُستقيمة، والمُعطلة عكسوا الأمر فجعلوا عقولهم الفاسدة وآرائهم الضالة

أصلا عليه يعتمدون، فهذا التخالف في الأصل والطريق لازمه التعارض والتخالف والتعادي، ومن أراد الوفاق بدون اتفاق فقد رام المحال.

فصل

في بيان أن التعطيل أساس الزندقة والكفران والإثبات أساس العلم والإيمان

مَنْ قَالَ إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلاً يَقُومُ بِهِ قِيَامَ مَعَانِ

كَلاَّ وَلَيْسَ الأَمْرُ أَيْضًا قَائِمًا ... بِالرَّبِّ بَلْ مِنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ

كَلاَّ وَلَيْسَ اللهُ فَوْقَ عِبَادِهِ ... بَلْ عَرْشُهُ خَلْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

فَلاَثَةٌ وَاللهِ لاَ تُبْقِي مِنَ الْـ ... إِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ بِوَزَانِ

وَقَدِ اسْتَرَاحَ مُعَطِّلٌ هَذِي الثَّلاَ ... ثَ مِنَ الإِلَهِ وَجُمْلَةِ الْقُرْآنِ

وَمِنَ الرَّسُولِ وَدِينِهِ وَشَرِيعَةِ الْـ ... إِسْلاَمِ بَلْ مِنْ جُمْلَةِ الأَدْيَانِ

وَتَمَامُ ذَاكَ جُحُودَةُ لِصِفَاتِهِ ... وَالذَّاتُ دُونَ الْوَصْفِ ذُو بُطْلاَنِ

وَتَمَامُ ذَا الإِيمَانِ إِقْرَارُ الْفَتَى ... بِاللهِ فَاطِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

فَإِذَا أَقَرَّ بِهِ وَعَطَّلَ كُلَّ مَفْـ ... ـرُوضٍ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ عِصْيَانِ

لَمْ يَنْقُصِ الإِيمَانُ حَبَّةَ خَرْدَلٍ ... أَنَّى وَلَيْسَ بِقَابِلِ النُّقْصَانِ

وَتَمَامُ هَذَا قَوْلُهُ أَنَّ الثَّبُو ... وَةَ لَيْسَ وَصْفًا قَامَ بِالإِنْسَانِ

لَكِنْ تَعَلُّقُ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَدِيـ ... ـمِ بِوَاحِدٍ مِنْ جُمْلَةِ الإِنْسَانِ

هَذَا وَمَا ذَاكَ التَّعَلُّقُ ثَابِتًا ... فِي خَارِجٍ بَلْ ذَاكَ فِي الأَذْهَانِ

فَتَعَلُّقُ الأَقْوَالِ لاَ بِمُطِيعِ الَّـ ... ـذِي وَقَفَتْ عَلَيْهِ الْكَوْنُ فِي الأَعْيَانِ

هَذَا إِذَا مَا حَصَّلَ الْمَعْنَى الَّذِي ... قُلْتُمْ هُوَ النَّفْسِي فِي الْبُرْهَانِ

لَكِنْ جُمْهُورُ الطَّوَائِفِ لَمْ يَرَوْا ... ذَا مُمْكِنًا بَلْ ذَاكَ ذُو بُطْلاَنِ

مَا قَالَ هَذَا غَيْرُكُمْ مِنْ سَائِرِ النَّـ ... ـظَّارِ فِي الآفَاقِ وَالأَزْمَانِ

تَسْعُونَ وَجْهًا بَيِّنَتْ بُطْلاَنَهُ ... لَوْلاَ الْقَرِيحَةُ لَسْتُمُ بِوَزَانِ

يَا قَوْمُ أَيْنَ الرَّبُّ أَيْنَ كَلاَمُهُ ... أَيْنَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بَيَانِ

مَا فَوْقَ عَرْشِ الرَّبِّ مَنْ هُوَ قَائِلٌ ... طَهَ وَلَا حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ

وَلَقَدْ شَهِدْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلُكُمْ ... وَاللهُ يَشْهَدُ مَعْ أُولِي الإِيمَانِ

وَارْحَمْتَاهُ لَكُمْ عَنَتْكُمْ حَظُّكُمْ ... مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

وَنَسَبْتُمْ لِلْكُفْرِ أَوْلَى مِنْكُمُ ... بِاللهِ وَالإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

هَذِي بِضَاعَتُكُمْ لَمَنْ بِنْسَتْ لَهُ ... فَلَقَدْ ارْتَضَى بِالْجَهْلِ وَالْخُسْرَانِ

وَتَمَامُ هَذَا قَوْلُكُمْ فِي مَبْدَإٍ ... وَمَعَادِنَا أَعْنِي الْمَعَادَ الثَّانِي

وَتَمَامُ هَذَا قَوْلُكُمْ بِفَنَاءِ ذَا ... رِ الْخُلْدِ فَالدَّارَانِ فَانِيَتَانِ

يَا قَوْمَنَا بَلَغَ الْوُجُودُ بِأَسْرِهِ الدْ ... دُنْيَا مَعَ الأُخْرَى مَعَ الإِمْكَانِ

وَالْخَلْقُ وَالأَمْرُ الْمُنَزَّلُ وَالْجَزَا ... وَمَنَازِلُ الْجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ

وَالنَّاسُ قَدْ وَرِثُوهُ بَعْدَ فَنَائِهِمْ ... ذُو السُّهْمِ وَالسُّهْمَيْنِ وَالسُّهْمَانِ

بِنْسَ الْمَوْرَثُ وَالْمَوْرَثُ وَالثَّرَا ... ثُ ثَلَاثَةٌ أَهْلٌ لِكُلِّ هَوَانِ

يَا وَارِثِينَ لَهُمْ بُشْرَاكُمُ ... مَا إِرْثُكُمْ مَعْ إِرْثِهِمْ بِيَانِ

شَتَّانَ بَيْنَ الْوَارِثَيْنِ وَبَيْنَ مَوْ ... رُوثَيْهِمَا وَسِهَامِ ذِي سُهْمَانِ

يَا قَوْمُ مَا صَاحَ الأَئِمَّةُ جَهْدَهُمْ ... بِالْجَهْلِ مِنْ أَقْطَارِهَا بِأَذَانِ

إِلَّا لِمَا عَرَفُوهُ مِنْ أَقْوَالِهِ ... وَمَآلِهَا بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

قَوْلُ الرَّسُولِ وَقَوْلُ جَهْمٍ عِنْدَنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

نَصَحُوكُمُ وَاللهِ جَهْدَ نَصِيحَةٍ ... مَا فِيهِمُ وَاللهِ مِنْ خَوَّانِ

فَخُذُوا بِهَدْيِهِمُ فَرَبِّي ضَامِنٌ ... وَرَسُولُهُ أَنْ تَفْعَلُوا بِجِنَانِ

فَإِذَا أَبَيْتُمْ فَالسَّلَامُ عَلَى الَّـ ... ـتَّبِعِ الْهُدَى وَالْقَادِ لِلْقُرْآنِ

سِيرُوا عَلَى لُحُبِ الْعَزَائِمِ وَاجْعَلُوا ... بِظُهُورِهَا الْمَسْرَى إِلَى الرَّحْمَنِ

سَبَقَ الْمُفَرِّدُ وَهُوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ ... فِي كُلِّ حَالٍ لَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

لَكِنْ أَخُو الْغَفَلَاتِ مُنْقَطِعٌ بِهِ ... بَيْنَ الْمَفَاوِزِ تَحْتَ ذِي الْغَلَلَانِ

صَيْدُ السِّبَاعِ وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ ... بِنْسَ الْمُصِيفُ لأَعْجَزِ الصِّيفَانِ

وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ بِعْسَ الْهَادِي الَّـ ... ـذِي لَا يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ كُلَّ أَوَانِ

وَالذِّكْرُ أَنْوَاعٌ فَأَعْلَى نَوْعِهِ ... ذِكْرُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا الرَّحْمَانِ
وَنُعُوتُهَا أَصْلٌ لِهَذَا الذِّكْرِ وَالـ ... ـنَّافِي لَهَا دَاعٍ إِلَى النُّسْيَانِ
فَلِذَاكَ كَانَ خَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ ذَا ... لاَ مَرْحَبًا بِخَلِيفَةِ الشَّيْطَانِ
وَالذَّاكِرُونَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فَأَعْـ ... ـلاَهُمْ أُولُوا الإِيمَانِ وَالعِرْفَانِ
بِصِفَاتِهِ العُلْيَا إِذَا قَامُوا بِحَمْـ ... ـدِ اللهِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلاَنِ
وَأَخَصُّ أَهْلِ الذِّكْرِ بِالرَّحْمَنِ أَعْـ ... ـلَمُهُمْ بِهَا هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ كَانَ مُحَمَّدٌ وَأَبُوهُ إِبْـ ... ـرَاهِيمُ وَالْمَوْلُودُ مِنْ عِمْرَانِ
وَكَذَاكَ نُوحٌ وَابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَنَا هُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ
لِمَعَارِفٍ خَصَّتْ لَهُمْ بِصِفَاتِهِ لَمْ يُؤْتَهَا أَحَدٌ مِنَ الإِنْسَانِ
وَهُمْ أُولُو العَزْمِ الَّذِينَ بِسُورَةِ الـ ... ـأَحْزَابِ وَالشُّورَى أَتَوْا بِبَيَانِ
وَكَذَلِكَ القُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ الـ ... ـأَوْصَافِ وَهِيَ القَصْدُ بِالقُرْآنِ
لِيَصِيرَ مَعْرُوفًا لَنَا بِصِفَاتِهِ وَيَصِيرَ مَذْكُورًا لَنَا بِجَنَانِ
وَلِسَانِ أَيْضًا مَعْ مَحَبَّتِنَا لَهُ فَلأَجْلِ ذَا الإِثْبَاتُ فِي الإِيمَانِ
مِثْلُ الأَسَاسِ مِنَ البِنَاءِ فَمَنْ يَرُمْ هَدْمَ الأَسَاسِ فَكَيْفَ بِالبُنْيَانِ
وَاللهِ مَا قَامَ البِنَاءُ لِدِينِ رُسْـ ... ـلِ اللهِ بِالتَّعْطِيلِ لِلأَذْهَانِ
مَا قَامَ إِلاَّ بِالصِّفَاتِ مُفَصَّلاً إِثْبَاتُهَا لِتَفَصُّلِ ذِي عِرْفَانِ
فَهِيَ الأَسَاسُ لِدِينِنَا وَلِكُلِّ دِيـ ... ـنٍ قَبْلَهُ مِنْ سَائِرِ الأَدْيَانِ
وَكَذَاكَ زُلْفَةُ العِبَادِ أَسَاسُهَا التَّـ ... ـعْطِيلُ يَشْهَدُ ذَا أُولُوا العِرْفَانِ
وَاللهِ مَا فِي الأَرْضِ زُلْفَةُ بَدَّتْ إِلاَّ مِنَ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ
وَاللهِ مَا فِي الأَرْضِ زُلْفَةُ بَدَّتْ مِنْ جَانِبِ الإِثْبَاتِ وَالقُرْآنِ
هَذِي زُلَافَةُ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ وَمُقَاتِلُهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ
مَا فِيهِمُ أَحَدٌ يَقُولُ اللهُ فَوْ ... قَ العَرْشِ مُسْتَوْلٍ عَلَى الأَكْوَانِ
وَيَقُولُ إِنَّ اللهَ جَلَّ جَلاَلُهُ مُتَكَلِّمٌ بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ
وَيَقُولُ إِنَّ اللهَ كَلَّمَ عَبْدَهُ مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِذِي الآذَانِ

وَيَقُولُ إِنَّ النَّقْلَ غَيْرُ مُعَارِضٍ ... لِلْعَقْلِ بَلْ أَمْرَانِ مُتَّفِقَانِ
وَالنَّقْلُ جَاءَ بِمَا يُحَارُ الْعَقْلُ فِيـ ... ـهِ لَا بِالْمُحَالِ الْبَيِّنِ الْبُطْلَانِ
فَانْظُرْ إِلَى الْجَهْمِيِّ كَيْفَ أَتَى إِلَى ... أَسِّ الْهُدَى وَمَعَاقِلِ الْإِيمَانِ
بِمَعَاوِلِ التَّعْطِيلِ يَقْطَعُهَا فَمَا ... يَبْقَى عَلَى التَّعْطِيلِ مِنْ إِيمَانِ
يَدْرِي بِهَذَا عَارِفٌ بِمَآخِذِ الْـ ... أَقْوَالِ مُضْطَلِعٌ بِهَذَا الشَّانِ
وَاللهِ لَوْ حَدَّقْتُمُ لَرَأَيْتُمُ ... هَذَا وَأَعْظَمَ مِنْهُ رَأْيَ عِيَانِ
لَكِنْ عَلَى تِلْكَ الْعُيُونِ غِشَاوَةٌ ... مَا حِيلَةُ الْكَحَّالِ فِي الْعِمْيَانِ

شرح

ووجه ذلك ظاهر؛ فإن أصولهم الَّتِي ذكرناها وشرحناها مرارًا تقتضي ما ذكره المُصنف.

فإثبات صفات الله على الوجه الوارد في الكتاب والسنة هو أصل العلوم وأس الإيمان، فأصول الإيمان وفروعه لا تبني ولا تثبت ولا تقوى ولا تتم إلا بإثبات الصفات.

وأما تعطيل الصفات ونفيها لا فرق بين الصفات الذاتية وبين صفات الأفعال فهذا بعينه هو الكفر والإلحاد، فمن لا وصف له ولا فعل هل يتصور وجوده فيكون وجود كل المَوجودات أكمل من وجود من قالوا فيه ذلك.

وأيضًا من قوله: أدلة الوحْيَيْن أدلة لفظية وأدلة عقول زنادقة المُلحدين براهين يقينه فهذا إبطال للوحي وكفر بالرسالة وترجيح لأقوال أعداء الرسل على ما جاءت به الرسل، فالمثبتون لصفات الله قلوبهم ملأنة من تعظيم الله والخُضوع له وألسنتهم على الدوام تلهج بذكره، وهو في كل وقت في مزيد من إيمانهم وأحوالهم بخلاف المعطلين.

فصل

في بهت أهل الشرك والتعطيل في رميهم أهل التوحيد والإثبات بتنقيص الرسول

قَالُوا لَنَقَّصْتُمْ رَسُولَ اللهِ وَا ... عَجَبًا لِهَذَا الْبَغْيِ وَالْبُهْتَانِ

عَزَلُوهُ أَنْ يَحْتَجَّ قَطُّ بِقَوْلِهِ ... فِي الْعِلْمِ بِاللهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
عَزَلُوا كَلَامَ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... عَنْ ذَاكَ عَزْلًا لَيْسَ ذَا كِتْمَانِ
جَعَلُوا حَقِيقَتَهُ وَظَاهِرَهُ هُوَ الْـ ... ـكُفْرُ الصَّرِيحُ الْبَيِّنُ الْبُطْلَانِ
قَالُوا وَظَاهِرُهُ هُوَ التَّشْبِيهُ وَالتَّـ ... ـجْسِيمُ حَاشَا ظَاهِرَ الْقُرْآنِ
مَنْ قَالَ فِي الرَّحْمَنِ مَا دَلَّتْ عَلَيْـ ... ـهِ حَقِيقَةُ الْأَخْبَارِ وَالْفُرْقَانِ
فَهُوَ الْمُشَبِّهُ وَالْمُمَثِّلُ وَالْمُجَسِّـ ... ـمُ عَابِدُ الْأَوْثَانِ لَا الرَّحْمَنِ
تَاللهِ قَدْ مُسِخَتْ عُقُولُكُمُ فَلَيْـ ... ـسَ وَرَاءَ هَذَا قَطُّ مِنْ نُقْصَانِ
وَرَمَيْتُمُو حِزْبَ الرَّسُولِ وَجُنْدَهُ ... بِمُصَابِكُمْ يَا فِرْقَةَ الْبُهْتَانِ
وَجَعَلْتُمُ التَّنْقِيصَ عَيْنَ وِفَاقِهِ ... إِذْ لَمْ يُوَافِقْ ذَاكَ رَأْيَ فُلَانِ
أَنْتُمْ تَنَقَّصْتُمْ إِلَهَ الْعَرْشِ وَالْـ ... ـقُرْآنَ وَالْمَبْعُوثَ بِالْقُرْآنِ
نَزَّهْتُمُوهُ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ ... وَعَنِ الْكَلَامِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ
وَجَعَلْتُمُ ذَا كُلَّهُ التَّشْبِيهَ وَالتَّـ ... ـمْثِيلَ وَالتَّجْسِيمَ ذَا الْبُطْلَانِ
وَكَلَامُكُمْ فِيهِ الشِّفَاءُ وَغَايَةُ التَّـ ... ـحْقِيقِ يَا عَجَبًا لِذَا الْخِذْلَانِ
جَعَلُوا عُقُولَهُمُ أَحَقَّ بِأَخْذِ مَا ... فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
وَكَلَامُهُ لَا يُسْتَفَادُ بِهِ الْيَقِيـ ... ـنُ لِأَجْلِ ذَا لَا يُقْبَلُ الْخَصْمَانِ
تَحْكِيمُهُ عِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا بَلِ الْـ ... ـمَعْقُولُ ثُمَّ الْمَنْطِقُ الْيُونَانِي
أَيِ التَّنَقُّصِ بَعْدَ ذَا لَوْلَا الْوَقَا ... حَةُ وَالْجَرَاءَةُ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
يَا مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَنُورٌ قَدْ غَدَا ... يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كُلَّ زَمَانِ
لَكِنَّنَا قُلْنَا مَقَالَةَ صَارِخٍ ... فِي كُلِّ وَقْتٍ بَيْنَكُمْ بِأَذَانِ
الرَّبُّ رَبٌّ وَالرَّسُولُ فَعَبْدُهُ ... حَقًّا وَلَيْسَ لَنَا إِلَهٌ ثَانِ
فَلِذَاكَ لَمْ نَعْبُدْهُ مِثْلَ عِبَادَةِ الرَّ ... حْمَنِ فِعْلِ الْمُشْرِكِ النَّصْرَانِي
كَلَّا وَلَمْ نَغْلُ الْغُلُوَّ كَمَا نَهَى ... عَنْهُ الرَّسُولُ مَخَافَةَ الْكُفْرَانِ
لِلهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ ... وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
لَا تَجْعَلُوا الْحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا ... مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانِ

فَالْحَجُّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ ... وَكَذَا الصَّلَاةُ وَذَبْحُ ذَا الْقُرْبَانِ
وَكَذَا السُّجُودُ وَنَذْرُنَا وَيَمِينُنَا ... وَكَذَا مَتَابُ الْعَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ
وَكَذَا التَّوَكُّلُ وَالْإِنَابَةُ وَالتُّقَى ... وَكَذَا الرَّجَاءُ وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ
وَكَذَا الْعِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ ... إِيَّاكَ نَعْبُدُ ذَانِ تَوْحِيدَانِ
وَعَلَيْهِمَا قَامَ الْوُجُودُ بِأَسْرِهِ ... دُنْيَا وَأُخْرَى حَبَّذَا الرُّكْنَانِ
وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّـ ... ـهْلِيلُ حَقُّ إِلَهِنَا الدَّيَّانِ
لَكِنَّمَا التَّعْزِيرُ وَالتَّوْقِيرُ حَقْـ ... ـقٌ لِلرَّسُولِ بِمُقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَالْحَبُّ وَالْإِيمَانُ وَالتَّصْدِيقُ لَا ... يَخْتَصُّ بَلْ حَقَّانِ مُشْتَرَكَانِ
هَذِي تَفَاصِيلُ الْحُقُوقِ ثَلَاثَةٌ ... لَا تَجْهَلُوهَا يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
حَقُّ الْإِلَهِ عِبَادَةٌ بِالْأَمْرِ لَا ... بِهَوَى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيْطَانِ
مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ شَيْئًا هُمَا ... سَبَبَا النَّجَاةِ فَحَبَّذَا السَّبَبَانِ
وَرَسُولُهُ فَهُوَ الْمُطَاعُ وَقَوْلُهُ الْـ ... ـمَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ
وَالْأَمْرُ مِنْهُ الْحَتْمُ لَا تَخْيِيرَ فِيـ ... ـهِ عِنْدَ ذِي عَقْلٍ وَذِي إِيمَانِ
مَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَهُ قُمْنَا عَلَى ... أَقْوَالِهِ بِالسَّبْرِ وَالْمِيزَانِ
إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ ... فَعَلَى الرُّءُوسِ تُشَالُ كَالتِّيجَانِ
أَوْ خَالَفَتْ هَذَا رَدَدْنَاهَا عَلَى ... مَنْ قَالَهَا مَنْ كَانَ مِنْ إِنْسَانِ
أَوْ أَشْكَلَتْ عَنَّا تَوَقَّفْنَا وَلَمْ ... نَجْزِمْ بِلَا عِلْمٍ وَلَا بُرْهَانِ
هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ عِلْمُنَا ... وَبِهِ نَدِينُ اللهَ كُلَّ أَوَانِ
فَهُوَ الْمُطَاعُ وَأَمْرُهُ الْعَالِي عَلَى ... أَمْرِ الْوَرَى وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ
وَهُوَ الْمُقَدَّمُ فِي مَحَبَّتِنَا عَلَى الْـ ... ـأَهْلِينَ وَالْأَزْوَاجِ وَالْوِلْدَانِ
وَعَلَى الْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ حَتَّى عَلَى النَّـ ... ـفْسِ الَّتِي قَدْ ضَمَّهَا الْجَنَبَانِ
وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ أَعْدَاءِ الْمَسِيـ ... ـحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ
إِنَّا تَنَقَّصْنَا الْمَسِيحَ بِقَوْلِنَا ... عَبْدٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ
لَوْ قُلْتُمْ وَلَدٌ إِلَهٌ خَالِقٌ ... وَفَّيْتُمُوهُ حَقَّهُ بِوِزَانِ

وَكَذَاكَ أَشْبَاهُ النَّصَارَى قَدْ غَلَوْا ... فِي دِينِهِمْ بِالْجَهْلِ وَالطُّغْيَانِ

صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولَ وَدِينَنَا ... فِي صُورَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ

فَانْظُرْ إِلَى تَبْدِيلِهِمْ تَوْحِيدَهُ ... بِالشِّرْكِ وَالإِيمَانِ بِالْكُفْرَانِ

وَانْظُرْ إِلَى تَحْرِيفِهِ التَّوْحِيدَ مِنْ ... أَبْوَابِ كُلِّ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

وَاجْمَعْ مَقَالَتَهُمْ وَمَا قَدْ قَالَهُ ... وَاسْتَدْعِ بِالنُّقَّادِ وَالْوَزَّانِ

عَقْلٍ وَفِطْرَتِكَ السَّلِيمَةِ ثُمَّ زِنْ ... هَذَا وَذَا لاَ تَطْغَ فِي الْمِيزَانِ

فَهُنَالِكَ تَعْلَمُ أَيَّ حِزْبَيْنَا هُوَ الْـ ... ـمُتَنَقِّصُ الْمَنْصُوصُ ذُو الْعُدْوَانِ

رَامِي الْبَرِيءِ بِدَائِهِ وَمُصَابِهِ ... فِعْلَ الْمُبَاهِتِ أَوْقَحِ الْحَيَوَانِ

كَمُعَيِّرٍ لِلنَّاسِ بِالزُّعْلِ الَّذِي ... هُوَ ضَرَّتْهُ فَاعْجَبْ لِذِي الْهَيْتَانِ

يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَلْ يَا أُمَّةَ الـ ... ـدَّعْوَى بِلاَ عِلْمٍ وَلاَ عِرْفَانِ

وَاللهِ مَا قَدَّمْتُمُ يَوْمًا مَقَا ... لَتَهُ عَلَى التَّقْلِيدِ لِلإِنْسَانِ

وَاللهِ مَا قَالَ الشُّيُوخُ وَقَالَ إِنْ ... لاَ كُنْتُمُ مَعَهُمْ بِلاَ كِتْمَانِ

وَاللهِ أَغْلاَطُ الشُّيُوخِ لَدَيْكُمُ [أَوْلَى مِنَ الْمَعْصُومِ بِالْبُرْهَانِ][1]

وَكَذَا قَضَيْتُمْ بِالَّذِي حَكَمَتْ بِهِ ... جَهْلاً عَلَى الأَخْيَارِ وَالْقُرْآنِ

وَاللهِ إِنَّهُمُ لَدَيْكُمْ مِثْلُ مَعْـ ... ـصُومٍ وَهَذَا غَايَةُ الطُّغْيَانِ

لِلَّهِ لَكُمْ مَاذَا التَّنَقُّصُ بَعْدَ ذَا ... لَوْ تَعْرِفُونَ الْعَدْلَ مِنْ نُقْصَانِ

وَاللهِ مَا يُرْضِيهِ جَعْلُكُمُ لَهُ ... نِدًّا لِشِرْكِكُمُ وَلِلْعُدْوَانِ

وَكَذَاكَ جَعْلُكُمُ الْمَشَايِخَ جُنَّةً ... بِخِلاَفِهِ وَالْقَصْدُ ذُو تِبْيَانِ

وَاللهُ يَشْهَدُ ذَا بِجِدِّ قُلُوبِكُمْ ... وَكَذَاكَ يَشْهَدُهُ أُولُو الإِيمَانِ

وَاللهِ مَا عَظَّمْتُمُوهُ طَاعَةً ... وَمَحَبَّةً يَا فِرْقَةَ الْعِصْيَانِ

أَلَّى وَجَهْلُكُمُ بِهِ وَبِدِينِهِ ... وَخِلاَفُكُمْ لِلْوَحْيِ مَعْلُومَانِ

أَوْصَاكُمُ أَشْيَاخُكُمْ بِخِلاَفِهِمْ ... لَوْ قَالَهُ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

خَالَفْتُمُ قَوْلَ الشُّيُوخِ وَقَوْلَهُ ... فَعَدَا لَكُمْ خُلْفَانِ مُتَّفِقَانِ

---

(١) كذا في (ط، ق) وفي (خ) [عين الصواب ومقتضى البرهان].

وَاللهِ أَمْرُكُمْ عَجِيبٌ مُعْجِبٌ ... ضِدَّانِ فِيكُمْ لَيْسَ يَتَّفِقَانِ

تَقْدِيمُ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَيْهِ مَعْ ... هَذَا الْغُلُوِّ فَكَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

كَفَّرْتُمْ مَنْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ جَهْـ ... ـلاً مِنْكُمْ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

لَكِنْ تَجَرَّدْتُمْ لِنَصْرِ الشِّرْكِ وَالْـ ... ـبِدَعِ الْمُضِلَّةِ فِي رِضَا الشَّيْطَانِ

وَاللهِ لَمْ نَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيدِ لِلتَّـ ... ـوْحِيدِ ذَاكَ وَصِيَّةُ الرَّحْمَنِ

وَرِضَا رَسُولِ اللهِ مِنَّا لاَ غُلُوْ ... وَ الشِّرْكِ أَصْلِ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ دُعَاءَنَا ... إِيَّاهُ بَادَرْنَا إِلَى الإِذْعَانِ

وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ سُجُودَنَا ... كُنَّا نَخِرُّ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

وَاللهِ مَا يَرْضِيهِ مِنَّا غَيْرَ إِخْـ ... ـلاَصٍ وَتَحْكِيمٍ لِذَا الْقُرْآنِ

وَلَقَدْ نَهَى ذَا الْخَلْقَ عَنْ إِطْرَائِهِ ... فِعْلَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

وَلَقَدْ نَهَانَا أَنْ نُصَيِّرَ قَبْرَهُ ... عِيدًا حَذَارِ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

وَدَعَا بِأَلاَّ يَجْعَلَ الْقَبْرُ الَّذِي ... قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الأَوْثَانِ

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلاَثَةِ الْجُدْرَانِ

حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الْوَفَاةِ مُصَرِّحًا ... بِاللَّعْنِ يَصْرُخُ فِيهِمُ بِأَذَانِ

وَعَنَى الأُلَى جَعَلُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدًا ... وَهُمُ الْيَهُودُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

وَاللهِ لَوْلاَ ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ... لَكِنَّهُمْ حَجَبُوهُ بِالْحِيطَانِ

قَصَدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيَمْـ ... ـتَنِعَ السُّجُودُ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

قَصَدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدَهُ التَّـ ... ـجْرِيدَ لِلتَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ

يَا فِرْقَةً جَهِلَتْ نُصُوصَ نَبِيِّهِمْ ... وَقُصُودَهُ وَحَقِيقَةَ الإِيمَانِ

فَسَطَوْا عَلَى أَتْبَاعِهِ وَجُنُودِهِ ... بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

لاَ تَعْجَلُوا وَتَبَيَّنُوا وَتَثَبَّتُوا ... فَمُصَابُكُمْ مَا فِيهِ مِنْ حَيْرَانِ

قُلْنَا الَّذِي قَالَ الأَئِمَّةُ قَبْلَنَا ... وَبِهِ النُّصُوصُ أَتَتْ عَلَى التِّبْيَانِ

الْقَصْدُ حَجُّ الْبَيْتِ وَهْوَ فَرِيضَةُ الرَّ ... حْمَنِ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ

وَرِحَالُنَا شُدَّتْ إِلَيْهِ مِنَ بِقَا ... عِ الأَرْضِ قَاصِيهَا كَذَاكَ الدَّانِي

مَنْ لَمْ يَزُرْ بَيْتَ الإِلَهِ فَمَا لَهُ ... مِنْ حَجِّهِ سَهْمٌ وَلَا سُهْمَانِ

وَكَذَا تَشُدُّ رِحَالُنَا لِلْمَسْجِدِ النَّـ ... ـبَوِيِّ خَيْرِ مَسَاجِدِ الْبُلْدَانِ

مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أَوْ عَلَى الإِطْلَاقِ فِيـ ... ـهِ الْخُلْفُ بَيْنَ الْقَوْمِ مُنْذُ زَمَانِ

وَلِزِيَارَةِ الْقَبْرِ فَرْضًا لَكِنِ النُّـ ... ـعْمَانُ بِالْأَبِي ذَا وَلِلنُّعْمَانِ

أَصْلٌ هُوَ النَّافِي الْوُجُوبَ فَإِنَّهُ ... مَا جِئْتُهُ فَرْضًا عَلَى الإِنْسَانِ

وَلَنَا بَرَاهِينٌ لَدَلُّ بِأَنَّهُ ... بِالنَّدْبِ مُفْتَرَضٌ عَلَى الإِنْسَانِ

أَمْرُ الرَّسُولِ لِكُلِّ نَادِبِ طَاعَةٍ ... بِوِفَايَتِهِ بِالنَّذْرِ بِالإِحْسَانِ

وَصَلَاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَا ... هُ مَا خَلَا ذَا الْحَجِّ وَالأَرْكَانِ

وَكَذَا صَلَاةٌ فِي قِبَا فَكَعُمْرَةٍ ... فِي أَجْرِهَا وَالْفَضْلُ لِلْبُنْيَانِ

فَإِذَا أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ صَلَّـ ... ـيْنَا التَّحِيَّةَ أَوَّلًا بِثَمَانِ

بِتَمَامِ أَرْكَانٍ لَهَا وَخُشُوعِهَا ... وَحُضُورِ قَلْبٍ فِعْلِ ذِي الإِحْيَانِ

ثُمَّ الْتَفَتْنَا لِلزِّيَارَةِ نَقْصِدُ الْـ ... ـقَبْرَ الشَّرِيفَ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

فَنَقُومُ دُونَ الْقَبْرِ وَقْفَةَ خَاضِعٍ ... مُتَذَلِّلٍ فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ

فَكَأَنَّهُ فِي الْقَبْرِ حَيٌّ نَاطِقٌ ... قَالُوا وَقَوْلُونَ لَوَاكِسُ الأَذْقَانِ

مَلَكَتْهُمُ تِلْكَ الْمَهَابَةُ فَاعْتَرَتْ ... تِلْكَ الْقَوَائِمَ كَثْرَةُ الرَّجَفَانِ

وَتَفَجَّرَتْ تِلْكَ الْعُيُونُ بِمَائِهَا ... وَلَطَالَمَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ

وَأَتَى الْمُسَلِّمُ بِالسَّلَامِ بِهَيْبَةٍ ... وَوَقَارِ ذِي عِلْمٍ وَذِي إِتْقَانِ

لَمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتَ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... كَلَّا وَلَمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَانِ

كَلَّا وَلَمْ يَرَ طَائِفًا بِالْقَبْرِ أَسْـ ... ـبُوعًا كَأَنَّ الْقَبْرَ بَيْتُ ثَانِ

ثُمَّ الْتَفَتْنَا بِدُعَائِهِ مُتَوَجِّهًا ... لِلَّهِ نَحْوَ الْبَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ

هَذِي زِيَارَةُ مَنْ غَدَا مُتَمَسِّكًا ... بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ هَاتِيكَ الزِّيَا ... رَةُ وَهِيَ يَوْمَ الْحَشْرِ فِي الْمِيزَانِ

لَا تَلْبُسُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ ... سُنَنُ الرَّسُولِ بِأَعْظَمِ الْبُرْهَانِ

هَـذِي زِيارَتُنـا وَلَـمْ نُنْكِـرْ سِـوَى الْـ ـبِـدَعِ الْمُضِـلَّةِ يـا أُولِـي الْعُـدْوَانِ
وَحَـدِيثُ شَـدِّ الرَّحْـلِ نَـصٌّ ثابِـتٌ يَجِـبُ الْمَصِـيرُ إِلَيْـهِ بِالْبُرْهَـانِ

شرح

وهذا يعد من العجائب، فإن أهل التعطيل كما تقدم عزلوا كلام الله وكلام رسوله عن الاحتجاج بِهِمَا فِي هذا الباب، وزعموا أن أدلة الوحيين لفظية ظنية، وأنَّها تدل على التجسيم، وأن من قال بِمَا دلت عليه من المَعاني المَفهومة بلا ريب فهو كافر، وقدموا عليهما أصول أهل الإلحاد، ثُمَّ مع هذا زعموا أن أهل السنة والجَماعة الذين لَمْ يقدموا على الوحيين رأي أحد وقالوا بِمَا دلت عليه بأنواعها الثلاثة وجعلوا الوحيين هما الأصل الذي ترجع إليه الأقوال والمَذاهب كلها فما وافقهما فهو وما خالف الوحيين فهو مردود وما لَمْ يعلم موافقته أو مُخالفته فهو موقوف، ولَمْ يتقدموا بين يدي رسوله بمقالة لا أصولية ولا فروعية، زعم أهل التعطيل مع هذا أنَّهم متنقصون للرسول، وهذا من أعظم قلب الحَقائق وجعل الحَق باطلا والباطل حقًا والمُحسن مسيئًا والمُسيء مُحسنًا، فمن عرف ما قاله أهل السنة وما قاله الجَهمية فِي هذا الباب عرف أن الإيمان بالله ورسوله وتعظيم الله ورسوله دائر مع ما قاله أهل السنة إثباتًا ونفيًا وظاهرًا وباطنًا، فإنَّهم كما عظموا ربهم بالإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة من صفات عظمته وكبريائه وانقادت قلوبهم وجوارحهم لذلك وشهدت به ألسنتهم فهم القائلون بتعظيم الرسول حقًا والإيمان به؛ إذ قالوا نشهد أن ما جاء به الرسول حق يَجب الإيمان به كله فِي جَميع أبواب العلم فِي أصول الدين وفروعه، ويَجب الإنقياد له واتباعه وتقديمه على غيره، وميزوا بين الحَق المُختص بالله وهو عبادته وحده لا شريك له فلا يستحق هذا الحَق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، والحق المُختص بالرسول وهو تعزيزه وتوقيره وتبجيله، والحق المُشترك وهو الإيمان بالله ورسوله ومَحبة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله، وأما غيرهم من أهل التعطيل والشرك فإنَّهم عزلوا الوحيين عن الاحتجاج بِهِمَا وقدموا عليهما أقوال المُكذبين بالرسل وأعطوا الرسول من الحَق المُختص بالله من التأله والغلو ما لا يليق إلا بالله وشابهوا النصارى فِي غلوهم بعيسى بن مريم، إِلَى غير ذلك من

أوصافهم المناقضة للدين، فأي الفريقين أحق بتعظيم الرسول، وأيهم أولى به في الدنيا والآخرة؟ لا يسترب العاقل المُنصف أن أهل الشرك والتعطيل هم المتنقصون للرسول المنقوصون حظهم من الإيمان بالله ورسوله.

ونظير رمي المعطلين للمثبتين في طريقتهم رمي المُشركين للموحدين أنهم يتنقصون الرسول؛ إذ لَمْ يَجعلوا للرسول من حق الله الخالص شيئًا، فلم يدعوه ولا تضرعوا إليه ولا غلوا فيه غلو النصارى كما فعله المُشركون، ولا في زيارته كفعل المُشركين الذين استغاثوا به في كشف شدائدهم ومَسحوا بقبره ورفعوا أصواتهم بالضجيج الخَافي عنده وزعموا أنهم هم المُوحدون وأن المُوحدين متنقصون، فهل تنقص الرسول من قدم طاعة الرسول على كل طاعة، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وقام بتوقيره وتبجيله اللائق بجنابه الشريف، وعلم أنه ﷺ أكمل الخَلق في جَميع الصفات الحَميدة وأنه أعلاهم مقامًا وأوجههم عند الله وأقربهم منه، وقدم مَحبته على مَحبة نفسه ووالديه وأولاده والناس أجمعين، وعلم أن عنوان مَحبته الاهتداء بهديه والاقتداء بأقواله وأفعاله والتأدب التام بين يدي سنته وأن لا يرفع عليها مذهبًا ولا عقيدة ولا قول أحد من الناس كائنًا من كان، والتأدب عند زيارته ﷺ واعتقاد أن زيارة مسجده مع زيارته من أفضل القربات وسلوك طريق الأدب في ذلك، وأن أحدهم إذا وصل إلَى تلك الربوع الشريفة والأمكنة المُنيفة ابتدأ في مسجده ﷺ فصلى تَحية المَسجد ركعتين بطمأنينة وسكون وخضوع لله تعالَى وحمد وثناء لله الذي منَّ عليه بوصوله.

ثُمَّ يقوم إلَى ما بين يدي الرسول ﷺ مستقبلا وجهه الكريم غاض الطرف خافضًا صوته يَخاطبه في هذه الحَال كما يخاطبه في حياته فيقول: السلام عليك يا رسول الله وخيرته من خلقه وصفوته من عباده أشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وبينت الهدى من الضلال والرشاد من الغي والحَق والباطل، وجاهدت في الله حق جهاده وهديت الخَلق ببيانك وإرشادك وقولك وفعلك وهديك إلَى صراط مستقيم، فلم يبق خير إلا دللت الأمة عليه وبينته وأرشدت إلَى طرقه، ولا شر إلا حذرتها عنه وعن مسالكه وسبله.

وأشهد أن الله قد جَمع لك من الفضائل والخَصائص والمزايا والكمالات ما لَمْ يجمعه لأحد من الأنبياء والمُرسلين فجزاك الله عن أمتك خير الجَزاء، وصلى الله عليك وملائكته وجَميع

خلقه صلاة كاملة تامة، وآتاك الوسيلة والفضيلة والمقامات المحمودة.

ويثنى عليه بكل ما يقدر عليه من الثناء الذي يليق بجنابه وهو أهله -بأبي هو وأمي- ويصلي عليه، ثُمَّ ينحرف يمنة فيسلم على أبي بكر الصديق، ثُمَّ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك كله بأدب وطمأنينة وغض صوت وخضوع واستحضار لشخصه الكريم كأنه في حياته.

فهذه الزيارة للموحدين تملأ القلب إيمانًا وتصديقًا ومحبة للرسول وشوقًا إليه وتعظيمًا وتبجيلاً.

ثُمَّ ينصرف فيجعل الحجرة عن يساره ويستقبل القبلة ويدعو الله بما أحبه من خير دينه ودنياه وآخرته.

أفمن كانت هذه حالهم مع الرسول ومع سنته لا يميلون عما قاله وفعله قيد شعرة يكونون منتقصين له. أما المنتقصون له في الحقيقة من خالفوا هذه الطريقة المستقيمة من كل وجه.

فأهل السنة يقولون للمعطلين والمشركين ما قاله متبوعهم صلوات الله وسلامه عليه لأعدائه حين بين السبيل وأوضح المسالم ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فصل

في تعيين أن اتباع السنة والقرآن طريقة النجاة من النيران

يا مَنْ يريدُ نَجَاتَهُ يومَ الحِسَا ... بِ مِنَ الجَحِيمِ وَمُوقِدِ النِّيرَانِ

اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ فِي الأَقْوَالِ وَالـ ... أَعْمَالِ لاَ تَخْرُجْ عَنِ القُرْآنِ

وَخُذِ الصَّحِيحَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا لِعَقْـ ... ـدِ الدِّينِ وَالإِيمَانِ وَاسْطَتَانِ

وَاقْرَأْهُمَا بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنْ هَوًى ... وَتَعَصُّبٍ وَحَمِيَّةِ الشَّيْطَانِ

وَاجْعَلْهُمَا حَكَمًا وَلاَ تَحْكُمْ عَلَى ... مَا فِيهِمَا أَصْلاً بِقَوْلِ فُلاَنِ

---

(١) [سبأ: ٢٤].

وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ كَبَعْضِ مَقَالَةِ الْـ ... أَشْيَاخِ تَنْصُرُهَا بِكُلِّ أَوَانِ
وَانْصُرْ مَقَالَتَهُ كَنَصْرِكَ لِلَّذِي ... قَلَّدْتَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ
قَدِّرْ رَسُولَ اللهِ عِنْدَكَ وَحْدَهُ ... وَالْقَوْلُ مِنْهُ إِلَيْكَ ذُو تِبْيَانِ
مَاذَا تَرَى فَرْضًا عَلَيْكَ مُعَيَّنًا ... إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَذَا إِيمَانِ
عَرْضَ الَّذِي قَالُوا عَلَى أَقْوَالِهِ ... أَوْ عَكْسُ ذَاكَ فَذَانِكَ الأَمْرَانِ
هِيَ مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ طَرِيقِنَا ... وَطَرِيقِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْعُدْوَانِ
قَدِّرْ مَقَالَاتِ الْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ ... عَدَمًا وَرَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ
وَاجْعَلْ جُلُوسَكَ بَيْنَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... وَتَلَقَّ مَعْهُمْ عَنْهُ بِالإِحْسَانِ
وَتَلَقَّ عَنْهُمْ مَا تَلَقَّوْهُ هُمُ ... عَنْهُ مِنَ الإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ
أَفَلَيْسَ فِي هَذَا بَلَاغُ مُسَافِرٍ ... يَبْغِي الإِلَهَ وَجَنَّةَ الْحَيَوَانِ
لَوْلَا التَّنَاوُشُ بَيْنَ هَذَا الْخَلْقِ مَا ... كَانَ التَّفَرُّقُ قَطُّ فِي الْحُسْبَانِ
فَالرَّبُّ رَبٌّ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُ ... حَقٌّ وَفَهْمُ الْحَقِّ مِنْهُ دَانِ
وَرَسُولُهُ قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ الْمُبِيـ ... ـنَ بِغَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ
مَا ثَمَّ أَوْضَحُ مِنْ عِبَارَتِهِ فَلَا ... يَحْتَاجُ سَامِعُهَا إِلَى تِبْيَانِ
وَالنُّصْحُ مِنْهُ فَوْقَ كُلِّ نَصِيحَةٍ ... وَالْعِلْمُ مَأْخُوذٌ عَنِ الرَّحْمَنِ
فَلِأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ الْبَاغِي الْهُدَى ... عَنْ قَوْلِهِ لَوْلَا عَمَى الْخِذْلَانِ
فَالنَّقْلُ عَنْهُ مُصَدَّقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ ... ذِي عِصْمَةٍ مَا عِنْدَنَا قَوْلَانِ
وَالْعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ يَا ... مَنْ يَهْتَدِي هَلْ يَسْتَوِي النَّقْلَانِ
تَاللهِ قَدْ لَاحَ الصَّبَاحُ لِمَنْ لَهُ ... عَيْنَانِ نَحْوَ الْفَجْرِ نَاظِرَتَانِ
وَأَخُو الْعَمَايَةِ فِي عَمَايَتِهِ يَقُو ... لُ اللَّيْلُ بَعْدُ أَيَسْتَوِي الرَّجُلَانِ
تَاللهِ قَدْ رُفِعَتْ لَكَ الأَعْلَامُ إِنْ ... كُنْتَ الْمُشَمِّرَ نِلْتَ دَارَ أَمَانِ
وَإِذَا جَبُنْتَ وَكُنْتَ كَسْلَانًا فَمَا ... حُرِمَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ غَيْرُ جَبَانِ
فَاقْدِمْ وَعِدْ بِالْوَصْلِ نَفْسَكَ وَاهْجُرِ الْـ ... ـمَقْطُوعَ مِنْهُ قَاطِعُ الإِنْسَانِ
عَنْ نَيْلِ مَقْصِدِهِ فَذَاكَ عَدُوُّهُ ... وَلَوَ انَّهُ مِنْهُ الْقَرِيبُ الدَّانِي

شرح

وذلك أن الطرق كلها مسدودة لا يوصل منها إلى الله وإلى ثوابه ولا ينجو بها العبد من عقابه إلا بطريق واحد وهو طريق السعادة والنجاة من العذاب، وهو اتباع كتاب الله الذي هو حبله المتين. وصراطه المستقيم واتباع رسوله محمد ﷺ بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال.

وتفصيل هذه الجملة أن تأخذ كتاب الله وما صحت به السنة عن رسول الله، خصوصًا كتب الصحاح كالبخاري ومسلم، فتقرأها وتفهم معانيها وتقدر أن الخطاب من الله ورسوله كأنك مشافه للرسول جالس بين يديه مع أصحابه، وتعلم أنه لا يصح إيمانك حتى تعتقد وجوب عرض أقوال الخلق كلهم على قول الرسول، فما وافق ذلك فهو مقبول، وما خالفه فهو مردود، وما لم يعلم موافقته أو مخالفته فهو موقوف.

وتوضيح ذلك أن تقدر جميع مقالات الخلق معدومة لا وجود لها؛ لأن الله لم يوجب طاعة أحد من الخلق غير رسوله، فتتلقى العقائد والأحكام: الأصول والفروع عن رسول الله ﷺ، ولولا التعصب والهوى لكانت هذه الطريقة لا يشك مسلم أنها فرض عام على الناس كلهم.

وإذا عرفت أنه ﷺ قد جمع الله له كمال العلم وكمال النصح وقوة البيان الذي لا يشاركه في شيء من ذلك مشارك عرفت أن كلامه هو الغاية في الإرشاد والهداية واستفادة أصناف العلوم والحقائق من كلامه، مع وجوب طاعته وتحقيق عصمته، فهذا برهان قاطع على استيلاء كلامه على غاية البيان وتمام الإرشاد، فالنقلة عنه أصدق الناس وأعظمهم تحريًا للصدق وأعرفهم بكلامه، وكلامه معصوم وصدق، فكيف يعدل مع هذا عن كلامه إلى قول غيره المتنافي له في هذه الأمور.

فقد وضح السبيل للسائرين فسر عليه جدًا، واهجر كل قاطع يقطعك عنه، فكل من قطع عن نيل المقاصد العالية فقد برهن على عدواته وكل من أعانك على سيرك فهو الصديق ولو كان من أبعد الناس.

فصل

في تيسير السير إلى الله على المثبتين الموحدين وامتناعه على المعطلين والمشركين

يا قاعدًا سارت به أنفاسه ... سير المريد ولين بالذملان
حتى متى هذا الرقاد وقد سرى ... وقد المنحة مع أولي الإحسان
وحدت بهم عزماتهم نحو العلا ... لا حادي الركبان والأظعان
ركبوا العزائم واعتلوا بظهورها ... وسروا فما حطوا إلى لغمان
سارُوا رويدًا ثم جاءوا أولًا ... سير الدليل يؤم بالركبان
سارُوا بإثبات الصفات إليه لا ... تعطيل والتحريف والكفران
عرفوه بالأوصاف فاتلأت قلو ... بهم له بالحب والإيمان
فتطايرت تلك القلوب إليه بال ... أشواق إذ ملئت من العرفان
وأشدهم حبًا له أدراهم ... بصفاته وحقائق القرآن
فالحب يتبع للشعور بحسنه ... بقوى ويضعف ذاك ذو نقصان
ولذا كان العارفون صفاته ... أحبابه هم أهل هذا الشأن
ولذاك كان العالمون برتبهم ... أحبابه وبشرعة الإيمان
ولذاك كان المنكرون لها هم الـ ... أعداء حقًا هم أولو الشنآن
ولذاك كان الجاهلون بهذا وذا ... بغضاءه حقًا ذوي شنآن
وحياة قلب العبد في شيئين من ... يرزقهما بخيا مدى الأزمان
في هذه الدنيا وفي الأخرى بكو ... ن الحي ذا الرضوان والإحسان
ذكر الإله وحبه من غير إنـ ... ـراك به وهما لمنتفعان
من صاحب التعطيل حقًا كامنا ... ع الطائر المقصوص من طيران
أبعده من كان ينكر وصفه ... وعلوه وكلامه بقران
لا والذي حقًا على العرش استوى ... متكلمًا بالوحي والفرقان
الله أكبر ذاك فضل الله يؤ ... تيه لمن يرضى بلا كتمان

وَتَرَى الْمُخَلَّفَ فِي الدِّيَارِ تَقُولُ ذَا إِحْدَى الأَثَالِي خُصَّ بِالْحِرْمَانِ
اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ عَدْلُ اللهِ بِقْـ ـضِيهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ إِنْسَانِ
وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الْحَمْدُ فِي الْـ أُولَى وَفِي الأُخْرَى هُمَا حَمْدَانِ
حَمْدٌ لِذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَكَذَاكَ حَمْدُ الْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ
يَا مَنْ لَعِبْرُ عَلَيْهِمُ أَرْوَاحُهُمْ وَيَرَوْنَ عُتْبَا بَعْضِهَا بِهَوَانِ
وَيَرَوْنَ حُسْرَانًا مُبِينًا بَعْضَهَا فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحَةٍ وَمُهَانِ
وَيَرَوْنَ مَيْدَانَ السَّوَابِقِ بَارِزًا فَيَتَارِكُونَ تَقَحُّمَ الْمَيْدَانِ
وَيَرَوْنَ أَنْفَاسَ الْعِبَادِ عَلَيْهِمُ قَدْ أُحْصِيَتْ بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ
وَيَرَوْنَ أَنَّ أَمَانَهُمْ يَوْمَ اللِّقَا لله مُسْتَأْنَفَانِ شَامِلَتَانِ
مَاذَا عَدَلْتُمْ ثُمَّ مَاذَا قَدْ أَجَنْـ ـتُمْ مِنْ أَلِيمِ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ
هَاتُوا جَوَابًا لِلسُّؤَالِ وَهَيِّئُوا أَيْضًا صَوَابًا لِلْجَوَابِ يَدَانِ
وَيَقُولُوا أَنْ لَيْسَ يَنْجِيكُمْ سِوَى تَحْرِيدِكُمْ لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ
تَحْرِيدُكُمْ تَوْحِيدَهُ سُبْحَانَهُ عَنْ شِرْكَةِ الشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانِ
وَكَذَاكَ تَحْرِيدُ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ عَنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ
وَاللهِ مَا يُنْجِي الْفَتَى مِنْ رَبِّهِ شَيْءٌ سِوَى هَذَا بَلَا رَوْغَانِ
يَا رَبِّ جُدْ عَبْدَكَ الْمِسْكِينَ وَا جِبِ الْفَضْلِ مِنْكَ وَأَضْعِفِ الْغُفْرَانِ
لَمْ تُنْسَهُ وَذَكَرْتَهُ فَاجْعَلْهُ لَا يُنْسَاكَ أَنْتَ بَدَأْتَ بِالإِحْسَانِ
وَبِهِ خَتَمْتَ فَكُنْتَ أَوْلَى بِالْجَمِيـ ـلِ وَبِالثَّنَاءِ مِنَ الْجَهُولِ الْجَانِي
فَالْعَبْدُ لَيْسَ يَضِيعُ بَيْنَ فَوَاتِحٍ وَخَوَاتِمٍ مِنْ فَضْلِ ذِي الْغُفْرَانِ
أَنْتَ الْعَلِيمُ بِهِ وَقَدْ أَنْشَأْتَهُ مِنْ تُرْبَةٍ هِيَ أَضْعَفُ الأَرْكَانِ
كُلٌّ عَلَيْهَا قَدْ غَلَا وَهَوَتْ إِلَى لَحْتِ الْجَمِيعِ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ
وَعَلَتْ عَلَيْهَا النَّارُ حَتَّى ظَنَّ أَنْ يَعْلُو عَلَيْهَا الْخَلْقُ مِنْ نِيرَانِ
وَأَتَى إِلَى الأَبَوَيْنِ فَكَّا أَنَّهُ سَبَبُ الأَبَوَيْنِ لَحْتَ دُخَانِ
فَسَعَتْ إِلَى الأَبَوَيْنِ رَحْمَتُكَ الَّتِي وَسِعَتْهُمَا فَعَلَا بِكَ الأَبَوَانِ

هـذا ونحـنُ بنوهُمـا وحُلومُنـا ... فـي جَنْـبِ حِلْمِهِمـا لـدى الميـزان
جُـزْءٌ يسـيرٌ والعـدوُّ فواحـدٌ ... لهُمـا وأعـدانا بـلا حُسْـبان
والضـعفُ مسـتولٍ علينـا مـن جميـ ... ـعِ جهاتنـا سـيما مـن الأيمـان
يـا ربِّ معـذرةً إليـكَ فلـمْ يكـنْ ... قصـدُ العبـادِ ركـوبَ ذا العصيـان
لكـنْ نفـوسٌ سـوّلتْهُ وغرّهـا ... هـذا العـدوُّ لهـا غـرورُ أمـان
فتيقّنـتْ يـا ربِّ أنّـكَ واسـعُ الـ ... ـغفرانِ ذو فضـلٍ وذو إحسـان
ومقالُنـا مـا قالـهُ الأبـوانِ قبـ ... ـلَ مقالـةِ العبـدِ الظلـومِ الجـاني
نحنُ الألـى ظلمـوا وإنْ لـمْ تغفـرِ الـذ ... ذنـبَ العظيـمَ فـنحنُ ذو خسـران
يـا ربُّ فانصـرْنا علـى الشـيطانِ ليـ ... ـسَ لنـا بـهِ لـولا حمـاكَ يـدان

شرح

العبد منذ عقل أمره وعرف النجدين فهو يسير إلى الدار الآخرة في ليله ونهاره وحركته وسكونه، ولكن الخلق يتفاوتون في سيرهم المُستقيم وسيرهم المُنحرف تفاوتًا عظيمًا، فأعظم الطرق المُوصلة إلى الله وإلى كرامته وأيسرها وأسهلها وأصحها وأحسنها هي طريق المثبتين لصفات ربهم المُخلصين له في أعمالهم، فالسير إلى الله هو سير القلوب بالعقائد الصحيحة النافعة الَّتي تملأ القلب معرفة ويقينًا وإيمانًا وإخلاصًا وقوة وطيبًا وسرورًا، ومدارها على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وتسهل على العبد الطاعات وأصناف القربات، وتورث محبة الله واللهج بذكره.

وهذه الأخلاق الَّتي هي أعلى الأخلاق وأكملها تمنع صاحبها من وقوع المُخالفات، فإن وقعت منه بادر إلى الإقلاع والتوبة النصوح، وكلما كان العبد أعرف بالله كان له أحب وله أخشى وأرجى وأطمع في فضله، وأما المُعطلون فقطعوا هذا الطريق على أنفسهم وعلى السائرين، لأن المحبة تتعذر إذا لم يعرف العبد ربه، ولا يمكن أن يعرفه إلا بصفاته ونعوته فكان المُعطلون محجوبين عن هذا المُطلب الأعلى.

واعلم أنه لابد للخلق أن يُسألوا عن أمرين: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المُرسلين.

والجواب الصحيح عن السؤال الأول هو تجريد التوحيد عن شوائب الشرك كبيره وصغيره، وعن غيره وحكم غيره فنسأل المولى الذي ابتدأ بالإحسان وختم بالإحسان وعلم حالة الإنسان وما هو عليه من النقصان أن يتولانا بلطفه، ويمن علينا بتوحيده الكامل، وإخلاص العمل لأجله، ومتابعة نبيه، وأن لا يزيغ قلوبنا إنه هو الوهاب.

فصل

في ظهور الفرق بين الطائفتين وعدم التباسه إلا على من ليس بذي عينين

والفرق بينكم وبين خصومكم ... من كل وجه ثابت بيان
ما أنتم منهم ولا هم منكم ... شتان بين الشرق والغربان
فإذا دعوتم للقرآن دعوتم ... للرأي أين الرأي من قرآن
وإذا دعوتم للحديث دعوتم ... أنتم إلى تقليد قول فلان
وكذا للقيتم نصوص نبينا ... بقبولها بالحق والإذعان
من غير تحريف ولا جحد ولا ... تكييف ذي جهل بلا عرفان
لكن بإغراض وتجهيل وتا ... ويل للقيتم مع الكفران
أكرمتموها جهدكم فإذا أتى ... ما لا تميل له إلى لكران
أعرضتم عنه ولم تشتطوا ... منه هذى لحقائق الإيمان
فإذا ابتليتم مكرهين بسمعها ... فوجدتموها لا على العرفان
لكن بجهل للذي سبقت له ... تكييف إغراض وجهل معان
فإذا ابتليتم باحتجاج خصومكم ... أولتموها دفع ذي صولان
فالجحد والإعراض والتأويل والت ... تجهيل حظ النص عند الجاني
لكن لدينا حظة التسليم مع ... حسن القبول وفهم ذي الإحسان

شرح

وهذا الفرق بين أهل السنة وغيرهم من الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فأهل

السنة يدعون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ويتلقون أصول الدين وفروعه عنهما ولا يعطلون الصفات بل يثبتونها، ومن سواهم بالعكس من ذلك يكذبون ويحرفون ويفوضون.

وقد تقدم من تفاصيل فروقهم ما يكفي.

ونظيره الفصل الذي بعده:

فصل

في التفاوت بين حظ المثبتين والمعطلين

من وحي رب العالمين

وَلَنَا الْحَقِيقَةُ مِنْ كَلَامِ إِلَهِنَا ... وَنَصِيبُكُمْ مِنْهُ الْمَجَازُ الثَّانِي

وَقَوَاطِعُ الْوَحْيَيْنِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... وَعَلَيْكُمْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَمْرَانِ

وَأَدِلَّةُ الْمَعْقُولِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... أَيْضًا فَقَاضُونَا إِلَى الْبُرْهَانِ

وَكَذَاكَ فِطْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ شَا ... هِدَةٌ لَنَا أَيْضًا شُهُودَ بَيَانِ

وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالْأُلَى ... تَبِعُوهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِحْسَانِ

وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الْأَئِمَّةِ بَعْدَهُمْ ... هَذَا كَلَامُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

هَذِي الشُّهُودُ فَهَلْ لَدَيْكُمْ أَنْتُمُ ... مِنْ شَاهِدٍ بِالنَّفْيِ وَالنُّكْرَانِ

وَجُنُودُنَا مَنْ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ... وَجُنُودُكُمْ فَعَسَاكِرُ الشَّيْطَانِ

وَخِيَامُنَا مَضْرُوبَةٌ بِمَشَاعِرِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيهِ فَالسُّـ ... ـكَّانُ كُلُّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ

هَذِي شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَحْصُولِهِمْ ... عِنْدَ الْمَمَاتِ وَقَوْلُهُمْ بِلِسَانِ

وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ أَيْضًا كَذَا ... تَكْفِي شَهَادَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

وَلَنَا الْمَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السُّـ ... ـنَنُ الَّتِي نَابَتْ عَنِ الْقُرْآنِ

وَلَكُمْ تَصَانِيفُ الْكَلَامِ وَهَذِهِ الْـ ... ـآرَاءُ وَهْيَ كَثِيرَةُ الْهَذَيَانِ

شُبَهٌ يُكَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَبَيْـ ... ـتٍ مِنْ زُجَاجٍ خَرَّ لِلْأَرْكَانِ

هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرَ رَأْيٍ أَوْ كَلَا ... مٍ بَاطِلٍ أَوْ مَنْطِقِ الْيُونَانِ

وَنَقُولُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فِي كُلِّ تَصْنِيفٍ وَكُلِّ مَكَانِ

لَكِنْ تَقُولُوا قَالَ آرِسْطُوا وَقَا ... لَ ابْنُ الْخَطِيبِ وَقَالَ ذُو الْعِرْفَانِ
شَيْخٌ لَكُمْ يَدْعَى ابْنَ سِينَا لَمْ يَكُنْ ... مُتَقَيِّدًا بِالدِّينِ وَالإِيمَانِ
وَخِيَارُ مَا تَأْتُونَ قَالَ الأَشْعَرِي ... ي وَتَشْهَدُونَ عَلَيْهِ بِالْبُهْتَانِ
فَالأَشْعَرِي مُقَرِّرٌ لِعُلُوِّ رَبْ ... بِ الْعَرْشِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ
فِي غَايَةِ التَّقْرِيرِ بِالْمَعْقُولِ وَالْـ ... ـمَنْقُولِ ثُمَّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
هَذَا وَنَحْنُ فَتَارِكُو الآرَاءِ لِلنَّـ ... ـقْلِ الصَّحِيحِ وَمُحْكَمِ الْفُرْقَانِ
لَكِنَّكُمْ بِالْعَكْسِ قَدْ صَرَّحْتُمُ ... وَوَضَعْتُمُ الْقَانُونَ ذَا الْبُهْتَانِ
وَالنَّفْيُ عِنْدَكُمُ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْـ ... إِثْبَاتُ إِجْمَالاً بِلاَ نُكْرَانِ
وَالْمُثْبِتُونَ طَرِيقُهُمْ نَفْيٌ عَلَى الْـ ... إِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ بِالتِّبْيَانِ
فَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ مَعْ مَنْ مِنْكُمَا ... وَشَهَادَةَ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ وَمُحْكَمِ الْفُرْقَانِ
فَالْمُحْكَمُ النَّصُّ الْمُوَافِقُ قَوْلَهُمْ ... لاَ يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ فِي الأَذْهَانِ
لَكِنَّمَا النَّصُّ الْمُخَالِفُ قَوْلَهُمْ ... مُتَشَابِهٌ مُتَأَوَّلٌ بِمَعَانِ
وَإِذَا تَأَدَّبْتُمْ تَقُولُوا مُشْكِلٌ ... أَفَوَاضِحٌ يَا قَوْمُ رَأْيُ فُلاَنِ
وَاللهِ لَوْ كَانَ الْمُوَافِقُ لَمْ يَكُنْ ... مُتَشَابِهًا مُتَأَوَّلاً بِلِسَانِ
لَكِنْ عَرَضْنَا نَحْنُ أَقْوَالَ الشُّيُو ... خِ عَلَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْوَحْيَانِ
مَا خَالَفَ النَّصَّيْنِ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ ... شَيْئًا وَقُلْنَا حَسْبُنَا النَّصَّانِ
وَالْمُشْكِلُ الْقَوْلُ الْمُخَالِفُ عِنْدَنَا ... فِي غَايَةِ الإِشْكَالِ لاَ التِّبْيَانِ
وَالْعَزْلُ وَالإِلْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى الْـ ... آرَاءِ عِنْدَكُمُ بِلاَ كِتْمَانِ
لَكِنْ لَدَيْنَا ذَاكَ مَرْجِعُهُ إِلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ
وَالْكُفْرُ وَالإِسْلاَمُ عَيْنُ خِلاَفِهِ ... وَوِفَاقُهُ لاَ غَيْرُ بِالْبُرْهَانِ
وَالْكُفْرُ عِنْدَكُمْ خِلاَفُ شُيُوخِكُمْ ... وَوِفَاقُهُمْ فَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ
هَذِي سَبِيلُكُمُ وَتِلْكَ سَبِيلُنَا ... وَالْمَوْعِدُ الرَّحْمَنُ بَعْدَ زَمَانِ
وَهُنَاكَ يَعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَلَى الْـ ... ـحَقِّ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الدَّيَّانِ

فَاصْبِرْ قَلِيلاً إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ فَإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمَنِ
فَالْقَوْمُ مِثْلُكَ يَأْلَمُونَ وَيَصْبِرُو نَ وَصَبْرُهُمْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ

شرح

وذلك أنه يظهر التفاوت بين الخَلق مدحًا وذمًا وحقًا وباطلاً بصفاتهم ومآخذهم وأصولهم وأخلاقهم وثمرات أعمالهم وقوة أدلتهم وضعفها، فالأهل السنة والجُماعة من كلام الله الحقيقة، لا يعدلون إلى المجاز الذي وضع أخيرًا، كما اتفق أهل الأصول والعلوم على ذلك في كل كلام، وغيرهم يتتبعون المجازات والاحتمالات البعيدة الشاذة المُخالفة للظاهر وللمعلوم من الدين بالضرورة تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[1].

وكليات أدلة أهل السنة قواطع الأدلة من الكتاب والسنة، وقواطع العقل التي اتفق العقلاء على صحتها، واتباع إجْماع الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان وأئمة الهدى ومصابيح الدجى، وليس للنافين منها دليل واحد، وإنما أدلتهم شبه تدل على سفاهة مبديها وضلاله، وينقض بعضها بعضا، وإذا استدلوا فبكلام أرسطوا وابن سينا والفارابي وابن الخُطيب ممَّن عرف انحرافهم عن الحقائق الدينية.

وخير ما يستدلون به كلام أبي الحَسن الأشعري مع أنهم خالفوه فيما أثبته من العلو والاستواء على عرشه ونحو ذلك من الإثباتات التي صرح بها في كتابه «الإبانة» وغيرها كما هو معروف، فخيار أئمتهم خالفوه حين قال الحَق وقرر الحق وقرر الصواب، ووافق أهل السنة فيه، وهذا غاية الخذلان.

وطريق أهل السنة إذا فرض التعارض بين النقل عن المعصوم وبين ما خالفه من الآراء قدموا النقل، والآخرون بالعكس.

وطريق أهل السنة النفي المُجمل والإثبات المفصل: ينفون عن الله أنواع النقائص والعيوب

---

(١) [آل عمران: ٧].

ومماثلة أحد من خلقه، ويثبتون على وجه التفصيل كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله ونعوته.

والمعطلون يثبتون مجملاً وينفون مفصلاً: يثبتون ألفاظًا مُجملة لا تسمن ولا تغني من جوع، وينفون نفيًا مفصلا لجميع الصفات والأفعال لله فأي الفريقين أحق باتباع الكتاب والسنة؟!

فصل

في بيان الاستغناء بالوحي المنزل من السماء عن تقليد الرجال والآراء

يا طالبَ الحقِّ المُبينِ ومُؤثِرًا ... علمَ اليقينِ وصحةَ الإيمانِ

اسمعْ مقالةَ ناصحٍ خبرَ الذي ... عندَ الورى مُذْ شبَّ حتى الآنِ

ما زالَ مُذْ عقدتْ يداهُ إزارَهُ ... قدْ شدَّ مئزرَهُ إلى الرحمنِ

وتخلُّلُ الفتراتِ للعزماتِ أمـ ... ـرٌ لازمٌ لطبيعةِ الإنسانِ

وتولُّدُ النقصانِ من فتراتِهِ ... أو ليسَ ساترُنا بنى النقصانِ

طافَ المذاهبَ يبتغي نورًا ليهـ ... ـديهُ وينجيهِ من النيرانِ

وكأنهُ قدْ طافَ يبغي ظلمةَ الـ ... ـليلِ البهيمِ ومذهبَ الحيرانِ

والليلُ لا يزدادُ إلا قوةً ... والصبحُ مقهورٌ بذي السلطانِ

حتى بدتْ في سيرِهِ نارٌ على ... طورِ المدينةِ مطلعِ الإيمانِ

فأتى ليقبسَها فلمْ يمكنْهُ مع ... تلكَ القيودِ منالُها بأمانِ

لولا تداركَهُ الإلهُ بلطفِهِ ... ولّى على العقبينِ ذا نكصانِ

لكنْ توقفَ خاضعًا متذللاً ... مستشعرَ الإفلاسِ من أثمانِ

فأتاهُ جندٌ حلَّ عنهُ قيودَهُ ... فامتدَّ حينئذٍ لهُ الباعانِ

واللهِ لولا أنْ تحلَّ قيودُهُ ... وتزولَ عنهُ ربقةُ الشيطانِ

كانَ الرقى إلى الثريا مصعدًا ... من دونِ تلكَ النارِ في الإمكانِ

فرأى بتلكَ النارِ آطامَ المديـ ... ـنةِ كالخيامِ تشوفُها العينانِ

[ورأى على طرقاتِها الأعلامَ قدْ ... نصبتْ لأجلِ السالكِ الحيرانِ]

وَرَأَى مَقَالَكَ كُلُّ هَادٍ مُهْتَدٍ ... يَدْعُو إِلَى الإِيمَانِ وَالإِيقَانِ

فَهُنَاكَ حَتَّا نَفْسُهُ مُتَذَكِّرًا ... مَا قَالَهُ الْمُشْتَاقُ مُنْذُ زَمَانِ

وَالْمُسْتَهَامُ عَلَى الْمَحَبَّةِ لَمْ يَزَلْ ... حَاشَا لِذِكْرَاكُمْ مِنَ النِّسْيَانِ

لَوْ قِيلَ مَا لَهْوَى لَقَالَ مُنَادِرًا ... أَهْوَى زِيَارَتَكُمْ عَلَى الأَجْفَانِ

لَلَّهِ إِنْ سَمَحَ الزَّمَانُ بِقُرْبِكُمْ ... وَخَلَتْ مِنْكُمْ بِالْمَحَلِّ الدَّانِي

لأَعْفِرَنَّ الْخَدَّ شُكْرًا فِي الثَّرَى ... وَأَكَحِّلَنَّ بِتُرْبِكُمْ أَحْفَانِي

إِنْ رُمْتَ تُبْصِرُ مَا ذَكَرْتُ فَلَمْحُ طَرْ ... فَ عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالْقُرْآنِ

وَالرَّسْمُ رُسُومُ الْخَلْقِ لاَ تَعْنَا بِهَا ... فِي السَّعْدِ مَا يَطْبِكَ عَنْ ذِبْرَانِ

حَدِّقْ لِقَلْبِكَ فِي النُّصُوصِ كَمِثْلِ مَا ... قَدْ حَدَّقُوا فِي الرَّأْيِ طُولَ زَمَانِ

وَاكْحَلْ جُفُونَ الْقَلْبِ بِالْوَحْيَيْنِ وَاحْ ... ـذَرْ كُحْلَهُمْ يَا كَثْرَةَ الْعُمْيَانِ

فَاللهُ بَيَّنَ فِيهِمَا طُرُقَ الْهُدَى ... لِعِبَادِهِ فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ

لَمْ يُخْرِجِ اللهُ الْخَلاَئِقَ مِنْهُمَا ... لِخَيَالِ فُلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلاَنِ

فَالْوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يَعْنَى بِهِ ... شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإِنْسَانِ

وَلَفَاوَتُ الْعُلَمَاءِ فِي أَفْهَامِهِمْ ... لِلْوَحْيِ فَوْقَ تَفَاوُتِ الأَبْدَانِ

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ

نَصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي

وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلاَثٌ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ

وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي

وَالْكُلُّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ ... بِسِوَاهُمَا إِلاَّ مِنَ الْهَذَيَانِ

إِنْ قُلْتُمُ تَقْرِيرُهُ فَمُقَرِّرٌ ... بِأَتَمِّ تَقْرِيرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

أَوْ قُلْتُمُ إِيضَاحُهُ فَمُبَيِّنٌ ... بِأَتَمِّ إِيضَاحٍ وَخَيْرِ بَيَانِ

أَوْ قُلْتُمُ إِبْجَازُهُ فَهُوَ الَّذِي ... فِي غَايَةِ الإِبْجَازِ وَالتِّبْيَانِ

أَوْ قُلْتُمُ مَعْنَاهُ هَذَا فَاقْصِدُوا مَعْنَى الْخِطَابِ بِغَيْبِهِ وَعِيَانِ
أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ فَاقْصِدُوا الـ ـمَعْنَى بِلَا شَطَطٍ وَلَا نُقْصَانِ
أَوْ قُلْتُمُ بِخِلَافِهِ فَكَلَامُكُمْ فِي غَايَةِ الإِنْكَارِ وَالْبُطْلَانِ
أَوْ قُلْتُمُ قُلْنَا عَلَيْهِ نَظِيرَةٌ فَلِبَاسُكُمْ ثَوْبَانِ مُخْتَلِفَانِ
نَوْعٌ يُخَالِفُ نَصَّهُ فَهُوَ الْمُحَا لُ وَذَاكَ عِنْدَ اللهِ ذُو بُطْلَانِ
وَكَلَامُنَا فِيهِ وَلَيْسَ كَلَامُنَا فِي غَيْرِهِ أَعْنِي الْقِيَاسَ الثَّانِي
مَا لَا يُخَالِفُ نَصَّهُ فَالنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ
لَكِنَّهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ لَا يَصِـ ـرُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ ذَا الْفَقْدَانِ
هَذَا جَوَابُ الشَّافِعِي لأَحْمَدٍ لله دَرُّكَ مِنْ إِمَامِ زَمَانِ
وَاللهِ مَا اضْطَرَّ الْعِبَادُ إِلَيْهِ فِيـ ـمَا بَيْنَهُمْ مِنْ حَادِثٍ بِزَمَانِ
فَإِذَا رَأَيْتَ النَّصَّ عَنْهُ سَاكِتًا فَسُكُوتُهُ عَفْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
وَهُوَ الْمُبَاحُ إِبَاحَةَ الْعَفْوِ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ حَرَجٍ وَلَا نُكْرَانِ
فَاضِفْ إِلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالـ ـمَعْنَى وَحُسْنَ الْفَهْمِ فِي الْقُرْآنِ
فَهُنَالِكَ تُصْبِحُ فِي غِنًى وَكِفَايَةٍ عَنْ كُلِّ ذِي رَأْيٍ وَذِي حُسْبَانِ
وَمُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ لَمْ يَضْمَنْ لَنَا تِبْيَانَهَا بِالنَّصِّ وَالْقُرْآنِ
وَهِيَ الَّتِي فِيهَا اعْتِرَاكُ الرَّأْيِ مِنْ لَحْتِ الْعَجَاجِ وَحَوْلَهُ الأَدْخَانِ
لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَوْ نَبَّهْتَنَا لَنَا احْـ ـتَجْنَا إِلَيْهِ فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ
جَمْعُ النُّصُوصِ وَفَهْمُ مَعْنَاهَا الَّذِ ي بِلَفْظِهَا وَالْفَهْمُ مَرْتَبَتَانِ
إِحْدَاهُمَا مَدْلُولُ ذَاكَ اللَّفْظِ وَحْـ ـدَهُ أَوْ لُزُومًا ثُمَّ هَذَا الثَّانِي
فِيهِ تَفَاوَتَتِ الْفُهُومُ تَفَاوُتًا لَمْ يَنْحَطِطْ أَبَدًا لَهُ طَرَفَانِ
فَالشَّيْءُ يَلْزَمُهُ لَوَازِمُ جَمَّةٌ عِنْدَ الْخَبِيرِ بِهِ وَذِي الْعِرْفَانِ
فَبِقَدْرِ ذَاكَ الْخَبْرِ يَخْصِي مَنْ لَوَا زِمَهُ وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ
وَلِذَاكَ مَنْ عَرَفَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً عَرَفَ الْوُجُودَ جَمِيعَهُ بِبَيَانِ
وَكَذَاكَ يَعْرِفُ جُمْلَةَ الشَّرْعِ الَّذِي بِحَاجَةِ الإِنْسَانِ كُلَّ زَمَانِ

عِلْمًا بِتَفْصِيلٍ وَعِلْمًا مُجْمَلاً ... لَفْصِيلُهُ أَيْضًا بِوَحْيٍ ثَانِ

وَكِلاَهُمَا وَحْيَانِ قَدْ ضَمِنَا لَنَا ... أَعْلَى الْعُلُومِ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

وَلِذَاكَ يُعْرَفُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَالـ ... ـأَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ ذِي الإِحْسَانِ

مَا لَيْسَ يُعْرَفُ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِهِ ... أَبَدًا وَلاَ مَا قَالَتِ الثَّقَلاَنِ

وَكَذَاكَ يُعْرَفُ مِنْ صِفَاتِ الْبَعْثِ بِالـ ... ـتَّفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ فِي الْقُرْآنِ

مَا يَجْعَلُ الْيَوْمَ الْعَظِيمَ مُشَاهَدًا ... بِالْقَلْبِ كَالْمَشْهُودِ رَأْيَ عِيَانِ

وَكَذَاكَ يُعْرَفُ مِنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ ... وَصِفَاتِهَا بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

يُعْرَفُ لَوَازِمَهَا وَيُعْرَفُ كَوْنُهَا ... مَخْلُوقَةً مَرْبُوبَةً بِبَيَانِ

وَكَذَاكَ يُعْرَفُ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الـ ... ـحَاجَاتِ وَالإِعْدَامِ وَالنُّقْصَانِ

وَكَذَاكَ يُعْرَفُ رَبُّهُ وَصِفَاتُهُ ... أَيْضًا بِلاَ مِثْلٍ وَلاَ نُقْصَانِ

وَهُنَا ثَلاَثَةُ أَوْجُهٍ فَاقْطَنْ لَهَا ... إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَذَا عِرْفَانِ

بِالضِّدِّ وَالأَوْلَى كَذَا بِالإِنْتِزَا ... عِ لِعِلْمِنَا بِالنَّفْسِ وَالرُّحْمَنِ

فَالضِّدُّ مَعْرِفَةُ الإِلَهِ بِضِدِّ مَا ... فِي النَّفْسِ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

وَحَقِيقَةُ الأَوْلَى ثُبُوتُ كَمَالِهِ ... إِذْ كَانَ مُعْطِيهِ عَلَى الإِحْسَانِ

شرح

وذلك أنه الله جعل كتابه تبيانًا لكل شيء، وأمر برد ما تنازع فيه الخلق من المسائل الأصولية والفروعية لله ولرسوله وأخبر أنه أكمل لعباده الدين، فالوحي الذي هو الكتاب والسنة كفيل بجميع ما يحتاجه العباد في أمور دينهم من أصول وفروع، بل وفي أمور دنياهم، في بيان الأصول العظيمة بيانًا منوعًا مصرفًا بأساليب متعددة، وطرق متنوعة وفيه بيان جميع الأحكام، وفيه الإرشاد جملة وتفصيلا إلى المنافع والمصالح الدينية والدنيوية.

فيه علوم التوحيد والرسالة وتفاصيلها بأكملها وفيه علم الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة والجنايات وغيرها، وفيه علم الجزاء وتفاصيل الجزاء الدنيوي والجزاء الأخروي، فيه بيان الأسباب ومسبباتها تفصيلاً وإجمالاً.

فالكتاب والسنة إذا تَمَّ علم العبد بِهِمَا حصل له الكفاية والشفاء والهداية في كل أبواب العلم، ولَمْ يَحتج معهما إلَى رأي أو قياس إلا في بيان حكمهما واستنباط أسرارهما وقد يَخفى علم العالم بعض نصوص الكتاب والسنة أو يفوته بعض معانيها فيضطر إلَى القياس على قواعد الشرع وأصوله، فالقياس يصار إليه عند الاضطرار كما قال الأئمة: الشافعي وأحمد وغيرهما.

والقياس الصحيح من العدل والميزان الذي أمر الله به وهو داخل في الشريعة، وإنَّما ينكر منه القياس الفاسد المُخالف للنص أو لأصول الشريعة، أو القياس الضعيف الذي لَمْ يستوف شروطه، والقياس الصحيح مبني عن المُجمع بين المتماثلين والتفريق بين المُختلفين.

وهذا الاستغناء المذكور بالوحي لا يتم إلا بالإقبال التام على الكتاب والسنة، وأن يكون ذلك أكبر همة طالب العلم وغاية بغيته، وأن يلغي جَميع الموانع والمعارضات التي تَحول بينه وبين هذا المطلوب من التعصب والتقليد الأعمى ونصرة غير الحَق.

وذكر المُؤلف -رحمه الله- حاله في طلب العلم وأنه في ابتداء أمره مازال متقيدًا بقيود التقليد، غير منطلق الفكر في العلم الصحيح، ثُمَّ أن الله يسر له بِحسن قصده وشدة طلبه أن خلع القيود وأقبل على الكتاب والسنة، وحصل منهما خيرًا كثيرًا وشرح الله صدره للهدي، واتسعت دائرة معارفه، واتضح له الفرق العظيم بين حالته الأولى والثانية.

وغرض المُؤلف أنه أخبر عن تجاربه ومشاهده، وليرغب في هذه الطريقة التي لا يسلكها إلا الكمل من العباد.

ولكن هذه الطريقة لها شروط بينها في هذا الفصل وهو قوله.

فصل
في بيان شروط كفاية النصين
والاستغناء بالوحيين

وكفايةُ النصين مشروطةٌ بتجـ ... ـريد التلقي عنهما لمعان

وكذاك مشروطٌ بخلع قيودهمْ ... فقيودهمْ غُلٌ إلى الأذقان

وكذاك مشروطٌ بهدم قواعدٍ ... ما أنزلتْ ببيانها الوحيان

وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِأَقْدَامٍ عَلَى الْـ ... آرَاءِ إِنْ عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ
بِالرَّدِّ وَالإِبْطَالِ لاَ نَعْبَأُ بِهَا ... شَيْئًا إِذَا مَعْنَاهَا التُّقْصَانِ
لَوْلاَ الْقَوَاعِدُ وَالْقُيُودُ وَهَذِهِ الْـ ... آرَاءُ لاَتَّسَعَتْ عُرَى الإِيمَانِ
لَكِنَّهَا وَاللهِ ضَيِّقَةُ الْعُرَى ... فَاحْتَاجَتِ الأَيْدِي لِذَاكَ لِوَانِ
وَتَعَطَّلَتْ مِنْ أَجْلِهَا وَاللهِ أَغْـ ... ـذَادٌ مِنَ النَّصِّينِ ذَاتُ بَيَانِ
وَتَضَمَّنَتْ تَقْيِيدَ مُطْلَقِهَا وَإِطْـ ... ـلاَقَ الْمُقَيَّدِ وَهْوَ ذُو مِيزَانِ
وَتَضَمَّنَتْ تَخْصِيصَ مَا عَمَّتْهُ وَالتَّـ ... ـعْمِيمَ لِلْمَخْصُوصِ بِالأَعْيَانِ
وَتَضَمَّنَتْ تَفْرِيقَ مَا جَمَعَتْ وَجَمْـ ... ـعًا لِلَّذِي وَسَمَتْهُ بِالْفُرْقَانِ
وَتَضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَا قَدْ وَسَّعَتْـ ... ـهُ وَعَكْسُهُ فَلْتَنْظُرِ الأَمْرَانِ
[وَتَضَمَّنَتْ تَحْلِيلَ مَا قَدْ حَرَّمَتْـ ... ـهُ وَعَكْسُهُ فَلْتَنْظُرِ النَّوْعَانِ]
سَكَتَتْ وَكَانَ سُكُوتُهَا عَدْوًا فَلَمْ ... تَعْدُ الْقَوَاعِدُ بِاتِّبَاعٍ بُطْلاَنِ
وَتَضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْ كَذَا ... بِالْعَكْسِ وَالأَمْرَانِ مَحْذُورَانِ
وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا شُرُوطًا لَمْ لَكُنْ ... مَشْرُوطَةً شَرْعًا بِلاَ بُرْهَانِ
وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا مَوَانِعَ لَمْ لَكُنْ ... مَشْرُوعَةً شَرْعًا بِلاَ تِبْيَانِ
إِلاَّ بِأَلْسِنَةٍ وَآرَاءٍ وَتَقْـ ... ـلِيدٍ بِلاَ عِلْمٍ أَوِ امْتِحَانِ
عَمَّنْ أَتَتْ هَذِي الْقَوَاعِدُ مِنْ جَمِيـ ... ـعِ الصَّحْبِ وَالأَتْبَاعِ بِالإِحْسَانِ
مَا أَسَّسُوا إِلاَّ اتِّبَاعَ نَبِيِّهِمْ ... لاَ عَقْلَ فُلاَنٍ وَرَأْيَ فُلاَنِ
بَلْ أَنْكَرُوا الآرَاءَ نُصْحًا مِنْهُمُ ... للهِ وَالدَّاعِي وَلِلْقُرْآنِ
أَوْ لَيْسَ فِي خُلْفٍ بِهَا وَتَنَاقُضٍ ... مَا دَلَّ ذَا لُبٍّ وَذَا عِرْفَانِ
وَاللهِ لَوْ كَانَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ مَا اخْـ ... ـتَلَفَتْ وَلاَ انْقَصَمَتْ مَدَى الأَزْمَانِ
شُبِّهَ لَهَا فَتْ كَالزُّجَاجِ لِحَالِهَا ... حَقًّا وَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى صَفْوَانِ
وَاللهِ لاَ يَرْضَى بِهَا ذُو هِمَّةٍ ... عَلْيَاءَ طَالِبَةٍ لِهَذَا الشَّانِ
فَبِمَالِهَا وَاللهِ فِي قَلْبِ الْفَتَى ... وَبَالِهَا فِي مَنْبَتِ الإِيمَانِ
كَالزَّرْعِ يَنْبُتُ حَوْلَهُ دَغَلٌ فَمَنْـ ... ـعُهُ النَّمَا فَرَاهُ ذَا نُقْصَانِ

وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ الْفَتَى ... غَرْسٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي الإِنْسَانِ
وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ وَالشُّـ ... ـبُهَاتِ وَهْيَ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ
فَيَعُودُ ذَاكَ الْغَرْسُ يَبْسًا ذَاوِيًا ... أَوْ نَاقِصَ الثَّمَرَاتِ كُلَّ أَوَانِ
فَتَرَاهُ يَحْرُثُ دَائِبًا وَمَغَلُّهُ ... نَزْرٌ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ
وَاللهِ لَوْ نَكَشَ النَّبَاتَ وَكَانَ ذَا ... بَصَرٍ لِذَاكَ الشَّوْكِ وَالسَّعْدَانِ
لأَتَى كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ مَغَلُّهُ ... وَلَكَانَ أَضْعَافًا بِلاَ حُسْبَانِ

فصل

هَذَا وَلَيْسَ الطَّعْنُ بِالإِطْلاَقِ فِيـ ... ـهَا كُلِّهَا فِعْلَ الْجَهُولِ الْجَانِي
بَلْ فِي الَّتِي قَدْ خَالَفَتْ قَوْلَ الرَّسُو ... لِ وَمُحْكَمَ الإِيمَانِ وَالْفُرْقَانِ
أَوْ فِي الَّتِي مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي ... تَقْرِيرِهَا يَا قَوْمِ مِنْ سُلْطَانِ
فَهْيَ الَّتِي كَمْ عَطَّلَتْ مِنْ سُنَّةٍ ... بَلْ عَطَّلَتْ مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
هَذَا وَتَرْجُو أَنَّ وَاضِعَهَا فَلاَ ... يَعْدُوهُ أَجْرٌ أَوْ لَهُ أَجْرَانِ
إِذْ قَالَ مَبْلَغُ عِلْمِهِ مِنْ غَيْرِ إِيـ ... ـجَابِ الْقَبُولِ لَهُ عَلَى إِنْسَانِ
بَلْ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَبُولِ كَلاَمِهِ ... نَصًّا بِتَقْلِيدٍ بِلاَ بُرْهَانِ
وَكَذَاكَ أَوْصَانَا بِتَقْدِيمِ النُّصُو ... صِ عَلَيْهِ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ
نَصَحَ الْعِبَادَ بِذَا وَخَلَّصَ نَفْسَهُ ... عِنْدَ السُّؤَالِ لَهَا مِنَ الدَّيَّانِ
وَالْخَوْفُ كُلُّ الْخَوْفِ فَهْوَ عَلَى الَّذِي ... تَرَكَ النُّصُوصَ لأَجْلِ قَوْلِ فُلاَنِ
وَإِذَا بَغَى الإِحْسَانَ أَوَّلَهَا بِمَا ... لَوْ قَالَهُ خَصْمٌ لَهُ ذُو شَانِ
لَرَمَاهُ بِالدَّاءِ الْعُضَالِ مُنَادِيًا ... بِفَسَادِ مَا قَدْ قَالَهُ بِأَذَانِ

شرح

وجملة شروط ذلك وحاصلها يرجع إلى أمرين: وجود المُقتضى وهو الإقبال التام على الكتاب

والسنة، وبذل الجُهد في معرفة معانيهما والاهتداء بهما.

ولابد أيضًا من دفع المَانع وهو التصميم الجَازم على دفع كل ما عارض النصين من المَذاهب والمقالات والقواعد والعوائد الَّتي جرت عليها أكثر الخَليقة وأوجبت من مُخالفة الوحيين أمورًا كثيرة متَى دفعها العبد وأعرض عنها اتسعت دائرة علمه ومعرفته، فبالتجرد عنها والإقبال التام على الوحيين وسلوك كل طريق يعين على معرفتهما والاستنارة بنور العلماء والاهتداء بهداهم تَحصل الكفاية التامة.

والناس حالهم مع الأئمة والعلماء ثلاثة أقسام:

أحدها: من غلا فيهم وجعل أقوالهم معصومة بمنزلة أقوال الرسول وقدمها على الكتاب والسنة، مع أن كل إمام له قبول في الأمة قد حث على اتباع الكتاب والسنة، وأمر أن لا يتبع من أقواله ومذهبه ما خالف الكتاب والسنة.

القسم الثاني: من ألغى أقوال العلماء وأهدر مقالات أئمة الهُدى ومصابيح الدجى ولم يستعن بنور فهمهم، ولا استعان بعلومهم، أو بعد ما استفاد منها لَمْ يشكرهم على ذلك، فهذا قد حرم خيرا كثيرًا.

والذي حمل على ذلك ظنهم أن وجوب اتباع الرسول وتقديم قوله على قول كل أحد يوجب الزهد في أقوال الصحابة والتابعين لَهم بإحسان وأئمة الهُدى، وهذا من الغلط الفاحش؛ فإن الصحابة وأهل العلم هم الوسائط بين الرسول وبين أمته في تبليغ سنته ألفاظها ومعانيها فالمتبع لَهم في ذلك مهتد بإفهامهم، مقتبس من أنوارهم، مستفيد من استنباطاتهم للمعاني النافعة، والدقائق الَّتي لا تكاد تَخطر على أذهان كثير من أهل العلم ولا تكاد الأفهام تدركها، فمن فضل الله على الأمة أن منَّ عليهم بهؤلاء العلماء الربانيين المُربين لَهم بنوعين من أنواع التربية العالية:

أحدهما التربية العلمية: يربونهم بصغار العلم قبل كباره، وبإيصال معاني الكتاب والسنة إلَى أذهانهم وعقولهم بالتعليم الشفاهي، وتصنيف كتب العلم النافع المُتنوعة الَّتي لا يقدر العباد أن يصفوا ما اشتملت عليه من العلوم والفوائد الَّتي لَهم اليد البيضاء في استنباطها من الكتاب والسنة، وفي ترتيبها وتفصيلها وتقسيمها، وجَمع النظائر والمتماثلات والشروط والأركان

والموانع، وتفريق المعاني المتباينة وأصناف الفوائد المتنوعة.

والنوع الثاني: تربية عملية: يربون أخلاقهم ويحثونهم على كل خلق حميد، ببيان حكمه ومرتبته وما يترتب عليه من الفوائد، ويبينون لهم الأسباب والطرق التي يكتسبونها به، والموانع التي تعوقهم عن الاتصاف به. فهم في الحقيقة غذاء القلوب والأرواح، وهم أطباء أدواء القلوب وعللها، ويعلمونهم بأقوالهم وأفعالهم وهديهم، فهؤلاء لهم الحق الأكبر على الأمة، ولهم من المحبة والتعظيم والتوقير والشكر على محاسنهم وإحسانهم المتنوع فوق كل حق بعد حق الله وحق رسوله.

ولهذا كان القسم الثالث: الذين وفقوا لمعرفة أقدارهم، وقاموا بحقوقهم، وشكروهم على فواضلهم وفضائلهم، واكتسبوا من علومهم وقدروها حق قدرها، وعرفوا أنهم غير معصومين، وأن أقوالهم تابعة لأقوال الرسول، وأن كل واحد منهم يؤخذ من قوله ما احتوى عليه من الهدى والعلم والرشاد والإصابة، ويترك منه ما أخطأ فيه، ولا يذم على خطئه؛ إذ هو مجتهد في إصابة الحق وخطأهم مغفور، وسعيهم مشكور.

وإذا ردوا ما قاله أحد هؤلاء السادة لما يرونه من الضعف وخالفة الدليل الشرعي بينوا ضعف القول ومرتبته، ولم يقدحوا في قصد أهل العلم والدين ولم يذموهم على هذا، ويقولون كما هو الواجب أن يقولوا ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

فهؤلاء أدوا الواجبين: جمعوا بين تقديم الكتاب والسنة على كل شيء، وبين معرفة أقدار العلماء وأئمة الهدى والقيام ولو ببعض حقهم، فنسأله أن يمن علينا ويجعلنا من أهل هذا القسم الثالث، ويجعلنا ممن يحبه ويحب من يحبه ويحب العمل الذي يقرب إلى حبه.

فصل

في لازم المذهب هل هو مذهب أم لا

وَلَوَازِمُ المَعْنَى تُرَادُ بِذِكْرِهِ ... مِنْ عَارِفٍ بِلُزُومِهَا الحَقَّانِي

---

(١) [الحشر: ١٠].

وَسَوَاءٌ لَيْسَ بِلَازِمٍ فِي حَقِّهِ ... فَضْدُ اللَّوَازِمِ وَهْيَ [ذُو نُقْصَانِ][1]

إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا الْمَجْهُولُ أَوْ ... قَدْ كَانَ بِغَلْسَةٍ بِلَا نُكْرَانِ

لَكِنْ غَرِيزَةُ عَقْلِهِ بِلُزُومِهَا ... إِذْ كَانَ ذَا سَهْوٍ وَذَا نِسْيَانِ

وَلِذَا لَمْ يَكُ لَازِمًا لِمَذَاهِبِ الْـ ... ـعُلَمَاءِ مَذْهَبُهُمْ بِلَا بُرْهَانِ

فَالْمُقْدِمُونَ عَلَى حِكَايَةِ ذَاكَ مَذْ ... هَبُهُمْ أُولُو جَهْلٍ مَعَ الْعُدْوَانِ

لَا فَرْقَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَخَفَائِهِ ... قَدْ يَذْهَلُونَ عَنِ اللُّزُومِ الثَّانِي

سِيَّمَا إِذَا مَا كَانَ لَيْسَ بِلَازِمٍ ... لَكِنْ يَظُنُّ لُزُومَهُ بِحَنَانِ

لَا تَشْهَدُوا بِالزُّورِ وَيْحَكُمُ عَلَى ... مَا تَلْزَمُونَ شَهَادَةَ الْهَذَيَانِ

بِخِلَافِ لَازِمِ مَا يَقُولُ إِلَهُنَا ... وَنَبِيُّنَا الْمَعْصُومُ بِالْبُرْهَانِ

فَلِذَا دَلَالَاتُ النُّصُوصِ جَلِيَّةٌ ... وَخَفِيَّةٌ تَخْفَى عَلَى الْأَذْهَانِ

وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ الْفَهْمَ فِي ... آيَاتِهِ رِزْقًا بِلَا حُسْبَانِ

وَاحْذَرْ حِكَايَاتِ الْأَرْبَابِ الْكَلَا ... مِ عَنِ الْخُصُومِ كَثِيرَةَ الْهَذَيَانِ

فَحَكَوْا بِمَا طَالُوهُ يَلْزَمُهُمْ فَقَا ... لُوا ذَا مَذْهَبُهُمْ بِلَا بُرْهَانِ

كَذَبُوا عَلَيْهِمْ بَاهِتِينَ لَهُمْ بِمَا ... طَالُوهُ يَلْزَمُهُمْ مِنَ الْبُهْتَانِ

فَحَكَى الْمُعَطِّلُ عَنْ أُولِي الْإِثْبَاتِ قَوْ ... لَهُمْ بِأَنَّ اللهَ ذُو جُثْمَانِ

وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ ... نَ اللهَ لَيْسَ يُرَى لَنَا بِعِيَانِ

وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِجَوْ ... زِ كَلَامِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ مَعَانِ

وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِتَحْـ ... ـيِيزِ الْإِلَهِ وَحَصْرِهِ بِمَكَانِ

وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ الْـ ... أَعْضَاءُ جَلَّ اللهُ عَنْ بُهْتَانِ

وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُوَ الْـ ... ـتَشْبِيهُ لِلْخَلْقِ بِالْإِنْسَانِ

وَحَكَى الْمُعَطِّلُ عَنْهُمُ مَا لَمْ يَقُو ... لُوهُ وَلَا أَتَى بِهِ أَصْحَابُهُمْ بِلِسَانِ

ظَنَّ الْمُعَطِّلُ أَنَّ هَذَا لَازِمٌ ... فَلِذَا أَتَى بِالزُّورِ وَالْعُدْوَانِ

فَعَلَيْهِ فِي هَذَا مَعَاذِيرٌ ثَلَا ... ثٌ كُلُّهَا مُتَحَقِّقُ الْبُطْلَانِ

---

(١) كذا في (ط) وفي (خ، س) [ذات بيان].

ظَنُّ اللُّزُومِ وقَذْفُهُمْ بِلُزُومِهِ ... وتَمَامُ ذَاكَ شَهَادَةُ الْكُفْرَانِ

يَا شَاهِدًا بِالزُّورِ وَيْحَكَ لَمْ تَخَفْ ... يَوْمَ الشَّهَادَةِ سَطْوَةَ الدَّيَّانِ

يَا قَائِلَ الْبُهْتَانِ غَطِّ لَوَازِمًا ... قَدْ قُلْتَ مَلْزُومَاتِهَا بِبَيَانِ

وَاللهِ لَازِمُهَا انْتِفَاءُ الذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَافِ وَالأَفْعَالِ لِلرَّحْمَنِ

وَاللهِ لَازِمُهَا انْتِفَاءُ الدِّينِ وَالْـ ... ـقُرْآنِ وَالإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

وَلُزُومُ ذَلِكَ بَيِّنٌ جِدًّا لِمَنْ ... كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ وَاعِيَتَانِ

وَاللهِ لَوْلَا ضِيقُ هَذَا النَّظْمِ بَيْـ ... ـنْتُ اللُّزُومَ بِأَوْضَحِ التِّبْيَانِ

وَلَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ مَا يَكْفِي لِمَنْ ... كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ

إِنَّ الذَّكِيَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ يَكْتَفِي ... وَأَخُو الْبَلَادَةِ سَاكِنُ الْجَبَّانِ

يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِجَهْلِ شُيُوخِكُمْ ... بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ أَفْضَلِ وَقْتِهِ ... فِيكُمْ مَقَالَةَ جَاهِلٍ فَتَّانِ

إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالأَرْضَ قَبْـ ... ـلَ الْعَرْشِ بِالإِجْمَاعِ مَخْلُوقَانِ

وَاللهِ مَا هَذِي مَقَالَةُ عَالِمٍ ... فَضْلًا عَنِ الإِجْمَاعِ كُلِّ زَمَانِ

مَنْ قَالَ ذَا قَدْ خَالَفَ الإِجْمَاعَ وَالْـ ... ـخَبَرَ الصَّحِيحَ وَظَاهِرَ الْقُرْآنِ

فَانْظُرْ إِلَى مَا جَرَّهُ تَأْوِيلُ لَفْـ ... ـظِ الاسْتِوَاءِ بِظَاهِرِ الْبُطْلَانِ

زَعَمَ الْمُعَطِّلُ أَنَّ تَأْوِيلَ اسْتَوَى ... بِالْخَلْقِ وَالإِقْبَالِ وَضْعَ لِسَانِ

كَذَبَ الْمُعَطِّلُ لَيْسَ ذَا لُغَةَ الأُلَى ... قَدْ خُوطِبُوا بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

فَأَحَارَهُ هَذَا إِلَى أَنْ قَالَ خَلْـ ... ـقُ الْعَرْشِ بَعْدَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

يُهْنِيهِ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ لَهُ وَإِجْـ ... ـمَاعُ الْهُدَاةِ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

شرح

أما كلام الله وكلام رسوله فإنه كله حق، ودلالاته الثلاث حق: دلالة المطابقة والتضمن ودلالة الإلتزام؛ لأنه تنزيل من حكيم عليم حميد، محكم قد علم الله ما يلزم وحيه وما تتوقف عليه كلماته وكلمات رسوله من الشروط والمتممات الَّتي يتوقف كثير من المعاني عليها.

فهذا النوع من الكلام لا يدخل في الخلاف الذي أشار إليه المؤلف، وأما كلام أهل العلم وأرباب المذاهب في الأصول والفروع فدلالة المطابقة والتضمن معلوم أنها داخلة في كلامهم؛ لأنها هي معنى الكلام، وأما إذا قالوا مقالة ولزم منها أقوال أخر متوقفة عليها صحيحة أو فاسدة فالصواب والتحقيق الذي يدل عليه الدليل أن لازم المذهب الذي لم يصرح به صاحبه ولم يشر إليه ولم يلتزمه ليس مذهبًا؛ لأن القائل غير معصوم، وعلم المخلوق مهما بلغ فإنه قاصر، فبأي برهان نلزم القائل بما لم يلتزمه، ونقوله ما لم يقله، ولكننا نستدل على صحتها وضعفها وعلى فسادها، فإن الحق لازمه حق، والباطل يكون له لوازم تناسبه فيستدل بفساد اللازم خصوصًا اللازم الذي يعترف القائل بفساده على فساد الملزوم، كما تقدم في إلزام الجهمية على أقوالهم الفاسدة لوازم يعترفون بفسادها ويكفرون من قال بتلك اللوازم، كإلزامهم قولهم في الإيمان أنه مجرد إقرار العبد بأن الله ربه، أنه يلزم من هذا القول الحكم بإيمان إبليس وفرعون وقوم عاد وثمود وقوم نوح وكل مكذب للرسل إذا كان يعترف بالله.

وكذلك نفيهم لصفات الله وأفعاله وعلوه على خلقه من لوازم التعطيل المحض ونفي وجود الله بالكلية.

وكذلك تقدم لوازم قولهم في تفسيرهم لكلام الله أنه يلزم منه أن كلام الخلق كلهم كلام الله كما قاله الاتحادية.

والقول بنفي الرسالة ونحوها مما مر ومر توجيهه.

فهذه الالزامات الصحيحة.

وأما إلزام أهل الكلام لأهل السنة القول بالجسمية أو التشبيه إذا أثبتوا الصفات فهو إلزام منهم باطل في نفسه، باطل في نفس إلزامهم، وتقدم وجه فساده واستفسارهم الذي يبطل به قولهم، فإلزامهم لأهل السنة ما لم يلتزموه افتراء منهم وتقول عليهم، واللازم الذي قالوه باطل بالنص والإجماع؛ لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فكما أثبت لنفسه عظيم الصفات فقد نفى عنه مماثلة أحد من المخلوقين وأن يكون له كفؤ أو ند.

وقد تمادت هذه الطائفة أرباب الكلام الباطل حتى أن بعض من يشار إليه منهم بالفضل والعلم حكى الإجماع أن خلق العرش بعد خلق السماوات والأرض.

وما حمله على هذا القول الذي فاه به وخالف نص الكتاب والسنة وإجماع الأمة إلا تفسير الاستواء بالاستيلاء والخلق، وأن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1]. يعني على زعم هذا المفتري: ثُمَّ خلق العرش، والقول إذا وصل إلى هذه الحالة السمجة فهو نهاية الافتراء والتحريف والتعصب.

فصل

في الرد عليهم في تكفيرهم أهل العلم والإيمان
وذكر انقسامهم إلى أهل الجهل والتفريط والبدع والكفران

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّكُمْ كَفَّرْتُمُ ... أَهْلَ الْحَدِيثِ وَشِيعَةَ الْقُرْآنِ

إِذْ خَالَفُوا رَأْيًا لَهُ رَأْيٌ بَنَا ... فَضْلُهُ لِأَجْلِ النَّصِّ وَالْبُرْهَانِ

وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِيرَ عَيْنَ خِلَافِكُمْ ... وَوِفَاقُكُمْ لَحَقِيقَةُ الْإِيمَانِ

فَوِفَاقُكُمْ مِيزَانُ دِينِ اللهِ لَا ... مَنْ جَاءَ بِالْبُرْهَانِ وَالْفُرْقَانِ

مِيزَانُكُمْ مِيزَانُ بَاغٍ جَاهِلٍ ... وَالْعَوْلُ كُلُّ الْعَوْلِ فِي الْمِيزَانِ

أَهْوِنْ بِهِ مِيزَانَ جَوْرٍ عَائِلٍ ... بِيَدِ الْمُطَفِّفِ وَيْلَ ذَا الْوَزْنِ

لَوْ كَانَ ثَمَّ حَيَا وَأَدْنَى مِسْكَةٍ ... مِنْ دِينِ أَوْ عِلْمٍ وَمِنْ إِيمَانِ

لَمْ تَجْعَلُوا آرَاءَكُمْ مِيزَانَ كُفْـ ... ـرِ النَّاسِ بِالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

هَيْهَاتَ لَأْوَتْكُمْ وَسَاغَ لَكُمْ إِبَا ... كُفْرُ مَنْ خَالَفَكُمْ بِلَا بُرْهَانِ

هَذِي الْوَقَاحَةُ وَالْجَرَاءَةُ وَالْجَهَا ... لَةُ وَحُكْمُكُمْ بِهَا فِرْقَةُ الطُّغْيَانِ

اللهُ أَكْبَرُ ذَا عُقُوبَةُ تَارِكِ الـ ... ـوَحْيَيْنِ لِلْآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ

لَكِنَّنَا لَسْنَا بِحُكْمٍ عَادِلٍ ... فِيكُمْ لِأَجْلِ مَخَافَةِ الرَّحْمَنِ

فَاسْمَعْ إِذًا يَا مُنْصِفًا حُكْمَيْهِمَا ... وَانْظُرْ إِذَا هَلْ يَسْتَوِي الْحُكْمَانِ

هُمْ عِنْدَنَا قِسْمَانِ أَهْلُ جَهَالَةٍ ... وَذَوُو الْعِنَادِ وَذَلِكَ الْقِسْمَانِ

جَمْعٌ وَفَرْقٌ بَيْنَ نَوْعَيْهِمْ هُنَا ... فِي بِدْعَةٍ لَا شَكَّ يَجْتَمِعَانِ

---

(١) [يونس: ٣].

وَدُوْنَ الْعِنَادِ فَاضْلُ كُفْرٍ ظَاهِرٍ ... وَالْجَاهِلُونَ فَائِهُمْ مَرْعَانُ

مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ بِالْـ ... أَسْبَابِ ذَاتِ الْيُسْرِ وَالإِمْكَانِ

لَكِنْ إِلَى أَرْضِ الْجَهَالَةِ أَخْلَدُوا ... وَاسْتَسْهَلُوا التَّقْلِيدَ كَالْعُمْيَانِ

لَمْ يُبْذُلُوا الْمَقْدُورَ فِي إِدْرَاكِهِمْ ... لِلْحَقِّ لَهْوِيًّا بِهَذَا الشَّانِ

فَهُمُ الأُلَى لاَ شَكَّ فِي تَفْسِيقِهِمْ ... وَالْكُفْرُ فِيهِ عِنْدَنَا قَوْلاَنِ

وَالْوَقْفُ عِنْدَ فِيهِمُ لَسْتُ الَّذِي ... بِالْكُفْرِ أَلْفَظُهُمْ وَلاَ الإِيمَانِ

وَاللهُ أَعْلَمُ بِالْبَطَانَةِ مِنْهُمُ ... وَلَنَا ظَهَارَةُ حُلَّةِ الإِعْلاَنِ

لَكِنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ عِقَابَهُ ... قَطْعًا لأَجْلِ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

هَبْكُمْ عَذَرْتُمْ بِالْجَهَالَةِ إِنَّكُمْ ... لَنْ تَعْذِرُوا بِالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ

وَالطَّعْنِ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ وَدِينِهِ ... وَشَهَادَةِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ

وَكَذَلِكَ اسْتِحْلاَلُ قَتْلِ مُخَالِفِي ... كُمْ قَتْلَ ذِي الإِشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ

إِنَّ الْخَوَارِجَ مَا أَحَلُّوا قَتْلَهُمْ ... إِلاَّ لِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْعِصْيَانِ

وَسَمِعْتُمْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ ... فِيهِمْ وَذَلِكَ وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

لَكِنَّكُمْ أَلْفَيْتُمُ أَبْحَاثَكُمْ قَتْلَهُمْ ... بِوِفَاقِ سُنَّتِهِ مَعَ الْقُرْآنِ

وَاللهِ مَا زَادُوا التَّقِيرَ عَلَيْهِمَا ... لَكِنْ بِتَقْرِيرٍ مَعَ الإِتْيَانِ

فَلَحَقُّ مَنْ قَدْ خَصَّكُمْ بِالْعِلْمِ وَالـ ... ـتَحْقِيقِ وَالإِنْصَافِ وَالْعِرْفَانِ

أَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَمِ الْخَوَارِجِ بِالَّذِي ... قَالَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

هُمْ يَقْتُلُونَ لِعَابِدِ الرَّحْمَنِ بَلْ ... يَدَعُونَ أَهْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

هَذَا وَلَيْسُوا أَهْلَ تَعْطِيلٍ وَلاَ ... غُلُوِّ الْغُلُوصِ الْحَقَّ بِالْبُرْهَانِ

شرح

وبهذا التفصيل في هذا الفصل يتضح إنصاف أهل السنة في معاملتهم لأعدائهم من أهل البدع والمعطلين، كما يتضح جراءة أعدائهم وافتراؤهم؛ حيث جعلوا ميزان الكفر والإيمان مخالفتهم وموافقتهم، فمن وافقهم على بدعتهم ونفيهم فهو المؤمن عندهم، ومن خالفهم فهو كافر.

فانظر إلى هذه الجرأة العظيمة، وحكمهم على أهل السنة والشريعة بالكفر والخروج من الدين بغير بينة ولا برهان، بل بالتعصب والأقوال التي لم ينزل الله بها من سلطان.

فلو أنهم حين ابتلوا بهذه البدعة الباطلة قالوا: هذا رأينا الذي رأيناه ولم يتعدوا هذا العدوان لكان أهون شر وأقل مصيبة عليهم، ولكنهم جمعوا بين الشرين وجمعوا بين الضلالتين، وهذا من عقوبات الله القدرية لقلوب أعرضت عن وحيه وتعوضت عنه آراء كل أفاك أثيم، فنسألك اللهم عافيتك ولطفك.

أما أهل السنة والجماعة فيسلكون معهم ومع أهل البدع المسلك المستقيم المبني على الأصول الشرعية والقواعد المرضية ينصفونهم ولا يكفرون منهم إلا من كفَّره الله ورسوله، ويعتقدون أن الحكم بالكفر والإيمان من أكبر حقوق الله وحقوق رسوله، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه غير متأول من أهل البدع فهو كافر؛ لأنه كذَّب الله ورسوله واستكبر على الحق وعانده، فكل مبتدع من جهمي وقدري وخارجي ورافضي ونحوهم عرف أن بدعته مناقضة لما جاء به الكتاب والسنة ثُمَّ أصر عليها ونصرها فهو كافر بالله العظيم مشاق لله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى.

ومن كان من أهل البدع مؤمنًا بالله ورسوله ظاهرًا وباطنًا، معظمًا لله ورسوله ملتزمًا ما جاء به الرسول ﷺ ولكنه خالف الحق وأخطأ في بعض المقالات وأخطأ في تأويله من غير كفر وجحد للهدى الذي تبين له لم يكن كافرًا، ولكنه قد يكون فاسقًا مبتدعًا أو مبتدعًا ضالاً أو معفوًا عنه لخفاء المقالة وقوة اجتهاده في طلب الحق الذي لم يظفر به.

ولهذا كان الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم من أهل البدع أقسامًا متنوعة: منهم من هو كافر بلا ريب كغلاة الجهمية الذين نفوا الأسماء والصفات وقد عرفوا أن بدعتهم مخالفة لما جاء به الرسول، فهؤلاء مكذبون للرسول عالمون بذلك.

ومنهم من هو مبتدع ضال فاسق كالخوارج المتأولين، والمعتزلة المتأولين الذي ليس عندهم تكذيب للرسول ولكنهم ضلوا ببدعتهم وظنوا أن ما هم عليه هو الحق، ولهذا اتفق الصحابة رضي الله عنهم في الحكم على بدعة الخوارج ومروقهم كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فيهم، واتفقوا أيضًا على عدم خروجهم من الإسلام مع أنهم استحلوا دماء المسلمين وأنكروا الشفاعة في

أهل الكبائر وكثيرًا من الأصول الدينية ولكن تأويلهم منع من تكفيرهم.

فصل

والآخرون فأهل عجز عن بلو ... غ الحق مع قصد ومع إيمان
بالله ثم رسوله ولقائه ... وهم إذا مر لهم حيران
قوم دعاهم حسن ظنهم بما ... قالته أشياخ ذوو أسنان
وديانة في الناس لم يجدوا سوى ... أقوالهم فرضوا بها بأمان
لو يقدرون على الهدى لم يرتضوا ... بدلاً به من قائل البهتان
فأولاء معذورون إن لم يظلموا ... ويكفروا بالجهل والعدوان
والآخرون فطالبون الحق لـ ... ـكن صدهم عن علمه شيطان
مع بخسهم ومصادمات قصدهم ... منها وصولهم إلى العرفان
إحداهما طلب الحقائق من سوى ... أبوابها متصوري الحذران
وسلوك طرق غير موصلة إلى ... ذاك اليقين ومطلع الإيمان
فتشابهت تلك الأمور عليهم ... مثل اشتباه الطرق بالخيران
فترى أفاضلهم حيارى كلها ... في التيه يقرع لاجئ الندمان
ويقول قد كثرت على الطرق لا ... أدري الطريق الأعظم السلطاني
بل كلهم طرق محوفات بها ال ... آفات خاصلة بلا حسبان
فالوقف غايته وآخر أمره ... من غير شك منه في الرحمن
أو دينه وكتابه ورسوله ... ولقائه وقيامة الأبدان
فأولاء بين الذنب والأخرين أو ... إحداهما أو واسع الغفران
فانظر إلى أحكامنا فيهم وقد ... جحدوا النصوص ومقتضى القرآن
وانظر إلى أحكامهم فينا لأجـ ... ـل خلافهم إذ قادة الوحيان
هل يستوي الحكمان عند الله أو ... عند الرسول وعند ذي إيمان
الكفر حق الله ثم رسوله ... بالنص بينت لا بقول فلان
من كان رب العالمين وعبده ... قد كفراه فذاك ذو الكفران

فَبِنَفْسِكُمْ وَبِحُكْمِكُمْ نَحْاكَمْتُكُمْ إِلَى ... التِّبْيَانِ مِنْ وَحْيِي وَمِنْ قُرْآنِ

وَهُنَاكَ يَعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَلَى الْـ ... ـكُفْرَانِ حَقًّا أَوْ عَلَى الإِيمَانِ

فَلَيُهْنِكُمْ تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْـ ... ـلَامٍ وَإِيمَانٍ لَهُ التِّبْيَانِ

لَكِنَّ غَايَتَهُ كَفَايَةُ مَنْ سِوَى الْـ ... ـمَعْصُومِ غَايَةُ لَوْمِ ذَا الإِحْسَانِ

خَطَأٌ يَصِيرُ الأَجْرُ أَجْرًا وَاحِدًا ... إِنْ قَالَهُ مِنْ أَجْلِهِ الْكُفْلَانِ

إِنْ كَانَ ذَاكَ مُكَفِّرًا يَا أُمَّةَ الْـ ... ـعُدْوَانِ مَنْ هَذَا عَلَى الإِيمَانِ

قَدْ دَارَ بَيْنَ الأَجْرِ وَالأَجْرَيْنِ وَالـ ... ـتَّكْفِيرِ بِالدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ

كَفَّرْتُمُ وَاللهِ مَنْ شَهِدَ الرَّسُو ... لُ بِأَنَّهُ حَقًّا عَلَى الإِيمَانِ

ثِنْتَانِ مِنْ قَبْلِ الرَّسُولِ وَخَصْلَةٌ ... مِنْ عِنْدِكُمْ أَفَأَنْتُمَا عَدْلَانِ

شرح

ومن أهل البدع من هو دون هؤلاء ككثير من القدرية وكالكلابية والأشعرية فهؤلاء مبتدعة ضالون في الأصول التي خالفوا فيها الكتاب والسنة وهي معروفة مشهورة، وهم في بدعهم مراتب بحسب بعدهم عن الحق وقربهم، وبحسب بغيهم على أهل الحق بالتكفير والتفسيق والتبديع، وبحسب قدرتهم على الوصول إلى الحق واجتهادهم فيه وضد ذلك، وتفصيل القول فيه يطول جدًا.

فأهل السنة والجماعة عندهم من الأصول الصحيحة، وملازمة ما دل عليه الكتاب والسنة، والتصديق بذلك كله والخوف من الله ما يمنعهم من التعدي على الخلق وعلى أعدائهم من أهل البدع والكلام الباطل، ولا يحملهم بغضهم وعداوتهم على مجاوزة الحد فيهم، بل ينزلون كلا من أقسامه منزلته، متبعين في ذلك ما جاء به الوحي وما دلت عليه أصوله، عالمين بالحق، راحمين للخلق، يدينون باتباع الكتاب والسنة ويتبرأون ممن خالف ذلك، ويسألون الله أن يعافيهم من أهل البلاء، ومن أعظم البلاء البدع في الدين. والله أعلم.

فصل

في تلاعب المكفرين لأهل السنة والإيمان بالدين كتلاعب الصبيان

كَمْ ذَا التَّلاعُبُ مِنْكُمْ بِالدِّينِ وَالْـ ... إِيمَانِ مِثْلَ تَلاعُبِ الصِّبْيَانِ
خُسِفَتْ قُلُوبُكُمْ كَمَا خُسِفَتْ عُقُو ... لُكُمْ فَلا تَزْكُوا عَلَى الْقُرْآنِ
كَمْ ذَا تَقُولُوا مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلٌ ... وَظَوَاهِرٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ
حَتَّى إِذَا رَأَى الرِّجَالَ أَتَاكُمْ ... فَاسْمَعْ لِمَا يُوحَى بِلا بُرْهَانِ
مِثْلَ الْخَفَافِيشِ الَّتِي إِنْ جَاءَهَا ... ضَوْءُ النَّهَارِ فَفِي كُوَى الْحِيطَانِ
عَمِيَتْ عَنِ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ لا تُطِيـ ... ـقُ هِدَايَةً فِيهَا إِلَى الطَّيَرَانِ
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ ظَلامُهُ ... جَالَتْ بِظُلْمَتِهِ بِكُلِّ مَكَانِ
فَتَرَى الْمُوَحِّدَ حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَهُمْ ... وَيَرَاهُمْ فِي مِحْنَةٍ وَهَوَانِ
وَارَحْمَتَاهُ لِعَيْنِهِ وَلأُذْنِهِ ... يَا مِحْنَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالأُذْنَانِ
إِنْ قَالَ حَقًّا كَفَّرُوهُ وَإِنْ يَقُو ... لُوا بَاطِلاً نَسَبُوهُ لِلإِيمَانِ
حَتَّى إِذَا مَا رَدَّهُ عَادَوْهُ مِثْـ ... ـلَ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلإِنْسَانِ
قَالُوا لَهُ خَالَفْتَ أَقْوَالَ الشُّيُو ... خِ وَلَمْ يُبَالُوا الْخُلْفَ لِلْفُرْقَانِ
خَالَفْتُ أَقْوَالَ الشُّيُوخِ فَأَنْتُمْ ... خَالَفْتُمْ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
خَالَفْتُمْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَإِنَّمَا ... خَالَفْتُ مِنْ جَرَّاهُ قَوْلَ فُلانِ
يَا حَبَّذَا ذَاكَ الْخِلافُ فَإِنَّهُ ... عَيْنُ الْوِفَاقِ لِطَاعَةِ الرَّحْمَنِ
أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَعْدَاءَ الرَّسُو ... لِ عَلَيْهِ عَابُوا الْخُلْفَ بِالْبُهْتَانِ
لِشُيُوخِهِمْ وَلِمَا عَلَيْهِ قَدْ مَضَى ... أَسْلافُهُمْ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
مَا الْعَيْبُ إِلاَّ فِي خِلافِ النَّصِّ لا ... رَأْيِ الرِّجَالِ وَفِكْرَةِ الأَذْهَانِ
أَنْتُمْ تَعِيبُونَا بِهَذَا وَهُوَ مِنْ ... تَوْفِيقِنَا وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ
فَلْيَهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصُوصِ وَيَهْنِنَا ... خُلْفُ الشُّيُوخِ أَيَسْتَوِي الْخُلْفَانِ
وَاللهِ مَا تَسْوِي عُقُولُ جَمِيعِ أَهْـ ... ـلِ الأَرْضِ نَصًّا صَحَّ ذَا تِبْيَانِ

حتى نقدمها عليه معرضـ ـين مؤولين محرفي القرآن
والله إن النص فيما بيننا لأجل من آراء كل فلان
والله لم ينقم علينا منكم أبدا خلاف النص من إنسان
لكن خلاف الأشعري بزعمكم وكذبتم أنتم على الإنسان
كفرتم من قال ما قد قاله في كتبه حقا بلا كتمان
هذا وخالفناه في القرآن مثـ ـل خلافكم في الفوق للرحمن
فالأشعري مصرح بالاستوا ء وبالعلو بغاية التبيان
ومصرح أيضا بإثبات اليديـ ـن ووجه رب العرش ذي السلطان
ومصرح أيضا بأن لربنا سبحانه عينان ناظرتان
ومصرح أيضا بإثبات النزو ل لربنا نحو الرفيع الداني
ومصرح أيضا بإثبات الأصا بع مثل ما قد قال ذو البرهان
ومصرح أيضا بأن الله يو م الحشر يبصره أولو الإيمان
جهرا يرون الله فوق سمائه رؤيا العيان كما يرى القمران
ومصرح أيضا بإثبات المجي ء وأنه يأتي بلا نكران
ومصرح بفساد قول مؤول للاستواء بقهر ذي السلطان
ومصرح أن الألى قالوا بذا التـ ـأويل أهل ضلالة ببيان
ومصرح أن الذي قد قاله أهل الحديث وعسكر القرآن
هو قوله يلقى عليه ربه وبه يدين الله كل أوان
لكنه قد قال إن كلامه معنى يقوم بربنا الرحمن
في القول خالفناه نحن وأنتم في الفوق والأوصاف للديان
لم كان نفس خلافنا كفرا وكا ن خلافكم هو مقتضى الإيمان
هذا وخالفتم لنص حين خا لفنا لرأي الجهم ذي البهتان
والله ما لكم جواب غير تكـ ـفير بلا علم ولا إيقان
أستغفر الله العظيم لكم جوا ب غير ذا الشكوى إلى السلطان

فَهُوَ الْجَوَابُ لَدَيْكُمْ وَلَنَحْنُ مُنْـ ـتَظِرُوهُ مِنْكُمْ يَا أُولِي الْبُرْهَانِ
وَاللهِ لَا لِلْأَشْعَرِيِّ تَبِعْتُمْ كَلَّا وَلَا لِلنَّصِّ بِالْإِحْسَانِ
يَا قَوْمُ فَانْتَبِهُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَحَلُّوا الْجَهْلَ وَالدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ
مَا فِي الرِّيَاسَةِ بِالْجَهَالَةِ غَيْرُ ضَحْـ ـكَةِ عَاقِلٍ مِنْكُمْ مَدَى الْأَزْمَانِ
لَا تَرْتَضُوا بِرِيَاسَةِ الْبَقَرِ الَّتِي رُؤَسَاؤُهَا مِنْ جُمْلَةِ الثِّيرَانِ

شرح

أهل الكلام الباطل والبدع جعلوا دينهم ما قالته شيوخهم، فإذا جائتهم نصوص الوحي قالوا: هذا مُجمل، هذا مؤول، هذا كذا وهذا كذا.

وأما أقوال شيوخهم فلا يعتريها عندهم إجمال ولا إشكال، ولا يحل لأحد مُخالفتها ولو كان ذلك لقول الله وقول رسوله، فهل أبلغ من هذا التلاعب بالدين؟!

أما أهل السنة والجَماعة فعندهم أن نصوص الوحي صريحة بينة واضحة كما هو مشاهد، معصومة توجب العلم واليقين، لا تحل مُخالفتها ولو اجتمعت عقول أهل الأرض وآراؤهم على مُخالفة نص واحد منها.

فالنص عندهم أعظم وأجل من أن يعارض بغيره، ولهذا كان أهل البدع لَمْ يعيبوا أهل السنة بِمخالفة شيء من النصوص وإنَّما عابوا عليهم مُخالفة أهل البدع.

ولما كان أبو الحَسن الأشعري فيه سنة وبدعة، وأثنى عليه أهل السنة بِمَا معه من السنة وما نصره من الحَق وما رد به على المُعتزلة وغيرهم، وأنكروا عليه ما يقوله مِمَّا خالف فيه الحَق وخالفوه فِي ذلك، عاب أهل الكلام على أهل السنة مُخالفة أبِي الحَسن فِي أقواله البدعية، وهم أنفسهم قد تناقضوا: فإنَّهم وافقوا الأشعري فِي أقواله المُبتدعة، وخالفوه بِمَا ذكره فِي كتابة «الإبانة» وغيرها من التصريح بعلو الله واستوائه على عرشه وإثباته للصفات ورده على الجَهمية وموافقته للإمام أحْمَد وأصحابه كما صرح بذلك كله.

وإنَّما ثبت على قوله فِي الكلام النفسي وبقي على مذهب ابن كلاب كما تقدمت حكايته.

فأي الفريقين أحق بالحَق أن كنتم تعلمون؟!

وهكذا صنيع أهل السنة مع كل من عرف بالعلم والإيمان، يعتقدون فضله ومقامه الذي أقامه الله به من العلم والإيمان، ويوافقونه فيما قاله من الحق، ويستفيدون من علمه، ويردون ما غلط فيه من الباطل؛ لعلمهم أنه لا معصوم إلا رسول الله وإلا إجماع الأمة، وهؤلاء المُبتدعة ليس لَهم جواب عن هذا التحقيق إلا التكفير والتبديع والشكاية إلى الملوك ليؤيدوا ما قالوه من الباطل.

فصل

في أن أهل الحديث هم أنصار رسول الله ﷺ وخاصته ولا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر

يا مُبغضاً أهلَ الحديثِ وشاتماً ... أبشرْ بعقدِ ولايةِ الشيطانِ

أوَ ما علمتَ بأنهم أنصارُ دينِ ... اللهِ والإيمانِ والقرآنِ

أوَ علمتَ بأنَّ أنصارَ الرسو ... لِ هُمُ بلا شكٍّ ولا نُكرانِ

هل يبغضُ الأنصارَ عبدٌ مؤمنٌ ... أوْ مُدرِكٌ لروائحِ الإيمانِ

شهدَ الرسولُ بذاكَ وهي شهادةٌ ... من أصدقِ الثقلينِ بالبرهانِ

أوَ ما علمتَ بأنَّ خزرجَ دينِهِ ... والأوسَ هُمْ أبداً بكلِّ زمانِ

ما ذنبُهُمْ إذْ خالفوكَ لقولِهِ ... ما خالفوهُ لأجلِ قولِ فلانِ

لو وافقوكَ وخالفوهُ كنتَ تشـ ... ـهدُ أنهمُ حقاً أولو الإيمانِ

لمّا تحيّزتمْ إلى الأشياخِ والـ ... ـحازوا إلى المبعوثِ بالقرآنِ

نسبوا إليهِ دونَ كلِّ مقالةٍ ... أوْ حالةٍ أوْ قائلٍ ومكانِ

هذا انتسابُ أولي التفرُّقِ نسبةٌ ... من أربعٍ معلومةِ البنيانِ

فلذا غضبتمْ [حيثُ ما][1] انتسبوا إلى ... غيرِ[2] الرسولِ بنسبةِ الإحسانِ

---

(١) كذا في (خ، ق) وفي (ط) [حينما].

(٢) كذا في (خ، ق) وفي (ط) [خير].

(٣) كذا في (خ) وفي (ط، س) [السير].

فوضعتم لهم من الألقاب ما ... تستقبحون وذا من العدوان
ثم يشهدون كم على بطلانها ... أفتشهدونهم على البطلان
ما ضرهم والله بعضكم لهم ... إذ وافقوا حقا رضا الرحمن
يا من بعاديهم لأجل مآكل ... ومناصب وزيادة الإخوان
لهبك هاتيك العداوة كم بها ... من حسرة ومذلة وهوان
ولسوف تخبى عنها والله عن ... قرب ولذكر صدق ذي الإيمان
فإذا تقطعت الوسائل وانتهت ... تلك المآكل في سريع زمان
فهناك تقرع سن لدمان على الـ ... تفريط وقت البشر[1] والإمكان
وهناك تعلم ما بضاعتك التي ... حصلتها في سالف الأزمان
إلا الوبال عليك والخسرات والـ ... خسران عند الوضع في الميزان
قل وقال ما له من حاصل ... إلا العناء وكل ذي الأذهان
والله ما تجدي عليك هناك إلـ ... لا ذا الذي جاءت به الوحيان
والله ما ينجيك من سجن الحجيـ ... ـم سوى الحديث ومحكم القرآن
والله ليس الناس إلا أهله ... وسواهم من جملة الحيوان
ولسوف تذكر سر ذي الإيمان عن ... قرب وتقرع ناجذ الندمان
رفعوا به رأسا ولم يرفع به ... أهل الكلام ومنطق اليونان
فهم كما قال الرسول ممثلا ... بالماء مهبطة على القيعان
لا الماء تمسكه ولا كلأ بها ... برعاة ذو كبد من الحيوان
هذا إذا لم يحرق الزرع الذي ... بجوارها بالنار أو بدخان
والجاهلون بذا وهذا هم زوا ... ن الزرع إي والله شر زوان
وهم لدى غرس الإله كمثل غر ... س الدلب بين مغارس الرمان
يمتص ماء الزرع مع لطيفه ... أبدا عليه ولين ذا قنوان
ذا حالهم مع حال أهل العلم أنـ ... ـصار الرسول فوارس الإيمان

---

(١) كذا في (ح) وفي (ط، س) [النشر]

فَعَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ الإِلَهِ تَحِيَّةٌ ... وَاللهُ يُبْقِيهِ مَدَى الأَزْمَانِ

لَوْلاهُ مَا سُقِيَ الغِرَاسُ فَسَوْقُ ذَا ... كَ الْمَاءِ لِلدُّلْبِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

فَالْغَرْسُ دُلْبٌ كُلُّهُ وَهُوَ الَّذِي ... يَسْقَى وَيَحْفَظُ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِ

فَالْغَرْسُ فِي تِلْكَ الْحَضَارَةِ شَارِبٌ ... فَضْلَ الْمِيَاهِ مَصَارُهُ الْبُسْتَانِ

لَكِنَّمَا الْبَلْوَى مِنَ الْحَطَّابِ قَطْ ... طَاعِ الْغِرَاسِ وَعَاقِرِ الْحِيطَانِ

بِالْقَوْسِ يَضْرِبُ فِي أُصُولِ الْغَرْسِ كَيْ ... يَجْتَثَّهَا وَيَظُنُّ ذَا إِحْسَانِ

وَيَظَلُّ يَحْلِفُ كَاذِبًا لَمْ أَعْتَمِدْ ... فِي ذَا سِوَى التَّثْبِيتِ لِلْعِيدَانِ

يَا خَيْبَةَ الْبُسْتَانِ مِنْ حَطَّابِهِ ... مَا بَعْدَ ذَا الْحَطَّابِ مِنْ بُسْتَانِ

فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى الْبُسْتَانِ فَهْـ ... ـوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْعِ كُلَّ أَوَانِ

فَالْجَاهِلُونَ شِرَارُ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْـ ... ـعُلَمَاءُ سَادَتُهُمْ أُولُو الإِحْسَانِ

وَالْجَاهِلُونَ خِيَارُ أَحْزَابِ الضَّلا ... لِ وَشِيعَةُ الْكُفْرَانِ وَالشَّيْطَانِ

وَشِرَارُهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ هُمْ شَرُّ خَلْـ ... ـقِ اللهِ آفَةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

شرح

ثبت في الصحيح أن النَّبي ﷺ قال عن الأنصار: «لا يبغضهم إلا منافق»[1]. وذلك بأسباب إيمانهم ومسابقتهم ونصرتهم التامة لرسول الله ﷺ.

وذبهم عنه من يريده بسوء.

كذلك أهل السنة والجماعة وأهل الحديث هم أنصار دينه وكتابه ورسوله، نصروا الرسول بعد وفاته كما نصره الأنصار في حياته، فمحبتهم من الإيمان وبغضهم من النفاق، ولذلك قيل لهم «أهل السنة والجماعة» و«أهل الحديث» لانتسابهم لسنته دون المقالات كلها والمذاهب وغيرها؛ لأن الإنسان لا ينسب لشيء إلا لاتصاله به، بخلاف غيرهم؛ فإنهم تباينت نسبهم إما على القائلين كالجهمية والكلابية والأشعرية ونحوهم، وإما إلى المقالات كالقدرية والجبرية والمعطلة، أو إلى الأمكنة أو إلى الأشخاص ونحو ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٨٣)، مسلم (٧٥).

ولا ينجي العبد من النار إلا اتباع السنة والقرآن، والناس في الحقيقة هم المتبعون لهما، وخيار أهل الحق علماؤهم؛ لأنهم هدوا واهتدوا، وشرار أهل الباطل علماؤهم؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، والجهال من هؤلاء وهؤلاء وسط بين الكمّال الذين هم أهل العلم والإيمان وبين أئمة الباطل.

فصل

في تعين الهجرة من الآراء والبدع إلى سنته كما كانت فرضًا من الأمصار إلى بلدته ﷺ

يـا قَـوْمُ فَـرْضُ الْهِجْـرَتَيْنِ بِحَالِـهِ ... وَاللهِ لَـمْ يُنْسَـخْ إِلَـى ذَا الآنِ

فَالْهِجْرَةُ الأُولَـى إِلَـى الـرَّحْمَنِ بِالْـ ... إِخْـلَاصِ فِـي سِـرٍّ وَفِـي إِعْـلَانِ

حَتَّـى يَكُـونَ الْقَصْـدُ وَجْـهَ اللهِ بِالْـ ... أَقْـوَالِ وَالأَعْمَـالِ وَالإِيمَـانِ

وَيَكُـونَ كُـلُّ الـدِّينِ لِلـرَّحْمَنِ مَـا ... لِـسْوَاهُ شَـيْءٌ فِيهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

وَالْحُـبُّ وَالْـبُغْضُ اللَّـذَانِ هُمَـا لِكُـلِّ وَلَايَـةٍ وَعَـدَاوَةٍ أَصْـلَانِ

للهِ أَيْضًـا هَكَـذَا الإِعْطَـاءُ وَالْـ ... ـمَنْعُ اللَّـذَانِ عَلَيْهِمَـا يَقِفَـانِ

وَاللهِ هَـذَا شَـطْرُ دِيـنِ اللهِ وَالثَّـ ... ـانِي لِلْمُحَكِّـمِ لِلْمُخْتَـارِ شَـطْرٌ ثَـانِ

وَكِلَاهُمَـا الإِحْسَـانُ لَـنْ يَتَقَبَّـلَ الـرَّ ... حْمَـنُ مِـنْ سَـعْيٍ بِـلَا إِحْسَـانِ

وَالْهِجْـرَةُ الأُخْـرَى إِلَـى الْمَبْعُـوثِ بِالْـ ... إِسْـلَامِ وَالإِيمَـانِ وَالإِحْسَـانِ

أَتَـرَوْنَ هَـذِي هِجْـرَةَ الأَبْـدَانِ لَا ... وَاللهِ بَـلْ هِـيَ هِجْـرَةُ الإِيمَـانِ

قَطْـعُ الْمَسَـافَةِ بِـالْقُلُوبِ إِلَيْـهِ فِـي ... تَرْكِ الأُصُـولِ مَـعَ الْفُـرُوعِ وَذَانِ

أَبَـدًا إِلَيْـهِ حُكْمُهَـا لَا غَـيْرُهُ ... فَـالْحُكْمُ مَـا حَكَمَـتْ بِـهِ النَّصَّـانِ

[يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَلَـى ... مَـنْ خُـصَّ بِالْحِرْمَـانِ وَالْخِـذْلَانِ]

يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَلَـى ... كَمْـلَانَ مَنْحُـوبِ الْفُـؤَادِ جَبَـانِ

يَـا هِجْـرَةً وَالْعَبْـدُ فَـوْقَ فِرَاشِـهِ ... سَـبْقَ الْـسُّعَاةِ لِمَنْـزِلِ الرِّضْـوَانِ

سَـارُوا أَحَـثَّ السَّـيْرِ وَهْـوَ فَتِـيرُهُ ... سَـيْرَ الـدَّلَالِ وَلَـيْسَ بِالْـوَسْنَانِ

هَـذَا وَتَنْظُـرُهُ أَمَـامَ الرَّكْـبِ كَالْـ ... ـعَلَمِ الْعَظِـيمِ يُشَـافُ فِـي الْقِيعَـانِ

رُفِعَتْ لَهُ أَعْلَامُ هَاتِيكَ النُّصُو ... صِ رُءُوسُهَا شَابَتْ مِنَ النِّيرَانِ
نَارٌ هِيَ النُّورُ الْمُبِينُ وَلَمْ يَكُنْ ... لِيَرَاهُ إِلَّا مَنْ لَهُ عَيْنَانِ
مَكْحُولَتَانِ بِمِرْوَدِ الْوَحْيَيْنِ لَا ... بِمَرَاوِدِ الْآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ
فَلِذَاكَ شَمَّرَ نَحْوَهَا لَمْ يَلْتَفِتْ ... لَا عَنْ شَمَائِلِهِ وَلَا أَيْمَانِ
يَا قَوْمُ لَوْ هَاجَرْتُمُ لَرَأَيْتُمُ ... أَعْلَامَ طَيْبَةَ رُؤْيَةً بِعِيَانِ
وَرَأَيْتُمُ ذَاكَ اللِّوَاءَ وَتَحْتَهُ الرُّ ... سُلُ الْكِرَامُ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ
أَصْحَابُ بَدْرٍ وَالْأُلَى قَدْ بَايَعُوا ... أَزْكَى الْبَرِيَّةِ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ
وَكَذَا الْمُهَاجِرَةُ الْأُلَى سَبَقُوا كَذَا الْـ ... أَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالْإِيمَانِ
وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَا ... لِكُ هَدْيِهِمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ
لَكِنْ رَضِيتُمْ بِالْأَمَانِي وَابْتُلِيـ ... ـتُمْ بِالْحُظُوظِ وَنُصْرَةِ الْإِخْوَانِ
بَلْ غَرَّكُمْ ذَاكَ الْغُرُورُ وَسَوَّلَتْ ... لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ
وَنَبَذْتُمُ غَسْلَ النُّصُوصِ وَرَاعَكُمْ ... وَقَنِعْتُمُ بِقُطَارَةِ الْأَذْهَانِ
وَتَرَكْتُمُ الْوَحْيَيْنِ زُهْدًا فِيهِمَا ... وَرَغِبْتُمُ فِي رَأْيِ كُلِّ فُلَانِ
وَعَزَلْتُمُ النَّصَّيْنِ عَمَّا وُلِّيَا ... لِلْحُكْمِ فِيهِ عَزْلَ ذِي عُدْوَانِ
وَزَعَمْتُمُ أَنْ لَيْسَ يَحْكُمُ بَيْنَنَا ... إِلَّا الْعُقُولُ وَمَنْطِقُ الْيُونَانِ
فَهُنَا بِحُكْمِ الْحَقِّ أَوْلَى مِنْهُمَا ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ
حَتَّى إِذَا انْكَشَفَ الْغِطَاءُ وَحُصِّلَتْ ... أَعْمَالُ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْمِيزَانِ
وَإِذَا انْجَلَى هَذَا الْغُبَارُ وَصَارَ مَيْـ ... ـدَانُ السِّبَاقِ تَنَالُهُ الْعَيْنَانِ
وَبَدَتْ عَلَى تِلْكَ الْوُجُوهِ سِمَاتُهَا ... وَسْمَ الْمَلِيكِ الْقَادِرِ الدَّيَّانِ
مُبْيَضَّةً مِثْلَ الرِّيَاضِ بِجَنَّةٍ ... وَالسُّودُ مِثْلَ الْفَحْمِ لِلنِّيرَانِ
فَهُنَاكَ يَعْلَمُ رَاكِبٌ مَا تَحْتَهُ ... وَهُنَاكَ يَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ
وَهُنَاكَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا الَّذِي ... مَعَهَا مِنَ الْأَرْبَاحِ وَالْخُسْرَانِ
وَهُنَاكَ يَعْلَمُ مُؤْثِرُ الْآرَاءِ وَالشَّـ ... ـطَحَاتِ وَالْهَذَيَانِ وَالْبُطْلَانِ
أَيُّ الْبَضَائِعِ قَدْ أَضَاعَ وَمَا الَّذِي ... مِنْهَا تَعَوَّضَ فِي الزَّمَانِ الْفَانِي

سُبْحَانَ رَبِّ الْخَلْقِ قَاسِمِ فَضْلِهِ ... وَالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْمِيزَانِ

لَوْ شَاءَ كَانَ النَّاسُ شَيْئًا وَاحِدًا ... مَا فِيهِمُ مِنْ ثَالِثٍ حَيْرَانِ

لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخُصُّ بِالْـ ... ـفَضْلِ الْعَظِيمِ خُلَاصَةَ الْإِنْسَانِ

وَسِوَاهُمُ لَا يَصْلُحُونَ لِصَالِحٍ ... كَالشَّوْكِ فِيهِ عِمَارَةُ الْبُسْتَانِ

وَعِمَارَةُ الْحَسَنَاتِ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى ... اللهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

فَسَلِ الْهِدَايَةَ مِنْ أَزِمَّةِ أَمْرِنَا ... بِيَدَيْهِ مَسْأَلَةَ الذَّلِيلِ الْعَانِي

وَسَلِ الْعِبَادَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ هَمَّا اللَّذَا ... نِ بِهُلْكِ هَذَا الْخَلْقِ كَالثَّقَلَانِ

شَرُّ النُّفُوسِ وَشَرُّ الْأَعْمَالِ مَا ... وَاللهِ أَعْظَمُ مِنْهُمَا شَرَّانِ

وَلَقَدْ أَتَى هَذَا التَّعَوُّذُ مِنْهُمَا ... فِي خُطْبَةِ الْمَتْعُوتِ بِالْقُرْآنِ

لَوْ كَانَ يَدْرِي الْعَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ ... فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُمَا الشَّرَّانِ

جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دَيْدَابَهُ ... حَتَّى تُرَاهُ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ

وَسَلِ الْعِبَادَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالْهَوَى ... فِيهِمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ

وَبِهِمَا يَصُدَّانِ الْفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ ... قِ الْخَيْرِ إِذْ فِي قَلْبِهِ بِلَحَانِ

فَتُرَاهُ يَتْعَسُ هَاوِيًا تَارَةً ... وَالْكِبْرُ أُخْرَى ثُمَّ يَشْتَرِكَانِ

وَاللهِ مَا فِي النَّارِ إِلَّا تَابِعٌ ... هَذَيْنِ فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيرَانِ

وَاللهِ لَوْ جَرَّدْتَ نَفْسَكَ مِنْهُمَا ... لَأَتَتْ إِلَيْكَ وُفُودُ كُلِّ تَهَانِ

شرح

وذلك أن الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ومن بلاد البدع إلى بلاد السنة واجبة عند وجود سببها وهو العجز عن إظهار الدين والسنة مع القدرة على الهجرة.

وهذه قد تجب في وقت دون وقت وفي مكان دون مكان وعلى شخص دون آخر بحسب وجود سببها أو عدمه.

وأما الهجرة إلى الله ورسوله بالإخلاص والمتابعة فهي فرض عين على كل شخص وفي كل مكان وزمان، وهي روح الدين وحقيقة الإيمان.

فعلى كل عبد أن يقصد رضا ربه وطلب رضوانه في كل ما يأتي وما يذر في أقواله وأفعاله وسره وعلنه، بأن يكون حبه لله وفي الله وبغضه لله وولايته وعداوته لله، وينيب إلى ربه في جميع أعمال قلبه.

وعليه مع ذلك أن يكون في أقواله وأفعاله واعتقاداته وأصول دينه وفروعه متابعًا لرسول الله متلقيًا عنه جميع دينه، وأن يعرض جميع المقالات والمذاهب على ما جاء به الرسول ﷺ، فما وافقه قبله، وما خالفه رده وما أشكل أمره توقف فيه فالعمل المقبول ما جمع هذين الوصفين.

وقد صنف المؤلف في هذين الأصلين كتابًا سماه «سفر الهجرتين» فصَّل فيه مجمل ما ذكره في هذا الفصل تفصيلاً تامًا.

ومن تفضل الله عليه بهذين الأمرين -الإخلاص والمتابعة- كان سيره إلى الله مستوعبًا لجميع أوقاته على سهولته ويسره، وصار القليل من عمله كثيرًا، وقد سبق المكثرين من الأعمال وهو مطمئن في سيره، فعلى العبد أن يسأل ربه أن يوفقه للقيام بهاتين الهجرتين، مع جده واجتهاده في تحقيقهما، وأن يضطر إليه في طلب الهداية، ويستعيذ به من شر نفسه وسيئات أعماله، وأن يعيذه من أكبر شرور نفسه وهو التكبر والهوى؛ فإنهما يجمعان الشرور كلها؛ لأن أعظم ما يصد العبد عن الحق إما تكبره عن وإما هواه وأعراضه النفسية وإما الأمران، ولا يسلم العبد ويستقيم أمره حتى يكون متواضعًا للحق يعرف نفسه حقيقة وأنه أحقر وأصغر من أن يكون في أخلاقه وإرادته معارضة للحق، وأن يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول.

والمعافى من عافاه الله من التكبر والهوى بكمال تواضعه وبقوة صبره وحسن قصده، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

فصل
في ظهور الفرق المبين بين دعوة الرسل
ودعوة المعطلين

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الدَّعْوَتَيْنِ فَظَاهِرٌ ... جِدًّا لِمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ

فَرْقٌ مُبِينٌ ظَاهِرٌ لا يَخْتَفِي ... إِيضَاحُهُ إِلاَّ عَلَى الْعِمْيَانِ
فَالرُّسْلُ جَاءُونَا بِإِثْبَاتِ الْعُلُوْ ... وِ لِرَبِّنَا مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ
وَكَذَا أَتَوْنَا بِالصِّفَاتِ لِرَبِّنَا الرْ ... رَحْمَنِ تَفْصِيلاً بِكُلِّ بَيَانِ
وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... وَكَلاَمُهُ الْمَسْمُوعُ بِالآذَانِ
وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ ... ـمَرْئِي يَوْمَ لِقَائِهِ بِعِيَانِ
وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْفَعَّالُ حَقْ ... قًا كُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا فِي شَانِ
وَأَتَيْتُمُونَا أَنْتُمُ بِالنَّفْيِ رَالْتَـ ... ـعْطِيلِ بَلْ بِشَهَادَةِ الْكُفْرَانِ
لِلْمُثْبِتِينَ صِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ ... وَنِدَاءَهُ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ
شَهِدُوا بِإِيمَانِ الْمُقِرِّ بِأَنَّهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ
وَشَهِدْتُمُ أَنْتُمْ بِتَكْفِيرِ الَّذِي ... قَدْ قَالَ ذَلِكَ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ[1]
وَأَتَى بِأَيْنَ اللهُ إِقْرَارًا وَنُطْـ ... ـقًا قُلْتُمُو هَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ
فَسَلُوا لَنَا بِالأَيْنِ مِثْلَ سُؤَالِنَا ... مَا الْكَوْنُ عِنْدَكُمُ هُمَا شَيْئَانِ
وَكَذَا أَتَوْنَا بِالْبَيَانِ فَقُلْتُمُ ... بِاللُّغْزِ أَيْنَ اللُّغْزُ مِنْ تِبْيَانِ
إِذْ كَانَ مَدْلُولُ الْكَلاَمِ وَوَضْعُهُ ... لَمْ يَقْصِدُوهُ بِنُطْقِهِمْ بِلِسَانِ
وَالْقَصْدُ مِنْهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ بِهِ ... مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إِلاَّ ذَانِ
يَا قَوْمِ رُسْلُ اللهِ أَعْرَفُ مِنْكُمُ ... وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ
أَتَرَوْنَهُمْ قَدْ أَلْغَزُوا التَّوْحِيدَ إِذْ ... بَيَّنْتُمُوهُ يَا أُولِي الْعِرْفَانِ
أَتَرَوْنَهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا التَّشْبِيهَ وَهْـ ... ـوَ لَدَيْكُمُ كَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ مَا ... قَدْ قُلْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ صَرَّحُوا بِخِلاَفِهِ ... تَصْرِيحَ تَفْصِيلٍ بِلاَ كِتْمَانِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ بَالَغُوا فِي الْوَصْفِ بِالْـ ... إِثْبَاتِ دُونَ النَّفْيِ كُلَّ زَمَانِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمُ بَالَغْتُمُ ... فِي النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ بِالْقَفْزَانِ
فَجَعَلْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُفَصَّلاً ... تَفْصِيلَ نَفْيِ الْعَيْبِ وَالنُّقْصَانِ

---

(١) وفي (خ) [قد قال فوق العرش والأكوان].

وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ أَمْرًا مُجْمَلاً ... عَكْسَ الَّذِي قَالُوهُ بِالْبُرْهَانِ

أَتَرَاهُمُ عَجَزُوا عَنِ التِّبْيَانِ وَاسْـ ... ـتَوْلَيْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى التِّبْيَانِ

أَتَرُونَ أَفْرَاخَ الْيَهُودِ وَأُمَّةَ النَّـ ... ـعْطِيلِ وَالْمُعْتَادَ لِلْبُهْتَانِ

وَوَقَاحَ أَرْبَابَ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْـ ... ـمَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الإِيمَانِ

مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَمُعْتَزِلٍ وَمَنْ ... وَالاهُمَا مِنْ حِزْبِ جَهْكَسْتَانِ

بِاللهِ أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الرُّسْلِ وَالـ ... ـتَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالْفُرْقَانِ

فَسَلُوهُمُ بِسُؤَالِ كُتْبِهِمُ الَّتِي ... جَاءُوا بِهَا عَنْ عِلْمِ هَذَا الشَّانِ

وَسَلُوهُمُ هَلْ رَبُّكُمْ فِي أَرْضِهِ ... أَوْ فِي السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

أَمْ لَيْسَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ شَيْءٌ فَلَا ... هُوَ دَاخِلٌ أَوْ خَارِجُ الأَكْوَانِ

فَالْعِلْمُ وَالتِّبْيَانُ وَالْفَتْحُ الَّذِي ... فِيهِمْ يُبِينُ الْحَقَّ كُلَّ بَيَانِ

لَكِنَّمَا الإِلْغَازُ وَالتَّلْبِيسُ وَالـ ... ـكِتْمَانُ فِعْلُ مُعَلِّمِ الشَّيْطَانِ

شرح

الرسل صلوات الله عليهم دعوا إلى الحَقّ النافع، وغيرهم دعا إلى الباطل الضار.

الرسل حققوا أصل التوحيد والرسالة والمعاد، وأعداؤهم خالفوهم في الأصول الثلاثة أو بعضها وقصروا فيما أثبتوه منها.

الرسل أثبتوا لله نعوت الكمال وصفات المجد والعظمة والجلال، ونفوا عنه النقائص والعيوب والتشبيه والمثال، وأعداؤهم نفوا عنه كل وصف جميل وعطلوه عن كل نعت جليل، وأثبتوا ألفاظًا لا حقائق لها إلا النقص والعدم.

الرسل جاءوا بالحَقّ الواضح في تبيين الأصول والفروع.

وأعداؤهم حرفوا نصوصهم: كذبوا ما كذبوا منها، وبدلوا ما تمكنوا من تبديله، وحرفوا ما عجزوا عن تغيير لفظه.

فلا يَخفى الفرق بين ما يدعو إليه كل رسول، خصوصًا خاتمهم وإمامهم مُحَمَّدٌ ﷺ، وبين ما يدعو إليه المُعطلون وأهل الكلام الباطل، وأن الدعوتين متباينتان غاية التباين.

فصل

في شكوى أهل السنة والقرآن أهل التعطيل

والآراء المخالفين للرحمن

يا ربّ قومٌ يشكونا أبدًا بغيهم وظلمهم إلى السلطان
ويلبسون عليه حتى إنه ليظنهم قومٌ ناصروا الإيمان
فيرونه البدع المضلة في قوا لب سنة نبوية وقران
ويرونه الإثبات للأوصاف في أمر شنيع ظاهر الكفران
فيلبسون عليه تلبيسين لو كشفا له بداهم بطلان
يا فرقة التلبيس لا حييتم أبدًا وحيتم بكل هوان
لكنا نشكوهم وصيغهم أبدًا إليك فأنت ذو السلطان
فاسمع شكايتنا وأنك محقنا والمبطل الرذة عن السلطان
راجع به سنن الهدى والطف به حتى تريه الحق ذا تبيان
وارحمه وارحم سعيه المسكين قد ضل الطريق وتاه في القيعان
يا ربّ قد عم المصاب بهذه الـ آراء والشطحات والهفوات
هجروا لها الوحيين والفطرات والـ آثار لم يعبوا بهذا الهجران
قالوا وتلك ظواهر لفظية لم نحن شيئًا طالب البرهان
فالعقل أولى أن يصار إليه من هذي الظواهر عند ذي العرفان
ثم ادعى كل بأن العقل ما قد قلته دون الفريق الثاني
يا ربّ قد حار العباد بعقل من يزنون وحيك فات بالميزان
وبعقل من يقضي عليك فكلهم قد جاء بالمعقول والبرهان
يا ربّ أرشدنا إلى معقول من يقع التحاكم إنا عصبان
جاءوا بشبهات وقالوا إنها معقولة بداته الأذهان
كل يناقض بعضه بعضًا وما في الحق معقولان مختلفان
وقضوا بها كذبًا عليك وجرأة منهم وما انقضوا إلى القرآن

يا رَبُّ قَدْ أَوْهَى النُّفَاةُ حَبَائِلَ الْـ ... ـقُرْآنِ وَالآثَارِ وَالإِيمَانِ
يا رَبُّ قَدْ قَلَبَ النُّفَاةُ الدِّينَ وَالْـ ... إِيمَانَ ظَهْرًا مِنْهُ فَوْقَ بِطَانِ
يا رَبُّ قَدْ بَغَتِ النُّفَاةُ وَأَجْلَبُوا ... بِالْخَيْلِ وَالرَّجْلِ الْحَقِيرِ الشَّانِ
نَصَبُوا الْحَبَائِلَ وَالْغَوَائِلَ لِلأُلَى ... أَخَذُوا بِوَحْيِكَ دُونَ قَوْلِ فُلَانِ
وَدَعَوْا عِبَادَكَ أَنْ يُطِيعُوهُمْ فَمَنْ ... يَعْصِيهِمْ سَامُوهُ شَرَّ هَوَانِ
وَقَضَوْا عَلَى مَنْ لَمْ يَقُلْ بِضَلَالِهِمْ ... بِاللَّعْنِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْكُفْرَانِ
وَقَضَوْا عَلَى أَتْبَاعِ وَحْيِكَ بِالَّذِي ... هُمْ أَهْلُهُ لَا عَسْكَرُ الْفُرْقَانِ
وَقَضَوْا بِعَزْلِهِمْ وَقَتْلِهِمْ وَحَبْـ ... ـسِهِمْ وَنَفْيِهِمْ عَنِ الأَوْطَانِ
وَتَلَاعَبُوا بِالدِّينِ مِثْلَ تَلَاعُبِ الْـ ... ـحُمُرِ الَّتِي نَفَرَتْ بِلَا أَرْسَانِ
حَتَّى كَأَنَّهُمُ تَوَاصَوْا بَيْنَهُمْ ... يُوصِي بِذَلِكَ أَوَّلٌ لِلثَّانِي
هَجَرُوا كَلَامَكَ هَجْرَ مُبْتَدِعٍ لِمَنْ ... قَدْ دَانَ بِالآثَارِ وَالْقُرْآنِ
فَكَأَنَّهُ فِيمَا لَدَيْهِمْ مُصْحَفٌ ... فِي بَيْتِ زِنْدِيقٍ أَخِي كُفْرَانِ
أَوْ مَسْجِدٌ بِجِوَارِ قَوْمٍ هَمُّهُمْ ... فِي الْفِسْقِ لَا فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ
وَخَوَاصُّهُمْ لَمْ يَقْرَءُوهُ تَدَبُّرًا ... بَلْ لِلتَّبَرُّكِ لَا لِفَهْمِ مَعَانِ
وَعَوَامُّهُمْ فِي الشِّبْعِ أَوْ فِي خَتْمَةٍ ... أَوْ تُرْبَةٍ عِوَضًا لِذِي الأَثْمَانِ
هَذَا وَهُمْ حَرْفِيَّةُ التَّجْوِيدِ أَوْ ... صَوْتِيَّةُ الأَنْغَامِ وَالأَلْحَانِ
يا رَبُّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْـ ... إِسْلَامِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ
إِلَّا الْمِدَادُ وَهَذِهِ الأَوْرَاقُ وَالْـ ... ـجِلْدُ الَّذِي قَدْ سُلَّ مِنْ حَيَوَانِ
وَالْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَسْتَ بِقَائِلٍ ... أَصْلًا وَلَا حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ
إِنْ ذَاكَ إِلَّا قَوْلُ مَخْلُوقٍ وَهَلْ ... هُوَ جِبْرَئِيلُ أَوِ الرَّسُولُ فَذَانِ
قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ قَدْ قَالَتْهُمَا ... أَشْيَاخُهُمْ يَا مِحْنَةَ الْقُرْآنِ
لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يَطَأْ ... إِلَّا الْمِدَادَ وَكَاغَدَ الإِنْسَانِ
يا رَبُّ زَالَتْ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ مِنْ ... تِلْكَ الْقُلُوبِ وَحُرْمَةُ الإِيمَانِ
وَجَرَى عَلَى الأَفْوَاهِ مِنْهُمْ قَوْلُهُمْ ... مَا بَيْنَنَا لِلَّهِ مِنْ قُرْآنِ

مَا بَيْنَنَا إِلاَّ الْحِكَايَةُ عَنْهُ وَالتَّـ ... ـعْبِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ
هَذَا وَمَا التَّالُونَ عَنَّا لاَ بِهِ إِذْ هُمْ قَدِ اسْتَغْنَوْا بِقَوْلِ فُلاَنِ
إِنْ كَانَ قَدْ جَازَ الْحَتَاجِرَ مِنْهُمُ فَبِقَدْرِ مَا عَقَلُوا مِنَ الْقُرْآنِ
وَالْبَاحِثُونَ فَقَدْ مَرَوْا رَأْيَ الرَّجَا ... لِ عَلَيْهِ نَصْرِيحًا بِلاَ كِتْمَانِ
عَزْلُوهُ إِذْ وَلُّوا سِوَاهُ وَكَانَ ذَا ... كَ الْعَزْلُ قَادِحَهُمْ إِلَى الْخِذْلاَنِ
قَالُوا وَلَمْ يَحْصُلْ لَنَا مِنْهُ يَقِيـ ... ـنٌ فَهُوَ مَعْزُولٌ عَنِ الإِيقَانِ
إِنَّ الْيَقِينَ قَوَاطِعٌ عَقْلِيَّةٌ مِيزَانُهَا هُوَ مَنْطِقُ الْيُونَانِ
هَذَا دَلِيلُ الرُّفْضِ مِنْهُ وَهَذِهِ أَغْلاَمُهُ فِي آخِرِ الأَزْمَانِ
يَا رَبِّ مَنْ أَهْلُوهُ حَقًّا كَيْ يَرَى أَقْدَامَهُمْ مِنَّا عَلَى الأَذْقَانِ
أَهْلُوهُ مَنْ لاَ يَرْتَضِي مِنْهُ بَدِيـ ... ـلاً فَهُوَ كَافِيهِمْ بِلاَ نُقْصَانِ
وَهُوَ الدَّلِيلُ لَهُمْ وَهَادِيهِمْ إِلَى الـ إِتْقَانِ وَالإِيقَانِ وَالْعِرْفَانِ
هُوَ مُوصِلٌ لَهُمُ إِلَى دَرْكِ الْيَقِيـ ... ـنِ حَقِيقَةً وَقَوَاطِعَ الْبُرْهَانِ
يَا رَبِّ نَحْنُ الْعَاجِزُونَ بِحُبِّهِمْ يَا قُلَّةَ الأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ

شرح

لما عجز أهل التعطيل عن نصرة باطلهم ومعارضة أهل العلم والإيمان أيدوا باطلهم بكثرة الشكاوى إلى ولاة الأمور والسلاطين، وزوروا عليهم نوعين من الزور: موهوا عليهم بدعهم وألبسوها ألفاظًا مزخرفة وعبارات مموهة، ورفعوها بأقوالهم وهي وضيعة، وعظموها وهي حقيرة، وهولوها وهي أجسام بلا أرواح وأسماء بلا مسميات وألفاظ لا حقائق لها.

والتمويه الثاني أنهم سموا أهل السنة والجماعة بالأسماء القبيحة: سموهم مجسمة مشبهة نوابت حشوية، ووضعوا لهم من الاحتقارات والازدراءات شيئًا كثيرًا.

فصادفت من الولاة آذانًا صاغية وقلوبًا معرضة وعلومًا قاصرة وأهواء مختلفة، فصار لأقوال المبطلين عندهم رواج مبني على هذه التمويهات، وساعدوهم على كثير من باطلهم بأفعالهم وقمع أهل السنة والجماعة، ولكن الحق في علو دائم وأهله لا يزالون على الحق ثابتين.

وفي نصرته صامدين، وعلى ربهم متوكلين، وبوعده الصادق ونصره واثقين وهم مع حججهم العلمية وبراهينهم اليقينية وثباتهم التام مع هذا المعارضات والمقاومات من أهل الباطل وأنصارهم فهم لا يشتكون إلا إلى الله، فهم يشتكون إليه ما لقوا من أهل الباطل ممن أقوال وشبهات لا حظ لها من العلم ومن أناس متناقضين لا يستقيمون على طريقة واحدة، بل كل طائفة تدعوا إلى غير ما دعت إليه الأخرى، وكلهم في خوضهم يلعبون، وبعلومهم المخالفة لعلوم الرسل فرحون، وتجرءوا على تحريف النصوص، وعدم التأدب والتوقير لكلام الله وكلام رسوله، وهم يسألون الله العافية في الدنيا والآخرة.

فصل

في أذان أهل السنة الأعلام بصريحها جهرًا

على رءوس منابر الإسلام

يا قَوْمُ قَدْ حَانَتْ صَلاةُ الْفَجْرِ فَانْـ ... ـتَبِهُوا فَإِنِّي مُعْلِنٌ بِأَذَانِ

لا بِالْمُلَحَّنِ وَالْمُبَدَّلِ ذَاكَ بَلْ ... تَأْذِينَ حَقٍّ وَاضِحِ التِّبْيَانِ

وَهُوَ الَّذِي حَقًّا إِجَابَتُهُ عَلَى ... كُلِّ امْرِئٍ فَرْضٌ عَلَى الأَعْيَانِ

اللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ كَلامُهُ الْـ ... ـعَرَبِي مَخْلُوقًا مِنَ الأَكْوَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ الْـ ... ـمَلَكِي أَنْشَاهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

وَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ الْـ ... ـبَشَرِي أَنْشَاهُ لَنَا بِلِسَانِ

هَذِي مَقَالاتٌ لَكُمْ يَا أُمَّةَ التَّـ ... ـشْبِيهِ مَا أَنْتُمْ عَلَى إِيمَانِ

شَبَّهْتُمُ الرَّحْمَنَ بِالأَوْثَانِ فِي ... عَدَمِ الْكَلامِ وَذَاكَ لِلأَوْثَانِ

مِمَّا يَدُلُّ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِآ ... لِهَةٍ وَذَا الْبُرْهَانُ فِي الْفُرْقَانِ

فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ مَعْ طَهَ وَثَا ... لِثِهَا فَلا تَعْدِلْ عَنِ الْقُرْآنِ

أَفْصِحْ بِأَنَّ الْجَاحِدِينَ لِكَوْنِهِ ... مُتَكَلِّمًا بِحَقِيقَةٍ وَبَيَانِ

هُمْ أَهْلُ تَعْطِيلٍ وَتَشْبِيهٍ مَعًا ... بِالْجَامِدَاتِ عَظِيمَةِ النُّقْصَانِ

لا تَقْذِفُوا بِالدَّاءِ مِنْكُمْ شِيعَةَ الرَّ ... حْمَنِ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ

إِنَّ الَّذِي نَزَلَ الأَمِينُ بِهِ عَلَى ... قَلْبِ الرَّسُولِ الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى جَمِيـ ... ـعًا إِذْ هُمَا أَخَوَانِ مُصْطَحِبَانِ

لَا تَقْطَعُوا رَحِمًا تَوَلَّى وَصْلَهَا الرَّ ... رَحْمَنُ تَسْلَخُوا مِنَ الإِيمَانِ

إِلَّقَدْ شَفَانَا قَوْلُ شَاعِرِنَا الَّذِي ... قَالَ الصَّوَابَ وَجَاءَ بِالإِحْسَانِ

إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِالنَّامِلِ الأَشْبَاحِ وَالثُّقْلَانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيَهُ وَحُرُوفُهُ ... وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الأَكْوَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو الْمَعَارِجِ مِنْ إِلَيـ ... ـهِ تَعْرُجُ الأَمْلَاكُ كُلَّ أَوَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ يَخَافُ جَلَالَهُ أَمْلَاكُهُ مِنْ فَوْقِهِمْ بِيَبَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ غَدَا لِسَرِيرِهِ أَطُّ بِهِ كَالرَّحْلِ لِلرُّكْبَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَتَانَا قَوْلُهُ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ مَثَانِ

نَزَلَ الأَمِينُ بِهِ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ رَبِّ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى الرَّحْمَنِ

وَاللهُ أَكْبَرُ قَاهِرٌ فَوْقَ الْعِبَا دِ فَلَا تَضَعْ فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ

مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تِلْكَ ثَابِتَةٌ لَهُ لَا تَبْغِضُوهَا يَا أُولِي الْبُهْتَانِ

قَهْرًا وَقُدْرَةً وَاسْتِوَاءَ الذَّاتِ فَوْ قَ الْعَرْشِ بِالْبُرْهَانِ

فَبِذَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ثُمَّ اسْتَوَى بِالذَّاتِ فَافْهَمْ ذَانِ

فَضَمِيرُ فِعْلِ الِاسْتِوَاءِ يَعُودُ لِلذَّ ذَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ بِلَا فُرْقَانِ

هُوَ رَبُّنَا هُوَ خَالِقٌ هُوَ مُسْتَوٍ بِالذَّاتِ هَذِي كُلُّهَا بُرْهَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو الْعُلُوِّ الْمُطْلَقِ الَّـ ... ـمَعْلُومِ بِالْفِطَرَاتِ وَالإِيمَانِ

فَعُلُوُّهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٌ فَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ رَقَا فَوْقَ الطِّبَا قِ رَسُولُهُ فَدَنَا مِنَ الدَّيَّانِ

وَإِلَيْهِ قَدْ صَعِدَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً لَا لَنْكِرُوا الْمِعْرَاجَ بِالْبُهْتَانِ

وَدَنَا مِنَ الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ وَدَنَا إِلَيْهِ الرَّبُّ ذُو الإِحْسَانِ

وَاللهُ قَدْ أَحْصَى الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ فِي ذَلِكَ الْمِعْرَاجِ بِالْمِيزَانِ

قُلْتُمْ خَيَالًا أَوْ أَكَاذِيبَ أَوِ الْـ ... ـمِعْرَاجَ لَمْ يَحْصُلْ إِلَى الرَّحْمَنِ

إذْ كَانَ مَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... رَبٌّ إِلَيْهِ مُنْتَهَى الإِنْسَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَشَارَ رَسُولُهُ ... حَقًّا إِلَيْهِ بِأُصْبُعٍ وَبَنَانِ

فِي مَجْمَعِ الْحَشْدِ الْعَظِيمِ بِمَوْقِفٍ ... دُونَ الْمَعَارِفِ مَوْقِفِ الْغُفْرَانِ

مَنْ قَالَ مِنْكُمْ مَنْ أَشَارَ بِأُصْبُعٍ ... فَقَطَعْتُ فِعْلَهُ اللهَ يَجْتَمِعَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ ظَاهِرٌ مَا فَوْقَهُ ... شَيْءٌ وَشَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ شَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ عَرْشُهُ وَسِعَ السَّمَا ... وَالأَرْضَ وَالْكُرْسِيَّ ذَا الأَرْكَانِ

وَكَذَلِكَ الْكُرْسِيُّ قَدْ وَسِعَ الطِّبَا ... قَ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ بِالْبُرْهَانِ

وَالرَّبُّ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ لاَ ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الإِنْسَانِ

لاَ تَحْصُرُوهُ فِي مَكَانٍ إِذْ تَقُو ... لُوا رَبُّنَا حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ

نَزِّهْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ عَنْ عَرْشِهِ ... وَحَصَرْتُمُوهُ فِي مَكَانٍ ثَانِ

لاَ تَعْدِمُوهُ بِقَوْلِكُمْ لاَ دَاخِلٌ ... فِينَا وَلاَ هُوَ خَارِجُ الأَكْوَانِ

اللهُ أَكْبَرُ قَدْ هَتَكْتُ سِتَارَكُمْ ... وَبَدَتْ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهٍ وَعَنْ ... مَثَلٍ وَعَنْ تَعْطِيلِ ذِي كُفْرَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ لَهُ الأَسْمَاءُ وَالـ ... أَوْصَافُ كَامِلَةً بِلاَ نُقْصَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ وَلَدٍ وَصَا ... حِبَةٍ وَعَنْ كُفْءٍ وَعَنْ أَخْدَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الْجَمَا ... دِ كَقَوْلِ ذِي التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

هُمْ شَبَّهُوهُ بِالْجَمَادِ وَلَيْتَهُمْ ... قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ

اللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الْعَبَا ... دِ فَذَانِ تَشْبِيهَانِ مُمْتَنِعَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ وَاحِدٌ صَمَدٌ فَكُلُّ ... لَ الشَّأْنِ فِي صَمَدِيَّةِ الرَّحْمَنِ

لَفَتِ الْوِلاَدَةَ وَالأُبُوَّةَ عَنْهُ وَالـ ... ـكُفْءَ الَّذِي هُوَ لاَزِمُ الإِنْسَانِ

وَكَذَاكَ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا ... لَهُ بِالْمَةٍ مِنَ النُّقْصَانِ

وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَلاَ ... صَمَدٌ سِوَاهُ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ

لاَ شَيْءَ يُشْبِهُهُ تَعَالَى كَيْفَ يُشْـ ... ـبِهُ خَلْقَهُ مَا ذَاكَ فِي الإِمْكَانِ

لَكِنْ ثُبُوتُ صِفَاتِهِ وَكَلاَمِهِ ... وَعُلُوُّهُ حَقًّا بِلاَ نُكْرَانِ

لا تجعلوا الإثبات تشبيهًا له ... يا فرقة التشبيه والطغيان
كم ترتقون بسلم التشبيه للـ ... تعطيل ترمونا على العميان
فالله أكبر أن يكون صفاته ... كصفاتنا خلق العظيم الشان
هذا هو التشبيه لا إثبات أو ... صاف الكمال فما هما سيان

شرح

الأذان المعروف هو الإعلام بدخول الوقت بذكر مخصوص معروف، وهو من أعظم شعائر دين الإسلام الظاهرة.

فأهل السنة الأعلام -وهم العلماء الربانيون- نادوا على رءوس منابر الإسلام جهرًا وعلنا بصريحها، بصريح السنة الدالة على الأصول الدينية والقواعد الإيمانية، وصرحوا بأنه لا يصح ولا يتم الدين والإيمان والإسلام إلا بذلك.

وهذا الأذان فرض على كل أحد إجابته ظاهرًا وباطنًا وحاصل هذا الأذان العظيم هو أن يكبر الله ويعظم بإثبات جميع صفاته العظيمة، كعلوه على خلقه، واستوائه على عرشه. والشهادة أنه الفعال لما يريد، وأن له صفات الذات وصفات المعاني وصفات الأفعال ثابتة على الوجه الثابت في الكتاب والسنة والله أكبر عما يقوله الملحدون والمحرفون علوًا كبيرًا.

فأهل السنة يعلنون بجميع الأصول الدينية، ولا يبالون بلوم الاثمين ومخالفة المخالفين.

فصل
في تلازم التعطيل والشرك

واعلم بأن الشرك والتعطيل مذ ... كانا هما لا شك متحدان
أبدًا فكل معطل هو مشرك ... حتمًا وهذا واضح التبيان
فالعبد مضطر إلى من يكشف الـ ... ـبلوى ويجلي فاقة الإنسان
وإليه يصمد في الحوائج كلها ... وإليه يفزع طالب الأمان
فإذا انتفت أوصافه وفعاله ... وعلوه من فوق كل مكان

فَـزِعَ الْعِبَادُ إِلَى سِوَاهُ وَكَانَ ذَا ... مِنْ جَانِبِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَجِّلُ النَّـ ... ـوْحِيدِ حَقًّا ذَانِ تَعْطِيلاَنِ

قَدْ عَطَّلاَ بِلِسَانِ كُلِّ الرُّسْلِ مِنْ ... نُوحٍ إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

وَالنَّاسُ فِي هَذَا ثَلاَثُ طَوَائِفٍ ... مَا رَابِعٌ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ

إِحْدَى الطَّوَائِفِ مُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... فَإِذَا دَعَاهُ دَعَا إِلَهًا ثَانِ

هَذَا وَثَانِي هَذِهِ الأَقْسَامِ ذَا ... لَكِنْ جَاحِدٌ يَدْعُو سِوَى الرَّحْمَنِ

هُوَ جَاحِدٌ لِلرَّبِّ يَدْعُو غَيْرَهُ ... شِرْكًا وَتَعْطِيلاً لَهُ قَدْمَانِ

هَذَا وَثَالِثُ هَذِهِ الأَقْسَامِ خَيْـ ... ـرُ الْخَلْقِ ذَاكَ خَلاَصَةُ الإِنْسَانِ

يَدْعُو الإِلَهَ الْحَقَّ لاَ يَدْعُو سِوَا ... هُ قَطُّ فِي الأَشْيَاءِ وَالأَكْوَانِ

يَدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ وَالرَّهَبَاتِ وَالْـ ... ـحَالاَتِ مِنْ بِرٍّ وَمِنْ إِعْلاَنِ

تَوْحِيدُهُ نُوعَانِ عِلْمِي وَقَصْـ ... ـدِي كَمَا قَدْ جُرِّدَ النَّوْعَانِ

فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ مَعْ تَالِي لَتَصْـ ... ـرِ اللهُ قُلْ يَا أَيُّهَا بَيَّانِ

وَلِذَاكَ قَدْ شَرَعَا بِسُنَّةِ فَجْرِنَا ... وَكَذَاكَ سُنَّةَ مَغْرِبٍ طَرَفَانِ

لِيَكُونَ مُفْتَتَحُ النَّهَارِ وَخَتْمُهُ ... لِتَجْرِيدِ ذَاكَ التَّوْحِيدِ لِلدَّيَّانِ

وَكَذَاكَ قَدْ شَرَعَا بِخَاتِمِ وِتْرِنَا ... خَتْمًا لِسَعْيِ اللَّيْلِ بِالإِذْعَانِ

وَكَذَاكَ قَدْ شَرَعَا بِرَكْعَتَيِ الطَّوَا ... فِ وَذَاكَ لِتَحْقِيقٍ لِهَذَا الشَّانِ

فَهُمَا إِذًا أَخَوَانِ مُصْطَحِبَانِ لاَ ... يَتَفَارَقَانِ وَلَيْسَ يَنْفَصِلاَنِ

فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذُو شِرْكٍ كَذَا ... ذُو الشِّرْكِ فَهُوَ مُعَطِّلُ الرَّحْمَنِ

أَوْ بَعْضِ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ فَحَقْـ ... ـقٌ ذَا وَلاَ تُشْرِعْ إِلَى الْكُفْرَانِ

شرح

تقدم أن لازم المذهب ليس بمذهب على الإطلاق، ولكن يستدل بفساد اللازم وبطلانه على فساد الملزوم، وهذا اللازم الذي هو الشرك من أكبر الأدلة على فساد التعطيل.

ووجه ذلك أن كل عبد مضطر إلى الله في كل أموره الدينية والدنيوية ليس له غنى عنه

طرفة عين، وإليه يلجأ في مهماته ويقصده في كل حاجاته.

فإذا انتفت صفات الله على قول المعطلين -كحياة الله وعلمه وقدرته وإرادته ورحمته وحكمته- لم يكن عند هذا المنفي عنه هذا الصفات مطالب الخلق وفزعت الخليقة إلى غيره وتوجهت القلوب لمن يعلم بأحوالهم ويقدر على مصالحها ومنافعها ودفع مضارها، واضطرهم هذا الأمر إلى الشرك.

وأما الإثبات لصفات كماله فإنه أصل التوحيد، وأوصاف الكمال هي المُقتضية لإجابة الدعوات وتحصيل جميع المطلوبات، وبذلك يحصل للقلب الإنابة التامة والإخلاص الكامل لوجود المقتضى من الداعي والمُدعو، فالداعي وجود ضرورته التامة في كل أموره، والمُدعو عنده جميع المطالب ولديه كل الرغائب، وهو الكفيل والوكيل، وهو نعم المولى ونعم النصير، فالإثبات مستلزم لكمال الإخلاص والتوحيد، والنفي مستلزم للشرك.

وفي هذا المقام انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: جاحد للرب لا يثبت شيئًا من صفاته وهو ملتفت بقلبه وقالبه إلى المخلوقات وهذا شر الخليقة، ومشرك بالله يدعوه ويدعو غيره ويرجوه مع تعليق رجائه بغيره، وموحد وهو المُخلص الذي يدعو الله في الرغبات والرهبات وجميع الحالات، وهو الجامع لنوعي التوحيد: التوحيد العلمي الاعتقادي المبني على إثبات الصفات، والتوحيد العملي وهو إخلاص الدين لله المستمد من التوحيد العلمي.

فصل

في بيان أن المعطل شر من المشرك

لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ شَرٌّ مِنْ أَخِي الـ ... ـإِشْرَاكِ بِالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

إِنَّ الْمُعَطِّلَ جَاحِدٌ لِلذَّاتِ أَوْ ... لِكَمَالِهَا هَذَانِ تَعْطِيلَانِ

مُتَضَمِّنَانِ الْقَدْحَ فِي نَفْسِ الأُلُو ... هَةِ كَمْ بِذَاكَ الْقَدْحِ مِنْ نُقْصَانِ

وَالشِّرْكُ فِيهِ تَوَسُّلٌ مَقْصُودُهُ الـ ... ـزُّلْفَى مِنَ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ

بِعِبَادَةِ الْمَخْلُوقِ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ ... بَشَرٍ وَمِنْ قَبْرٍ وَمِنْ أَوْثَانِ

فَالشِّرْكُ تَعْظِيمٌ بِجَهْلٍ مِنْ قِيـ ... ـمِي الرَّبِّ بِالأَمْرَاءِ وَالسُّلْطَانِ

ظَنُّوا بِأَنَّ الْبَابَ لاَ يُفْضَى بِدُو ... نِ تَوَسُّطِ الشُّفَعَاءِ وَالأَعْوَانِ

وَدَهَاهُمْ ذَاكَ الْلِبَاسُ الْمُشِينُ ... مِنْ قَبَاحَةِ بِدَاعَةِ الإِنْسَانِ

الْفَرْقُ بَيْنَ اللهِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ ... كُلُّ الْوُجُوهِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

أَنَّ الْمُلُوكَ لَعَاجِزُونَ وَمَا لَهُمْ ... عِلْمٌ بِأَحْوَالِ الدُّعَا بِأَذَانِ

كَلاَّ وَلاَ هُمْ قَادِرُونَ عَلَى الَّذِي ... يَحْتَاجُهُ الإِنْسَانُ كُلَّ زَمَانِ

كَلاَّ وَمَا تِلْكَ الإِرَادَةُ فِيهِمُ ... لِقَضَا حَوَائِجِ كُلِّ مَا إِنْسَانِ

كَلاَّ وَلاَ وَسِعُوا الْخَلِيقَةَ رَحْمَةً ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ هُمْ أُولُو النُّقْصَانِ

فَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى تِلْكَ الْوَسَا ... ئِطِ حَاجَةً مِنْهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

أَمَّا الَّذِي هُوَ عَالِمٌ لِلْغَيْبِ مُقْ ... تَدِرٌ عَلَى مَا شَاءَ ذُو إِحْسَانِ

وَتَخَافُهُ الشُّفَعَاءُ لَيْسَ يُرِيدُ مِنْـ ... ـهُمْ حَاجَةً جَلَّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

بَلْ كُلُّ حَاجَاتٍ لَهُمْ فَإِلَيْهِ لاَ ... لِسِوَاهُ مِنْ مَلِكٍ وَلاَ إِنْسَانِ

وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ الَّذِي ... فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي

لِمَنِ ارْتَضَى مِمَّنْ يُوَحِّدُهُ وَلَمْ ... يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

سَبَقَتْ شَفَاعَتُهُ إِلَيْهِ فَهُوَ مَشْـ ... ـفُوعٌ إِلَيْهِ وَشَافِعٌ ذُو شَانِ

فَلِذَا أَقَامَ الشَّافِعِينَ كَرَامَةً ... لَهُمُ وَرَحْمَةَ صَاحِبِ الْعِصْيَانِ

فَالْكُلُّ مِنْهُ بَدَا وَمَرْجِعُهُ إِلَيْـ ... ـهِ وَحْدَهُ مَا مِنْ إِلَيْهِ ثَانِ

غَلَطَ الأُلَى جَعَلُوا الشَّفَاعَةَ مِنْ سِوَا ... هُ إِلَيْهِ دُونَ الإِذْنِ مِنْ رَحْمَنِ

هَذِي شَفَاعَةُ كُلِّ ذِي شِرْكٍ فَلاَ ... تَعْقِدْ عَلَيْهَا يَا أَخَا الإِيمَانِ

وَاللهُ فِي الْقُرْآنِ أَبْطَلَهَا فَلاَ ... تَعْدِلْ عَنِ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ

وَكَذَا الْوَلاَيَةُ كُلُّهَا لله لاَ ... لِسِوَاهُ مِنْ مَلِكٍ وَلاَ إِنْسَانِ

وَاللهِ لَمْ يَفْهَمْ أُولُو الإِشْرَاكِ ذَا ... وَرَآهُ تَنْقِيصًا أُولُو النُّقْصَانِ

إِذْ قَدْ تَضَمَّنَ عَزْلَ مَنْ يَدْعَى سِوَى الرْ ... رَحْمَنِ بَلْ أَحَدِيَّةَ الرَّحْمَنِ

بَلْ كُلُّ مَدْعُوٍّ سِوَاهُ مِنَ لَدُنْ ... عَرْشِ الإِلَهِ إِلَى الْحَضِيضِ الدَّانِ

هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ وَدُعَاءُ مَا ... بِهِ لَهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبُطْلاَنِ

فَلَهُ الْوَلاَيَةُ وَالْوَلاَيَةُ مَا لَنَا ... مِنْ دُونِهِ وَالٍ مِنَ الأَكْوَانِ

فَإِذَا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ دُونَ الْوَرَى ... طُرًّا تَوَلَّاهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ

وَإِذَا تَوَلَّى غَيْرَهُ مِنْ دُونِهِ ... وَلَاهُ مَا يَرْضَى بِهِ لِهَوَانِ

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَبَعْدَ مَمَاتِهِ ... وَكَذَاكَ عِنْدَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

حَقًّا بِنَادِيهِمْ لِدَا سُبْحَانَهُ ... يَوْمَ الْمَعَادِ فَيُسْمِعُ الثَّقَلَانِ

يَا مَنْ يُرِيدُ وَلَايَةَ الرَّحْمَنِ ذُو ... نَ وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ وَالْأَوْثَانِ

فَارِقْ جَمِيعَ النَّاسِ فِي إِشْرَاكِهِمْ ... حَتَّى تَنَالَ وَلَايَةَ الرَّحْمَنِ

يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الْخَلَائِقَ رَحْمَةً ... وَكِفَايَةً ذُو الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ

[يَكْفِيكَ مَنْ لَمْ تَحْلُ مِنْ إِحْسَانِهِ ... فِي طَرْفَةٍ بِتَقَلُّبِ الْأَجْفَانِ]

يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ أَلْطَافُهُ ... تَأْتِي إِلَيْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ

يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ فِي سِتْرِهِ ... وَبِرَاكَ حِينَ تَجِيءُ بِالْعِصْيَانِ

يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ فِي حِفْظِهِ ... وَوِقَايَةٍ مِنْهُ مَدَى الْأَزْمَانِ

يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ فِي فَضْلِهِ ... مُتَقَلِّبًا فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ

يَدْعُوهُ أَهْلُ الْأَرْضِ مَعْ أَهْلِ السَّمَا ... ءِ فَكُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا فِي شَانِ

وَهُوَ الْكَفِيلُ بِكُلِّ مَا يَدْعُونَهُ ... لَا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ مِنْ نُقْصَانِ

فَتَوَسُّطُ الشُّفَعَاءِ وَالشُّرَكَاءِ وَالـ ... ـظُّهَرَاءِ أَمْرٌ بَيْنَ الْبُطْلَانِ

مَا فِيهِ إِلَّا مَحْضُ تَنْقِيصٍ لَهُمْ ... بِاللهِ وَهُوَ فَأَقْبَحُ الْهَتَّانِ

مَعْ قَصْدِهِمْ تَعْظِيمَهُ سُبْحَانَهُ ... مَا عَطَّلُوا الْأَوْصَافَ لِلرَّحْمَنِ

لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلَّ ... لَا النَّفْيُ أَيْنَ النَّفْيُ مِنْ إِثْبَانِ

وَالْقَلْبُ لَيْسَ يَقِرُّ إِلَّا بِالتَّعَدْ ... دِ فَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الْأَكْوَانِ

فَتَرَى الْمُعَطِّلَ دَائِمًا فِي حَيْرَةٍ ... مُتَنَقِّلًا فِي هَذِهِ الْأَعْيَانِ

يَدْعُو إِلَهًا لَمْ يَدْعُ غَيْرَهُ ذَا شَأْنُهُ أَبَدًا مَدَى الْأَزْمَانِ

وَتَرَى الْمُوَحِّدَ دَائِمًا مُتَنَقِّلًا ... بِمَنَازِلِ الطَّاعَاتِ وَالْإِحْسَانِ

مَا زَالَ يَنْزِلُ فِي الْوَفَاءِ مَنَازِلًا ... وَهِيَ الطَّرِيقُ لَهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

لَكِنَّمَا مَعْبُودُهُ هُوَ وَاحِدٌ ... مَا عِنْدَهُ رَبَّانِ مَعْبُودَانِ

شرح

وهذا انتقال من الشر إلى أعظم منه، وذلك أن المُعطل إما أن يكون معطلا للذات، أو معطلاً لكماله ينفي بعض صفاته، وذلك قدح في ألوهية الله؛ لأن الألوهية هي جَميع صفات الكمال.

وأما الشرك فهو تعظيم بجهل من المُشرك حيث ظن بجهله أنه ليس بأهل أن يسأل الله ويتوجه إليه، فاتَّخذ وسيلة ووليجة بزعمه الباطل تقربه إليه، فهو من هذا الوجه معظم لله، ولكن التعظيم إذا كان على غير الصراط المُستقيم فإنه مناف للتعظيم، فإن المُشركين قاسوا رب العالمين بالملوك المَخلوقين.

فرأوا أن المُلوك لا يوصل إليهم إلا بالشفعاء والوجهاء عندهم، وهذا من أعظم الجَهل، فإن الفرق بين الله وبين الملوك ثابت من جَميع الوجوه، فالملوك غير عالمين بأحوال رعيتهم ويَحتاجون إلى من يسترحمهم لَهم ويستعطفهم عليهم لعجزهم وضعفَ قدرتهم وعلمهم وحاجتهم الشديدة إلى مساعدة الرعية لَهم، والله هو القوي العزيز القدير الرحيم، والملوك تَخفى عليهم أحوال الرعايا يَحتاجون إلى من يُخبرهم بها.

والله مُحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً والملوك قد لا يريدون مصالح رعاياهم فيحتاجون لمن يتوسط لَهم عندهم أن يَجعلهم مريدين رحمتهم، والله تعالى أرحم الراحمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلهذه الأسباب احتاج الملوك إلى وسائط وشفعاء يشفعون عندهم، وأما الرب تعالى فإن جَميع الشفعاء يَخافونه، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالشفاعة كلها ملك لله تعالى، وهو الذي يتفضل بها على من يشاء من عباده ممَّن ﷺ الله قوله وعمله من أهل الإخلاص والتوحيد.

فهذه الشفاعة هي الَّتي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، فالمُشركون غلطوا أشد الغلط إذا أثبتوا شفاعة بغير إذنه وللمشركين به، فتعلقوا بالمَخلوقين، وأشركوا بالله ما لَمْ ينزل به سلطانًا.

وفي الجُملة الأمر كله والحكم كله لله والشفاعة كلها لله والولاية كلها لله، فمن تولى ربه

بالإيمان الكامل بأسمائه وصفاته وإخلاص العمل له وترك كل ما يكرهه تولاه ربه ولاية خاصة، فلطف به ويسره لليسرى وجنبه العسرى وأصلح له أحواله كلها.

والمقصود أن المشرك وإن كان مفتريا كافرًا فالمعطل شر منه؛ لأنه عطل كماله ونفي صفاته، ويلزم من ذلك نفي أفعاله وربوبيته وإن كان لا يشعر بهذا اللزوم.

فصل

في مثل المشرك والمعطل

أينَ الَّذي قَدْ قَالَ في مَلِكٍ عَظِيـ ... ـمٍ لَسْتَ فِينَا قَطُّ ذَا سُلْطَانِ

مَا فِي صِفَاتِكَ مِنْ صِفَاتِ المُلْكِ شَيـ ... ـءٌ كُلُّهَا مَسْلُوبَةُ الوِجْدَانِ

فَهَلِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ أَوْ دَبَّرْتَ أَمْرَ المُلْكِ والسُّلْطَانِ

أَوْ قُلْتَ مَرْسُومًا تُنَفِّذُهُ الرُّعَا ... ةُ أَوْ نَطَقْتَ بِلَفْظَةٍ بِبَيَانِ

أَوْ كُنْتَ ذَا أَمْرٍ وَذَا نَهْيٍ وَتَكْـ ... ـلِيمٍ لِمَنْ وَالَى مِنَ البُلْدَانِ

أَوْ كُنْتَ ذَا سَمْعٍ وَذَا بَصَرٍ وَذَا عِلْـ ... ـمٍ وَذَا سُخْطٍ وَذَا رِضْوَانِ

أَوْ كُنْتَ قَطُّ مُكَلِّمًا مُتَكَلِّمًا مُتَصَرِّفًا بِالفِعْلِ كُلَّ زَمَانِ

أَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ حَقِيقَةَ الـ ... ـفِعْلِ الَّذِي قَدْ قَامَ بِالأَذْهَانِ

أَوْ كُنْتَ حَيًّا فَاعِلاً بِمَشِيئَةٍ وَبِقُدْرَةٍ أَفْعَالَ ذِي السُّلْطَانِ

فِعْلٌ يَقُومُ بِغَيْرِ فَاعِلِهِ مُحَا ... لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الإِنْسَانِ

بَلْ حَالَةُ الفَعَّالِ قَبْلَ وُقُوعِ بَعْـ ... ـدُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ بِلاَ فُرْقَانِ

وَاللهِ لَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئًا إِذَا مَا كَانَ شَأْنُكَ مِثْلَ هَذَا الشَّانِ

لاَ ذَا حِلاً فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجٍ عَنَّا خِلاَلاً دُرْتَ فِي الأَذْهَانِ

فَبِأَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ فِينَا مَالِكًا مُلْكًا مُطَاعًا قَاهِرَ السُّلْطَانِ

اسْمًا وَرَسْمًا لاَ حَقِيقَةَ لَحْتَهُ شَأْنُ المُلُوكِ أَجَلُّ مِنْ ذَا الشَّانِ

هَذَا وَكَانَ قَالَ أَنْتَ مَلِيكُنَا وَسِوَاكَ لاَ نَرْضَاهُ مِنْ سُلْطَانِ

إِذْ حُزْتَ أَوْصَافَ الكَمَالِ جَمِيعَهَا وَلأَجْلِ ذَا دَانَتْ لَكَ الثَّقَلاَنِ

وَقَدِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ وَاسْـ ... ـتَوْلَيْتَ مَعْ هَذَا عَلَى البُلْدَانِ

لكنْ نابكَ ليسَ يعْتَادُ امْرُؤٌ إنْ لَمْ يجِنْ بالشافعِ المَعْوَانِ
ويذِلُّ للنُّوَّابِ والحُجَّابِ والـ ـشُّفَعاءِ أهْلِ القُرْبِ والإحْسَانِ
أفيستوي هذا وهذا عندكُمْ واللهِ ما استَوَيا لَدَى الإنْسَانِ
والمُشْرِكُونَ أخَفُّ في كُفْرَانِهِمْ وكِلاهُمَا مِنْ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ
إنَّ المُعَطِّلَ بالعَدَاوَةِ قَائِمٌ في قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ

شرح

وهذا يقارب الفصل الذي قبله من حيث أن المُعطل شر من المُشرك، ويزاد في تنويع العبارة ومُخالفة الأسلوب، فإن المُعطل عطل صفات المَولى ونفي حقيقة ملكه وسلطانه الذي هو الأمر والنهي والأقدار والتدابير المُتنوعة، ونفي أن يكون فعالا لما يريد وأن يكون متكلمًا إذا شاء بِمَا شاء، فأين هذا من المُشرك الذي أثبت صفات المولى وأثبت ملكه وأفعاله، لكنه من ذلك زعم أنه من تمام تعظيمه لله لا يدخل عليه إلا بوسائط يَخضع لَهم ويدعوهم ويتوكل عليهم ليوصلوه إلَى الملك ويرفعوا حوائجه ويتوجهوا بجاههم عنده في قضائها.

بِهذا نَجد الفرق بين الاثنين، مع أن كلا منهما لا حظ له من الدين، وليس له في الآخرة من خلاق.

فصل
فيما أعد الله تعالى من الإحسان للمتمسكين
بكتابه وسنة رسوله ﷺ عند فساد الزمان

هذا وللمُستمسكينَ بسُنَّةِ الـ ـمُختارِ عندَ فَسَادِ ذي الأزْمَانِ
أجرٌ عظيمٌ ليسَ يقدِرُ قَدْرَهُ إلاَّ الذي أعطَاهُ للإنْسَانِ
فَرَوَى أبُو داوُدَ في سُنَنٍ لَهُ ورَوَاهُ أيضًا أحْمَدُ الشَّيْبَانِي
أنَّ امْرَأ تَضْمَنُ أجْرَ خَمْسِينَ امْرَءًا مِنْ صَحْبِ أحْمَدَ حِيرَةَ الرَّحْمَنِ
إسْنَادُهُ حَسَنٌ ومَصْدَاقٌ لَهُ في مُسْلِمٍ فَافْهَمْهُ بالإحْسَانِ

إنَّ العِبادةَ وقتَ هرجٍ هجرةٌ ... حقًّا إلى وذاكَ ذو برهانِ
هذا فكم من هجرةٍ لكَ أيها السـ ... ـنّي بالتحقيقِ لا بأمانِ
هذا وكم من هجرةٍ لهم بما ... قالَ الرسولُ وجاءَ في القرآنِ
ولقد أتى مصداقُهُ في الترمذي ... ي لمن له أذنانِ واعيتانِ
في أجرِ محيي سنةٍ ماتت فذا ... كَ مع الرسولِ رفيقُهُ بجنانِ
هذا ومصداقٌ له أيضًا أتى ... في الترمذي لمن له عينانِ
تشبيهُ أمتِهِ بغيثٍ أوّلٌ ... منهُ وآخرُهُ فمشتبهانِ
فلذاكَ لا يدري الذي هو منهما ... قد خصَّ بالتفضيلِ والرجحانِ
ولقد أتى أثرٌ بأنَّ الفضلَ في الطـ ... ـرفينِ أعني أوّلًا والثاني
والوسطُ ذو ثبجٍ فأعوجُ هكذا ... جاءَ الحديثُ وليسَ ذا نكرانِ
ولقد أتى في الوحيِ مصداقٌ له ... في الثلّتينِ وذاكَ في القرآنِ
أهلُ اليمينِ فثلّةٌ مع مثلِها ... والسابقونَ أقلُّ في الحسبانِ
ما ذاكَ إلّا أنَّ تابعَهم هم الـ ... ـغرباءُ ليستْ غربةَ الأوطانِ
لكنّها واللهِ غربةُ قائمٍ ... بالدينِ بينَ عساكرِ الشيطانِ
فلذاكَ شبّههم به متبوعُهم ... في الغربتينِ وذاكَ ذو تبيانِ
لم يشبهوهم في جميعِ أمورِهم ... من كلِّ وجهٍ ليسَ يستويانِ
فانظرْ إلى تفسيرِهِ الغرباءَ بالـ ... ـمحيينَ سنّتَهُ بكلِّ زمانِ
طوبى لهم والشوقُ يحدوهم إلى ... أخذِ الحديثِ ومحكمِ القرآنِ
طوبى لهم لم يعبأوا بنحاتةِ الـ ... ـأفكارِ أو بزبالةِ الأذهانِ
طوبى لهم ركبوا على متنِ العزا ... ئمِ قاصدينَ لمطلعِ الإيمانِ
طوبى لهم لم يعبأوا شيئًا بذي الـ ... ـآراءِ إذ أغناهمُ الوحيانِ
طوبى لهم وإمامُهم دونَ الورى ... من جاءَ بالإيمانِ والفرقانِ
واللهِ ما انتمّوا بشخصٍ دونَهُ ... إلّا إذا ما ذلّهم ببيانِ
في البابِ آثارٌ عظيمٌ شأنُها ... أعيتْ على العلماءِ في الأزمانِ

إذْ أجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أنَّ صَحَابَةَ الْـ ... ـمُخْتَارِ خَيْرُ طَوَائِفِ الإنْسَانِ
ذَا بِالضَّرُورَةِ لَيْسَ فِيهِ الْخُلْفُ بَيْـ ... ـنَ اثْنَيْنِ مَا حُكِيَتْ بِهِ قَوْلاَنِ
فَلِذَاكَ ذِي الآثَارِ أعْضَلَ أمْرُهَا ... وَبَغَوْا لَهَا التَّفْسِيرَ بِالإحْسَانِ
فَاسْمَعْ إذًا تَأْوِيلَهَا وَافْهَمْهُ لاَ ... تَعْجَلْ بِرَدٍّ مِنْكَ أوْ نُكْرَانِ
إنَّ الْبَدَارَ بِرَدِّ شَيْءٍ لَمْ تُحَطْ ... عِلْمًا بِهِ سَبَبٌ إلَى الْحِرْمَانِ
الْفَضْلُ مِنْهُ مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ ... وَهُمَا لأهْلِ الْفَضْلِ مَرْتَبَتَانِ
وَالْفَضْلُ ذُو التَّقْيِيدِ لَيْسَ بِمُوجِبٍ ... فَضْلاً عَلَى الإطْلاَقِ مِنْ إنْسَانِ
لاَ يُوجِبُ التَّقْيِيدَ أنْ يَقْضِي لَهُ ... بِالاسْتِوَاءِ فَكَيْفَ بِالرُّجْحَانِ
إذْ كَانَ ذُو الإطْلاَقِ حَازَ مِنَ الْفَضَا ... ئِلِ فَوْقَ ذِي التَّقْيِيدِ بِالإحْسَانِ
فَإذَا فَرَضْنَا وَاحِدًا قَدْ حَازَ نَوْ ... عًا لَمْ يُحْزَهُ فَاضِلُ الإنْسَانِ
لَمْ يُوجِبِ التَّخْصِيصُ مِنْ فَضْلٍ عَلَيْـ ... ـهِ وَلاَ مُسَاوَاةٍ وَلاَ نُقْصَانِ
مَا خَلْقُ آدَمَ بِالْيَدَيْنِ بِمُوجِبٍ ... فَضْلاً عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
وَكَذَا خَصَائِصُ مَنْ أتَى مِنْ بَعْدِهِ ... مِنْ كُلِّ رُسْلِ اللهِ بِالْبُرْهَانِ
فَمُحَمَّدٌ أعْلاَهُمُ فَوْقًا وَمَا ... حَكَمَتْ لَهُمْ بِمَزِيَّةِ الرُّجْحَانِ
فَالْحَائِزُ الْخَمْسِينَ أجْرًا لَمْ يُحَزْ ... هَا فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الإيمَانِ
هَلْ حَازَهَا فِي بَدْرٍ اوْ أُحُدٍ أوِ الْـ ... ـفَتْحِ الْمُبِينِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ
بَلْ حَازَهَا إذْ كَانَ قَدْ فَقَدَ الْمُعِيـ ... ـنَ وَهُمْ فَقَدْ كَانُوا أُولِي أعْوَانِ
وَالرَّبُّ لَيْسَ يُضِيعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ ... ـمُتَحَمِّلُونَ لأجْلِهِ مِنْ شَانِ
فَتَحَمُّلُ الْعَبْدِ الْوَحِيدِ رِضَاهُ مَعْ ... فَيْضِ الْعَدُوِّ وَقِلَّةِ الأعْوَانِ
مِمَّا يَدُلُّ عَلَى يَقِينٍ صَادِقٍ ... وَمَحَبَّةٍ وَحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ
يَكْفِيهِ ذُلاًّ وَاغْتِرَابًا قِلَّةُ الْـ ... أنْصَارِ بَيْنَ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ فِرْقَةٌ تَغْزُوهُ إنْ ... تَرْجِعْ يُوَافِيهِ الْفَرِيقُ الثَّانِي
فَسَلِ الْغَرِيبَ الْمُسْتَضَامَ عَنِ الَّذِي ... يَلْقَاهُ بَيْنَ عِدًا بِلاَ حُسْبَانِ
هَذَا وَقَدْ بَعُدَ الْمَدَى وَتَطَاوَلَ الْـ ... ـعَهْدُ الَّذِي هُوَ مُوجِبُ الإحْسَانِ

وَلِذَاكَ كَانَ كَقَابِضٍ جَمْرًا فَسَلْ ... أَحْشَاءَهُ عَنْ حَرِّ ذِي النِّيرَانِ
وَاللهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي فِي قَلْبِهِ ... يَكْفِيهِ عِلْمُ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
فِي الْقَلْبِ أَمْرٌ لَيْسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ ... إِلاَّ الَّذِي آتَاهُ لِلإِنْسَانِ
بِرٌّ وَتَوْحِيدٌ وَصَبْرٌ مَعْ رِضَا ... وَالشُّكْرُ وَالتَّحْكِيمُ لِلْقُرْآنِ
سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ الْعِبَا ... دِ فَذَاكَ مُولِي الْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ
فَالْفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بِصُورَةِ الْـ ... أَعْمَالِ بَلْ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ
وَتَفَاضُلُ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُو ... مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِنَ الْبُرْهَانِ
حَتَّى يَكُونَ الْعَامِلاَنِ كِلاَهُمَا ... فِي رُتْبَةٍ تَبْدُو لَنَا بِعِيَانِ
هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا ... وَالأَرْضُ فِي فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ
وَيَكُونُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا ... رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِلاَ حُسْبَانِ
هَذَا عَطَاءُ الرَّبِّ جَلَّ جَلاَلُهُ ... وَبِذَاكَ تَعْرِفُ حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ

شرح

ذكر المُؤلف في هذا الفصل الآثار الواردة في فضل المُتمسكين بسنة رسول الله عند فساد الزمان، وأن المُحيي لسنته له أجر خمسين من الصحابة كما في سنن أبو داود، وله شاهد في صحيح مسلم «أن العبادة وقت الهرج والفتن كهجرة إلَيّ»[1]. و«من أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الْجَنة»[2]. رواه الترمذي وروى أيضًا «إنَّما مثل أمَّتي مثل الغيث لا يدري أوله خير أم آخره»[3]، إلَى أن قال: «كيف تهلك أمة أنا فيها أولها والْمَسيح في آخرها»[4].

وفي القرآن: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾[5].

والآثار في هذا المُعنَى كثيرة أشكل معناها على كثير من أهل العلم، لاتفاق الأمة على أن

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٨).
(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (٥٣٦٠).
(٣) صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٥٨٥٤).
(٤) موضع: انظر ضعيف الجامع (٤٧٨٠) للعلامة الألباني.
(٥) [الواقعة: ٣٩].

الصحابة رضي الله عنهم أفضل الأمة علما وعملا وتصديقًا وصحبة لرسول الله ﷺ وسبقًا إلى كل خصلة جميلة وشهودهم للمشاهد مع رسول الله ﷺ، لهذا أشكلت هذه الآثار التي قد يخطر ببال من سمعها تفضيل من ذكر فيها على الصحابة، ولكن يقال فيها:

التحقيق أن الفضل نوعان:

أحدهما: تفضيل مطلق في جميع الفضائل فهذا النوع لا يصل أحد فيه درجة الصحابة فضلا عن أن يفضلهم فيه، فالصحابة رضي الله عنهم أفضل الأمة علمًا وإيمانًا وعملاً على وجه الإطلاق والعموم.

والنوع الثاني: هو الفضل المقيد بأن يوجد في الشخص تميز عن غيره في خصلة من خصال الخير، لسبب من الأسباب المختصة التي لا يشارك فيها صاحب الفضل المطلق، وفي هذه الحالة الخاصة قد يقال أنه أفضل من الفاضل في هذه الحال الخاصة المقيدة والفاضل أفضل منه في جهات وفضائل أخر.

فعلى هذا، المتمسك بسنته عند فساد الناس والمحيي لها عند إماتتها إنما تميز بتبريزه وانفراده وقوته العظيمة مع قوة المعارضات وعدم العوين والمساعد على الخير، وفي الحالة التي هوّنت عليه هذا الأمر الشاق من الرغبة التامة وإحياء السنن التي أميتت علم عظيم لا يوجد له نظير، والرب تعالى شكور لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا ما تحمله من أجله من المشاق والمصاعب.

فهذه الإشارة تكفي في هذا المقام، وتفتح للعبد وجه الجمع بين النصوص، والله أعلم.

ذكر المصنف فصولا متعددة في تفاصيل نعيم الجنة التي وعدها المتمسكون بالكتاب والسنة، فهذا جزاؤهم إذا قدموا على ربهم.

ونحيل القارئ على كتاب المؤلف «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» فإنه كالشرح لهذه الفصول، ولكونها واضحة المعاني، قراءتها تفسيرها، اكتفينا بالتحويل على الكتاب المذكور.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى ربه في شئونه كلها عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧هـ.

فصل

فيما أعد الله تعالى في الجنة لأوليائه المتمسكين بالكتاب والسنة

يا خاطب الحور الحسان وطالبا ... لوصلهن بجنة الحيوان
لو كنت تدري من خطبت ومن طلبـ ... ـت بذلت ما تحوي من الأثمان
أو كنت تدري أين مسكنها جعلـ ... ـت السعي منك لها على الأجفان
ولقد وصفت طريق مسكنها فإن ... رمت الوصال فلا تكن بالواني
أسرع وحث السير جهدك إنما ... مسراك هذا ساعة لزمان
فاعشق وحدث بالوصال النفس وابـ ... ـذل مهرها ما دمت ذا إمكان
واجعل صيامك قبل لقياها ويو ... م الوصل يوم الفطر من رمضان
واجعل نعوت جمالها الحادي وسر ... ئلق المخاوف وهي ذات أمان
لا يلهينك منزل لعبت به ... أيدي البلا من سالف الأزمان
فلقد ترحل عنه كل مسرة ... وتبدلت بالهم والأحزان
سجن يضيق بصاحب الإيمان لـ ... ـكن جنة المأوى لذي الكفران
سكانها أهل الجهالة والبطا ... لة والسفاهة أنجس السكان
وألذهم عيشا فجاهلهم بحق ... ق الله ثم حقائق القرآن
عمرت بهم هذي الديار وأقفرت ... منهم ربوع العلم والإيمان
قد آثروا الدنيا ولذة عيشها الـ ... ـفاني على الجنات والرضوان
صحبوا الأماني وابتلوا بحظوظهم ... ورضوا بكل مذلة وهوان
كدحا وكدا لا يفتر عنهم ... ما فيه من غم ومن أحزان
والله لو شاهدت هاتيك الصدو ... ر رأيتها كمراجل النيران
ووقودها الشهوات والحسرات والـ ... آلام لا تخبو مدى الأزمان
أبدانهم أجداث هاتيك النفو ... س اللاء قد قبرت مع الأبدان

أَزْوَاجُهُمْ فِي وَحْشَةٍ وَجُسُومُهُمْ ... فِي كَدْحِهَا لاَ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ
هَرَبُوا مِنَ الرَّبِّ الَّذِي خَلَقُوا لَهُ ... قَبْلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ
لاَ لَرْضَ مَا اخْتَارُوهُ هُمْ لِنُفُوسِهِمْ ... فَقَدِ ارْتَضَوْا بِالذُّلِّ وَالْحِرْمَانِ
لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الْكُفْرَانِ
لَكِنَّهَا وَاللهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنْ ذَا الْجَنَاحِ الْقَاصِرِ الطَّيَرَانِ
وَلَقَدْ لَوَلَّتْ بَعْدَ عَنْ أَصْحَابِهَا ... فَالسُّعْدُ مِنْهَا حَلَّ بِالدَّبَرَانِ
لاَ يَرْتَجَى مِنْهَا الْوَفَاءُ لِصَحْبِهَا ... أَيْنَ الْوَفَا مِنْ غَادِرٍ خَوَّانِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ فَكَيْفَ بِنَالُهَا ... صَفْوٌ أَفَدْ قَطُّ فِي الإِمْكَانِ
يَا عَاشِقَ الدُّنْيَا تَأَهَّبْ لِلَّذِي ... قَدْ نَالَهُ الْعُشَّاقُ كُلَّ زَمَانِ
أَوَ مَا سَمِعْتَ بَلْ رَأَيْتَ مَصَارِعَ الْـ ... ـعُشَّاقِ مِنْ شَيْبٍ وَمِنْ شُبَّانِ

فصل
في صفة الجنة التي أعدها الله ذو الفضل والمنة
لأوليائه المتمسكين بالكتاب والسنة

فَاسْمَعْ إِذَا أَوْصَافَهَا وَصِفَاتِ مَا ... تِلْكَ الْمَنَازِلُ رَبَّةَ الإِحْسَانِ
هِيَ جَنَّةٌ طَابَتْ وَطَابَ نَعِيمُهَا ... فَنَعِيمُهَا بَاقٍ وَلَيْسَ بِفَانِ
دَارُ السَّلاَمِ وَجَنَّةُ الْمَأْوَى وَمَنْـ ... ـزِلُ عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
فَالدَّارُ دَارُ سَلاَمَةٍ وَحَيَاتُهُمْ ... فِيهَا سَلاَمٌ وَاسْمُ ذِي الْغُفْرَانِ

فصل
في عدد درجات الجنة وما بين كل درجتين

دَرَجَاتُهَا مِائَةٌ وَمَا بَيْنَ الثِّنَـ ... ـتَيْنِ فَذَاكَ فِي التَّحْقِيقِ لِلْحُسْنَانِ
مِثْلُ الَّذِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَبَيْنَ هَـ ... ـذِي الأَرْضِ قَوْلُ الصَّادِقِ الرَّحْمَانِ
لَكِنَّ عَالِيَهَا هُوَ الْفِرْدَوْسُ مَنْـ ... ـقُوشٌ بِعَرْشِ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

وَسْطَ الْجِنَانِ وَعُلْوُهَا فَلِذَاكَ كَا ... نَتْ قُبَّةً مِنْ أَحْسَنِ الْبُنْيَانِ
مِنْهُ تَفَجَّرَ سَائِرُ الْأَنْهَارِ فَالْـ ... ـمَتْبُوعُ مِنْهُ نَازِلٌ بِجِنَانِ

فصل

في أبواب الجنة

أَبْوَابُهَا حَقٌّ ثَمَانِيَةٌ أَتَتْ ... فِي النَّصِّ وَهْيَ لِصَاحِبِ الْإِحْسَانِ
بَابُ الْجِهَادِ وَذَاكَ أَعْلَاهَا وَبَا ... بُ الصَّوْمِ يَدْعَى الْبَابُ بِالرَّيَّانِ
وَلِكُلِّ سَعْيٍ صَالِحٍ بَابٌ وَرَبْـ ... ـبُ السَّعْيِ مِنْهُ دَاخِلٌ بِأَمَانِ
وَلَسَوْفَ يَدْعَى الْمَرْءُ مِنْ أَبْوَابِهَا ... جَمْعًا إِذَا وَفَّى حُلَى الْإِيمَانِ
مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ ذَا ... كَ خَلِيفَةُ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

فصل

في مقدار ما بين الباب والباب منها

سَبْعُونَ عَامًا بَيْنَ كُلِّ اثْنَيْنِ مِنْـ ... ـهَا قُدِّرَتْ بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ
هَذَا حَدِيثُ لَقِيطٍ الْمَعْرُوفِ بِالْـ ... ـخَبَرِ الطَّوِيلِ وَذَا عَظِيمُ الشَّانِ
وَعَلَيْهِ كُلُّ جَلَالَةٍ وَمَهَابَةٍ ... وَلَكَمْ حَوَاهُ بَعْدُ مِنْ عِرْفَانِ

فصل

في مقدار ما بين مصراعي الباب الواحد منها

لَكِنَّ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةَ أَرْبَعِيـ ... ـنَ رَوَاهُ حَبْرُ الْأُمَّةِ الشَّيْبَانِي
فِي مُسْنَدٍ بِالرَّفْعِ وَهْوَ لِمُسْلِمٍ ... وَقْفٌ كَمَرْفُوعٍ بِوَجْهٍ ثَانِي
وَلَقَدْ رَوَى تَقْدِيرَهُ بِثَلَاثَةِ الْـ ... أَيَّامِ لَكِنْ عِنْدَ ذِي الْعِرْفَانِ
أَعْنِي الْبُخَارِيَّ الرِّضَى هُوَ مُنْكَرٌ ... وَحَدِيثُ رَاوِيهِ فَذُو نُكْرَانِ

فصل

في مفتاح باب الجنة

هَـذَا وَفَـتْحُ الْبَـابِ لَـيْسَ بِمُمْكِـنٍ ... إِلاَّ بِمِفْتَـاحٍ عَلَـى أَسْـنَانِ

مِفْتَاحُـهُ بِشَـهَادَةِ الإِخْـلاَصِ وَالـتْ ... تَوْحِيـدِ تِلْـكَ شَـهَادَةُ الإِيمَـانِ

أَسْنَانُهُ الأَعْمَـالُ وَهْـيَ شَـرَائِعُ الْـ ... إِسْـلاَمِ وَالْمِفْتَـاحُ بِالأَسْـنَانِ

لاَ تُلْغِـيَنْ هَـذَا الْمِثَـالَ فَكَـمْ بِـهِ ... مِـنْ حَـلِّ إِشْـكَالٍ لِـذِي الْعِرْفَـانِ

فصل

في منشور الجنة الذي يوقع به لصاحبها

هَـذَا وَمَـنْ يَـدْخُلْ فَلَـيْسَ بِـدَاخِلٍ ... إِلاَّ بِتَوْقِيـعٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

وَكَـذَاكَ يُكْتَـبُ لِلْفَتَـى لِدُخُولِـهِ ... مِـنْ قَبْـلُ تَوْقِيعَـانِ مَشْـهُورَانِ

إِحْـدَاهُمَا بَعْـدَ الْمَمَـاتِ وَعَـرْضِ أَرْ ... وَاحِ الْعِبَـادِ بِـهِ عَلَـى الـدَّيَّانِ

فَيَقُـولُ رَبُّ الْعَـرْشِ جَـلَّ جَلاَلُـهُ ... لِلْكَـاتِبِينَ وَهُـمْ أُولُـو الـدِّيوَانِ

ذَا الاِسْـمُ فِـي الـدِّيوَانِ يُكْتَـبُ ذَاكَ دِيـ ... ـوَانُ الْجِنَـانِ مُجَـاوِرَ الْمَنَّـانِ

دِيـوَانُ عِلِّـيِّينَ أَصْـحَابُ الْقُـرَا ... نِ وَسُـنَّةِ الْمَبْعُـوثِ بِـالْقُرْآنِ

فَإِذَا انْتَهَـى لِلْحَشْـرِ يَـوْمَ الْحَشْـرِ يُعْـ ... ـطَى لِلـدُّخُولِ إِذًا كِتَابَـا ثَـانِ

عِنْوَانُـهُ هَـذَا كِتَـابٌ مِـنْ عَزِيـ ... ـزٍ رَاحِـمٍ لِفُـلاَنِ بْـنِ فُـلاَنِ

فَـدَعُوهُ يَـدْخُلْ جَنَّـةَ الْمَـأْوَى الَّتِـي ارْ ... تَفَعَـتْ وَلَكِـنَّ الْقُطُـوفَ دَوَانِ

هَذَا وَقَدْ كُتِبَ اسْمُهُ مُـذْ كَـانَ فِـي الْـ ... أَرْحَـامِ قَبْـلَ وِلاَدَةِ الإِنْسَـانِ

بَلْ قَبْـلَ ذَلِـكَ وَهْـوَ وَقْـتَ الْقَبْضَتَيْـ ... ـنِ كِلاَهُمَـا لِلْعَـدْلِ وَالإِحْسَـانِ

سُـبْحَانَ ذِي الْجَبَـرُوتِ وَالْمَلَكُـوتِ وَالْـ ... إِجْـلاَلِ وَالإِكْـرَامِ وَالسُّـبْحَانِ

وَاللهُ أَكْبَـرُ عَـالِمُ الأَسْـرَارِ وَالْـ ... إِعْـلاَنِ وَاللَّحَظَـاتِ بِالأَجْفَـانِ

وَالْحَمْـدُ لِلَّهِ السَّـمِيعِ لِسَـائِرِ الْـ ... أَصْـوَاتِ مِـنْ سِـرٍّ وَمِـنْ إِعْـلاَنِ

وَهْـوَ الْمُوَحِّـدُ وَالْمُسَـبِّحُ وَالْمُمَجْـ ... ـجِدُ وَالْحَمِيـدُ وَمُنْـزِلُ الْقُـرْآنِ

وَالأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ لَهُ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّلْطَانِ

فصل
في صفوف أهل الجنة

هَذَا وَإِنَّ صُفُوفَهُمْ عِشْرُونَ مَعْ مِائَةٍ وَهَذِي الأُمَّةُ الثُّمَّانِ
بِرِوَايَةِ عَطِيَّةَ بْنِ بُرَيْدَةَ إِسْنَادُهُ شَرْطُ الصَّحِيحِ بِمُسْنَدِ الشَّيْبَانِي
وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْـ ـرَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَحَبْرِ زَمَانِ
أَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ وَفِي إِسْنَادِهِ رَجُلٌ ضَعِيفٌ غَيْرُ ذِي إِتْقَانِ
وَلَقَدْ أَتَانَا فِي الصَّحِيحِ بِأَنَّهُمْ شَطْرٌ وَنَا اللَّفْظَانِ مُخْتَلِفَانِ
إِذْ قَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَهُمْ هَذَا رَجَاءٌ مِنْهُ لِلرَّحْمَنِ
أَعْطَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ مَا يَرْجُو وَزَا دَ مِنَ الْعَطَاءِ فَعَالِ ذِي الإِحْسَانِ

فصل
في أول زمرة تدخل الجنة

هَذَا وَأَوَّلُ زُمْرَةٍ فَوُجُوهُهُمْ كَالْبَدْرِ لَيْلَ السَّتِّ بَعْدَ ثَمَانِ
السَّابِقُونَ هُمُ وَقَدْ كَانُوا هُنَا أَيْضًا أُولِي سَبْقٍ إِلَى الإِحْسَانِ

فصل
في صفة الزمرة الثانية

وَالزُّمْرَةُ الأُخْرَى كَأَضْوَإِ كَوْكَبٍ فِي الأُفْقِ تَنْظُرُهُ بِهِ الْعَيْنَانِ
أَمْشَاطُهُمْ ذَهَبٌ وَرَشْحُهُمُ فِيكَ خَالِصُ يَا ذَا الْجَلَالِ وَمَانِ

فصل

في تفاضل أهل الجنة في الدرجات العلا

وَيَرَى الَّذِينَ بِذَيْلِهَا مِنْ فَوْقِهِ ... مِثْلَ الْكَوَاكِبِ رُؤْيَةً بِعِيَانِ
مَا ذَاكَ مُخْتَصٌّ بِرُسْلِ اللهِ بَلْ ... لِلْمُسْلِمِ وَلِلصِّدِّيقِ ذِي الإِيمَانِ

فصل

في ذكر أعلى أهل الجنة منزلة وأدناهم

هَذَا وَأَعْلاَهُمْ قَنَاطِرُ رَبِّهِ ... فِي كُلِّ يَوْمٍ وَثْبَةُ الطَّرْفَانِ
لَكِنَّ أَدْنَاهُمْ وَمَا فِيهِمْ دَنِي ... إِذْ لَيْسَ فِي الْجَنَّاتِ مِنْ نُقْصَانِ
فَهُوَ الَّذِي تُلْفَى مَسَافَةُ مُلْكِهِ ... بِسِتِّينَ أَلْفَانِ كَامِلَتَانِ
فَيَرَى بِهَا أَقْصَاهُ حَقًّا مِثْلَ رُؤْ ... يَتِهِ لأَدْنَاهُ الْقَرِيبِ الدَّانِي
أَوْ سَمِعْتَ بِأَنَّ آخِرَ أَهْلِهَا ... يُعْطِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ ذُو الْغُفْرَانِ
أَضْعَافَ دُنْيَانَا جَمِيعًا عَشْرَ أَمْـ ... ـثَالٍ لَهَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ

فصل

في ذكر سنّ أهل الجنة

هَذَا وَسِنُّهُمُ ثَلاَثٌ مَعْ ثَلاَ ... ثِينَ الَّتِي هِيَ قُوَّةُ الشُّبَّانِ
وَصِفَوْهُمُ وَكَبِيرُهُمْ فِي ذَا عَلَى ... حَدٍّ سَوَاءٍ مَا سِوَى الْوِلْدَانِ
وَلَقَدْ رَوَى الْخُدْرِي أَيْضًا أَنَّهُمْ ... أَبْنَاءُ عَشْرٍ بَعْدَهَا عَشْرَانِ
وَكِلاَهُمَا فِي التِّرْمِذِي وَلَيْسَ ذَا ... بِنَقَاضِ بَلْ هَاتَا أَتَانِ
حَذْفُ الثَّلاَثِ وَلَيْسَ بَعْدَ الْعَفْـ ... ـوِ وَذْكَرِ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِبَيَانِ
عِنْدَ النِّزَاعِ فِي الْكَلاَمِ فَعِنْدَ مَا ... يَأْتُوا بِتَحْرِيرٍ فَبِالْمِيزَانِ

فصل
في طول قامات أهل الجنة وعرضهم

وَالطُّولُ طُولُ أَبِيهِمْ سِتُّونَ لَـ ـكِنْ عَرْضُهُمْ سَبْعٌ بِلاَ نُقْصَانِ
الطُّولُ صَحَّ بِغَيْرِ شَكٍّ فِي الصَّحِـ ـحَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا لَنَا شَيْخَانِ
وَالْعَرْضُ لَمْ نَعْرِفْهُ فِي إِحْدَاهُمَا لَكِنْ رَوَاهُ أَحْمَدُ الشَّيْبَانِي
هَذَا وَلاَ يَخْفَى التَّنَاسُبُ بَيْنَ هَـ ـذَا الْعَرْضِ وَالطُّولِ الْبَدِيعِ الشَّانِ
كُلٌّ عَلَى مِقْدَارِ صَاحِبِهِ وَذَا تَقْدِيرُ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإِنْسَانِ

فصل
في لحاهم وألوانهم

أَلْوَانُهُمْ بِيضٌ وَلَيْسَ لَهُمْ لِحًى جُعْدُ الشُّعُورِ مُكَحَّلُ الأَجْفَانِ
هَذَا كَمَالُ الْحُسْنِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَشُعُورُهُمْ وَكَذَلِكَ الْعَيْنَانِ

فصل
في لسان أهل الجنة

وَلَقَدْ أَتَى الْخَبَرُ بِأَنَّ لِسَانَهُمْ بِالْمَنْطِقِ الْعَرَبِيِّ خَيْرِ لِسَانِ
لَكِنَّ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ فَفِيـ ـهِ رَاوِيَانِ وَمَا هُمَا ثِقَتَانِ
أَعْنِي الْعَلاَءَ هُوَ ابْنُ عَمْرٍو ثُمَّ بَعْـ ـضِ الأَشْعَرِيِّ وَذَانِ مَغْمُوزَانِ

فصل
في ريح أهل الجنة من مسيرة كم يوجد

وَالرِّيحُ يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِيـ ـنَ وَإِنْ تَشَأْ مِائَةً فَرَوِّيَانِ
وَكَذَا رُوِيَ سَبْعِينَ أَيْضًا صَحَّ هَـ ـذَا كُلُّهُ وَأَتَى بِهِ الْقُرْآنِ
مَا فِي رِجَالِهِمَا لَنَا مِنْ مَطْعَنٍ وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْكُلِّ ذُو إِمْكَانِ

وَلَقَدْ أَتَى تَقْدِيرُهُ مِائَةً بِحَسْـ ... ـبِ ضَرْبِهَا مِنْ غَيْرِ مَا نُقْصَانِ
إِنْ صَحَّ هَذَا فَهْوَ أَيْضًا وَالَّذِي ... مِنْ قَبْلِهِ فِي غَايَةِ الإِمْكَانِ
إِمَّا بِحَسْبِ الْمُدْرِكِينَ لِرَبِّهَا ... قُرْبًا وَبُعْدًا مَا هُمَا بِيَانِ
أَوْ بِاخْتِلَافِ قَرَارِهَا وَعُلُوِّهَا ... أَيْضًا وَذَلِكَ وَاضِحُ التِّبْيَانِ
أَوْ بِاخْتِلَافِ السَّيْرِ أَيْضًا فَهْوَ أَنْـ ... ـوَاعٌ بِقَدْرِ إِطَاقَةِ[1] الإِنْسَانِ
مَا بَيْنَ أَلْفَاظِ الرَّسُولِ تَنَاقُضٌ ... بَلْ ذَاكَ فِي الأَفْهَامِ وَالأَذْهَانِ

فصل
في أسبق الناس دخولاً إلى الجنة

وَنَظِيرُ هَذَا سَبْقُ أَهْلِ الْفَقْرِ لِلْـ ... ـجَنَّاتِ فِي تَقْدِيرِهِ أَثَرَانِ
مِائَةً بِحَسْبِ ضَرْبِهَا أَوْ أَرْبَعِيـ ... ـنَ كِلاَهُمَا فِي ذَاكَ مَحْفُوظَانِ
فَأَبُو هُرَيْرَةَ قَدْ رَوَى أَوْلاَهُمَا ... وَرَوَى لَنَا الثَّانِي صَحَابِيَانِ
هَذَا بِحَسْبِ تَفَاوُتِ الْفُقَرَاءِ فِي اسْـ ... ـتِحْقَاقِ سَبْقِهِمُ إِلَى الإِحْسَانِ
أَوْ ذَا بِحَسْبِ تَفَاوُتٍ فِي الأَغْنِيَـ ... ـاءِ كِلاَهُمَا لاَ شَكَّ مَوْجُودَانِ
هَذَا وَأَوَّلُهُمْ دُخُولاً خَيْرُ خَلْـ ... ـقِ اللهِ مَنْ قَدْ خُصَّ بِالْقُرْآنِ
وَالأَنْبِيَاءُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ مِنَ التَّـ ... ـفْضِيلِ تِلْكَ مَوَاهِبُ الْمَنَّانِ
هَذَا وَأُمَّةُ أَحْمَدٍ سَبَّاقَ بَا ... قِي الْخَلْقِ عِنْدَ دُخُولِهِمْ بِجِنَانِ
وَأَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْبَقُهُمْ إِلَى الْـ ... ـإِسْلاَمِ وَالتَّصْدِيقِ بِالْقُرْآنِ
وَكَذَا أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ أَسْـ ... ـبَقُهُمْ دُخُولاً قَوْلَ ذِي الْبُرْهَانِ
وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَنَّ أَوَّلَهُمْ بِعَصْـ ... ـفُحُهُ إِلَهُ الْعَرْشِ ذُو الإِحْسَانِ
وَيَكُونُ أَوَّلَهُمْ دُخُولاً جَنَّةَ الْفِـ ... ـرْدَوْسِ ذَلِكَ قَامِعُ الْكُفْرَانِ
فَارُوقُ دِينِ اللهِ نَاصِرُ قَوْلِهِ ... وَرَسُولِهِ وَشَرَائِعِ الإِيمَانِ

---

(١) كذا في (ط، ق) وفي (ح) [إضافة].

لَكِنَّهُ أَثَرٌ ضَعِيفٌ فِيهِ مَجْـ ـــرُوحٌ يُسَمَّى خَالِدًا بِبَيَانِ
لَوْ صَحَّ كَانَ عُمُومُهُ الْمَخْصُوصُ بِالصِّـ ـدِّيقِ قَطْعًا غَيْرَ ذِي نُكْرَانِ
هَذَا وَأَوَّلُهُمْ دُخُولاً فَهْوَ حَمْـ ـدٌ عَلَى الْحَالاَتِ لِلرَّحْمَنِ
إِنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ أَصْبَحَ حَامِدًا أَوْ كَانَ فِي الضَّرَّا فَحَمْدٌ ثَانِ
هَذَا الَّذِي هُوَ عَارِفٌ بِإِلَهِهِ وَصِفَاتِهِ وَكَمَالِهِ الرَّبَّانِي
وَكَذَا الشَّهِيدُ فَسَبْقُهُ مُتَيَقَّنٌ وَهُوَ الْجَدِيرُ بِذَلِكَ الإِحْسَانِ
وَكَذَلِكَ الْمَمْلُوكُ حِينَ يَقُومُ بِالْـ ـحَقِّينِ سَبَّاقٌ بِغَيْرِ تَوَانِ
وَكَذَا فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ لَيْسَ بِالْـ ـمِلْحَاحِ بَلْ ذُو عِفَّةٍ وَصِيَانِ

فصل

في عدد الجنات وأجناسها

وَالْجَنَّةُ اسْمُ الْجِنْسِ وَهْيَ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَلَكِنْ أَصْلُهَا نَوْعَانِ
ذَهَبِيَّتَانِ بِكُلِّ مَا حَوَتَاهُ مِنْ حَلْيٍ وَآنِيَةٍ وَمِنْ بُنْيَانِ
وَكَذَاكَ أَيْضًا فِضَّةٌ ثِنْتَانِ مِنْ حَلْيٍ وَبُنْيَانٍ وَكُلٌّ أَوَانِ
لَكِنَّ دَارَ الْخُلْدِ وَالْمَأْوَى وَعَدْ نٍ وَالسَّلاَمِ إِضَافَةٌ لِمَعَانِ
أَوْصَافُهَا اسْتَدْعَتْ إِضَافَتَهَا إِلَيْـ ـهَا مِدْحَةً مَعْ غَايَةِ التِّبْيَانِ
لَكِنَّمَا الْفِرْدَوْسُ أَعْلاَهَا وَأَوْ سَطُهَا مَسَاكِنُ صَفْوَةِ الرَّحْمَنِ
أَعْلاَهُ مَنْزِلَةً لأَعْلَى الْخَلْقِ مَنْـ ـزِلَةً هُوَ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ
وَهْيَ الْوَسِيلَةُ وَهْيَ أَعْلَى رُتْبَةً خَلُصَتْ لَهُ فَضْلاً مِنَ الرَّحْمَنِ
وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ تَفْـ ـضِيلُ الْجِنَانِ مُفَصَّلاً بِبَيَانِ
هِيَ أَرْبَعٌ ثِنْتَانِ فَاضِلَتَانِ ثُمْـ ـمَ يَلِيهِمَا ثِنْتَانِ مَفْضُولاَنِ
فَالأَوَّلَيَانِ الْفُضْلَيَانِ لأَوْجُهٍ عَشْرٍ وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ
وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السِّيَاقَ وَجَدْتَهَا فِيهِ تَلُوحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ
سُبْحَانَ مَنْ غَرَسَتْ يَدَاهُ جَنَّةَ الْـ ـفِرْدَوْسِ عِنْدَ تَكَامُلِ الْبُنْيَانِ

وَيَدَاهُ أَيْضًا أَلْقَنَتْ لِبِنَائِهَا ... فَتَبَارَكَ الرَّحْمَنُ أَعْظَمُ بَانِ
هِيَ فِي الْجِنَانِ كَآدَمٍ وَكِلَاهُمَا ... تَفْضِيلُهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا الشَّانِ
لَكِنَّمَا الْجَهْمِيُّ لَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ ... ذَا الْفَضْلِ شَيْءٌ فَهْوَ ذُو نُكْرَانِ
وَلَدٌ عَقُوقٌ عَقَّ وَالِدَهُ وَلَمْ ... يُثْبِتْ بِذَا فَضْلًا عَلَى الشَّيْطَانِ
فَكِلَاهُمَا تَأْثِيرُ قُدْرَتِهِ وَتَأْ ... ثِيرُ الْمَشِيئَةِ لَيْسَ ثَمَّ يَدَانِ
آلَاهُمَا أَوْ نِعْمَتَاهُ وَخَلْقُهُ ... كُلٌّ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ الْمَنَّانِ
لَمَّا قَضَى رَبُّ الْعِبَادِ الْعَرْشَ قَا ... لَ تَكَلَّمِي فَتَكَلَّمَتْ بِبَيَانِ
قَدْ أَفْلَحَ الْعَبْدُ الَّذِي هُوَ مُؤْمِنٌ ... مَاذَا ادَّخَرْتُ لَهُ مِنَ الإِحْسَانِ
وَلَقَدْ رَوَى حَقًّا أَبُو الدَّرْدَاءِ ذَا ... كَ عُوَيْمِرٌ أَثَرًا عَظِيمَ الشَّانِ
يَهْتَزُّ قَلْبُ الْعَبْدِ عِنْدَ سَمَاعِهِ ... طَرَبًا بِقَدْرِ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ
مَا مِثْلُهُ أَبَدًا يُقَالُ بِرَأْيِهِ ... أَوْ كَانَ يَا أَهْلًا بِذَا الْعِرْفَانِ
فِيهِ النُّزُولُ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ فَإِحْـ ... ـدَاهُنَّ يَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ الثَّانِي
يَمْحُو وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ بِحِكْمَةٍ ... وَبِعِزَّةٍ وَبِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ
فَتَرَى الْفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْـ ... ـبِحُ فِي سِوَاهَا مَا هُمَا مِثْلَانِ
هُوَ نَائِمٌ وَأُمُورُهُ قَدْ دُبِّرَتْ ... لَيْلًا وَلَا يَدْرِي بِذَاكَ الشَّانِ
وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى عَدْنٍ مَسَا ... كِنِ أَهْلِهِ هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ
الرُّسْلُ ثُمَّ الأَنْبِيَاءُ وَمَعْهُمُ الصِّـ ... ـدِّيقُ حَسْبُ فَلَا تَكُنْ بِجَبَانِ
فِيهَا الَّذِي وَاللهِ مَا عَيْنٌ رَأَتْ ... كَلَّا وَلَا سَمِعَتْ بِهِ الأُذُنَانِ
كَلَّا وَلَا قَلْبٌ بِهِ خَطَرَ الْمِثَا ... لُ لَهُ تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى هَذِي السَّمَا ... ءِ يَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ نَدْمَانِ
أَوْ دَاعٍ اوْ مُسْتَغْفِرٍ أَوْ سَائِلٍ ... أُعْطِيهِ إِنِّي وَاسِعُ الإِحْسَانِ
حَتَّى يُصَلِّيَ الْفَجْرُ يَشْهَدُهَا مَعَ الْـ ... أَمْلَاكِ تِلْكَ شَهَادَةُ الْقُرْآنِ
هَذَا الْحَدِيثُ بِطُولِهِ وَسِيَاقِهِ ... وَتَمَامِهِ فِي سُنَّةِ الطَّبَرَانِي

فصل

في بناء الجنة

وَبِنَاؤُهَا اللَّبِنَاتُ مِنْ ذَهَبٍ وَأَخْـ ... ـرَى فِضَّةٌ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ
وَقُصُورُهَا مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ
وَكَذَاكَ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ بِهِ نُظِمَ الْبِنَاءُ بِغَايَةِ الإِتْقَانِ
وَالطِّينُ مِسْكٌ خَالِصٌ أَوْ زَعْفَرَا نٌ جَا بِذَا آثَارَانِ مَقْبُولَانِ
لَيْسَا بِمُخْتَلِفَيْنِ لاَ تُنْكِرْهُمَا فَهُمَا الْمِلاَطُ لِذَلِكَ الْبُنْيَانِ

فصل

في أرضها وحصبائها وتُرْبِها

وَالأَرْضُ مَرْمَرَةٌ كَخَالِصِ فِضَّةٍ مِثْلَ الْمِرَاتِ لِتَالِهِ الْعَيْنَانِ
فِي مُسْلِمٍ تَشْبِيهُهَا بِالدُّرْمَكِ الصَّـ ... ـافِي وَبِالْمِسْكِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
هَذَا لِحُسْنِ اللَّوْنِ لَكِنْ ذَا لِطِيـ ... ـبِ الرِّيحِ صَارَ هُنَالِكَ تَشْبِيهَانِ
حَصْبَاؤُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ كَذَا لاَ لاَ بَلِ الْيَاقُوتُ كَالدُّرِّ جُمَانِ
وَتُرَابُهَا مِنْ زَعْفَرَانٍ أَوْ مِنَ الْـ ... ـمِسْكِ الَّذِي مَا امْتَلَّ مِنْ غِزْلاَنِ

فصل

في صفة غرفاتها

غُرُفَاتُهَا فِي الْجَوِّ يَنْظُرُ بَطْنُهَا مِنْ ظَهْرِهَا وَالظَّهْرُ مِنْ بَطْنَانِ
سُكَّانُهَا أَهْلُ الْقِيَامِ مَعَ الصِّيَا مِ وَطَيِّبِ الْكَلِمَاتِ وَالإِحْسَانِ
يَتَنَافَسَانِ خَالِصُ حُبِّهِ سُبْحَانَهُ وَعِبَادَةُ أَبَدًا لَهُمْ يَتَنَافَسَانِ

فصل

في خيام أهل الجنة

لِلْعَبْدِ فِيهَا خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ قَدْ جُوِّفَتْ هِيَ صَنْعَةُ الرَّحْمَنِ
سِتُّونَ مِيلاً طُولُهَا فِي الْجَوِّ فِي كُلِّ الزَّوَايَا أَجْمَلُ النِّسْوَانِ
يَغْشَى الْجَمِيعَ فَلاَ يُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَهَذَا لاِتِّسَاعِ مَكَانِ
فِيهَا مَقَاصِيرٌ بِهَا الأَبْوَابُ مِنْ ذَهَبٍ وَدُرٍّ زِينَ بِالْمُرْجَانِ
وَخِيَامُهَا مَنْصُوبَةٌ بِرِيَاضِهَا وَشَوَاطِئُ الأَنْهَارِ ذِي الْجَرَيَانِ
مَا فِي الْخِيَامِ سِوَى الَّتِي لَوْ قَابَلَتْ لِلنَّيِّرَيْنِ لَقُلْتُ مُنْكَسِفَانِ
لِلَّهِ هَاتِيكَ الْخِيَامُ فَكَمْ بِهَا لِلْقَلْبِ مِنْ عُلْقٍ وَمِنْ أَشْجَانِ
فِيهِنَّ حُورٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ خَيْـ ـرَاتٌ حِسَانٌ هُنَّ خَيْرُ حِسَانِ
خَيْرَاتُ أَخْلاَقٍ حِسَانٌ أَوْجُهُهَا فَالْحُسْنُ وَالإِحْسَانُ مُتَّفِقَانِ

فصل

في أرائكها وسررها

فِيهَا الأَرَائِكُ وَهْيَ مِنْ سُرُرٍ عَلَيْـ ـهِنَّ الْحِجَالُ كَثِيرَةُ الأَلْوَانِ
لاَ تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِكِ دُونَ هَا تِيكَ الْحِجَالِ وَذَاكَ وَضْعُ لِسَانِ
بَشْخَانَةٌ يَدْعُونَهَا بِلِسَانِ فَا رِسَ وَهْوَ ظَهْرُ الْبَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ

فصل

في أشجارها وثمارها وظلالها

أَشْجَارُهَا نَوْعَانِ مِنْهَا مَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِثَالٌ ذَانِ[1]
كَالسِّدْرِ أَصْلُ النَّبْقِ مَخْضُودٌ مَكَا نَ الشَّوْكِ مِنْ ثَمَرٍ ذَوِي أَلْوَانِ

---

(١) كذا في (خ، ق، ط) وفي (س) [ثان].

هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ مِنْ خَيْرِ الظِّلَا ... لِ وَنَفْعُهُ التَّرْوِيحُ لِلْأَبْدَانِ
وَثِمَارُهُ أَيْضًا ذَوَاتُ مَنَافِعٍ ... مِنْ بَعْضِهَا تَفْرِيحُ ذِي الْأَحْزَانِ
وَالطَّلْحُ وَهْوَ الْمَوْزُ مَنْضُودٌ كَمَا ... نُضِدَتْ يَدٌ بِأَصَابِعٍ وَبَنَانِ
أَوْ أَنَّهُ شَجَرُ الْبَوَادِي مُوقَرًا ... حَمْلًا مَكَانَ الشَّوْكِ فِي الْأَغْصَانِ
وَكَذَلِكَ الرُّمَّانُ وَالْأَعْنَابُ وَالنَّـ ... ـخْلُ الَّتِي مِنْهَا الْقُطُوفُ دَوَانِ
هَذَا وَنَوْعٌ مَالَهُ فِي هَذِهِ الدُّ ... نْيَا نَظِيرٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ
يَكْفِي مِنَ التَّعْدَادِ قَوْلُ إِلَهِنَا ... مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ بِهَا زَوْجَانِ
وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا فِي اللَّوْنِ مُخْـ ... ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ
أَوْ أَنَّهُ مُتَشَابِهٌ فِي الِاسْمِ مُخْـ ... ـتَلِفُ الطُّعُومِ فَذَاكَ قَوْلٌ ثَانِ
أَوْ أَنَّهُ وَسَطٌ خِيَارٌ كُلُّهُ ... فَالْفَحْلُ مِنْهُ لَيْسَ ذَا ثِنْيَانِ
أَوْ أَنَّهُ لِثِمَارِنَا ذِي مُشْبِهٌ ... فِي اسْمٍ وَلَوْنٍ لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ
لَكِنْ لِبَهْجَتِهَا وَلَذَّةِ طَعْمِهَا ... أَمْرٌ سِوَى هَذَا الَّذِي تَجِدَانِ
فَيَلَذُّهَا فِي الْأَكْلِ عِنْدَ مَنَالِهَا ... وَتَلَذُّهَا مِنْ قَبْلِهِ الْعَيْنَانِ
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا بِالْجَنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا سِوَى أَسْمَاءِ مَا تَرَيَانِ
يَعْنِي الْحَقَائِقَ لَا تُمَاثِلُ هَذِهِ ... وَكِلَاهُمَا فِي الِاسْمِ مُتَّفِقَانِ
يَا طِيبَ هَاتِيكَ الثِّمَارِ وَغَرْسِهَا ... فِي الْمِسْكِ ذَاكَ التُّرْبُ لِلْبُسْتَانِ
وَكَذَلِكَ الْمَاءُ الَّذِي يُسْقَى بِهِ ... يَا طِيبَ ذَاكَ الْوِرْدِ لِلظَّمْآنِ
وَإِذَا تَنَاوَلْتَ الثِّمَارَ أَتَتْ نَظِيـ ... ـرَتُهَا فَحَلَّتْ دُونَهَا بِمَكَانِ
لَمْ تَنْقَطِعْ أَبَدًا وَلَمْ تَرْقُبْ نُزُو ... لَ الشَّمْسِ مِنْ حَمَلٍ إِلَى مِيزَانِ
وَكَذَاكَ لَمْ تُمْنَعْ وَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى ... أَنْ تَرْتَقِي لِلْقِنْوِ فِي الْعِيدَانِ
بَلْ ذُلِّلَتْ تِلْكَ الْقُطُوفُ فَكَيْفَمَا ... شِئْتَ انْتَزَعْتَ بِأَسْهَلِ الْإِمْكَانِ
وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ السَّاقَ مِنْ ... ذَهَبٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِي بِبَيَانِ
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَاتِيكَ الْجُذُو ... عُ زُمُرُّدٌ مِنْ أَحْسَنِ الْأَلْوَانِ
وَمُقَطَّعَاتُهُمُ مِنَ الْكَرْمِ الَّذِي ... فِيهَا وَمِنْ سَعَةٍ مِنَ الْعِقْيَانِ

وثمارها ما فيه من عجم كأمـ ـثال القلال فجل ذو الإحسان
وظلالها ممتدة ليست تقي حرا ولا شمسا وأنى ذان
أو ما سمعت بظل أصل واحد فيه يسير الراكب العجلان
مائة سنين قدرت لا تنقضي هذا العظيم الأصل والأفنان
ولقد روى الخدري أيضا أن طو بى قدرها مائة بلا نقصان
تتفتح الأكمام فيها عن لبا سهم بما شاءوا من الألوان

فصل

في سماع أهل الجنة

قال ابن عباس ويرسل ربنا ريحا تهز ذوائب الأغصان
فتثير أصواتا تلذ لمسمع الـ إنسان كالنغمات بالأوزان
يا لذة الأسماع لا تتعوضي بلذاذة الأوتار والعيدان
أو ما سمعت سماعهم فيها غنا ء الحور بالأصوات والألحان
واها لذياك السماع فإنه ملئت به الأذنان بالإحسان
واها لذياك السماع وطيبه من مثل أقمار على أغصان
واها لذياك السماع فكم به للقلب من طرب ومن أشجان
واها لذياك السماع ولم أقل ذياك تصغيرا له بلسان
ما ظن سامعه بصوت أطيب الـ أصوات من حور الجنان حسان
نحن النواعم والخوالد خيرا ت كاملات الحسن والإحسان
لسنا نموت ولا نخاف وما لنا سخط ولا ضغن من الأضغان
طوبى لمن كنا له وكذاك طو بى للذي هو حظنا لفظان
في ذاك آثار روين وذكرها في الترمذي ومعجم الطبراني
ورواه يحيى شيخ الأوزاعي تفـ ـسيرا للفظة يخبرون أغان
نزه سماعك إن أردت سماع ذيـ ـاك الغنا عن هذه الألحان

لاَ تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى فَتَحْـ ـرِمَ ذَا وَذَا يَا ذِلَّةَ الْحِرْمَانِ

إِنَّ اخْتِيَارَكَ لِلسَّمَاعِ النَّازِلِ الـ ـأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى مِنَ النُّقْصَانِ

وَاللهِ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي الْقَلْبِ وَالـ ـإِيمَانِ مِثْلُ السُّمِّ فِي الأَبْدَانِ

وَاللهِ مَا الْفَكُّ الَّذِي هُوَ ذَائِبُهُ أَبَدًا مِنَ الإِشْرَاكِ بِالرَّحْمَنِ

فَالْقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلاَلُهُ حُبًّا وَإِخْلاَصًا مَعَ الإِحْسَانِ

فَإِذَا تَعَلَّقَ بِالسَّمَاعِ أَصَارَهُ عَبْدًا لِكُلِّ فُلاَنَةٍ وَفُلاَنِ

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

نَقَلَ الْكِتَابُ عَلَيْهِمُ لَمَّا رَأَوْا لِلْفِيدَةِ بِشَرَائِعِ الإِيمَانِ

وَاللَّهْوُ خَفَّ عَلَيْهِمُ لَمَّا رَأَوْا مَا فِيهِ مِنْ طَرَبٍ وَمِنْ أَلْحَانِ

قُوتُ النُّفُوسِ وَإِنَّمَا الْقُرْآنُ قُو تُ الْقَلْبِ أَنَّى يَسْتَوِي الْقُوتَانِ

وَلِذَا تَرَاهُ خَطُّ ذِي النُّقْصَانِ كَالْـ ـجُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ

وَأَلَذُّهُمْ فِيهِ أَقَلُّهُمِ مِنَ الْـ ـعَقْلِ الصَّحِيحِ فَلَسْ أَخَا الْعِرْفَانِ

يَا لَذَّةَ الْفُسَّاقِ لَسْتِ كَلَذَّةِ الْـ أَبْرَارِ فِي عَقْلٍ وَلاَ قُرْآنِ

فصل

في أنهار الجنة

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ سُبْحَانَ مُنْشِئِهَا عَنِ الْقِيعَانِ

مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرِي كَمَا شَاءُوا مُفَجَّـ ـرَةً وَمَا لِلنَّهْرِ مِنْ نُقْصَانِ

عَسَلٌ مُصَفًّى ثُمَّ مَاءٌ ثُمَّ خَمْـ ـرٌ ثُمَّ أَنْهَارٌ مِنَ الأَلْبَانِ

وَاللهِ مَا تِلْكَ الْمَوَادُّ كَهَذِهِ لَكِنْ هُمَا فِي اللَّفْظِ مُجْتَمِعَانِ

هَذَا وَبَيْنَهُمَا يَسِيرُ تَبَايُنٍ وَهُوَ اشْتِرَاكُ قِيَامِ بِالأَذْهَانِ

فصل

في طعام أهل الجنة

وَطَعَامُهُمْ مَا تَشْتَهِيهِ نُفُوسُهُمْ ... وَلَحُومُ طَيْرٍ لَاغِمٍ وَسِنَانِ

وَفَوَاكِهٌ شَتَّى بِحَسْبِ مُنَاهُمُ ... يَا شِبْعَةً كَمُلَتْ لِذِي الإِحْسَانِ

لَحْمٌ وَخَمْرٌ وَالنَّسَا وَفَوَاكِهٌ ... وَالطِّيبُ مَعْ رَوْحٍ وَمَعْ رَيْحَانِ

وَصِحَافُهُمْ ذَهَبٌ تَطُوفُ عَلَيْهِمُ ... بِأَكُفِّ خُدَّامٍ مِنَ الْوِلْدَانِ

وَانْظُرْ إِلَى جَعْلِ اللَّذَاذَةِ لِلْعُيُو ... نِ وَشَهْوَةٍ لِلنَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ

لِلْعَيْنِ مِنْهَا لَذَّةٌ تَدْعُو إِلَى ... شَهَوَاتِهَا بِالنَّفْسِ وَالأَمْرَانِ

سَبَبُ التَّنَاوُلِ وَهْوَ يُوجِبُ لَذَّةً ... أُخْرَى سِوَى مَا نَالَتِ الْعَيْنَانِ

فصل

في شرابهم

يُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ رَحِيقٍ خَتْمُهُ ... بِالْمِسْكِ أَوْلُهُ كَمِثْلِ الثَّانِي

مَعْ خَمْرَةٍ لَذَّتْ لِشَارِبِهَا بِلاَ ... غَوْلٍ وَلاَ ذَاءٍ وَلاَ نُقْصَانِ

[وَالْخَمْرُ فِي الدُّنْيَا فَهَذَا وَصْفُهَا ... لَكِنَّ عَقْلَ الشَّارِبِ السُّكْرَانِ]

وَبِهَا مِنَ الأَدْوَاءِ مَا هِيَ أَهْلُهُ ... وَبِخَالِفٍ مِنْ عَدَمٍ لِذِي الْوِجْدَانِ

فَنَفَى لَنَا الرَّحْمَنُ أَجْمَعَهَا عَنِ الْـ ... ـخَمْرِ الَّتِي فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ

وَشَرَابُهُمْ مِنْ سَلْسَبِيلٍ مَزْجُهُ الْـ ... ـكَافُورُ ذَاكَ شَرَابُ ذِي الإِحْسَانِ

هَذَا شَرَابُ أُولِي الْيَمِينِ وَلَكِنِ الْـ ... أَبْرَارُ شَرْبَتُهُمْ سَوَامٌ قَانِ

يُدْعَى بِتَسْنِيمٍ سَنَامٌ شَرَابُهُمْ ... شَرْبُ الْمُقَرَّبِ خَيْرَةِ الرَّحْمَنِ

صَفْوُ الْمُقَرَّبِ سَعْيُهُ فَصَفَا لَهُ ... ذَاكَ الشَّرَابُ فَلَيْسَ تَصْفِيقَانِ

لَكِنَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ فَأَهْلُ مَزْ ... جٍ بِالْبَاحِ وَلَيْسَ بِالْعُصْيَانِ

مُزِجَ الشَّرَابُ لَهُمْ كَمَا مَزَجُوا هُمُ الْـ ... أَعْمَالَ ذَاكَ الْمَزْجُ بِالْمِيزَانِ

هَذَا وَذُو التَّخْلِيطِ مَزْجًا أَمْرُهُ ... وَالْحُكْمُ فِيهِ لِرَبِّهِ الدَّيَّانِ

فصل
في مصرف طعامهم وشرابهم وهضمه

هَـذَا وَتَصْـرِيفُ الْمَآكِـلِ مِـنْهُمُ ... عَـرَقٌ يَفِيضُ لَهُـمْ مِـنَ الأَبْـدَانِ
كَرَوَائِحِ الْمِسْكِ الَّـذِي مَا فِيهِ خَلْـ ... ـطٌ غَيْرُهُ مِـنْ سَائِرِ الأَلْـوَانِ
فَتَعُـودُ هَاتِيكَ الْبُطُونُ ضَوَامِرًا ... تَبْقِي الطَّعَامَ عَلَـى مَـدَى الأَزْمَـانِ
لاَ غَـائِطٌ فِيهَـا وَلاَ بَـوْلٌ وَلاَ ... مَخْـطٌ وَلاَ بَصْـقٌ مِـنَ الإِنْسَـانِ
وَلَهُـمْ جُشَـاءٌ رِيحُـهُ مِسْـكٌ يَكُـو ... نُ بِـهِ تَمَـامُ الْهَضْـمِ بِالإِحْسَـانِ
هَـذَا وَهَـذَا صَـحَّ عَنْـهُ فَوَاحِـدٌ ... فِـي مُسْـلِمٍ وَلأَحْمَـدَ الأَثَـرَانِ

فصل
في لباس أهل الجنة

وَهُـمُ الْمُلُـوكُ عَلَـى الأَسِـرَّةِ فَـوْقَ مَـا ... تِـيجَانُ الـرُّءُوسِ مُرَصَّـعُ التِّيجَـانِ
وَلِبَاسُـهُمْ مِـنْ سُـنْدُسٍ خُضْـرٍ وَمِـنْ ... إِسْـتَبْرَقٍ نَوْعَـانِ مَعْرُوفَـانِ[1]
مَـا ذَاكَ مِـنْ دُودٍ بَنَـى مِـنْ فَوْقِـهِ ... تِلْـكَ الْبُيُـوتَ وَعَـادَ ذَا الطَّـيَرَانِ
كَـلاَّ وَلاَ نُسِـجَتْ عَلَـى الْمِنْـوَالِ لَمْـ ... ـسِجَ ثِيَابُنَـا بِـالْقُطْنِ وَالْكَتَّـانِ
لَكِنَّهَـا حُلَـلٌ تَشُـقُّ لِثَمَارِهَـا ... عَنْهَـا رَأَيْـتَ شَـقَائِقَ الرُّمَّـانِ
بِـيضٌ وَخُضْـرٌ ثُـمَّ صُفْرٌ ثُـمَّ حُمْـ ... ـرٌ كَالرِّيَـاضِ بِأَحْسَـنِ الأَلْـوَانِ
لاَ تَقْـرَبُ الـدَّنَسَ الْمُقَـرِّبَ لِلْبِلَـى ... مَـا لِلْبِلَـى فِـيهِنَّ مِـنْ سُـلْطَانِ
وَتَصِـيفُ إِخْـدَامُهُنَّ وَهُـوَ حِمَارُهَـا ... لَيْسَـتْ لَـهُ الـدُّنْيَا مِـنَ الأَثْمَـانِ
سَـبْعُونَ مِـنْ حُلَـلٍ عَلَيْهَـا لاَ تَعُـو ... قُ الطَّـرْفَ عَـنْ مُـخٍّ وَرَا السَّـاقَانِ
لَكِـنْ بِـرَاهُ مِـنْ وَرَا ذَا كُلِّـهِ ... مِثْـلَ الشَّـرَابِ لِـذِي زُجَـاجٍ أَوَانِ

---

(١) كذا في (ط، ق، س) وفي (خ) [مختلفان].

فصل

في فرشهم وما يتبعها

وَالْفُرْشُ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ قَدْ بُطِّنَتْ ... مَا ظَنُّكُمْ بِظَهَارَةٍ لِبِطَانِ

مَرْفُوعَةٌ فَوْقَ الأَسِرَّةِ يَتْكِي ... هُوَ وَالْحَبِيبُ بِخَلْوَةٍ وَأَمَانِ

يَتَحَدَّثَانِ عَلَى الأَرَائِكِ مَا تَرَى ... حِبَّيْنِ فِي الْخَلَوَاتِ يَنْتَجِيَانِ

هَذَا وَكَمْ زَرْبِيَّةٍ وَنَمَارِقٍ ... وَوَسَائِدٍ صُفَّتْ بِلاَ حُسْبَانِ

فصل

في حَلْي أهل الجنة

وَالْحَلْيُ أَصْفَى لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ ... وَكَذَاكَ أَسْوِرَةٌ مِنَ الْعِقْيَانِ

مَا ذَاكَ يَخْتَصُّ الإِنَاثَ وَإِنَّمَا ... هُوَ لِلإِنَاثِ كَذَاكَ لِلذُّكْرَانِ

التَّارِكِينَ لِبَاسَهُ فِي هَذِهِ الدُّ ... نْيَا لأَجْلِ لِبَاسِهِ بِجِنَانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّ حِلْيَتَهُمْ إِلَى ... حَيْثُ انْتِهَاءِ وَضُوئِهِمْ بِوِزَانِ

وَكَذَا وُضُوءُ أَبِي هُرَيْرَةَ كَانَ قَدْ ... فَازَتْ بِهِ الْعَضُدَانِ وَالسَّاقَانِ

وَسِوَاهُ أَنْكَرَ ذَا عَلَيْهِ قَائِلاً ... مَا السَّاقُ مَوْضِعُ حِلْيَةِ الإِنْسَانِ

مَا ذَاكَ إِلاَّ مَوْضِعُ الْكَعْبَيْنِ وَالزَّ ... زَنْدَيْنِ لاَ السَّاقَانِ وَالْعَضُدَانِ

وَكَذَاكَ أَهْلُ الْفِقْهِ مُخْتَلِفُونَ فِي ... هَذَا وَفِيهِ عِنْدَهُمْ قَوْلاَنِ

وَالرَّاجِحُ الأَقْوَى انْتِهَاءُ وُضُوئِنَا ... لِلْمِرْفَقَيْنِ كَذَلِكَ الْكَعْبَانِ

هَذَا الَّذِي قَدْ حَدَّهُ الرَّحْمَنُ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ لاَ تَعْدِلْ عَنِ الْقُرْآنِ

وَاحْفَظْ حُدُودَ الرَّبِّ لاَ تَتَعَدَّهَا ... وَكَذَاكَ لاَ تَجْنَحْ إِلَى النُّقْصَانِ

وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِ الرَّسُولِ تَجِدْهُ قَدْ ... أَبْدَى الْمُرَادَ وَجَاءَ بِالتِّبْيَانِ

وَمَنِ اسْتَطَاعَ يَطِيلُ غُرَّتَهُ فَمَوْ ... قُوفٌ عَلَى الرَّاوِي هُوَ الْفَوْقَانِي

فَأَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ ذَا مِنْ كَيْسِهِ ... فَغَدَا يَمِيزُهُ أُولُو الْعِرْفَانِ

وَنُعَيْمٍ الرَّاوِي لَهُ قَدْ شَكَّ فِي ... رَفْعِ الْحَدِيثِ كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي

وَإِطَالَةُ الْعُرَّاتِ لَيْسَ بِمُمْكِنٍ أَبَدًا وَذَا فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

فصل

في صفة عرائس الجنة وحسنهن وجمالهن ولذة وصالهن ومهورهن

يَا مَنْ يَطُوفُ بِكَعْبَةِ الْحُسْنِ الَّتِي حُفَّتْ بِذَاكَ الْحِجْرِ وَالْأَرْكَانِ
وَيَظَلُّ يَسْعَى دَائِمًا حَوْلَ الصَّفَا وَمُحَسِّرٍ مَسْعَاهُ لَا الْعَلَمَانِ
وَيَرُومُ قُرْبَانَ الْوِصَالِ عَلَى مِنًى وَالْخِيفُ يَحْجُبُهُ عَنِ الْقُرْبَانِ
فَلِذَا تَرَاهُ مُحْرِمًا أَبَدًا وَمَوْ ضِعُ حِلِّهِ مِنْهُ فَلَيْسَ بِدَانِ
يَبْغِي التَّمَتُّعَ مُفْرِدًا مِنْ حُبِّهِ مُتَجَرِّدًا يَبْغِي شَفِيعَ قِرَانِ
فَيَظَلُّ بِالْجَمَرَاتِ يَرْمِي قَلْبَهُ هَذِي مَنَاسِكُهُ بِكُلِّ زَمَانِ
وَالنَّاسُ قَدْ قَضَوْا مَنَاسِكَهُمْ وَقَدْ حَثُّوا رَكَائِبَهُمْ إِلَى الْأَوْطَانِ
وَحَدَتْ بِهِمْ هِمَمٌ لَهُمْ وَعَزَائِمٌ نَحْوَ الْمَنَازِلِ أَوَّلَ الْأَزْمَانِ
رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلَامُ الْوِصَا لِ فَشَمَّرُوا يَا خَيْبَةَ الْكَسْلَانِ
وَرَأَوْا عَلَى بُعْدٍ خِيَامًا مُشْرِقَا تٍ مُشْرِقَاتِ النُّورِ وَالْبُرْهَانِ
فَتَيَمَّمُوا تِلْكَ الْخِيَامَ فَآنَسُوا فِيهِنَّ أَقْمَارًا بِلَا نُقْصَانِ
مِنْ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَا تَبْغِي سِوَى مَحْبُوبِهَا مِنْ سَائِرِ الشُّبَّانِ
قَصَرَتْ عَلَيْهِ طَرْفَهَا مِنْ حُسْنِهِ وَالطَّرْفُ فِي ذَا الْوَجْهِ لِلنِّسْوَانِ
أَوْ أَنَّهَا قَصَرَتْ عَلَيْهِ طَرْفَهُ مِنْ حُسْنِهَا فَالطَّرْفُ لِلذُّكْرَانِ
وَالْأَوَّلُ الْمَعْهُودُ مِنْ وَضْعِ الْخِطَا بِ فَلَا تَحِدْ عَنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ
وَلَرُبَّمَا دَلَّتْ إِشَارَتُهُ عَلَى الثَّـ ـانِي فَتِلْكَ إِشَارَةٌ لِمَعَانِ
هَذَا وَلَيْسَ الْقَاصِرَاتُ كَمَنْ غَدَتْ مَقْصُورَةً فَهُمَا إِذًا صِنْفَانِ
يَا مُطْلِقَ الطَّرْفِ الْمُعَذَّبِ فِي الْأُلَى جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ إِحْسَانِ
لَا تَسْبِيَنَّكَ صُورَةٌ مِنْ تَحْتِهَا الدَّ دَاءُ الدَّوِي تَبُوءُ بِالْخُسْرَانِ

فَبَحَثْتُ خَلَائِقَهَا وَفَتَّشْتُ فِعْلَهَا ... شَيْطَانَةٌ فِي صُورَةِ الإِنْسَانِ

تَنْقَادُ لِلأَنْذَالِ وَالأَرْذَالِ هُمْ ... أَكْفَاؤُهَا مِنْ دُونِ ذِي الإِحْسَانِ

مَا ثَمَّ مِنْ دِينٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا ... خُلُقٍ وَلَا خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَخَبَالُهَا زُورٌ وَمَصْنُوعٌ فَإِنْ ... تَرَكَتْهُ لَمْ تَطْمَحْ لَهَا الْعَيْنَانِ

طُبِعَتْ عَلَى تَرْكِ الْجِفَاظِ فَمَا لَهَا ... بِوَفَاءِ حَقِّ الْبَعْلِ قَطُّ يَدَانِ

إِنْ قَصَّرَ السَّاعِي عَلَيْهَا سَاعَةً ... قَالَتْ وَهَلْ أُوتِيتَ مِنْ إِحْسَانِ

أَوْ رَامَ تَقْوِيمًا لَهَا اسْتَعْصَتْ وَلَمْ ... تَقْبَلْ سِوَى التَّعْوِيجِ وَالنُّقْصَانِ

أَفْكَارُهَا فِي الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ الَّذِي ... قَدْ حَارَ فِيهِ لُكَرَةُ الإِنْسَانِ

فَجَمَالُهَا قِشْرٌ رَقِيقٌ لَحْتَهُ ... مَا شِئْتَ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

نَقْدٌ رَدِيءٌ قَوْلُهُ مِنْ فِعْلِهِ ... شَيْءٌ يَظُنُّ بِهِ مِنَ الأَنْيَانِ

فَالنَّاقِدُونَ يَرَوْنَ مَاذَا لَحْتَهُ ... وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْعُمْيَانِ

أَمَّا جَمِيلَاتُ الْوُجُوهِ فَحَانَتَا ... تْ بُعُولِهِنَّ وَهُنَّ لِلأَخْدَانِ

وَالْحَافِظَاتُ الْغَيْبِ مِنْهُنَّ الَّتِي ... قَدْ أَصْبَحَتْ فَرْدًا مِنَ النُّسْوَانِ

فَانْظُرْ مَصَارِعَ مَنْ يَلِيكَ وَمَنْ خَلَا ... مِنْ قَبْلِ مِنْ شَيْبٍ وَمِنْ شُبَّانِ

وَارْغَبْ بِعَقْلِكَ أَنْ تَبِيعَ الْغَالِيَ الْـ ... ـبَاقِي بِهَذَا الأَدْنَى الَّذِي هُوَ فَانِ

إِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَاكَ خُودٌ مِثْلُ مَا ... لَعِبَتْ وَلَمْ تَظْفَرْ إِلَى ذَا الآنِ

فَاخْطُبْ مِنَ الرَّحْمَنِ خُودًا ثُمَّ قَدْ ... دُمْتَ فَهَرْهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

ذَاكَ النِّكَاحُ عَلَيْكَ أَيْسَرُ إِنْ يَكُنْ ... لَكَ بُغْيَةٌ لِلْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَاللهِ لَمْ تَخْرُجْ إِلَى الدُّنْيَا لِلَذْ ... ذَةِ عَيْشِهَا أَوْ لِلْحُطَامِ الْفَانِي

لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تُعِدَّ الزَّادَ لِلْـ ... أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الْخُسْرَانِ

أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ ... فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

وَاللهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ سَلِيمَةٌ ... لَتَقَطَّعَتْ أَسَفًا مِنَ الْحِرْمَانِ

لَكِنَّهَا سَكْرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدْ ... دُنْيَا وَسَوْفَ تَفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

فصل

فَاسْمَعْ صِفَاتِ غَرَائِبِ الْجَنَّاتِ ثُمَّ ... مَ اخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ

حُورٌ حِسَانٌ قَدْ كَمُلْنَ خَلَائِقًا ... وَمَحَاسِنًا مِنْ أَجْمَلِ النِّسْوَانِ

حَتَّى يَحَارُ الطَّرْفُ فِي الْحُسْنِ الَّذِي ... قَدْ أُلْبِسَتْ فَالطَّرْفُ كَالْحَيْرَانِ

وَيَقُولُ لَسْنَا أَنْ يُشَاهِدَ حُسْنَهَا ... سُبْحَانَ مُعْطِي الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

وَالطَّرْفُ يَشْرَبُ مِنْ كُئُوسِ جَمَالِهَا ... فَتَرَاهُ مِثْلَ الشَّارِبِ النَّشْوَانِ

كَمُلَتْ خَلَائِقُهَا وَأَكْمَلَ حُسْنَهَا ... كَالْبَدْرِ لَيْلَ السِّتِّ بَعْدَ ثَمَانِ

وَالشَّمْسُ تَجْرِي فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهَا ... وَاللَّيْلُ تَحْتَ ذَوَائِبِ الأَغْصَانِ

فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهُوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِنْ ... لَيْلٍ وَشَمْسٍ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

فَيَقُولُ سُبْحَانَ الَّذِي ذَا صُنْعُهُ ... سُبْحَانَ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإِنْسَانِ

لَا اللَّيْلُ يُدْرِكُ شَمْسَهَا فَتَغِيبَ عَنْـ ... ـهُ مَجِيئُهُ حَتَّى الصَّبَاحِ الثَّانِي

وَالشَّمْسُ لَا تَأْتِي بِطَرْدِ اللَّيْلِ بَلْ ... يَتَصَاحِبَانِ كَإِلْفَيْنَا أَخَوَانِ

وَكِلَاهُمَا مِرْآةُ صَاحِبِهِ إِذَا ... مَا شَاءَ يُبْصِرُ وَجْهَهُ بِيَدَانِ

فَيَرَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ فِي وَجْهِهَا ... وَتَرَى مَحَاسِنَهَا بِهِ بِعِيَانِ

حُمْرُ الْخُدُودِ تُغَارُ مِنْ لَآلِيِّ ... سُودُ الْعُيُونِ فَوَاتِرُ الأَجْفَانِ

وَالْبَرْقُ يَبْدُو حِينَ يَبْسِمُ نَغْرُهَا ... فَيَضِيءُ سَقْفُ الْقَصْرِ بِالْجُدْرَانِ

وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّ بَرْقًا سَاطِعًا ... يَبْدُو فَيَسْأَلُ عَنْهُ مَنْ بِجِنَانِ

فَيُقَالُ هَذَا ضَوْءُ ثَغْرِ حَاحِكِ ... فِي الْجَنَّةِ الْعُلْيَا كَمَا تُرْبَانِ

فَهُ لَاثِمُ ذَلِكَ الثَّغْرِ الَّذِي ... فِي ثَغْرِهِ إِدْرَاكُ كُلِّ أَمَانِ

رَيَّانَةُ الأَعْطَافِ مِنْ مَاءِ الشَّبَا ... بِ فَعُصْنُهَا بِالْمَاءِ ذُو خَرَبَانِ

لَمَّا جَرَى مَاءُ النَّعِيمِ بِعُصْنِهَا ... حَمَلَ الثِّمَارَ كَثِيرَةَ الأَلْوَانِ

فَالْوَرْدُ وَالتُّفَّاحُ وَالرُّمَّانُ فِي ... غُصْنٍ لِغَالِي غَارِسِ الْبُسْتَانِ

وَالْقَدُّ مِنْهَا كَالْقَضِيبِ اللَّدْنِ فِي ... حُسْنِ الْقَوَامِ كَأَوْسَطِ الْقُضْبَانِ

فِي مَغْرِسٍ كَالْعَاجِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... غَالِي اللُّقَا أَوْ وَاحِدُ الْكُثْبَانِ

لاَ الظَّهْرُ يَلْحَقُهَا وَلَيْسَ تُدِيبُهَا ... بِلَوَاحِقِ الْبَطْنِ أَوْ بِدَوَانِ

لَكِنَّهُنَّ كَوَاعِبٌ وَنَوَاهِدٌ ... فَتُدِيبُهُنَّ كَأَلْطَفِ الرُّمَّانِ

وَالْجِيدُ ذُو طُولٍ وَحُسْنٍ فِي بَيَا ... ضٍ وَاعْتِدَالٍ لَيْسَ ذَا لِكَرَانِ

يَشْكُو الْحُلِيَّ بِعَادَةٍ قَلَّهُ مَدَى الْـ ... أَيَّامِ وَسْوَاسٌ مِنَ الْهِجْرَانِ

وَالْمِعْصَمَانِ فَإِنْ تَشَأْ شَبَّهْتَهُمَا ... بِسَبِيكَتَيْنِ عَلَيْهِمَا كَفَّانِ

كَالزَّبَدِ لَيْنًا فِي نُعُومَةِ مَلْمَسٍ ... أَضْعَافُ دُرٍّ دُوِّرَتْ بِوَزَانِ

وَالصَّدْرُ مُتَّسِعٌ عَلَى بَطْنٍ لَهَا ... حُفَّتْ بِهِ خَصْرَانِ ذَاتُ ثَمَانِ

وَعَلَيْهِ أَحْسَنُ سُرَّةٍ هِيَ مَجْمَعُ الْـ ... خَصْرَيْنِ قَدْ غَارَتْ مِنَ الأَعْكَانِ

خُلُقٌ مِنَ الْعَاجِ اسْتَذَارَ وَحَوْلَهُ ... حَبَّاتُ مِسْكٍ جَلَّ ذُو الإِتْقَانِ

وَإِذَا الْحَدَرْتَ رَأَيْتَ أَمْرًا هَائِلاً ... مَا لِلصِّفَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

لاَ الْحَيْضُ يَغْشَاهُ وَلاَ بَوْلٌ وَلاَ ... شَيْءٌ مِنَ الآفَاتِ فِي النِّسْوَانِ

فَخْذَانِ قَدْ حَفَّا بِهِ حَرَسًا لَهُ ... فَجَنَابُهُ فِي عِزَّةٍ وَصِيَانِ

قَامَا بِخِدْمَتِهِ هُوَ السُّلْطَانُ بَيْـ ... ـنَهُمَا وَحَقُّ طَاعَةِ السُّلْطَانِ

وَهُوَ الْمُطَاعُ أَمِيرُهُ لاَ يَنْثَنِي ... عَنْهُ وَلاَ هُوَ عِنْدَهُ بِجَبَانِ

وَجِمَاعُهَا فَهُوَ الشِّفَاءُ لِصَبِّهَا ... فَالصَّبُّ مِنْهُ لَيِّنُ الصَّفْرَانِ

وَإِذَا جَامَعْتَهَا تَعُودُ كَمَا أَتَتْ ... بِكْرًا بِغَيْرِ دَمٍ وَلاَ نُقْصَانِ

فَهُوَ الشَّهِيُّ وَعُضْوُهُ لاَ يَنْثَنِي ... جَاءَ الْحَدِيثُ بِذَا بِلاَ نُكْرَانِ

وَلَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ شُغْلَهُمُ الَّذِي ... قَدْ جَاءَ فِي بِسْ دُونَ بَيَانِ

شُغْلُ الْعَرُوسِ بِعُرْبِهِ مِنْ بَعْدِ مَا ... عَنَّتْ بِهِ الأَشْوَاقُ طُولَ زَمَانِ

بَاقٍ لاَ تَسْأَلُهُ عَنْ أَشْغَالِهِ ... تِلْكَ اللَّيَالِي شَأْنُهُ ذُو شَانِ

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً بِضَبٍّ غَابَ عَنْ ... مَحْبُوبِهِ فِي شَامِخِ الْبُلْدَانِ

وَالشَّوْقُ يَزْعِجُهُ إِلَيْهِ وَمَا لَهُ ... بِلِقَائِهِ سَبَبٌ مِنَ الإِمْكَانِ

وَأَفَى إِلَيْهِ بَعْدَ طُولِ تَغَيُّبِهِ ... عَنْهُ وَصَارَ الْوَصْلُ ذَا إِمْكَانِ

أَتُلُومُهُ إِنْ صَارَ ذَا شُغْلٍ بِهِ ... لاَ وَالَّذِي أَعْطَى بِلاَ حُسْبَانِ

يا رَبُّ غَفْرًا قَدْ طَغَتْ أَقْلامُنا ... يا رَبُّ مَعْذِرَةً مِنَ الطُّغْيانِ

فصل

أَقْدامُها مِنْ فِضَّةٍ قَدْ رُكِّبَتْ ... مِنْ فَوْقِها ساقانِ مُلْتَفّانِ
وَالسّاقُ مِثْلُ الْعاجِ مَلْمُومٌ يَرى ... مُخُّ الْعِظامِ وَراءَهُ بَعْيانِ
وَالرِّيحُ مِسْكٌ وَالْجُسُومُ نَواعِمٌ ... وَاللَّوْنُ كَالْياقُوتِ وَالْمَرْجانِ
وَكَلامُها يَسْبِي الْعُقُولَ بِنَغْمَةٍ ... زادَتْ عَلَى الأَوْتارِ وَالْعِيدانِ
وَهِيَ الْعَرُوبُ بِشَكْلِها وَبِدَرِّها ... وَتَحَبُّبٍ لِلزَّوْجِ كُلَّ أَوانِ
وَهِيَ الَّتِي عِنْدَ الْجِماعِ تَزِيدُ فِي ... حَرَكاتِها لِلْعَيْنِ وَالأُذُنانِ
لُطْفًا وَحُسْنَ تَبَعُّلٍ وَتَغَنُّجٍ ... وَتَحَبُّبٍ تَفْسِيرَ ذِي الْعِرْفانِ
تِلْكَ الْحَلاوَةُ وَالْمَلاحَةُ أَوْجَبا ... إِطْلاقَ هَذا اللَّفْظِ وَضْعَ لِسانِ
فَمَلاحَةُ التَّصْوِيرِ قَبْلَ عِناجِها ... هِيَ أَوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثّانِي
فَإِذا هُما اجْتَمَعا لِصَبٍّ وامِقٍ ... بَلَغَتْ بِهِ اللَّذّاتُ كُلَّ مَكانِ

فصل

أَتْرابُ سِنٍّ واحِدٍ مُتَماثِلٍ ... سِنُّ الشَّبابِ لأَجْمَلِ الشُّبّانِ
بِكْرٌ فَلَمْ يَأْخُذْ بَكارَتَها سِوَى الْـ ... ـمَحْبُوبِ مِنْ إِنْسٍ وَلا مِنْ جانِ
حِصْنٌ عَلَيْهِ حارِسٌ مِنْ أَعْظَمِ الْـ ... ـحُرّاسِ بَأْسًا شَأْنُهُ ذُو شانِ
فَإِذا أَحَسَّ بِداخِلٍ لِلْحِصْنِ وَلْـ ... ـلَى هارِبًا فَتَراهُ ذا إِمْعانِ
وَيَعُودُ وَهْنًا حِينَ رَبُّ الْحِصْنِ يَخْـ ... ـرُجُ مِنْهُ فَهْوَ كَذا مَدَى الأَزْمانِ
وَكَذا رَواهُ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّها ... تَنْصاعُ بِكْرًا لِلْجِماعِ الثّانِي
كُنْ دَرّاجًا أَبا السَّمْحِ الَّذِي ... فِيهِ يُضَعِّفُهُ أُولُو الإِتْقانِ
هَذا وَبَعْضُهُمُ يَصْحَحُ عَنْهُ فِي التَّـ ... ـفْسِيرِ كَالْمَوْلُودِ مِنْ حَيّانِ

فحديثُهُ دونَ الصحيحِ وإنَّهُ ... فوقَ الضعيفِ وليسَ ذا إتقانِ
يعطي المجامعُ قوةَ المائةِ التي اجـ ... ـتمعتْ لأقوى واحدِ الإنسانِ
لا أنَّ قوتَهُ تضاعفُ هكذا ... إذ قد يكونُ لأضعفِ الأركانِ
ويكونُ أقوى منهُ ذا نقصٍ من الـ ... ـإيمانِ والأعمالِ والإحسانِ
ولقد روينا أنَّهُ يغشى بيو ... مٍ واحدٍ مائةً من النسوانِ
ورجالُهُ شرطُ الصحيحِ رووا لهم ... فيهِ وذا في معجمِ الطبراني
هذا دليلٌ أنَّ قدرَ نسائهم ... متفاوتٌ بتفاوتِ الإيمانِ
وبهِ يزولُ توهُّمُ الإشكالِ عن ... تلكَ النصوصِ بمنةِ الرحمنِ
وبقوةِ المائةِ التي حصلتْ لهُ ... أفضى إلى مائةٍ بلا خورانِ
وأعفُّهم في هذهِ الدنيا هو الـ ... ـأقوى هناكَ لزهدِهِ في الفاني
فاجمعْ قواكَ لما هناكَ وغمِّضِ الـ ... ـعينينِ واصبرْ ساعةً لزمانِ
ما ها هنا واللهِ ما يسوي قلا ... مةَ ظفرٍ واحدةٍ ترى بجنانِ
ما ها هنا إلا النقارُ وسيئُ الـ ... ـأخلاقِ مع عيبٍ ومع نقصانِ
همٌّ وغمٌّ دائمٌ لا ينتهي ... حتى الطلاقِ أو الفراقِ الثاني
واللهُ قد جعلَ النساءَ عوانيا ... شرعًا فأضحى البعلُ وهو العاني
لا تؤثرِ الأدنى على الأعلى فإنْ ... تفعلْ رجعتْ بذلةٍ وهوانِ

فصل

وإذا بدتْ في حلةٍ من لبسِها ... وتمايلتْ كتمايلِ النشوانِ
تهتزُّ كالغصنِ الرطيبِ وحملُهُ ... وردٌ وتفاحٌ على رمانِ
وتبخترتْ في مشيِها ويحقُّ ذا ... كَ لمثلِها في جنةِ الحيوانِ
ووصائفٌ من خلفِها وأمامِها ... وعلى شمائلِها وعن أيمانِ
كالبدرِ ليلةَ تمِّهِ قد حفَّ في ... غسقِ الدجى بكواكبِ الميزانِ
فلسانُهُ وفؤادُهُ والطرفُ في ... دهشٍ وإعجابٍ وفي سبحانِ

فَالْقَلْبُ قَبْلَ زِفَافِهَا فِي عُرْسِهِ ... وَالْعُرْسُ إِثْرَ الْعُرْسِ مُتَّصِلَانِ
حَتَّى إِذَا مَا وَاجَهَتْهُ تَقَابَلَا ... أَرَأَيْتَ إِذْ يَتَقَابَلُ الْقَمَرَانِ
فَسَلِ الْمُتَيَّمَ هَلْ يَحِلُّ الصَّبْرُ عَنْ ... ضَمٍّ وَتَقْبِيلٍ وَعَنْ فَلَتَانِ
وَسَلِ الْمُتَيَّمَ أَيْنَ خَلَّفَ صَبْرَهُ ... فِي أَيِّ وَادٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانِ
وَسَلِ الْمُتَيَّمَ كَيْفَ حَالَّتُهُ وَقَدْ ... مُلِئَتْ لَهُ الْأُذُنَانِ وَالْعَيْنَانِ
مِنْ مَنْطِقٍ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَوَجْـ ... ـهٍ كَمْ بِهِ لِلشَّمْسِ مِنْ جَرَيَانِ
وَسَلِ الْمُتَيَّمَ كَيْفَ عِيشَتُهُ إِذًا ... وَهُمَا عَلَى فَرْشَيْهِمَا خَلْوَانِ
يَتَسَاقَطَانِ لَآلِئًا مَنْثُورَةً ... مِنْ بَيْنِ مَنْظُومٍ كَنَظْمِ جُمَانِ
وَسَلِ الْمُتَيَّمَ كَيْفَ مَجْلِسُهُ مَعَ الْـ ... ـمَحْبُوبِ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ
وَتَدُورُ كَاسَاتُ الرَّحِيقِ عَلَيْهِمَا ... بِأَكُفِّ أَقْمَارٍ مِنَ الْوِلْدَانِ
يَتَنَازَعَانِ الْكَأْسَ هَذَا مَرَّةً ... وَالْخُودُ أُخْرَى ثُمَّ يَتَّكِئَانِ
فَيَضُمُّهَا وَتَضُمُّهُ أَرَأَيْتَ مَعْـ ... ـشُوقَيْنِ بَعْدَ الْبُعْدِ يَلْتَقِيَانِ
غَابَ الرَّقِيبُ وَغَابَ كُلُّ مُنَكِّدٍ ... وَهُمَا بِثَوْبِ الْوَصْلِ مُشْتَمِلَانِ
أَتَرَاهُمَا ضَجِرَيْنِ مِنْ ذَا الْعَيْشِ لَا ... وَحَيَاةِ رَبِّكَ مَا هُمَا ضَجِرَانِ
وَيَزِيدُ كُلٌّ مِنْهُمَا حُبًّا لِصَا ... حِبِهِ جَدِيدًا سَائِرَ الْأَزْمَانِ
وَوِصَالُهُ يَكْسُوهُ حُبًّا بَعْدَهُ ... مُتَسَلْسِلًا لَا يَنْتَهِي بِزَمَانِ
فَالْوَصْلُ مَحْفُوفٌ بِحُبٍّ سَابِقٍ ... وَبِلَاحِقٍ وَكِلَاهُمَا صِنْوَانِ
فَرْقٌ لَطِيفٌ بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنَ ذَا ... يَدْرِيهِ ذُو شُغْلٍ بِهَذَا الشَّانِ
وَمَزِيدُهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حَاصِلٌ ... سُبْحَانَ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ
يَا غَافِلًا عَمَّا خُلِقْتَ لَهُ انْتَبِهْ ... جَدَّ الرَّحِيلُ فَلَسْتَ بِالْيَقْظَانِ
سَارَ الرِّفَاقُ وَخَلَّفُوكَ مَعَ الْأُلَى ... قَنَعُوا بِذَا الْحَظِّ الْخَسِيسِ الْفَانِي
وَرَأَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى مُتَخَلِّفًا ... فَتَبِعْتَهُمْ وَرَضِيتَ بِالْحِرْمَانِ
لَكِنْ أَتَيْتَ بِخُطَّتَيْ عَجْزٍ وَجَهْـ ... ـلٍ بَعْدَ ذَا وَصَحِبْتَ كُلَّ أَمَانِ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بِاللَّحَاقِ مَعَ الْقُعُو ... دِ عَنِ الْمَسِيرِ وَرَاحَةِ الْأَبْدَانِ

وَلَسَوْفَ تَعْلَمُ حِينَ يَنْكَشِفُ الْغِطَا مَاذَا صَنَعْتَ وَكُنْتَ ذَا إِمْكَانِ

فصل
في ذكر الخلاف بين الناس:
هل تحبل نساء أهل الجنة أم لا؟

وَالنَّاسُ بَيْنَهُمُ خِلَافٌ هَلْ بِهَا حَبَلٌ وَفِي هَذَا لَهُمْ قَوْلَانِ
فَنَفَاهُ طَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ ثُمَّ مُجَاهِدٌ وَهُمُ أُولُو الْعِرْفَانِ
وَرَوَى الْعُقَيْلِيُّ الصَّدُوقُ أَبُو رَزِينٍ صَاحِبُ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
أَنْ لَا تَوَالُدَ فِي الْجِنَانِ رَوَاهُ لَيْـ ـسَ لِيقًا مُحَمَّدٌ الْعَظِيمُ الشَّانِ
وَحَكَاهُ عَنْهُ التِّرْمِذِي وَقَالَ إِسْـ ـحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ذُو الإِتْقَانِ
لَا يَشْتَهِي وَلَدًا بِهَا وَلَوِ اشْتَهَا هُ لَكَانَ ذَاكَ مُحَقَّقَ الإِمْكَانِ
وَرَوَى هِشَامٌ لابْنِهِ عَنْ عَامِرٍ عَنْ نَاجٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ بَنَانِ
أَنَّ الْمُنَعَّمَ بِالْجِنَانِ إِذَا اشْتَهَى الْـ ـوَلَدَ الَّذِي هُوَ نُسْخَةُ الإِنْسَانِ
فَالْحَمْلُ ثُمَّ الْوَضْعُ ثُمَّ السِّنُّ فِي فَرْدٍ مِنَ السَّاعَاتِ فِي الأَزْمَانِ
إِسْنَادُهُ عِنْدِي صَحِيحٌ قَدْ رَوَا هُ التِّرْمِذِي وَأَحْمَدُ الشَّيْبَانِي
وَرِجَالُ ذَا الإِسْنَادِ مُحْتَجٌّ بِهِمْ فِي مُسْلِمٍ وَهُمُ أُولُو إِتْقَانِ
لَكِنْ غَرِيبٌ مَا لَهُ مِنْ شَاهِدٍ فَرْدٌ بِهَذَا الإِسْنَادِ لَيْسَ بَانِ
لَوْلَا حَدِيثُ أَبِي رَزِينٍ كَانَ ذَا كَالنَّصِّ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ
وَلِذَاكَ أَوَّلَهُ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ بِالشَّـ ـرْطِ الَّذِي هُوَ مُنْتَفِي الْوِجْدَانِ
وَبِذَاكَ رَامَ الْجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِهِ وَأَبِي رَزِينٍ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ
هَذَا وَفِي تَأْوِيلِهِ نَظَرٌ فَإِنْ نَ إِذَا لِتَحْقِيقٍ وَذِي إِتْقَانِ
وَلَرُبَّمَا جَاءَتْ لِغَيْرِ لِتَحَقُّقٍ وَالْعَكْسُ فِي إِنْ ذَاكَ وَضْعٌ لِسَانِ
وَاحْتَجَّ مَنْ نَصَرَ الْوِلَادَةَ أَنَّ فِي الْـ ـجَنَّاتِ سَائِرَ شَهْوَةِ الإِنْسَانِ
وَاللهُ قَدْ جَعَلَ الْبَنِينَ مَعَ النِّسَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّهَوَاتِ فِي الْقُرْآنِ

فأجيب عنه بأنه لا يشتهي ... ولدا ولا حبلا من النسوان
واحتج من منع الولادة أنها ... ملزومة أمرين ممتنعان
حيض وإنزال المني وذانك الـ ... أمران في الجنات مفقودان
وروى صدي عن رسول الله أن ... ن منيهم إذ ذاك ذو فقدان
بل لا مني ولا منية هكذا ... يروي سليمان هو الطبراني
وأجيب عنه بأنه نوع سوى الـ ... ـمعهود في الدنيا من النسوان
فالنفي للمعهود في الدنيا من الـ ... إيلاد والإثبات نوع ثان
والله خالق نوعنا من أربع ... متقابلات كلها بوزان
ذكر وأنثى والذي هو ضده ... وكذاك من أنثى بلا نكران
والعكس أيضا مثل حوا أمنا ... هي أربع معلومة البنيان
وكذاك مولود الجنان يجوز أن ... يأتي بلا حيض ولا فيضان
والأمر في ذا ممكن في نفسه ... والقطع ممتنع بلا برهان

فصل

في رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى ونظرهم إلى وجهه الكريم

ويرونه سبحانه من فوقهم ... نظر العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم ... ينكره إلا فاسد الإيمان
وأتى به القرآن تصريحا وتعـ ... ـريضا هما بسياقه نوعان
وهي الزيادة قد أتت في يونس ... تفسير من قد جاء بالقرآن
ورواه عنه مسلم بصحيحه ... يروي صهيب ذا بلا كتمان
وهو المزيد كذاك فسره أبو ... بكر هو الصديق ذو الإيقان
وعليه أصحاب الرسول وتابعو ... هم بعدهم تبعية الإحسان
ولقد أتى ذكر اللقاء لربنا الر ... رحمن في سور من الفرقان

وَلِقَاؤُهُ إِذْ ذَاكَ رُؤْيَتُهُ حَكَى الْـ ... إِجْمَاعَ فِيهِ جَمَاعَةٌ بِبَيَانِ
وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ ... لُغَةً وَعُرْفًا لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ
هَذَا وَيَكْفِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... وَصَفَ الْوُجُوهَ بِنَظْرَةٍ بِجِنَانِ
وَأَعَادَ أَيْضًا وَصْفَهَا نَظَرًا وَذَا ... لَا شَكَّ يَفْهَمُ رُؤْيَةً بِعِيَانِ
وَأَتَتْ أَدَاةٌ إِلَى لِرَفْعِ الْوَهْمِ مِنْ ... فِكْرٍ كَذَاكَ تَرَقُّبُ الْإِنْسَانِ
وَإِضَافَةٌ لِمَحَلِّ رُؤْيَتِهِمْ بِذِكْـ ... ـرِ الْوَجْهِ إِذْ قَامَتْ بِهِ الْعَيْنَانِ
تَاللهِ مَا هَذَا بِفِكْرٍ وَانْتِظَا ... رِ مُغَيَّبٍ أَوْ رُؤْيَةٍ لِجِنَانِ
مَا فِي الْجِنَانِ مِنَ انْتِظَارِ مُؤْلِمٍ ... وَاللَّفْظُ يَأْبَاهُ لِذِي الْعِرْفَانِ
لَا تُفْسِدُوا لَفْظَ الْكِتَابِ فَلَيْسَ فِيـ ... ـهِ حِيلَةٌ يَا فِرْقَةَ الرَّوَغَانِ
مَا فَوْقَ ذَا التَّصْرِيحِ شَيْءٌ مَا الَّذِي ... يَأْتِي بِهِ مِنْ بَعْدِ ذَا التِّبْيَانِ
لَوْ قَالَ أَبْيَنَ مَا يَقَالُ لَقُلْتُمُ ... هُوَ مُجْمَلٌ مَا فِيهِ مِنْ تِبْيَانِ
وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ التَّطْفِيفِ أَنْ ... نَ الْقَوْمَ قَدْ حُجِبُوا عَنِ الرَّحْمَنِ
فَيَدُلُّ بِالْمَفْهُومِ أَنَّ الْمُؤْمِنِيـ ... ـنَ يَرَوْنَهُ فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ
وَبِذَا اسْتَدَلَّ الشَّافِعِي وَأَحْمَدٌ ... وَسِوَاهُمَا مِنْ عَالِمِي الْأَزْمَانِ
وَأَتَى بِذَا الْمَفْهُومِ تَصْرِيحًا بِآ ... خِرِهَا فَلَا تُخْدَعْ عَنِ الْقُرْآنِ
وَأَتَى بِذَاكَ مُكَذِّبًا لِلْكَافِرِيـ ... ـنَ السَّاخِرِينَ بِشِيعَةِ الرَّحْمَنِ
ضَحِكُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَوْمَئِذٍ كَمَا ... ضَحِكُوا هُمُ مِنْهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ
وَأَثَابَهُمْ نَظَرًا إِلَيْهِ ضِدَّ مَا ... قَدْ قَالَهُ فِيهِمْ أُولُوا الْكُفْرَانِ
فَلِذَاكَ فَسَّرَهَا الْأَئِمَّةُ أَنَّهُ ... نَظَرٌ إِلَى الرَّبِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ
لِلهِ ذَاكَ الْفَهْمُ يُؤْتِيهِ الَّذِي ... هُوَ أَهْلُهُ مَنْ جَادَ بِالْإِحْسَانِ
وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ مُسْنِدًا عَنْ جَابِرٍ ... خَبَرًا وَشَاهِدُهُ فَفِي الْقُرْآنِ
بَيْنَا هُمُو فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ ... وَنَعِيمِهِمْ فِي لَذَّةٍ وَتَهَانِي
وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعٍ قَدْ أَشْرَقَتْ ... مِنْهُ الْجِنَانُ قَصِيهَا وَالدَّانِي
رَفَعُوا إِلَيْهِ رُءُوسَهُمْ فَرَأَوْهُ نُو ... رَ الرَّبِّ لَا يَخْفَى عَلَى إِنْسَانِ

وَإِذَا بِرَبِّهِمْ تَعَالَى فَوْقَهُمْ ... قَدْ جَاءَ لِلتَّسْلِيمِ بِالإِحْسَانِ
قَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَيَرَوْنَهُ ... جَهْرًا تَعَالَى الرَّبُّ ذُو السُّلْطَانِ
مِصْدَاقُ ذَا يس قَدْ ضَمِنَتْهُ عِنْـ ... ـدَ الْقَوْلِ مِنْ رَبٍّ بِهِمْ رَحْمَنِ
مَنْ رَدَّ ذَا فَعَلَى رَسُولِ اللهِ رَدْ ... دَ وَسَوْفَ عِنْدَ اللهِ يَلْتَقِيَانِ
فِي ذَا الْحَدِيثِ عُلُوُّهُ وَمَجِيئُهُ ... وَكَلَامُهُ حَتَّى يَرَى بِعِيَانِ
هَذِي أُصُولُ الدِّينِ فِي مَضْمُونِهِ ... لَا قَوْلَ جَهْمٍ صَاحِبِ الْبُهْتَانِ
وَكَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ذَلِكَ الْـ ... ـخَبَرُ الطَّوِيلُ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ
فِيهِ تَجَلِّي الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَمَجِيئُهُ وَكَلَامُهُ بِبَيَانِ
وَكَذَاكَ رُؤْيَتُهُ وَتَكْلِيمٌ لِمَنْ ... يَخْتَارُهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ
فِيهِ أُصُولُ الدِّينِ أَجْمَعُهَا فَلَا ... تَخْدَعْكَ عَنْهُ شِيعَةُ الشَّيْطَانِ
وَحَكَى رَسُولُ اللهِ فِيهِ تَجَدُّدَ الْـ ... ـغَضَبِ الَّذِي لِلرَّبِّ ذِي السُّلْطَانِ
إِجْمَاعَ أَهْلِ الْعَزْمِ مِنْ رُسْلِ الإِلَـ ... ـهِ وَذَاكَ إِجْمَاعٌ عَلَى الْبُرْهَانِ
لَا تُخْدَعَنَّ عَنِ الْحَدِيثِ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ فَهْيَ كَثِيرَةُ الْهَذَيَانِ
أَصْحَابُهَا أَهْلُ التَّخَرُّصِ وَالتَّنَا ... قُضِ وَالتَّهَاتُرِ قَائِلُو الْبُهْتَانِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ لَوْ حَرَصْتَ فَلَنْ تَرَى ... فِئَتَيْنِ مِنْهُمْ قَطُّ يَتَّفِقَانِ
إِلَّا إِذَا مَا قَلَّدَا لِسَوَاهُمَا ... فَتَرَاهُمُ جِيلًا مِنَ الْعِمْيَانِ
وَيَقُودُهُمْ أَعْمَى يَظُنُّ كَمُبْصِرٍ ... يَا مِحْنَةَ الْعِمْيَانِ خَلْفَ فُلَانِ
هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمُبْصِرُ رُشْدِهِ ... اللهُ أَكْبَرُ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ
أَوَ مَا سَمِعْتَ مُنَادِي الإِيمَانِ يُخْـ ... ـبِرُ عَنْ مُنَادِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ
يَا أَهْلَهَا لَكُمُ لَدَى الرَّحْمَنِ وَعْـ ... ـدٌ وَهْوَ مُنْجِزُهُ لَكُمْ بِضَمَانِ
قَالُوا أَمَا بَيَّضْتَ أَوْجُهَنَا كَذَا ... أَعْمَالُنَا أَثْقَلْتَ فِي الْمِيزَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ أَدْخَلْتَنَا الْجَنَّاتِ حِيـ ... ـنَ أَجَرْتَنَا مِنْ مَدْخَلِ النِّيرَانِ
فَيَقُولُ عِنْدِي مَوْعِدٌ قَدْ آنَ أَنْ ... أُعْطِيكُمُوهُ بِرَحْمَتِي وَحَنَانِي
فَيَرَوْنَهُ مِنْ بَعْدِ كَشْفِ حِجَابِهِ ... جَهْرًا رَوَى ذَا مُسْلِمٌ بِبَيَانِ

وَلَقَدْ أَتَانَا فِي الصَّحِيحَيْنِ اللَّذَيْـ ـنِ هُمَا أَصَحُّ الْكُتْبِ بَعْدَ قُرَانِ
بِرِوَايَةِ الثِّقَةِ الصَّدُوقِ جَرِيرِ الْـ ـبَجَلِي عَمَّنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
أَنَّ الْعِبَادَ يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يَرَى الْقَمَرَانِ
فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ كُلَّ وَقْتٍ فَاحْفَظُوا الْـ ـبَرْدَيْنِ مَا عِشْتُمْ مَدَى الْأَزْمَانِ
وَلَقَدْ رَوَى بِضْعٌ وَعِشْرُونَ امْرَءًا مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ خِيرَةِ الرَّحْمَنِ
أَخْبَارَ هَذَا الْبَابِ عَمَّنْ قَدْ أَتَى بِالْوَحْيِ تَفْصِيلًا بِلَا كِتْمَانِ
وَأَلَذُّ شَيْءٍ لِلْقُلُوبِ فَهَذِهِ الْـ أَخْبَارُ مَعْ أَمْثَالِهَا هِيَ بَهْجَةُ الْإِيمَانِ
وَاللهِ لَوْلَا رُؤْيَةُ الرَّحْمَنِ فِي الْـ ـجَنَّاتِ مَا طَابَتْ لِذِي الْعِرْفَانِ
أَعْلَى النَّعِيمِ نَعِيمُ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ وَخِطَابِهِ فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ
وَأَشَدُّ شَيْءٍ فِي الْعَذَابِ حِجَابُهُ سُبْحَانَهُ عَنْ سَاكِنِي النِّيرَانِ
وَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ نَسُوا الَّذِي هُمْ فِيهِ مِمَّا نَالَتِ الْعَيْنَانِ
فَإِذَا تَوَارَى عَنْهُمُ عَادُوا إِلَى لَذَّاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَلْوَانِ
فَلَهُمْ نَعِيمٌ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ سِوَى هَذَا النَّعِيمِ فَحَبَّذَا الْأَمْرَانِ
أَوَ مَا سَمِعْتَ سُؤَالَ أَعْرَفِ خَلْقِهِ بِجَلَالِهِ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
شَوْقًا إِلَيْهِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ الَّتِي بِجَلَالِ وَجْهِ الرَّبِّ ذِي السُّلْطَانِ
فَالشَّوْقُ لَذَّةُ رُوحِهِ فِي هَذِهِ الدُّ دُنْيَا وَيَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ
تَلْتَذُّ بِالنَّظَرِ الَّذِي فَازَتْ بِهِ دُونَ الْجَوَارِحِ هَذِهِ الْعَيْنَانِ
وَاللهِ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَلَذْ ذُ مِنَ اشْتِيَاقِ الْعَبْدِ لِلرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ رُؤْيَةُ وَجْهِهِ سُبْحَانَهُ هِيَ أَكْمَلُ اللَّذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ
لَكِنَّمَا الْجَهْمِيُّ يُنْكِرُ ذَا وَذَا وَالْوَجْهَ أَيْضًا خَشْيَةَ الْحِدْثَانِ
تَبًّا لَهُ الْمَخْدُوعُ أَنْكَرَ وَجْهَهُ وَلِقَاءَهُ وَمَحَبَّةَ الدَّيَّانِ
وَكَلَامَهُ وَصِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ وَالْعَرْشَ عَطَّلَهُ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَرَاهُ فِي وَادٍ وَرُسْلُ اللهِ فِي وَادٍ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرَانِ

فصل

في كلام الرب جل جلاله مع أهل الجنة

أَوْ عَلِمْتَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... خَصَّهُمْ بِكَلَامِهِ حِرْمَانَهُ بِجِنَانِ

فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ هَلْ أَنْتُمْ ... رَاضُونَ قَالُوا لَحْنُ ذُو رِضْوَانِ

أَمْ كَيْفَ لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا ... مَا لَمْ يَنَلْهُ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ

هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ ذَا فَيَكُونُ أَفْـ ... ـضَلَ مِنْهُ نَسْأَلُهُ مِنَ الْمَنَّانِ

فَيَقُولُ أَفْضَلُ مِنْهُ رِضْوَانِي فَلَا ... يُعْنَاكُمُ سُخْطٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَيُذَكِّرُ الرَّحْمَنُ وَاحِدَهُمْ بِمَا ... قَدْ كَانَ مِنْهُ سَالِفَ الْأَزْمَانِ

مِنْهُ إِلَيْهِ لَمْ يَنَمْ وَسَاطَةٌ ... مَا ذَاكَ تَوْبِيخًا [مِنَ الرَّحْمَنِ][1]

لَكِنْ يُعَرِّفُهُ الَّذِي قَدْ نَالَهُ ... مِنْ فَضْلِهِ وَالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ

وَيُسَلِّمُ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَيْهِمْ وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ يُسْمِعُهُمْ لَدَيْهِ خِطَابَهُ ... سُبْحَانَهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ قَبْلَ ذَا ... هَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ الطَّبَرَانِي

هَذَا سَمَاعٌ مُطْلَقٌ وَسَمَاعُنَا الْـ ... ـقُرْآنَ فِي الدُّنْيَا فَنَوْعٌ ثَانِ

وَاللهُ يَسْمَعُ قَوْلَهُ بِوَسَاطَةٍ ... وَيُؤَدُّونَهَا نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ

فَسَمَاعُ مُوسَى لَمْ يَكُنْ بِوَسَاطَةٍ ... وَسَمَاعُنَا بِتَوَسُّطِ الْإِنْسَانِ

مَنْ صَيَّرَ النَّوْعَيْنِ نَوْعًا وَاحِدًا ... فَمُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ

فصل

في يوم المزيد وما أعد لهم فيه من الكرامة

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِشَأْنِهِمْ بِيَوْمِ الْمَزِيـ ... ـدِ وَأَنَّهُ شَأْنٌ عَظِيمُ الشَّانِ

هُوَ يَوْمُ جُمُعَتِنَا وَيَوْمُ زِيَارَةِ الرَّ ... حْمَنِ وَقْتُ صَلَاتِنَا وَأَذَانِ

---

(١) كذا في (س، ط، ق) وفي (خ) [مع الغفران].

وَالسَّابِقُونَ إِلَى الصَّلَاةِ هُمُ الأُلَى ... فَازُوا بِذَاكَ السَّبْقِ بِالإِحْسَانِ

سَبْقٌ بِسَبْقٍ وَالْمُؤَخَّرُ هَا هُنَا ... مُتَأَخِّرٌ فِي ذَلِكَ الْمَيْدَانِ

وَالأَقْرَبُونَ إِلَى الإِمَامِ فَهُمْ أُولُو الـ ... ـزُلْفَى هُنَالِكَ فَهَا هُنَا قُرْبَانِ

قُرْبٌ بِقُرْبٍ وَالْمُبَاعِدُ مِثْلُهُ ... بُعْدٌ بِبُعْدٍ حِكْمَةُ الدَّيَّانِ

وَلَهُمْ مَنَابِرُ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ ... وَمَنَابِرُ الْيَاقُوتِ وَالْعِقْيَانِ

هَذَا وَأَدْنَاهُمْ وَمَا فِيهِمْ دَنِي ... مِنْ فَوْقِ ذَاكَ الْمِسْكِ كَالْكُثْبَانِ

مَا عِنْدَهُمْ أَهْلُ الْمَنَابِرِ فَوْقَهُمْ ... مِمَّا يَرَوْنَ بِهِمْ مِنَ الإِحْسَانِ

فَيَرَوْنَ رَبَّهُمُ تَعَالَى جَهْرَةً ... نَظَرَ الْعِيَانِ كَمَا يَرَى الْقَمَرَانِ

وَيُحَاضِرُ الرَّحْمَنُ وَاحِدَهُمْ مُحَا ... ضَرَةَ الْحَبِيبِ يَقُولُ بَانِينَ فُلَانِ

هَلْ تَذْكُرُ الْيَوْمَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ فِيـ ... ـهِ مُبَارِزًا بِالذَّنْبِ وَالْعِصْيَانِ

فَيَقُولُ رَبِّ أَمَا مَنَنْتَ بِغَفْرَةٍ ... قِدْمًا فَإِنَّكَ وَاسِعُ الْغُفْرَانِ

فَيَجِيئُهُ الرَّحْمَنُ مَغْفِرَتِي الَّتِي ... قَدْ أَوْصَلَتْكَ إِلَى الْمَحَلِّ الدَّانِي

فصل

في المطر الذي يصيبهم هناك

وَيُطِلُّهُمْ إِذْ ذَاكَ مِنْهُ سَحَابَةٌ ... لَأْيٍ بِمِثْلِ الْوَابِلِ الْهَتَّانِ

بَيْنَا هُمُ فِي النُّورِ إِذْ غَشِيَتْهُمُ ... سُبْحَانَ مُنْشِيهَا مِنَ الرَّحْمَوَانِ

فَتَظَلُّ تُمْطِرُهُمْ بِطِيبٍ مَا رَأَوْا ... شَبَهًا لَهُ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

فَيَزِيدُهُمْ هَذَا جَمَالًا فَوْقَ مَا ... لَهُمُ وَتِلْكَ مَوَاهِبُ الْمَنَّانِ

فصل

في سوق الجنة التي ينصرفون إليها من ذلك المجلس

فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ قُومُوا إِلَى ... مَا قَدْ ذَخَرْتُ لَكُمْ مِنَ الإِحْسَانِ

بـــأتونَ سُـــوقٌ لا يُـبـــاعُ ويُشـــتَرى ... فـيـــه فخُـــذْ منـــهُ بـــلا أثمـــانِ
قـــدْ أسـلفَ التُّجـــارُ أثمـــانَ الـنَّبـيـــ ... ـــعِ بعقـــدهمْ فـــي بيعـــةِ الرِّضـــوانِ
للهِ سُـــوقٌ قـــدْ أقامتـــهُ الـمَـــلا ... ئكـــةُ الكـــرامُ بكُـــلِّ مـــا إحســـانِ
فيهَـــا الَّـــذي واللهِ لا عَـــيْنٌ رأتْ ... كَـــلاَّ ولا سَـــمِعتْ بـــهِ أُذُنـــانِ
كَـــلاَّ ولَـــمْ يخطُـــرْ علـــى قلْـــبِ امـــرئٍ ... فيكُـــونَ عنـــهُ مُعَبِّـــرًا بلِســـانِ
فـــيرى امـــرءًا مـــنْ فَوْقِـــهِ فـــي هَيْئـــةٍ ... فَـرُوعُـــهُ مـــا تنْظُـــرُ الْعَيْنـــانِ
فـــإذَا عَلَيْـــهِ مِثْلَهَـــا إذْ لَـــيْسَ بِلْـــ ... ـــحَقِّ أهْلَهَـــا شـــيءٌ مـــنَ الأحْـــزانِ
واهًـــا لِـــهَذَا الـسُّـــوقِ الَّـــذي مَـــنْ حَلَّـــهُ ... نَـــالَ التَّهَـــانِي كُلَّهَـــا بأمَـــانِ
يُدْعَى بِسُـــوقِ تَعَـــارُفٍ مَـــا فِيـــهِ مِـــنْ ... صَـــخَبٍ وَلاَ غِـــشٍّ وَلاَ أيْمَـــانِ
وَتِجَـــارَةٌ مَـــنْ لَـــيْسَ تُلْهِيـــهِ تِجَـــا ... رَاتٌ وَلاَ بَيْـــعٌ عَـــنِ الـــرَّحْمَنِ
أهْـــلُ الْمُـــرُوْءَةِ وَالْفُتُـــوَّةِ وَالتُّقَـــى ... وَالـــذِّكْرِ [لِلـــرَّحْمَنِ كُـــلَّ أوَانِ][1]
يـــا مَـــنْ تَعُـــوقُ عَنْـــهُ بِالـــسُّوقِ الَّـــذِي ... ذُكِـــرَتْ لَدَيْـــهِ رَابِـــئَةُ الشَّـــيْطَانِ
لَوْ كُنْـــتَ تَـــدْرِي قَـــدْرَ ذَاكَ الـــسُّوقِ لَـــمْ ... تَـــرْكَنْ إِلَـــى سُـــوقِ الْكَسَـــادِ الْفَـــانِي

فصل
في حالهم عند رجوعهم إلى أهليهم ومنازلهم

فَـــإِذَا هُـــمُ رَجَعُـــوا إِلَـــى أَهْلِـــيهِمُ ... بِمَوَاهِـــبٍ خَصَّـــلَتْ مِـــنَ الـــرَّحْمَنِ
قَـــالُوا لَهُـــمْ أَهْـــلاً وَرَحَّـــا مَـــا الَّـــذِي ... أَعْطِيـــتُمُ مِـــنْ ذَا الْجَمَـــالِ الثَّـــانِي
وَاللهِ لاَزْدَدْتُـــمْ جَمَـــالاً فَـــوْقَ مَـــا ... كُنْـــتُمْ عَلَيْـــهِ قَبْـــلَ هَـــذَا الآنِ
قَـــالُوا وَأَنْـــتُمْ وَالَّـــذِي أَنْشَـــاكُمُ ... قَـــدْ زِدْتُـــمُ حُسْـــنًا عَلَـــى الإِحْسَـــانِ[2]
لَكِـــنْ بِحَـــقِّ لَنَـــا وَقَـــدْ كُنَّـــا إِذَا ... جُلَّـــاءَ رَبِّ الْعَـــرْشِ ذِي الرِّضْـــوَانِ
فَهُمُـــو إِلَـــى يَـــوْمِ الْمَزِيـــدِ أَحَـــدُّ شَـــوْ ... قًـــا مِـــنْ مُحِـــبٍّ لِلْحَبِيـــبِ الـــدَّانِي

---

(١) كذا في (ط، س، ق) وفي (خ) [والقربات للرحمن].

(٢) كذا في (خ، ق، س) وفي (ط) [الإنسان].

فصل

في خلود أهل الجنة ودوام صحتهم ونعيمهم

[وشبابهم واستحالة الموت والنوم عليهم]

هَـذَا وَخَاتِمَـةُ النَّعِيمِ خُلُـودُهُمْ ... أَبَـدًا بِـدَارِ الْخُلْـدِ وَالرِّضْـوَانِ

أَوَ مَـا سَـمِعْتَ مُنَـادِي الإِيمَـانِ يُخْـ ... ـبِرُ عَـنْ مَنَادِيـهِ بِحُسْـنِ بَيَـانِ

لَكُـمُ حَيَـاةٌ مَـا بِهَـا مَـوْتٌ وَعَـا ... فِيَـةٌ بِـلاَ سَـقَمٍ وَلاَ أَحْـزَانِ[1]

وَلَكُـمْ نَعِيـمٌ مَـا بِـهِ بُـؤْسٌ وَمَـا ... لِشَـبَابِكُمْ هَـرَمٌ مَـدَى الأَزْمَـانِ

كَـلاَّ وَلاَ نَـوْمٌ هُنَـاكَ يَكُـونُ ذَا ... نَـوْمٌ وَمَـوْتٌ بَيْنَنَـا أَخَـوَانِ

هَـذَا عَلِمْنَـاهُ اضْـطِرَارًا مِـنْ كِتَـا ... بِ اللهِ فَـافْهَمْ مُقْتَضَـى الْقُـرْآنِ

وَالْجَهْـمُ أَفْنَاهَـا وَأَفْنَـى أَهْلَهَـا ... تَبًّـا لِـذَاكَ الْجَاهِـلِ الْفَتَّـانِ

طَرْدًا لِنَفْـيِ دَوَامِ فِعْـلِ الـرَّبِّ فِـي الْـ ... ـمَاضِي وَفِـي مُسْـتَقْبَلِ الأَزْمَـانِ

وَأَبُـو الْهُـذَيْلِ يَقُـولُ يَفْنَـى كُـلُّ مَـا ... فِيهَـا مِـنَ الْحَرَكَـاتِ لِلسُّـكَّانِ

وَتَصِـيرُ دَارُ الْخُلْـدِ مَـعْ سُـكَّانِهَا ... وَثِمَارِهَـا كَحِجَـارَةِ الْبُنْيَـانِ

قَـالُوا وَلَـوْلاَ ذَاكَ لَـمْ يَثْبُـتْ لَنَـا ... رَبٌّ لأَجْـلِ تَسَلْسُـلِ الأَعْيَـانِ

فَـالْقَوْمُ إِمَّـا جَاحِـدُونَ لِـرَبِّهِمْ ... أَوْ مُنْكِـرُونَ حَقَـائِقَ الإِيمَـانِ

فصل

في ذبح الموت بين الجنة والنار

والرد على من قال إن الذبح لملك الموت وأن ذلك مجاز لا حقيقة له

أَوَ مَـا سَـمِعْتَ بِذَبْحِـهِ لِلْمَـوْتِ بَيْـ ... ـنَ الْمَنْـزِلَيْنِ كَـذَبْحِ كَـبْشِ الضَّـانِ

حَاشَـا لِـذَا الْمَلَـكِ الْكَـرِيمِ وَإِنَّمَـا ... هُـوَ مَوْتُنَـا الْمَخْتُـومُ لِلإِنْسَـانِ

وَاللهُ يُنْشِـئُ مِنْـهُ كَبْشًـا أَمْلَحًـا ... يَـوْمَ الْمَعَـادِ يَـرَى لَنَـا بِعِيَـانِ

---

(١) في (ق) [أَخَوَانِ].

يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْنَاسًا كَذَا ... بِالْعَكْسِ كُلٌّ قَابِلُ الإِمْكَانِ

أَفَمَا تُصَدِّقُ أَنَّ أَغْتَالَ الْعِبَا ... دِ لَخَطُّ يَوْمِ الْعَرْضِ فِي الْمِيزَانِ

وَكَذَاكَ تَثْقُلُ تَارَةً وَتَخِفُّ أَحْـ ... ـيَانًا وَذَاكَ فِي الْقُرْآنِ ذُو تِبْيَانِ

وَلَهُ لِسَانٌ كَفَّتَاهُ لَفِيفُهُ ... وَالْكَفَّتَانِ إِلَيْهِ نَاظِرَتَانِ

مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًا بَلْ هُوَ الْـ ... ـمَحْسُوسُ حَقًّا عِنْدَ ذِي الإِيمَانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّ تَسْبِيحَ الْعِبَا ... دِ وَذِكْرَهُمْ وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ

يُنْشِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ فِي صُوَرٍ بِهَا ... دِلُّ عَتَهُ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ حَوْلَ عَرْ ... شِ الرَّبِّ ذُو صَوْتٍ وَذُو دَوَرَانِ

يَشْفَعْنَ عِنْدَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَيُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ مُؤْنِسٌ ... فِي الْقَبْرِ لِلْمَلْفُوفِ فِي الأَكْفَانِ

فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الْجَمِيلِ الْوَجْهِ فِي ... سِنِّ الشَّبَابِ كَأَحْسَنِ الشُّبَّانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَا تَتْلُوهُ فِي ... أَيَّامِ هَذَا الْعُمْرِ مِنْ قُرْآنِ

يَأْتِي يُجَادِلُ عَنْكَ يَوْمَ الْحَشْرِ لِلرَّ ... حْمَنِ كَيْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ صَاحِبٌ ... يَا حَبَّذَا ذَاكَ الشَّفِيعُ الدَّانِي

أَوَ مَا سَمِعْتَ حَدِيثَ صِدْقٍ قَدْ أَتَى ... فِي سُورَتَيْنِ مِنَ أَوَّلِ الْقُرْآنِ

فَرْقَانِ مِنْ طَرْفَيْ ضَوَافٍ بَيْنَهَا ... شَرْقٌ وَمِشْعَةُ الضِّيَاءِ ذُو تِبْيَانِ

شَبَّهْهُمَا بِغَمَامَتَيْنِ وَإِنْ تَشَأْ ... بِغَيَابَتَيْنِ هُمَا لِهَذَا مَثَلَانِ

هَذَا مِثَالُ الأَجْرِ وَهْوَ فِعَالُنَا ... كَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ بِالإِحْسَانِ

فَالْمَوْتُ يُنْشِيهِ لَنَا فِي صُورَةٍ ... خَلَاقَةٍ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

وَالْمَوْتُ مَخْلُوقٌ بِنَصِّ الْوَحْيِ وَالْـ ... ـمَخْلُوقُ يَقْبَلُ سَائِرَ الأَلْوَانِ

فِي لَفْيِهِ وَنَشْأَةٍ أُخْرَى يُقَدْ ... رُهُ قَالِبُ الأَعْرَاضِ وَالأَلْوَانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِقَلْبِهِ سُبْحَانَهُ الْـ ... أَعْيَانَ مِنْ لَوْنٍ إِلَى أَلْوَانِ

وَكَذَلِكَ الأَعْرَاضُ يَقْلِبُ رَبُّهَا ... أَعْيَانَهَا وَالْكُلُّ ذُو إِمْكَانِ

لَمْ يَفْهَمِ الْجُهَّالُ هَذَا كُلَّهُ ... فَأَتَوْا بِتَأْوِيلَاتِ ذِي الْبُطْلَانِ

فَمُكَذِّبٌ وَمُؤَوِّلٌ وَمُحَيِّرٌ ... مَا ذَاقَ طَعْمَ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ
لَمَّا فَسَا الْجُهَّالُ فِي آذَانِهِ ... أَعْمُوهُ دُونَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ
فَثَنَى لَنَا الْعِطْفَيْنِ مِنْهُ تَكَبُّرًا ... وَتَبَخْتُرًا فِي حُلَّةِ الْهَذَيَانِ
إِنْ قُلْتَ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فَيَقُولُ جَهْلًا أَيْنَ قَوْلُ فُلَانِ

فصل

في أن الجنة قيعان وأن غراسها الكلام الطيب والعمل الصالح

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا الْقِيعَانُ فَاغْـ ... ـرِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الْفَانِي
وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّـ ... ـحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمَنِ
تَبًّا لِتَارِكِ غَرْسِهِ مَاذَا الَّذِي ... قَدْ فَاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإِمْكَانِ
يَا مَنْ يَقِرُّ بِذَا وَلَا يَسْعَى لَهُ ... بِاللهِ قُلْ لِي كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ
أَرَأَيْتَ لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَا ... سِ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ الْبُسْتَانِ
وَكَذَاكَ لَوْ عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا ... تَرْجُو الْمُغِلَّ يَكُونُ كَالْكِيمَانِ
مَا قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدُهُ ... هَذَا فَرَاجِعْ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَتَأَمَّلِ الْبَاءَ الَّتِي قَدْ عَيَّنَتْ ... سَبَبَ الْفَلَاحِ لِحِكْمَةِ الْفُرْقَانِ
وَأَظُنُّ بَاءَ النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي ... ذَاكَ الْحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ
لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّاتِ أَصْلًا كَادِحٌ ... بِالسَّعْيِ مِنْهُ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ
وَاللهِ مَا بَيْنَ النُّصُوصِ تَعَارُضٌ ... وَالْكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ
لَكِنَّ بِالإِثْبَاتِ لِلتَّسْبِيبِ وَالْـ ... ـبَاءُ الَّتِي لِلنَّفْيِ بِالأَثْمَانِ
وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فَفَرْقٌ ظَاهِرٌ ... يَدْرِيهِ ذُو حَظٍّ مِنَ الْعِرْفَانِ

فصل

في إقامة المأتم على المتخلفين عن رفقة السابقين

بِاللهِ مَا عُذْرُ امْرِئٍ هُوَ مُؤْمِنٌ ... حَقًّا بِهَذَا لَيْسَ بِالْيَقْظَانِ

بَلْ قَلْبُهُ فِي رَقْدَةٍ فَإِذَا اسْتَفَا ... قَ فَلَبْسُهُ هُوَ حُلَّةُ الْكَسْلَانِ

تَاللهِ لَوْ شَاقَتْكَ جَنَّاتُ النَّعِيـ ... ـمِ طَلَبْتَهَا بِنَفَائِسِ الْأَثْمَانِ

وَسَعَيْتَ جَهْدَكَ فِي وِصَالِ نَوَاعِمٍ ... وَكَوَاعِبٍ بِيضِ الْوُجُوهِ حِسَانِ

جُلِيَتْ عَلَيْكَ عَرَائِسٌ وَاللهِ لَوْ ... تَجْلَى عَلَى صَخْرٍ مِنَ الصَّوَّانِ

رَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَعَادَ لِوَقْتِهِ ... يَنْهَالُ مِثْلَ نَقًى مِنَ الْكُثْبَانِ

لَكِنَّ قَلْبَكَ فِي الْقَسَاوَةِ جَازَ حَدْ ... دَ الصَّخْرِ وَالْحَصْبَاءِ فِي أَشْجَانِ

لَوْ هَزَّكَ الشَّوْقُ الْمُقِيمُ وَكُنْتَ ذَا ... حِسٍّ لَمَا اسْتَبْدَلْتَ بِالْأَهْوَانِ[1]

أَوْ صَادَفَتْ مِنْكَ الصِّفَاتُ حَيَاةَ قَلْـ ... ـبٍ كُنْتَ ذَا طَلَبٍ لِهَذَا الشَّانِ

خُودٌ تُزَفُّ إِلَى ضَرِيرٍ مُقْعَدٍ ... يَا مِحْنَةَ الْحَسْنَاءِ بِالْعِمْيَانِ

شَمْسٌ لِعِنِّينٍ تُزَفُّ إِلَيْهِ مَا ... ذَا حِيلَةُ الْعِنِّينِ فِي الْغَشَيَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً ... بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الْكَسْلَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا ... فِي الْأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ مَاذَا كُفْؤُهَا ... إِلَّا أُولُو التَّقْوَى مَعَ الْإِيمَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ سُوقُكِ كَاسِدٌ ... بَيْنَ الْأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الْحَيَوَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَيْنَ الْمُشْتَرِي ... فَلَقَدْ عُرِضْتِ بِأَيْسَرِ الْأَثْمَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ ... فَالْمَهْرُ قَبْلَ الْمَوْتِ ذُو إِمْكَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَصَبُّرُ الْـ ... ـخُطَّابِ عَنْكِ وَهُمْ ذَوُو إِيمَانِ[2]

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَوْلَا أَنَّهَا ... حُجِبَتْ بِكُلِّ مَكَارِهِ الْإِنْسَانِ

مَا كَانَ عَنْهَا قَطُّ مِنْ مُتَخَلِّفٍ ... وَتَعَطَّلَتْ دَارُ الْجَزَاءِ الثَّانِي

لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... لِيَصُدَّ عَنْهَا الْمُبْطِلُ الْمُتَوَانِي

وَتَنَالُهَا الْهِمَمُ الَّتِي تَسْمُو إِلَى ... رَبِّ الْعُلَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

فَانْعَبْ لِيَوْمِ مَعَادِكَ الْأَدْنَى تَجِدْ ... رَاحَاتِهِ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي

---

(١) كذا في (ط، س) وفي (خ، ق) [بالأدوان].

(٢) كذا في (ط، ق، س) وفي (خ) [أثمان].

وَإِذَا أَبَتْ ذَا الشَّانَ نَفْسُكَ فَالْهِهَـ ... ـهَا ثُمَّ رَاجِعْ مَطْلَعَ الإِمْعَانِ

فَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ بَعْدُ وَصُبْحُهُ ... مَا الشَّوْقُ عَنْهُ عَنْوَدُهُ لأَذَانِ

وَالنَّاسُ قَدْ صَلُّوا [صَلاةَ] الصُّبْحِ وَانْـ ... ـتَظَرُوا طُلُوعَ الشَّمْسِ قُرْبَ زَمَانِ

فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعَيْنَ قَدْ عَمِيَتْ فَمَا ... شُدَّ رَبَّاكَ الْمَعْرُوفَ بِالإِحْسَانِ

وَاسْأَلْهُ إِيمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبَكَ الْـ ... ـمَحْجُوبَ عَنْهُ لِتَنْظُرَ الْعَيْنَانِ

وَاسْأَلْهُ نُورًا هَادِيًا يَهْدِيكَ فِي ... طُرُقِ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ كُلَّ أَوَانِ

وَاللهِ مَا حَوْلِي الدُّكُوبَ فَإِنَّهَا ... لَعَلَى طَرِيقِ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ

لَكِنَّمَا أَحْنَى الْبِلاَخَ الْقَلْبِ مِنْ ... لِحْكِيمِ هَذَا الْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

وَرِضَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَحَرْصِهَا ... لاَ كَانَ ذَاكَ بِمِثْلِهِ الرَّحْمَنِ

فَبِأَيِّ وَجْهٍ أَلْتَقِي رَبِّي إِذَا ... أَعْرَضْتُ عَنْ ذَا الْوَحْيِ طُولَ زَمَانِ

وَعَزَلْتُهُ عَمَّا أُرِيدَ لأَجْلِهِ ... عَزْلاً حَقِيقِيًا بِلاَ كِتْمَانِ

صَرَّحْتُ أَنْ يَقِينَنَا لاَ يَسْتَقَا ... دُ بِهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ إِتْقَانِ

أَوْلَيْتُهُ هَجْرًا وَتَأْوِيلاً وَتَحْـ ... ـرِيفًا وَتَفْوِيضًا بِلاَ بُرْهَانِ

وَسَعَيْتَ جَهْدِي فِي عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ ... بِعُرَاهُ لاَ تَقْلِيدَ رَأْيِ فُلاَنِ

يَا مُعْرِضًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ وَقَدْ ... جَدَّ الْمَسِيرُ فَمُنْتَهَاهُ دَانِ

جَدَّلاَنُ يَضْحَكُ آمِنًا مُتَبَخْتِرًا ... فَكَأَنَّهُ قَدْ نَالَ عَقْدَ أَمَانِ

خَلَعَ السُّرُورُ عَلَيْهِ أَوْفَى حُلَّةٍ ... طَرَدَتْ جَمِيعَ الْهَمِّ وَالأَحْزَانِ

يَخْتَالُ فِي حُلَلِ الْمَسَرَّةِ نَاسِيًا ... مَا بَعْدَهَا مِنْ حُلَّةِ الأَكْفَانِ

مَا سَعْيُهُ إِلاَّ لِطِيبِ الْعَيْشِ فِي الدْ ... دُنْيَا وَلَوْ أَفْضَى إِلَى النِّيرَانِ

قَدْ بَاعَ طِيبَ الْعَيْشِ فِي دَارِ النَّعِيـ ... ـمِ بِهَذَا الْحُطَامِ الْمُضْمَحِلِّ الْفَانِي

إِنِّي أَظُنُّكَ لاَ تُصَدِّقُ كَوْنَهُ ... بِالْقُرْبِ بَلْ ظَنٌّ بِلاَ إِيقَانِ

بَلْ قَدْ سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوا جَنَّةٌ ... أَيْضًا وَنَارٌ بَلْ لَهُمْ قَوْلاَنِ

وَالْوَقْفُ مَذْهَبُكَ الَّذِي تَخْتَارُهُ ... وَإِذَا انْتَهَى الإِيمَانُ لِلرُّجْحَانِ

أَمْ تُؤْثِرُ الأَدْنَى عَلَيْهِ وَقَالَتِ النْـ ... ـنَفْسُ الَّتِي اسْتَعْلَتْ عَلَى الشُّطْآنِ

أتبيعُ نقدًا حاصلاً بنسيئةٍ ... بعدَ الممات وطي ذي الأكوان
لو أنه بنسيئة الدنيا لها ... ن الأمرُ لكن في معادٍ ثان
دعْ ما سمعتَ الناسَ قالوهُ وخذْ ... ما قد رأيتَ مشاهدًا بعيان
والله لو جالستَ نفسكَ خاليا ... وبحثتَها بحثًا بلا روغان
لرأيتَ هذا كامنًا فيها ولو ... أمنتْ لألفتهُ إلى الآذان
هذا هو السرُّ الذي من أجله اخـ ... ـتارتْ عليه العاجلَ المتدان
نقدٌ قد اشتدتْ إليه حاجةٌ ... منها ولم يحصلْ لها بهوان
أتبيعُهُ بنسيئةٍ في غيرِ هـ ... ـذي الدارِ بعدَ قيامةِ الأبدان
هذا وإنْ جزمتْ بها قطعًا ولـ ... ـكنْ حظُّها في حيزِ الإمكان
ما ذاكَ قطعيًا لها والحاصلُ الـ ... ـموجودُ مشهودٌ برأيِ عيان
فتألفتْ من بينِ شهوتِها وشبـ ... ـهتُها قياساتٌ من البطلان
واستنجدتْ منها رضًا بالعاجلِ الـ ... أدنى على الموعودِ بعدَ زمان
وأتى من التأويلِ كلُّ ملائمٍ ... لمرادِها يا رقةَ الإيمان
وصغتْ إلى شبهاتِ أهلِ الشركِ والتـ ... ـعطيلِ مع نقصٍ من العرفان
واستنقصتْ أهلَ الهدى ورأيتُهمْ ... في الناسِ كالغرباءِ في البلدان
ورأتْ عقولَ الناسِ دائرةً على ... جمعِ الحطامِ وخدمةِ السلطان
وعلى المليحةِ والمليحِ وعشرةِ الـ ... أحبابِ والأصحابِ والإخوان
فاستوعرتْ تركَ الجميعِ ولم تجدْ ... عوضًا تلذُّ به من الإحسان
فالقلبُ ليسَ يقرُّ إلا في إنا ... ءٍ فهو دونَ الجسمِ ذو جولان
يبغي لهُ سكنًا يلذُّ بقربِه ... فتراهُ شبهَ الوالهِ الحيران
فيحبُّ هذا ثمَّ يهوى غيرَهُ ... فيظلُّ منتقلاً مدى الأزمان
لو نالَ كلَّ مليحةٍ ورياسةٍ ... لم يطمئنْ وكانَ ذا دوران
بل لو ينالُ بأسرِها الدنيا لما ... قرتْ بما قد نالهُ العينان
نقلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ من الهوى ... واختر لنفسكَ أحسنَ الإنسان

فالقلبُ مضطرٌ إلى محبوبه الـ ... أعلى فلا يغنيه حبُّ ثان
وصلاحُهُ وفلاحُهُ ونعيمُهُ ... تجريدُ هذا الحبِّ للرحمن
فإذا تخلّى منهُ أصبحَ خاسرًا ... ويعودُ في ذا الكونِ ذا هيمان

فصل
في زهد أهل العلم والإيمان
وإيثارهم الذهب الباقي على الخزف الفاني

لكنَّ ذا الإيمانِ يعلمُ أنَّ هذ ... ا كالظلالِ وكلُّ هذا فان
كخيالِ طيفٍ ما استتمَّ زيارةً ... إلا وصبحُ رحيلِهِ بأذان
وسحابةٍ طلعتْ بيومٍ صائفٍ ... فالظلُّ منسوحٌ بقُربِ زمان
وكزهرةٍ وافى الربيعُ بحسنِها ... أو لا معًا فكلاهما أخوان
أو كالسرابِ يلوحُ للظمآنِ في ... وسطِ الهجيرِ بمستوى القيعان
أو كالأمانيِ طابَ منها ذكرُها ... بالقولِ واستحضارِها بجنان
وهي الغرورُ رؤوسُ أموالِ المنى ... ليس الأُلى التجروا بلا أثمان
أو كالطعامِ يلذُّ عندَ مساغِهِ ... لكنَّ عُقباهُ كما تجدان
هذا هو المثلُ الذي ضربَ الرسو ... لُ لهُ وذا في غايةِ التبيان
وإذا أردتَ لترى حقيقتَها فخذْ ... منهُ مثالاً واحدًا ذا شان
أدخلْ بجهدِكَ أصبعًا في اليمِّ وانـ ... ـظرْ ما تعلقهُ إذا بعيان
هذا هو الدنيا كذا قالَ الرسو ... لُ ممثلاً والحقُّ ذو تبيان
وكذاكَ مثلُها بطلُّ الدوحِ في ... وقتِ الحرورِ لقاتلِ الركبان
هذا ولو عدلتْ جناحَ بعوضةٍ ... عندَ الإلهِ الحقِّ في الميزان
لم يسقِ منها كافرًا من شربةٍ ... ماءً وكانَ الحقُّ[1] بالحرمان

---

(١) كذا في (ق، ط) وفي (ح، س) [أحق].

تالله ما عقل امرئ قد باع ما ... يبقى بما هو مضمحل فان
هذا ويقضي ثم يقضي حاكما ... بالخسر من سفه لذا الإنسان
إذ باع شيئا قدره فوق الذي ... يعاضه من هذه الأثمان
فمن السفيهة حقيقة إن كنت ذا ... عقل وأين العقل للسكران
والله لو أن القلوب شهدن ما ... كان شأن غير هذا الشان
نفس من الأنفاس هذا العيش إن ... قنعت به بالعيش الطويل الفاني
يا حسنة الشركاء مع عدم الوفا ... ء وطول جفوتها من الهجران
هل فيك معتبر فيدلو عاشق ... بمعارع العشاق كل زمان
لكن على تلك العيون غشاوة ... وعلى القلوب أكنة الشيطان
وأخو البصائر حاضر متيقظ ... متفرد عن زمرة العميان
يسمو إلى ذاك الرفيق الأرفع الـ ... أعلى وحلى القلب للصديان
والناس كلهم فصيان وإن ... بلغوا سوى الأفراد والوحدان
وإذا رأى ما بثثته قال مو ... عدك الجنان وجد في الأذان
وإذا أبيت إلا الجناح أغاضها ... بالعلم بعد حقائق الإيمان
ويرى من الخسران بيع الدائم الـ ... باقي به يا ذلة الخسران
ويرى مصارع أهلها من حوله ... وقلوبهم كمراجل القران
حمراتها من الوقود فإن خبت ... زادت سعيرا بالوقود الفاني
جاءوا فرادى مثل ما خلقوا بلا ... مال ولا أهل ولا إخوان
ما معهم شيء سوى الأعمال فيـ ... ـهن متاجر للنار أو لجنان
تسعى بهم أعمالهم سوقا إلى الـ ... دارين سوق الخيل بالرسان
صاروا قليلا فاستراحوا ذاهبا ... يا عزة الموقي للإنسان
حمدوا التقى عند الممات كذا الرى ... عند الصباح فحذذا الحمذان
وحدت بهم عزماتهم نحو العلا ... وسروا فما نزلوا إلى لغان
باعوا الذي يفنى من الخزف الخبيـ ... ـث بدائم من خالص العقيان

رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلَامُ السَّعَا ... دَةِ وَالْهُدَى يَا ذِلَّةَ الْحَيْرَانِ
فَتَسَابَقَ الْأَقْوَامُ وَابْتَدَرُوا لَهَا ... كَتَسَابُقِ الْفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ
وَأَخُو الْهُوَيْنَى فِي الدِّيَارِ مُخَلَّفٌ ... مَعَ شَكْلِهِ يَا خَيْبَةَ الْكَسْلَانِ

فصل

في رغبة قائلها إلى من يقف عليها من أهل العلم والإيمان أن يتجرد لله ويحكم عليها بما يوجبه الدليل والبرهان فإن رأى حقًّا قبله وحمد الله عليه وإن رأى باطلاً عرف به وأرت إليه

يَأَيُّهَا الْقَارِي لَهَا اجْلِسْ مَجْلِسَ الْـ ... ـحَكَمِ الْأَمِينِ أَتَى لَهُ الْخَصْمَانِ
وَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ حُكْمًا يَشْهَدُ الْـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ بِهِ مَعَ الْقُرْآنِ
وَاحْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَةً عَنْ كُفْرِهِ ... حَتَّى تُعَارِضَهَا بِلَا عُدْوَانِ
فَإِذَا فَعَلْتَ فَعِنْدَهُ أَمْثَالُهَا ... فَنِزَالِ آخِرَ دَعْوَةِ الْفُرْسَانِ
فَالْكُفْرُ لَيْسَ سِوَى الْعِنَادِ وَرَدِّ مَا ... جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لِقَوْلِ فُلَانِ
فَانْظُرْ لَعَلَّكَ هَكَذَا دُونَ الَّذِي ... قَدْ قَالَهَا فَتَفُوزَ بِالْخُسْرَانِ
فَالْحَقُّ شَمْسٌ وَالْعُيُونُ نَوَاظِرٌ ... لَا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى الْعِمْيَانِ
وَالْقَلْبُ يَعْمَى عَنْ هُدَاهُ مِثْلَ مَا ... تَعْمَى وَأَعْظَمُ هَذِهِ الْعَيْنَانِ
هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْ ... بَعَةٍ وَكُلُّهُمُ ذَوُو أَضْغَانِ
فَظٌّ غَلِيظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ ... ضَخْمُ الْعِمَامَةِ وَاسِعُ الْأَرْدَانِ
مُتَفَيْهِقٌ مُتَضَلِّعٌ بِالْجَهْلِ ذُو ... صَلَعٍ وَذُو جَلَحٍ مِنَ الْعِرْفَانِ
مُزْجَى الْبِضَاعَةِ فِي الْعُلُومِ وَإِنَّهُ ... زَاجٍ مِنَ الْإِيهَامِ وَالْهَذَيَانِ
يَشْكُو إِلَى اللهِ الْحُقُوقَ تَظَلُّمًا ... مِنْ جَهْلِهِ كَشِكَايَةِ الْأَبْدَانِ
مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الْوَرَى ... وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الرَّحْمَنِ
عَجَّتْ فُرُوجُ الْخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ ... وَحُقُوقُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدَّيَّانِ
مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ وَالتَّـ ... ـبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْبُهْتَانِ

فَإِذَا تَيَقَّنَ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ عِنْـ ـدَ تَقَابُلِ الْفُرْسَانِ فِي الْمَيْدَانِ
قَالَ اشْتَكُوهُ إِلَى الْقُضَاةِ فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا وَإِلَّا اشْكُوهُ لِلسُّلْطَانِ
قُولُوا لَهُ هَذَا يَحِلُّ الْمِلْكَ بَلْ هَذَا يَزِيلُ الْمِلْكَ مِثْلَ فُلَانِ
فَاعْقِرْهُ مِنْ قَبْلِ اشْتِدَادِ الْأَمْرِ مِنْـ ـهُ بِقُوَّةِ الْأَتْبَاعِ وَالْأَعْوَانِ
وَإِذَا دَعَاكُمْ لِلرَّسُولِ وَحُكْمِهِ فَادْعُوهُ كُلُّكُمْ لِرَأْيِ فُلَانِ
وَإِذَا اجْتَمَعْتُمْ فِي الْمَجَالِسِ فَالْغَطُوا وَالْغَوْا إِذَا مَا احْتَجَّ بِالْقُرْآنِ
وَاسْتَنْصِرُوا بِمَحَاضِرٍ وَشَهَادَةٍ قَدْ أُصْلِحَتْ بِالرِّفْقِ وَالْإِتْقَانِ
لَا تَسْأَلُوا الشُّهَدَاءَ كَيْفَ تَحَمَّلُوا وَبِأَيِّ وَقْتٍ بَلْ بِأَيِّ مَكَانِ
وَارْفُوا شَهَادَتَهُمْ وَمَشُّوا حَالَهَا بَلْ أَصْلِحُوهَا غَايَةَ الْإِمْكَانِ
وَإِذَا هُمُ شَهِدُوا فَزَكُّوهُمْ وَلَا تَصْغُوا لِقَوْلِ الْجَارِحِ الطَّعَّانِ
قُولُوا الْعَدَالَةُ مِنْهُمُ قَطْعِيَّةٌ لَسْنَا نُعَارِضُهَا بِقَوْلِ فُلَانِ
ثَبَتَتْ عَلَى الْحُكَّامِ بَلْ حَكَمُوا بِهَا فَالطَّعْنُ فِيهَا لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ
مَنْ جَاءَ يَقْدَحُ فِيهِمْ فَلْيَتَّخِذْ ظَهْرًا كَمِثْلِ حِجَارَةِ الصَّوَّانِ
وَإِذَا هُوَ اسْتَعْدَاهُمُ فَجَوَابُكُمْ أَتَرُدُّهَا بِعَدَاوَةِ الْأَدْيَانِ

فصل

في حال العدو الثاني

أَوْ حَاسِدٍ قَدْ بَاتَ يَغْلِي صَدْرُهُ بِعَدَاوَتِي كَالْمِرْجَلِ الْمَلْآنِ
لَوْ قُلْتُ هَذَا الْبَحْرُ قَالَ مُكَذِّبًا هَذَا السَّرَابُ يَكُونُ بِالْقِيعَانِ
أَوْ قُلْتُ هَذِي الشَّمْسُ قَالَ مُبَاهِتًا الشَّمْسُ لَمْ تَطْلُعْ إِلَى ذَا الْآنِ
أَوْ قُلْتُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ غَضِبَ الْخَبِيثُ وَجَاءَ بِالْكِتْمَانِ
أَوْ حَرَّفَ الْقُرْآنَ عَنْ مَوْضُوعِهِ تَحْرِيفَ كَذَّابٍ عَلَى الْقُرْآنِ
صَالَ النُّصُوصُ عَلَيْهِ فَهْوَ بِدَفْعِهَا مُتَوَكِّلٌ بِالدَّأْبِ وَالدَّيْدَانِ
فَكَلَامُهُ فِي النَّصِّ عِنْدَ خِلَافِهِ مِنْ بَابِ دَفْعِ الصَّائِلِ الطَّعَّانِ

فَالْقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَدْلُولِهِ ... كَيْلاَ يَصُولَ إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ

فصل

في حال العدو الثالث

وَالثَّالِثُ الأَعْمَى الْمُقَلِّدُ ذَيْنِكَ الرَّ ... جُلَيْنِ قَائِدُ زُمْرَةِ الْعِمْيَانِ

فَاللَّعْنُ وَالتَّكْفِيرُ وَالتَّبْدِيعُ وَالتَّـ ... ـضْلِيلُ وَالتَّفْسِيقُ بِالْعُدْوَانِ

فَإِذَا هُمُ سَأَلُوهُ مُسْتَنِدًا لَهُ ... قَالَ اسْمَعُوا مَا قَالَهُ الرَّجُلاَنِ

فصل

في حال العدو الرابع

هَذَا وَرَابِعُهُمْ وَلَيْسَ بِكَلْبِهِمْ ... حَاشَا الْكِلاَبَ الآكِلِي الأَنْتَانِ

خِنْزِيرُ طَبْعٍ فِي خَلِيقَةِ نَاطِقٍ ... مُتَسَوِّفٍ بِالْكِذْبِ وَالْبُهْتَانِ

كَالْكَلْبِ يَتْبَعُهُمْ يَمَشْمِشُ أَعْظُمًا ... يَرْمُونَهَا وَالْقَوْمُ لِلُّحْمَانِ

يَتَفَكَّهُونَ بِهَا رَخِيصًا سِعْرُهَا ... مَيْتًا بِلاَ عَوَضٍ وَلاَ أَثْمَانِ

هُوَ فَضْلَةٌ فِي النَّاسِ لاَ عِلْمٌ وَلاَ ... دِينٌ وَلاَ تَمْكِينُ ذِي سُلْطَانِ

فَإِذَا رَأَى شَرًّا تَحَرَّكَ يَبْتَغِي ... ذِكْرًا كَمِثْلِ تَحَرُّكِ الثُّعْبَانِ

لِيَزُولَ مِنْهُ أَذَى الْكَسَادِ فَيَنْفَقَ الْـ ... ـكَلْبُ الْعَقُورُ عَلَى ذُكُورِ الضَّانِ

فَبَقَاؤُهُ فِي النَّاسِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ ... مِنْ عَسْكَرٍ يَعْزَى إِلَى غَازَانِ

هَذِي بِضَاعَةُ ضَارِبٍ فِي الأَرْضِ يَبْـ ... ـغِي تَاجِرًا يَبْتَاعُ بِالأَثْمَانِ

وَجَدَ التُّجَّارَ جَمِيعَهُمْ قَدْ سَافَرُوا ... عَنْ هَذِهِ الْبُلْدَانِ وَالأَوْطَانِ

إِلاَّ الصَّعَافِقَةَ الَّذِينَ تَكَلَّفُوا ... أَنْ يَتْجَرُوا فِينَا بِلاَ أَثْمَانِ

فَهُمُ الزَّبُونُ لَهَا فَبِاللهِ ارْحَمُوا ... مِنْ بَيْعَةٍ مِنْ مُفْلِسٍ مِدْيَانِ

يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا بِحَقِّكَ تَاجِرًا ... قَدْ طَافَ بِالآفَاقِ وَالْبُلْدَانِ

مَا كُلُّ مَنْقُوشٍ لَدَيْهِ أَصْفَرِ ... ذَهَبًا يُرَاهُ خَالِصَ الْعِقْيَانِ
وَكَذَا الزُّجَاجُ وَدُرَّةُ الْغَوَّاصِ فِي ... تَمْيِيزِهِ مَا إِنْ هُمَا مِثْلَانِ

فصل
في توجه أهل السنة إلى رب العالمين
أن ينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين

هَذَا وَنَصْرُ الدِّينِ فَرْضٌ لَازِمٌ ... لَا لِلْكِفَايَةِ بَلْ عَلَى الْأَعْيَانِ
بِيَدٍ وَإِمَّا بِاللِّسَانِ فَإِنْ عَجَزْ ... تَ فَبِالتَّوَجُّهِ وَالدُّعَا بِجَنَانِ
مَا بَعْدَ ذَا وَاللهِ لِلإِيمَانِ حَبْ ... بَةُ خَرْدَلٍ يَا نَاصِرَ الإِيمَانِ
بِحَيَاةِ وَجْهِكَ خَيْرِ مَسْئُولٍ بِهِ ... وَبِنُورِ وَجْهِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ
وَبِحَقِّ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَهَا ... مِنْ غَيْرِ مَا عِوَضٍ وَلَا أَثْمَانِ
وَبِحَقِّ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ جَمِي ... عَ الْخَلْقِ مُحْسِنَهُمْ كَذَاكَ الْجَانِي
وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَكَ الْحُسْنَى مَعًا ... بِهَا نَعُوتُ النَّدْبَ لِلرَّحْمَنِ
وَبِحَقِّ حَمْدِكَ وَهُوَ حَمْدٌ وَاسِعُ الْـ ... أَكْوَانِ بَلْ أَضْعَافُ ذِي الأَكْوَانِ
وَبِأَنَّكَ اللهُ الإِلَهُ الْحَقُّ مَعْـ ... ـبُودُ الْوَرَى مُتَقَدِّسٌ عَنْ ثَانِ
بَلْ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاكَ فَبَاطِلٌ ... مِنْ دُونِ عَرْشِكَ لِلثَّرَى التَّحْتَانِي
وَبِكَ الْمَعَاذُ وَلَا مَلَاذَ سِوَاكَ أَلْـ ... ـتَ غِيَاثُ كُلِّ مُلَدَّدٍ لَهْفَانِ
مَنْ ذَا لِلْمُضْطَرِّ يَسْمَعُهُ سِوَا ... كَ يُجِيبُ دَعْوَتَهُ مَعَ الْعِصْيَانِ
إِنَّا نُوَجِّهُنَا إِلَيْكَ لِحَاجَةٍ ... نُرْضِيكَ طَالِبُهَا أَحَقُّ مُعَانِ
فَاجْعَلْ قَضَاهَا بَعْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِي ... سَبَغَتْ عَلَيْنَا مِنْكَ كُلَّ زَمَانِ
انْصُرْ كِتَابَكَ وَالرَّسُولَ وَدِينَكَ الْـ ... ـعَالِي الَّذِي أَنْزَلْتَ بِالْبُرْهَانِ
وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ وَاصْطَفَيْـ ... ـتَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ
وَرَضِيتَهُ دِينًا لِمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ ... هَذَا الْوَرَى هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ

وَأَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ الْمَبْعُوثِ بِالـ ... ـدِّينِ الْحَنِيفِ بِنَصْرِهِ الْمُتَدَانِ

وَالنُّصْرَةُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ كَمِثْلِ مَا ... قَدْ كُنْتَ تَنْصُرُهُ بِكُلِّ زَمَانِ

يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى ... حِزْبِ الضَّلَالِ وَعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ

يَا رَبِّ وَاجْعَلْ شَرَّ حِزْبَيْنَا فِدًى ... لِحِمَارِهِمْ وَلِعَسْكَرِ الْقُرْآنِ

يَا رَبِّ وَاجْعَلْ حِزْبَكَ الْمَنْصُورَ أَهْـ ... ـلَ قَرَاحِمٍ وَتَوَاصُلٍ وَتَدَانِ

يَا رَبِّ وَارْحَمْهُمْ[1] مِنَ الْبِدَعِ الَّتِي ... قَدْ أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ كُلَّ زَمَانِ

يَا رَبِّ جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَا الَّتِي ... تُفْضِي بِسَالِكِهَا إِلَى النِّيرَانِ

يَا رَبِّ وَاهْدِهِمْ بِنُورِ الْوَحْيِ كَيْ ... يَصِلُوا إِلَيْكَ فَيَظْفَرُوا بِجِنَانِ

يَا رَبِّ كُنْ لَهُمْ وَلِيًّا نَاصِرًا ... وَاحْفَظْهُمُ مِنْ فِتْنَةِ الْفُتَّانِ

وَانْصُرْهُمُ يَا رَبِّ بِالْحَقِّ الَّذِي ... أَنْزَلْتَهُ يَا مُنْزِلَ الْقُرْآنِ

يَا رَبُّ إِنَّهُمُ هُمُ الْغُرَبَاءُ قَدْ ... لَجَئُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

يَا رَبُّ قَدْ عَادُوا لأَجْلِكَ كُلَّ مَنْـ ... ـذَا الْخَلْقِ إِلاَّ صَادِقَ الإِيمَانِ

قَدْ فَارَقُوهُمْ فِيكَ أَحْوَجَ مَا هُمُ ... ذُلًّا إِلَيْهِمْ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

وَرَضُوا وَلاَيَتَكَ الَّتِي مَنْ نَالَهَا ... نَالَ الأَمَانَ وَنَالَ كُلَّ أَمَانِي

وَرَضُوا بِوَحْيِكَ مِنْ سِوَاهُ وَمَا ارْتَضَوْا ... بِسِوَاهُ مِنْ آرَاءِ ذِي الْهَذَيَانِ

يَا رَبِّ ثَبِّتْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ وَاجْـ ... ـعَلْهُمْ هُدَاةً تَالِيهِ الْحَيْرَانِ

وَانْصُرْ عَلَى حِزْبِ الْغُوَاةِ عَسَاكِرَ الـ ... إِثْبَاتِ أَهْلَ الْحَقِّ وَالْعِرْفَانِ

وَأَقِمْ لأَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الـ ... أَنْصَارَ وَانْصُرْهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

وَاجْعَلْهُمُ لِلْمُتَّقِينَ أَئِمَّةً ... وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا مَعَ الإِيقَانِ

نَهْدِي بِأَمْرِكَ لاَ بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا ... وَدَعَوْا إِلَيْهِ النَّاسَ بِالْعُدْوَانِ

وَأَعِزَّهُمْ بِالْحَقِّ وَانْصُرْهُمْ بِهِ ... نَصْرًا عَزِيزًا أَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمُ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ ... فَلأَنْتَ أَهْلُ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ

وَلَكَ الْمَحَامِدُ كُلُّهَا حَمْدًا كَمَا ... يُرْضِيكَ لاَ يَفْنَى مَدَى الأَزْمَانِ

---

(١) في كذا في (ط) وفي (ح، ق، س) [واحمهم].

مِلْءَ السَّمَوَاتِ الْعُلاَ وَالأَرْضِ وَالـ ـمَوْجُودِ بَعْدُ وَمُنْتَهَى الإِمْكَانِ
مِمَّا تَشَاءُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ حَمْدًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ بِزَمَانِ
وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالـ ـتَّسْلِيمِ مِنْكَ وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ
وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا وَالأُلَى لِيَعُومُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ

*

وبهذا تمت

القصيدة النونية

المسماة بالكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

بفضل الله ومنته إنه جواد كريم

******

فهرست الموضوعات

مقدمة ٥
ترجمة المؤلف ٩
صور النسخ المعتمد عليها ١١
تقديم (الشارح) ١٩
تمهيد (الشارح) ٢١
خطبة القصيدة النونية للمؤلف قبل الشروع في النظم ٢٢
فصل فيه عشرة أمثال نافعة ضربها المؤلف ٢٩
بداية القصيدة ٣١
فصل في مقدمة نافعة ٥١
فصل وهذا أول عقد مجلس التحكيم ٥٦
فصل في قدوم ركب آخر ٦١
فصل في قدوم ركب آخر ٦٢
فصل في قدوم ركب آخر ٦٤
فصل في قدوم ركب الإيمان وعسكر القرآن ٧١
فصل في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في القرآن ٨١
فصل في مذهب الاقترانية ٨٢
فصل في مذهب القائلين بأنه متعلق بالمشيئة والإرادة ٨٣
فصل في مذهب الكرامية ٨٥
فصل في ذكر مذهب أهل الحديث ٨٦
فصل في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام ٨٩
فصل في إلزامهم التشبيه للرب بالجماد الناقص إذا انتفت صفة الكلام ٩١
فصل في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق حقه وباطله عين كلام الله سبحانه ٩٢
فصل في التفريق بين الخلق والأمر ٩٣

فصل في التفريق بين ما يضاف إلى الرب تعالى من الأوصاف والأعيان ٩٥
فصل في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب جل جلاله ٩٩
فصل في مقالات طوائف الاتحادية في كلام الرب جل جلاله ١٠٢
فصل في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية الرب تعالى وكلامه والانفصال عنه .. ١١٣
فصل في الرد على الجهمية المعطلة القائلين بأنه ليس على العرش إلهٌ يعبد ولا فوق السموات إله يصلى له ويسجد وبيان فساد قولهم عقلاً ونقلاً ولغةً وفطرة ١٢١
فصل في سياق هذا الدليل على وجه آخر ١٢٤
فصل في الإشارة إلى الطرق النقلية الدالة على أن الله تعالى فوق سمواته على عرشه. ١٢٦
فصل في الإشارة إلى ذلك من السنة ١٦٣
فصل في جناية التأويل على ما جاء به الرسول والفرق بين المردود منه والمقبول ١٦٧
فصل فيما يلزم مدعي التأويل لتصحيح دعواه ١٧١
فصل في طريقة ابن سينا وذويه من الملاحدة في التأويل ١٧٢
فصل في شُبَه المحرفين للنصوص باليهود وإرثهم التحريف منهم وبراءة أهل الإثبات مما رموهم به من هذا الشَّبَه ١٧٥
فصل في بيان بُهتانهم في تشبيه أهل الإثبات بفرعون ، وقولهم : إن مقالة العلو عنه أخذوها وأنَّهم أولى بفرعون وهم أشْبَاهُهُ ١٧٧
فصل في بيان تدليسهم وتلبيسهم الحق بالباطل ١٧٨
فصل في بيان سبب غلطهم في الألفاظ والحكم عليها باحتمال عدة معان حتى أسقطوا الاستدلال بها ١٨١
فصل في بيان شبه غلطهم في تجريد اللفظ بغلط الفلاسفة في تجريد المعاني ١٨٤
فصل في بيان تناقضهم وعجزهم عن الفرق بين ما يجب تأويله وما لا يجب ١٨٦
فصل في المطالبة بالفرق بين ما يتأول وما لا يتأول ١٩٠
فصل في ذكر فرق لهم آخر وبيان بطلانه ١٩٢
فصل في بيان مخالفة طريقهم لطريق أهل الاستقامة عقلاً ونقلاً ١٩٣
فصل في بيان كذبهم ورميهم أهل الحق بأنَّهُمْ أَشْبَاهُ الخوارج وبيان شبههم المحقق بالخوارج ١٩٧

فصل في تلقيبهم أهل السنة بالحشوية وبيان من أولى بالوصف المذموم من هذا اللقب من الطائفتين وذكر أول من لقب به أهل السنة أم أهل البدعة ٢٠٣
فصل في بيان عدوانهم في تلقيب أهل القرآن والحديث بالمجسمة وبيان أنَّهُمْ أولى بكل لقبٍ خبيث ٢٠٥
فصل في بيان مورد أهل التعطيل وأنَّهم تعوَّضُوا بالقُلُوط عن السلسبيل ٢٠٧
فصل في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن ... ٢٠٩
فصل في بطلان قول الملحدين أن الاستدلال بكلام الله ورسوله لا يفيد العلم واليقين ٢١٥
فصل في تنزيه أهل الحديث والشريعة عن الألقاب القبيحة الشنيعة ٢٢١
فصل في نكتة بديعة تبين ميراث الملقِّين والملقَّين من المشركين والموحدين ٢٢٢
فصل في بيان اقتضاء التجهم والجبر والإرجاء للخروج عن جميع ديانات الأنبياء .. ٢٢٤
فصل في جواب الرب تبارك وتعالى يوم القيامة إذا سأل المعطل والمشبه عن قول كل منهما ٢٢٧
فصل في تحميل أهل الإثبات للمعطلين شهادةً تؤدي عند رب العالمين ٢٣٠
فصل في عهود المثبتين مع رب العالمين ٢٣٦
فصل في شهادة أهل الإثبات على أهل التعطيل أنه ليس في السماء إله يعبد ولا لله بيننا كلامٌ ولا في القبر رسول الله ٢٣٧
فصل في الكلام في حياة الأنبياء في قبورهم ٢٣٨
فصل فيما احتجوا به على حياة الرسل في القبور ٢٤٠
فصل في الجواب عما احتجوا به في هذه المسألة ٢٤١
فصل في كسر المنجنيق الذي نصبه أهل التعطيل على معاقل الإيمان وحصونه جيلاً بعد جيل ٢٤٨
فصل في أحكام هذه التراكيب السنية ٢٥٣
فصل في أقسام التوحيد والفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد النفاة المعطلين ٢٥٩
فصل في النوع الثاني من أنواع التوحيد لأهل الإلحاد ٢٦٠
فصل في النوع الثالث من التوحيد لأهل الإلحاد ٢٦١
فصل في النوع الرابع من أنواعه ٢٦١

فصل في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين ٢٦٣
فصل في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت ٢٦٥
فصل في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين وذكر انقسام الملحدين ٢٨٩
فصل في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين ٢٩٢
فصل في صفّ العسكرين وتقابل الصفين واستدارة رحى الحرب العوان وتصاول الأقران ٢٩٦
فصل في عقد الهدنة والأمان الواقع بين المعطلة وأهل الإلحاد حزب جنكسخان ... ٣٠٠
فصل في مصارع النفاة والمعطلين بأسنة أمراء الإثبات الموحدين ٣٠٢
فصل في بيان أن المصيبة التي حلت بأهل التعطيل والكفران من جهة الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان ٣٠٥
فصل في كسر الطاغوت الذي نفوا به صفات ذي الملكوت والجبروت ٣٠٩
فصل في مبدأ العداوة الواقعة بين المثبتين الموحدين وبين النفاة المعطلين ٣١٤
فصل في بيان أن التعطيل أساس الزندقة والكفران والإثبات أساس العلم والإيمان . ٣١٧
فصل في بَهْت أهل الشرك والتعطيل في رميهم أهل التوحيد والإثبات بتنقيص الرسول ٣٢٠
فصل في تعيين أن اتباع السنة والقرآن طريقة النجاة من النيران ٣٢٨
فصل في تيسير السير إلى الله على المثبتين الموحدين وامتناعه على المعطلين والمشركين ٣٣١
فصل في ظهور الفرق بين الطائفتين وعدم التباسه إلا على من ليس بذي عينين ٣٣٤
فصل في التفاوت بين حظ المثبتين والمعطلين من وحي رب العالمين ٣٣٥
فصل في بيان الاستغناء بالوحي المنزَّل من السماء عن تقليد الرجال والآراء..... ٣٣٨
فصل في بيان شروط كفاية النصين والاستغناء بالوحيين ٣٤٢
فصل في لازم المذهب هل هو مذهب أم لا؟ ٣٤٦
فصل في الرد عليهم في تكفيرهم أهل العلم والإيمان وذكر انقسامهم إلى أهل الجهل والتفريط والبدع والكفران ٣٥٠
فصل في تلاعب المكفرين لأهل السنة والإيمان بالدين كتلاعب الصبيان ٣٥٥
فصل في أن أهل الحديث هم أنصار رسول الله ﷺ وخاصته ولا يبغض الأنصار رجل

يؤمن بالله واليوم الآخر ٣٥٨
فصل في تعين الهجرة من الآراء والبدع إلى سنته كما كانت فرضًا من الأمصار إلى بلدته عليه الصلاة والسلام ٣٦١
فصل في ظهور الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة المعطلين ٣٦٤
فصل في شكوى أهل السنة والقرآن وأهل التعطيل والآراء المخالفين للرحمن ٣٦٧
فصل في أذان أهل السنة الأعلام بصريحها جهرًا على رءوس منابر الإسلام ٣٧٠
فصل في تلازم التعطيل والشرك ٣٧٣
فصل في بيان أن المعطل شر من المشرك ٣٧٥
فصل في مَثَل المشرك والمعطل ٣٧٩
فصل فيما أعد الله تعالى من الإحسان للمتمسكين بكتابه وسنة رسوله ﷺ عند فساد الزمان ٣٨٠
فصل فيما أعد الله تعالى في الجنة لأوليائه المتمسكين بالكتاب والسنة ٣٨٧
فصل في صفة الجنة التي أعدها الله ذو الفضل والمنة لأوليائه المتمسكين بالكتاب والسنة ٣٨٨
فصل في عدد درجات الجنة وما بين كل درجتين ٣٨٨
فصل في أبواب الجنة ٣٨٩
فصل في مقدار ما بين الباب والباب منها ٣٨٩
فصل في مقدار ما بين مصراعي الباب الواحد منها ٣٨٩
فصل في مفتاح باب الجنة ٣٩٠
فصل في منشور الجنة الذي يوقع به لصاحبها ٣٩٠
فصل في صفوف أهل الجنة ٣٩١
فصل في أول زمرة تدخل الجنة ٣٩١
فصل في صفة الزمرة الثانية ٣٩١
فصل في تفاضل أهل الجنة في الدرجات العلا ٣٩٢
فصل في ذكر أعلى أهل الجنة منزلة وأدناهم ٣٩٢

فصل في ذكر سنّ أهل الجنة ٣٩٢
فصل في طول قامات أهل الجنة وعرضهم ٣٩٣
فصل في لحاهم وألوانهم ٣٩٣
فصل في لسان أهل الجنة ٣٩٣
فصل في ريح أهل الجنة من مسيرة كم يوجد ٣٩٣
فصل في أسبق الناس دخولاً إلى الجنة ٣٩٤
فصل في عدد الجنات وأجناسها ٣٩٥
فصل في بناء الجنة ٣٩٧
فصل في أرضها وحصبائها وتُربها ٣٩٧
فصل في صفة غرفاتها ٣٩٧
فصل في خيام أهل الجنة ٣٩٨
فصل في أرائكها وسررها ٣٩٨
فصل في أشجارها وثمارها وظلالها ٣٩٨
فصل في سماع أهل الجنة ٤٠٠
فصل في أنهار الجنة ٤٠١
فصل في طعام أهل الجنة ٤٠٢
فصل في شرابهم ٤٠٢
فصل في مصرف طعامهم وشرابهم وهضمه ٤٠٣
فصل في لباس أهل الجنة ٤٠٣
فصل في فرشهم وما يتبعها ٤٠٤
فصل في حُلِي أهل الجنة ٤٠٤
فصل في صفة عرائس الجنة وحسنهن وجمالهن ولذة وصالهن ومهورهن ٤٠٥
فصل في ذكر الخلاف بين الناس : هل تحبل نساء أهل الجنة أم لا؟ ٤١٢
فصل في رؤية أهل الجنة ربَّهم تبارك وتعالى ونظرهم إلى وجهه الكريم ٤١٣
فصل في كلام الرب جل جلاله مع أهل الجنة ٤١٧

فصل في يوم المزيد وما أعد لهم فيه من الكرامة ٤١٧
فصل في المطر الذي يصيبهم هناك ٤١٨
فصل في سوق الجنة التي ينصرفون إليها من ذلك المجلس ٤١٨
فصل في حاضم عند رجوعهم إلى أهليهم ومنازلهم ٤١٩
فصل في خلود أهل الجنة ودوام صحتهم ونعيمهم ٤٢٠
فصل في ذبح الموت بين الجنة والنار والرد على من قال إن الذبح لملك الموت وأن ذلك مجاز لا حقيقة له ٤٢٠
فصل في أن الجنة قيعان وأن غراسها الكلام الطيب والعمل الصالح ٤٢٢
فصل في إقامة المأتم على المتخلفين عن رفقة السابقين ٤٢٢
فصل في زهد أهل العلم والإيمان وإيثارهم الذهب الباقي على الخزف الفاني ٤٢٦
فصل في رغبة قائلها إلى من يقف عليها من أهل العلم والإيمان أن يتجرد لله ويحكم عليها بما يوجبه الدليل والبرهان فإن رأى حقًّا قبله وحمد الله عليه وإن رأى باطلاً عرف به وأرث إليه ٤٢٨
فصل في حال العدو الثاني ٤٢٩
فصل في حال العدو الثالث ٤٣٠
فصل في حال العدو الرابع ٤٣٠
فصل في توجه أهل السنة إلى رب العالمين أن ينصر دينه وكتابه ورسوله والمؤمنين ٤٣١
الفهرست ٤٣٤

إعداد
مركز أهل الحديث
للصف والتحقيق والبحث العلمي
ت/ ٠١٠٢٩٠٣٤١٩